

من MTV إلى مكة

كيف غير الإسلام حياتي؟

نقله إلى العربية

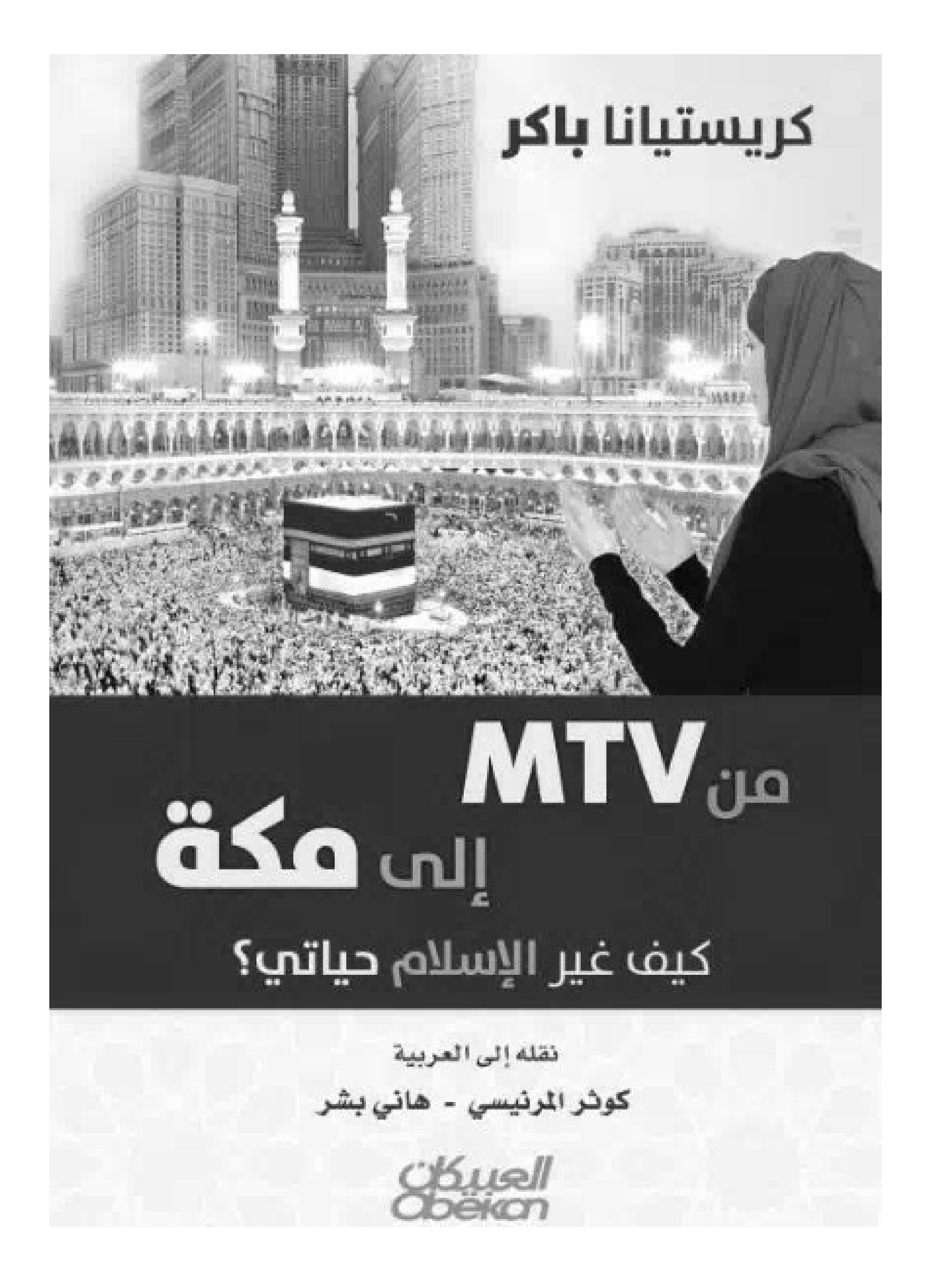
كوثر المرنيسي - هاني بشر

العبيكان
Obeikan

مكتبة الكندل العربية

مكتبة الرمحي أحمد

Telegram @read4lead



نقله إلى العربية

Original Title

FROM MTV TO MECCA

HOW ISLAM INSPIRED MY LIFE

Author:

.KRISTIANE BACKER

ISBN-10:1908129816

ISBN-13:978-1908129819

www.arcadiabooks.co.uk

www.awakening.org

شركة العبيكان للتعليم، 1436هـ

هرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر باكر، كريستيانا

من أم تي في إلى مكة / كريستيانا باكر؛ كوثر المرنيسي؛ هاني بشر.

- الرياض 1436هـ

420ص؛ 16,5 × 24سم

ج

ردمك: 7 - 790 - 503 - 603 – 978

1 - باكر، كريستيا نا 2 - اعتناق الإسلام 3 - الإسلام وانصرانية

د. المرنيسي، كوثر؛ بشر، هاني (مترجم) ب - العنوان

ديوي: 213 رقم الإيداع: 6465 / 1436

الطبعة العربية الأولى 1437 هـ - 2016م

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبد العزيز الأول هاتف

4808654 فاكس: 4808095 ص.ب: 67622 الرياض 11517

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpubshing.com

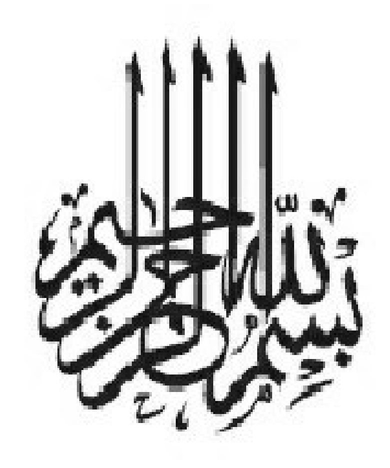
متجر العبيكان على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية — الرياض — المحمدية — طريق الأمير -ركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف٠ 4808654- فاذس٠ 4889023 ص.ب،62807 الر.يافف 11595



الفصل السابع عشر: وتستمر الرحلة

مقدمة الدكتور مراد هوفمان

تتمتع كريستيانا باكر بشخصية مميزة، وقد جمعت خبرات حياتية عدة في عمر قصير؛ فهي كاتبة، ونجمة إعلامية في قناة إم تي ڤي الأوروبية في لندن، وغيرها من القنوات، وهي أخيرًا أحد مشاهير الغربيين الذين دخلوا الإسلام.

يبدأ القارئ بالدخول معها في عالم ساحر، وأجواء شبابية لثقافة موسيقا التلفزيون عندما بزغت في أوروبا خلال حقبة التسعينيات. ثم تبحر معه إلى عالم آخر، تبدأ فيه رحلتها المخلصة إلى الله. فلم يحجب النجاح بصيرة هذه المرأة الجميلة، ولم يعقها عن البحث الدؤوب عن معنى حياتها. وهي لم تتحول فقط إلى الإسلام، بل سلكت سبيل المتصوفين العارفين، وأصبحت جزءًا من المجتمع الإسلامي في إنجلترا، حيث تعيش هناك منذ نحو عشرين سنة.

ولم تكن بريطانيا هي المحطة الأولى لهذه المذيعة الألمانية، فقد قادها مسلكها القلبي إلى ملحمة طويلة من عالم التسلية إلى عالم تنقية الروح، وطافت بها إلى مختلف أرجاء المعمورة. من باكستان إلى مصر والبوسنة، مرورًا بفلسطين وقطر والمغرب والولايات المتحدة، في رحلة ممتدة لم تفتها فيها زيارة السعودية، وأداء مناسك الحج والعمرة.

أثبتت كريستيانا أنها كاتبة رحلات موهوبة، ذات أسلوب سهل وجذاب. وهي إذ تكتب عن رحلتها الإيمانية، تتوقف عند محطات شخصيات إسلامية رائدة منها جاي إيتن (دبلوماسي سابق وأكاديمي)، ومصطفى سيريتش (المفتي الأكبر للبوسنة)، ومارتن لينجز (الشيخ الصوفي وكاتب: محمد من المصادر المبكرة)، والمطرب البريطاني يوسف إسلام (كات ستيفن سابقًا) وغيرهم على نحو ما سيرى القارئ خلال هذا الكتاب.

كانت كريستيانا أحد رموز عالم موسيقا البوب، جابت أوروبا ذهابًا وإيابًا لبرامج أم تي ڤي المتعددة، ومنها (تقرير كوكا كولا)، وأنشأت برنامجها الخاص (برافوتي في). وحين تتبوأ شابة جذابة صهوة المجد المهني، والنجاح الباهر، ثم تقرر أن تغير اتجاه حياتها لتتبع روحها وقلبها، فلا يمكن لقرارها هذا إلا أن يكون قرارًا شجاعًا جسورًا.

قابل ذلك التحول صعاب ومشكلات، دفعت ثمنها غاليًا، وفقدت وظيفتها على الرغم من حصدها جوائز عدة، منها جائزة الكاميرا الذهبية. وعلى الرغم من هذا، سخَّرت ملكاتها وخبرتها في مجال الصحافة والتلفزيون لخدمة أهداف دينها الجديد.

لا تترك كريستيانا مهربًا من التعاطف معها حين تقارن بكل أمانة بين خبرتها في عالم الترفيه ورحلتها الروحية، وتصف شعور الخواء الذي ينتابها بعد أن ترتقي قمة جديدة في حياتها المهنية، وأن ذاك الفراغ لم يكن ليملأه إلا الله.

إنه لمن المنطقي تماماً أن يقودها السعي إلى البحث عن الذات ومعنى الوجود إلى دين الإسلام فكما يظهر الكتاب، كانت تبحث عن معنى أعمق.

إن هذا الكتاب يأخذ القارئ إلى رحلة شخصية مقنعة في هذا الدين الجميل، ويظهر له كيف أن المسلم يبقى منفتحًا أيضًا على الديانات الأخرى.

مراد هوفمان

بون - ألمانيا

مقدمة المؤلفة

لو توقع لي أحد الناس منذ سنوات طويلة أنني سأعتنق الإسلام، لعددت ذلك مزحة، وأجبته بأن هذا مستحيل!

ولكن ما بدا لي مستحيلًا تحول بالمشيئة الإلهية إلى أمر واقع. فإرادة الله تسري حتى مع نجمة إم تي ڤي الألمانية. (إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) (سورة يسن: الآية 82).

تعرفت في أثناء عملي في محطة إم تي ڤي الأوروبية إلى لاعب (الكريكت) الباكستاني السابق عِمران خان في إحدى حفلات العشاء، وعرّفني إلى الدين الذي اعتنقته بعد ذلك. ووجدت نفسي فجأة أمام قيم تختلف عن تلك التي اعتدت عليها في عالم الترفيه. منها على سبيل المثال، قيمة التواضع، في مواجهة فكرة التباهي بما تحصل عليه. وكنت مثل كثيرين غيري أحمل أفكارًا سيئة عن الإسلام، كنت أراه أمرًا قديمًا صارمًا معاديًا للمرأة. ومع ذلك، بدأت البحث فيما وراء تلك الصورة النمطية، ودراسة الدين الذي اكتشفته. ووجدت رسالة واضحة أجابت عن أسئلة عميقة تتعلق بالحياة والموت. رسالة تشمل الأديان الأخرى، ولا تنكرها. وعندما بدأت قراءة القرآن، شعرت بأن الله يتحدث إليَّ.

تأثرت خلال رحلاتي المتعددة لباكستان بدفء الناس وكرمهم هناك، وبعمق إيمانهم بالله تعالى الذي يسود مناحي الحياة كافة هناك، بدءًا من روعة الفن والعمارة والموسيقا إلى الطعام وتقديم الشاي إلى الضيوف. كل شيء يتم هناك باسم الله.

ومع ذلك، تعلمت أيضًا كيف أميز بين جوهر الدين والممارسات الثقافية التي علقت به، وجذبني جمال المظهر والمخبر إلى أناس مقتنعين بهذه الرسالة. وعلى الرغم من ذلك، كانت الشكوك تساورني حول إمكانية

تحوُّل امرأة غربية عصرية مثلي إلى الإسلام. كنت أعي أن هذا الأمر سيغير حياتي. وفي النهاية، كان قرار الدخول في الإسلام روحيًّا. فأردت أن أصلي، وأتقرب إلى الله أكثر، وأذوق حلاوة الإيمان، وأجعل الإسلام طريقي في الحياة؛ لأنني عرفت أنه الحق.

حفلت رحلتي الطويلة بكثير من النجاحات والإخفاقات، الصعود والهبوط، المشكلات والتحديات. وأحد هذه التحديات كان فقداني عملي في ألمانيا بعدما نشرت الصحف نبأ اعتناقي الإسلام. لكن ديني الجديد ساعدني على تجاوز تلك العقبات. وسلكت سبيل الهجرة من بلدي الأصلي ألمانيا تاركة ورائي (إسلاموفوبيا) تنتشر، ووليت وجهي شطر بريطانيا، ولا أزاد في لندن حتى بعد انتهاء عملي الذي جئت من أجله لهذا البلد. فهنا أشعر بحرية ممارسة عقيدتي، ووجدت في بريطانيا من يساعدني على أمور تزكية النفس، وأضحت عاصمتها لندن موطني الروحي. ويقال: إنها من أفضل المدن لعيش المسلمين في أوروبا، ووجدت فعلًا مشهدًا اسلاميًّا يضم الثقافة والسياسة والفن.

كم هو رائع شعوري بالانتماء إلى الأمة الإسلامية، وإحساسي بروابط داخلية مع المسلمين في كل مكان. إن روح الأخوة في الله تمس شغاف قلبي دومًا، والناس لا يقدمون يد العون والدعم فحسب، بل يشعرون، ويضحون من أجل بعضهم بعضًا، وغايتهم إرضاء الله.

بدأ أيضًا حب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجد طريقه إلى قلبي كلما مررت بالأفكار المغلوطة عنه، وفهمت كيف كان قدوة في العدل والرفق والنبل، وحسن الصلة بالله أيضًا. لقد أرسله ربه رحمة للعالمين كما جاء في القرآن الكريم الذي يأمر كل مسلم باتباع منهجه.

إن تعاليم المصطفى صلى الله عليه وسلم تتجاوز الأمور الظاهرية التي

تشيع بين مسلمي اليوم، فهو القائل: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». فليس طول اللحية أو شكل الحجاب هو مايقودنا إلى الجنة، ولكن أفعالنا وما وقر في قلوبنا. مادعاني إلى تغيير حياتي هو جوهر هذا الدين وروحه، والصلة المباشرة بالله عزّ وجل. وعلمت من خبراتي أن الإبان يسموبنا، ويهدينا إلى ما يعجز عنه الترفيه الباطل، والنزعة الاستهلاكية التي لا تبلغنا الكمال الواجب، أو الرضا الصحيح. فلو اتخذنا الإخلاص فضيلة في معيشتنا، فسيحولنا والعالم حولنا نحو الأفضل. لقد أعطى الإسلام معنى لحياتي وهدفًا، وهو أن أعبد الله..أعبده ما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

رحلتي من إم تي ڤي إلى مكة هي رحلة من عالم التسلية الظاهرة إلى عالم الاعتناء الحقيقي بالنفس والروح، من عالم الظلام إلى عالم النور، من الفراغ إلى الإيمان.

أدعوكم لمصاحبتي في رحلتي الحافلة بالأحداث: من إم تي ڤي إلى مكة!

كريستيانا باكر

توطئة

هذه ليست قصة بل هي حكاية مليئة بالمواعظ، ولا كتابًا مباشرًا في الدعوة الإسلامية، بل هو حكاية من الحياة مرشحة للتكرار. إنها سيرة ذاتية روحية لكفاح صحفية غربية، ورحلة أدبية فنية فلسفية بلغة بسيطة لكنها عميقة المعنى، تعيد فيها كريستيانا اكتشاف ذاتها ومجتمعها، وترسم للقارئ كيف يشق هذا الدين العظيم طريقه في الثقافات المختلفة، وكيف يفجر الحب ينابيع التواصل بين البشر، ويطوي الزمان والمكان.

ربما تفتقد المكتبة العربية لمؤلفات مكتوبة بلغة شخصية جذابة؛ لأن أعداد الصحفيين الغربيين الذين دخلوا الإسلام ليست كثيرة. وهؤلاء هم الأقدر على الكتابة بلغة جمالية أدبية سلسة بمستوى احترافي، مثل مؤلفة هذا الكتاب التي ترصد فيه تفاصيل قد تبدو مهملة في الثقافة الإسلامية، إذ تفتح نافذة نطل منها على وصف عالم مليء بالألوان ورائحة الزهور والعطور، إضافة إلى مظاهر أخرى تتعلق بالمأكل والملبس والعلاقات الإنسانية.

نحن أمام تجربة إنسانية بكل ما تحمله هذه التجارب من نجاحات وإخفاقات، وهي دعوة إلى التفكير والفهم وسبر أغوار نفوس البشر. وفي ثنايا هذه الرحلة منحنيات ومنعطفات، يتعرف فيها القارئ إلى أكاديميين وصحفيين وموسيقيين غربيين، مسلمين وغير مسلمين.

ليس المطلوب من القارئ أن يوافق كريستيانا فيما أخذت به من آراء فقهية، فهي لا تعطي إجابات جاهزة، ولاتطرح أسئلة محيرة، ولكن تقدم مفاتيح، وتعزف ملحمة موسيقية متعددة الألحان.

إن هذا الكتاب هو أحد تجليات الدور التجديدي للمثقف المسلم في

القرن الحادي والعشرين في وظيفته الصحفية، حين يمسك بتلابيب المهنة، ويعمل عملَ مستكشف لتضاريس القلوب والعقول، فيقدم المعلومة في قالبها الإنساني، ويمحص الخبر، ويلوم نفسه ويقومها في سياحة تشمل الأنفس والآفاق. (سَنُرِيهِمْ ءَايَتِنَا فِى الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

(سورة فصلت: الآية 53)

هاني بشر

الفصل الأول

الرحلة إلى الشرق

بعمق الأنهر وعلو الجبال...

تينا ترنر

امتلأ الملعب الرياضي (الإستاد) عن آخره، فيما اصطفت سيارات بيضاء وسوداء من طراز ليموزين، وأغلقت الطرقات كلها المؤدية إلى المبنى المطل على ساحة وِستوود. ليلتها، حج كل من له شأن، وكل من لا شأن له في دنيا صناعة الموسيقا العالمية لأحد أهم المواعيد الموسيقية السنوية، وكنت موجودة في خضم ذلك الجمع الغفير مع بعض زملائي في محطة إم تي ڤي في لندن بصحبة مديرنا التنفيذي، برنت هانسن. فوجدت نفسي بين حشدٍ غفيرٍ من كبار الأسماء في عالم صناعة الموسيقا من مديري شركات التسجيل، ومسؤولي العلاقات العامة ووكلاء الفنانين، ناهيك عن كل شخصية استحقت أن تحظى ببطاقة دعوة لسهرة جوائز إم تي ڤي للفيديو كليب عام 992م، التي كانت تعرف باسم (جوائز أوسكار الشباب)، وتحتضنها مدينة لوس أنجلوس الأمريكية.

كان صخب السهرة ليلتها هائلًا، وكان عليّ أن أقدم لآني لينوكس من خلف الكواليس (الأماكن التي لا يراها المشاهدون) جائزة محطة إم تي ڤي لأفضل فيديو كليب نسائي. وكانت الجائزة عبارة عن تمثالٍ لرائد فضاء على سطح القمر. ولعل أهم ما ميّز تلك اللحظة بالنسبة إليّ، هو أنها كانت فرصة كي ألتقط صورة فوتوغرافية إلى جانب مغنية كان صوتها يعد حينها أجمل صوت تملكه امرأة بيضاء تبرع في غناء فن السول. ولأن مثل هذه الفرصة لا تتاح للمرء كل يوم، فقد كنت أتحرق شوقًا إلى لقاء تلك النجمة. وكانت هذه الفنانة الأسكتلندية من بين النساء القلائل في تلك

الأمسية اللائي كن ينعمن بجمال طبيعي. وعلى عكسها تمامًا، كانت جلّ نجمات لوس أنجلوس الصاعدات يعرضن جمالاً صناعيًّا قوامه لباس قصير وكشّاف، وشفاه، وصدور ضاعفَ الكولاجين من حجمها.وقد وافق انطباعي الشخصي هذا وصفٌ دقيقٌ لأحد مخرجي الأفلام خلال حفل (فانيتى فير)، الذي يلي حفل توزيع الجوائز، حيث قال: «المظهر الطبيعي غير مرحَّب به في عالم هوليوود، ولا سيما إن كان المرء يطمح إلى تحقيق النجاح...». أما الشبان، فقد كانوا يرتدون سراويل جينز، وقمصانًا بأكمام قصيرة، أو سراويل جلدية ضيقة. وكان كثير منهم يصرّ على الإبقاء على نظارته الشمسية داخل مكان السهرة، وحتى خلال وقت متأخر من الليل. وربما تجد تلك العادة تفسيرها في حرصهم على الظهور بمظهر متحر ر وغير متكلف، أولستر ما قد تفضحه أعينهم من أثر تناول المخدرات.

وعلى الرغم من أن الديكور العام الذي كان غريبًا ورائعًا في الوقت نفسه، فإنني استمتعت بتلك السهرة التي قدمها لأول مرة، الممثل دانا كارفي الذي يتمتع بروح مرحة وسرعة بديهة، تمكّنه من ارتجال المواقف الهزلية في أي وقت وحين. وقد تألّق كارفي في السلسلة الهزلية (واينز ورلد)، والبرنامج الليلي (ساترداي نايت لايف). وكان ممن شاركوا في إحياء السهرة التي تحتفي بأفضل كليبات الفيديو الموسيقية بعروض غنائية كلّ من: جانز آند روززد وريد هوت تشيلي ببرز، وديف ليبارد، وبيرل دجام، وذي بلاك كروز، وإريك كلابتن. وقد تلفظ بوبي براون بكلمة بذيئة مباشرة بعد أدائه أغنيته الناجحة هامبينج أراوند، على غرار ما جرت به العادة في عروض (الروك آند رول)، غير أن مقص الرقابة لم يتنبه للنيل منها. وطلبت محطة إم تي ڤي من مجموعة نيرفانا أن تؤدي أغنيتها الناجحة (سميلز لايك تين سبيريت)، في حين كانت المجموعة تفضل تقديم أغنيتيها الجديدتين (ريب مي) و(توريتس). وعلى الرغم من أن منفذي المحطة

ضغطوا على المجموعة بشدة لتقديم (تين سبريت)، لكنهم وافقوا في نهاية المطاف على أن تقدم المجموعة أغنية (ليثيوم)، وهو الاتفاق الذي أبدت مجموعة (نيرفانا) موافقتها عليه. لكن حين اعتلت المجموعة المنصة، بدأ مغني المجموعة الأساسي، كورت كوبين، يغني أغنية (ريب مي)، قبل أن يكمل بأغنية (ليثيوم). وقبل أن يبلغ نهاية الأغنية، طرأ عطب في مكبر صوت قيثارة كرست نوفوسيلتيك، فقرر الأخير أن يرميها عاليًا في السماء ليزيد من حماس الأجواء. وكان من سوء تقديره لحركته تلك أن القيثارة عادت لترتطم بجبهته؛ فأُجبر على مغادرة المنصة فور تلقّيه تلك الضربة الموجعة. ولحسن الحظ أن آلته لم تهوِ على جبهة شخص آخر!

كانت هذه الرحلة التي دامت أسبوعًا في مدينة(لا لا لاند)، كما يحلو لأصدقائي الإنجليز تسمية لوس أنجلوس، هدية شكر من برنت هانسن، احتفاءً بنجاح برنامج تقرير (كوكا كولا) الذي كنت أقدمه. ولم تكن الرسميات والتكلف من خصال برنت، وكانت تلك إحدى نقاط قوته، وجزءًا لا يتجزأ من نجاحه اللافت. وكان بشعره الطويل المتموج، أحد أبناء نيوزيلندا الذين تأثروا حتى الصميم بثقافة الهيبيز، وكان أقرب إلى عاشق موسيقا منه إلى رجل أعمال بالمعنى الحصري للكلمة. وكان أيضًا من المعجبين بالمغني برينس، إضافة إلى موسيقا الريف والغرب الأمريكي، وهو أمر كان يمازحه به كثير ممن يعرفونه.

جلست قرب برنت خلال ذلك الحفل، وبينا كنت أفكر في لقائي المرتقب مع آني لينوكس، شعرت بأن هناك شيئًا مختلفًا في تلك الليلة. لقد أحسست كما لو أن كل ذلك الحماس الذي كان يحيطني من كل جانب لم يعد يؤثر فيَّ، وكأني لم أكن حاضرة في ذلك المكان بكل جوارحي. لقد كنت غائبة فعلًا عن تلك السهرة بشكل من الأشكال، وكان خيالي يجنح بي في

أرض بعيدة كل البعد عن سهرة الجوائز تلك. وكنت قد سافرت إلى باكستان مباشرة قبل أن أذهب إلى لوس أنجلوس، وقمت في ذلك البلد النائي برحلة على الأقدام وسط جبال غطى الجليد قممها، وتلحفتُ بها سماءً مرصعةً بالنجوم، وعاشرت أناسًا بسطاءَ كان لدفئهم وكرمهم، ولإيمانهم بالله خاصة، تأثير كبير في نفسي. لقد كان الإيمان الذي لمسته في أولئك الناس أكبر من الإيمان الذي كان يشعر به أي من أولئك الذين كنت قد قابلتهم في عالم صناعة الترفيه. وقد عدت من باكستان، وأنا أحمل في وجداني صورًا وذكرياتٍ، كانت ترفض أن تتوافق مع العالم المصطنع والمزيف الذي وجدت نفسي فيه في قلب لوس أنجلوس. وأقل ما يمكنني قوله هو: إن تلك الصور والذكريات جعلت من العرض الساطع لفرق (الروك) يبدولي متناهيًا في الوهم والسطحية.

استمر العرض نحو خمس ساعات. وعلى الرغم من أنه كان من الرائع رؤية كثير من الفرق الغنائية الناجحة، فإن السهرة طالت أكثر من اللازم، وزاد وزر طولها ما تخللته من وصلات إعلانية لا نهاية لها. وكانت فقرات الحفل في أثنا؛ تلك الوصلات تتوقف تمامًا، ولم نكن نملك أن نغادر المكان. ثم بدأ طول السهرة يرزح بثقله على أجوا تلك الليلة. وسمعنا خلف الكواليس كورت كوبين وهو يتشاجر مع أكسل روز، وقبل أن تعتلي فرقة الأخير (جانز آند روز) المنصة، بصق كورت على البيانو. غير أن إلتون جون أخذ مكانه على البيانومحل أكسل لمرافقة الفرقة في أداء أغنية (نوفمبر رين)، ولا شك في أن ذلك قد أحرج كورت.

والتحفت لاحقًا، خلال تلك الليلة، أنا وبعض أعضاء فريق إم تي ڤي أوروبا بالحفل الذي جرت العادة بإقامته عقب سهرة الجوائز. وكان جوّ ذلك الحفل لطيفًا ودافئًا، وكانت الشامبانيا تنهمر على الكؤوس بلا توقف،

وكان الحاضرون يمررون سيجارات الحشيش بينهم. لقد كان للمرء أن يختار حضور حفلة من بين عدد هائل من الحفلات التي تعقب سهرة الجوائز. حيث كانت كل من مجلتي (رولينج ستون) و(فانيتي فير) تقيم حفلتها الخاصة. وكان لكل شركة تسجيل عملاقة حفل خاص بها. وإذا لم يكن لدينا بطاقات المرور الضرورية لحضور حفل معين، كنّا نجد طريقة تمكّننا بكل بساطة من الدخول إليه. وكان كل من قابلتهم يشتغلون إما في مجال الموسيقا أو السينما. ولم يكن أحد منهم يشتغل وفقًا لأوقات عمل محددة ورسمية. وقضينا ليلتنا في الحديث والرقص وشرب كؤوس الشامبانيا الواحدة تلو الأخرى.

وفي صبيحة اليوم الموالي، استيقظت من نومي وأنا في غرفتي بفندق موندريان الفخم، الذي يطل على شارع سانست، معتلة من أثر الشرب في الليلة السابقة. وبينما بقيت مستلقية في سريري الكبير والوثير أنتظر إحضار وجبة الإفطار لي، عادت مشاهد رحلتي الأخيرة لباكستان تداهم أفكاري من جديد.



«مرحبًا بكم في إسلام أباد! »

كانت تلك المرة الأولى التي أزور فيها بلدًا يدين جلّ سكانه بالإسلام، وعدد السياح فيه محدود جدًّا. وتبيّن لي في أثناء صعودنا إلى الطائرة، أني كنت وزميلتي في الدراسة، بريجيت، الوحيدتين من بين ركاب الطائرة من ذوي البشرة البيضاء، وقد أُذيع على مسامع الركاب نداءٌ بالعربية أو بالأردو. وعلى الرغم من أنني لم أفهم كلماته، فإنني خمنت أنه عبارة عن دعاء بأن نحظى برحلة آمنة. وكنت أنا وصديقتي مقبلتين على مغامرة حقيقية، حيث كنّا ننوي تسلق جبال الهمالايا، واكتشاف مدينة لاهور

المغولية القديمة.

وبعد رحلة استمرت ثماني ساعات، ما إن فتح مضيف الخطوط الدولية الباكستانية باب الطائرة الثقيل حتى اجتاحتنا حرارة العاصمة الباكستانية الشديدة. وخرجنا من مطار إسلام أباد، وتنسمنا هواء أرضٍ غير أرضنا. وأينما ذهبنا، كان الرجال كلهم يرتدون لباسًا يُسمى (شالوار قميص)، وهو الزي الوطني الباكستاني، ويتكون من قميص طويل وسروال واسع. كنت جدّ متحمسة للتعرف إلى هذا البلد وإلى أناسه. ولم يخطر ببالي ولو لحظة، أن دخولي هذا العالم الذي كان بعيدًا بكل المقاييس عن الحياة الصاخبة التي كنت منغمسة فيها في أغسطس 1992م سيغير مجرى حياتي إلى الأبد.



كنت أول مذيعة ألمانية تعمل في محطة إم تي ڤي أوروبا، وقد عشت بسبب ذلك تحت الأضواء خلال السنوات الثلاث التي سبقت رحلتي إلى باكستان. وكنت أمثّل أحد وجوه محطة إم تي ڤي في نظر جيل كامل من الشباب الذين كانت المحطة بالنسبة إليهم أكثر من مجرد وسيلة ترفيه؛ لأنها استطاعت أن تجعله يشعر بأنه جزء من ثقافة عالمية في طور الولادة، كانت تنادي وتنشر أسلوب حياة يقوم على المرح والموسيقا وطرق تعبير مبتكرة، وسلوك غير متكلف وبعيد عن الجد. وكنت أقدم برنامج (أفضل عشرين أغنية أوروبية) الذي كان يستقطب الملايين من المشاهدين، وهو أمر تطلب مني كثيرًا من الوقت كي أعتاد عليه. وكنت أنا وزملائي الآخرين من مقدِّمي البرامج أشبه بالأصدقاء لمشاهدينا من الشباب الأوروبي، حيث كنّا نوجد باستمرار وكل يوم في غرف معيشتهم ونومهم. أما إم تي ڤي فقد كانت أشبه بالسُّعار الذي أصاب أوروبا فجأة. لقد كانت الجماهير تنظر إلى كل واحد منّا على أنه مثال يحتذى، وكان معجبونا يمطروننا بأعداد

هائلة من الرسائل الإلكترونية. وكان أولئك الشباب يصغون إلى ما نقول، ويقلدون النمط الذي كنّا نقدمه عبر الشاشات.

كانت مسيرتي المهنية قبل بضعة أشهر من رحلتي إلى باكستان، قد عرفت نقلة نوعية حين بدأت في تقديم برنامج جديد، اسمه (تقرير كوكا كولا). وتطلب عملي في هذا البرنامج أن أتنقل على مراحل من بضعة أسابيع بين حفلات ومهرجانات رائعة في أرجاء أوروبا كلها، أحاور فيها نجومًا من أمثال، نينا تشيري، وداني مينوج، وميك جاجر، وليني كرافيتز. وسواء كنت في برلين أو إسطنبول أو أمستردام، فأينما ذهبت، وأشهرت مكبر الصوت (الميكروفون) في يدي، كانت جتاحني على الفور موجة من المعجبين الذين يتجمهرون حولي، ويتلقفون كل كلمة أنبس بها. فكان الأمر غريبًا بالنسبة إليّ بعض الشيء.



استغرق السفر منّا ساعات طوالًا في سيارة رباعية الدفع على طريق كاراكورام السيار. وقد مرّت على مدى قرون عدة، خلال طريق الحرير الأسطوري هذا، توابل ومنسوجات وعطور وغيرها من الكنوز من الشرق إلى الغرب. كانت الصخور الشامخة تتعالى في ارتفاعها الشاهق فوق رؤوسنا، في حين كان نهر السند يجري بخريره الهادر في أعماق وادٍ سحيق. وكنّا قد غادرنا إسلام أباد عند مطلع الفجر بصحبة مجموعة من الأصدقاء كان من بينهم لاعب (الكريكت) عِمران خان، الذي دعانا إلى هذه الرحلة، وموبي الذي يعمل في مجال العقارات، ودليلنا في تلك الرحلة، نعيم.

وبينما تعمقت بنا الطرق التي كانت تتخلل الجبال، كانت تلوح القمم الحادة لتطل علينا كأنها مخلوقات عملاقة، فيما كان حرّ المدينة يتضاءل تاركًا محله نسمات لطيفة في برودتها. وكان من المفترض أن تستغرق

رحلتنا لمكان مخيمنا في ناجار على بعد ثلاثة آلاف متر، يومين كاملين. ومع كل ميل كنّا نقطعه، شعرت بأن التوتر بداخلي يهدأ تدريجيًّا، وبقيت أطالع الطبيعة الخلابة من حولنا، في حين تتجلى لنا عظمة التضاريس في أجمل صورها. فشعرت أنا وصديقتي بريجيت حينها بأننا بعيدتان كل البعد عن وطننا. وكانت بريجيت امرأة جميلة وطويلة القامة، وكان شعرها أسودًا كثيفًا، ووجهها أشبه بوجه الممثلة إليزابيث تايلور حين كانت في ريعان شبابها، وكانت ذات عينين عسليتين. وكلما مررنا بنقطة تفتيش عسكرية، كنّا نتلحف بالشال (ملحفة من القماش)، ونغض بصرنا في احتشام، ممتَثلتين في ذلك لطلب عِمران، وذلك حتى نبدو كالباكستانيات. وهكذا كنّا نجتاز حاجزًا تلو آخر دون أي مشكلات. وما إن كان الحراس يتعرفون إلى عِمران، حتى كانوا يفتحون أمامنا الحواجز، ويسهّلون لنا المرور دون أن يتحققوا ما إذا كنّا نملك تصاريح المرور. وفي حقيقة الأمر، لم نكن نملك تلك التصاريح. وكلما ارتفعت بنا الطرق في أعاني الجبال كان يصعب علينا أكثر أن ننظر عبر نافذة السيارة. فعلى جهة من سيارة الدفع الرباعي، لم يكن يفصلنا شيء، ولا حتى حاجز بسيط، عن الهوة السحيقة التي كانت تهوي آلاف الأمتار. ثم إن الطريق كان يضيق لينحسر في ممر واحد، وكانت كل سيارة قادمة من جهته المقابلة خطرًا محقَّقًا كان علينا تخطيه.

تناوب عِمران ونعيم على القيادة، فكانا يتحكمان بكل مهارة في السيارة التي كانت تقلنا عبر الطرق الجبلية الملتوية. وبينما لم يبدُ أنهما يكترثان برؤية هياكل الشاحنات بألوانها البراقة، وهي عالقة في سفوح الجبال بين الصخور، كانت المناظر نفسها تلقي في نفس بريجيت ونفسي الرعب. ولا شك في أن تلك الشاحنات تهاوت من على حافة تلك الممرات الملتوية بعد أن استحال إنقاذها.

وكنّا نحبس أنفاسنا عند كل مُنحنًى، بل إنه لم يكن لدينا فرصة للشعور بالخوف، على الرغم من أني أحسست أحيانًا بأني كنت أريد أن أخرج من السيارة، وأترجل على قدمي. وكنّا بين الفينة والأخرى، نتوقف عند مطاعم على هيئة أكواخ من الطين على حافات تلك الطرق، حيث كنّا نجلس في الظل على مقاعد من الخشب لتناول وجبة من الروتي، الذي هو عبارة عن أرغفة خبز من القمح مسطحة ومستديرة، يُقدَّم مع الخضراوات المطهوّة والعدس والدجاج. وكان خرير الماء المنساب خلال الجبال يحفنا في تلك الأكواخ. وقضينا ليلتنا في جِلجيت، وهي أبعد ثكنة بريطانية شمال البلاد. وكانت تلك آخر مرة في تلك الرحلة ننام فيها تحت سقف يظلنا.

وانطلقنا في رحلتنا على الأقدام في اليوم الموالي، وكانت هونزا أول محطة توقّفنا فيها على طريقنا إلى مخيمنا في ناجار. وهونزا مملكة جبلية جميلة ونائية تطل على حقول خضراء نضرة، تنتظم على هيئة مدرجات، وتصطف فيها أشجار القضبان والمشمش في منظر رائع. ويكتمل هذا المشهد الخلاب مع اصطفاف جبال الهمالايا التي تقف شامخة في عظمتها. ويزيدها الثلج الذي يغطي قممها جمالًا وسحرًا. وتشتهر هذه المنطقة بإنتاج فاكهة المشمش الشهية التي يؤمن الناس بقدرتها على تأخير الشيخوخة. ويُعَمَّر كثير من سكان هونزا لما بعد المئة عام؛ وذلك بفضل أسلوب حياتهم الصحي، والمجهود البدني الذي يبذلونه كل يوم، والهواء النقي الذي يتنشقونه. إضافة إلى تناولهم فاكهة المشمش الغنية بالفيتامينات التي تدخل ضمن معظم وصفات تحضير وجباتهم اليومية. أما نواة المشمش، فيستخرج منها زيت يستعمل في الطبخ. ورائحته الطيبة أيضًا تجعل منه زيتًا ممتازًا للعناية بالشعر والجسم.

كانت حشود الناس تحوط بعِمران أينما حللنا. وكان بعضهم يريد

الحصول على توقيع منه فيما كان الآخرون، وأغلبهم يعانون فقرًا مدقعًا، يضعون في يده بضع روبيات. وكانت تلك مساهمتهم في مشروعه الكبير الذي كان يسهر على إنجازه، وهو بناء مصحة لعلاج السرطان في لاهور. فقال لي عِمران بنبرة يملؤها الفخر: «إن الفقراء هم الذين يبنون هذا المستشفى، وليس الأغنياء». لقد كان تأثر عِمران واضحًا باستعداد أبناء وطنه لبذل كل ما يمكنهم من أجل المساهمة في إنجاح ذلك المشروع.

كلما اقتربنا من قمم الجبال، كنّا نجد بيوتًا جدّ بدائية من دورين، بُنيت من خليط من الطين والخشب. وقد أوضح لنا عِمران، قائلًا: «يعيش سكان الجبال في الدور الأول، ويخصصون الطابق السفلي لمواشيهم. إن حظيرة الماشية تؤدي وظيفتها مثل نظام تدفئة طبيعي للسكان». وعلى الرغم من أن سكان هونزا لا يكادون يملكون شيئًا من متاع الدنيا، فإن لهم قلوبًا عامرة بالإمان. في هذه المنطقة، لا وجود للصحون الهوائية ولا للكهرباء، ولا حتى شبكة توزيع المياه. ولم يسبق لي أن رأيت هذه الدرجة من الفقر، وقد حزنت لذلك كثيرًا. وعندما توقفنا ونزلنا من السيارة، خرج الناس من بيوتهم بعيون تتوهج بالفرح للسلام علينا، ذلك أن تلك المنطقة كانت نادرًا ما تستقبل زائرين، وقدموا لنا حبات من فاكهة المشمش وبعض المكسرات، وهم يقولون: «بسم الهر». لاحظت أن المسلم يذكر هذه العبارة في مستهل كل أمريهم بالقيام به، مثل الأكل والشرب، أو قبل الذهاب في رحلة طويلة. لقد تأثرت مقدار الكرامة والكرم اللذين لمستهما في هؤلاء الناس، على الرغم من الفقر الذي كانوا يعانونه.

وتركنا السيارة في وادي ناجار، حيث التحق بنا ستة حمّالين باكستانيين حملوا خيامنا وعدة الطبخ. وصحبنا معنا كذلك عنزة غير محظوظة، كان اسمها (دينر)، أيْ عشاء باللغة الإنجليزية. وكان لهذه المسكينة نصيب من

اسمها خلال رحلتنا؛ ذلك أننا كنّا بعيدين عن أسباب الحاضرة، فكانت دينر هي وجبتنا، وقام نعيم بذبحها. فشعرت في أول الأمر بذنب كبير لم أستطع معه أن أتذوق طعمها، حين طُهيت. ولم أكن أفضل تناول لحم الماعز على أي حال. غير أن الإجهاد الجسدي الذي كان يسببه لنا المشي في الجبال في ذلك العلوّ المرتفع، أشعرني بجوع لم أستطع مقاومته طويلًا فأكلت من لحم العنزة. ولم يكن طعمها سيئًا أبدًا ولا سيما أن طعم بهار الكاري غطى على طعم اللحم. وكان طعم فاكهة المانجو الشهية والغنية بالعصارة أقرب إلى قلبي. ولحسن الحظ، أننا كنّا قد جلبنا معنا صندوقًا كاملًا من هذه الفاكهة الشهية. وتنتج باكستان أنواعًا كثيرة من المانو تختلف باختلاف المناطق التي تنمو فيها. وقد عرفت أن شرائح واسعة من الباكستانيين يستمتعون بهذه الفاكهة. وخلال رحلتنا، شاهدنا أسَرًا عدة تستمتع بتناول المانجو خلال خرجاتهم للاستمتاع بالطبيعة في الهواء الطلق.

وإنني كنت محظوظة؛ لأني كنت أتمتع ببنية جسمية جيدة نسبيًّا، على الرغم من أني لم أكن محترفة بتسلق الجبال. لقد ترعرعت في شمال ألمانيا حيث الأرض هناك مستوية تمامًا، ولم اكن قد ذهبت إلى منطقة جبلية أكثر من بضع مرات في حياتي. وعلى الرغم من أني استغربت الأمر، فإنني تمكنت من أن أتحمل المشي من خمس ساعات إلى سبع في اليوم على طرقات جبلية ضيقة تارة، وجليدية تارة أخرى، وبين مساحات من المراعي المعشوشبة على ارتفاع أربعة آلاف متر من على مستوى سطح البحر. ومع ذلك، كان علينا أن نذكّر عِمران مرارًا وتكرارًا أننا لسنا جميعًا رياضيين من ذوي اللياقة العالية. وكانت بريجيت تدخن السجائر، وتجتاحها هبات من الحرارة والضيق، وكانت توشك أحيانًا على أن تضع حدًّا لرحلتها معنا. وكان عِمران بين الفينة والأخرى يطمئننا بقوله: «كدنا نصل»، قبل أن

يضيف «إن شاء الله».

وكان نعيم بعد ظهر كل يوم، يبحث عن مكان يصلح لإقامة مخيم نبيت فيه ليلتنا. وكان غالبًا ما يختار ذلك المكان على ضعفة أحد الأنهار الباردة كالثلج، حتى يتسنى لنا أن نستحم فيه، ونغتسل. وبعد ذلك، كان بعض الرجال يصلّون في الهواء الطلق، حيث كانوا يبسطون الشال أمامهم على الأرض، ويقفون مستقيمي القامة، ثم ينحنون قبل أن يضعوا ركبهم على الأرض، ويسجدون على الأرض حتى تلامس جباههم الشال المبسوط، ثم يجلسون على ركبهم. وما إن ينتهوا من أداء الصلاة حتى نستدفئ جميعًا من آخر شعاع من أشعة الشمس. ومتى حلّ الظلام، نشعل نار المخيم، ونتخذ أماكننا حولها، ونتناول وجبة بسيطة ونحن نتجاذب أطراف الحديث لساعات طويلة، إلى أن ننام متقوقعين داخل أكياس النوم التي كانت تقينا من البرد القارس. لم يكن لدينا أي من وسائل الراحة، بما في ذلك أماكن الاستحمام أو المراحيض؛ لقد كنّا في ضيافة الطبيعة العذراء. وقد أذهلتنا قدرتنا على التأقلم مع تلك الظروف الطبيعية القاسية. وقد تعرضت أنا وبريجيت لإسهال المسافرين، غير أنه كان حادثًا عارضًا لم ينل من استمتاعنا برحلتنا تلك. ولحسن الحظ أننا أخذنا معنا لفافات الورق الصحي. لقد كان انقطاعنا عن سبل الراحة تمرينًا حقيقيًّا في التواضع، أعادنا إلى اختبار أساسيات العيش البشري. إنها تجربة تحرر المرء من كثير من القيود. وكنت قد سمعت أن بعض الفتيات الأخريات اللواتي قمن برحلات جبلية مماثلة مع عِمران وأصدقائه قبلنا، لم يَقْوَينَ على الصمود طويلًا من دون الكعب العالي ومساحيق التجميل، وعُدْنَ إلى بيوتهن قبل انتهاء موعد انتهاء تلك الرحلات. وقد تمكّنت أنا وبريجيت من مسايرة مجريات الأمور، واستمتعنا بانغماسنا في جمال الطبيعة الذي تُحبَس له الأنفاس، وبالصحبة الممتعة.

وكان علينا في بعض الطرق التي سرنا فيها أن نتقدم حبوًا على أيدينا وأرجلنا، في حين كان المنحدر السحيق على مقربة مخيفة منّا. وقد التوى كاحل موبي، الذي لم يكن معتادًا بتاتًا على الجهد البدني، فكان يمشي وهو يعرج ويستند إلى عصا. أمّا أنا، فقد كدت أهوي على عنقي مرة أومرتين. وقد انزلقت قدمي على حجر أملس عندما كنّا نعبر مجرًى مائيًّا، لكن عِمران أمسك بي بحركة خاطفة قبل أن أقع، وكاد في محاولته تلك يهوي بنفسه على الصخور الخطِرة. لكنه لم يكن يأبه بالأخطار، بل كان يستهويه ركوبها، فكان يحثّ السير بثقة ثابتة لا يمكن أن يمتلكها سوى رياضي من الطراز العالي. لكني اكتشفت فيما بعد أن جسارة قلبه كانت تنبع من إيمانه أكثر ما ترتبط بمهاراته الرياضية. ومن خلال عِمران، أدركت كيف أن المسلمين يؤمنون بأن حياتنا ملك قبضة الله، وأننا لا نملك أن نتحكم في موعد موتنا.

وقال عِمران بصوت يملؤه اليقين: «إن تلك اللحظة تَحِينُ حين يريد لها الله ذلك، ولا تتقدم أو تتأخر ثانية واحدة عن موعدها. وعندما يحين أجل المرء، فلا مهرب له منه، مهما بذل لنفسه من أنواع الحماية والحِفْظ»، وأضاف قائلًا: «لأن اكافظ هوالله».

بينما كنّا نسير عبر معبر جليدي في أحد الأيام، سألنا عِمران قائلًا: «ما الغاية من الحياة في رأيكما؟».

كان عليَّ أن أعترف أني لم أكن قد فكرت في هذا السؤال من قبل. وبكل صراحة، فقد كنت حتى تلك اللحظة بعيدة كل البعد عن حلمي الأول بأن أسهم، من خلال عملي بصفتي صحفية، في أن أحسّن حال العالم ولو بقدر يسير. وكنت قد قضيت عامين كاملين، وأنا أنتقل في محطة إم تي ڤي من برنامج إلى آخر، وكنت أرى نفسي على أنني جزء من عجلة حظ لا تتوقف

عن الدوران. ولم يكن في حياتي أي مجال للتوقف وتأمّل مغزى الحياة، ولم أجب عن سؤال عِمران. أما بريجيت، التي كانت مهتمة بالمسائل الروحية، وتقرأ الطالع في أوراق اللعب، فقد أطرقت قليلًا قبل أن تجيب: «أن أكون سعيدة حتى في الشدة».

لم يكن لإجاباتنا أي وقع على عِمران، فبدأ يحدثنا عن الإسلام وأسلوب حياة المسلم. لم تكن الغاية من حياة المسلم أن يسعى فقط إلى تحقيق سعادته الشخصية، على الرغم من أنه ما من شيء يجرم ذلك. لكن وفقًا لعِمران، فإن السعادة الحقيقية لا يكن أن تتحقق إلا عبر معرفة الله.

وأردف قائلًا: «إننا نحن المسلمين ننظر إلى ما هو أبعد من أنفسنا، ونتطلع إلى هدف أسمى من السعادة الشخصية، إلى قوة أعظم من أنفسنا وكل ما نملك، إنه الله. أن عبادة الله والامتثال لأوامره في كل ما نفعل هو الغاية من وراء الحياة بالنسبة إلينا». وتابع: «إننا نحن البشر خلفاء الله في الأرض، وعلينا أن نتحلى بالمسؤولية ونحن نؤدي هذا الدور». وأضاف أيضًا أن فرصتنا لتحقيق ذلك محدودة جدًّا؛ لأن الوقت الذي نقضيه على هذه الأرض قصير جدًّا. وقال: «إن هذه الحياة امتحان لنا، لكنها في الوقت نفسه تربة نزرع فيها بذور حياتنا الأبدية».

لم يكن عِمران يضيع أي فرصة للحديث عن عقيدته، وكان يتجلى له الله حاضرًا في كل مكان. لقد كنّا في الهمالايا فوق أعلى قمة في العالم. وعندما كنا نجلس لأخذ قسط من الراحة، كان يشير إلى منظر طبيعي بين الجبال غاية في الجمال، ويقول: «إن ذلك المنظر ما هو إلا تجلٍّ من تجليات القدير، خالق الكون».

بدأت أدرك شيئًا فشيئًا، كيف أن الإسلام كان يحتل مكانًا مركزيًّا في حياة عِمران. هناك بين تلك الجبال، أفضى إليّ أول مرة في إحدى نزهاتنا،

بطموحه دخول معترك السياسة. وكان يأمل في أن يتمكن من الإقدام على تلك الخطوة بمجرد أن ينهي بناء المستشفى، وينال ثقة الناس به. وكان يرى أن بلاده تملك من المؤهلات ما يُمَكِّنها من أن تكون أفضل حالًا مما كانت عليه. لكنه كان يأسف لأنها ابتليت بسوء تدبير لا يُتصور؛ فالفساد كان يطال قيادات البلاد التي كانت تنهب أموالًا طائلةً لحساباتها الشخصية، بل وتعداها ليضرب أطنابه في شرائح المجتمع كافة، لا لشيء سوى لأن الناس لم يعودوا قادرين على العيش على رواتبهم البسيطة.

لقد بدا لي أن دوافعه كانت نبيلة، وأن إرادته في تغيير الأمور إلى الأفضل كانت حقيقية، لكن كلماته أقلقتني. فقد ذكر أنه التقى عرّافًا كان قد حذرّه من دخول معترك السياسة، وتنبأ له بأنه قد يُغتَال إن أقدم على ذلك. ولم يتقبل كلامي حين اقترحت عليه أن يعمل على تغيير الأمور من خلال العمل الإنساني، وحين قلت له إنه يجب ألا يخاطر بحياته ويدخل غمار السياسة، فكان رده على ذلك: «لا يمكن للمرء أن يحدث تغييرًا جذريًّا سوى من الداخل. أنا لا أهاب الموت، بل سأكون سعيدًا إن مِتُّ من أجل بلدي». وعلى الرغم من هذه الكلمات، فقد ذكَّرني بأن كلام العرّافين لا يكون صحيحًا بالضرورة، وأن المستقبل ومصائر الناس تظل بيد الله وحده.

حينما كنّا نتحلق حول نار المخيم في وقت متأخر من الليل، كنّا نتحدث كالفلاسفة عن أمور شتى، على أنغام موسيقا صوفية تنبعث من جهاز تسجيل عِمران. وكنت أنا وبريجيت نستمتع بالترانيم الحماسية والحساسة، على الرغم من أن الوصلات الغنائية كانت تمتد مسترسلة أحيانًا أكثر من اللازم.

وعلى الرغم من أن تذوق الغناء أمر يُكتَسَب، فإننا سرعان ما تعلقنا

بهذا النوع من الغناء. وبفضل الترجمة التي كان يقوم بها عِمران، كنّا نستطيع فهم تلك الكلمات المنظومة والروحية التي عادة ما كانت تحكي عن الحب، حب المحبوب الذي تحوّل إلى حب للمحبوب الأوحد، وهو الله. وقد أوضح لنا عِمران أن بعض تلك الأشعار كانت من نظم شيوخ صوفيين، وتعود إلى القرن الثالث عشر. وقد عاش أحدهم، وهو بلهي شاه، بعد ذلك الزمان بنحو خمس مئة سنة، وكتب هذه الأبيات:

لقد تَعلمتَ كثيرًا

وقَرأتَ ألف كتاب.

(لكن) هل قرأتَ يوماً نفسَكَ؟

هل ذهبت يومًا للمسجد أو المعبد.

هل زرتَ يومًا روحَكَ؟

أم أنك مشغول بمحاربة الشيطان

هل حاربت

نيّاتك السيئة؟

لقد بلغت عنان السماوات،

لكنك لم تستطع أن تبلغ

ما في مكنون قلبك!

أصبحت أنا وبريجيت من المعجبين بموسيقا (القوالي)، وتعني هذه التسمية الكلامَ الحكيم.

فتحت تلك الأيام التي قضيتها وسط الجبال قلبي على أشياء كثيرة، لاسيما على جمال الطبيعة. وفي إحدى الأماسي، بزغ نورٌ فجأةً من خلف

الجبالِ المعتمة الممتدةِ أمامنا. ولم أتمكن في بادئ الأمر أن أتبين مصدره، لكن سرعان ما أطلّ قمرٌ هائلٌ، بدرٌ أبيض في تمامه، من وراء التلال. وما هي إلا دقائق معدودة حتى قُذِف ذلك المنظر الطبيعي كله في نورِهِ اللُّجَيني العارم. وكان المكان مُضاءً وكأننا في رابعة النهار، وكان خيال قاماتنا ينعكس على الأرض في أشكال طويلة وحادة المعالم لقد وقعت في حب عِمران في تلك الليلة، ونحن مغمورون في نور ذلك البدر المكتمل. كان جمال الطبيعة البرية البكر أخَّاذًا خلال النهار أيضًا.

وكانت الجبال تنتصب أمامنا بكل جَلال بقممها المغطاة بالثلج، والجداول الصافية تنساب على المنحدرات لينتهي بها المطاف في بحيرات صغيرة فيروزية اللون، والمروج الخضراء غطتها أعداد لا حصر لها من الزهور. وعلى مدار الساعات، كانت أشعة الشمس براقةً، والهواء نقيًّا، والسماء تتشح بزرقة على الدوام. وكانت تلك الصور كما لو حُفِرت في ذاكرتي، وكان قلبي يهتز لها من السعادة.

وفي طريق عودتنا إلى إسلام أباد، عاينت بنفسي كيف أن الإيمان بالله يمد صاحبه بشجاعة تفوق طاقة البشر، وتعينه على التغلب على الشدائد التي يلاقيها في حياته اليومية. فمع ذوبان الثلج، غمر الماء حيزًا من الطريق الجبلية. وكانت تعترض الطريق كذلك الأشجار المقتَلَعَة والأحجار، ولم يسعنا سوى أن نوقف السيارة، ونخرج منها. كان الرجال ينهمكون في إزاحة جذوع الشجر والصخور المتناثرة من الطريق، في حين تأخذ السماء في الاتشاح بالظلام شيئًا فشيئًا. أمّا أنا وبريجيت، فقد كنا نتقدم ببطء شديد على امتداد منحنيات حادة على الطريق، نحاول جاهدتين أن نتفادى الانزلاق إلى مجرى الماء، أو إلى أسفل المنحدر. وقد كان نعيم، سائقنا الذي يسكن الجبال، ويَخبِر كل أسرارها، الوحيد الذي ظل في

السيارة. كان يركب السيارة وهو مقطب الحاجبين، فنفهم أنه يمعن في التركيز فيما يريد القيام به، ثم يمسك بعجلة القيادة بكل ثبات، ويهمس بدعاء قصير، ثم يتمتم شيئًا بالعربية يستهله بعبارة «بسم الله»، قبل أن يتحرك بالسيارة مباشرة عبر الماء الذي كان يصل حتى حافة نافذتها. وكنت أنا وبريجيت نراقب ما يجري في ذهول تام، في حين كان باقي الرجال يدعمون مخاطرته الجريئة بصلوات خافتات، لتنتهي لحظات الخوف والترقب بنجاح.

وعلى الرغم من هذه الحوادث التي كانت تنال من أعصابنا، والإرهاق البدني الذي أصابنا، وحرماننا من الراحة، والانقطاع عن شرب الكحول، فقد غمرني شعور بالانتعاش بعد رحلتنا الجبلية تلك. وكانت تلك أول مرة منذ سنوات طويلة، أحظى فيها بوقت للتفكير فيما هو أكبر من برامج الموضعة أو التصوير. وحين عدنا أخيرًا إلى بيتنا المتواضع في جِلجيت، كم كانت متعتي كبيرة، وأنا أحظى بأول حمام دافئ بعد عشرة أيام من التجوال. فتقوقعنا أنا وبريجيت في أسرّتنا الوثيرة، وقالت بكل حماس: «هذه هي الجنة!» قبل أن نغط كأطفال منهكين، في نوم عميق.



عند عودتنا إلى إسلام أباد، سافرنا في رحلة مباشرة إلى محطتنا القادمة لاهور، التي تقع في قلب إقليم البنجاب. تتميز لاهور بمعمارها المغولي الخلاب، وتُلقب بـــ (بستان المغول)، كما أن زائرها يلمس فيها نكهة غرائبية عجيبة؛ لذا، تُلقب أيضًا بـــ (باريس شبه القارة).

تُعد لاهور من بين أقدم المدن في العالم. ويحيط بالجزء القديم من المدينة سور يعود إلى العصور الوسطى، وقد ظلت بعض أجزائه عصيّة على الزمن إلى اليوم. ولا يتأتى دخول هذا الجزء المسوَّر من المدينة إلا عبر

إحدى بواباتها القديمة. وتحتوي المدينة القديمة أيضًا على كنوز معمارية عدة، مثل مسجد باد شاهي، ويُعرف أيضًا باسام مسجد الإمبراطور. ويُجسِّد هذا الصرح المتميز جمال العصر المغولي وعظمته، إلى جانب القلعة الحصينة وحدائق شاليمار الرومانسية التي صُنّفت ضمن مواقع التراث العالمي لليونسكو. فارتديت (الشاليمار) الذي يحمل عطر جرلين، وحرصت على زيارة تلك الحدائق الشهيرة؛ نظرًا إلى روعة جمال التصميم المغولي الذي طبعها. ومما يُؤسف له، أن التراث الإسلامي النفيس أُهمل بشكل ينفطرله القلب، وأن كثيرًا من الكنوز القديمة بهذه المدينة تعرضت للنهب، مثل قطع من الرخام المنحوت.

وكانت المدينة تَضِجُّ بالمارة الذين كانوا يتحركون في أزقتها الضيقة والمتربة بكل حيوية هنا وهناك، وكان معظمهم من الرجال. وكانوا ينقلون بضائعهم إما على رؤوسهم، وإما عن طريق عربات تجرها الحمير. أما النساء القليلات اللائي رأيناهن، فكنّ يرتدين غطاءً حول رؤوسهن يستر شعرهن، في حين كان بعضهن يرتدين البرقع. لم نكن أنا وبريجيت نودّ أن نبدو مختلفتين البقية، فغطينا رأسينا مثلهن. وأخذنا أحد أصدقاء عِمران في جولة لزيارة معالم المدينة الكثيرة، وكان يرشدنا خلال الدروب التي تصطف بها البازارات (الدكاكين) في المدينة القديمة. وكان الحرفيون اليدويون يصنعون إطارات الصور والطاولات والصحون، وهم يهمسون بصلوات مسترسلة، أويصغون لتلاوة القرآن التي كانت تنبعث من مذياع صغير؛ ما كان يضفي على عملهم صفة روحية تحيل كل واحد من منتجاتهم إلى قطعة فنية نفيسة. لقد كان ذكر الله موجودًا في كل مكان، في العمل، والموسيقا، والمعمار.

وما أن يعلو صوت الأذان، حتى يترك الناس أشغالهم كلها، ويسرعون

إلى أقرب مسجد لأداء الصلاة. وذات مرة، بينما كنّا نتنقل عبر المدينة في سيارة أجرة، أوقف السائق سيارته مباشرة أمام أحد المساجد، وبدأ يتمتم كلمات محاولًا أن يقول لنا شيئًا لم نستطع أن نفهمه، ثم نزل من السيارة، واختفى داخل المسجد. وجلسنا في حرارة الظهيرة الحارقة ننتظر عودته، ونحن في حيرة من أمرنا. مرت علينا عشر دقائق، ثم عشرون دقيقة، وبدأنا أنا وبريجيت نتساءل: أين اختفى سائقنا؟. لم ندرك أننا كنا يومها يوم جمعة، حيث تكون صلاة الجماعة التي تمتد وقتًا أطول من الصلاة اليومية. وعاد سائقنا بعد نحو خمس وأربعين دقيقة، وكانت عيناه تتلألآن، وكان النور يعلو محيّاه.

في المساء، كنّا نزور أحد أصدقاء عِمران المقرَّبين، وهو يوسف صلاح الدين، الذي كان ذا طبع هادئ، وكان يحب الموسيقا. وقد شغل في السابق منصب وزير في الحكومة المحلية لإقليم البنجاب. حيث كان يسكن فيما يسمى (حويلي)، وهي من الدور الكبيرة الخاصة التي بُنيت وسط المدينة القديمة منذ مئات السنين على الطراز الإسلامي. وكانت دار يوسف مكوّنة من أربع ساحات شاسعة فيما يشبه البهو، وتزدان هذه الساحات بمقاعد من الرخام الأثري، وتعلوها أقواس من الخشب المزخرف، إضافة إلى نافورة مياه مزينة بفسيفساء دقيقة بيضاء وفيروزية. وكان يطفو على سطح الماء صحون صغيرة مزينة بالزهور. لقد فُتِنتُ بهذا الجمال الذي كان الطابع الطاغي على الفن الإسلامي والمعماري للمدينة المغولية. ويمكن أن يستشف المرء في ذلك الفن لمسة أنثوية واضحة.

جلسنا تحت سماء تزينها النجوم، نستمتع بهواء المساء الدافئ والجو الغرائبي الذي كان يحيط بنا. وجلست أنا وبريجيت بكل ارتياح على أرجوحة كانت عبارة عن أريكة فخمة، ونحن نشرب (تشاي)، وهو نوع

من الشاي يدخل في إعداده اللبن وخلطة من التوابل، مثل الهيل والقِرفة والقرنفل وحبوب الفلفل الأسود المجفف. وعلى مائدة العشاء، رصّ الخدم تشكيلة متنوعة من أطباق الكاري الشهية التي أعدها يوسف بنفسه، فقد كان يشتهر بإتقانه فن الطبخ. أما عِمران، الذي لا يكاد يعرف كيف يعد إبريقًا من الشاي، فقد علَّمنا كيف نمسك بقطع خبز الروتي، ونتخذها ملاعق لنأكل بأيدينا. وكانت تلك أول مرة أتناول فيها (كوكا كولا). وقد وجدت أن طعمها كان تتماشى تمامًا وطعم أطباق الكاري. وكنت أفضلها على سبرايت والمشروبات الغازية الأخرى التي قُدمت لنا. أما طبق الحلوى، فكان عبارة عن أحلى حلوى أرز تذوقتها في حياتي. حيث يستغرق طهو هذه الحلوى ست ساعات، وتُعَدّ باستخدام كثير من الحليب. وتحدثنا ساعات، واستمعنا إلى موسيقا (القوالي)،في حين كان يوسف وعِمران يترجمان لنا كلمات الأغاني. وكانت بعض تلك الأغاني من نظم جد يوسف، العلامة محمد إقبال، وهو شاعر وفيلسوف مشهور. وجاء في أحد الأبيات: «لو لم تكن هذه الأرض موجودة، ولو لم يكن القمر ولا النجوم موجودة، لو أن سرّ الحقيقة لم يكن معروفًا بعدُ، ولو لم يكن شيء في الوجود، لكنت على الرغم من ذلك أن تكون أنت». (ضمير أنت هنا يعود على الله).

تعرفنا خلال تلك الأماسي التي قضيناها في منزل يوسف على مفهومٍ جديدٍ ومتجذرٍ في الحضارة الشرقية، وهو الرحمة بمعناها العملي. حكى لنا يوسف قصة جده المشهور الذي درس في مطلع القرن العشرين في كامبريدج، وتخرج في جامعة هايدلبرج بألمانيا. وكان يقضي ساعات طِوالًا في دراسة أعمال الكاتب الألماني الشهير يوهان فولفجانج فون جوته. ولم يكتفِ إقبال بأن صار فيلسوفًا وشاعرًا، بل أخذ على عاتقه كذلك واجب بعث الحضارة الإسلامية من جديد، سواء من الناحية السياسية أو

الروحية. وقد استطاع بناءً على مبدأ عدم الفصل بين الدين والدولة الذي نادى به، أن يشجع على إقامة دولة مستقلة للمسلمين في شمال الهند، التي أصبحت تُسمى باكستان.

إضافة إلى انغماسه في الحياة الثقافية المزدهرة في أثناء إقامته في هايدلبرج، انبهر إقبال كذلك بالمراة الألمانية. ولم يجد بعد عودته إلى باكستان، مربية مناسبة لأبنائه. لكن حين قابل سيدة ألمانية تعيش في لاهور بعد أن طلقت من زوجها الباكستاني، عرض عليها أن تعيش مع عائلته، وتقوم برعاية أبنائه فوافقت. وظلت هذه السيدة تعمل لدى الأسرة سنين عدة، ولم تعد إلى ألمانيا إلى أن بلغ حفيدا إقبال، يوسف وأخوه، الحادية عشرة والثانية عشرة على التوالي. ومر وقت طويل، فأصبحت المربية الألمانية تشعر بالوحدة في ألمانيا، فأصرت عليها عائلة يوسف أن تزور العائلة في باكستان مرة واحدة في السنة على الأقل؛ حتى تستطيع أن تنعم بالأجواء العائلية ودفء الناس هناك. وفي أحد الأيام، عندما كانت هذه السيدة الضعيفة المسنّة في طريقها إلى لاهور، وقعت في مطار فرانكفورت، وكُسر عظم حوضها. وما إن علم أخ يوسف بالأمر، حتى سافر على رحلة إلى فرانكفورت، وأخرجها من المستشفى، وصحبها معه إلى باكستان، حيث حظيت بالرعاية والحب بصفتها واحدة من أفراد العائلة إلى أن فارقت الحياة.

وقد دفعني يوسف إلى التدبر، حين أضاف: «لا توجد في بلادنا دور مسنين [(1)]؛ لأن كبار السن يظلون مع أسرهم التي تحسن العناية بهم. إننا نقدرهم، ونقدر الحكمة التي اكتسبوها على مر السنين. إن معاملة المسنين بكرامة واحترام من أهم تعاليم ديننا».

أظهرت لي هذه القصص بجلاء كيف يتغلغل الدين في تفاصيل الثقافة

الباكستانية كلها؛ فكل شيء مرتبطٌ بالله. وأثّر في مِقدار الصبر الذي يواجه به الناس هناك تحدياتهم اليومية. فعوضًا عن أن يغضبوا لانقطاع التيار الكهربائي المتكرر، أوفي خضم زحمة المرور التي لا تحتمل، أو يفقدوا أعصابهم حين لا يجدي شيء نفعًا، كانوا يهمسون بعبارة «الحمد لله»، ويتقبلون كل ما يحدث بصبر، ويتابعون شؤون حياتهم بكل بساطة. لقد أثار إعجابي هذا الخلق الحسن الذي وجدته نابعًا من دينهم. ولم أدرك المجهود الهائل الذي يستدعيه التحلي بهذا الخلق إلا بعد مرور سنوات عدة.



---

(1) توجد اليوم دور لكبار السن حتى في باكستان، على الرغم من أن ذلك يتعارض ونمط العيش التقليدي الذي كان بحسبه يتكفل بالمسنين داخل العائلات.

الفصل الثاني

كيف حصلت على وظيفة في قناة (إم تي ڤي)؟

الفتيات يسعين فقط للحصول على المرح.

سيندي لوبر

عندما سافرت إلى باكستان أول مرة، كان عمري سبعًا وعشرين سنة. ولم يكن حينها الصبر من أهم خصال شخصيتي، بل كنت آنذاك في قمة تألقي المهني. وكنت أقدّم كل يوم برامج على شاشة محطة إم تي ڤي، إما من داخل أستديوهاتها في لندن، أو من أماكن مختلفة في أوروبا. وكنت أحظى بعاملة تليق بنجوم السجاد الأحمر أينما حل طاقمنا الصغير. وكانت صوري تظهر على أغلفة مجلات المشاهير في ألمانيا وبلجيكا والسويد، وكنت أعيش نجاحًا أكبر بكثير مما كنت أتصور. وعلى الرغم من كل ذلك، فإنني كنت في الواقع أشعر بأنه كان ينقصني شيء ما، ولم أدرِ ما هو.

بدأ كل شيء في غرفة لعب للأطفال في منزل أسرتي في هامبورج. وكنت حينها كريستيانا باكر، المراسلة الجسورة التي تشهر لعبة مايكروفون بكل فخر. وكانت ضيفتي في حواري حينها هي أختي التي كانت تذعن بشكل لافت لأسئلتي الصعبة والمباشرة، حيث كنت أقول بكل ثقة: «مرحبًا، اسمي كريستيانا باكر، وأنا اليوم في حضرة رئيس ألمانيا. كيف حالك اليوم يا سيادة الرئيس؟».

كنت أفترش الأرض، وأطلق العنان لعينيَّ، وهما تسرحان على جدران الغرفة التي تحمل صورة غابة في فصل الخريف، في حين تطل الخيول البرية بعيونها اللطيفة من بين الأشجار. وكان ورق الحائط ذاك من أكثر الصور التى علقت في مخيلتي عن طفولتي. وكان يلخص بدقة متناهية ما

منحتني تلك السنوات الأُوَلُ من حياتي من إحساس بالأمان والثقة وحب الطبيعة. مرت سنين عدة على تلك الطفولة، وعاد ذلك الإحساس لينتابني مجددًا خلال زيارتي الحديقة الجديدة في إنجلترا. فشعرت وأنا أتجول فيها، بأنني قد زرتها من قبل؛ حيث وجدت نفسي بين الأنهار والأشجار نفسها التي كانت مرسومة على ورق حائط غرفة طفولتي. ولا بد من أن الصورة الأصلية قد التقطت في تلك الحديقة الإنجليزية.

يقع البيت الذي نشأت فيه في ضاحية مخضرّة من مدينة هامبورج. حيث كان للبيت حديقة، وكان يقع على أحد شوارع المدينة الهادئة. وكانت لي شرفتي الخاصة بي، وكنت أستطيع رؤية السماء المرصعة بالنجوم، وأنا مستلقية في فراش غرفتي. وكان صديقي ديدي رفيق طفولتي الدائم يشبه الشامبانزي، لكن لم يكن أحد يستطيع رؤيته غيري، إلى أن اختفى قبل أن تولد أختي بوقت قصير. وكانت سوزان تصغرني بأربع سنوات، وعلى الرغم من اختلاف طبائعنا، فإننا كنّا جدّ مقربتين. وكنت مرحةً بطبعي، وأبعث المرح في أي مكان أحل به. أما سوزان، فكانت تتمتع بهدوء أكبر. لقد كانت مرهفة الإحساس، وربما كانت أكثر رصانة مني. وكانت سوزان في حصة الرسم في المدرسة، ترسم بيتًا له بضع درجات من السلم، ويعلوه سقف مقبّب. وبجواره ترسم شجرةً ورجلًا يطعم بعض الحمام. أما أنا، فكنت أرسم بهلوانًا يحمل بالونًا، ويرتدي حذاءً مغربيًّا أصفر، ويعتمر قبعة صغيرة مرصعة بالأجراس. وما زال والدي يعلق هذه الرسوم على جدار غرفة مكتبه حتى يومنا هذا.

لقد كان ورق حائط غرفتي يعكس كذلك حبي الحيوانات. وكنت أتعامل معها بكل تلقائية، كما لو أني أمتلك موهبة خاصة تمكّنني من التواصل معها، وكانت الحيوانات أيضًا ترتاح بصحبتي. حين كنت طفلة

صغيرة، عادة ما كنت أقصد مزرعة ساحلية لركوب الخيل. لكن حبي لم يقتصر على الخيول فقط، بل الحيوانات كلها كانت أصدقائي. أذكر أني خلال إحدى جولاتي الاستطلاعية في تلك المزرعة، مررت بجانب كوخ وجدت فيه صفًّا من الدجاج الذي عُلّق بعد أن قُطعت رؤوسه. فصُدمت لرؤية ذلك المنظر المرعب، وتسللت إلى قنّ الدجاج، وفتحت بابه، أملًا في أن يدرك الدجاج المتبقي المصير الذي كان ينتظره فيهرب بعيدًا. وأصررتُ، على الأقل خلال ذلك الأسبوع، على ألا تُذبح أي دجاجة أخرى.

كنت أهوى الطبيعة كذلك ولا سيما المحيط. وكانت أسرتي تملك شقةً في مدينة بوسوم على ساحل بحر الشمال، حيث كانت تقع في الطابق العشرين من بناية تقابل البحر مباشرة، وتُعدّ مَعْلمًا من معالم تلك المدينة. وكنّا نقضي فيها أغلب عطل نهاية الأسبوع، وعطلاتنا السنوية كذلك، ونذهب في نزهات تدوم ساعات طويلة على أراضٍ طينية، ونمارس التمارين الرياضية على العشب، ونقضي نصف فصل الصيف، ونحن مستلقون على كراسي البحر تحت أشعة شمسه الساطعة، ورذاذ أمواجه الباردة. وكان معنى السعادة بالنسبة إليَّ هو أن أكون في الهواء الطلق، وأستمتع بالأمواج وهي تتكسر الواحدة تلو الأخرى على منظر الشاطئ الذي يمتد إلى الأفق البعيد.

كانت طفولة مدللةً منحنا فيها والدانا أنا وأختي سوزان كل ما كنّا نحلم به. وكان لأمي قلب كبير، وكانت محبوبة لدى كل من يعرفها. وكانت تتمتع بمَلَكَة إسعادِ كل من تقابله. درست وتخصصت في مجال البنوك، لكنها تخلت عن حياتها المهنية حين رُزقت بي وبأختي، حتى تتفرغ لرعايتنا على مدار الساعة. وكانت تقوم بكل شيء بنفسها، فتساعدنا على إنجاز واجباتنا المدرسية، وتطهولنا وجبات صحية. حيث

كانت تجمد عصير البرتقال الطازج، حتى يتسنى لنا تناول أصابع عصير البرتقال المجمدة الصحية، وتوصلنا بالسيارة إلى مواعيد لا تنتهي من دروس الباليه والناي، والفنون والأشغال اليدوية. أما أبي، فكان طويل القامة، ووسيمًا، وكان يتمتع بكاريزما خاصة، وذا شخصية جذابة، ومفعمة بروح الدعابة. وكان تجمع بين النزاهة وحسّ المغامرة في توليفة فرتدة جدًّا. وكان تهوى السفر واكتشاف أماكن جدتدة، ويستمتع بالعروض المسرحية، ولديه كثير من الأصدقاء. لكنه كان يقضي ساعات طوالًا في العمل. في البداية، كان يشتغل في مشروع نسيج تملكه العائلة، لكنه تركه فيما بعد للعمل لدى شركة (آي بي إم). وأعتقد أني أخذت عنه قدرًا كبيرًا من تفاؤله وحيوتته.

غرس والداي فيَّ إحساسًا بالثقة والحرية والشجاعة. فكانت فكرتي عن العالم خلال مراحل نشأتي، أنه مكان جيد بطبيعته، حيث كان كل شيءٍ ممكنًا. لقد فتحت لي هذه النظرة الإيجابية التي تقوم على الثقة كثيرًا من الأبواب. لكن مع مرور السنين، تركت في نفسي تلك النظرة أحياناً شعورًا بالإحباط والخيبة.

وعلى الرغم من حبي والدي، فإنني كنت أسعى مثل المراهقين كلهم إلى أن أتحرر من الحماية التامة التي كنت أشعر بأنها تقيد حريتي في البيت. ولم أكن أرى جدوى في القواعد التي كان أبواي يضعانها، وحاولت جاهدة أن أفاوضهما بأي شكل من الأشكال؛ حتى أتمكن من أن أفعل ما أريد. وخلال تلك السنوات، ربحت بضع معارك وخسرت أخرى. وحين بَلَغتُ السادسة عشرة، أردت الحصول بشدة على دراجة نارية كي أركبها ذهابًا وإيابًا من المدرسة، وكنت أريد كذلك أن أتجول بها في المساء بعد انتهاء الدوام المدرسي. وكتبتُ قائمة بالأسباب كلها التي تبرر أهمية اقتناء

دراجة نارية، واعتمار خوذة، عوضًا عن الجلوس خلف أصدقائي على دراجاتهم دون وضع الخوذة. وطال الجدال بيني وبين والديّ، غير أنهما لم يتنازلا عن قرارهما. ولكني حصلت على رخصة سياقة قبل بلوغي السن القانونية المنصوص عليها في ألمانيا، وكان ذلك في الولايات المتحدة.

وكان حظر التجول ليلًا معضلة أخرى يتعين عليّ مواجهتها، وكان يُسمح لكل الشباب في مثل سني بأن يتأخروا حتى منتصف الليل في العودة إلى المنزل، وربما حتى بعد ذلك الوقت بكثير. أما والداي، فقد كانا يصران على أن أكون في البيت في حدود الساعة العاشرة أو الحادية عشرة، فلم ترق لي تلك القواعد الصارمة. وعلى الرغم من أنني كنت أخرج كثيرًا، لكنني كنت متفوقة في دراستي، ولم يستطع والداي أن يُشهرا في وجهي علاماتي السيئه، ويستخدماها ضدي. وكان يبدو كأن الأشياء الجيدة في الحياة تجد سبيلها إليَّ. وحتى بعد تخرجي، اخترت مهنةً سمحت لي بأن أتعامل مع الحياة كما لو أنها حفلة لا تتوقف، وأتابع تحليقي بكل حرية. ولم يكن هناك حد بالنسبة إليَّ لما يمكنني أن أحققه، وكان بإمكاني أن أبلغ عنان السماء.

لم يكن للدين دور أساسي في حياتي، وكان والداي يؤمنان بالله، وعَمَّدانا أنا وأختي، وأكدا عِمَادَتَنا وفقًا لطقوس الكنيسة. لكننا كنّا نادرًا ما نذهب إلى الكنيسة بصفتنا عائلة، ولم نكن نمارس الطقوس الدينية المسيحية في البيت. أما الإنجيل، فكان كتابًا من جملة الكتب الكثيرة المتراصة على رفوف المكتبة. وخلال حصص تأكيد العمادة، كنت أستمتع بسماع قصة اليسوع وموسى ونوح وشخصيات إنجيلية أخرى. لكن شرارة الإيمان لم تكن قد اشتعلت بعد في داخلي. وكنت أحضرحصص تأكيد العمادة مع صديقتي كلاوديا التي كنت أعرفها منذ الصبا. وكنّا من شدة مللنا نغزل الصوف في أثناء تلك الدروس. وحين كنت آوي أنا وأختي إلى فراشنا، كانت أمي

تتلومعنا صلاةً بسيطة، كلماتها على النحو الآتي: «أنا صغير، وقلبي نقي، فليدخل الله وحده إليه». كنت أومن بالله، وكنت أحيانًا أطلب منه تحقيق أصدق أمانّي؛ لكن الأمر لم يتجاوز هذا الحد. وعلى الرغم من ذلك، كنت أشعر بانبهارٍ ما تجاه العالم غير المحسوس، وكنت أحيانًا أرى أشياء في الحلم، ثم تتحقق، وعادة ما كانت من الأمور الدنيوية العادية. فمرةً فوجئت بأن مُدَرِّسة الرياضيات، التي لم يسبق لها أن ارتدت نظارات من قبل، دخلت اكحعة، وهي ترتدي النظارات السوداء نفسها التي رأيتها في منامي في الليلة السابقة. كانت مادتا الفلسفة والأخلاق محببتين إليّ وأنا في المدرسة. وتركت نظرية كانط للواجب المطلق أثرًا عميقًا في نفسي، ويحملها في مقولته الشهيرة: «تصرف دائمًا تصرفًا يسمح باعتماد مبدأ تصرفك على أنه قاعدة كونية». وتأثرت أيضًا بالغ التأثر بخطاب زعيم الهنود الأمريكيين سياتل عن قداسة الأرض، وأهمية التصرف بحكمة في سياستها. وقد قال في معرضها:

> إن شعبي يقدس كل شبر من الأرض. إننا جزء من الأرض وهي جزء منا. الزهور الفواحة أخوات لنا، إما الغزال والخيل والصقر العظيم فهم إخوان لنا.

وباختصار:

> الإنسان لم ينسج شبكة الحياة، بل إنه مجرد خيط من خيوطها ليس إلا. وأي شيء يصيب به الشبكة، فإنه يصيب به ذاته في الوقت نفسه.

كنت أحب المغامرة، وأتوق إلى خوض تجارب جديدة. وكنت مستقلة بطبعي، وفي عمر السادسة عشرة، لم أفوت فرصة تحسين مستواي في اللغة الإنجليزية، وقضيت سنة دراسية في الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك في

إطار برنامج للتبادل الأكاديمي. وقد ذكرت في طلب الالتحاق بهذا البرنامج أني أحب البحر والطبيعة؛ أملًا في أن أذهب إلى كاليفورنيا. لكن الوجهة التي اختارها لي المشرفون على ذلك البرنامج كانت بورتلاند بولاية أوريجون، على الساحل الغربي، حيث مكثت مع عائلتين مختلفتين. وكان رب العائلة الأولى ناظر مدرسةٍ يحب التاريخ والفلسفة، ونادرًا ما يفارق الغليون شفتيه. وكان يعيش مع زوجته، جوديث، وهي مُدَرِّسة، وابنتِه بيكي. وكان هذا المحيط يذكّرني بحياة أسرتي في ألمانيا.

لكن قبل بداية العام الدراسي، أوشكت أن أعود أدراجي إلى ألمانيا؛ حيث وجدت نفسي في السجن مع بعض الصديقات اللواتي قابلتهن في أثناء الحصص التي تسبق الانطلاق الرسمي للدراسة. وكنّ قد صَحبْنني إلى ملهًى ليلي. وما إن دقت الساعة العاشرة مساءً، حتى داهمتِ الشرطة المكان. وكنّا جميعًا أصغر من السن القانونية المسموح لها بدخول الملاهي الليلية. فوُضِعت القيود على معصمِيَّ، وقُذِف بي في المقعد الخلفي لسيارة الشرطة من دون أصدقائي. وكان رأسي يرتطم بزجاج السيارة التي سارت مسرعة نحو المخفر. ولحسن الحظ، التقيت أصدقائي الجدد في زنزانة مخفر الشرطة، إضافة إلى شابات في مقتبل العمر كنّ يُتابَعن في قضايا قتل آبائهن، أو الاتجار في المخدرات. وكانت تلك صدمة كبيرة بالنسبة إليّ، ولم تكن من قبيل المغامرات التي كنت أسعى إلى خوضعها. كم كان شعوري بالخزي كبيرًا، وأنا أتصل من السجن برب الأسرة التي استضافتني؛ لأطلب منه أن يأتي لمساعدتي على الخروج من تلك الورطة. لكنه تصرف بكل هدوء، ولم يتأثر بتلك الواقعة. وقدم ليصحبني، وهو يحمل غليونه في فمه كالمعتاد، ويعتمر قبعته، فيما تعلو سياه ابتسامة، وكأن الموقف بدا طريفًا بالنسبة إليه.

قضيت وقتًا رائعًا مع هذه الأسرة، حيث كنت أتلقى دروس بيانو، وألعب مع بيكي. وكنّا نذهب أحياناً خلال عطلات نهاية الأسبوع في رحلاتٍ للريف الشاسع خارج بورتلاند. وكنت في عيد الشكر، أساعد الأسرة على تحضير الديك الرومي، وأما في عيد القديسين، فكنت أشارك في حفلة المدرسة متنكرة في زي ساحرة.

كانت مدرسة كاتلين جابل التي ارتدتها مميزة؛ لأنها كانت مدرسة خاصة، وتتمتع بسياسة منفتحة. وكنت حينئذٍ في المرحلة الإعدادية. وقد تلقيت إضافة إلى الدروس الإلزامية، مثل تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، والأدب الأمريكي، دروسًا في المسرح وصناعة الفخار والرسم. وقد دعانا المدرس مرة إلى بيته المطل على الشاطئ؛ لقضاء نهاية أسبوع في الرسم. وتعلمت أشياء عن التغذية في درس كنت أحضره مع ثلاثة طلاب آخرين فقط، وكان مدرس علم الطيور يصحبنا في رحلات رائعة لمراقبة الطيور. وأذكر أننا ذهبنا مرة في الثالثة صباحًا إلى ضفاف بحيرةٍ؛ لمشاهدة تزاوج الطيور الفضية، وهي طيور رمادية اللون، وكبيرة الحجم. لقد أحببت تلك المدرسة التي كانت مختلفة تمامًا عن أي نظام دراسي في هامبورج. وكنّا ننادي المدرسين بأسمائهم الشخصية، ولم يكونوا يكتبون تقارير رسمية عن مستوى الطلاب الدراسي، بل كانوا يكتبون ملخصات مقتضبة عن تقدمنا في الدراسة. وكنت أقضي وقتًا طويلًا في الدراسة في البيت، مستعينة بقاموسي الألماني الإنجليزي المزدوج الكبير. وكنت أضع خطًّا أحمر تحت بعض الكلمات التي كنت أبحث عنها في القاموس مرارًا وتكرارًا. وبعد مرور ستة أشهر، دُهشت حين لم يعد يلاحظ الناس أي لكنة غريبة حين كنت أتكلم بالإنجليزية. لكن كان عليَّ أن أختار عائلة أخرى لأتمكّن من اكتساب خبرة أوسع، كما قال لي منسق برنامج التبادل الأكاديمي. فدعتني صديقتي في المدرسة دينا؛ للمكوث مع عائلتها

اليهودية التي كانت تنحدر من وسطٍ راقٍ. حيث كانت أسرتها تعيش في فيلا (منزل واسع) بيضاء كبيرةٍ، إلى جانب حوض سباحة في الهواء الطلق، وملعب تنس، وتمتلك سيارة فارهة من نوع (بنتلي). وكنّا بعد المدرسة، وفي عطلة نهاية الأسبوع، نتدرب على السباحة مدة نصف ساعة، ثم نستريح بجوار الحوض. لقد كانت علاقتي بدينا أكثر من رائعة. فالحماس الذي كنت أنشره كان يبعث الحياة في الأوقات التي كنّا نقضيها معًا ما ساعدها على أن تتخطى عزلتها بعض الشيء. وكنّا نخرج معًا في المساء وأصبحنا شقيقتين بالدم، حيث جرحنا إبهامينا فسالت منهما قطرات دم، ثم ألصقناهما معًا بشدة حتى يختلط دمي بدمها.

علمتني والدة دينا كيف أطهو اللفائف الصينية، وكيف أعد طبق الحمص الشرقي، وأخبز بسكويتًا برقائق الشوكولاتة، حتى أصبحت مولعة بصنع ذلك البسكويت. وعاملتني تلك العائلة معاملة أحد أفرادها، وأشركتني في أنشطتها كلها. لقد كان ذلك أمرًا طيبا جدًّا، لأني كنت قد قابلت آباءً آخرينَ لأصدقاءَ يهود في بورتلاند لم يكونوا يرغبون حتى في الحديث إليّ؛ لأنني ألمانية.

وكان الدين إلى حدٍّ ما جزءًا من المناسبات الأسرية والاجتماعية لهذه الأسرة، على الرغم من غيابه من حياتها اليومية. وكنّا نتناول (تشالا) في أماسي الجمعة، وهو خبز على هيئة ضفيرة، يدخل البيض والنبيذ الأحمر في إعداده. وكانت الأم تتلودعاءً قصيرًا على شموع السبت، في حين يبارك الأب النبيذ بدعاء آخر. لم ألحظ أي شعائر أخرى تقوم بها هذه الأسرة، غير أني أذكر أن الأم كانت تقصد غرفتها مرة في اليوم، حيث تقضي مدة طويلة فيما تسميه (التأمل التجاوزي) [(1)]. وكانت تتبع تعاليم معلمٍ هندي يُدعى مهاريشي ماهيش يوجي، وهو ممن ألهم مجموعة (البيتلز). رأيتها

مرة تتخذ وضعية زهرة اللوتس على الأرض وهي مغمضة العينين، وتتنفس بعمق مدة نصف ساعة على الأقل. لم أكن أدري تمامًا ما الذي كانت تفعله، أو تسعى إلى تحقيقه من وراء ذلك، لكنني فُتنت بذلك التأمل الصامت.

وقد دفعني الفضول إلى الاطلاع على ديانات لم يسبق لي أن صادفتها في ألمانيا. فقمت بزيارة كنيسة إنجيلية، حيث كان القس يلقي عظته بطريقة محفوفة بالروحانية والحماس، شدتني على نحوٍ غريب. وكان الغناء حماسيًّا وعاليًا جدًّا، وكان عدد الأشخاص من ذوي البشرة البيضاء قليلين جدًّا، وكنت من بينهم؛ ما أشعرني ببعض الغرابة، غير أني أحببت دفء أجواء تلك الطقوس.

وذات مرة، زرت أنا وصديقة من المدرسة مزرعة بها جوان على تلال أوريجون، على بعد بضع ساعات بالسيارة من بورتلاند. ولاحظنا أن الناس هناك كانوا يرتدون ملابس، إما حمراء أو برتقالية اللون، وكان كثير من النساء لا يرتدين سوى (البيكيني)، أو (الصارون) أيْ، الوَزْرَة. وكانت السُّلطة المطلقة التي تسود هناك هي الحب. وتحدثت إلى امرأة جذابة، أعطت الشمس لبشرتها لونًا مميزًا، وقالت لي إنها كانت تعمل في مجال الإعلانات، وتعرضت لأزمة هوية قبل أن تجد نفسها في هذه المزرعة. وأضافت قائلة إن هناك كثيرًا من رجال الأعمال الناجحين، وكثيرًا ممن كانوا يعملون في مجال الإعلانات والإعلام في الماضي، تركوا حياتهم بوتيرتها السريعة، وأتوا إلى هنا بحثًا عن السلام الداخلي. وكنوع من الشكر، كانوا يقدمون، بكل طواعية، مبالغ طائلة من المال لباهجوان، أو أوشو، كما أطلق على نفسه لاحقًا. تناولت وجبة غداءٍ صحية مع زميلي في المدرسة كريس في مطعم للنباتيين، ثم اشتريت كتابًا لبهاجوان؛ كي أفهم أكثر فلسفة

مذهبه. وتصفحت ذلك الكتاب، فوجدته مُنَفِّرًا بسبب حفلات ممارسة الجنس بلا قيود التي كان يدعو إليها بهاجوان على أنها جزء من الطريق إلى التنور الروحي. وخلال ساعات ما بعد الظهيرة، رأينا أتباع هذا الرجل يصطفون في طابور طويل، وينحنون لبهاجوان، وهو يمر في إحدى سيارات (الرولز رويس). وقيل لنا: إن هذا النوع من الطقوس يُنظَّم مرتين في اليوم. لكني تساءلت حينها: لماذا قد يحتاج مرشدٌ روحي لتشكيلة كبيرة من سيارات (الرولز رويس)، وساعات من نوع (روليكس)؟ يمكن لتلك الأموال أن توظف في أمور أخرى أكثر أهمية. لكن على ما يبدو، فإن أتباعه كانوا يجدون لتلك العطايا مغزًى خاصًّا، فقد قيل لي: إنها طريقتهم التي يتوسلون من خلالها إلى تخطي أفكارهم النمطية، ولكنني لم أقتنع بذلك.

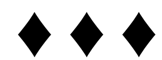
استمتعت جدًّا في الولايات المتحدة الأمريكية بحياة الطالبة الضيفة التي لا تثقل كاهلها أي التزامات، واستمتعت أيضًا باستعراض يوم الاستقلال في الرابع من تموز، وحفلات الطلبة التي لا تنتهي. لكن الأمر الذي أزعجني في الولايات المتحدة هو الطابع التجاري المبالغ فيه الذي يميز أعياد الميلاد السنوية. حيث كانت موسيقا الأعياد والعروض والإعلانات التجارية تبث على شاشات التلفاز منذ شهر سبتمبر. ومن الطرائف التي أذكرها؛ أني كنت أتلقى أحيانًا أسئلة غريبة، مثل: «هل برلين توجد في لندن؟».

كنت أذهب مع أصدقائي إلى مدينة سان فرانسيسكو،حيث تعرفت على أصول حركة (الهيبيز). وتعرفت أيضًا على حركة (البيتنكس) وهي الساحة الأدبية الرومانسية التي تضم شعراء ومتمردين، التي كانت مصدر إلهام حركة (الهيبيز). وذات مرة، عملت مساعدة في محل لبيع الكتب المستعملة، وكانت رفوفه تعج بكثير من كتب حركة (البيتنكس). وحصلت

لقاء عملي هذا، على كتابٍ قديمٍ في تسفير مذهب اسمه (رباعيات عمر الخيام)، وهو تحفة من تحف الأدب الفارسي. ولم أتصور حينها، أن تلك الهدية كانت تحمل إشارة تُنبِئ بما سيؤول إليه مستقبلي في قادم السنين.

كنت سعيدة جدًّا في الولايات المتحدة الأمريكية. وبينما كانت سنتي تلك تقترب من نهايتها، لم أكن أرغب في العودة إلى ألمانيا مرة أخرى. وكنت قد تعلمت كيف أعتمد على نفسي في بلد غير بلدي، وكيف أقدر تلك الاستقلالية التي اكتشفتها. وام أعد تلك الفتاة الصغيرة التي كنت عليها في السابق. وكنت أظن أني كبرت، وأخشى أن أفقد تلك المساحة الجديدة التي اكتسبتها في حياتي. وعندما عدت إلى هامبورج، فعلت ما يفعله الشباب في سن السابعة عشرة الذين ينبضون بالحيوية، ويصبون إلى التحرر من كل القيود، فرميت بنفسي في أحضان ثقافة النوادي الليلية.

كانت ألمانيا حينها تشهد ولادة تلك الثقافة. فموسيقا (البانك) التي رأت النور في لندن، ألهمت ما أُطلق عليه حينها (الموجة الألمانية الجديدة). وقد استولت بطابعها الثوري، وطاقتها الجامحة على روح العصر عندئذٍ، وكان من بين الشعارات التي راجت في تلك الحقبة، ما كان يطلق عليه بعبارة: «اطرحه أرضًا، أريد أن أستمتع». وقد كان ذلك التعبير يصف بدقة ما كنت أشعر به. كنت أنا وصديقتاي، نورا وبريجيت، نعشق الخروج والرقص طوال الليل في أشهر نوادي هامبورج الليلية حينها، وهي: (تشاتشا)، و(أفترأيت)، و(مادهاوس)، و(بسيرس)، و(جالا). وكنت أهوى الرقص، وكنت مولعة ببرنس ودافيد باوي وإيجي بوب وكثيرين غيرهم بلا عدد.



كنت في السنة النهائية في المدرسة، حين استوقفني ذات مرة مصور

فوتو غرافي، وأنا في طريقي إلى البيت. وأخبرني بأنه يعمل لدى إحدى الصحف، وكانت بصدد إجراء مسابقة لعارضات الأزياء، وسألني إن كان بإمكانه التقاط صورة لي. و لم أَدْرِ إن كان عليَّ أن أصدق كلامه، لكنه أراني بطاقة هويته، واتصل بي لاحقًا في البيت؛ ليشرح لوالدي التفاصيل كلها، فقررت خوض تلك التجربة. ووقفت في أثناء حصة التصوير إلى جانب بحيرة، وأنا أرتدي قميصًا بأكمام قصيرة، وسترة جلدية سوداء، من دون أن أضع مساحيق تجميل. وكم كانت مفاجأتي كبيرة حين اختارتني تلك الصحيفة على أني «أجمل فتاة في هامبورغ». وبُعَيْد ذلك بوقت قصير، اتصلت بي وكالة عرض أزياء. عملنا خلال بعض جلسات التصوير التي كانت تسمى اختبارات، لكنني سرعان ما أدركت أن عرض الأزياء لم يكن يناسبني. و لم يرق لي أن أستجيب لأوامر المصور، وهو يطلب مني أن أتخذ هذه الوضعية أو تلك أمام عدسته، أو أن أكشف عن كـتفي، أو أرنو إلى الكاميرا في غنج، وأنحني إلى الأمام؛ لأُبِين عن جَيْبِي. وعلى الرغم من ذلك، تحمست لنيل جائزة مسابقة الجمال، التي كانت عبارة عن رحلة من خمس نجوم لشخصين إلى سان فرانسيسكو وماوي في الولايات المتحدة، مع وضع سيارة مؤجرة تحت تصرف الفائزة. أما بالنسبة إلى أمي، فكانت تلك الجائزة تنم عن انعدام حسّ المسؤولية لدى الصحيفة، ولا سيما فيما يتعلق بالسيارة المؤجرة. ذلك أني لم أكن قد بلغت الثامنة عشرة بعد، وكنت قد حصلت على رخصة سياقة في السنة السابقة، بعد أن اجتزت اختباراً يقوم على التأشير على لجواب الصحيح من بين اختيارات عدة. واتصلت أمي بالقائمين على الجائزة؛ لتبلغهم بعدم رضاها عن ذلك، ولكن ذلك لم يجد نفعًا.

ورافقتني بريجيت في تلك الرحلة، فذهبنا إلى سان فرانسيسكو، ثم إلى بورتلاند، حيث زرت بعض زملاء الدراسة السابقين هناك؛ ومن ثَم ذهبنا

إلى لوس أنجلوس وماوي، وقضينا وقتًا رائعًا، وقابلنا أناسًا مثيرين للاهتمام خلال تلك الرحلة. كان من بين من قابلنا هم أمريكي من أصل إفريقي، كان يتحدث الألمانية البافارية بكل طلاقة. وتبيّن لي لاحقًا أنه مدمن كوكايين. والتقينا كذلك رجلًا من سكان أمريكا الأصليين، كان يعيش مع كلبه في مغارة على شاطئ ماوي. وفي إحدى الأماسي، خرجنا ونحن في سان فرانسيسكو، وتهنا في المدينة الشاسعة، فقصدنا شرطيًّا؛ لنسأله عن بعض الإرشادات. وما إن وقفنا أمام الشرطي، حتى وقعت لفافة مخدرات من جيبي أمامه مباشرة، فوضعت قدمي عليها بسرعة، فقال: «لقد رأيت ذلك !»، فاحمرّ وجهانا غضبًا، وأخذنا نفسر له أننا قدمنا توًّا من أوريجين، حيث يسمح بحيازة الحشيش للاستهلاك الشخصي. فلم يتركنا الشرطي نمضي إلى حال سبيلنا فحسب، بل طلب منّا أن نعطيه أرقام هواتفنا، وهو أمر لم نفعله بطبيعة الحال. كان والدَ اي قلقين جدًّا بشأننا؛ لأنه، قبل أن تصلهما بطاقاتنا البريدية، كانا قد توصلا من الشرطة الأمريكية بكثير من الرسائل المفصلة، عن مخالفات السير الإحدى عشرة التي جمعناها في سان فرانسيسكو.

فعدت إلى هامبورج، وحصلت على الشهادة الثانوية. لم تكن الرؤية واضحة بالنسبة إلي على المستوى المهني، فبدأت تدريبًا في وكالة للإعلانات. خلت أني سأستمتع بتلك الوظيفة، لكن سرعان ما تبين لي عكس ذلك. ولم أتمكن من أن أتعايش مع فكرة أن أقضي مسيرتي المهنية بكل دأب، في الترويج لأي شيء وكل شيء؛ من أجل كسب المال. ولا أوضح على العبث الذي يمثله ذلك من استخدام اقتباس مشهور للشاعر الألماني جوته، يقول فيه: «ابقَ قليلًا»في حملة دعائية لنوع معين من السجائر. كانت تلك طريقة أصحاب الدعاية لإيصال رسالة مفادها: «أن تلك السجائر هي الأفضل على الإطلاق». وعلى الرغم من أني كنت أدخن وقتها، فإني لم أكن

أشعر بأن تلك طريقة سليمة في الدعاية، وسرعان ما تركت العمل في مجال الإعلانات.

وبينما كنت أعمل في مقهًى تقصده أسماء من عالم الإعلام في هامبورج؛ لاحتساء قهوة (الكابوتشينو)، حصلت على فرصة إجراء مقابلة في راديو هامبورج. كنت أتصور نفسي، وأنا أجري وراء الحقيقة، وأكشف الفضائح السياسية، واستهوتني فكرة أن أتجول وأنا ممسكة بميكروفون، وأجري حوارات مع الناس. كانت إمكانية العمل في مجال الموسيقا متعة إضافية بالنسبة إلي. فتقدمت بطلب العمل بصفتي متدربة مدة سنتين، وحصلت على تلك الوظيفة.



عملت في كل قسم من أقسام الإذاعة، بداية من قسم الأخبار، ومروراً بقسم الشباب، وراديو الشرطة، وبرامج الخدمات، والتقارير التي تُرسل من موقع الحدث، والتحليلات المعمقة، وقصاصات الأخبار ذات الطابع الإنساني. كان كل يوم عمل يحمل لي مشروعات جديدة بتحديات جديدة. وتمكنت بفضل تلك الوظيفة من أن أجري مقابلات مع أصناف شتى من الناس، من رؤساء المجالس المحلية، إلى أصحاب طاولات عرض السلع في الأسواق.

وعلى الرغم من أن التدريب في حد ذاته كان ذا هيكلية واضحة، فإن سياسة راديو هامبورج كانت تشجع المتدربين على أنجاز تقارير عن موضوعات محببة لهم. وكانت الموضوعات التي تستهويني أقرب إلى الفنون والثقافة، وغيرها من الأمور الحياتية. وأنجزت مرة تقريرًا عن السحر في مدارس هامبورج، بناءً على ما كان يروج من إشاعات عن أن تلاميذ المدارس يذبحون طيور الدجاج في محاولة لاستحضار الشيطان،

ويصلّون لصلبان مقلوبة. ولإنجاز تقرير (الأطفال والماورائيات)، أجريت حوارًا مع أخت بريجيت وزملائها في الفصل الذين كانوا يزعمون أنهم يحضرون فيه الأرواح عن طريق لَعِبِ (الويجا) [(1)]. وخلال محاورتي لهم، بدأ الأطفال يبكون من الخوف؛ لأن الظاهر أن لعبة (الويجا) نجحت أكثر من اللازم. وقد أَضَفتُ إلى التقرير صوتَ راهبٍ، وصوتًا أخر حصلت عليه من (معهد الدراسات الماورائية). وبعد إذاعة هذا التقرير، اتصلت بي (بيلد)، وهي إحدى الصحف الألمانية الصفراء الواسعة الانتشار، للسؤال عن أمكانية نشر التقرير على صفحاتها.

كان مديريَّ في العمل سعداء جدًّا بعملي، ولم يمر وقت طويل حتى بدؤوا يرسلونني لتغطية أحداث أكثر أهمية. أذكر من تلك الأحداث (لونا لونا بارك)، وهو معرض في الهواء الطلق من تصميم أندري هيلير، نُظّم بالقرب من محطة قطار دامتور. كانت منحوتاتٌ عملاقةٌ من إبداع الرسام الجرافيتي الأميركي الراحل كيث هارينج معروضة إلى جانب إبداعات رسامين آخرين من نيويورك، مثل كيني شارب، وروي ليختنشتاين على جانب من الطريق قبالة المحطة، فيما كانت واجهة أخرى من المعرض تعرض موسيقا المؤلف الموسيقي فيليب جلاس.

وبينما كنت أتجول بين معروضات تلك الساحة، وأجمع المعلومات الممكنة كلها عنها، اسعتوقفني مصور من نيويورك، وقال: «إنه صديق لبعض أصحاب الأعمال المعروضة من الفنانين»، ودعاني إلى حضور الندوة الصحفية التي كانت ستنظم تلك الليلة خلال حفل العشاء الذي كان ينتظر إقامته بحضور بعض أولئك الفنانين. فقبلت الدعوة فورًا؛ على أمل أن تتاح لي فرصة إجراء حوار مع كيث هارينج، الذي كان من فنانيّ المفضلين.

وكانت تلك أول مقابلة أجريها مع شخصية مشهورة. وبعد تناول الطبق الرئيس، توجهت مع كيث إلى غرفة جانبية، وطرحت عليه أسئلتي. وكان ببنيته النحيلة، ونظارته وقميصه القصير الأكمام الذي كان ذا لونٍ أصفر براق جدًّا، يذكّرني شيئًا ما بوودي آلان في شبابه. وكان حوارًا صريحًا ومثيرًا للاهتمام. وعلى الرغم من أنني كنت متوترة بعض الشيء في البداية، فإن كيث جعلني أشعر بالراحة، وتحدث إليّ عن البعد الكوني الذي تصبو إليه أعماله. وأخبرني أيضًا بأن تلك الأعمال تخاطب كلًّا من البرازيليين الأصليين في أدغال الغابات، ورجال الأعمال في نيويورك، هذه المدينة التي أصبحت أشبه بغابة حضرية.

استمتعت بعملي في راديو هامبورج غاية الاستمتاع، لكن المدينة أصبحت تضيق بي تدريجيًّا، وبدأت أشعر برغبة في أن أغادرها؛ لمعانقة آفاق أرحب. وكنت أودّ أن أرمي بنفسي في أحضان العالم الواسع من جديد، وبنفس بُعدِ الأرض التي ذهبت إليها حين شاركت في برنامج التبادل الأكاديمي. أصبحت لندن الوجهة التي صرت أحلم بالذهاب إليها. إذ كنت قد زرت العاصمة البريطانية مرة أومرتنين من قبل، واستمتعت بذلك كثيرًا. وخُيِّلَ إليَّ أنه من الممكن - تحقيق أي شيء هناك. وذهبت سنة 1988م، بصحبة صديقتي بريجيت إلى لندن باالحافلة؛ لحضور الحفل الموسيقي الذي نُظم لتكريم زعيم جنوب إفريقيا نلسون مانديلا. وكان يومًا مشمسًا من أيام شهر يونيو، وكنّا ضمن جموع تقدر بثمانية آلاف شخص من معجبي مانديلا في إستاد ويمبلي؛ لمشاهدة عروض لأسماء مشهورة، مثل برايان آدامز، وسيمبل مايندز، شاركت في ذلك الحفل احتجاجًا على نظام التمييز العنصري، وتتحالف من أجل المطالبة بالإفراج عن نلسون مانديلا الذي كان آنذاك لا يزال حبيس القضبان في جنوب أفريقيا. لقد كانت أجواء ذلك الحفل مهيبة حقًّا. تابعنا المغنية تريسي

تشابمان، وهي تغني مباشرة أول مرة. وكانت هذه الفنانة غير معروفة حينها، لكن أداءها الرائع يومها لأغنية (الحديث عن ثورة) قذف بها إلى عالم النجومية، وأصبحت تتمتع بشهرة عالمية. وبعد يوم طويلٍ وحارٍّ ومتعبٍ في ذلك الحفل، تناولنا على العشاء طعامًا صينيًّا، واستسلمنا للنوم في فندق بسيط كان كل ما يُقدَّم فيه سرير ووجبة إفطار. وفي اليوم الموالي، التقينا دُوم، وهو أخ بِين، من فرقة (كريوسيتي كيلت ذ كات). وكنّا نعرف دوم من هامبورج، فقد عاش بها مدة من الزمن. فاخذنا دوم وبِين إلى ساحة (كافنت جاردن)، وهي ساحة جميلة في قلب لندن يتردد عليها الناس للتسوق، وتنتظم بها المتاجر والمقاهي، ويُقدّم فيها فنانو الشوارع أعمالهم. كانت لندن مدينة عالمية مثيرة، وكان إيقاعها يناسبني تمامًا. فقررت أن تصبح هذه المدينة وطني الجديد. لكن السؤال الوحيد الذي كان يطرح نفسه بإلحاح هو: كيف أحقق تلك الأمنية؟

باءت محاولتي أول مرة حاولت فيها أن أحلق إلى لندن، بالفشل. وعلم مديري في راديو هامبورج أني كنت سأذهب إلى لندن، وعرض عليّ أن يرتب لي مقابلة عمل مع (كابيتال راديو). وكنت متحمسة جدًّا لذلك، وعقدت عزمي على أن أنقضّ على تلك الفرصة بكل ما أوتيت من جهد. غير أن الرحلة بالحافلة إلى لندن كانت متعبة جدًّا، ولم نكن أنا وبريجيت مستعدتين لأن نتحمل العناء نفسه في طريق عودتنا إلى ألمانيا، فقررنا أن نحجز في الطائرة الوحيدة التي كنّا نستطيع أن ندفع ثمن تذكرتها إلى هامبورج، لكن موعد الرحلة كان هو يوم المقابلة بالتحديد. فما كان مني إلا أن ذهبت إلى (كابيتال راديو)؛ لحضور المقابلة قبل موعدها بيوم واحد. لم ينبهر المدير كثيرًا بذلك، ورفض مقابلتي، وهو أمر يمكن تفهمه. وكما هي الأمور في الحياة، حدث شيء بعدها بدا كأنه مصادفة صرفة، غير أنه كان في الحقيقة تدبيرًا من تدابير القدر. وكان لي صديق يعلم كم كنت

أودّ الانتقال إلى لندن، وقد لمح في إحدى المجلات إعلانًا عن فرصة عمل في لندن. كانت محطة إم تي ڤي الموسيقية، التي لم تكن ذات شعبية كبيرة في ألمانيا حينها، تسعى إلى أن تبعث نفسًا جديدًا في برامجها، فصارت تبحث عن شباب مفعمين بالحيوية لتقديم برامج المحطة، ومساعدتها على ترسيخ وجودها في أوروبا بعد النجاح الذي لاقته في الولايات المتحدة الأمريكية منذ 1981م. ولهذا الغرض، أرادت أن توظف وجوهًا شابة لتقديم الأغاني المسجلة على طريقة الفيديو كليب. ولم يكن الفيديو كليب في ذلك الوقت، معروفًا في ألمانيا. وكانت فكرة إعداد شريط مصور يرافق أغنية بوب فنًّا جديدًا تمامًا. لكن الجزئية الفضلى في عرض العمل هذا، هي أنه سيتعيّن على من سيحصل على تلك الوظيفة أن ينتقل إلى لندن، بموجب عقد العمل الذي ينص على ذلك، ولم أصدق ذلك. وكان من بين شروط الوظيفة التحدث باللغة الإنجليزية بطلاقة؛ ولأن تلك لم تكن مسألة صعبة بالنسبة إليّ، قررت أن أقدم طلب ترشحي لتلك الوظيفة. وبكل حماس، أخذت أكتب طلبي على آلة كتابة قديمة، ووضعته في ظرف إلى جانب نموذج تقديم ابتكرته لأحد الكليبات القلائل التي تمكنت من إيجادها آنذاك. وكان الكليب عبارة عن محاكاة لطريقة مايكل جاكسون في الرقص. ودعوت من كل قلبي أن يحظى طلبي بالقبول، ثم أرسلت الظرف إلى لندن.

مضت شهور طويلة دون أن أتلقى أي اتصال من المحطة، فنسيت الموضوع برمته. لكن في أحد الأيام، تفاجأت بتلقي تلغراف يحمل لي دعوة كي أذهب إلى برلين؛ لأجري اختبار تقديم برنامج فيديو كليب، فاهتز قلبي لقراءة ذلك التلغراف.

لكن بعد أن هدأ حماس تلك الفرحة، أدركت أن موعد ذلك الاختبار

يقع صباح اليوم الذي يعقب حفل المغني الأميركي برنس، الذي انتظرته طويلًا بفارغ الصبر. وكان هذا الحفل ضمن جولته الأوروبية لتقديم أغاني ألبومه الجديد (لوف سيكسي)، وكنت من أشد المعجبات بذلك الألبوم. كنت أحب موسيقاه، ولا سيما أغانية الجميلة (وين دوفز كراي)، وأغنيته الشهيرة (بوربل رين)، وأغنية (يوجوت ذ لوك) التي قدمها بأسلوب الروك، و(ساين أوف ذ تايمز). وكان حضور حفلته مسألة لا تقبل النقاش بالنسبة إليّ، ولا مجال لأن أتخلف عنها. ثم إني منيت نفسي بالذهاب مع أصدقائي إلى حفلة تعقب العرض الغنائي في نادي (جروس فرايهايت 36) الليلي، خارج ريبرباهن، بالقرب من المكان الذي كانت فرقة (البيتلز) الموسيقية تغني فيه بانتظام. وقد علمت أنا وأصدقائي أن برنسى سيغني في هذه الحفلة وصلة غنائية بصفة خاصة، لكن عرضه ذاك لن يبدأ حتى ما بعد منتصف الليل بوقت طويل. ومن جانب آخر، كان اختبار الأداء مقررًا في الساعة التاسعة صباحًا من اليوم التالي. وكان من المستحيل أن أذهب في تلك الرحلة الطويلة والمتعبة إلى برلين، وأحضر الاختبار بعد أن ينال التعب مني مبلغه؛ لأن الرحلة من هامبورج في ألمانيا الشرقية إلى برلين في ألمانيا الغربية تستغرق نحو أربع ساعات.

فكرت في تلك التفاصيل كلها، وقررت أن أتصل بمحطة إم تي ڤي، وأشرح لهم معضلتي. وقلت لهم: «إن عملي في إذاعة هامبورج يقتضي مني أن أغطي الحفل الموسيقي والحفلة التي تعقبه». كان ذلك صحيحًا إلى حد ما، فقد كنت أنوي أن أخبر المستمعين بقصة حضوري حفل برنس الموسيقي والحفلة التي تعقبه. كم كانت مفاجأتي كبيرة حين تفهم المسؤلون في إم تي ڤي الأمر، وأجّلوا موعد الاختبار بعد يومين. كان برنت هانسن، الذي كان حينها أحد محرري الأخبار بالمحطة، هو من أشرف على اختباري، وكان من أشد المعجبين ببرنس مثلي تمامًا.

كان الحفل الموسيقي في (إستاد فولكسبارك) بهامبورج رائعًا وصاخبًا؛ لدرجة أنه بعد ذلك الحفل، صُدِّق على قانون يحدد مستوى الصوت المقبول في مثل هذه العروض الموسيقية. أما الحفلة التي أعقبت العرض، فكانت تتويجًا لليلة رائعة. راح رون وود، عازف الجيتار في فرقة (رولينج ستونز)، يزاحم برنسى على خشبة المسرح إلى أن أُلقِيَ به من على المنصة، فيما انضم مافيس ستايبلس، فنان الإيقاع و(البلوز) الأمريكي، إلى برنس وأدّيا أغنية معًا. وعلى الرغم من أنني استيقظت في الخامسة صباحًا، وعملت خلال مدة الدوام الصباحية في المحطة، فإنني كنت أرقص من كل قلبي بفستان أحمر منسابٍ, ولم يكن قد غمض لي جفن طوال اثنتين وعشرين ساعة. وخلال استراحة قصيرة تخللت الحفل، ربت أحدهم على كتفي، فالتفت، فإذا بشخصٍ في الأربعين من عمره يقدم نفسه على أنه رولاند فاكل، منسق جولة برنس، وقال لي: «مدير أعمال برنس يودّ مقابلتك». فظننت أنها فقط طريقة حاذقة لكي يتمكن من التحدث إليّ، فأجبت دون اكتراث، وأنا أمد له بطاقة تعريفي المهنية؛ «يمكنه أن يتصل بي في المكتب، أليس كذلك؟».

لم أتوقع أن يتصل بي أحد في اليوم الموالي، غير أن رولاند اتصل فعلًا. ودعاني إلى حضور عرض برنس الثاني الذي كان سيقام مساء اليوم نفسه في هامبورج، فقبلت الدعوة فورًا. ولم يكن لديّ أدنى فكرة عما يريده مني مدير الأعمال، غير أن فرصة الحصول على تذكرة لمتابعة حفل برنس من الصف الأمامي لم تكن لِتُفوَّت. ومع حلول المساء، أتت سيارة (ليموزين) كبرة بزجاج قاتم اللون لتقلني إلى الإستاد، وكنت قد أنهيت توًّا تقديم أفضل عشرين أغنية أمريكية لكايسي قاسم في المحطة. وبمجرد وصولنا، أقبل عليّ رجل طويل القامة وبدين بعض الشيء، يرتدي سترة زرقاء عادية قاتمة اللون، وسروال جينز، ويضع على عينية نظارات إطارها أسود اللون،

وشعره يخالط سواده بياضه، وقال إن اسمه ستيف فارجنولي، مدير أعمال برنس. كان ودودًا جدًّا، بل وبدا عليه بعض الخجل. واقترح أن نلتقي بعد الحفل؛ لأنه كان مشغولًا حينها.

وقبل أن ينتهي برنس من أداء آخر أغنية في تلك السهرة، هُرِعَ بي إلى إحدى سيارات (الليموزين) التي أقلتني إلى اللفندق الذي يقيم فيه برنس وكل مرافقيه. وكان جناح مدير الأعمال مكانًا يلتقون فيه جميعًا، وكان منهم أفضل الموسيقيين، والوكلاء، والمصورون، وعارضات الأزياء، ومديرون تنفيذيون في مجال التلفزيون. وكنّا جميعًا ننتظر أن يستعدّ برنس للذهاب إلى (مادهاوس)، وهونادٍ ليلي لا يبعد كثيرًا عن مكان الفندق. وتسنّى لي وستيف أن نتحدث بعجالة، وسألني عن عملي، فأخبرته عن الاختبار الذي سأخضع له في برلين بعد أيام قليلة. وذكر لي عندها أنه صديق لمارك بوث، الذي كان وقتها مدير محطة إم تي ڤي التنفيذي. وأخبرني كذلك بأنه كان بصدد الانتقال إلي لندن هو الآخر؛ لأنه أحب تلك المدينة، ولأن أحد فنانيه، وهو كارل والينجر، من فرقة (وورلد بارتي)، كان يعيش هناك. وحدثني ستيف عن نفسه قليلًا، وقال لي إنه أشرف على إدارة أعمال مجموعات موسيقية عدة، مثل: (أورث) و(ويند آند فاير) و (سلاي) و (فاملي ستون)، وحكى لي أيضًا كيف أنه، حالما بدأ الاشتغال مع برنس، ساعده على إنجاح ألبومه (بوربل رين)، الذي لاقى نجاحًا كبيرًا. وحين ودّعنا بعضنا بعضًا، تواعدنا على أن نبقى على اتصال.

وبعد يومين من ذلك، كنت في طريقي إلى الاختبار الموعود في برلين، وأنا أعيد في ذهني ذكريات الأماسي السابقة في هامبورج. وإضافة إلى مدير أعمال برنس، التقيت نصف عدد الناس الذين كانوا يرافقونه، بل وقد قدمني ستيف لبرنسى نفسه في نادي (مادهاوس) الليلي. ولم يكن

طويل القامة، لكنه كان يبدو رائعًا في حذائه ذي الكعب العالي، وسترته الطولية بطرازها الأنيق، وقفازه الأبيض. وتبادلنا بضع كلمات، ووجدت أن صوته كان عميقًا وناعمًا. وكان هذا الحدث رحلة حقيقية حلقت معها إلى عنان السماء فرحًا. لقد بلغ الحماسى مني لتلك التجربة أني، حين طلب مني برنت هانسن خلال الاختبار أن أقدم وصفًا مقتضبًا لتلك التجربة أمام الكاميرا، انطلق لساني، وتدفقت الكلمات تِباعًا، ورُحت أحكي كل ما عشته بكل عفوية. وزال عني كل الارتباك والحيرة في تلك اللحظة، وكدت أنسى أني في اختبار لنيل وظيفة.

ثم عدت أدراجي إلى هامبورج، وواصلت عملي في الإذاعة شهورًا عدة دون أن يردني أي خبر من إم تي ڤي، إلى أن فوجئت مرة أخرى بدعوة؛ لإجراء مقابلة جديدة، لكن هذه المرة كانت في لندن. ونزلت في ضيافة إم تي ڤي بفندق صغير بجوار (هولاند بارك)، وكان فندقًا يفضله كثير من نجوم (الروك)، واعتادت القناة أن تستضيف فيه ضيوفها. حيث قضيت ليلتي فيه، وفي صباح اليوم التالي، أقلتني سيارة أجرة كبيرة سوداء إلى إستوديوهات إم تي ڤي بحي (كامدن)، الذي كان يعج بالمقاهي والحانات، وطاولات بيع السترات الجلدية، والقمصان ذات الأكمام القصيرة. وكانت تنتشر فيه مقاهي (الهيب)، وكثير من المطاعم المتخصصة في إعداد الطعام المكسيكي والإيطالي والفرنسي.

وما إن وصلت أمام مبنى محطة إم تي ڤي حتى حيّاني شابان في مقتبل العمر، هما هينريك من السويد، وجاستن من أستراليا. وكان الاثنان مضيفين رائعين، وأثنيا على لباسي، حيث كنت أرتدي فستاناً أحمر قصيرًا بقميص قصير الأكمام، من تصميم جون بول جوتيي جونيور، وسروالًا ضيقًا مخططًا بالأبيض ولأسود، إضافة إلى سترة من (الدينيم). وساعداني

بتعاملهما غير المتكلف، وخفة ظل طرائفهما على ان أتخلص من توتري، وأستمتع بوقتي. وكان عليّ أن أقدم أغنيتين، وأن أتحدث إلى الكاميرا، وأجري حوارًا. فسارت الأمور على خير ما يرام. وفي المساء، دعاني برنت هانسن وزوجته، بيب دان، التي كانت واحدة من مقدمي البرامج في إم تي ڤي، إلى تناول وجبة العشاء. وكان الأمر أشبه بتناول (السوشي) برفقة أصدقاء منه إلى التعامل مع أناس قد يكونون مديريّ في المستقبل. سردا لي تاريخ المحطة، وحدثاني عما يعنيه العمل بها، وأنه يمكّن من مقابلة عدد هائل من الموسيقيين المشهورين.

بدأت قصة إم تي ڤي في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1981م، بأغنية مجموعة باجلز، (فيديو كيلد ذ ريديوستار) أيْ، الفيديو قتل نجم الراديو. حيث كانت الأغاني المصورة نادرة في ذلك الحين. وانطلقت القناة في بادئ الأمر بستة فيديوهات كليب فقط، وكانت تُذَاعُ مِرارًا وتَكرارًا طوال اليوم. وأحيانًا، عندما كان العاملون بالمحطة يغيرون شرائط الفيديو، كان الصمت يسود الشاشة بضع ثوانٍ بين الأغنية والأخرى. غير أن كل شيء تغيّر تمامًا بعد بروز بيلي آيدول، ومادونا، وأوريثميكس ومايكل جاكسون بڤيديوهاتهم التي كانت تحمل أنماطًا جديدة في التصوير والإبداع. وفي سنة 1988م، بدأت إم تي ڤي بثها في أوروبا بأغنية (مانى فورناثينج) أيْ، مال من أجل لا شيء، لمجموعة (داير سترايتس). وأصبحت محطة إم تي ڤي ظاهرة عالمية؛ بوصفها محطة الشباب الأولى في العالم.

عدت إلى هامبورج، ومرة أخرى لم يتصل بي أحد شهورًا عدة. وكانت مدة تدريبي تقترب من نهايتها، وكان عليّ أن أفكر بجدّ في التخطيط لمستقبلي. فتقدمت بطلب عمل لدى (شبيجل تي في)، وهو برنامج من إعداد صحيفة (دير شبيجل) السياسية الأسبوعية التي تتمتع بتأثير كبير في

الرأي العام في ألمانيا. وكنت على وشك قبول وظيفة منتجة برامج، حين تلقيت اتصالًا هاتفيًّا من لندن.

عرفت برنت هانسن من صوته، وسألني: «هل تودين الحصول على الوظيفة؟» فغمرني حماس كبير، وأجبت بلا تردد: «إني لا أود الحصول على شيء أكثر من تلك الوظيفة».

وكان عليّ أن أرحل إلى لندن فور انقضاء مدة تدريبي في راديو هامبوج. وكان مديريَّ في هامبورج سعداء جدًّا بحصولي على الوظيفة، وفخورين جدًّا بي. وكان قد فُتح حينئذٍ باب أمامي سيغير مسار حياتي إلى الأبد، لكنني لم أكن أدرك ذلك حينها. وكان عليّ أن أثبت جدارتي بنيل تلك الوظيفة، وإلا فسأصبح بلا عمل في لمح البصر.



---

[1] هي طريقة استرخاء روحية هندية تعتمد على جلستين صباحًا ومساء. ويقول رجل هندي يدعى مهاريشي ماهش يوغي إنه أعاد اكتشافها.

[1] لعبة تتكون من لوح عليه أرقام وحروف يُعتَقَدُ في قدرتها على تحضر الأرواح.

الفصل الثالث

حياتي بصفتي مقدمة فيديو كيبات على محطة إم تي ڤي

لا سبيل إلا للعُلا.

ياز

كانت لندن رائعة منذ البداية، ولم أندم قطّ على قرار الانتقال إليها.

لاحظت في هذه المدينة أنها تولي أهمية كبيرة الحقوق الفرد من شتى أنواعِ البشر. فترى الناس مثلًا، على اختلافهم ممتثلين لإشارة المرور الحمراء دون أن يلتفت أي منهم إلى الآخر. وكانت شوارع لندن ترحب بالمراهقين والراهبات، واللاهيات والمتنقبات، والجامعيين ورجالِ الأعمال وموظفي المصارف، والفقراء والأثرياء. ولاحظت أيضًا وجود أجناس متعددة من الناس، فمنهم الهندي والعربي والآسيوي. ولاحظت كذلك أن اختلاف أنماط اللباس والطعام مظهر آخر من مظاهر تعدد الثقافات وتنوعها الذي يميز هذه المدينة. ولا شك في أن الماضي الاستعماري للإمبر اطورية التي لا تغيب عنها الشمس أدّى دورًا مهمًّا في هذا التعدد والتنوع.

قضيت الشهر الأول في مدينتي الجديدة في غرفة صغيرة استأجرتها من مصور اسمه برايان، قابلته خلال جولة برنس في هامبورج، وكان زميلًا لي في محطلة إم تي ڤي، قدِم من نيويورك، وساعدني على إيجاد شقة جميلة وقريبة في حي (نوتينغ هيل)، حيث كانت البيوت الكبيرة بأسقفها العالية تصطف على جنبات الشارع المحفوف بالأشجار المورِقة. وتقاسمت تلك الشقة مع فتاة اسمها كارولين، وكانت مصممة جرافيك سويسرية تعمل في مجلة (ميلودي مايكر)، التي كانت أهم مجلة تُعنى بصناعة الموسيقا في ذلك الوقت. فشعرت منذ البداية بالارتياح في ذلك الحي الذي كان يقع في غرب لندن. وكان حيًّا بوهيميًّا ينبض بثقافات عدة، وكان أيضًا يشتهر

بروّاده من الفنانين، وصُنّاع الأفلام، والموسيقيين، وعارضات الأزياء، والصحفيين، إضافة إلى عدد من المهاجرين الأفارقة الذين قدموا إليه من منطقة الكاريبي. لقد كان هذا التنوع يعطي لهنا الحي نكهةخاصة.

في أول يوم عمل لي في محطة إم تي ڤي، أقلّني قطار الأنفاق إلى كامدن. حيث كان كل شيء جديدًا بالنسبة إليّ، المدينة والعمل والناس واللغة بطبيعة الحال. وكانت الطريقة البريطانية في التحدث بالإنجليزية أسلوبي الجديد في التواصل. وعلى الرغم من أنني اجتزت اختبار الأداء في البداية، فإنني كنت أتساءل: هل مستواي في اللغة الإنجليزية جيد بما فيه الكفاية لكي أكون مقدمة برامج تلفزيونية. لم أصدق عينّي حين رأيت أعلى مديرين في محطة إم تي ڤي بالمرتبة نفسها في القطار الذي كنت فيه. فشعرت برغبة في أن أقفز إلى المقطورة المجاورة؛ كي أتفادى لقاءهما، لكنهما حيّياني بلطف. وكان أحدهما بيل رودي، الذي خلف مارك بوث على رأس إم تي ڤي أوروبا. وكان قرار تعييني في المحطة من بين آخر القرارات التي اتخذها مارك قبل رحيله. أما الآخر، فكان توم فريستون، وكان واحداً من أولئك الشبان المفعمين بالحيوية، وكان قد عمل مع مارك على إطلاق إم تي ڤي الولايات المتحدة. وقد أصبح فيما بعد مديرًا تنفيذيًّا لمجموعة إم تي ڤي كلها. وكان من صنف رجال الأعمال الصارمين، على الرغم من أنه كان من عشّاق الموسيقا، وكان برنس من بين فنانيه المفضلين.

كان بيل رئيسًا رائعًا؛ يبذل كل ما يستطيع من أجل مرؤوسيه، فيشجعنا دائمًا حين لا تسير الأمور وفقًا للتوقعات، وكان أيضًا يحرص على أن نحضر حفلات ألمع الأسماء في عالم صناعة الموسيقا. أذكر أنه بعد أن غادرت إم تي ڤي بوقت طويل، اتصل بي القائمون عليها كي أعود للمحطة،

وأقدم برنامج (أعظم الأغاني)، فأرسل لي بطاقة بريدية كَتَبَ فيها: «لم يكن برنامج أعظم الأغاني أعظم مما هو عليه اليوم».

ولكنني في ذلك اليوم، شعرت ببعض الرهبة في القطار، حين جلسن بقربي كل من بيل وتوم، حيث كان يرتدي كل منهما بذلة رسمية، في حين كنت أنا أرتدي سروال جينز. وعلى الرغم من ذلك، بدا الاثنان هادئين جدًّا، وقد هدّأت روحهما المرحة من توتري. وربما كان دخولي مبنى إم تي ڤي، أولَ يوم عمل لي، وأنا أبتسم بصحبة أعلى مديرين رتبة في المحطة، بشرى خير لما ستحمله لي الأيام بين أحضانها.

كان مقر إم تي ڤي يقع في بناية مكوّنة من أدوار عدة، وكان مقسَّمًا إلى مكاتب عدة، تختلف من حيث حجمها. فكانت أقسام الصحافة والتسويق والإدارة والإنتاج والتسيير كلها تقع تحت سقف واحد، في حين كان أستوديو التسجيل على بعد عشر دقائق سيرًا على الأقدام من ذلك المبنى. وكان لكل مقدم برامج غرفة صغيرة خاصة به، فيها مرآة كبرة، رُصَّ على جنبات إطارها عدد هائل من المصابيح. وكان لي هاتف وصُوان، حيث كنت أحفظ فيه ملابسي، وأدوات التجميل الخاصة بي. وكنت أيضًا أحتفظ فيه ببريد المعجبين، وبعض الأشياء التي أتفاءل بها لجلب الحظ السعيد. وصارت هذه الغرفة مثل بيتي الثاني حتى عام 1993م، حين نُقِل مقر إم تي ڤي إلى المبنى السابق لمحطة (تي في إم). وكان المقر الجديد مقرًّا عصريًّا جدًّا وفضّي اللون، غير أنه لم يكن معدًّا بغرف خاصة بكل مقدم. ولكن الناحية الإيجابية في ذلك المبنى هي أن المكاتب والأستوديوهات كانت كلها في بناية واحدة.

قضيت الشهر الأول في قسم الأخبار، حيث تعلمت أساسيات عملية إنتاج العمل، وطريقة كتابة النصوص. وبعد مرور ثلاثة أسابيع على بداية

العمل، واجهت أول تحدٍّ حقيقي حين أرسلتني إم تي ڤي لتغطية معرض برلين للاتصالات، وهو معرض ضخم، وملتقى ألمع الأسماء والشركات في عالم الاتصالات. وكان عليّ أن أُجري أول حوارٍ متلفز لي مباشرة أمام جموع من الجماهير. أما ضيفي في ذلك الحوار، فكان هاينو، وهو مغنٍّ ألماني حساس جدًّا، ويتمتع بشهرة لدى الجيل الأكبر سنًّا من جمهور إم تي ڤي، وكان أيضًا من ألمع الأسماء في نمط من الموسيقا الشعبيةُ يُدعى (شلاجر)، الذي ينتشر في أوروبا الوسطى والشمالية والبلقان. وأَغاني (شلاجر) هي من الأغاني العاطفية التي تُغنى باللغة الألمانية، وتبتعد كل البعد عن الواقعية. وكنت متوترة جدًّا لإجراء ذلك الحوار تحت أنظار جماهير غفيرة من الناس. ولحسن حظي، مرت أول مقابلة أجريها لـِ (إم تي ڤي) بسلام، ومن دون أي مشكلات تُذكر.

ولم تمضِ إلا أسابيع قليلة قبل أن أجد نفسي في مواجهة تحدٍّ جديد، وهو تقديم أول برنامجٍ لي. كان اسمه (أوايك أون ذ وايلد سايد). حيث كان برنامجًا يُبث ساعتين من الزمن كل صباح. وكانت فكرته بسيطة، حيث كان يقدم أغاني خفيفة من موسيقا البوب، ولا يعتمد على الموسيقا الصاخبة والمزعجة. ومن تلك الأغاني التي كان البرنامج يعرضها أغنية (سناب، آي جوت ذ باور)، وأغنية (سيل، كرايزي)، وأغنية (كريسي هيند ويوبي فورتي، بريكفاست إن باد)، وأغنية (بومتاون رات، آي دونت لايك مانداير). وبين الأغنية والأخرى،كنت أتحدث إلى المشاهدين عن موضوعات قد تهمهم، مثل كيفية تخطي آثار الإفراط في شرب الكحول، والحديث عن مستجدات عالم الموسيقا والمجموعات الغنائية والفيديوهات الموسيقية. ولم يكن ذلك البرنامج يبث مباشرة، وكان ذلك من حسن حظي؛ لأنه لم تكن لديّ أدنى فكرة عما كنت أفعله. ثم إن الاستيقاظ في وقت مبكر جدًّا من أجل تقديم برنامج صباحي لم يكن أمرًا

ممتعًا بالنسبة إلي. قبل أن أبدأ في تقديم ذلك البرنامج، علمتني متخصصة في التجميل أصول وضع الزينة المناسبة للتلفاز، وأخذتني أيضًا إلى محل متخصص في بيع الزينة الخاصة بالأفلام والتلفاز في نوتينج هيل. وعلمتني كيف أضع المراهم والمساحيق والألوان، وكلها من الأشياء التي كنت أحتفظ بها في غرفتي. ومنذ ذلك الحين، أصبحت أقوم بتلك المهمة بنفسي سنوات عدة؛ وذلك لأن إم تي ڤي لم يكن لديها قسم خاص بالتجميل حتى وقت قريب من رحيلي عنها.

ومع أنني كنت متوترة،فقد كنت متحمسة جدًّا لتقديم برنامجي. حيث كان بث إم تي ڤي يغطي أوروبا كلها، وكان ذلك أمرًا يملؤني بالتوتر. وكنت في البداية خجولة بعض الشيء، ولم أكن أشعر بالارتياح حين كنت أقف في أستوديو فارغ خلف شاشة زرقاء وأمام الكاميرا. ولم أكن أعرف ما عليّ أن أفعله بيدي، وما زاد من صعوبة الأمر، هوأني كنت أحياناً أنسى أبسط الكلمات باللغة الإنجليزية. وكنّا نسجل الوصلات التي تربط الفيديو بالأخر ارتباطًا متواصلًا طوال اليوم قبل يوم البث، ومن دون أن نرى الفيديو كليب. كان المنتجون لطفاء جدًّا، ولا يترددون في تقديم المساعدة لنا. وحين كنت أخطئ، كان يُطلَبُ مني إعادة اللقطة بكل بساطة، على الرغم من أن استغراق وقت طويل في تسجيل الوصلات لم يكن مما يدعم سمعة المرء في المحطة؛ لأن ذلك كان يؤدي إلى تاخير موعد تسجيل البرنامج اللاحق.

وسرعان ما تعلمت التعامل مع الكاميرا والطاقم المشرف على الصوت، بل أصبحت أشعر داخل الأستوديو بأني في بيتي. ولكن الذي استغرق مني وقتًا طويلًا، هو أن أعتاد على التحدث إلى العدسة السوداء وممازحتها بشكل متواصل، بغض النظر عما كان يدور داخل الأستوديو. فعندما كان

يشتعل المصباح الأحمر الصغير، فمن المحتمل أن يكون نصف مشاهدي أوروبا جالسين أمام شاشاتهم، وكان عليّ أن أكون مستعدة لذلك. والحيلة التي كان عليّ تعلمها، هي أن أحاول أن أعطي لكل مشاهد من لندن إلى لشبونة، مرورًا بميونيخ وميلانو انطباعًا بأني أتحدث إليه بصفته الشخصية.

نصحني برنت هانسن أن أدع التوتر جانبًا. وعادة ما كان يقول لي: «كوني على طبيعتك يا صغيرة». غير أن الكلام أسهل من الفعل. فأن يقف المرء أمام الأضواء المتوهجة بالأستوديو لتسجيل وصلات ربط بين فيديوهات لا يراها ساعات متواصلة، ويحاول في الوقت نفسه أن يكون جذابًا وذكيًا في تعامله لم يكن بالأمر الهين. وساعدني راي كوكس، أفضل مقدم برامج في إم تي ڤي، والرجل الذي قدم فيما بعد البرنامج الأسطوري (موست وانتد)، أيْ (أكثر ما يطلبه المشاهدون)، على نحوٍ لا يمكن تصوره في أيامي الأولى بالمحطة. فاستعار آلة تصوير يومًا ما، ودعاني إلى منزله، وأعدّ لي وجبة شهية، حيث كان الطبخ من بين الأمور التي درسها. وبعد أن تناولنا وجبتنا، بدأنا نتمرن على التعامل مع آلة التصوير في الحديقة. وكان يقول لي: «عليك أن تصادقي الكاميرا، وتغازليها، وتستمتعي بوقتك أمامها. انظري من خلال العدسة، فمن خلالها تدخلين إلى غرف معيشة مشاهديك».

تطلّب الأمر مني كثيرًا من التمرين، والتمرين لم يكن ينقصني؛ لأني كنت أقدم البرامج يوميًّا، ولم يمر وقت طويل حتى أوكل إليّ بأن أعمل ساعات إضافية في تقديم الفيديوهات في وقت ما بعد الظهيرة، أو حتى ساعة متأخرة من الليل. وراقني أن أكون جزءًا من ثقافة تحظى بشعبية كبيرة لدى الشباب، وأن يدور عملي حول الاستماع إلى الموسيقا، وأن يكين لي السبق في التعرف إلى أخبار المجموعات الموسيقية، وأقابل أصنافًا

متعددة من الناس المثرين للاهتمام، وأن أتحدث عن كل ذلك إلى المشاهدين على الهواء مباشرة. وكانت المحطة ترسلنا إلى مناطق مختلفة من أوروبا لإجراء مقابلات صحفية، أو المشاركة في عروض موسيقية. وكان العمل يجري وفقًا لوتيرة سريعة. وبعد أن ننهي عملنا، كنا نُطِيل السهر ليلاً في الاحتفال. وعلى الرغم من السهر، كنّا نذهب صباح اليوم التالي في موعد دوامنا المعتاد. وكنت بطبيعتي نشيطة جدًّا، وكنت أقدم أداءً أفضل حين أكون في كامل حيويتي. وقد انصعت لنصيحة راي، فجلبت بعض الجوارانا لأحافظ على حيويتي ونشاطي، وكان لي مخزون من دواء(ألكا سيلتزر) الذي كان يفيدني في التعافي من أثر الإفراط في الشرب، وفيتامين ب الذي يفيد الأعصاب. وعلى الرغم من الاحتياطات كلها التي اتخذتها، فإني عانيت رنينًا في أذني، ربما كان مردّه إلى الضوضاء والإرهاق بسبب العمل المتواصل في النهار، والسهر إلى وقت متأخر من الليل.

وكانت تواجهنا معضلة أخرى بصفتنا مقدمي برامج فيديو كليب، وهي أنه كان علينا أن نظهر دائمًا بملابس شبابية، ومن أحدث ما استجد في عالم الموضة، ما يعني أننا كنا في حاجة إلى مخزون لا ينتهي من الملابس التي تناسب العمل في التلفاز. وكان علينا أن نراعي في اختيارها بعض الشروط، كأن تكون خالية من أي رسوم صغيرة، وألا تكون حمراء أو زرقاء أو بيضاء أو سوداء. وكنّا أحيانًا نتجاهل تلك القواعد، ونفلت بفعلتنا، وإن اشتكى المشرف على الإضاءة من ذلك. لم يكن الجزء المخصص لشراء الملابس من راتبنا يكفي لتلبية حاجيات البرامج التي كنّا نقدمها، غير أني اكتشفت بعض المتاجر الشبابية التي لم تكن بضاعتها باهظة الثمن. وكان من تلك المحالّ (هايبرهايبر)، الذي يقع في كينسينجتون، حيث يبيع آخر مستجدات صناعة الألبسة. وكنت أيضًا أقصد سوق (بورتوبيلو) للاطلاع على موضة الشارع التي كان يستلهم منها مصممون يرسمون توجه

الموضة لذلك الوقت تصاميمهم، مثل كاثرين هامنيت، وجان بول جوتييه، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن أتعرف وقت بيع تصاميم أفضل المصممين ومكانهم. وقد ساعدني ذلك كثرًا؛ لأني كنت أحيانًا أنفق مايعادل دخل عام كاملٍ على قطعة أو قطعتين من اللباس. إضافة إلى ذلك، فقد تمكنت من إقناع بعض المصممين، مثل فيفيين ويستوود وأرابيلا بولين ورفعت أو زبك، من أن يعروني آخر تصاميمهم.

كانت أجواء العمل ممتعة جدًّا في إم تي ڤي، وكانت تُعدّ تجربة فريدة من نوعها بالنسبة إليّ. فقد كانت المحطة عبارة عن قناة تلفزيونية (للروك آند رول) من صنع الشباب، وتخاطبهم. وكان متوسط عمر العاملين بالمحطة أربعًا وعشرين سنة، وكان ذلك من أهم أسباب نجاح إم تي ڤي. وأن العاملين فيها كانوا من جنسيات وبلدان ومدن عدة، فكان يعمل بها أفراد من نيوزلندا وأستراليا ونيويورك وباريس وأمستردام وستوكهولم وكوبنهاجن. وفي تلك الأيام التي سبقت بروز ظاهرة العولمة، كان هذا الخليط من الأجناس غير مألوف، وكنّا نشعر بأننا أسرة متعددة الأجناس، وتنبض بالحيوية. وكان يمكن لكل فرد منها أن يسهم بأفكاره في تطوير برامج المحطة. وفي المساء، كنّا نخرج لتناول مشروب، أو وجبة طعام في أحد مطاعم أو مقاهي أو حانات كامدن التي لا تُعد ولا تحصى. إضافة إلى ذلك، كان لي حياتي العامة خارج العمل، ويعود الفضل في ذلك إلى ستيف فارجنولي وزميلتي في السكن كارولين التي كانت امرأة غاية في الجمال. وكان صوتها العذب يأسر قلوب الشباب، وكانت تعد كثيرًا من الأصدقاء في عالم صناعة الموسيقا. وكان نيل إكس، الذي اشتهر بشعره الفضي، من مجموعة (الروك سيج سيج سبوتنيك)، أحد أصدقائها المقربين. وكنّا نخرج كثيرًا معه وصديقه، توني جيمس، الذي ابتكر (سيج سيج سبوتنيك) في الثمانينيات من القرن الماضي. وكان توني قد توقف عن

اعتمار الشعر المستعار، لكن شعره كان لا يزال طويلًا حين قابلته. وكان على دراية بكل تفاصيل العمل في وسائل الإعلام، بما فيها التسويق، ولعبة الشهرة. وأصبح توني صديقًا مقربًا ونصوحًا لي. وكنّا أصدقاء لمجموعة من المصممين ومنظمي الحفلات والممثلتين إليزابيث هبرلي وباتسي كنزيت، إضافة إلى مجموعة من الموسيقيين، مثل جافن روسدايل، الذي أصبح لاحقًا المغني الأساسي في مجموعة بوشى. وكنّا نذهب إما إلى حفلات خاصة، أو إلى نوادٍ ليلية، حيث كانت السهرة تبدأ من (فريدز) في (سوهو) حيث نحتسي الشراب، وتستمر بالرقص في (كوايت ستورم)، الذي كان يديره آنذاك دافينا ماكول الذي أصبح فيما بعد زميلًالي في إم تي ڤي، ومن ثمّ نقصد مقهى باريس أو (براونز) الأسطوري. وعادةً ما كنّا نصادف في هذا الأخير نجوم (بوب)، مثل بوي جورج وجورج مايكل، وهو ابن عم مالك محل (براونز). كنت في نظر الشباب في لندن الفتاة الجذابة الجديدة في المدينة؛ وكان بإمكاني بهذه الصفة إن أتلقى دعوات للخروج لعشر ليالٍ متواصلة. وكان كثير من الشبان يحاولون التقرب مني، ويُقسِمُون جَهد أَيْمَانِهم أنهم يحبونني. وسُرعَان ما اكتسبت لقبين جديدين من ابتكار نيل وستيف، هما: (الفتاة الحديدية)، و(الألمانية التي لا تصادق الشبان).

كنت أحيانًا أشعر بأني أعجز عن مسايرة محيط يتحدث الناس فيه اللغة الإنجليزية حصريًّا. وكنت أتحدث الإنجليزية بطلاقة؛ بفضل برنامج التبادل الأكاديمي الذي مكّنني من الإقامة في الولايات المتحدة الأمريكية. لكني لم أكن أعرف اللهجات الإنجليزية المختلفة، من ايرلندية وأسكتلندية ولهجة ويلز، أو تلك التي تتحدثها الطبقة العاملة في لندن مثلًا. فإن كنت حاضرة وأحدهم تتحدث، كانت تمر بضع ثوانٍ قبل أن أضحك على دعابة قالها في معرض حديثه، فيقول أحدهم:«الألمان لا يملكون حسّ الدعابة».

لكن الوقت كان كفيلًا بإصلاح الأمور. وحين بدأت أرى أحلامًا بالإنجليزية، عرفت أني قطعت أشواطًا في هذا المجال. وكان يدهشني مدى اهتمام كل من قابلته في لندن بالموسيقا. وكان من بين مظاهر هذا الاهتمام الوطني أن الناسى كانوا معجبين جدًّا بمهنتي، وكانوا يسألونني عنها أسئلة لا تنتهي. ولكي أجيب عن أسئلتهم، كنت أحيانًا أسترسل في الحديث عن العمل ساعات طويلة، وهو ما كان مملًا بعض الشيء بالنسبة إلي. فبخلاف الألمان الذين لا يُقدِّرون موسيقا (البوب والروك)، كان البريطانيون يعشقون هذين النوعين من الموسيقا. وسواء تعلق الأمر برجل أعمال أو بسائق تاكسي، كان للجميع مجموعة موسيقية يفضلها، ويعرف الحد الأدنى عما يدورفي الساحة الموسيقية.

وعلى الرغم من أنني أحببت كثيرًا العيش في لندن، فإنني تفاجأت من بعض الأمور التي بدت لي غريبة بعض الشيء. ومن ذلك أني لم أفهم كيف تغلق الملاهي أبوابها عند الحادية عشرة مساءً ، في واحدة من كبريات عواصم العالم. وإن أراد المرء أن يخرج لاحتساء مشروب ما برفقة أحد الأصدقاء بعد تناول وجبة العشاء، فعليه إما أن يكون عضوًا في أحد النوادي الخاصة، التي قد يتطلب الانضمام إليها سنوات طويلة من الانتظار، أو أن يقصد ناديًا ليليًّا صاخبًا. أما في هامبورج، فقد كنت معتادة على الخروج في أي ساعة من النهار أو الليل إن أردت ذلك. وفي الصيف، لم يكن من الممكن إيجاد مكان للجلوس يمكن للمرء أن يستمتع فيه بالهواء الطلق، وكان الأكل أيضًا خاليًا من أي مذاق أو نكهة. وعلاوة على ذلك، حين كنت أريد أن أطهو بنفسي، لم أكن أجد مكونات الوصفات التي كنت أودّ تحضيرها. وأذكر أني دعوت برايان مرة لكي أشكره على العثور على شريكة لي في السكن، وكنت أودّ أن أحَضّر له طبقًا خاصًّا من المعكرونة بالسلمون المحضرة بصلصة كريمية والثوم القصبي، لكني لم أجد هذه

الأعشاب في أي مكان. وجبت محال كينسينجتون كلها بسيارة الأجرة، وبعد أن وصل عدادها إلى خمسة وأربعين جنيها إسترلينيًّا، استسلمت لواقع الأمر، وعدت إلى المنزل خاوية الوفاض. كان يفصل لندن حينها سنوات ضوئية عن التنوع الدولي الذي أصبح يميز الطبخ في هذه المدينة الآن.

مرت سنة، وانتقلت من المسكن المشترك إلى أول شقة خاصة بي، تقع في ساحة (ريجنتس بارك)، في الجهة المقابلة لمسجد لندن المركزي، وعلى بعد مئات الأمتار من ملعب (لوردز للكريكت). وكنت أرى في كل يوم جمعة أعدادًا غفيرةً من الناس يمرون أمام شقتي في طريقها إلى المسجد، من بينهم نساء محجبات، ورجال يرتدون ألبسة طويلة وفضفاضة. وعلى الجانب المقابل من الشارع، كان رجال يرتدون سترات لونها أزرق داكن وقبعات من القش، أو أطقمًا مصنوعة من الكتان يتوجهون بأعداد كبيرة إلى ملعب (الكريكت)، وهم يحملون صناديق صغيرة لحفظ الطعام والشراب. وكان ذلك التجاور الغريب بين المسجد وملعب (الكريكت) يحمل في طياته إشارات لما ستحمله لي الأيام فيما بعد.

وسرعان ما تأقلمت مع حيّي الجديد. حيث كنت أركب دراجتي، وأعبر بها الحديقة إلى كامدن، وفي الليل، كنت أدعو أصدقائي وزملائي إلى بيتي، ونخرج بعدها معًا. وخلال عطلة نهاية الأسبوع، كنت ألتقي كارولين، وأتجول معها في سوق (بورتوبيلو) قبل أن نتوقف في محل 192 لتناول وجبة الغداء. كان ذلك المحل شعبيًّا، وكنّا دامًا نقابل فيه شخصًا نعرفه. وفي طريق العودة إلى البيت، كنّا نقوم بجولة على دور الفنون والمكتبات، والمحال التجارية. وكان ستيف فرجنولي، يعيش بين لندن ولوس أنجلوس، وعادةً ما كان يرافقنا في تلك الجولة كذلك.

لقد كانت رفقته ممتعه، وكان يحمل في عروقه إرثًا إيطاليًا وأمريكيًا فريداً. وكان أيضًا كريمًا، ولا يبخل بتقديم النصيحة لكل من يطلبها. وكان من كرمه أن أجرى مفاوضات لإبرام صفقة شريط جديد لفائدة توني دون مقابل. وكان دائمًا يدعو عددًا كبيرًا من الأصدقاء لتناول العشاء في المطاعم. لقد كان يعشق الطبخ الرفيع، وكان على معرفة كبيرة بكل خبايا صناعة الموسيقا. وكان قد نشب وقتها خلاف بينه وبين برنس، وفقد عمله إلى جانبه، ولكن على الرغم من ذلك، كانت عيناه تتوهجان كلما تحدث عن برنس. وكان يقول عن فنانه هذا: «إنه عبقري موسيقي»، ويطلق عليه لقب (موزارت عصرنا). وأخبرني يومًا بأن برنس ألَّف مئات الأغاني التي ظلت طيّ الكتمان، ولم يسمع بها أحد. وكان هذا الفنان يستيقظ أحيانًا في منتصف الليل، ويتصل بفرقته الموسيقية؛ ليجمعها ويجري معها بروفات (تجارب) يعمل خلالها على إحدى أفكاره الجديدة في أستوديوهات (بيسلي بارك) في مينيابوليس. ومن بين التحديات التي واجهت ستيف في أثناء عمله مع برنس، أن هذا الفنان الاستثنائي طلب، في أثناء جولة هامبورج، أن يجلب له مصفف شعره يوم أحدٍ عند الساعة الرابعة صباحًا. وكان ستيف يعشق فنانيه، ويتقبل منهم أي شيء، لكنه تألم حين أفقدت الشهرة كثيرًا من الفنانين صوابهم.

كان ستيف يتمتع بفراسة استثنائية في اكتشاف المواهب ومساعدتها على تحقيق نجاح تجاري واسع. وكانت سينايد أوكونر، إحدى تلك المواهب؛ إذ كانت فتاة مذهلة، ذات بنية ضئيلة ورشيقة، ووجه فائق الجمال، ورأس حليق، وعينين واسعتين تظلهما رموش كثيفة. وكانت بِهيئتها تلك تبدو كأنها قادمة من عالم آخر. أحببت كثيرًا ألبومها (ذ لاين أند ذ كوبرا)، وقد كنت أذيع أغاني منه حين كنت أعمل في إذاعة هامبورج؛ لذا، فإني كنت أتشوق إلى لقائها. وفي أحد الأيام، عرفني إليها

كارل والينجر، المغني الرئيس في مجموعة (وورلد بارتي) وأحد فناني ستيف، عندما كنّا في نزهة في حديقة (هامستيد هيث). واكتشفت أن سيناید كانت مثلي من مواليد برج القوس. في ذلك اليوم، أَطلَعَت ستيف على رغبتها في تسجيل أغنية (ناثينج كمبيرزتو يو)، التي كان برنسى قد أطلقها على أنها أغنية ثانوية في أحد ألبوماته. وكان ستيف معجبًا بتلك الأغنية، وكان يودّ أن يطلقها على النحو الذي يليق بها، ويظهر جمالها. آمن ستيف بموهبة سيناید، وتبناها. وقد دشنت أغنية (ناثينج كمبيرز تويو) انطلاقة ناجحة لهذه المغنية الصاعدة.

كان للعمل في إم تي ڤي مذاق خاص، وكنت أدرك تمامًا أني كنت أعيش حياةً يعدها جلّ الناس ضربًا من الحلم. لم تكن مجرد وظيفة بالنسبة إليّ، بل أسلوب حياة.كنت أتماهى مع شعار المحطة: «اعمل واستمتع إلى أقصى درجة». وكان ذلك بالتحديد ما كنت أقوم به على أي حال. وكانت الموسيقا لغة الشباب، وكانت محطة إم تي ڤي لا تعترف بالحدود الوطنية بين الدول، وتعبرها من دون استئذان. يمكن القول: إن عملنا كان يوحد الشباب الأوروبيين، ويحدد جانبًا مهمًّا من ثقافتهم. وكان ذلك هو شعوري، على الأقل.

كانت المحطة حينها تملي قواعد جديدة ليس فقط في عالم الموسيقا، بل في الإنتاج المتلفز كذلك. وفيما يخص أيضًا ديكور الأستوديو، حيث كان مصمموا لمحطة يقترحون أعمالًا فنية مختلقة تمامًا عما كان دارجًا حينها. أما ما يتعلق بالصور، فكانت تتحرك أمام شاشات خلفية زرقاء اللون، في حين كانت الكاميرا تتحرك بسرعة فائقة، وتغير زاوية تصويرها باستمرار، وهوأسلوب يختلف اختلافًا جذريًّا عمّا ألفه المشاهد. ومن اللافت أن قنوات أخرى بدأت تحذو حذو إم تي ڤي بتلك التقنيات. ولم يكن أحد

يتقن اللعب بالكاميرا ومدا عبتها مثل راي كوكس، حيث كان يقترب منها كثيرًا، ثم يبتعد عنها خطوات عدة، ويغير من تعابير وجهه بطريقة مضحكة، ثم يثب أمامها من زوايا غريبة. لم يكن من خيار أمام طاقم التصوير سوى أن يساير راي في ألعابه مع الكاميرا، ومن ذلك أن يطرح الأخير سؤالًا على المصور، فيجيبه الأخير بحركة من يده مِن وراء الكاميرا. وقد اشتهر زميلنا المصور روب في أنحاء أوروبا كلها بذلك حتى اكتسب لقب (روب المصور). وقدمت أيضًا إم تي ڤي عددًا من الأساليب الجديدة في تقديم البرامج، وكان منها أول برنامج متلفز للواقع، يُدعى(ذ ريل وورلد).

ولا شك في أن الشعبية التي حظيت بها إم تي ڤي لم تكن قائمة فقط على البرامج أو مقدميها، أو حتى جمالية الصورة التي كانت تقدم على الشاشة. وكان الفيديو قد أجهز فعلًا على نجم الراديو؛ لأن الجمهور لم يعد يكتفي فقط بسماع أغاني مغنيه المفضلين، بل أصبح يريد رؤيتهم كذلك. لقد كانت إم تي ڤي هي التي أوجدت هذه الحاجة لدى جمهورها، وبَسَطَت هيمنة شبه عالمية على صناعة الموسيقا في العالم، وأحدثت ثورة في تفاصيلها كلها. وخلال تسعينيات القرن الماضي، كان لـِ إم تي ڤي دور مركزي في صنع نجاح أغنية ما أوفشلها. فقد أصبح الفيديو مفتاح نجاح المغنين أنفسهم. وقد أصبحت صورة مجموعة موسيقيةٍ ما بين عشية وضحاها، أهم من مهاراتها ومؤهلاتها الموسيقية. ولكي تحتل أغنيةٌ ما صدارة ترتيب أفضل الأغاني، كان المغنون في حاجة إلى وضعها في قالب مصور، تعمل محطة إم تي ڤي على إذاعته على مدار الساعة. غير أن ذلك كان سيفًا ذا حدين؛ لأن الموسيقيين الموهوبين لم يكونوا كلهم يملكون المؤهلات الجمالية المطلوبة.

وأصبحت الفيديوهات الموسيقية شكلًا فنيًا جديدًا، وكانت الميزانيات المرصودة لتصويرها غيرمحدودة، ما سمح للمخرجين بأن يجوبوا المدن، ويطلقوا العنان لإبدا عاتهم. وكانت تلك الفيديوهات تؤدي دورًا أساسيًا في صنع صورة مجموعة موسيقية، وأصبح بعض مخرجيها نجومًا حقيقيين. ويُعدّ جون لانديس، الذي أخرج فيديو أغنية (ثريلر) لمايكل جاكسون، أحد هؤلاء. وكان الكليب عبارة عن فيلم قصير، لكنه ثبّت قدم جاكسون في محطة إم تي ڤي بصفته أول فنانٍ أسمر البشرة، وحلّق به في عالم النجومية. وقد برز عدد من مخرجي الكليبات الذين تهافت عليهم المغنون لتصوير أغانيهم. أذكر منهم المخرج الأمريكي دافيد فينتشر، الذي أخرج كليبات للأسماء البراقة كلها في تلك الحقبة، مثل مادونا وجورج مايكل. ومنهم أيضًا المصور الفوتوغرافي الألماني أنتون كوربين الذي عانق الشهرة من خلال فيديوهات أخرجها لمجموعتي (يوتو) و(ديبشه مود)، التي استخدم فيها تقنية اعتمدت على صورة بالأبيض والأسود تقدم على نحوباهت.

توطدت قوة إم تي ڤي ومكانتها في عالم صناعة الموسيقا، وأصبحت أنا وراي كوكس، وبول كينج، وستيف بلايم، وريبيكا دير، وفو، وسيمون أنجل، ودافينا ماكال، نحظى بشهرة في البلدان التي كانت تتلقى إرسال المحطة. أما الأطفال الذين كانوا يتابعون إم تي ڤي، فكنّا نفتح لهم نافذة على عالم مثير من المتعة والأحلام. وفي البداية، كان بإمكاننا اختيار بعض الفيديوهات، وإذاعتها كل ساعة خلال برامجنا، لكن مع إذعان المحطة للإغراءات التجارية، لم يعد بإمكاننا اختيار الأغاني التي نفضلها نحن، ولا يجدي أي احتجاج من قبلنا في تغيير الأمور. ومنذ ذلك الوقت، أصبح بث الفيديوهات يعتمد كليًا على نتائج تصويت المشاهدين المحلية، وما يمليه زملاؤنا من قسم الفنانين، وسِجل الأغاني في إم تي ڤي. وكان لهم علاقات

بشركات تسجيل الأغاني، وكانوا يلتقون بهم في اجتماعات تُخصَّص لتحديد قائمة الأغاني المذاعة. ومن الطبيعي أن ترتيب الأغاني كان يعتمد على المحطة، ففي نهاية المطاف كانت إم تي ڤي شركة تجارية.

بعد مرور أقل من سنة على التحاقي بـ إم تي ڤي، أُسندت إليّ مهمة تقديم أحد أهم البرامج في المحطة، وهوسباق أفضل عشرين أغنية أوروبية. وكانت هذه النقلة تُعدّ طوق نجاة بالنسبة إلي، حيث إني كنت في السابق أقدم برنامج (هارد روك) اسمه (هيدبانجرزبال). وكان يتعين عليّ أن أبدو على أني فتاة من جيل (الروك)، وشعري مُسرّح إلى الخلف، وأنا أرتدي سترة جلديةً اقتنيتها من شارع كينسينجتون، الذي كان يقصده نجوم (الروك) كلهم ليشتروا ملابسهم. وكنت قد قدمت أخبارًا عن موسيقا (الهارد روك) الصاخبة، وأجريت لقاءات مع مجموعة (ميتاليكا) و(ثاذدر) و(وايت سنايك). وكان بعض تلك المجموعات مخفيًا، وأذكر أن المغني الرئيس في مجموعة (وارن) أخرج لسانه بشكل مرعب خلال إجرائي حوارًا معه. وأظهر بعض الموسيقيين إعجابهم بي، وقد صحبني المغني الرئيس في مجموعة (ثاندر) مرة إلى نادي الروك (سانت موريتز) في لندن. ومهما كان توفيقي في تقديم ذلك البرنامج على الهواء، فإن ذلك العالم لم يكن عالمي.

أما أسوأ حدث كان عليّ أن أَحضره خلال تقديمي لبرنامج (هيدبانجرزبال)، فكان حفلة لأليس كوبر في روتردام. لم تعجبني الموسيقا بتاتًا، وقد اضطررت أيضًا إلى أن أشق طريقي بين جماهير من المعجبين البعيدين كل البعد عن نوعية الناس الذين أودّ أن أكون معهم، لكي أصل إلى المجموعة الموسيقية وأحاورها. فقد صبغت أعداد المتفرجين شعرها بالدهان، وكانت ترتدي ثيابًا فضفاضة خضراء اللون. ومن الواضح أن تلك

الفرقة الموسيقية عاشت حياتها بالطومل وبالعرض. وعلى الرغم من القصص المخيفة عن أكل موسيقييها (فئران الهامستر) على خشبة المسرح، فإنهم كانوا في منتهى اللطف في أثناء تسجيل حواري معهم. وعدت وفريق عملي في الطائرة نفسها مع هذه المجموعة إلى المملكة المتحدة، وعلى الرغم من مظهر الموسيقيين المخيف الذي كان أشبه بالأموات، فإنني كنت الوحيدة التي واجهت المتاعب مع مصالح الجمارك. وكان أفراد مجموعة (الروك) يمرون الواحد تلو الآخر ببناطيل الجينز والمعاطف الطويلة التي كانوا يرتدونها، وأعينهم المحتقنة بالدماء من دون مشكلات. ولما حان دوري كي أمر، قامت ضابطة الجمارك بتفتيش عدة الزينة كلها التي كنت أحملها.

وكان مسموحًا في ذلك الوقت، بحمل حقيبة كاملة من أدوات التجميل إلى داخل الطائرة، وقد استغرقت وقتًا طويلًا في تفتيش أدوات التجميل كلها، من أحمر الشفاه وعلب المعاجين والمساحيق، الواحدة تلو الأخرى. ونفد صبري بعد حين، ولم أتمالك نفسي، فقلت لها: «انتبهي، إنه هيرروين». لم ترق المزحة لمفتشة الجمارك، فأخضعتني على الفور للتفتيش الذاتي، في حين كانت فانيشا، منتجة البرنامج، تنتظر خارج المطار مع باقي المجموعة في سيارة أجرة استأجرناها مسبقًا. وظل العدّاد مشغلًا طوال وقت انتظارهم لي. ولم تدرِ أكان عليها أن تضحك لما جرى لي، أو تبكي بسبب التسعيرة.

لا شك في أن تقديم برنامج سباق أفضل عشرين أغنية أوروبية كان نقلة هائلة في مشواري المهني. وكنت أبث أكثر الأغاني شعبية خلال أوقات الذروة من حيث المتابعة الجماهيرية. وكانت الأمور تسير على أفضل ما يرام، وبدأت شيئًا فشيئًا أجد للشهرة طعمًا، وأدرك معناها. فأينما حللت

وارتحلت، ولا سيما في ألمانيا وهولندا والد نمارك وبلجيكا وأير لندا، كان الناس يتعرفون إليّ. وفي ذلك الوقت، لم يكن تلفاز الكيبل منتشرًا في إنجلترا؛ لذا، لم تكن شهرتنا في البلدان الأوروبية أكبر من شهرتنا في المملكة المتحدة. وكنت أتلقى الدعوات لحضور برامج حوارية، وكان الناس يسعون للحصول على توقيعي، وكنت أحظى بأفضل الطاولات في المطاعم التي كنت أرتادها. ولم تعد نجومية الفنانين الذين كنت أحاورهم تنال مني مثل السابق، وكانوا أيضًا يعرفونني من خلال شاشة إم تي ڤي. وكنّا نستمتع بإجراء الحوارات، ونجد دائمًا الوقت للحديث والمزح قبل أن نسجل البرامج. وكان الأمر أشبه بالحديث إلى الأصدقاء، ولم يخطر ببالي أبدًا أن أطلب من أي فنان أو موسيقي قابلته، بغض النظر عن مدى شهرته، أن يمنحني توقيعًا، أو يسمح بأن تُلتقط لي صورة معه. وحينما كنّا نصور في أحد الأماكن في أوروبا، كنّا نخرج معًا، أو نلتقي في حانة الفندق بعد انتهاء البرامج. وعندما كنت ألتقي الموسيقيين مصادفة خارج مكان التصوير، عادةً ما كنّا نتوقف للتحدث في أمور شتى. حتى برنس، الذي من المؤكد أنه نسي لقاءنا في هامبورج، قال لي في إحدى المرات في نادي (ترامبس الليلي): «يا فتاة، أنت تعملين في التلفاز، أليس كذلك؟ أترين؟ أنا أعرف ذلك».

نظم ستيف أول حفلة عيد ميلاد لي في لندن. واقترب مني دايف جيلمور من مجموعة (بينك فلويد) يومها، وقال لي: «مرحبًا، كيف حالك؟ أنت موجودة على الدوام في غرفة معيشتي، وأشعر بأني أعرفك منذ زمن»، ولم نكن قد التقينا من قبل.

ذهبت للتسوّق مرة خلال أيام أعياد الميلاد برفقة برايان أدامز، واعتمرنا كثيرًا من القبعات، قبل أن يهديني إحداها. ودعاني في يوم آخر

إلى بيته، إضافة إلى بعض أصدقائه؛ لتناول العشاء. وكان برايان نباتيًّا صرفًا، وكان لديه طباخ خاص يعمل على إعداد أطباق نباتية شهية. وتناولت العشاء مرتين مع إريك كلابتون، ووجدت أنه إنسان مثير للاهتمام، ويتميز بنظرة عميقة للأمور. إنه من بين أعظم عازفي القيثارة على مر الزمن، وقد استحق لقب اليد المتأنية الذي أُطلق عليه بعد أن أطلق أحد أنجح ألبوماته. وقد تفاجأت حين عرفت أنه يمتنع هو وأصدقاؤه عن شرب أنواع الكحول كلها، وأنه سبق لهم جميعًا أن حضروا اجتماعات خاصة بالأفراد المهتمين بالإقلاع عن تناول الكحوليات، بل وحتى المخدرات، دون الكشف عن هو ياتهم. وكانت علاقتي طيبة بـِ سيل أيضًا. وخلال زيارة قامت بها بريجيت لشقتي، زارني في شقتي، وعزف على القيثارة. لن أنسى الصدمة التي ارتسمت على وجه جليسة ابنة بريجيت، حين عدنا ثلاثتنا إلى المنزل بعد أن قضينا السهرة في الخارج. وكان سيل خفيف الظل واحترافيًّا إلى أبعد ألحدود في عمله. وكان أيضًا يتبع نمط عيش صحيًّا، ولم يكن يطيل السهر كثيرًا حين تكون لديه التزامات، مثل الذهاب في جولة فنية، أو أن يحضر باكرًا إلى الأستوديو في اليوم التالي. لقد كان ودودًا جدًّا تجاه ابنة بريجيت، بل وصور لها فيلمًا قصيرًا.

كان من الرائع أن أعمل في إطار أتعرف فيه إلى ذلك العدد الهائل من الشخصيات المثيرة للاهتمام. لكني كنت أتساءل أحيانًا عما إذا كنت أسير على الطريق الصحيح. ولما كان بإمكاني في إذاعة هامبورج أن أتناول كثيرًا من الموضوعات، فقد كان عملي في إم تي ڤي محصورًا فقط في أخبار المجموعات الموسيقية، والأغاني المصورة، وموسيقا (البوب). وأذكر أن أول أزمة مررت بها حدثت لي ولما يمضِ على التحاقي بالعمل أكثر من ثلاثة أسابيع. لكني تمكنت من جاوزها؛ لأني حظيت بفرصة تقديم برامج

جديدة. وكان من بين أكبر التحديات التي تواجه مقدمي البرامج ابتكار طرق جديدة ومثيرة لتقديم الأغاني المصورة نفسها على شاكلة الفيديو كليب مرارًا وتكرارًا. وكلما تقدمت أغنية ما في صدارة ترتيب مسابقة الأغاني في أي بلد في أوروبا، كان علينا أن نقدمها المرة تلو المرة، حتى تدخل مسابقات الأغاني في بلدان أخري في وقت آخر. ويعني ذلك، أنه كان علينا أن نبث الأغاني نفسها طوال أشهر متتالية، إلى أن نضجر منها تمامًا. فما كان بوسعنا سوى أن نملأ وقت تقديم تلك الأغاني بالحديث عما لبسته كيلي مينوج في آخر فيديو كليب صورته، أو اقتباس فانيلا آيس لجزء من قطة لمجموعة (كوين/باوي)، أو أي نوع من الإشاعات والأقاويل التي كانت تدور حول المجموعات الموسيقية، أو الألوان المستخدمة في أحدث كليب لننه تشيري. وكنت أحيانًا أشك بجدّ فيما إذا كانت تلك من الموضوعات التي أودّ أن أفكر فيها على المدى الطويل.

اقترح عليّ والد اي ذات مرة أن أسافر معهما لقضاء إجازة في المغرب. وقالت أمي إن هذا البلد مختلف تمامًا عما عهدته، وأنه قد يفيدني في أن أغير من الرتابة في أيامي مدة من الزمن. وذكرت لي كذلك أن النساء هناك يغطين أجسادهن كليًّا، فأجبتها قائلًا: «إني أرى سيدات على تلك الشاكلة كل يوم عند باب بيتي». ووافقتها في حاجتي إلى أخذ قسط من الراحة من الجنون الذي كنت أعيش فيه والذي كان يستهلكني، فرحبت بالدعوة من كل قلبي. وكما شاء القدر، انضممت إلى والديّ في آخر إجازة نمضيها بصفتنا أسرة مع أختي في مدينة أغادير المغربية. وكانت أسرتي قد سبقتني إلى هناك، وأتت لملاقاتي في المطار. فصُدِمَت أمي عندما رأتني. وكانت قد أصرت على ضرورة أن أرتدي ثيابًا طويلةً، لكنني كنت أرتدي نظارات شمسية كبرة، وسروالًا أسود ضيقًا مع بلوزة سوداء كتب عليها حرف ألف اللاتيني بلون فضي براق، حيث كان ذلك الحرف يرمز إلى الفوضى. ومن

الواضح أن ملابسي يومئذٍ قد أخجلتها. وكنت واثقة من أني بذلت مجهودًا في انتقاء ملابسي يومها، غير أن أمي أصرت على أن الموجودين جميعهم قد انتبهوا لهندامي الذي لم يكن لائقًا. ولحسن الحظ، كنت قد أحضرت معي بعض التنانير الطويلة وسراويل الكتان. وقد خفف ذلك من صدمتها لاحقًا. ولم يكن والداي معجبين جدًّا بعملي في قناة إم تي ڤي، ولم يجدا فيه ما يشرف، أو يدعو إلى الفخر. وكانا يتمنيان لو اخترت مهنة حقيقيه أو على الأقل، عملًا أكثر جدًّا في مجال الإعلام. ومن ناحية أخرى، كانا فخورين بنجاحي، على الرغم من أنهما لم يكونا مهتمين بموسيقا البوب والفيديو كليب. وقد شاءت المصادفة أن يقضي والدا إحدى زميلاتي في المحطة، وكانت فتاة شقراء فائقة الجمال من الدنمارك تُدعى مايكن ويكسو، إجازتهما في المنتجع نفسه الذي كنّا فيه. وكان لوالدَي مايكن انطباع والديّ نفسه عن عمل ابنتهما، وشاركاهما في القلق نفسه. وكان من الجميل أن أقضي بعض الوقت مع أهلي بصفتنا أسرة. وأعاد ذلك اللقاء إحياء العلاقات الأسرية القديمة نفسها التي كانت بيننا، وأحسست بأن شيئًا لم يتغير على الرغم من مضي السنين. وفجأة، لم أعد مذيعة إم تي ڤي، وعدت كما كنت في السابق كريستيانا الابنة والأخت، المليئة بالحيوية التي تتسابق للعب التنس، والخروج لزيارة المعالم السياحية، في حين يفضل الآخرون الركون إلى الراحة. لكن فتور حماس أختي سوزان كان يخفي سببًا خطيرًا سرعان ما اكتشفناه. وكنّا نخطط معًا لزيارة المدينتين اللتين احتضنتا عواصم الدول التي تعاقبت على حكم المغرب عبر تاريخه العتيق، وهما مراكش وفاس. لكن سوزان أصيبت بالتهاب الزائدة الدودية؛ تسببت لها بوعكة صحية مفاجئة ألزمتها السرير. وكانت حالتها خطيرة لدرجة أنها لم تكن تقوى حتى على ركوب الطائرة إلى ألمانيا، وتَعَيَّن عليها الخضوع لعملية جراحية في المغرب. وكانت صدمةً حقيقيةً لنا أن نراها مريضة

بهذا الشكل، وشاحبة الوجه في المستشفى. فاضطررنا أنا وأمي إلى مغادرة المغرب بسبب ارتباطاتنا المهنية، في حين ظل والدي إلى جانبها لرعايتها. ولكن حالتها لم تتحسن، وتعرضت لالتهاب آخر بعد إجراء العملية؛ ما استدعى نقلها إلى ألمانيا فورًا لإجراء عملية أخرى. ولم أكن على علم بتلك التفاصيل، لكن في إحدى الليالي، وأنا في شقتي في لندن، وقعت صورة سوزان على الأرض، وانكسر زجاجها. ولم تمر سوى بضع دقائق حتى رنّ الهاتف لتخبرني أمي بأن أختي على متن مروحية إسعاف قادمة من المغرب إلى هامبورج. فتملكّني قلق شديد، ووددت لو أن بإمكاني أن أكون إلى جانبها، وأساعدها في محنتها. وشعرت بضيق شديد لعدم قدرتي على أن أكون إلى جانبها؛ لأني لم أتمكن من أن أتغيب عن العمل، وكان عليّ عوضًا عن ذلك أن أتابع العمل بجهد كبير في لندن وخارجها؛ لأبدو سعيدة، ولا أظهر شيئًا من حزني على الشاشة. وكم كان شعوري بالذنب كبيرًا لعدم تمكّني من أكون بجانبها. ولحسن الحظ، تحسنت حالة سوزان بعد خضوعها لعمليتين جراحيتين، ولم يمضِ وقت طويل حتى ذهبت لرؤيتها في هامبورج. ومن الواضح أن تلك التجربة التي قربتها من الموت، والوقت الطويل الذي قضته في مستشفيات عدة، أثرت فيها، ودفعتها إلى التفكير في حياتها. وبعد أن اجتازت تلك التجربة المؤلمة، قررت أن تقوم بخدمة مدنية في أحد المستشفيات.

زادت محنة سوزان من شكوكي في الهدف من عملي وطبيعة عالم الترفيه. وإن المهنية والاحترافية كانتا أمرين عسيرين أحيانًا، لأنهما يتطلبان بالضرورة تضحيات على المستوى الشخصي والعاطفي. وكانت حياتي الخاصة تأتي دومًا في المرتبة الثانية. وكنت كل مساء أتلقى تعليمات عن وقت تسجيل برامجي في اليوم التالي، فأضطر إلى أن ألغي ارتباطاتي الشخصية بسبب عملي في التصوير أمام الكاميرا، إما منذ الصباح الباكر، أو

حتى ساعة متأخرة من الليل. لكن تلك كانت طبيعة العمل في مجال الإعلام. ولا يستطيع الناس من خارج هذا الميدان إدراك هذه الحقيقة. وأيقنت تمامًا أني لن أتمكن من ربط علاقات صداقة سوى مع أولئك الذين يمكنهم أن يستوعبوا مشاق هذا العمل ومتطلباته.

وعلاوة على ذلك، كانت إم تي ڤي قناة بعيدة كل البعد عن السياسة. وفي حين كان العالم يهتز لعدد من الأحداث، ويموج بها، كسقوط جدار برلين عام 1989م، وحرب الخليج عام 1991م، ثم حرب البوسنة بعد ذلك بعام، أعطيت لنا تعليمات صريحة وواضحة بعدم التعليق على أي حدث سياسي؛ لأن إم تي ڤي كانت محطة ترفيهية فحسب. وكان يُقَالُ لنا: إن الجمهور يتابع ما يكفي من السياسة في قنوات ومحطات أخرى، ولا يحتاج إلى أن يتابع تلك المواد نفسها على شاشة إم تي ڤي. وعلى الرغم من أني كنت أفهم فلسفة المحطة، فإنني كنت أحيانًا أشعر بالإحباط؛ لأنها كانت أقدر ما تكون على إشاعة رسالة السلام والاحترام والتفاهم المتبادلين؛ وذلك نظرًا إلى العدد الهائل لمشاهديها من أنحاء أوروبا كافة.

وأصبح ستيف فرجنولي من أصدقائي المقربين، ومرشدًا نصوحًا لي في كل ما يتعلق بمسيرتي المهنية. ولم يكن في الحقيقة يبخل بالنصح عن أي شخص يطلبه منه. وفي موضوع ابتعاد المحطة عن الخوض في السياسة، حاول أن يطمئنني قائلًا: «هناك أو ان ومكان لكل شيء في هذا العالم، بما في ذلك الترفيه. إن كنت تودين أن تغيري شيئًا مما يجري، فعليك أن تبدئي بدعوة الناس إلى حفلتك؛»، وكان يقصد بذلك أن أول ما عليّ فعله، هو أن أصنع لنفسي اسمًا، وأصبح مشهورة، وقتها فقط أستطيع أن أحدث تغييرًا ما. لقد كان يؤمن فعلًا في حاجة الناس إلى الهروب إلى عالم من المتعة، ولا سيما في الأوقات العصيبة. وكان يقول لي: «إنك بذلك تقومين بإسعادهم». وأخبرني

ستيف ذات يوم بقصة رائعة عن صديق له كان يعمل مراسلًا في حرب البوسنة، وقال له صديقه: «إن المتحاربين كانوا يلقون أسلحتهم بعض الوقت في أثناء بث برنامجي». إن صحت تلك القصة، فقد تكون تلك أكبر مساهمة لي في إحلال السلام في هذا العالم، وإن أتت بمحض المصادفة.

كثيرًا ما شعرت بالعرفان بالجميل لمعجبي. حين كنت أضعف تحت وطأة العمل المتواصل، أو أشتاق بشدة إلى أسرتي وأصدقائي في ألمانيا، أوتخبو طاقتي بسبب ضغط الجهد المهني، فإن العدد الهائل من رسائل المعجبين التي كانت تنتظرني كل يوم في المحطة عادة ما كانت تخفف من حزني، وتدخل السرور والبهجة إلى قلبي. وكانت تلك الرسائل تصف كيف أني أدخل البهجة إلى عالم أحد المشاهدين، وتفيض بأشعار كتبت خصيصًا لي، وكانت تلك الأسطر تلمسى أعماق قلبي. وأذكر أني تلقيت دبدوبًا من أحد المعجبين؛ فسرني كثيرًا لدرجة أني شكرت مرسله على الهواء مباشرة، وحملته خلال تصوير البرنامج. وبعد يومين من ذلك، ذهبت إلى العمل، فوجدت في انتظاري حديقة كاملة من الدمى على شاكلة حيوانات. فأرسلت تلك الدمى كلها إلى إحدى الجمعيات الخيرية، وعلقت على الأمر مازحة بأن ذكرت مقولة مارلين مونرو الشهيرة: «الماس يظل أفضل صديق للفتيات». فاتصلت بي بعد ذلك دار (دي بيرز) لصناعة الماس، وأهدتني قطعة ما سية غالية، وقد اشتغل صديقي سيزار من هامبورج، الذي يعمل في تصميم الجواهر، عليها حتى حولها إلى قطعة فنية أستطيع أن أضعها في أثناء تقديم برامجي على إم تي في.

لم ينجح كل ذلك الإعجاب الذي غمرني في تبديد إحساس الوحدة الذي كان ينتابني بين الفينة والأخرى. وعلى الرغم من كل ما حققته من نجاح، فإنني كنت في حاجة أحيانًا إلى أن أهرب من عالم الموسيقا والفيديوهات،

وأعيش وفقًا للنمط العادي للحياة. وكنت في أثناء تأديتي عملي، كما لو أني أترك عقلي في المنزل، وأذهب للاستمتاع بوقتي أمام الكاميرا. وكنت أفتقر إلى التمرين الفكرين في إم تي ڤي؛ فاشتركت في دورات مسائية لدراسة السينما، وتاريخ الفن وتاريخ أوروبا والطبخ بحسب قوانين (الماكروبايوتيك)، وتعلم اللغة الإيطالية.

وكانت رحى الحياة والأحداث تدور بسرعة، وفجأة، عرض عليّ أن أقدم برنامجًا جديدًا كان يناسبني تمامًا، اسمه (تقرير كوكا كولا). وكانت كل حلقة تقدم فقرات متنوعة من موسيقا تبث على الهواء مباشرة، وفيديو كليبات مسجلة مسبقًا، وتقدم أيضًا معلومات في ما يشبه دليل رحلات، وتقترح على المشاهدين برنامج سفر ما. وكان أفضل ما في البرنامج، أني كنت أسافر مع فريق العمل الخاص بالبرنامج مرة كل شهر في جولة أوروبية، أجري خلالها حوارات مع فنانين وموسيقيين، وأعدّ تقارير عن أحداث مهمة، مثل مهرجان (كان) للموسيقا، أو بطولة كروية في إسطنبول. وكان فريقنا الصغير مكونًا مني وإد، الذي يتمتع بنظرة ثاقبة، ومساعده فالد، الذي كان يتبع النمط الشبابي في كل شيء، ويغير لون شعره وتسريحته بين الفينة والأخرى. وكنّا نستأجر مصورين في مكان نقل الحدث، ونسجل كثيرًا من الحلقات في اليوم الواحد. وكنت أغير ملابسي بين برنامج وآخر داخل حافلة نستأجرها، وأحرص كذلك على تعديل تسريحة شعري، وتزيين وجهي بما يتناسب مع مظهري الجديد، معتمدة في ذلك على مرآة يد صغيرة، قبل أن أواصل التسجيل. وبعد الانتهاء من التصوير، كنّا نحظى بوجبة شهية، ونتوجه إلى أشهر النوادي في المدينة التي نوجد فيها، سواء كنا في برشلونة أو بروجز أو برلين. وكنّا ذات مرة في باريس خلال موسم أعياد الميلاد، وعلقت في متجر لبيع تصاميم عز الدين عليا بسبب ازدحام حركة المرور، فتأخرت عن موعد إجراء مقابلة مع أكبر

نجم بوب في فرنسا بخمس وأربعين دقيقة. ولم تكن شركة التسجيل ولا إم تي ڤي سعيدتين بتأخري، غير أني تمكنت من وضع يدي على بعض التصاميم الجيدة، وجرى الحوار أيضًا بصورة جيدة. وذهبنا تلك الليلة للسهر في حانة (بان دوش)، وهو نادٍ ليلي كانت حلقة الرقص به آنذاك مغطاة بكرات دقيقة من البوليسترين تصل حتى مستوى خصور الراقصين. وحين رقصت في تلك الحلقة، شعرت كأني طفل يلعب داخل كومة من الثلج. وظلت كريات الووليستررين الدقيقة تلك عالقة بملابسنا وحقائبنا شهورًا عدة. وكنّا نحظى بمعاملة الأشخاص المهمين جدًّا أينما حللنا. وفي افتتاح (يورو ديزني)، كان الصحفيون والمراسلون الآخرون يعانون لشق طريقهم بين الجموع، وإيجاد موطئ قدم على السجاد الأحمر حتى يتمكنوا من أن يسجلوا منه تقاريرهم، في حين كان فريق عملي يقف بكل أريحية في الصف الأول. وتمكنت من نقل كل ما يحدث أمام الكاميرا من دون أي مشكلة تُذكر. وبينما كان نجوم من أمثال إدي مورفي وتينا ترنر ولوك بيسون يمرون خلفي مباشرة على السجاد الأحمر، أجريت حوارًا مع بوب جيلدوف في صباح اليوم الذي أعقب حفل افتتاح (يورو ديزني) الكبير. وكان ذلك الحفل مهمًّا جدًّا، وتخللته الألعاب النارية، وبعض العروض الخفيفة، علاوة على المقصف (البوفيه) الذي كان يزخر بأنواع الطعام الشهي، وكنت وطاقمي مرهقين من التعب، وحضر بوب الحفل بصحبة زوجته وأبنائه. وعلى الرغم من ذلك التعب والإرهاق، فإنه كان لطيفًا، وتحدث بكل لباقة وتبصر، وكان الحوار معه ممتعًا وناجحًا إلى أبعد الحدود.

توالت الأحداث على هذا المنوال، الواحد تلو الآخر، وبعد افتتاح (اليورو ديزني)، حلت دورة الألعاب الأولمبية ببرشلونة سنة 1992م. فاستمتعت بالعمل في نقل تلك المنافسات كثيرًا. وقضيت لذلك الغرض

أسبوعًا كاملًا في إسبانيا، أُعدّ تقارير من مناطق عدة، وأبثها على المحطة.

وحظيت أيضًا بشرف حمل الشعلة الأولمبية خلال سباق الهواة عبر سرقسطة. وكان ذلك الحدث بالغ الأهمية، لذلك تم التخطيط لأدق تفاصيله؛ وعملت أيضًا (كوكا كولا)، حيث كانت أحد أهم المساندين للدورة، أيامًا وأيامًا على إخطارنا بما علينا القيام به في كل دقيقة، حرصًا منها على أن يمر كل شيء بسلاسة. وحقًّا تم يمر أي شيء كما خُطّط له مسبقًا.

بدايةً، تسلمت الشعلة قبل الموعد المخطط له بوقت طويل. فالتفت، وتحدثت بحسب ما اتُّفق عليه إلى الكاميرا التي رُكّبت على السيارة الموجودة خلفي مباشرة. ثم استدرت، وبدأت أجري وأنا أحمل الشعلة. وفجأة، رأيت إد يجري بجواري، وهو يلوح بإشارات لم أفهمها، فتابعت طريقي دون أن أكترث له، إلى أن سلمت الشعلة للشخص المعني الذي تابع طريقه من بعدي. وحين لحق إد بي، أخبرني بأني طوال ذلك الوقت كنت أتحدث إلى كاميرا غير تلك التي كان عليّ أن أتحدث إليها، وأن إم تي ڤي لم تسجل شيئًا مما قلته. فكانت تلك كارثة حقيقية. فضاع كل ذلك الجهد والمال سُدًى. وكان نجاح أسبوع كاملٍ من العمل والعناء في إسبانيا رهينًا بتسجيل ذلك الشريط الذي أظهر فيه، وأنا أحمل الشعلة الأولمبية. لكن إد تدارك الموقف، ولحسن الحظ، اتضح أن الكاميرا التي سَجّلتُ فيها كانت ملكًا لشركة (كوكا كولا)، وتمكن من أن يحصل على الشريط في نهاية المطاف. لكن لم تكن تلك نهاية متاعبنا. وسُمِحَ لي بأن أحتفظ بالشعلة الأولمبية بصفتها تذكارًا، وحملتها ضمن أمتعتي في المطار. فسألني موظف الجمارك عما بداخل الشعلة، فحاولنا إقناعه بأنه لا شيء بداخلها، غير أنه ظل يتفحصها بريبة بادية. وخطر على بال إد أن يقترح على الجمركي أن

يشعل الشعلة. وما إن استجاب الموظف لاقتراح إد حتى انطلق منها على الفور لهيب هائل. وكانت الشعلة قد مُلِئَت غازًا حتى تظل طوال مدة نقلها من مكان إلى آخر، وظننا أن الغاز قد نفد منها، ولا سيما أننا تفحصناها في الفندق، وأفرغنا ما كان بداخلها. ولحسن حظنا أن ردة فعل الموظف لم تكن سلبية، بل أرسل لي الشعلة بعد يومين من ذلك. وحين عدت إلى لندن، شكرته عبر شاشة المحطة على تصرفه ذاك، وما زلت أحتفظ بالشعلة منذ ذلك اليوم.

وعلى الرغم من المرح والحماس كله الذي غمر حياتي، فإنني بدأت أرى أنه خلف الأضواء البراقة، كان الإبداع يتحد مع التجارة على نحوٍ غير مريح. ولم يكن كل شيء ورديًّا وجميلًا كما كانت تريد الفيديوهات أن تقنع جماهيرها. فجورج مايكل مثلًا، لم يكن راضيًا عن العقد الذي كان قد وقعه عند سن الثامنة عشرة، قبل أن يكون له اسم وشأن في عالم الموسيقا. وقد نص ذلك العقد على ضرورة أن يلتزم المغني الشاب ببنوده حتى سنة 2م. وفي أواخر سنة 1992م، رفع دعوى قضائية ضد سوني ميوزيك جاء فيها أن العقد كان احتكاريًّا، وأن الشركة كانت تعد الفنانين «أكثر أهمية بقليل من برامج الحاسوب»، وسعى إلى فسخ ارتباطه بها. أما محاميه، فقد أشار إلى أن بنود عقد التسجيل لم تكن عادلة، حيث كانت تسجيلات سوني تحقق بموجبها من وراء جورج مايكل من الأرباح ست مرات ما كان يجنيه المغني نفسه. واشتكى مايكل أيضًا من أن هيمنة الشركات الست الكبرى على صناعة الموسيقا تؤدي إلى استعباد نجوم الغناء. ويجسد إخراج دافيد فينتشر لأغنية (فريدوم ٩٠)، أي (حرية 90) نزوع جورج مايكل إلى أن يتحرر، ويبتعد عن الصورة النظيفة الصارخة التي كانت تروجها له الشركة، ويعزز هويته بصفته فناناً أكثر جدية. وظهرت سترة مايكل الجلدية في الفيديو وهي تحترق، في حين تظهر العارضات ناعومي كامبل،

وليندا إيفانجليستا، وتاتيانا باتيتز، وسيندي كروفورد الواحدة تلو الأخرى وهي تغني مقاطع مختلفة من الأغنية وكأنها هي المغني، في حين لم يظهر أثر في الكليب للمغني نفسه. بالتزا من مع ذلك، تدهورت علاقة برنس بشركة التسجيل التي كان مرتبطًا بها وهي (وارنر برانرز)، واتهمها بأنها لم تكن تساير إنتاجه الفني الغزير، ولم تعمل على تسويقه كما يجب. وقد كان غضبه على الشركة كبيرًا، لدرجة أنه غيّر اسمه إلى سيمبول (رمز) أو تافاك (الفنان الذي كان يعرف سابقًا باسم برنس) إلى أن انتهت مدة عقده، بل وقد صار يقدم عروضه، وقد كتب كلمة (عَبْد) على وجهه.

تحدثت مع ستيف مرة في الموضوع، وكان له الكثير ليقوله عن صعوبة رأب الصدع بين الإبداع والبعد التجاري لصناعة الموسيقا. إذ كانت الهوة بين المبيعات والفن تزداد اتساعاً على نحو مطرد، وعكست المجموعات الموسيقية التي كانت من صنع مديري الشركات تلك الحقيقة على نحوٍ جلي. ولم يكن لدى ستيف رأي واضح في سياسة إم تي ڤي؛ ذلك لأنها من ناحية، وفرت مساحة مدهشة للفنانين لينحتوا أسماءهم على الصعيد العالمي، ومن ناحية أخرى، كان بعض ممن لهم دراية كبيرة بهذا المجال يرى أن إم تي ڤي لعنة حقيقية سلطت على صناعة الموسيقا. وكان بعضهم الآخر يرى في حقيقة أن صورة مجموعة موسيقية ما، وفيديو كليب مثير، أهم من الناحية التجارية من الموهبة الموسيقية نفسها خيانةً للموسيقا. واشتكى كثيرون كذلك من أن إيقاع العمل أصبح سريعًا جدًّا، والعمر الافتراضي للفنانين أقصر بكثير على المدى البعيد. وما يفتأ الإعلام يقذف بالمجموعات الفتية إلى عالم الشهرة والأضواء حتى يأفل نجم الأخيرة، فتقع فريسة النسيان.

لم يكن فنانو(ستيف) من أولئك الذين يرتقون إلى النجومية بعد

إطلاقهم أغنية واحدة فقط، بل كانوا ينتمون إلى المدرسة القديمة، ويتمتعون بموهبة الحفاظ على بقائها طويلًا. وكان من أولئك جيم كير، مغني مجموعة (سيمبل مايندز)، وأحد النجوم الذين تعرفت إليهم، وأطلعني على قصة صعوده درج الشهرة بكل تؤدة. حيث كان صديقًا لبرايان، زميلي في إم تي ڤي، الذي قدَّمَنا إلى بعضنا بعضًا خلال حفل لبول ماكارتني. وكان جيم سريع البديهة، ويتحدث بلكنة أسكتلندية جميلة جدًّا. وكانت (سيمبل مايندز) أول مجموعة أحضر حفلًا حيًّا لها، وكان ذلك في هامبورج حين كنت في الرابعة عشرة من العمر. وكان أداء(سيمبل مايندز) حينها عرضًا مساندًا لحفل المغني الإنجليزي جاري نومان. وبعد تلك السنين كلها، كنت واقفة أمام نجم المجموعة الأساسي، جيم، وأكثر من ذلك، فقد قال لي إنه معجب بي.

كان جيم يدعوني للعشاء - حيث كان يحب (السوشي) والأكل التايلندي - ويرسل لي الورود حين أمرض، وطلب مني غير ما مرة أن أزوره في أسكتلندا. وكان يعجبني كثيرًا، غير أن الخجل حال بيني وبين قبول طلب زيارته. ربما كان في ذلك خير؛ لأنه وقع بعد مدة قصيرة في حب باتسي كنزيت.

لكن في بداية صداقتنا، أخبرني كيف أصبح موسيقيًّا، وشق طريقه من الصفر نحو النجاح. وقبل اعتلاء (سيمبل مايندز) عرش الشهرة، قدّمت حفلات لا حصر لها في أنحاء البلاد كلها، وتعلمت تدريجيًّا كيف تحسّن أداءها أمام الجمهور، وكيف تتعامل مع المعجبين ومع الشهرة التي اكتسبتها.

كنت شاهدة على السرعة التي يخبوبها نجم موسيقيين في مقتبل العمر بعد أن يسطع، وذلك بسبب افتقارهم إلى التجربة، وعدم قدرتهم على

التكيف مع النجاح المفاجئ على المستوى العالمي، إضافة إلى ضغوط الحياة العامة. وكانت مجموعة (نيرفانا) مثالًا حيًّا على ذلك. ولم يكن أولئك الشباب أكثر من مجموعة موسيقية محلية في سياتل قبل أن تبدأ إم تي ڤي بعرض أغنيتهم (سميز لايك تين سبيريت) في أوقات ذروة المتابعة الجماهيرية. فقذف ذلك بالمجموعة في أحضان الشهرة بين عشية وضحاها. ويعلم الجميع ما آلت إليه المجموعة، وكيف أقدم مغنيها الرئيس، كورت كوبين على الانتحار. لقد شكل ذلك الحدث صدمة كبيرة لجيل كامل من المشاهدين في مقتبل العمر، ومعهم العاملون كلهم في مجال الموسيقا.

كانت مجموعة(تايك ذات) هي الأخرى مثالًا على الاعتباطية التي قد تؤدي دورها في بروز نجم ما، والطبيعة الهشة لتلك الشهرة. ودُعِيتُ مرة لتقديم حفل تسليم جائزة موسيقية على إحدى القنوات الألمانية المهمة. وكانت الجائزة التي حصلت عليها فتاة في مقتبل العمر عبارة عن فرصة لقاء مجموعتها المفضلة وهي(نيوكيدز أون ذبلوك). ولسببٍ ما، لم تحضر هذه المجموعة، واستُبدل بها في آخر ثانية مجموعة (تايك ذات) التي لم يسبق لأحد أن سَمِعَ عنها قبل ذلك الوقت. وأُعلِن اسم المجموعة، وحطت الكاميرا عدستها على الفتاة. وكان من الواضح أنها أصيبت بالإحباط الشديد؛ حين رأت نفسها أمام مجموعة من الشبان المغمورين عوضًا عن نجومها المفضلين. ولم تدرِ المسكينة حينها أنها نشهد ولادة واحدة من أنجح المجموعات الموسيقية التي وضعت بصمتها على تاريخ الموسيقا إلى الأبد.

حضرت حفل العشاء لاحقًا في تلك الليلة بحضور (تايك ذات) وممثلي شركة التسجيلات. وكان أعضاؤها ودودين، وينبضون بالمرح، وحريصين جدًّا على الظهور على شاشة إم تي ڤي. وقابلت هذه المجموعة عددًا من

المرات بعد ذلك. حيث قدمتهم في كثير من الحفلات الموسيقية الكبرى في ألمانيا وكنّا دائمًا نجد فرصة للحديث وراء الكواليس (في الخفاء). وكانت علاقتي بهم رائعة ولا سيما بروبي ويليامز. وكان مرحًا جدًّا ، ويتمتع بشخصية لطيفة وممتعة. وحين قابلته أول مرة، كان فنانًا يافعًا ومغمورًا ومليئًا بالحيوية والحماس، ولم يفقد أيًّا من تلك الصفات حتى بعد أن اشتهرت (تايك ذات)د وذاع صيتها. وكان ذلك يميزه عن سائر الفنانين الذين كان يسطع ، نجمهم، ويأفل بالسرعة نفسها، والذين كانوا في البداية يتكلفون الابتسامات، ربما لرغبتهم في أن يحلوا ضيوفًا على برامج إم تي ڤي، ليصبحوا قليلي التهذيب، ومتكبرين فور معانقتهم الشهرة.

وفي المقابل، فإن نجومًا كبارًا، مثل: ذ رولينج ستونز، وبيتر جابرييل، ودايف ستيوارت، وليني كرافيتز، تمكنوا من اعتلاء القمة، ومن بقائهم في الصدارة وقتًا طويلًا من الزمن دون أن يفقدوا شيئًا من طيبتهم ولباقتهم وحسن تأدبهم. وكان ذلك إنجازًا مهمًّا في حد ذاته؛ لأن الحياة في عالم الموسيقا شاقة جدًّا، ما بين السفر من مدينة إلى أخرى، وتقديم العروض والحفلات التي لا تنتهي، إضافة إلى واجب حضور لقاءات تفيد في تعزيز رصيدهم من العلاقات العامة؛ لذا، من الصعب تخيل الضغط الذي يعيشون تحت وطأته. وعلى الرغم من كل ذلك، فإنهم يلتقون أناسًا يعشقونهم، أو ينظرون إليهم على أنهم شياطين. إن ذلك يفرض عليهم ضرورة أن يبحثوا عن تحقيق توازن بين الوصول إلى حاجتهم إلى الإبداع والتعبير عن ذواتهم، وبين الضغوط التي تُلزمهم بإنتاج الأغاني الناجحة. إنهم يعيشون حياة التناقضات بامتياز، ويت۔أرجحون فيها بين نشوة الليالي التي يقضونها على خشبة الحفلات أمام هتافات آلاف المعجبين من جهة، وإحباط الاستيقاظ صباحًا وحيدين في فندق مغمور من جهة أخرى. لا يجد كثير من هؤلاء النجوم في أنفسهم القدرة على مسايرة هذا الإيقاع

المجنون، فيطلبون السلوى من الإفراط في الشرب، أو تعاطي المخدرات.

لقد خَبِرْتُ بنفسي هذا التناقض الصارخ بين نشوة القمة، وبرودة الحضيض ووحشته، وإن كان بدرجة أقل. لكن النمط كان هو نفسه، بين أن يطلب المرء شيئًا ما، وأن يكون هو مطلوبًا. إنها دورة لا تتوقف. غير أني أفلحت في أن أتفادى الوقوع في شرك إدمان الشراب والمخدرات، وتمكنت من السيطرة على مارد الغرور.

قضينا مرة أسبوعًا كاملًا في جولة فنية مع برنس، حيث كنت أنا وفريق عملي من إم تي ڤي ننقل ما يجري وراء الكواليس. وأجريت حوارات مع كل أفراد المجموعات الموسيقية التي قابلتها، وكلها مواد كنت أعدها لبرنامج (تقرير كوكا كولا). وقبل أن ينطلق الحفل الكبير لمهرجان (روك آم رينج)، سمعت أحدهم يصيح قائلًا: «كريستيان، اعتلي المنصة، وأعلني مسابقة برنس للجمهور»، فلم أصدق ما سمعته. ولم أصدق أنهم كانوا يريدون مني أن أتقدم أمام ذلك العدد الهائل من المتفرجين، وأتوجه إليهم بكلامي. ولم يكن لديّ حينها وقت للتفكير، ولا للشعور بالتوتر. فدفعت بي زميلتي من قسم الصحافة، جوديث، إلى المسرح. وأخذت نفسًا عميقًا، وتقدمت بضع خطوات إلى الأمام. يصعب عليّ أن أصف المشهد الذي وجدته أمامي. إذ كنت أقف أمام محيط من الناس، يقدر عددهم بسبعين ألف متفرج، يقفون أمامي على امتداد البصر. وكانوا كلهم معجبين بالموسيقا، ومتابعين لها، وكانوا يحبونني حبًّا جنونيًّا. ولا بد من أنهم كانوا يعرفونني من إم تي ڤي، وكانوا متحمسين لمعرفة ما الذي سيجري لاحقًا. ولم يكترثوا لما كنت أقول لهم عن المسابقة، وكانوا يصرخون، ويصفقون بأيديهم بغض النظر عن كلامي. إن القوة الجامحة، والطاقة الإيجابية التي كانت تلك الجماهير تمدني بها في تلك اللحظة،

كانت كافية لتشعرني بانتشاء غريب. وخبرت لحظتها كيف يصبح الموسيقيون مدمنين على ارتفاع مستوى الأدرنالين في أجسامهم. وأعتقد أنهم يعيشون تلك الحالة بحدة أكبر حين يعزفون، أو يغنون مقطوعة ما. لكن حين زال أثر ذلك السحر، وعدت إلى غرفة فندقي الهادئة، على الرغم من أن أذنّي ظلتا ممتلئتين بضجيج السهرة، فإنني شعرت بفراغ رهيب في داخلي.

يستحيل على أي إنسان أن يتحمل الاستمرار في عيش .حياته على هذا الإيقاع الجنوني طويلًا. وكنت مثل من يعيش داخل فقاعة صابون، بعيدة كل البعد عن الواقع. أو مثل من يطفو على سنام موجة عالية، لم يكن يدرك أنها قد تهوي به في أي لحظة على شاطئ عالم خُيّلَ إليّ أنه لم يعد موجودًا. ويمكن الجزم أنه يصعب على المرء أن يجد نفسه وسط هذه الحياة المجنونة، ويتمكن من الهرب منها، حتى لو أراد ذلك.

وقد حدث عام 1991م، ما لم يكن بالإمكان تفاديه، حيث وقعتُ في قبضة الاكتئاب المعتمة. وأظنني كنت قد استهلكت طاقتي كلها وقتئذٍ. ووجدت نفسي فريسة للضغط الشديد. ولم أعد أعرف لِمَ كُنْتُ أقوم بما كنت أقوم به. وعلى الرغم من أني كنت في قمة نجاحي المهني، فإنني كنت أشعر بأني أشبه ما أكون بـِ (فأر هامستر) يركض باستمرار في عجلته الدوّارة دون توقف. وكل ما كان يهم في كل لحظة من حياتي هو البرنامج اللاحق الذي عليّ أن أُعِدَّ له، وأُقَدِّمَه.

يُعرّض العمل في تقديم البرامج التلفزيونية، بغض النظر عن الأضواء البراقة والشهرة الواسعة، المرءَ لضغوط نفسية هائلة، فعليه مثلًا، أن يرتجل أمام أنظار آلاف أو مئات آلاف المشاهدين الذين يتابعونه مباشرة حين لا تجري الأمور كما خطط لها؛ وهذا ما كان يحدث طوال الوقت.

حيث كانت قصاصات الأخبار ومادة البرنامج تصل دائمًا متأخرة، وكانت المجموعات الموسيقية في السهرات والحفلات الغنائية تتخلف أيضًا عن موعدها، فيحل محلها مجموعات أخرى في آخر دقيقة. وقد يحدث عطل في الأجهزة الصوتية، أو يحضر خبير التجميل قبل وقت اعتلائي المنصة ببضع دقائق فقط. وفي كل مرة، كان عليّ أن أملأ الفراغ؛ كي لا يلاحظ المتتبع أن هناك خطبًا ما. إن ذكرى الضغط الذي عشته في تلك الحياة الصاخبة ما زال يلازمني حتى يومنا هذا، فأستيقظ أحياناً على وقع كابوس أرى فيه أني تأخرت عن الصعود إلى المنصة، أو أبحث يائسة عن سكريبت (مخطط) البرنامج، أو الفستان الذي يجب أن أرتديه، في حين تكون الحشود تنتظرني.

وعلاوة على ذلك، لم يكن كوني مقدمة برامج مشهورة كافيًا لضمان احتفاظي بعملي. وقد حرصت إم تي ڤي من جانبها على أن يحتفظ نجومها ببعض الواقعية، وألا يتوهموا أنه من المستحيل وضع آخرين عوضًا عنهم. ولا أدل على ذلك من أن العقود كلها التي أبرمتها مع القناة كانت مدتها محددة، فكانت في البداية تمتد سنة، قبل أن تصبح ستة أشهر فقط، وتنص على أجل إخطار بإنهاء العقد مدته أربعة أسابيع. وكان عليّ أن أتقبل فكرة أن تلك الحياة قد تتوقف غدًا في اليوم التالي. وقيل لي في تلك السنة إن مستقبلي في إم تي ڤي لم يكن مضمونًا. وكان ذلك الخبر مفاجئًا، ولم يقدم لي أحد تفسيرًا أوسببًا مقنعًا لذلك. وقيل لي: «إن مقدمي البرامج يتغيرون طوال الوقت». وربما أنقذتني حينها علاقتي الشخصية بجيم كير، الذي وافق على أن يشارك في إحدى مسابقات إم تي ڤي كانت جائزتها بطاقة مرور لمقابلة (سيمبل مايندز) في كواليسى حفلهم بروما. وتمت إذاعة إعلان هذه المسابقة، الذي كنت أظهر فيه أنا وهذه المجموعة، مدة ستة أشهر على شاشة إم تي ڤي، وكان العاملون جميعهم

في القناة سعداء بي. وأظن أن ذلك بعث روحًا جديدة في مسيرني المهنية التي كان الموت يتهددها. لكنني وجدت أني في ذلك الوقت كتبت في دفتر مذكر اتي اليومية ما يأتي:

«أشعربأني سقيمة، وأحس بضعف لم يتملكني وقتًا طويلًا. أنا سقيمة
وضعيفة وأشعر بالغثيان؛ ولا أملك لا الطاقة ولا الحماس، وأحس بأني متوترة
وتحت رحمة القَنَط. متى ستفارقني هذه الحال؟ إنه العمل والعمل ثم العمل
دائمًا، لأبقى بعدها وحيدة من جديد. متى يداعب الحب قلبي مرة أخرى؟
لم أعد أريد العمل من أجلي فقط، ولم أعد أقوى على تحمل هذا الضغط
الرهيب. يجب أن أرفه هذا المساء عن ألفيْ فلاحٍ بلجيكي، وأسلّيهم. إنه أمر
رهيب! لا أستطيع أن أتصور أن هناك أمرًا أسوأ من هذا. إنه أمر يفوق طاقتي،
ولا أدري إلى أين يفترض به أن يقودني».

في مثل هذه اللحظات السوداء لا يبقى أمامي إلا علاج واحد، وهو الاتجاه إلى المتاجر للتبضع. فأبتاع لنفسي فستاناً أو حذاءً جديدًا، ليملأني بسعادة عابرة. تلك الفرحة لا تدوم طويلًا، وسرعان ما أحس بالحاجة إلى أن أشتري شيئًا جديدًا من جديد. وفي نهاية المطاف، كنت أجد نفسي حبيسة شعورٍ بالوحدة، وكنت في حاجة إلى رفيق، وكنت أحتاج إلى نصفٍ

أخرَ أتقاسم معه حياتي؛ لكن كيف السبيل إلى إيجاد شخصٍ جادّ؟

لم أكن أعرف لذلك السؤال جوابًا، لكن شخصًا آخر كان يعلم ذلك الجواب. وفي خضم حالة اليأس التي كنت أغرق فيها، لم أكن أعرف أني على وشك أن أتعرف إلى شخص ستغير معرفته مسار حياتي.

الفصل الرابع

الحب الأسمى

فكّر في الأمر، لا بد من أن الحب الأسمى موجود،

قد يكون في أعماق القلب أو مختبئًا بين نجوم السماء

لا معنى للحياة من دونه فتش في قلبك، وسأفتش في قلبي...

اجلب لي حبًّا أسمى

أين ذلك الحب الأسمى الذي مازلت أفكرفيه؟

ستيف وينوود

كان لديّ عمل رائع وكنت أسافر كثيرًا، إما للعمل أو الترفيه، وكانت الدعوات تردني من كل حدب وصوب للخروج والسهر في لندن. وعلى الرغم من كل ذلك، لم أستطع أن أمحو شعورًا من عدم الرضا كنت أشعر به في داخلي.

وذات ليلة، وجهت لي سوزانا قسطنطين، وكانت صديقتي في ذلك الحين، دعوة متأخرة لحضور عيد ميلادها في نادي (جروتشو)، حيث استأجرت غرفة لهذا الغرض. ترددت في بادئ الأمر، لكني قبلت دعوتها، وطلبت منها أن تُجلِسني إلى جانب «رجل لطيف».

كانت سوزانا في الماضي مرتبطة بفيسكونت لينلي، نجل الأميرة مارجريت، قبل أن تصبح مقدمة برامج من الطراز الرفيع على شاشة التلفاز. ابتسمت سوزانا لطلبي، وقالت بمكر: «أعرف بالتحديد الرجل المناسب» وأضافت قائلة: «من عجيب الصُّدف أن أحد ضيوفي قال إنه لن يحضر إلا إذا وعدته بأن أجلسه إلى جانب امرأة جميلة».

وهكذا تعرفت إلى عِمران خان الذي كان سببًا في تغيير حياتي إلى الأبد.

كان طويلًا، أسمر اللون ووسيمًا. فظننته أول وهلة أنه كبير في السن بعض الشيء. وقيل لي إنه لاعب (كريكت) مشهور، ولم أكن أعرف عنه أي شيء آخر ما عدا ذلك، ولم أكن أتصور أنه كان بطلًا حقيقيًّا في باكستان، أو أنه يحظى بإعجاب ملايين المعجبات عبر العالم. لم أكن على علم بفوز منتخب بلده التاريخي بكأس العالم في (الكريكت)؛ لأني لم أكن من متابعي أخبار هذه الرياضة. ثم إن (الكريكت) لم تكن رياضة منتشرة في ألمانيا، ولم تكن جزءًا من تنشئتي لا من قريب ولا من بعيد. ولم ينزعج عِمران لحظة حين أخبرته بأني أجهل من يكون. واعترف أنه لا يعرف شيئًا عن عالم صناعة الموسيقا، ولا يعلم أني كنت مقدمة برامج على شاشة إم تي ڤي.

كان جهل كل منّا بمهنة الآخر من حسن حظنا، فلم يمطر أي منّا الآخر بالأسئلة عن عمله. أخذنا الحديث في موضوعات بعيدة عن عمل كل منا، مثل فيلم (بايزيك إنستينكت)، أي (غريزة بدائية) الذي كان قد حقق نجاحًا واسعًا في ذلك الوقت. وانتقد عِمران المشاهد الجنسية الصريحة التي تخللها الفيلم، وقال: «إن تلك المشاهد لم تكن لتفلت من مقص الرقابة في باكستان، أو البلدان المسلمة الأخرى». وفي تقديره، لقد فَقَدَ الغرب جزءًا أساسيًّا من منظومته الأخلاقية وهو الحياء، وقال: «إن تلك الأفلام ما هي إلا أحد أعراض الانكسار الذي تعانيه منظومة الغرب الروحية والأخلاقية». لفتت تعليقاته انتباه المدعوين الآخرين؛ لأن جُلّهم كانوا يرون أنه فيلم جيد، وأن تلك المشاهد الجنسية الصريحة من أسباب نجاحه؛ لأنها في نظرهم تكسر بعض الطابوهات (كل ما هومقدس). وأخبرت عمران بأنه غيرمحقٍّ في رأيه، وقلت له: «إن منزلي مثلًا يقع بجوار مسجدٍ وملعب (كريكت)». فضحك لقولي، واسترسل يحكي عن نفسه.

ينحدر عِمران من لاهور، وكان فخورًا بإرثه البشتوني. وأوضح لي أن

البشتون كانوا يعرفون باسم (عرق المحاربين). ويتكون هذا العرق من قبائل مختلفة تعيش في أفغانستان، وفي إحدى مقاطعات باكستان، وتقع على حدودها الشمالية الغربية، وفي المنطقة غير الخاضعة للقانون بينهما، التي تعرف بالمناطق القبلية الخاضعة للإدارة الاتحادية. قَدِم عِمران إلى إنجلترا لدراسة السياسة والاقتصاد في جامعة أكسفورد قبل أن يغير مساره، ويشق طريقه بنجاح بصفته لاعبًا رياضيًّا محترفًا في سبعينيات القرن الماضي. إذ بدأ اللعب مع المنتخب الوطني (للكريكت) في باكستان في سن الثامنة عشرة. وبعد أن أنهى دراسته الجامعية، انضم إلى فريق (ساسكس للكريكت)، لتصبح حينئذٍ إنجلترا بيته الثاني. وكان يلقب (أسد باكستان). وقد اكتشفت لاحقًا أنه كان يعشق النمور. وقد أُسندت إليه مهمة كابتن (رئيس) الفريق على رأس المنتخب الوطني الباكستاني (للكريكت) الذي يضم مجموعة من اللاعبين الموهوبين الذين يتمتعون بمواهب فردية فذة. لكن بفضل قدراته القيادية، ومهارته في التحفيز، وشخصيته الجذابة، استطاع أن يوحد عمل منتخب بلاده وجهوده ويقوده إلى الفوز ببطولة كأس العالم (للكريكت) سنة 1992م، بعد أن تفوق على منتخب إنجلترا في مباراة النهائي. وعاشت أنحاء باكستان كلها احتفالات عظيمة إثر ذلك الإنجاز التاريخي، وكان لقاؤنا بعد ذلك الحدث بوقت قصير. كان عِمران متعدد المواهب، وشخصًا استثنائيًّا بمعنى الكلمة، إضافة إلى كونه رياضيًّا من الطراز الرفيع. حين يرمي الكرة، كانت سرعتها تصل إلى تسعين ميلًا في الساعة؛ وقد طوّر تقنية خاصة به أطلق عليها اسم (الضربة المرتدة). وحَسَّنَ لاحقًا من أدائه في ضرب الكرة، وأصبح يضاهي مهارته في رميها. وقد اختاره خبراء (الكريكت) ضمن تشكيلة أفضل فريق (كريكت) على مر التاريخ.

وتحدث خلال تلك الأمسية في حفل عيد ميلاد سوزانا عن نجاحه،

ونسب الفضل فيه إلى الله. أخبرت عِمران عن عملي بأني مقدمة برامج على محطة إم تي ڤي أوروبا، وعلى عكس أغلب من أصادفهم عادة، لم يشكل ذلك بالنسبة إليه أمرًا ذا أهمية، ولم يكترث به. وأخبرته بأني أكسب قوت يومي من وراء إجراء حوارات مع نجوم موسيقا (الروك). وسألته عن خططه المستقبلية بعد أن أحرز كأس العالم، فأجاب بأنه يبني مستشفًى في لاهور لعلاج مرضى السرطان، إكرامًا لذكرى والدته التي توفيت بعد معاناتها الشديدة مع هذا المرض قبل سنوات قليلة. ووصف لي عمران كيف كان من المؤلم شعوره بالعجز عن مساعدة والدته، على الرغم من العلاقات التي كانت تربطه بشخصيات مهمة في العالم. وقد أبدى استعداده، وهو في قمة نجاحه المهني، لأن يتخلى عن كل ما حققه، ويستخدم شهرته في جمع الأموال اللازمة لبناء أول مستشفًى للسرطان في باكستان، حيث سيكون بإمكان الفقراء أن يستفيدوا من العلاج دون مقابل، بحسب قوله. ثم أضاف: «إن الله كان معنا، وسيشكل هذا الفوز دفعة قوية لمشروع بناء المستشفى».

كانت المثالية واجدية والالتزام العميق بقضيته سمات لمستها من خلال كلماته، فسألته: «أتريد حقًّا أن تترك (الكريكت) وأنت في ذروة نجاحك من أجل التفرغ للأعمال الخيرية؟». فردّ بأن مسيرته طويلة جدًّا في هذه اللعبة، ويرغب في أن تكون مساهمته في الحياة أكبر من مساهمته في (الكريكت). وقال: «إنه أمر يتعلق بالإيمان»، ثم أضاف قائلًا: «إن جوهر الإسلام هو الإيمان بالله، والقيام بصالح الأعمال». ثم قام، وانصرف بعد ذلك بقليل.

وبعد ذلك بمدة، عدت من العمل يومًا، وإذا بي أجد رسالة صوتية على هاتف المنزل من عِمران، يدعوني فيها إلى أن أتناول العشاء معه وبعض

أصدقائه. حيث كنّا في ضيافة أندرو دي كاندول، من أكبر رجال العقارات. ولم يأتِ عِمران ليصحبني من المنزل، بل طلب إليّ أن أقابله في شقته التي تقع في حي تشيلسي. قرعت الجرس، فأسرع لملاقاتي أسفل منزله، وأقلتنا سيارته نحو وجهتنا. كانت السيارة من طراز مرسيدس الرياضية، مطلية بلون أزرق معدني لمّاع. لم نجلس بجوار بعضنا بعضًا على طاولة العشاء، بل قبالة بعضنا بعضًا. وكان عِمران ينظر بإمعان إلى عيني من الجانب الآخر للطاولة، ثم تلقيت دعوة أخرى للخروج معه بعد ذلك، حيث صحبني هذه المرة إلى نادي (أنابيل الليلي) الواقع في حي (ماي فير). فارتديت لتلك الليلة، فستانًا أصفر قصيرًا من تصميم عز الدين عليا مع معطف صيفي خفيف. وكان عِمران أنيقًا جدًّا وجذابًا تلك الليلة، وهويرتدي قميصًا أزرق فاتح اللون، وسروالاً بتصميم رسمي غامق اللون. وامتدح عِمران هندامي، لكنه طلب مني ألا أخلع معطفي الصيفي طوال السهرة.

سألته بتعجب: «لماذا؟»

فأجاب قائلًا: «النساء لا يكشفن عن أجسامهن في الثقافة الباكستانية، ويلتزمن التواضع في هندامهن تمامًا مثل الرجال. وبما أنك ستكونين بصحبتي هذه الليلة التي سيختلط فيها الرجال بالنساء، فمن الأفضل ألا تخلعي معطفكِ».

سحبت معطفي على رجلي، وقلت لنفسي: «إن كان الأمر بهذه الأهمية بالنسبة إليه، فلا مشكلة لديّ في ذلك». وهكذا، لم أخلع معطفي طوال السهرة، حتى وأنا أرقص.

ذكر عِمران أمرًا آخر كان من الغرابة بمكان بالنسبة إلي؛ حيث قال لي: إنه يكره أن تتزين النساء في الأماكن العامة، وأن الشخص الوحيد الذي

يجب أن تتزين له المرأة هو زوجها. وبالنسبة إليه، فإن من حق المرأة أن ترتدي ملابس كاشفة، وتضع أحمر شفاه، في حين تعيّن عليها أن تلتزم بالحشمة والتحفظ حين تخرج من بيتها. وأقل ما يمكن أن يوصف به موقفه هذا هو أنه غير اعتيادي. وخلال ما شهدته في واقع الحياة، فإن العكس هو الذي يُعدّ معيارًا يتبعه الكل. وكان الرجال في الغرب يحبون أن تبدي النساء زينتهن. ثم إني اعتدت وضع مساحيق التجميل، وارتداء ملابس أنيقة للذهاب كل يوم إلى العمل، على الرغم من أني في الحقيقة كنت أفضل أن يكون مظهري طبيعيًا أكثر، وبعيدًا عما هو رسميّ.

لم أغير شيئًا في نفسي، وظللت على سجيتي، وساد بيني وبين عِمران انسجام كبير. سرعان ما اعتدت على رؤيته بانتظام، وقد عرّفني تدريجيًا إلى معارفه الذين كانوا أكثر شهرة من الأسماء الرنانة في عالم إم تي ڤي، وأكثر تنوعًا من حيث مشاربهم الثقافية. كانوا نجوم (بوليوود)، وكُتّابًا، وشخصيات أرستقراطية، وعلماء، وعارضي أزياء، ومصرفيين، ورجال أعمال، ورياضيين من باكستان والهند والمملكة المتحدة، وكانوا كلهم أشخاصًا جديرين بالاهتمام استمتعت بلقائهم، وأنا بصحبة عِمران. وكان لدينا بعض الأشياء المشتركة التي تجمعنا، ومنها أن عِمران كان يعرف ستينج مثلًا، وكان صديقا مقربًا جدًا لميك جاجر وجيري هال، التي كانت زوجته آنذاك. وكان ميك من كبار المعجبين والمتابعين للعبة (الكريكت).

كان آنذاك موسم الصيف، وكانت لندن في هذا الموسم تعيش على وقع الدعوات المتواصلة للعشاء، والحفلات في الهواء، إضافة إلى حفلات الجمعيات الخيرية. وتقضي التقاليد بأن يفتتح هذا الموسم بمعرض (تشيلسي) للزهور، يعقبه استعراض (رويال أسكوت)، وهو سباق شهير للخيول تحضره الملكة، ثم بطولة (كارتييه بولو) التي اعتاد الأمير تشارلز

ونجلاه أن يشاركوا فيها، وبعدها مهرجان (جلاستونبري) للموسيقا، وحفل (وايت تاي آند تيارا بول) الخيري السنوي. للمغني إلتون جون، وأخيرًا وليس آخرًا بطولة (ويمبلدون) للتنس.

كان عِمران يقضي شهري يونيو ويوليو في شقته الفاخرة بحي (تشيلسي) الراقي في وسط لندن، مشغولًا بحياته الاجتماعية الزاخرة بالدعوات التي يتلقاها لحضور تلك المناسبات الراقية التي يحرص منظموها على أن يكون عِمران من الحاضرين فيها. وإضافة إلى ذلك، كان يتردد على مكتبه الكائن في حي (كينسينجتون) الذي يتخذه مقرًّا لمنظمة عِمران خان لمعالجة السرطان، ومنه أشرف على أنشطة جمع التبرعات من جميع أنحاء العالم لبناء مستشفى علاج السرطان. وكانت شخصية عِمران مزيجًا فريدًا بين الشرق والغرب، وكان نشيطًا جدًّا، ويتمتع بخفة ظل لطيفة، وتنجذب إليه النساء بكل سهولة. كانت النساء تتهافت عليه أينما حل. وكان ذلك يزعجني في بداية الأمر، غير أني اعتدت عليه، وقبلته على أنه جزء لا يتجزأ من صحبة هذا الرجل الفريد. توسطت لصديقة سيناید أوكونر المقربة، التي أصبحت لاحقًا صديقتي كذلك، لكي تعمل في مكتب عِمران، ولم تستطع هي الأخرى أن تقاوم سحره، فوقعت في حبه.

كانت تريسي ووستر، زوجة هاري سامرسِت، ماركيز ووستر، وأحد أصدقاء عِمران المقربين، تحب عِمران إلى درجة أنها أطلقت اسمه على حصانها. وكان هاري، الذي يعرف بين أصدقائه باسم (بانتر)، وأخوه الأصغر جونسون مولعين بالموسيقا، وكانا يعرفانني من خلال شاشة إم تي ڤي. وكان هاري يملك صوتًا جميلًا، وكان المغني الأساسي في مجموعة (ذليسنينج ديفايس)، في حين سبق لجونسون أن أنتج ألبومات غنائية لستيف وينوود، وبرايان فيري وغيرهما، وكان أيضًا عازف إيقاع في

مجموعته الموسيقية المسماة (رامشاكل).

وكان عِمران يعيش في عالمين مختلفين تمامًا. .فكان من جهة منغمسًا في حياة اجتماعية تشكل فضاءَها أسماء غربية لماعة، ومن جهة أخرى كان منكبًا على مشروع بناء المستشفى الخيري بكل جد، وعلى إعادة اكتشاف دينه الإسلام. وأخبرني بأنه بعد وفاة والدته، بدأ يكتشف دينه، ويتعمق في معرفته. وفي لحظة هادئة، قلّما تتسنى لنا، خلال تناولنا الغداء في مطعم فرنسي قريب من شقته، أخبرت عِمران بأني لم يسبق لي أن كنت على اتصال بدين الإسلام، ولم يسبق لي أن فكرت فيه في حياتي. وسبق لي أن زرت ماليزيا برفقة بعض الأصدقاء، وزرت المغرب بصحبة والديّ مرة واحدة. وكانت معرفتي بالبلدان الإسلامية شبه منعدمة ما عدا ذلك، وكنت أُسَلِّم بأن النساء المسلمات لم يكن لديهن أي قدر من الحرية، وكن يتعرضن للاضطهاد تحت النظام الأبوي المتسلط، بل كنت أتخيل أن القرآن كتاب صارم، ويحمل أوامر عفا عليها الزمن. وعلى الرغم من ذلك، كنت سعيدة بالتعرف إلى حقيقة الأمور.

شرح لي عِمران قائلًا: «القرآن في الواقع، لم يخطه بشر، بل هو كلمة الله. والإيمان بالله هو أساس الإسلام». حتى هذه اللحظة، كان ما يقوله معقولًا، وأنا كنت أومن بالله. لكني سألته: «وكيف يكون القرآن كلمة الله؟»، فتابع قائلًا: «نزل القرآن بالوحي على مدة طويلة من الزمن عن طريق الملك جبريل عليه السلام الذي بلغه للنبي محمد صلى الله عليه وسلّم وهوخاتم الأنبياء». ولم أدرك حقيقة معنى ما كان يقوله لي، وكنت أعتقد أنه يؤمن بإلهٍ اسمه (الله) وليس بالإله. وأضاف قائلًا: «(الله) هوالكلمة العربية للدلالة على الإله، فالله هوالإله نفسه الذي يؤمن به الناس كلهم». وفي الواقع، فإن الإسلام يعني «الإذعان لإرادة الإله»، وأن له

معنى آخر هو السلام. أي أن أولئك الذين يذعنون لله، ويتوكلون عليه، يتمكنون من بلوغ السكينة.

تساءلت عن معنى أن يذعن المرء لله. ولكن ما كنت أعرفه هو أن عالمي لم يكن فيه وجود لا لله ولا للسكينة. ولم يكن لديّ آنذاك أي ارتباط يذكر بالدين، وكانت فكرة الإله مرتبطة في مخيلتي بذكريات الطفولة البعيدة. وكان والديّ قد انفصلا حديثًا، وحينها كنت أتعافى من أزمة وجودية إن صح التعبير. بكل صراحة، لاأذكر آخر مرة أحسست فيها بالسكينة، على الرغم من أني كنت أملك من أسباب النجاح كل ما يتمناه أي شاب في مقتبل العمر. لكني كنت أحسّ بفراغٍ غريبٍ في داخلي، وأشعر ببعض الوحدة كذلك. وكنت أحسب أن ما كان ينقصني هو شريك في الحياة. غير أنه ما من بشر كان بإمكانه ملء ذلك الفراغ الذي كنت أحسّ به.

ساعدني عِمران على إدراك ذلك، وفتح عيني على بُعدٍ آخرَ في الحياة. كنت في حقيقة الأمر مهتمة بذلك البعد شيئًا ما، غير أني لم أَسْعَ بجدّ إليه من قبل. وكانت حياتي تجري بوتيرة جنونية، لم يتسنَّ لي معها أن أتوقف، وأفكر قليلًا. قال لي عِمران: «إن الوجود لا ينحصر في العالم المادي فقط؛ فهناك أمور موجودة قطعًا مع أنها غيرمحسوسة. إن الناس في الشرق منفتحون أكثر على البعد الروحي للحياة، ويشعرون به في واقعهم اليومي، في حين يظل هذا البعد وكأنه مقبور شيئًا ما في الغرب». وكانت كلماته مثيرة جدًّا بالنسبة إلي، فكثيرًا ما كنت مهتمة بالعالم الروحي، غير أني لم أكن أعرف شيئًا عنه. أذكر أني حين قابلت المغني ترينس ترنت داربي، قال لي إن العالم الروحي يعني له الكثير، فعلقت كلماته حينها في ذهني، وتساءلت عما كان يعنيه بذلك، ولم أتمكن يومًا من أن أستفسره. ولما كان

عِمران قد بدأ في الحديث عن هذا العالم كذلك، فإني فكرت في أن تلك فرصة مواتية لمعرفة المزيد عنه.

حدّثَني عِمران عن الصوفيين في باكستان الذين كانوا منكبين على الاشتغال على جانبهم الروحي، وكانوا يتمكنون من تخطي أعظم الصعاب بفضل مؤهلاتهم الروحية. وذكر لي كيف أن أحدهم تمكن من أن يعيش بكل سعادة برصاصة مستقرة في جسده، بفضل المقام الروحي الذي بلغه عن طريق الصلاة. ويحُكى أن عليًّا بن أبي طالب، ابن عم الرسول محمد صلى الله عليه وسلّم، أُخضِع لعملية جراحية وهويصلي، دون أن يشعر بأي ألم. لا أظنني صدقت ذلك، لكن كلامه شدني، وأردت معرفة المزيد مما كان يخبرني به. وقصَّ عليّ كيف التقى رجلًا بسيطًا وورعًا، كان اسمه ميان بشير. وقال: «لقد آتاه الله من البركة والحكمة والتبصر الشيء الكثير، فأصبح الناس يحجون إليه لأخذ النصح منه». وبدت لي صورة هذا البطل الرياضي ظريفة، وهو يجالس رجلًا بسيطًا، ويسترشد بأقواله، فسألته مازحة: «هل تستشيره في أمورك الشخصية؟»، فأجاب: «بلى، ولم يسبق أن جانبت أقوال الرجل الصواب أبدًا»، ففاجأني ردّه. وكان ميان بشير، إما أن يرى الجواب فورًا، أو يتهجد طوال الليل، وهو يصلي ويتفكر حتى يهتدي إلى الجواب. وأضاف: «إنه رجل مخلص وصادق، وأوتي بصيرة مستنيرة، وأنا متأكد أنه ليس مخادعًا». وكان تعفف ميان عن قبول العطايا المالية يزيد من إيمان عِمران بصدقه.

تمنيت لو أتمكن من لقاء هذا الرجل؛ ليس لأن خاطري تتصارع فيه أسئلة كثيرة، بل لأني أحسست بالفضول، وأردت معرفة المزيد عن دين عِمران. سَعِدَ عِمران حين لمس تقبلي لسماع ما كان يرويه لي. ولما غادر لندن بعدها لجمع التبرعات لبناء المستشفى، أهداني كتابًا صغيرًا. كنت

أقرأ ذلك الكتاب كلما تسنت لي بعض هنيهات بين ارتباطات العمل ومواعيد لقاء الأصدقاء. وكان عنوان الكتاب (الإنسان والإسلام) لعالم الاجتماع الإيراني علي شريعتي الذي توفي في إنجلترا عام 1977م. كان شريعتي أستاذًا جامعيًّا في طهران، وتعرض للسجن مرات عدة بسبب أفكاره الدينية التي لم تتوافق مع نظام الشاه.

لم يكتب شريعتي عن تعاليم صارمة، أو عن اضطهاد المرأة، بل ركَّز على جانبي الفلسفة والأخلاق. وانتقد المجتمع الحديث، وتساءل كيف لمجتمع أن يكون متحضرًا ومتقدمًا حقًّا وهو يروّج للرأسمالية والمادية، ويخفق في منع أسباب الفقر، ويفشل في حماية البيئة، ويحول دون انتشار أمراض اجتماعية مثل الاكتئاب. شخَّص شريعتي مشكلة العالم الغربي في ابتعاده عن البعد الروحي للحياة، وعن الإيمان بالله. وكتب يقول: «يستطيع الإنسان أن يحرر نفسه من سجن الطبيعة والتاريخ عن طريق العلم. وبإمكانه أن يحرر نفسه من النظام الاجتماعي بمساعدة علم الاجتماع. ولكن ما من سبيل أمامه كي يستطيع أن يتحرر من سجن نفسه سوى الدين والحب». آمن شريعتي بأن للحب قدرة تفوق إرادتنا الذاتية، وأن له القدرة على مساعدة الإنسان على بلوغ الحرية الحقيقية. أما عن هذا الحب، فيقول: «إنه من الله وإلي الله، ويفوق قدراتنا المنطقية، وأنه ما يقودنا في النهاية إلى التضحية ببعض رغباتنا الذاتية من أجل مساعدة الآخرين في سبيل هدف أسمى، هو الإذعان لله». وبحسب هذا المفكر، فإن هذه الحالة من العبودية هي أسمى درجات تحقيق معنى أن يكون المرء إنسانًا حقيقيًّا.

أحسست بأن لتلك الكلمات، وأنا أقرؤها، صدًى في داخلي. ربما كان الرجل مُحقًّا، وربما الذي كنت أفتقر إليه في حياتي كان هذا الحب الذي

يجعلني أعمل في سبيل هدف أسمى. فكثيرًا ما كنت مثالية بطبعي، لكن لم تتسنَّ لي الفرصة أبدًا أن أحيا تلك المثالية على أرض الواقع. وكان هدف العالم الذي كنت أعيش فيه هو الترفيه، حيث كان كل شيء إلى زوال، ولا يدوم إلا وقتًا يسيرًا.

تحدثت إلى عِمران عن انطباعاتي الأولى عن الكتاب، وشعرت بأن بابًا قد فتح أمامي. وما هو إلا وقت قصير حتى بدأت أنا وعِمران نتحدث عن الاختلافات بين ثقافتي وثقافته، بين الشرق والغرب، وكيف يوفر الإيمان والدين مجموعة من القيم الثابتة بخلاف تلك التي تتغير باستمرار بحسب أهواء العصر. تحدثنا عن أثر العولمة في الترويج للمفهوم الغربي للاستهلاك والعلمانية وتقويض المجتمعات التقليدية، مثل المجتمع الباكستاني. وتطرقنا كذلك إلى سطوة الموضة، وكيف أن ملابس النساء المسلمات التي لا تكشف عن أجسادهن تؤثر تأثيرًا إيجابيًّا في نظرة الناس إليهن، وفي ثقتهن بأنفسهن. وعادة ما كانت تشتد حرارة نقاشاتنا، وكانت نوعًا ما الصحوة العقلية بالنسبة إلي، مع أنني كنت أحيانًا أشعر بأن آراء عِمران لا تقبل النقاش، وهي في جلّها، إما أبيض أو أسود.

لكن حين كان ينتقد صورة النساء في وسائل الإعلام الغربية، لم يحتج إلى كثير من الجهد لإقناعي بوجهة نظره. وكنّا كلما مررنا في الشارع أمام إعلانات كبيرة، ثارت ثائرة عِمران لتصويرها النساء نصف عاريات للترويج لسلع مختلفة، من إطارات السيارات إلى عطور الرجال. وكان يرى في ذلك انتقاصًا من قدر النساء اللواتي كن يسمحن باستغلال أجسادهن بهذا الشكل. وكان يقول في هذا الصدد: «لهذا السبب بالتحديد، يطلب الإسلام من النساء أن يلتزمن التواضع في لباسهن، وذلك حتى يحافظن على كرامتهن لكونهن بشرًا».

حين كان يتمادى عِمران في نقده ذلك، كنت أمازحه وأناديه (المُلّا)؛ لكني خلال مسيرتي المهنية، وقفت على مدى انتشار استخدام وسائل الإعلام للجنس بصفته أداة ناجعة في الترويج لأي شيء وكل شيء. وكنت أتساءل أحيانًا عن مغزى ذلك ومعناه. ولتحقيق النجاح والشهرة في عالم الترفيه، كانت النساء عادة ما يلجأن إلى التباهي بجمالهن، وإبراز مفاتنهن. لقد كنت أومن أنا كذلك بتلك الحيلة، وأتبعها إلى حد ما. غير أني لم أتكل للنجاح في مسيرتي المهنية على بذل أقل جهد ممكن كما كان يفعل الآخرون، ولم أكن أعتمد على ملابس جريئة ومغرية لاستقطاب اهتمام الإعلام. لم يرق لي أن المرأة كانت تُقَدَّم في جلّ الأحيان مع التركيز على جسدها وجاذبية مفاتنها، وليس على شخصيتها أومستواها الفكري. لقد كنت أتفهم وجهة نظر عِمران،الذي رأى في أسلوب الغرب في التعامل مع المرأة على أنها شيء أو أداة تسويق للسلع، امتهانًا لكرامتها، وشكلًا آخر من أشكال استغلالها.

لا شك في أني خلال بداية تعرفي إلى عِمران تعلمت كثيرًا من الأمور، وأُجبِرتُ أيضًا على التفكير والإمعان في أمور لم يُخيّل لي يومًا أني قد أتوقف عندها. كانت أحاديثنا عن الأخلاق والقيم والسياسة ومعنى الدين كأنها تعويض عن المهنة التي طالما حلمت بها، وهي مساعدة الآخرين، والمساهمة في إحلال السلام في العالم. وبدأت وقتها أُعِيدُ النظر والتفكير في كل ما كنت أعتقد أني أعرفه. وفي الوقت نفسه، كانت وتيرة عملي بصفتي مقدمة برامج على محطة إم تي ڤي أوروبا تزداد بصورة جنونية وأكثر من أي وقت مضى. وكان وقت عملي، إما مقسمًا بين تقديم الأغاني من أستوديو لندن والتنقل في أنحاء العالم لإجراء حوارات مع المشاهير، إضافة إلى الدعوات التي كانت تردني كي أحل ضيفة على برامج أخرى، أو أقدم سهرات وحفلات موسيقية.

كانت تأتيني عروض عمل من قنوات تلفازية أخرى. وفي عام 1992م، سألني منتج ألماني عما إذا كنت مهتمة باقتراح فكرة لبرنامج موسيقي جديد أقوم بتقديمه. وتحمست لهذا العرض كثيرًا وقبلته. وكانت إم تي ڤي أوروبا حينها قد تفوقت على البرامج الموسيقية كلها في ألمانيا، واكتسحتها. غير أن هذه الفرصة مكّنتني من أن يكون لي برنامج خاص بي، وكان يدعى (برافو تي في). وكان هذا البرنامج قاعدة لاكتشاف مواهب موسيقية جديدة وإطلاقها. وكان فريق التصوير ينتقل مرة في الشهر إلى لندن، حيث نصور في أحد أستوديوهات منطقة (سوهو) التي كانت تشتهر بالإنتاج المتلفز. وبعد عام من ذلك، بدأت أذهب بصورة منتظمة إلى هامبورج في إطار العمل في برنامج (برافوتي في). ولم يمضِ وقت طويل حتى ترسخ نجاح البرنامج، في حين أصبحت أحد رموز موسيقا (البوب) في ألمانيا. وأجريتُ مقابلاتٍ مع مجموعات موسيقية لا حصر لها مثل(إيست ١٧). وكان مغني هذه المجموعة الرئيس، واسمه توني، مسليًا، ويجيد أصول الحديث. لكن عندما سألت برايان عما يحفز توني إلى عمله، قال دون مواربة: «إن كل ما يهمه هوالحصول على الفتيات». وفي مناسبة أخرى، حضر بعض أعضاء هذه المجموعة لإجراء المقابلة، وهم سكارى. وكان الفرق جليًّا بين مثل هذه التصرفات والأحاديث التي كانت تدور بيني وبين عِمران عن رحلة البحث عن الذات. وأسهم كثيرًا في تنحية المزيد من أفكاري الخاطئة عن عالم الشهرة.

على العموم، قضيت مع عِمران صيفًا رائعًا في لندن. غير أني كنت أحس بأنه لم يكن يشعر بأنه ينتمي إلى مجتمع لندن انتماءً كاملًا، وكأنه ليس في بلده الأم. وكان يقيم حفلات عشاء متواصلة، ويحضر تلك التي ينظمها آخرون، ومع أنه كان يستمتع ببريق تلك الحفلات، فإنه كان يعلم أن تلك الأجواء لم تكن لتغنيه عما يفتقر إليه. وكانت جذوره الباكستانية كل ما

يعنيه فعلًا، وعادةً ما كان يتكلم عن باكستان بحماس لا يستطيع تَمالُكَهُ. وكان عِمران يحب بلده، وفخورًا بشعبه وثقافته وما يمكنه تحقيقه. وقال لي إنه ما إن يؤسس عائلة حتى يذهب ليعيش في باكستان. وأراني صورًا للطبيعة الباكستانية؛ كانت مناظر الطبيعة البكر وجبال الهمالايا أخّاذة فعلًا. ودعاني إلى الذهاب معه وأصدقاء آخرين في رحلة جبلية، فترددت في البداية في قبول الدعوة. وكان يُخيل إلي أن باكستان بعيدة جدًّا، وليست من أولى المناطق التي تتبادر إلى ذهن المرء وهو يخطط لأن يذهب في رحلة سياحية. ثم إني لم أنسَ ما قاله عن رغبته في الاستقرار هناك مع عائلته في المستقبل. وظَل يُصِرُّ عليَّ في الدعوة إلى أن قبلت في النهاية، فسُرَّ عِمران بذلك غاية السرور، وقال لي بكل ثقة: «في باكستان، ستقعين في حبي». أجبته في قرارة نفسي، قائلة: «إن غدًا لناظره قريب».

وفي أغسطس من سنة 1992م، أيْ بعد ثلاثة أشهر من أول لقاء لنا، ذهبنا بصحبة صديقتي بريجيت في رحلة مدة أسبوعين إلى باكستان. وخلال زيارتنا لاهور، مكثنا في منزل والد عِمران في ضاحية (زمان بارك). واستوقفني الاحترام الذي كان عِمران يبديه في التعامل مع والده، فكان يخاطبه بصيغة الجمع التي تستخدم في لغات عدة لإظهار الاحترام والتأدب مع المخاطب. استغربت استخدام هذه الصيغة اللغوية في مخاطبة أحد الأقارب، لكنه أوضح لي أن مرد ذلك إلى أحد مبادئ الإسلام التي تحث على احترام من هم أكبر سنًّا، وهو أمر كان قد ذكره يوسف صلاح الدين كذلك، حيث قال: «يعلمنا القرآن أن نحسن معاملة الوالدين ونحبهما؛ لأنهما تفانيا في تربيتنا». وتساءلت عما إذا كان هذا الأسلوب في مخاطبة الوالدين يوجد حواجز ومسافة ما، تقابل الارتباط الشديد الذي لاحظته بين العائلات الباكستانية التي عادة ما تعيش أجيال عدة منها تحت سقف بيت واحد. وقد دُهشت كذلك لما وقفت عليه من مدى

احترام الأطفال والمراهقين الباكستانيين آباءهم، وأدبهم في التعامل معهم، على خلاف بعض الأطفال الغربيين، وكنت منهم حين كنت صغيرة السن.

وخلال زيارتنا باكستان، تسلقنا قمم الجبال المغطاة بالثلوج، وبتنا في خيامٍ، وصنعنا شايًا على النار في الهواء الطلق. وسافرنا كذلك إلى إسلام أباد وكراتشي. وفي مناسبات مختلفة، وحفلات غداء أو عشاء، كنّا نلتقي أصدقاء عِمران الذين كانوا متفتحين وعصريين وناجحين في حياتهم. وركبنا مرة القارب في ميناء كراتشي الكبير، وذهبنا في جولة ليلية، ثم عدنا إلى البيت على أنغام أغنية نصرت فاتح علي خان: (ماست، ماست) ، وهي تصدح من آلة التسجيل. وفي طريق العودة، كنا نتوقف عند إشارات المرور، حيث كان عِمران يبتاع لي ولبريجيت أساور من زهر الياسمين. فأعجبني نادي السند في مدينة كراتشي بطرازه المعماري الذي يعود إلى الحقبة الاستعمارية. وكان البريطانيون قد بنوا ذلك النادي في ستينيات القرن التاسع عشر، ولم يُسمَح للسكان المحليين بالانضمام إليه إلا بعد انفصال باكستان عن الهند. وكانت الأجواء لا تزال تحمل عبق الحكم البريطاني وعظمته لشبه الجزيرة الهندية. وكانت المشروبات الكحولية غائبة عن الموائد في الأماكن العامة، ولم أتناول المشروب إلا في بعض البيوت، ونحن في ضيافة بعض الأشخاص. لم تكن نوعية النبيذ جيدة، ولم أكن أتناول المشروبات الروحية القوية، التي كان ينتشر استهلاكها بين بعض الرجال هناك. ولم يكن عِمران يشرب لا المشروبات الكحولية، ولا أي نوع آخر من النبيذ. وربما كان من المفيد لي ولبريجيت أن نبتعد عن الشراب بضعة أسابيع.

كانت أول زيارة لي لباكستان رحلة رائعة حقًّا، واحتفظت منها بذكريات لا تنسى. واستمتعت غاية الاستمتاع بأجواء الشرق التي تستفيق

لها الحواس، وتأثرت كثيرًا بلطف الناس الذين قابلتهم هناك، وحسن كرمهم؛ أناس كان الله يسكن قلوبهم. وكان عالمًا مختلفًا تمامًا عن عالم الترفيه الغريب والعجائبي. وكان عالمًا أعادني القدر إلى أحضانه مباشرة بعد أول زيارة لي إلى باكستان. وكان ما عشته في تلك الزيارة لا يزال غضًّا في مخيلتي، وأنا في طريقي إلى لوس أنجلوس لحضور حفل تقديم جوائز إم تي ڤي للفيديو كليب.



كان هرج ومرج سهرة الجوائز زائفًا بصورة صارخة. وكانت النساء والفتيات يتباهين بجمال زائف من صنع عمليات التجميل، وهن يرتدين ملابس ضيقة وقصيرة جدًّا. وكان يبدو بعضهن سخيفات، وقد .حضرن تلك السهرة بملابس داخلية ونظارات شمسية فقط. وكنت أتساءل ما الذي كنّ يحاولن إخفاءه. وقضيت الأسبوع اللاحق مع إليزابيث هيرلي وصديقتها جوليا فيردين، التي كانت منتجة أفلام. فأظهرتا اهتمامًا كبيرًا برؤية صور رحلتي، وأُعجِبتا بذلك العالم المختلف الذي زرته مع عِمران. كنت أخرج معهما للتجول في المدينة، وعادةً ما كنا نلتقي عددًا من المشاهير. وكان نيكولاس كيج من بين ضيوف إحدى الحفلات التي حضرناها. وفي ليلة أخرى، لمحت بيلي آيدول بشعره البلاتيني المائل إلى البياض، وهو يرتدي لباس نجم (روك) ونظارات شمسية. وصادف أن توني جيمس كان في لوس أنجلوس أيضًا، وكنا نخرج كلنا معًا. فانهمك توني وبيلي في حديث مطول حين التقيا؛ حيث كان الاثنان يعرفان بعضهما بعضًا منذ أيام مجموعة (جينيرايشن إكس). وقابلت كثيرًا ممن يعملون في صناعة الأفلام، وكان أول سؤال أتلقاه منهم هو: «ما طبيعة عملِك؟»، ثم: «ما طبيعة عمل والدك؟». كان اهتمام الناس كله منصبًّا على العمل، وتحقيق أهداف

مهنية معينة، لكنهم كانوا في الوقت نفسه بعيدين عن أرض الواقع. فأحسست بأن الجو العام أبعد ما يكون عن ذلك الذي غمرني في باكستان، وافتقدت دفء الناس الذين قابلتهم هناك وكرمهم وصدقهم.

حين قابلت عِمران بعد ذلك في لندن، بدأ يتحدث عن مستقبلنا. ولم يعرض عليّ الارتباط به صراحة، لكنه بدأ يفكر في مشروع زواجنا. فأهداني سلسلة عنق تحمل كلمة (الله)؛ سعدت بها كثيرًا، وكنت أضعها حول عنقي في أغلب الأوقات.

كان الزواج مسألة معقدة بالنسبة إلى عِمران. ولقد تساءل الباكستانيون سنوات عما إذا كان سيتزوج يومًا ما، وعن المرأة التي سيختارها رفيقة دربه. وكان يشغلهم ما إذا كان سيختار امرأة غربية أو باكستانية. ولم تَمَلَّ الصحف الصفراء من تكرار تلك الأسئلة، وكان المزاج العام في البلاد يميل إلى اختيار فتاة باكستانية؛ لهذا، حرص عِمران على الإبقاء على علاقتنا بعيدة عن الأنظار. ولم أعارض رغبته تلك، بل سايرته احترامًا مني لثقافته، على الرغم من أن ذلك كان مصدر ضيق وانزعاجٍ بالنسبة إلي. ثم إني لم أُرِد أن أكون عقبةً في طريق بناء مستشفاه الخيري. وكانت هناك أمور كثيرة عليه إنجازها، وكان أيضًا قلقًا من أن يلقي زواجه من امرأة غربية بظلاله على جهوده في حملات جمع التبرعات لبناء المستشفى. فاقترح عليّ أن نتزوج مباشرة بعد افتتاح المستشفى، وتفهمت سبب قلقه. ولا يمكنني القول إني كنت حريصة جدًّا على الزواج حينها، ولا سيما أنه لم يمرّ على تعارفنا أكثر من بضعة أشهر، بذلنا جهدًا كبيرًا كي لا نلفت الأنظار، فكان كل منا يصل لوحده إلى المناسبات العامة التي كنا نحضرها ويغادرها من دون الآخر. لكن ذلك لم يكن سهلًا أبدًا، وقد تمكّن بعض المصورين من التقاط صور لنا معًا، ونحن في طريقنا إلى أحد

المطاعم، أوقاعة ممارسة التمارين الرياضية. ولم يكن بالإمكان تفسير الصور بطريقة أو بأخرى؛ لأنه لم يكن يظهر مشاعره في العلن على أي حال. وكان يقول في هذا الصدد: «إن المسلمين لا يعبرون عن مشاعرهم على الملأ». وكان عليّ أن أعتاد على هذا الأمر أيضًا، ولكن على الرغم من كل ذلك، كانت علاقتنا حقيقية. وفي أحد الأيام، حدث ما كان يخشاه عِمران، ونشرت الصحافة الباكستانية صورًا لنا مصحوبة بمقالات مطولة. فتملّك عِمران قلق شديد من عاقبة ذلك. لكن لم يكن لتلك الصور والمقالات أي أثر على الدعم الذي كان يتلقاه لبناء المستشفى.

ورغم أن عِمران كان قد اعتزل لعب (الكريكت)، لكني كنت أرافقه أحيانًا لحضور بعض المسابقات الخيرية التي كان يشارك فيها خارج لندن، بما فيها مباريات (الكريكت) السنوية في جرومبريدج بمنتجع (أندروز) الخاص، وتلك التي تجرى في (جلوستر شير) في المنتجع الذي يملكه دوق بوفورت، والد بانتر وجونسون. وعندما كنا نتلقى دعوة للذهاب إلى هناك، كنا نقيم، إما في منزل تريسي وبنتر الريفي الذي لا يبعد كثيرًا عن المنتجع، أو في (بادمنتون هاوس)، حيث يعيش الدوق مع زوجته. وكانت تلك الزيارة كأنها رحلة إلى عالم مغاير تمامًا، حيث يعمل الخدم والطهاة على خدمتنا ليل نهار. وكان المدعوون إلى وجبات الغداء والعشاء نجوم موسيقا (الروك)، ورجال أعمال، وكتّابًا، ومخرجين، وعارضات أزياء، وأصدقاء للدوق وأبنائه. وكان أصغر الضيوف سنًّا يقصدون المكتبة، حيث يواصلون احتفالهم حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التاني. ومع مرور الوقت، فهمت أن لعبة (الكريكت) مرتبطة بحياة الريف الإنجليزي. وكان اللاعبون يرتدون لباسًا ناصعة البياض، ويمشون على عشب جُزَّ بكل عناية، ويتناولون شطائر الخبز مع الخيار، ويحتسون كؤوسًا من شراب (بيمز) ، وهي علامة تجارية لمشروب شبه روحي قوي. أعترف أني لم أكن يومًا من

عشاق لعبة (الكريكت)، لكني تعرفت مع مرور السنين كثيرًا من قواعدها، وكان يعجبني الإخراج الفني للعبة.

كان عِمران على سجيته مع عدد محدود من أصدقائه، وهم يتناولون العشاء في مطعم ما، أو في جلساتهم المنزلية. وكان عادة ما يطلب أفضل أطباق الكاري الهندية من طباخ خاص في منطقة (إيست إند)، ونتحدث، ونأكل على أنغام الموسيقا حتى ساعة متأخرة من الليل. وكان مطربه المفضل على الإطلاق، هونصرت فاتح علي خان، لكنه كان يستمع كذلك لمجموعات غربية، مثل (يوتو) و(بينك فلويد). وكنت أستمتع استمتاعًا خاصًّا بالأسطوانات التي عادةً ما يعدها له جونسون التي يجمع فيها توليفة من الأغاني المختلفة.

كان أصدقاء عِمران كلهم ودودين، وكانت صحبتهم ممتعة. فكان جوناثان ميرماجن مثلًا، الذي كان يتقن فن الحكي(السرد)، مديرًا رياضيًّا ذا شعر فضي لافت، وكان يمتعنا ساعات طويلة، ويمازح عِمران متهمًا إياه بمحاولة جرّ فتاة إم تي ڤي إلى الإسلام. وأوليفر جيلمور، قائد أركسترا، الذي حين قابلته كان قد عاد توًّا من بلغاريا، واعترف لي أنه كان عادة ما يسهر ليلًا ليشاهدني على قناة إم تي ڤي. ومارك شاند، أخ كاميلا باركر بولز، الذي كان مغامرًا يحب الفيلة، وشريعه باختيار، وكان أحد أجداده رئيس وزراء أسبق في إيران. وكان شريعه بحق ملك ليالي لندن. وقد شاءت الصدف أن يكون من أوائل من تعرفت إليهم في لندن مع كارولين، زميلتي في السكن. وتعرفت كذلك إلى الصحفي والكاتب الأميركي الوسيم تشارلز جلاس، الذي احتُجِز رهينة في لبنان مدة شهرين. وكان لاعب (الكريكت) بي جي مير من أصدقاء عِمران من لاهور، وكان يحب مختلف أنواع الآلات الإلكترونية، وكان يسألني دومًا عن طرق يستطيع من خلالها أن يصل إلى

التلفاز. وكان هؤلاء كلهم أصدقاء عِمران، إضافة إلى بانتر وجونسون؛ دون أن أنسى ذكر أكرم، سائق التاكسي الذي كان يقود عِمران أينما يريد. وإلى جانب هؤلاء، كان محيط عِمران يضم مجموعة كبيرة من رجال الأعمال الباكستانيين الذين كانوا أعضاءً في لجنة بناء مستشفى السرطان، وكانوا يجتمعون بانتظام في شقته لمناقشة تفاصيل مشروعهم. وكان لعِمران مُصفِّف شعر يثق به كثيرًا اسمه (دار)، وكان الأخير يحبه كثيرًا، ويعلق صوره والمقالات التي تُنشر عنه على جدران صالونه. وكان حريصًا على حضور المقابلات المتلفزة كلها التي يجريها عِمران، ويحرص على أن يظهر شعره على أفضل هيئة، وذلك باستخدام طرق وحيل يبتكرها بنفسه. كان ينادي عِمران (إيمي)، ويدعوه إلى عروض الأزياء الهندية. وكان ذلك يزعجني شيئًا ما؛ لأن الوقت الذي كنّا نلتقي فيه كان ضيقًا جدًّا أصلًا. وعلى الرغم من ذلك، فإن (دار) كان شخصًا لطيفًا، ومصفف شعر من الطراز العالي.

حضر كل هؤلاء الأصدقاء للاحتفال بعيد ميلاد عِمران الأربعين، حيث حضر ميك جاجر برفقة جيري هال وماري هِلفين. وتحدث ميك وعِمران عما يتطلبه نجاح كل منهما في عمله من مثابرة وعملٍ جادٍّ ومضنٍ. وفي حين يرى معجبوهما أن ما وصلا إليه سهل ولا يتطلب جهدًا كبيرًا، فقد اتفق الرجلان على أن ذلك الإنجاز لا يتحقق بالموهبة فحسب، بل بالعمل الشاق. وكان عِمران يقضي ساعات طويلة كل يوم في التمرين، وأخبرنا ميك بالتمارين المضنية، والبروفات المتتابعة التي كان يقوم بها قبل أن يذهب في جولاته العالمية. وقد أسعدني كثيرًا أن أستمع إليهما، وهما يتحدثان بكل صراحة عن مفاتيح النجاح في نظرهما. وأسعدني أيضًا أن ألاحظ كيف كانا يتناولان قطع كعكة عيد الميلاد الواحدة تلو الأخرى؛ لأني كنت أعددت يومها أول مرة وصفة أمي الخاصة لصنع كعكة الكرز والبندق. وكنت قد

تحدثت معها عبر الهاتف، وزودتني ببعض النصائح لإنجاح الكعكة. وقد قدمتها مع كريمة القرفة المخفوقة. ولحسن الحظ، كانت الكعكة رائعة، ولم يستطع حتى ميك أن يقاوم تناول قطع عدة منها.

وعلى الرغم من تلك الأجواء، فإن تلك النخبة من أصدقاء عِمران من المشاهير لم تكن هي التي جذبتني إليه، بل جذبتني إليه مثاليته الحالمة، وجهده الدؤوب في سبيل المستشفى الخيري لمرضى السرطان. حيث قُدرت تكلفة بناء المستشفى بما يزيد على عشرين مليون جنيه إسترليني. وكان عِمران يجمع التبرعات من أنحاء العالم كافة، بما فيه أميركا والمملكة المتحدة والشرق الأوسط والهند وباكستان وأستراليا. وكان يحب باكستان، ويردد دائمًا أنه يفضل خدمة بلده، ويسهم في تقدمه على أن يعيش حياة رغد بلا معنى في الغرب. وكان يصطف وراء عِمران جيش من المتطوعين والشخصيات المهمة لمساعدته، منهم أصدقاؤه في لندن، والممثل الهندي الشهير أميتاب باتشان، ملك (بوليوود) وأشهر ممثل في الهند، والراحل نصرت فاتح علي خان، أسطورة الموسيقى الباكستانية. وكان ينظم حفلات خيرية لا حصر لها لجمع التبرعات، ويقنع أكبر عدد من الأصدقاء والرعاة بـِ (شراء) حجزِ طاولات في تلك الحفلات. وخلال تقديم أطباق العشاء، كان يعتلي المسرح ليتحدث بتأثر عن الحاجة الماسة إلى بناء هذا المستشفى؛ بسبب الوضع المزري لقطاع الصحة في باكستان. ولم تكن حكومة البلاد تصرف همتها إلى إيجاد نظام صحي، أو تغطية صحية للمرضى، ولم تكن توفر أي علاج لمرضى السرطان. وعرض شريط فيديو أمام أنظار الحضور، يظهر المستشفيات الباكستانية ووضعها المأساوي، وفي الوقت نفسه التقدم الذي أُحرز في بناء مستشفى السرطان، قبل أن يحث الحضور على التبرع بسخاء والمساهمة في مشروع عِمران.

أقام إحدى هذه الحفلات بفندق (إنتركنتيننتال) في حديقة (هايد بارك) وسط لندن، وكانت تلك أول مرة أحضر فيها حفلًا لنصرت فاتح علي خان، الذي أدهشني أداؤه تلك الليلة. وكان يلقب ببافاروتي باكستان، وكانت حفلاته من أكثر الحفلات تأثيرًا في نفسي. وكان نصرت ضخم البنية، ويفترش السجاد على أرضية خشبة المسرح، حيث يتوسط عازفي الطبلة وكثير من المغنيين المرافقين له. وحين يغني، يصدح بصوته الذي ينساب بين القوة والرقة، فيما يتماهى جسده في انسجامٍ تام مع كلمات أغانيه، وهويقود إيقاعات الموسيقيين المرافقين له بحركات من يديه. وكان لصوته وقع فريد وكأنه آتٍ من مكانٍ ما في أعماق قلبه. وكان بعضهم يزعم أنه يستطيع التنقل بين ثمانية أكوتافات (نغمات موسيقية) في نَفَس واحد.

انتشى الجمهور في تلك الليلة اللندنية على عرض خان ذلك. وكانوا جميعًا يتمايلون طربًا لصوته، حتى ميك وجيري حَلّقَا مع الإيقاع والصوت الشجي. وكان الجو يزداد بهاءً ورقيًّا مع استرسال نصرت في الغناء. وانتظم بعض المعجبين الباكستانيين في حلقات، وهم يمدون بأيديهم، ويمطرون نصرت بالجنيهات الإسترلينية. وأخبرنا عِمران قائلًا: «في باكستان، يدخل المستمعون لهذه الموسيقا في حال روحية حقيقية». ويعيش الناس خلال حفلات (موسيقا القوالي) وهي لون من المديح الديني يقوم على إنشاد قصائد ذات طابع روحي تجربة روحية حقيقية، شأنهم في ذلك شأن الموسيقيين أنفسهم. وأضاف عِمران: «بحسب تعاليم الصوفية، فإن موسيقا (القوالي) تعطي للروح أجنحةً تحلق بها إلى ملكوت الله». وفي الواقع، كان مدير مجلة سبين الأمريكية قد أعطاني أول أسطوانات المنشد نصرت حصلت عليها قبل سنتين من ذلك، خلال حفل (ذا وول) لمجموعة (بينك فلويد) في برلين، احتفالًا بسقوط جدار برلين. ولم أستمع قطّ لتلك الأسطوانات. أمَا وقد صادفت هذا الفنان العجيب، الذي أسرتني موسيقاه،

وحلّق بي غناؤه، فقد وجدتني أريد أن أعرف المزيد عنه. أخبرني مدير أعماله، الذي كان يُدعى أنجيم، بأنه وُلِد في كنف إحدى أعرق العائلات الموسيقية الباكستانية، وترعرع في جو موسيقي صوفي عريق إلى أن أصبح أشهر منشدي (القوالي) في شبه القارة الهندية، واستحق لقب (شاه شاهين)، أيْ ملك الطيور، وألمع نجم في عالم (القوالي). ويرجع الفضل إلى بيتر غابرييل في تقديم نصرت للغرب من خلال مهرجانات (ووماد)، وبلغ به التأثر بهذه القمة في الغناء الروحي أن أنتج بعض الألبومات الغنائية المشتركة معه لفائدة علامة (ريل وورلد) التجارية التي ابتكرها. وقد كتبت مجلة (رولينج ستون)، مرة أن نصرت يمتلك أفضل صوت في العالم. وكان أشهر المغنين والموسيقيين في العالم، ومنهم بونو من مجموعة (يوتو)، والإيطالي لوتشيانو بافاروتي، يتطلعون لإخراج عمل مشترك معه. وقد أعاد جيف باكلي، وهومن الفنانين الذين فارقوا الحياة في مقتبل العمر، تسجيل كثير من ألحان نصرت، ونُقِلَ عنه أنه قال: «ثلاجتي فارغة من الطعام، لكن مجموعة أسطواناتي تضم أحد ألبومات نصرت خان». لا شك في أن جيف كان يتغذى على موسيقا نصرت خان الروحية. بعد أن سمعت كل ذلك، قررت أن أُقدّم ستيف لهذا الفنان الاستثنائي حين تسمح الظروف بذلك.

وبعد هذا العرض الاستثنائي، أخذ عِمران يتنقل من طاولة إلى أخرى، محاولًا أن يتحدث لكل واحد من الضيوف على حدة. وما كان من أميتاب باتشان إلا أن فعل مثل عِمران، وصار ينتقل بين الطاولات يحث الحضور على التبرع، فآتت جهودهما أكلها. وبعد سنوات عدة، أصبح مستشفى ومركز بحوث (ذكرى شوكت خانوم) للسرطان، تيمنًا باسم والدة عِمران الراحلة، مؤسسة قائمة بذاتها، لا يدفع ثمن العلاج فيها سوى القادرين على ذلك. وتصل نسبة الخدمات العلاجية التي يغطيها المستشفى 75٪ من

تكاليف العلاج لكل مريض. وما زال عِمران يجمع نحو20 مليون دولار أميركي سنويًا لتغطية هذه النفقات. ويجري حاليًا بناء مستشفًى ثانٍ للسرطان في كراتشي.

أعجبت كثيرًا بحملات عِمران لجمع التبرعات، فقد كانت تُقام من أجل غاية نبيلة، ولم يكن الغرض منها تحقيق المتعة، أوربط العلاقات العامة من أجل تحقيق أغراض شخصية، كتلك المناسبات والحفلات التي اعتدت حضورها في عالم صناعة الموسيقا. ولم تكن المشروبات الكحولية حاضرة بقوة في هذه المناسبات الخيرية، وإن وُجدت، فإن استهلاكها يظل ضمن نطاق المعقول. ثم إن الضيوف كانوا يرقصون، ويتجاذبون أطراف الحديث، ويستمتعون بالسهرة.

نظّم عِمران حفلات لنصرت في أنحاء العالم كافة، وكان يعمل ليل نهار من أجل هذا المشروع الذي كان يبتغي من ورائه «مرضاة الله» كما كان يقول. وكان يقول إن دينه هوالذي كان يمده بالشجاعة والقوة لإنجاز (مهمته) على مدى سنوات عدة. ولم يكن إسلام عِمران يقتصر على الكلام، بل رأيته يصلي على سجادته التي كانت موجهة إلى الجنوب الشرقي، نحو مكة. وكنت أحيانًا أسمعه يناجي الله تعالى بصوت عالٍ بالأردو. وكان يصوم رمضان، ويقرأ الكتب بنهمٍ في سبيل تعميق معرفته بدينه الإسلام. وعادة ما كنّا نزور مكتبة متخصصة في بيع كتب عن الإسلام بجوار مسجد (ريجنتس بارك)، وكان يبتاع الكتب منها بلا عدد. وكنا نمضي ساعات طويلة في قراءة تلك الكتب، وتدارس القرآن معًا. أذكر أني حين قرأت النص القرآني أول مرة، بدا لي غريبًا جدًّا؛ لأنه كان مختلفًا عن كل ما قرأته من قبل. ولكني كنت أشعر بالقوة الكامنة في كلماته؛ كان الله.

فاجأني أن أكتشف أوجه التشابه بين اليهودية والمسيحية والإسلام.

إحدى نقاط التقاء تلك الديانات، هي أن المسلمين واليهود والمسيحيين يؤمنون جميعًا بالله، وكنت أعرف ذلك من قبل. لكن الجديد هو أني كنت أقرأ قصص الرسل أنفسهم الذين تعرفت إليهم من الإنجيل، مثل إبراهيم وموسى وعيسى. وفي هذا الصدد، أوضح لي عمران قائلًا: «لقد أرسل الله الرسالة نفسها من خلال أنبياء مختلفين في أزمنة مختلفة، ومحمد هو آخر أولئك النبيّين؛ لذا، يسميه المسلمون خاتم النبيّين. وقد أوضح وأتم رسالة الله للبشر»، هذا ما لم أكن أعرفه من قبل.

اكتشفت أن لا وجود للمفاهيم المسيحية التي استعصى عليّ فهمها، مثل عقيدة التثليث أو الخطيئة الأولى. وعلى عكس ذلك، فإن عقيدة الإسلام تقول: إن كل مولود يولد على الفطرة، وهي الطبيعة التي خلقه الله عليها. وعِوضَ أن يولد وهو يحمل إرث خطيئة لم يرتكبها، فإن الإسلام يُحمِّلُ كل إنسانٍ مسؤولية أفعاله، وأن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (سورة المدثر: الآية 38) وقد جاء في الآية 164 من سورة الأنعام: ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. ففكرت في هذه الأمور كلها ووجدتها منطقية. وأعجبتني فكرة المسؤولية الفردية، وتأملت فيها بعمق. وتذكرت كيف كان بعض اليهود الكبار في السن لا يتحدثون إليّ خلال سنة التبادل الأكاديمي التي قضيتها في الولايات المتحدة؛ لأنهم كانوا يأخذون عليّ أني ألمانية، وأن الألمان اقترفوا (الهولكوست).

وكنت أتفهم نظرتهم السلبية لي، وكانت تلك الحقبة من تاريخ ألمانيا تملؤني بالمرارة والاستياء. لكن ذلك لا يبرر مؤاخذتهم لي بأمر حدث قبل أن أولد، وكأن ذنبي الوحيد هو كوني ألمانية الجنسية؟ لقد تعلمت من خلال قراءاتي عن الإسلام أن التجريم أو العقاب الجماعي ليس من العدالة في شيء. وفي الوقت نفسه، كلنا مدعوون إلى الاستفادة من قصص الآخرين

التي حدثت في الماضي ومن الأزمنة الغابرة، ونقوي عزيمتنا على منع حدوث الظلم، ونحد من القسوة في أي مكان في العالم.



الفصل الخامس

مغامرة واكتشاف ثم إدراك

حرّر عقلك والباقي سيأتي تباعًا.

إن فوج

كان لايفصل بين زياراتي إلى باكستان خلال السنتين اللاحقتين، سوى أشهر قليلة، ما سمح لي بأن أتعرف إلى هذا البلد أكثر، وأقع في حبه شيئًا فشيئًا. كانت كل واحدة من تلك الزيارات مغامرة حقيقية كنت أعيشها في عالم آخر، تستفيق لها الحواس على وقع الحرارة والألوان والأصوات والروائح، ونكهات الطعام القوية، ومناظر الطبيعة الخلابة، وصور قطعان جاموس الماء، وهي تسبح في برك المياه على جانب الطريق. كنت أستمتع كثيرًا بالوقت الذي كنت أقضيه في السيارة من المطار إلى المدينة؛ لأنه كان يُعدّ عبورًا عبر بوابة فريدة من حياتي الأخرى إلى هذا الجو الدافئ والمضياف والغرائبي كذلك. وكنت أنظر عبر زجاج السيارة، وأنا مستسلمة لكل ما يقع عليه نظري، وأتطلع إلى أن أغوص مجددًا في هذه الثقافة التي تختلف كثيرًا عن كل ما ألفته سابقًا، والتي أصبحت أستأنس بها رويدًا رويدًا.

زرنا كشمير في إحدى تلك الرحلات. إنها حقًّا من أجمل أقاليم باكستان، بقممها التي تكسوها الثلوج، وجد اول مياهها الفيروزية، ومروجها التي تزيدها الزهور جمالًا وبهاءً. وزرنا أيضًا منطقة القبائل شمال غرب باكستان، حيث موطن البشتون الذين يتميزون بكرمهم الكبير على الرغم من القسوة التي تبدو عليهم أحيانًا. وكان الرجال والقلة من النساء الذين قابلناهم يتميزون بطول قامتهم ونحافة بنيتهم، وكانت أعينهم الخضراء

تتوارى خلف أهداب طويلة وغامقة اللون. وكان لأغلب الرجال شوارب على غرار رجال البنجاب. وكانت لحاهم كثة، وكانوا يرتدون زي (شالوار قميص)، وعمائم من ألوان مختلفة. وكنت أفضل تلك التي تصنع من قماش أسود وفضي لامع. وكان كثير من الرجال، بل والصبية أيضًا، يحيطون خصورهم بأحزمة الرصاص، ويحملون الكلاشينكوف على أكتافهم. وكان من الصعب روية النساء في تلك البيئه، سوى القلائل منهن، واللائي كن يعملن في الحقول. حيث كنّ يرتدين اللباس التقليدي القبلي الذي كان، إما ورديًّا زاهيًا، أو باللون الأحمر القاني. وقد أُهدِيت لباسًا من ذلك النوع، وكان جميلًا وذا لون ساطع. وكان اللباس مكوّنًا من تنورة فضفاضة، بها ثنيات عمودية، ويشدها إلى الأسفل ثقل التطريز الذي حيكَ فيه، إضافة إلى عدد من الأجراس الصغيرة والقطع المعدنية. وكانت أرض كشمير صخرية، ويصعب اختراقها، وكانت المنازل الطينية تبدو كأنها قلاع صغيرة بنوافذ صغيرة, لدرجة أنه لا شيء يمكنه أن يعبر منها سوى البندقية.

وعلى الرغم من أن منطقة القبائل كانت جزءًا من باكستان، فإنها لم تكن خاضعة لحكم القانون بل لحكم زعماء القبائل. وكان النظر في الأمور الإقليمية يحصل من خلال مجالس يعقدها شيوخ القبائل وتسمى (جيركا)، حيث تتخذ القرارات بالإجماع. ويحترم البشتون عرفهم, وهو ميثاق شرف ومنظومة من التعاليم الأخلاقية التي كانت تلزم الأفراد والجماعة في تصرفاتهم, ويسمى (باختون والي). وقد شهدت تلك المنطقة بروز حركة طالبان في هذه المناطق بعد سنوات من ذلك، حيث استغل بعض المتطرفين كرم البشتون، واحتموا بهم. وأصبح من الخطير جدًّا على أي شخص أن يزور تلك المناطق، حتى في وقت زيارتنا الذي أتحدث عنه. وبفضل شهرة عِمران وإرثه البشتوني، سمح لنا جنود الحدود بأن ندخل تلك المناطق ضمن دورية مسلحة.

وزرنا مدينة بيشاور الحدودية في طريقنا التي تقع على حدود الشريط القَبَلي. ويمكن للمرء أن يشتري أنواعًا عدة من السلع من بيشاور من قطع الحشيش الكبيرة إلى مصوغات يدوية تقليدية للفضة مطعمة بأحجار اللازورد، إضافة إلى أي عدد من قطع الزمرد والسلاح، بل وحتى اليورانيوم. وكان لباس البرقع منتشرًا أكثر بين نساء تلك المنطقة، وهوعبارة عن قطع من اللباس السميك، لونه أزرق مائل إلى الرمادي، ويشبه في شكله هيئة الخيمة. وهوما ترتديه أغلب نساء المقاطعة الواقعة على الحدود الشمالية الغربية الباكستانية، وفي أفغانستان، وله الشكل نفسه إن نظرت إليه من أي جهة كانت. ودفعني الفضول إلى تجربة ارتداء هذا البرقع خلال توقفنا للاستراحة في قرية تدعى بانو. لَبِستُه فوق (الشالوار قميص)، وشعرت بِحَرٍّ شديدٍ، وكنت أتنفس فيه بصعوبة. أما الشبكة التي حيكت على مستوى العينين لتنظر من خلالها المرأة فلم أستطع الرؤية بوضوح من خلالها، ولم أرَ سوى الأشياء التي كانت أمامي مباشرة. ولم يرق لي أبدًا ذلك الرداء، وأحسست فيه بأني داخل سجن متحرك.

وعلى الرغم من كل ذلك، لم يُفسد أي شيء استمتاعي بالتجول بين البازارات (الدكاكين) التي كانت تصطف في الأسواق التي ذهبنا إليها، ومشاهدة الأطباء التقليديين، الذين يسمى الواحد منهم (حكيمًا). وكان هؤلاء الحكماء يستخدمون الأعشاب في التطبيب، ويبيعون أنواعًا لا حصر لها من العلاجات الغريبة. ومن ذلك سمّ الأفاعي، ومسحوق يثير الرغبة الجنسية يصنع من خصى النمر المجففة، على الرغم من أن هذه الحيوانات قاربت على الانقراض تمامًا، إضافة إلى دواء طبيعي يُعدّ الأكثر انتشارًا بين السكان الباكستانيين، وهو ما يسمى (كالجوني)، أو زيت بذور الكمون الأسود، المعروف لدى العرب بالحبة السوداء أو حبة البركة. وأخبرني جميعهم بأن النبي صلى الله عليه وسلّم، قال عن هذه الحبة:

«الحَبَّةُ السوْدَاءُ شِفَاءٌ من كل دَاءٍس إلاَّ السَّام». وكانت الحمير وقطعان الماشية تمضي في سبيلها على الطرقات الترابية بأجراس معلقة في أعناقها، في حين كان الجو يعبق بروائح اللُّبَان ومسحوق الكاري، إضافة إلى أنواع التوابل الأخرى كلها التي تزدان بها شرفات الأكشاك التي تجاور قطع الحليّ الذهبية المنقوشة بذوق رفيع، إلى جانب كل أنواع الشال المصنوع من قطن الكشمير المطرز يدويًّا، ولفائف من الحرير والقطن الطبيعيين، وشرائط من التطريز المشبك أو (الدانتيل).

ذهبنا إلى إقليم السند، حيث قضينا ليلة في خيمة على الطراز الشرقي مزوَّدة بكل ما يحتاج إليه المرء، حتى أنها كانت مزوَّدة بحمام ومرحاض. وفي اليوم التاني، انطلقنا في رحلة لصيد الجاموس. وكم شعرت بالراحة حين لم نجد أي جاموس نصطاده. وزرنا أيضًا زاوية صوفية في مولتان، وكانت تأوي كثيرًا من الفقراء. ورأيت هناك امرأة شعرها أسود طويل، وعيناها كبيرتان تجري حول الضريح، وهي تلتف حول نفسها في حالة هسترية. قيل لي إنها مصابة بمسّ من الجن، يُعتقد أنها مخلوقات روحية.خُلقت من هواء ونار، وأنها كانت تخضع لعملية صرع ذلك الجن. ثم تناولنا وجبة بسيطة في غرفة متداعية على نور مصباح مضاء بغاز النيون قبل أن نستأنف رحلتنا. وخلال وجودنا في السند، مكثنا في قصر يملكه أحد الإقطاعيين، وكانت غرفة معيشته باتساع ردهة رقص، وتزين جدرانها آلاف الزهور التي رسمت باليد على الطراز المغولي القديم. حين يقف المرء أمام تلك الرسوم، يشعر كأنه وسط أحد البساتين في فصل الربيع. وأخبرنا سيد ذلك القصر بأن أصحاب تلك الرسوم من الفنانين تعاقبوا على العمل لدى أسرته على مدى أكثر من ثلاث مئة سنة. وعلى مائدة العشاء، قدم لنا حليب الناقة، الذي يشتهر كونه منشطًا جنسيًّا. فتناولت رشفة منه، ولم يعجبني؛ لأنه كان كثيفًا بعض الشيء، وله طعم قوي لم أحتمله. وكان هذا

السيد يعيش في نعيم ذلك العالم السندي الفاخر، حيث يسهر على خدمته عدد لا حصر له من الخدم. وينتمي معظمهم إلى عائلات خدمت أسرته جيلًا بعد جيل. وكان القرويون المحليون في حُكمِ الفلاحين الذين يعملون في الأرض التي يملكها هذا السيد. وكان يمتلك أصواتهم الانتخابية وكل شيء آخر، وهو أمر لم أستطع استيعابه. وكان يعقد كل صباح، اجتماعًا يفد إليه المئات من الناس الذين يستجدون عونه لحل مشكلاتهم. فأحسست بأننا عدنا فجأة إلى العصور الوسطى، حيث لا وجود للمؤسسات الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان كما نعرفها، ليحل محلها نظام يقوم على الحماية والولاء والعلاقات العائلية. لكن لا شك في أن العائلة كانت أساس المجتمع الباكستاني. وقد وقفت على مدى اعتناء كل فرد بالآخر، وذلك من دون قيد أو شرط، وبكل تلقائية، وهوأمر أثر فيَّ كثيرًا. وكان ذلك العالم مختلفًا تمامًا عن المجتمع الأوروبي.

وكنّا نقيم في أفضل الأماكن، وحيثما ذهبنا، باستثناء الجبال، كنّا نحظى بمعاملة الأشخاص المهمين جدًّا. وفي باكستان، كلما كان المعجبون يتحلقون حول عِمران، كنت أرى معنى أن يكون المرء بطلًا في أعين مواطنيه، وأفهم لماذا كان عِمران يشعر بأنه في وطنه هنا أكثر منه في لندن. وكانت جذوره متأصلة في أرض باكستان، وكنت أرى كيف أن هذا البلد وأهله يغذون إيمانه، وهذا ما دفعه إلى أن يستخدم مكانته، وما وصل إليه ليسهم في تحسين الأمور في باكستان بكل ما أوتي من قوة وجَلَد. وكان عِمران يعارض هجرة الأدمغة، حيث كانت أمواج من المتعلمين يغادرون البلاد سعيًا وراء حياة رغيدة في الغرب.

وكنّا نتمشى معًا وقت غروب الشمس، وكان عِمران يحب مشاهدة المزارعين، وهم عائدون بقطعان الماشية والماعز من الحقول. وكانت تأسره

حياة الفلاحين المنسجمة مع الحيوانات والطبيعة، وكانوا يضربون بذلك مثالًا يُحتذى في الحياة. وكان يقول لي إن من واجبنا أن نعامل الطبيعة والحيوانات والبشر كافة باحترام ورأفة، وألا نستغلهم، أو نهدر ما تجود به الطبيعة علينا من خيرات، فقد جاء في القرآن عن الله: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة الأعراف: الآية 31). ولهذا السبب، كان عِمران ينتقد بشدة اجتثاث الغابات التي كانت تطال كل مكان في باكستان. وكان يشير إلى أكوام الأخشاب المتراكمة في سفوح الجبال بعد أن كانت في الماضي أشجار صنوبر تكسو الجبال، ويتعهد بأن يوقف تلك العمليات إن تمكن من دخول غمار السياسة. وكثيرًا ما كان للطبيعة وللحيوانات أهمية خاصة بالنسبة إلي، وقد راقني أن حماية البيئة والاعتناء بالمخلوقات كلها واحترامها جزءٌ مهم من تعاليم دين عِمران.

وشرح لي كذلك أن الفلاحين المحليين لا يأخذون من الأرض أكثر من حاجتهم، وكانوا دائمًا يهَبون فائض إنتاجهم لغيرهم. وقال: «إن المسلم يقدر مقدار ما يحتاج إليه، ثم يعطي ما يزيد على حاجته إلى الفقراء». ولم تكن فكرة كنز الأموال وتخزينها من الإسلام في شيء؛ لأن المرء مهما كنز من ثروات في هذه الدنيا، فلن يتمكن من حملها معه إلى العالم الآخر. وأضاف: «إن الحياة إلى زوال، وعلى المرء أن يكون فيها كغريب أو كعابر سبيل». وكانت تلك كلمات النبي صلى الله عليه وسلّم، والمراد منها ثنينا عن التمسك بالحياة الدنيوية أو الأشياء المادية، وقال: «حين يقف المرء أمام الله، أو حين يضمه القبر، فإن ما يهم في ذلك الوقت هوما قدم من أعمال صالحة».

لو أن شخصًا آخر تحدث إليّ بهذه الطريقة، لكنت قد عددت في ذلك الكلام مبالغة، لكن لأن تلك الكلمات كانت صادرة عن عِمران، كنت

متأكدة تمامًا أنه كان يعني كل كلمة ينطق بها. ذلك أنه كان ينفق ما يلزمه على ما يحتاج إليه في القريب العاجل، ويخصص كل ما عدا ذلك لمشروع بناء المستشفى.

وحين كانت تغرب الشمس، كنّا نتأمل النجوم في هدوء وسكينة. واقترب مني مرة، وقال لي: «هذا المكان هومكانك»، وأضاف: «الآن». تنبهت لما يقصده حينها، لكني شعرت بخليط من التوتر والحماس. وليُهدِّئ من روعي ربما، قرأ عِمران على مسامعي قصيدة من نظم ميان محمد بخش، الذي عاش في القرن التاسع عشر. وكانت قصائده تلقى الاحترام والإعجاب بين المثقفين والناس البسطاء في البوادي على حد سواء:

دمّر المسجد، اهدم المعبد

اكسر كل ما تستطيع كسره

لكن لا تكسر قلبًا آخر،

لان الله «البديع» يعيش في القلوب.

على الرغم من التأثر والإعجاب اللذين تملكّاني لِمَا رأيتُ وسمعتُ، كانت فكرة العيش في باكستان تملؤني بالرهبة. وكنا نتناول وجبة الغذاء في أحضان الطبيعة بقرب جدول ماء، فقال لي عِمران: «سيكون أولادك مسلمين». تأثرت لما كان يعنيه بكلماته تلك، وكنت متأكدة أني أريد أن أكون إلى جانبه. فآمنت بمشروعه وأهدافه النبيلة، غير أني لم أكن متأكدة مما قد يعنيه العيش في باكستان. فاحتفظت بذلك التصريح في ذاكرتي، لكني ومن دون أن أقصد ذلك، كنت أنتبه للطريقة التي كنت أُعامَل بها بصفتي امرأة غربية، وبوجه عام للطريقة التي كانت تُعامل بها النساء في بلد عِمران. وبكل صدق، لم ألقَ أي نوع من الرفض، أو العداء، أو قلة

الاحترام من أي رجل ممن قابلتهم. وعلى العكس من ذلك، كنت أُستَقبَل بحفاوة حيثما حللت، وكان الرجال الذين التقيتهم يُبدون قدرًا كبيرًا من الأدب واللباقة في التعامل معي. ولكن كان الرجال يتجنبون أحيانًا، في المناطق النائية فقط من البلاد النظر إليّ، ويتجاهلونني. قال لي.عِمران إن ذلك من احترامهم لي. وكان ذلك غريبًا عليّ، وقد يحتاج المرء إلى وقت طويل ليعتاد عليه. وحاولت ألا أكترث بتلك المعاملة، وكنت أنكبّ على قراءة أحد الكتب التي تتحدث عن الإسلام عوضًا عن المشاركة في الحديث. وكان آخرون يظهرون لي احترامهم لي، ويناودونني «أختي».

وعلى الرغم من ذلك، كانت بعض مظاهر الثقافة الباكستانية تثير تساؤلات عدة في داخلي. حيث لم يكن يسمح للنساء بدخول معظم المساجد، وكان الفصل بين الجنسين أمرًا شائعًا في معظم أنحاء البلاد، ما عدا أوساط النخبة التي كانت تعيش وفقًا لأسلوب حياة الغرب. فمثلًا، في منطقة القبائل، تُركِتُ وحدي في غرفة مخصصة للنساء، في حين ذهب عِمران ليصلي، ويتحدث مع الرجال. وعادة ما كان عليَّ أن أنتظر عندما كان يهتم بأمور كانت تبدو من الأهمية بمكان. ووصلنا إلى كشمير بعد رحلة يوم بالسيارة، وتوقفنا عند منزل ضيافة تابع للجيش، وكنت أتحرق لأن أغادر السيارة، وأمدّ رجليّ، وأتمشى معه بعض الوقت، وهو ما وعدني به مباشرة بعد أن سلم على مضيفينا. لكنه ذهب، وظللت وحدي مدة ساعتين حتى دون تناول كوب شاي. وحين نفد صبري، كان الليل بدأ يزحف بعتمته في الخارج، فقررت أن أخرج من السيارة، وأبحث عنه، ووجدته يشاهد مباراة كريكت في غرفة مع ثلاثين رجلاً تقريبًا. فدخلت الغرفة، وأخذت أتحدث إليه أمام أعين الحاضرين، فأحرجه ذلك كثيرًا. فخرج عِمران من تلك الغرفة، وذهب معي في نزهة قصيرة، وقال لي بشيء من الجد إنه ما من امرأة دخلت تلك الغرفة من قبل.

ولم يكن الفصل بين الجنسين مسألة مرتبطة بمنطقة جغرافية، أو طبقة اجتماعية معينة؛ فزوجة مضيفنا الذي كان يعيش في قصر في السند كانت تعيش في عزلة تسمى (بُردة). وكانت مغطاة كليًّا، ولا تختلط بالرجال أبدًا، لذا، لم أرها إلا حينما كنت أزور جناح النساء الذي كان معزولًا، حيث كانت تعيش مع بناتها وخادماتها. وكان ذلك الجناح ينبض بالحياة، وتتعالى فيه الضحكات، وكان له صخب ونشاط خاص به. وكانت الزوجة هادئةً، وتمازح النساء الأخريات اللواتي كن يقضين وقتهن في التطريز، وطي الغسيل، وتجاذب أطراف الحديث، فيما يلعب الأطفال، ويركضون بكل حرية. وكلما خرجت الزوجة خارج أسوار القصر، كانت ترتدي (شادورًا) أسود يغطيها كليًّا، في حين كان الفلاحون يغضون أبصارهم إن مرت بهم، احترامًا لها. ولدى مغادرتنا القصر، أعطاني زوجها هدية نفيسة، كانت عبارة عن زوج أقراط ذهبية من صنع يدوي، وكنت أرتديهما على مدى سنوات إلى أن فقدت أحدهما؛ فأحزنني ذلك كثيرًا.

ولاحظت في باكستان أيضًا أننا أينما ذهبنا كانت الصور كلها التي تزين جدران منازل مضيفينا لرجال، ولم تظهر النساء في أي منها. وعندما أخبرت عِمران بملاحظتي تلك، قال إن سبب ذلك يعود ألى أن قيمة النساء عندهم تضاهي قيمة الجواهر الثمينة، فكان من الواجب صونهن، وعدم السماح لأي رجل برؤيتهن. ففكرت حينها في جلسات التصوير التي عملت فيها من قبل، وصور أفراد العائلة التي كانت رائجة في أوروبا، واستغربت لمعنى (الصون) هذا.

كانت النساء اللواتي تمكنت من مقابلتهن في القرى ودودات، ورحبّن بي، وقليلات منهن فقط كنّ يتحدثن الإنجليزية، وقد كان النزر القليل الذي أعرفه من لغة الأردو لا يساعدني كثيرًا على التواصل معهن، ولا سيما أنها

كانت كلمات مدح أو غضب التقطتها من عِمران لا أكثر.

تألمت لما رأيته من فقر في هذا البلد، وكنت أحيانًا أرى أطفالًا يعملون لكسب المال ومساعدة أسرهم، لكن عِمران كان يقول: «إن الوضع هناك أفضل بكثير مما هو عليه في الهند، حيث ينام الناس، ويموتون في الشارع». وفي إحدى رحلاتنا التي كنّا نقطع فيها البلاد بالسيارة، قال لي عِمران: «إن الفقراء ينجبون أكبر عدد من الأطفال على أنه شكل من أشكال ضمان الرعاية لهم في شيخوختهم». إذ تقضي العادة أن يتحمل الرجل مسؤولية والديه وأخواته اللواتي لم يتزوجن، إضافة إلى زوجته أو زوجاته وأبنائه هو. لذا، كانت تُعطى الأولوية لتعليم الأبناء على حساب البنات؛ لأن مصيرهن كان الزواج في سن مبكرة. ومرة أخرى، شعرت بالامتنان الكبير على الحياة التي حظيت فيها بكثير من النعم.

حزنت لمأساة الفتيات الباكستانيات اليافعات اللواتي ولدن لعائلاتهن الفقيرة، ووددت لو يمكنني فعل شيء ما لمساعدتهن. وكان عِمران يبذل قصارى جهده لتحسين ظروف المعيشة في بلده. وصحبني ذات مرة لثانوية في وادي (تشيترال) الخلاب، وكانت إحدى صديقاته من لندن، وتدعى صوفيا سواير، قد شاركت في تأسيسها. كانت صوفيا تعشق باكستان، وكانت تسعى من خلال مؤسستها الخيرية، واسمها (التعلم من أجل الحياة)، الكائنة في لندن، إلى تحسين أحوال التدريس في باكستان. وقد جلبت إلى البلاد نحو مئتي كيلوغرام من الكتب المدرسية، وغيرها من المعدات المدرسية. وتمكنت أيضًا، بمساعدة الوزير المنتدب، وبضعة أساتذة من لندن، أن تؤسس عددًا من المدارس في المناطق النائية في باكستان. وذهبنا في جولة داخل فصول إحدى تلك المدارس التي كان يدرس بها نحو250 طالبًا وطالبة، وتحدثت إلى إحدى مُدَرِّسات اللغة الإنجليزية

فيها. وكان اسم هذه المدرسة (مدرسة إيتن هندو كُش)، تيمنًا بمدرسة (إيتن) الإنجليزية؛ نظرًا إلى المستوى العالي لتلامذتها. وتلتزم المدرسة بالفصل بين الجنسين، وتُدَرِّسُ مواد المنهج البريطاني كلها، إضافة إلى مواد تتعلق بالثقافة المحلية. وكان الطلاب على سبيل المثال يتلقون دروسًا عن نمور الثلج المهددة بالانقراض، وعن اجتثاث الغابات، وكيفية المحافظة على الأشجار، والمبادئ الأساسية في النظافة والصحة العامة. وأخبرتني صوفيا بعد سنين من تلك الزيارة بأن كثيرًا من طلاب هذه المدرسة، ولا سيما الفتيات اللائي كان من الممكن أن يسلكن طريق الزواج المبكر، يتابعون حاليًّا دراساتهم العليا خارج باكستان، وهم بصدد تحضير درجة ماجستير أو رسالة دكتوراه. وتمكنت صوفيا على الأقل، من مساعدة بعض أولئك الفتيات، وتوجيه حياتهن لما هوأفضل.

وعلى العموم، ترك لديّ ما عشته في باكستان انطباعات متباينة. وجدت صعوبة في التأقلم مع واقع الفصل بين الجنسين، وكان من الممل ألا أستطيع التحدث، أو أتعامل سوى مع نساء كانت درايتهنّ بالعالم محدودة جدًّا. لكن عِمران أكد لي مرارًا وتكرارًا أن الهدف من ذلك هو حماية النساء، وصون قدسية مؤسسة الزواج، مشدّدًا على أن هذا الوضع ينتشر أكثر في المناطق المحافظة والقرى، وأن المدن كانت أكثر تحررًا من هذه التقاليد. وأصرّ أيضًا على أن ذلك التشدد لا يصل إلى حد اضطهاد النساء واستعبادهن، وأن الرجال يتبعون تعاليم الإسلام في احترام النساء. وعلاوة على وصايا القرآن للمسلمين بذلك، فإن النبي محمد صلى الله عليه وسلّم، وهو المثال الذي يقتدي به كل مسلم في أموره كلها، كان يحب النساء، ويكرمهن، ويضرب للمسلمين المثل بمعاملته لهن بالحسنى. وكان عِمران يردد قول النبي صلى الله عليه وسلّم: «خيركم خيركم لأهله»

[1]. ويبدو أن محمدًا صلى الله عليه وسلّم كان نفسه يكنّ لزوجاته الحب، ويحيطهن بالعناية، حيث كان يساعدهن في أمور المنزل، ويمازحهن([2]، وعادة ما يطلب مشورتهن. وكن يرافقنه في أسفاره، ويقدمن الرعاية لمجتمع المسلمين. وكان من حبه زوجته الصغيرة عائشة، رضي الله عنها، يضع فاه في الموضع نفسه من الإناء الذي شربت منه. وقد تأثرت لاقتداء عِمران بالنبي محمد صلى الله عليه وسلّم، بل وكنت أوصيه بالاقتداء به، ولا سيما فيما يتعلق بالمشاركة في الأعمال المنزلية. وكان عِمران يحب الحديث عن محمد صلى الله عليه وسلّم. وكان يحزنه تجاهل الغربيين أحيانًا للنبي صلى الله عليه وسلّم، على الرغم من جهلهم بحياته وتعاليمه.

وعادةً ما كنا نأخذ معنا بعض الكتب التي تتحدث عن تعاليم الإسلام خلال رحلاتنا؛ لنقرأها ونتدارسها. وفي إحدى الرحلات، ركبنا سيارة جيب رباعية الدفع، التي تُخصص للرحلات البرية الطويلة، وانطلقنا من إسلام أباد في رحلة استغرقت يومين، توقفنا خلالها في قرية تشيلاس، قبل أن نكمل الرحلة عبر جبال وأنهار جليدية، وبحيرة راما الفيروزية اللون، حيث مكثنا بضع ليالٍ في بيت ضيافة، واستكشفنا المنطقة قبل أن نصل إلى سهول ديوساي، التي تلقب بـ (ملاعب الشيطان)، على ارتفاع نحو أربعة آلاف متر. ويقال إن هذا السهل هو الأكثر ارتفاعًا في العالم. ذهبنا في نزهة صباحية إلى البحيرة، وكان لها أثر كبير في نفسي. وبعد ذلك، جلسنا تحت ظل شجرة، وانكب عِمران على قراءة سيرة محمد صلى الله عليه وسلّم. وكانت تلك السيرة من تأليف العالم الإنجليزي مارتن لينجز، وعنوانها: (محمد: حياته انطلاقًا من المصادر المتقدمة). وتأثر عِمران بقصة وفاة محمد إلى درجة البكاء، وكان ذلك أمرًا لافتًا. ولم يكن عِمران من الرجال

الذين يظهرون رقة إحساسهم، وعادة ما كان يسخر من أولئك الذين يعبّرون عن مشاعرهم. وفي ذلك الموقف داعبته، بقولي: «ربما عليك أن تجرب أن تكون مثل أولئك الناس بعض الوقت». لم يوافقني الرأي، وكان لديه من الكبرياء ما يمنعه من أن يظهر مشاعره، على الرغم من أنه أحب النبي صلى الله عليه وسلّم من كل قلبه، وربما كما لم يحب أحدًا قطّ، وهو ليس أمرًا مستغربًا. فكان عِمران يقول لي: «إن كل مسلم يحب النبي صلى الله عليه وسلّم من كل قلبه»، وقال لي مرة: «ما ذكر مسلم النبي، أو كتب عنه إلا أضاف إلى اسمه صلى الله عليه وسلّم، تقديرًا وإجلالًا له». بل وأضاف كذلك: «حتى عند ذكر انبياء آخرين، مثل المسيح، وهو نبي في الإسلام وليس ابنًا لله، يُتبِعون ذكرهم لهم بعبارة تنم عن القدر نفسه من الاحترام الذي يكنونه لمحمد صلى الله عليه وسلّم». فأدركت حينها أن أخذهم الإهانات الموجهة للنبي صلى الله عليه وسلّم على محمل الجد، مردها إلى حبهم وتقديرهم لشخصه.

أتقن كتاب لينجز تصوير حياة النبي صلى الله عليه وسلّم، ووصف أخلاقه النبيلة، وبيّنها في مظاهرها كلها. كان محمد صلى الله عليه وسلّم زوجًا متنبهًا لحاجيات زوجاته، وأبًا محبًّا لأبنائه، ورفيقًا وفيًّا، ومعلمًا حكيمًا، ورجل دولة لم يألُ جهدًا في تحسين حياة أتباعه وتنظيمها، وقاضيًا، ورسول الله الذي يقود الناس إلى الخلاص. وكان كثير من القصص التي قرأتها عنه تدل على جاذبيته وكرم أخلاقه. وقد سرتني القصة الآتية على وجه الخصوص:

كان النبي صلى الله عليه وسلّم يتوجه كل يوم إلى الكعبة، ويجد لدى خروجه من منزله كومة قمامة في طريقه. فقد دأبت امرأة يهودية على رمي تلك القمامة عند بابه؛ لإظهار امتعاضها منه، وكرهها له. وفي أحد

الأيام، خرج النبي صلى الله عليه وسلّم ، ولم يجد قمامة عند بابه. فظن أن مرضًا ألمّ بالمرأة، فذهب يعودها في بيتها. وعندما فتحت المرأة بابها، ووجدت الرسول صلى الله عليه وسلّم أمامها، تملكّها الخوف. ولم تكن يومئذٍ مريضة، ولكنها لم تستطع أن تجمع قمامة بيتها كما اعتادت لترميها في الخارج على عادتها. فسألت النبي صلى الله عليه وسلّم عمايريد، فأجابها أنه قلق عليها لما لم يجد القمامة عند باب بيته، فكان عليه أن يقصد بابها، ويرى إن كانت بخير. فرقّ قلب المرأة لكلمات النبي صلى الله عليه وسلّم ، وأيقنت أنه رسول من عند الله.

كان النبي صلى الله عليه وسلّم يتوجه كل يوم إلى الكعبة، ويجد لدى خروجه من منزله

كومة قمامة في طريقه. فقد دأبت امرأة يهودية على رمي تلك القمامة عند

بابه؛ لإظهار امتعاضها منه، وكرهها له. وفي أحد الأيام، خرج النبي صلى الله عليه وسلّم ،

ولم يجد قمامة عند بابه. فظن أن مرضًا ألمّ بالمرأة، فذهب يعودها في بيتها.

وعندما فتحت المرأة بابها، ووجدت الرسول صلى الله عليه وسلّم أمامها، تملكّها الخوف. ولم

تكن يومئذٍ مريضة، ولكنها لم تستطع أن تجمع قمامة بيتها كما اعتادت

لترميها في الخارج على عادتها. فسألت النبي صلى الله عليه وسلّم عمايريد، فأجابها أنه قلق

عليها لما لم يجد القمامة عند باب بيته، فكان عليه أن يقصد بابها، ويرى إن
كانت بخير. فرقّ قلب المرأة لكلمات النبي صلى الله عليه وسلّم ، وأيقنت أنه رسول من عند الله.

وقد صرح القرآن في الآية 107 من سورة الأنبياء أن النبي أرسل رحمة للعالمين، أيْ للحيوانات والنباتات والملائكة، وليس للبشر فقط. لقد كان ما قرأته مختلفًا تمامًا عما كنت أعرفه عن محمد صلى الله عليه وسلّم من قبل، وهو ما كان في حقيقة الأمر مجرد شائعات، وكم سعدت بأن أحظى بفرصة تصحيح تلك الأفكار المغلوطة. وكنا نتبادل الكتب التي نقرؤها، ونتحدث عما نقرؤه. وكانت تلك الجلسات أشبه بتحفيز فكري لي، وكانت تزيد من معرفتي وإدراكي المسائل الروحية. وقد سهّلت عليّ التوغل في معرفة دين الإسلام. فازداد فضولي، وطلبت من عِمران أن يخبرني بالمزيد عن الإسلام ونبيه، وهو ما فعله بكل سرور. فقال لي: «تحكي كثير من القصص عن رحمته بكل شيء، وهو أمر مدهش بالنظر إلى عصره ومكان بعثته، وهذا ما جعل حتى الحيوانات تحبه». ومن تلك القصص، أن النبي صلى الله عليه وسلّم كان مسافرًا مع أصحابه، وبينما كان منشغلًا، رأى الصحابة طائر الحمَّرة مع اثنين من فراخها، فأخذوا الفرخين. فأتت الحُمّرة ترف بجناحيها بشدة، فسأل النبي صلى الله عليه وسلّم عمن اعتدى عليها بأخذ فرخيها، وأمرهم بإرجاعهما إليها. وأخبرني عِمران كذلك بقصة مشهورة أخرى تروي حكاية مومس رأت كلبًا، وهو يحتضر من شدة العطش على مقربة من بئر، فأخذت خفها، وربطته بغطاء رأسها، واستخدمته لرفع الماء من البئر وسقاية الكلب. فأخبر النبي صلى الله عليه وسلّم تلك المرأة بأن الله غفر لها بما فعلته مع ذلك الكلب. وكان النبي

صلى الله عليه وسلّم يطلب دائمًا من الصحابة أن يحسنوا معاملة الحيوانات، وألا يجوعوها، أو يقهروها بالعمل المضني، أو يزعجوها بأي حال من الأحوال. وبخلاف هذه التعاليم العظيمة، كنت أرى عكس ذلك في باكستان. ذلك أني كنت أسمع الحمير وحيوانات أخرى تصرخ من الألم. فبدأت حينها ألمس ضرورة التمييز بين جوهر الدين وبعض العادات والممارسات الثقافية التي يرجع أصلها إلى الناس أنفسهم لا إلى الدين.

وكانت أسئلة جديدة تتبادر إلى ذهني كل يوم، وكنا نستغل ساعات نزهتنا الطويلة في مناقشتها. وكان التحفيز الفكري لتلك الحوارات يغطي على البساطة التامة لمسكننا بين الجبال، وهي بساطة لم أشعر بالانزعاج منها إطلاقًا. وفي أحد بيوت الضيافة بالقرب من بحيرة راما، كان العاملون يغلون الماء، ويصبونه من دلو في حوض يتسع لشخص واحد. وكنت أمزج الماء المغلي بماء بارد في دلو آخر، وأستحم به، وأغسل به شعري. ولكن لم نكن على الأقل، نقضي ليالينا في خيم، ونعد الطعام على المواقد، بل كنا ننام على أَسِرّة ليلًا، ويُقدم لنا طعام ساخن كل يوم. وكان مشهد الجبال ساحرًا، بحيث كان يغني المرء عن أي حاجة إلى سبل الراحة. فاستمتعت برحلات المغامرة التي كنت أقوم بها في باكستان كثيرًا، واعتدت على البيئة هناك إلى درجة ألفت معها معدتي طعام البلد، ولم أعد أُصاب بإسهال المسافرين كما كنت من قبل.

انطلقنا من لاهور في رحلة صيد إلى منطقة (سالت)، حيث تمتلك عائلة يوسف صلاح الدين بيتًا صغيرًا يستخدم لمثل هذه الرحلات. واستغرقت رحلتنا بالسيارة بضع ساعات من المدينة إلى الجبال، ثم ذهب عِمران ويوسف في جولة لاصطياد طيور الحجل. رافقتهما كي أمارس بعض التمارين الرياضية، وأستمتع بالمناظر الطبيعية الجميلة. فقال لي عِمران

بفخر: «إن إنجاح رحلة صيد كهذه يتطلب من المهارات أكثر مما تتطلبه رحلة صيد إنجليزية، حيث يتم تسريح طيور في الهواء أمام صيادين مدججين ببنادق الصيد». تمكّنا من صيد بعض الطيور، لكن كان من اللازم تعليقها حتى تتخلص من دمائها كما يجب؛ لأن المسلمين لا يأكلون الدم، شأنهم في ذلك شأن اليهود، لذا، فقد كان العشاء عبارة عن وجبة ساخنة من (أطباق الكاري)، أُعدّت من طيور حجل اصطيدت من قبل. وكان طعمها حلوًا بعض الشيء، وكانت شهية جدًّا. وفي المساء، كنا نتحدث، ونمازح بعضنا بعضًا قبل أن أتوجه إلى غرفتي، حيث أقرأ كتابًا من مجموعة كتب يوسف، في حين يواصل الرجال حديثهم بالأردو.

قرأت حقائق عن الإسلام، واكتشفت أنه الدين الوحيد الذي شجع عمليًّا على وضع حدّ للرقّ. حين أخبرت عِمران ويوسف بذلك، أكدا ذلك، وشرحا لي كيف أن محمدًا صلى الله عليه وسلّم هو الذي شجع على عتق الرقاب تكفيرًا عن الذنوب. بل وقد وُضِعت آليات لدمجهم في نسيج المجتمع. فكان بلال مثلاً، عبدًا مملوكًا في زمن النبي صلى الله عليه وسلّم، وأصبح بعد عتقه أول مؤذنٍ في الإسلام لصوته الجهوري. وقامت دول من عائلات كاملة كانت مستعبدة من قبل، فأضحت أُسَرًا حاكمة، مثل المماليك الذين حكموا مصر في بداية القرن الثالث عشر. وقد أقرّ يوسف وعِمران بأن نوعًا من العبودية ما زال سائدًا في إقليم السند الباكستاني. وتكلم الرجلان عن سلالات العائلات الإقطاعية، مثل عائلة بوتو التي أحكمت قبضتها على السلطة وعلى تقاليدها القديمة، مثل الإبقاء على طبقة الفلاحين المأجورين، وعرف الثأر، وعَزَيَا فشل باكستان في أن تكون بلدًا ديمقراطيًّا إلى النظام الفيود إلي الطبقي الذي ما زال يسود جنوب البلاد.

كانت السياسة والدين ولعبة الكريكت الموضوعات التي يفضلها جميع السكان للتحدث عنها. وفي صباح اليوم التالي، ركبنا قاربًا يعمل بمحرك صغير، ويقوده رجال يرتدون زيًّا يتكون من صدرية رجالية زرقاء اللون، وعمامة رأس من اللون نفسه، وقميصًا أبيض اللون بياقة نهرو. وعبرنا نهر السند على صوت هدير المحرك، ومررنا على قرية كالاباغ القديمة التي تقع في وسط الجبال. وكان إفطارنا عبارة عن شاي أسود بالحليب، وخبز (روتي) محضر من الدقيق الكامل، وعجة بيض باكستانية، تُحضّر بالفلفل الحار والبطاطس والبصل والطماطم والجبن، وتغطى بالكزبرة. وكان الجو لطيفًا باردًا بعض الشيء من تأثير المياه والجبال، لكن الشمس كانت حاضرة بدفئها المعتاد. وكنت أخبر عِمران ويوسف بما أكتشفه من حقائق في الكتاب الذي قرأته. ومن ذلك، أن القرآن كان يزخر بحقائق علمية كثيرة لم تكن معروفة في زمن نزوله، ولم يكتشفها العلماء إلا لاحقًا، مثل دوران الكواكب في مدارات حول الشمس، فوافق عِمران على كلامي، وأضاف: «عالِمكم الألماني يوهانس كيبلر لم يكتشف أن الكواكب تدور حول الشمس في حركة دائرية حتى القرن السابع عشر».

وأضاف يوسف كذلك أن القرآن يذكر أن للجبال أساسًا ضاربًا في الأرض، ويسميها الأوتاد، وهي ضاربة في الأرض بعمق علوّ الجبال نفسها. وكنا ننظر إلى التلال في منطقة سالت، ونحن نعبر بالقارب، وأنا أفكر في هذه الصورة، صورة الجبال، وهي متجذرة في جوف الأرض، وتقف بشموخ حتى يخيل إلى المرء أنها تلامس السماء. وقال عِمران: «لم يجادل العلماء في أي من هذه الحقائق التي ذكرها القرآن». فأطرقت أفكر في قوله، ثم أضاف: «من الواضح أن هذه من علامات إعجاز القران!»، وانطلقا في الحديث بالأردو من جديد. فاسترخيت في القارب، وأغمضت جفني تحت أشعة الشمس، وأنا أفكر فيما قالاه على وقع صوتهما. وكنت أتطلع إلى أن أتابع

القراءة فور عودتنا إلى بيت الضيافة.

وكنّا نتناقش في مسائل دينية مختلفة ساعات طويلة مع أي شخص نقابله. وأينما كنّا، كان الحماس يتملك أي شخص يتحدث عن الإسلام، سواء كان الموضوع يتعلق بالمرأة، أوممارسة الشعائر الدينية، أو المسؤوليات الجسام التي يتحملها الأثرياء. وكان جميعهم يخبرني بأن الإسلام دين يسر، ويسهل تطبيقه في الحياة اليومية للفرد. ولم يسبق لي أن شهدت حبًّا لدينٍ ما من قبل كما شاهدت حب الباكستانيين المسلمين دينهم. ففي لندن، لم يكن أحد يهتم بدين قائم على تعاليم محددة، وكان الدين والسياسة من الموضوعات التي يحسن تجنب التطرق إليها في حفلات العشاء. أما في باكستان، فإنهم جميعًا يتحدثون عن هذين الموضوعين في كل وقت وحين.

اكتشفت أن هناك اختلافًا كبيرًا بين القرآن والإنجيل، حيث إن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم بادروا إلى تدوين القرآن كلما أوحي لمحمد صلى الله عليه وسلّم بعدد من الآيات، وكتبوها على كل ما تيسر لهم، من جلد وورق البردي، وحتى على سعف النخيل والعظام. ولم يحدث أي تغير على نص القرآن حتى اليوم؛ وهو ما يعني أن المسلمين يرون في القرآن الوحي المنزَّل من الله، وليس مجموعة من القصص أو الروايات التي دوّنها أشخاص مختلفون بعد مرور عقود عدة على وفاته صلى الله عليه وسلّم.

بعد عودتي إلى لندن، أردت أن أنظر في الإنجيل لأقارن ماجاء فيه لماقرأت في القرآن. وكان من الواضح من بعض ما ورد في العهد القديم أن الأخطاء وجدت طريقها إلى الإنجيل. حيث ورد فيه مثلًا، أن بعض الأنبياء احتسوا الخمر حتى الثمالة، وارتكبوا الزنا مع بناتهم. وقد صُدمت لقراءة ذلك، لأني لم أتخيل أن يصدر مثل هذا الأمر عن أي نبي. لذا، فحين يطلب

القرآن من المسلمين أن يؤمنوا بالكتب السماوية السابقة له كالإنجيل، فإنهم يؤمنون أن هناك نسخة أصلية من الإنجيل حُرّفت إلى حد أن النص المتاح الآن لا يُعدّ هو كلمة الله. وبذلك، فإن آخر الكتب الذي أوحي به إلى محمد صلى الله عليه وسلّم، يلخص الكتب السماوية السابقة كلها، ويوضح كثيرًا مما جاء فيها.



لاحظت بعد مدة أن عِمران بدأ يجنح أكثر للجد في تفكيره. وكان عمله في المستشفى يستأثر بكل وقته، ولا سيما مع بروز تحديات جديدة أمام مشروعه، وتأجيل موعد افتتاح المستشفى مرات عدة؛ فكان عليه أن يخصص وقتًا وطاقة أكبر لتحقيق أهدافه. وبدأ يفقد تدريجيًّا اهتمامه بالمناسبات الاجتماعية على الرغم من مغريات هذه اللقاءات. لكنه استثنى عيد ميلاد ميك جاجر الخمسين، وحضر الحفلة التي أقيمت في بيت فخم أشبه بالقصر، حيث تنبسط مساحات العشب كأنها سجاد أخضر أنيق، واختيرت الثورة الفرنسية موضوعًا لذلك الاحتفال. وارتدى ضيوف ميك أزياء نابليون وروبسبير ومدام رولاند للاحتفال بعيد ميلاده. واصطفت جموع (البابارازي) [1] خارج مكان الحفل، وكان من بينهم الثنائي المشهور ديف وريتشارد. وإن وجد هذا الثنائي في مكان ما، عُلِمَ أن ذلك المكان مرتع خصب لاقتناص الأخبار واللقطات التي يبحث عنها جميعهم. ذهبت أنا وعِمران إلى الحفل كل منا وحده على عادتنا. وبينما كنت أمر أمام ديف، همس متعمدًا بقوله: «لقد وصل؛ إنه هنا الآن». كان من المؤسف أني وعِمران الضيفان الوحيدان اللذان لم يرتديا ثيابًا تنكرية في تلك الليلة. وكان عِمران قد رفض أن يلبس لهذا الحفل، على الرغم من أنني قد اقترحت عليه أن نرتدي أزياء بالألوان الوطنية الفرنسية.

كان الحفل رائعًا، وكذلك الموسيقا التي أشرف عليها منسق الأسطوانات، جيريمي هيلي، الذي كنت أعرفه من إم تي ڤي. وخضت بين جموع المدعوين، واستمتعت بالحفل كثيرًا. وددت أن أبقى طوال تلك السهرة حتى نهايتها لكن، على الرغم من معارف عِمران الكثيرين من الحاضرين، فإنه فضل أن يغادر في منتصف الليل. وقد قدّرته على مجاراة الحفلات الصاخبة وتحملها، حيث يكون محاطًا بأناس يحتسون الشراب، ويتبادلون المغازلة، ويتعاطون المواد المخدرة، ويسدلون شعورهم. وفي المقابل، كان يحنّ إلى باكستان، ويحسّ بأن بلده يحتاج إليه. فأصبحت زياراته إلى باكستان تطول أكثر من ذي قبل، وكثرت أسفاره للهند وللشرق الأوسط. كنت أشتاق إليه، وأفتقد وجوده، لكني على الرغم من ذلك لم أنزعج بغيابه المتكرر، وكنت معجبة بالعمل الذي كان يتفانى فيه من أجل المستشفى، وبمثاليته الحالمة التي تصيب كل من يحيطون به بالعدوى.

كنت في تلك الحقبة دائمة السفر أنا كذلك. وإضافة إلى مواصلتي العمل يوميًّا في تقديم البرامج على شاشة إم تي ڤي، كنت أقدم (تقرير كوكا كولا) مرة في الشهر. وكنت أيضًا أزور هامبورغ بانتظام؛ لأصور حلقات جديدة من برنامج (برافوتي في)، علاوة على تقديم فقرات عروض موسيقية مختلفة، وإجراء لقاءات مع مختلف وسائل الإعلام، وجلسات تصوير بلا نهاية. وكانت شهرتي تزداد يومًا بعد يوم بفضل العمل الذي كنت أقوم به، ولا سيما في ألمانيا.

وفي التاسع من فبراير من عام 1993م، عشت أحد أهم الأحداث في حياتي المهنية، وهي استلام جائزتين في هامبورج في الأمسية نفسها. حيث قدمت في السهرة الأولى، برنامج (برافو سوبرشو)، الذي استضفت فيه كثيرًا من مجموعات (موسيقا البوب)، قبل أن أتسلم جائزة تسمى (جولدنر

أوتو). وبعد دقائق معدودة، انتقلت على وجه السرعة تحت حراسة الشرطة لمقر تسليم جائزة الكاميرا الذهبية، وهي تعادل في ألمانيا جائزة الأكاديمية البريطانية لفنون الفيلم والتلفاز، (بافتا). فعملت المسؤولة عن التجميل على وضع بعض المساحيق على وجهي، ونحن متوجهون في السيارة من مكان السهرة الأولى إلى الثانية. وفور وصولنا، صعدت مباشرة إلى خشبة المسرح، حيث تسلمت الجائزة من مجموعة الراب الألمانية (دي فانتاستيشن فير). وبُثَّ ذلك الحفل على الهواء مباشرة لجمهور (برافو سوبرشو)، الذين كنت قد تركتهم توًّا. وفور نزولي من على خشبة المسرح، أسرعت عائدة إلى الحفل الأول، حيث واصلت تقديم فقراته.

وكان عِمران سعيدًا بنجاحي، واستقبلني بحفاوة حين عدت إلى لندن. لكني كنت أدرك تمامًا أنه لم يكن يشعر بأي صلة تربطه بعالم عملي. وأخبرني مرة باعتقاده أن معظم الفيديو كليبات التي تعرض على إم تي ڤي تؤثر سلبًا في الشباب، وأن ذلك التأثير يطال بالخصوص المجتمعات التقليدية، مثل باكستان. وأظنه كان على حق في شيء من ذلك. إذ كان برنامجي يعرض في باكستان أيضًا، وقد استغربت كثيرًا حين طلب أحدهم توقيعًا مني في مطار إسلام أباد. وفي مناسبة أخرى، بينما كنا نقطع شبه صحراء في السند، توقفنا لأخذ قسط من الراحة، وشرب الشاي مع بعض معارف عِمران. أرشدنا هؤلاء إلى خيمة وسط الصحراء، حيث رأينا أفرادًا عصبت أعينهم، وربطت أيديهم خلف ظهورهم، ويجلسون على ركبهم. سألت عن أمرهم، فأخبرني عِمران بأنهم كانوا قطاع طرق، يحترفون سرقة متاع الناس في المناطق النائية. وبعد أن أُلقي القبض عليهم، سينفذ فيهم حكم الإعدام من دون محاكمة. وكان الناس في هذه المنطقة يؤمنون بضرورة تولي تنفيذ القانون بأيديهم؛ لأنه ليس هناك من وجود لنظام قضائي، ووفقًا لعِمران، فإن الإنسان العادي كان أكثر من يعاني على أرض

الواقع. وبينما كنا نتناول الشاي والبسكويت تحت تلك الخيمة، أشعل مضيفنا التلفاز، ولم أكد أصدق عيني حين رأيت فجأة المقدم بيب دان على الشاشة، وهو يقدم، برنامج أفضل عشرين أغنية أوروبية. فتعجبت لرؤية قدرة إم تي ڤي أوروبا على غزو هذه الصحراء البعيدة التي بدت كأنها في قرن مختلف تمامًا. وبدا لي غريبًا أن أكون داخل خيمة في الصحراء، وأشاهد الكليبات بألوانها البراقة وهي تظهر فتيات بلباس غير لائق بتاتًا يتنقلن من مكان إلى آخر، في حين ينتظر خارج الخيمة قُطّاعُ طرقٍ تنفيذ حكم الإعدام عليهم.

لا بدّ من الاعتراف بأن جل الكليبات كانت تدور حول الجنس والإغراء. وعلى الرغم من أنها لم تكن تصور الفعل الجنسي في حد ذاته، فإن رسالة تلك الفيديوهات الأساسية كانت هي أن الغاية من أي تعامل بين الرجل والمرأة هو الغواية والجنس. وكان عِمران يرى أن ذلك شكل من أشكال الإمبريالية الثقافية التي تُضعِف القيم الدينية، وتُحدِث شرخًا داخل نسيج المجتمع، وكان كثيرًا ما يتساءل: «أليس دور قنوات الشباب تعليم قيم التواضع والاحترام وتحمل المسؤولية؟».

لاشك في أن خلفية عِمران الثقافية كانت مختلفة تمامًا عن الثقافة الغربية التي عشت فيها وترعرعت، وقد وقفت على ذلك بنفسي. وعلى الرغم من أنني كنت أفهم وجهة نظره، فإنني كنت أظنه يبالغ بعض الشيء في آرائه تلك، وأجيبه قائلة: «إم تي ڤي محطة ترفيهية مئة في المئة. لا يجب أن تأخذ ما تقدمه على محمل الجد، وعلى أي حال، لا يمكنك أن تنكر اللمسة الفنية التي تحملها بعض الفيديو كليبات».

لكن كان عليّ أن أعترف بأن شعوري بتفاهة محتوى المحطة كان يزداد يومًا بعد يوم، وصرت أنظر إلى بعض ما تقدمه إم تي ڤي بنظرة نقدية

أكثر. وأصبحت أشعر بالاشمئزاز لرؤية محتوى كليبات (الهيب هوب)، حيث تعرض أناسًا يتباهون برجولتهم، وبانتمائهم إلى العصابات بشكل عنيف، أمام سيارات طُليت بألوان براقة، وهم يمجدون في أغانيهم العنف وكراهية النساء. ما الرسالة التي يبعثون بها إلى ملايين المراهقين الذين يتابعونهم حول العالم؟ أنا لا أدّعي أني لا أحب (الهيب هوب) على أنه نوع موسيقي قائم بذاته، بل كنت أستمتع بسماع مغني (الراب) القدامى، من أمثال ذي شوجر هيل جانج، ودي لا سول. لكن في الوقت الذي كانت فيه أفضل الكليبات تدور حول احترام النساء و«الأخوات» ذوات الشخصية القوية اللواتي لا يتوقفن عند العقبات التي تعترضهن، كانت جلّ الكليبات تجنح نحو إعادة تقديم الصور النمطية السائدة عن الجنسين. وقد اكتشفت أن الكليبات التي كانت تحمل رسائل الاحترام، وتدعو إلى نشر القيم، كانت من إبداع مغني (راب) مسلمين، مثل مجموعة (أفريكا بامباتا)، ومجموعة (اي ترايب كالت كويست)، والمغنية (كوين لطيفة).

كانت إم تي ڤي تعرض كذلك سلسلة رسوم متحركة بطلاها بيافيس وباتهيد، وهما شخصيتان غبيتان جدًّا، ويحبان (الروك)، ولا يتمتعان بأي مهارات اجتماعية. فحينما كانت هاتان الشخصيتان تتحدثان، كانتا لا تستطيعان نطق أكثر من مقاطع الكلمات، فضلًا عن كلمات بأكملها، وكانتا أيضًا تخلفان وراءهما الخراب أينما حلتا. فسألت مرة رئيسي في العمل بيل رودي: «ما العظيم في مسلسل (بيافيس وباتهيد)؟ فمهما كانت درجة التسلية التي يحققها المرء من عدم احترام القواعد، والخروج عما هو مقبول سياسيًّا، فالواقع أنهما لا يقدمان للنشء الصاعد أي مثال يقتدى به».

وأجاب بيل بلطف لكن بكلمات صريحة، قائلًا: «هذا المسلسل يلقى إقبالًا كبيرًا بين متابعي المحطة». وكانت نسبة مشاهدة هذه السلسلة عالية جدًّا ولا سيما في ألمانيا، التي تمثل أكبر سوق تتوجه إليه إم تي ڤي. وباستثناء حملة التوعية بأهمية البيئة التي نظمت تحت شعار (لا تكن جزءًا من المشكلة، بل كن جزءًا من الحل)، وحملة أخرى لتشجيع الشباب في الولايات المتحدة الأمريكية على التصويت، لا أذكر أي رسالة تحمل محتوى يختلف عن التوجه العام لـِ إم تي ڤي. كانت محطة متخصصة في الموسيقا، وتمنح الفنانين مساحة جديدة لتقديم إنتاجاتهم. وكانت أيضًا تسلي وتملي قواعد جديدة في صناعة الموسيقا. وكان كل فيديو كليب يبث على المحطة يخضع لمعايير البث البريطانية، وكانت أيضًا بعض الكليبات لا تُبث إلا ليلًا.

وعلى الرغم من آراء عِمران، فإنه كان دائمًا يدعمني في مشواري المهني. وكان فخورًا بنجاحي، ويشد من أذري حين أحتاج إلى مساندته، وأنا أستعد لتقديم عروض أو مناسبات مهمة. وأذكر تشجيعه لي قبل أن أقدم أول سهرة جوائز مهمة، نقلت مباشرة على التلفاز الألماني، بقوله: «اعتلي المسرح كنَمِرة». وكان يقتبس من أقوال العلامة إقبال قوله: «يا طيور الباز، لا تخافي من الرياح، فإنما خلقت لتحلقي عاليًا في السماء».

كان عِمران يعرف جيدًا كيف يتعامل مع الضغوط المهنية، ووسائل الإعلام، ومتطلبات جمهوره العريض. وكان الصحفيون دائمًا ما يسألونني: «مَن أكثر المشاهير الذين حاورتهم، إثارة للاهتمام ؟». كان ذلك السؤال صعبًا؛ لأن عِمران كان جديرًا بالاهتمام من وجهة نظري، وأكثر من كل أولئك الموسيقيين الذين قابلتهم من خلال عملي في إم تي ڤي، لكنني لم أكن أستطيع أن أصرح بذلك. إن أبسط الأشياء التي كنت أقوم بها مع

عِمران، مثل قراءة صحف يوم الأحد، كانت تتحول إلى تجربة فريدة أتعلم فيها كثيرًا. وكان يلفت نظري إلى بعض الألفاظ والتعبيرات التي يَستشِف من خلالها، كيف أن وسائل الإعلام الغربية تعمل على معالجة الأخبار العالمية بطريقة معادية للإسلام.

وكان يقول: «يطلقون على المقاتلين في سبيل تحرير فلسطين نعت الإرهابيين، في حين يسمون الجيش الإسرائيلي المحتل جنودًا». وكان يشعر بغضب كبير مما كان يراه فشلًا من جانب الأمم المتحدة في مساعدة المسلمين خلال حرب البوسنة، والمجازر التي وقعت هناك، ومحاصرة سراييفو. وآلمه أيضًا اكتفاء المنتظم الدولي بالوقوف مكتوف الأيدي، وهو يتفرج على ما يقع. وتعلمت بفضله أن أرى ما يقع في العالم من زاوية مختلفة.

بالموازاة مع ذلك، كان عِمران يتلو القرآن طوال الوقت، ويواصل دراسته للدين الإسلامي بإمعان. وقد أنار ما كان يتعلمه عقله وقلبه وحياته، وكان يريد أن يخبر الجميع بما تعلمه، وعلى وجه الخصوص أنا. وعلى عكس سائر أصدقائه الغربيين، وجدت في نفسي فضولًا لمعرفة المزيد، ولم أكن أكلّ أو أملّ، وسعيت للاستزادة من معرفة كل ما يمكن عن الإسلام. وكلما كنا نخوض في نقاشٍ ما، كان عِمران يبني تصوره وتحليله المنطقي من وجهة نظر إسلامية. ومهما كان موضوع النقاش، كان السبيل الوحيد لإفحامه هو أن أعتد بحجة تقوم على قيم إسلامية كذلك. أما بالنسبة إليه، فما من مجال لطرح آراء شخصية صرفة، وكل ما كان يهمه هو ما يقوله الله.

وفي ذلك الوقت، اقتنيت نسخة خاصة بي من القرآن، وأصبحت في وقت وجيز أعرف كثيرًا من تعاليمه، وأهزم عِمران في النقاشات التي كنا نجريها.

وأخبرته مرة بأني أتمنى لوكان بإمكاننا قضاء وقت أطول مع بعضنا بعضًا. واستشهدت في ذلك بنصيحة الرسول صلى الله عليه وسلّم في تقسيم الوقت، التي قرأت عنها في كتاب وجدته في بيت عِمران في لاهور، من تأليف عالم اسمه الدكتور سيد حسين، أن على المرء بحسب الكتاب، أن يقضي ثلث يومه في العمل، وثلثه الثاني في الصلاة وتعهد الأسرة والقيام بأنشطة اجتماعية، وثلثه الأخير في النوم والراحة.

ومع ذلك، كان عليّ أن أتفهم أن مهمة عِمران ستأتي دائمًا على قائمة أولوياته، بغض النظر عن تغير الظروف، وعما يمكن أن أنصحه به، حتى وإن اقتضى الأمر منه العمل ساعات طويلة، وتخصيص وقت أقل مما أوصى الرسول به للأسرة. وكنت أومن بما كان يسعى إلى تحقيقه، وحاولت أن أتقبل الأمور كما هي، وأدعمه في مشروعاته. وكنت أقضي وقت فراغي في مواصلة دراسة الإسلام واكتشافه.

وقد اكتشفت في الإسلام أشياء كان لها معنًى حتى في حياتي. فسورة الإخلاص مثلًا ، وهي قصيرة جدا، وإحدى آخر السور في ترتيب المصحف، جاء فيها: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3). وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (سورة الإخلاص: الآيات 1-4)

اكتشفت أن الإيمان بإله واحد، هو الواسع، القريب، البصير، السميع، وهو مبدأ كل شيء، والنهاية التي إليها يعود كل شيء، من أهم ركائز الإسلام، إنه التوحيد. قال لي عِمران: «حين يكون الإنسان جديًّا في ممارسة الإسلام، فإنه لا ينحني سوى لله وحده، ولا تثنيه عن ذلك الأموال، ولا السلطة، ولا طموحاته في الحياة، أو مكانته الاجتماعية، أو الموضة، أو الشهرة، أو الناس. إن ذلك هو المعنى الحقيقي للحرية». بدا لي أن هذا المفهوم يحرر المرء من كثير من القيود.

وقد ورد ما يشبه ذلك في وصايا موسى العشر، حيث جاء في الوصية الأولى: «لا يكُن لك إله سواي» (سفر الخروج، 20/3). لم يسبق لي أن تأملت في هذا المفهوم من قبل، غير أني بدأت تدريجيًّا أفهم معناه. وكل إنسان يعبد شيئًا آخر عدا الله، أو يؤمن بشيء آخر غير الله، أو يخلص ويتكل على شيء آخر غير الله، لن يَلْقَ سوى المعاناة من النقص الذي هو من طبيعة ذلك الشيء، وخيبة الأمل من قصر أمد ذلك الشيء، وزواله وعجزه عن خلق أي شيء، أو توفير الحماية والعناية والأمل إلى الأبد.

أصبحت أرى عملي وحالات الهستيريا التي كنت أشهد عليها بانتظام، وأنا أقدم عروضًا موسيقية حية على ضوء هذه المفاهيم. وكان عدد كبير من الفتيات الصغيرات اللواتي ما زلن يحملن أطقم تقويم الأسنان، يفقدن الوعي من فرط الإثارة عندما يشاهدن نجمهن المفضل على خشبة المسرح. فهل يمكن تشبيه هذا المستوى من الإعجاب بعبادة الأوثان؟ والسؤال الأهم هو: هل كنت أؤدي دورًا في ذلك؟

إضافة إلى ذلك، كان هوس التمسك بالمظهر الشاب يسيطر على صناعة الترفيه حتى بين من تخطوا سن الأربعين. وكان كثير من النساء، وحتى بعض الرجال في صناعة الترفيه والاستعراضات، وفي مجتمع لندن، يُسَلِّمُون أجسادهم لمشرط جرّاح التجميل؛ من أجل تكبير النهود، وشفط الدهون، وحقن الكولاجين. ولا شك في أن اللجوء إلى العمليات الجراحية المتكررة في سبيل إعطاء أجسامهم بصورة ترضى عنها وسائل الإعلام، كان يخفي وراءه إحساسًا فظيعًا بعدم الأمان. والحقيقة أنه ما من جراح أو مادة أو تقنية في العالم تقدر على إيقاف زحف آثار الزمن. إنه أمر كنت أعرفه تمام المعرفة. والمكان الوحيد الذي لا يطاله الزمن، هوالجنة، حيث تظل الأجساد على حالة الشباب إلى الأبد، وحيث لا بقاء سوى للروح؛ لذا، كان

من المنطقي أن يعكف المرء على تجميل هذه الروح دون سواها.

أما مسألة موضة الملابس، فتلك قصة أخرى. وكان عِمران يرى أن الزي التقليدي الباكستاني الفضفاض يحمل معاني الأنوثة أكثر من الملابس الضيقة التي تصف تفاصيل جسد المرأة الغربية. ولأن (الشالوار قميص) الباكستاني يخفي أي عيوب جسدية من وجهة نظره، فإن المرأة الباكستانية لم تكن تعاني بنفس القدر من الضغوط النفسية التي تستأثر بالمرأة الغربية، وتدفعها إلى اتّباع الحميات، والمحافظة على قوام نحيف. وفي المقابل، تستمد الباكستانيات إحساسهن بالأمان من إيمانهن ومن أسرهن، وكان يضيف بإصرار: «إن الإسلام يقدّر في المرأة خلقها ومميزاتها الداخلية وإيمانها».

تنبهت على وقع تلك الكلمات إلى حقيقة أني قضيت سنوات من عمري، وأنا أبالغ في الاهتمام بمظهري بسبب طبيعة عملي. فقررت أن أعمل جاهدة على التركيز أكثر على القيم الروحية، وهي أن أكون في الحقيقة على ما يرام لا أن أظهر فقط أني بخير، على الرغم من أن ذلك كان جزءًا من مهنتي. فبدأت أتخلص من تنانيري القصيرة جدًّا، وصرت أرتدي ملابس أكثر طولًا، ولا تبدي مفاتني كما في السابق. ولم يلحظ أحد في إم تي ڤي ذلك التغير في هندامي، ولا سيما أن عهد المظهر غير المرتب، الذي كان يصطلح عليه بـِ(جرانج)، والملابس المتناهية القصر كان قد ولّى على أي حال. وما إن انقضت موضة (الجرانج)، حتى بدأت النساء في الكشف عن سيقانهن أكثر فأكثر. ولكني لم أعد أومن بتلك الأفكار، ولم أرد أن أجتذب الانتباه إلى ساقيّ، ولا أفهم لمَ قد تحتاج أي امرأة إلى أن يصفر أحد على جمال ساقيها في الشارع. وكانت النتيجة أني أصبحت أشعر بمعاني الكرامة والعزة أكثر من ذي قبل، بل أصبحت أشعر براحة لم أعرفها من قبل، على

الرغم من أن بعض صديقاتي كنّ يتذمّرن من أني لم أعد أكشف عن ساقيّ على الملأ.

بدأت حياتي الاجتماعية تتغير هي الأخرى. وأصبحت بدلًا من الخروج للحفلات والنوادي مع زملائي في العمل أو أصدقائي، أعود مباشرة إلى البيت بعد انتهاء دوام العمل، حيث أنهمك في قراءة الكتب، أو أرافق :عِمران إلى حفل عشاء، أومناسبةٍ ما. وإن اضطررت إلى الذهاب إلى نادٍ أو حفل موسيقي، كنت سرعان ما أضجر، ولا أحسّ بأني أنتمي إلى ذلك المكان، لأن جُلّ الناس لا يقصدون تلك المناسبات من أجل الحديث بجد وعلى نحو مفيد، بل ليشربوا حتى الثمالة، أو ليبحثوا عن شريك للمعاشرة الجنسية. وكانوا يتناولون حبوبًا مخدرةً؛ فتنطلق فجأة، ألسنتهم بالكلام المعسول، ويصيرون ودودين بشكل مفرط، وقد يبدأ أحدهم في التصرف بسخافة، أو يداعب ويقبّل إحدى الفتيات بعنف بعد أن يشرب إلى حد الثمالة.

كنت أحتسي أنا أيضًا قليلًا من الشراب، فلم يكن من الوارد الخروج وعدم احتساء المشروب، وكنت أيضًا أستمتع بالسعادة التي كنت أحسّ بها بعد احتساء بعض الشامبانيا. وكانت تعطيني إحساسًا بالثقة؛ لأنني كنت خجولة بطبعي، وكنت أشعر أيضًا بأني أتمتع بروح مرحة. غير أني لم أكن أستمتع بالحديث مع أناس فقدوا وعيهم تحت تأثير أي مادة تناولوها. وكانت تلك الأحاديث زائفة وتافهة، وكنت أدرك أنهم سينسون كل ما قالوه في اليوم التالي. وكنت دائمًا أقول لنفسي: «إني أقضي وقتًا طيبًا»، لكني كنت واثقة بأن ذلك لم يكن صحيحًا. كان الأمر وكأني أضع قناعًا براقًا ومصقولًا، وكنت في كثير من الأحيان أندم لوجودي في أماكن كنت أفضل ألا أذهب إليها، ولكني كنت أفعل ذلك فقط لأن الجميع اتفقوا على الذهاب إليها. وقد قال مديري بيل رودي مازحًا في إحدى

حفلات إم تي في: «كريستيانا انضمت إلى المنتخب الباكستاني للكريكت». فضحك جميعهم لذاك التصريح، ولكن لم يكن بوسع أحدٍ منهم أن يتفهم اهتمامي المتزايد بالإسلام. وأخبرت عِمران بما شعرت به، فقرأ عليّ مقتبسات من أبيات لجلال الدين الرومي، وهو شاعر وفقيه ومتصوف فارسي عاش في القرن الثالث عشر. يقول الرومي: «حُفّت الجحيم بالمتعة والجمال والإغراء، وحُفّت الجنة بالفقر والمعاناة والبشاعة». عندما فكرت في هذه الكلمات، كان ذلك على وجه التحديد هو العالم الذي وجدت نفسي فيه، يعج بالمتعة والجمال والإغراء. وربما لم يكن جحيمًا بمعنى الكلمة، لكني فهمت قصده. ولا شك في أن فكري وقناعاتي الداخلية أصبحت تتخطى حدود عملي ونمط حياتي.

كنّا أنا وعِمران ما زلنا نتحدث عن الزواج، غير أن موعد افتتاح المستشفى كان يتأجل المرة تلو الأخرى، وقد تأخر سنة كاملة عن موعده الأول. لكن عِمران كان يقول بكل ثقة: «هذا يؤشر على أن مصيرنا ليس بأيدينا. وما يسعنا سوى أن نبذل أقصى ما في وسعنا. وندع الأمور في يد الله. إنه يجازينا على أعمالنا، لكن نتيجة تلك الأعمال بيده وحده». وقد مكّنني ذلك التأجيل من أن أعمق معرفتي أكثر قبل أن أقدم على اتخاذ أي قرار مصيري.

كنت أعرف جيدًا أن عِمران كان يريد الزواج من امرأة مسلمة، على الرغم من أن دينه يسمح له كذلك بأن يتزوج مسيحية أويهودية، بل ولا يشترط عليها أن تعتنق الإسلام. أما بالنسبة إليّ، فلم يكن واردًا بتاتًا في هذه المرحلة أن أعتنق الإسلام، على الرغم من أني لم أكن أمارس المسيحية في حياتي اليومية. وأعرف أنه قد تم تعميدي، وأني كنت أومن بالله، لكن علاقتي بالدين كانت تقف عند هذا الحد. وكذلك كان السؤال الأساسي

لديّ هو ما إذا كنت أنا، بصفتي امرأة غربية، أقبل الإسلام على أنه أسلوب أتبعه في حياتي. ولا شك في أني كنت أتطلع إلى أن أحقق ذاتي بشكل أكبر. وعلى الرغم من أني كنت أدرك أن أستوديو التلفاز أو حفلة ما، أوفستانًا من علامة تجارية، مثل برادا لا يمكنها أن تمنحني الإحساس الداخلي بالرضا الذي كنت أبحث عنه، لكن العمل يظل عملًا في نهاية المطاف، وكنت أريد أن أواصل أداء وظيفتي على أحسن وجه. ومع ذلك، كان عملي محدودًا حيث إن إم تي ڤي لم تكن لتمكنني من التحليق حيث كنت أريد أن أصل حقًّا. وكنت متحمسة لهذا الدين الذي يدعو إلى القيم التي كنت أستطيع أن أومن بها والتي كانت تسمو فوق هذا العالم، وترشدني إلى كيفية عيش حياة يكون لها معنى. لكني كنت في حاجة إلى وقت أطول ليتاكد ذلك لديّ.

كانت فكرة العيش مع عِمران في باكستان تربكني. وما عساي أفعل إن كان دائم السفر بسبب مشروعاته؟ ثم إنه كان ينوي دخول معترك السياسة مباشرة بعد افتتاح المستشفى، ويناضل من أجل عدالة اجتماعية أكبر، ومن أجل حقوق المواطن العادي، ويرسي دعائم نظام تعليمي أفضل، ونظام صحي أنجع، ويعمل على حماية البيئة. وكان أيضًا مصرًّا على مكافحة أشكال الفساد كافة. كنت أومن بكل هذه القضايا، لكن كانت هناك أمور تتعلق بي على أرض الواقع. ذلك أني لم أستطع أن أتخيل كيف ستكون حياتي في مجتمع يسوده الفصل بين الجنسين، ويحكمه الرجال بشكل حصري. ولم أكن متأكدة من قدرته على أن يرعاني وأسرتنا، نظرًا إلى التزاماته الكثيرة الأخرى. وبالنظر إلى بعد باكستان الجغرافي، كنت أتساءل عما إذا كنت سأتمكن من زيارة عائلتي في ألمانيا. كان عِمران يردد أنه يود أن يحظى بدعم زوجته في كل ما يقوم به، وهو ما كنت لأفعله عن طيب خاطر. لكن على الرغم من دفاعه عن تعليم المرأة وشقها طريقها المهني،

على غرار ما فعلت جل أخواته، أوضح لي بأن موقف الإسلام من الأسرة واضح جدًّا. وحين ترزق المرأة بالأطفال، يجب أن يكونوا أهم أولوياتها، وعليها أن تعمل على تربيتهم بنفسها عوضَ أن ترسلهم إلى دور رعاية الأطفال بالنهار، أو أن تُوظِّف من يقوم برعايتهم نيابة عنها. وقال لي: «إن ذلك أفضل لأطفال، لأنه يمدهم بأمان عاطفي هم في حاجة إليه في مراحل لاحقة من حياتهم. إن الأطفال هم مستقبلنا». وكان يأسف لما آلت إليه مؤسسة الأسرة في الغرب من تآكل وتفكك، وكان يؤكد قائلاً: «لا تزال الأسرة في باكستان هي أساس المجتمع. ولا وجود هناك لسياسات تأمين، أو أي مساعدة منظمة من الدولة. ولأسرة هي التي تمثل ذلك التأمين وتلك المساعدة، حيث إن الأجيال كلها تعيش مع بعضها بعضًا تحت سقف واحد. ومن ثمّ، فإن العمة أو الخالة حاضرة في هذا النسيج كي ترعى الأطفال إن اقتضى الأمر ذلك. وفي المقابل، يرعى الجيل الصاعد الجيل الطاعن في السن».

شعرت بالاحترام تجاه ذلك الترابط الأسري الذي وقفت عليه في باكستان، ولم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في نقيض ذلك الترابط الذي يسود في الغرب، حيث يسلم جميعهم بأن الشاب أو الشابة سيغادر المنزل فور بلوغه الثامنة عشرة من العمر، كما فعلت أنا، وإن ظل مع الأسرة، فإن عليه أن يدفع ثمن الإيجار. وكان لِمَا.خَبِرتُهُ في باكستان، وقراءة القرآن أثر كبير في إقناعي بالأهمية البالغة التي تكتسيها الأسرة في الإسلام، وتعهدت بأن أبذل جهدًا أكبر لرعاية الأسرة التي سنبنيها. لكن كانت لديّ تحفظات أكبر عن دور الرجل والمرأة داخل الأسر المسلمة، التي كانت تنطوي من وجهة نظري على تضحيات كبيرة من جانب المرأة. وكان عِمران يؤمن أن تربية الجيل الجديد ليس فقط مسؤلية المرأة، بل إنه تشريف لها كذلك. وأن دور الأم يحظى بتقدير وإجلال كبيرين في الإسلام إلى درجة

أنه من سبل كسب رضا الله. وكان كثيرًا ما يردد أن الجنة تحت أقدام الأمهات. وأخبرني بأن النساء اللواتي بلغن أعلى درجات الدراسة والاستقلال في المجتمعات الإسلامية لا يرين أن تربية الأطفال عبئًا ثقيلًا يَنُؤْن بحمله. وأضاف: «على عكس ذلك، ففي ذلك امتياز لها، وهو أعظم عمل تتشرف المرأة بأدائه، في حين أن تربية الأطفال في الغرب، ينتقص من دور المرأة وربة البيت، ويُنظر إليه على أنه عمل لا يستحق الاحترام. ثم إن الاعتقاد السائد هو أن اكتفاء المرأة بأن تكون مجرد ربة بيت وأم ليس أمرًا جذابًا.»

عليّ أن أعترف بأن كلام عِمران لم يخلُ تمامًا من الصحة. وكنت أعرف أمهات فقدن ثقتهن بأنفسهن؛ لأنهن كنّ مجرد أمهات على الرغم من أنهن كنّ يعملن أكثر من كل من كنت أعرفهن منذ أن يستيقظن في الصباح الباكر وحتى ساعة متأخرة من الليل. وكنا أنا وعِمران نخوض في الحديث عن دور المرأة في الإسلام مرارًا وتكرارًا، وأحيانًا كنا نتحدث في الموضوع نفسه مع صديقاتي كذلك. وكانت باتريشا من بينهن، وهي صديقة قديمة من أيام الدراسة، انتقلت إلى لندن للعمل في (برافو)، المجلة الشبابية التي تختص بما يتعلق بالموسيقا. وهي المجلة نفسها التي أسهمت لاحقًا في إخراج البرنامج الذي كنت أقدمه إلى الوجود. وكانت امرأة شابة مفعمة بالحيوية والنشاط، وينسدل شعرها الأحمر في تموجات جميلة. وكانت باتريشا تعارض نظريات عِمران التقليدية المتعلقة بدور المرأة، وكانت أمها تعمل وهي تربيها، وكانت باتريشا تظن أن ذلك الأمر هو الأفضل. وكانت حجتها الأخرى هي أن كثيرًا من الأسر لم يكن بيدها حيلة، لأن عمل المرأة كان السبيل الوحيد لهذه الأسر لكي تحظى بعيشة كريمة. وكان ردّ عِمران هو أن العائلات المسلمة لديها أولويات أخرى، ويمكنها أن تقلل من نفقاتها بدلًا من أن تقبل بأن يستعبدها نمط معيشة

باهظ التكلفة. وكان عِمران يلقبها وصديقتي بريجيت (وحدة هامبورج لتحرير النساء). وكنت أنا نفسي أشك في أن المكوث في المنزل ورعاية الأبناء على مدار الساعة كان عملًا سهلًا، ويحقق ذلك الإشباع العاطفي الذي كان يتحدث عنه عِمران. وكنت أعتقد أن الأمر يعتمد اعتمادًا كبيرًا على مدى دعم الزوج لزوجته.

وعلى الرغم من ذلك، لم أستطع أن أنكر بعض المزايا التي ساقها عن الفصل التقليدي بين أدوار الرجل والمرأة. وعمومًا، لم يكن عِمران الشخص الوحيد الذي نشأ في أسرة يسودها هذا النظام التقليدي. فقد ترعرعت في كنف أسرة مماثلة. وذكّرتني كلماته بالأمان والرعاية والحب الذي حظيت به في مراحل تنشئتي كلها. وارتحت لفكرة أن المرأة في الإسلام تحظى بالاحترام لدورها بصفتها أمًّا، وبالرعاية المادية التي يحوطها بها زوجها، عضَ أن تضطر إلى العمل، وتعتني بأسرتها، وتقوم بالأعمال المنزلية، وتستنزف طاقتها كلها في هذه المهام وحدها. وبحسب عِمزان، فإن هذه الأدوار رسمها الله للرجل والمرأة بما يتماشى مع الطبيعة التي وهبها لكل منهما.

ومع ذلك، كانت تساورني شكوك فيما يخص مسألة النساء واحترامهن. وذكّرته بأمسية قضيناها مع يوسف إسلام، المغني البريطاني الذي كان يعرف باسم (كات ستيفنز)، والذي اعتنق الإسلام في سبعينيات القرن الماضي. حيث كنت أنا وعِمران معجبين بموسيقاه التي كانت تلقى انتشارًا. وإعجابًا كبيرين في باكستان أيضًا. ودعاه عِمران إلى شقته؛ لكي أقابل وأتحدث إلى مسلمٍ ينتمي إلى العالم نفسه الذي كنت أنتمي إليه.

قدم يوسف من المسجد بصحبة صديق له، وكان عالم دين. وكان كل منهما ذا لحية طويلة، وكانا يرتديان ثيابًا بيضاء طويلة. ولم يصافحني أحد منهما، لكني

كنت معتادة على هذا السلوك من تجربتي في باكستان، ولم أشعر بالسوء لذلك. وجلس الرجلان في الجهة المقابلة لنا، وبعد أن خاضا مع عِمران في حديث قصير تخللته بعض الممازحات، بدأ ثلاثتهم في الحديث عن الإسلام، فكان حديثًا مثيرًا جدًّا للاهتمام، وجرى بمراعاة كاملة لأصول اللياقة والأدب، وفهمت كثيرًا مما قيل ليلتها. وتمنيت لو أتمكن من الحديث إلى يوسف عن موسيقاه وعن رحلته إلى الإسلام، ولكن لم أحس بأنه من اللائق فعل ذلك، فسألته سؤالًا عن الإسلام كنت أبحث له عن جواب. جاء في القرآن، في الآية 34 من سورة النساء: (وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ). يبدو أن هذه الآية تعطي للمسلمين رخصة لضرب زوجاتهم، وأردت أن أعرف رأيهم في ذلك. فأوضح لي صديق يوسف بأن ذلك ينطبق فقط على الحالات الجدية، مثل الخيانة وليس في حالات الخلاف العادي. وأضاف: «إن التصرف الأمثل الذي يُتوَقَّعُ من الزوجين هو أن يبذلا وسعهما سعيًا للمصالحة؛ وإن فشلا فربما يضرب الرجل زوجته بشيء لا ضرر فيه كصحيفة أوفرشاة أسنان، شرط ألا يؤذيها، وأن يتجنب ضرب الوجه».

نزلت عليّ كلماته كالصاعقة، ووجمت أمامه بلا كلام. كان هذا السلوك بعيدًا بسنوات ضوئية عما كنت قد درسته، وما نقله لي عِمران عن تعاليم الإسلام. عندما رأى الصدمة بادية عليّ، قال إني لا يجب أن أبحث عن عيوب الدين من خلال النظر إلى الآيات خارج سياقها الصحيح. وأضاف: «إن المهم هو روح الكتاب، ونسبة العدل التي يأمر بها هي مئة في المئة. إن الله يحب الرجال والنساء، وهم متساوون جميعًا أمامه سبحانه، حتى وإن كانت لكل منهم وظيفته في هذا العالم. حين تقرئين آية لا تفهمينها في القرآن، فمن الأفضل أن تعودي إليها مرة أخرى». وأخبرني عِمران في وقت لاحق بأنه من الواضح أن ضيفينا كانا ينتميان إلى مدرسة متشددة تتقيد

بالمعنى الحرفي للنص أكثر من معناه الباطن.

لقد طفح الكيل بي، واكتفيت من تلك الأفكار المتشددة. وكنت أريد أن أتحدث إلى مسلمين منفتحين، ويتحلون بمرونة أكبر، ويؤمنون بشكل متنور وسمح أكثر من الإسلام. وكنت متأكدة من أن هذه النوعية من المسلمين موجودة أيضًا، ولم يمضِ وقت طويل حتى قابلت أحدهم فعلًا. حيث دُعيت أنا وعِمران إلى حفلة في منزل رامولا باتشان، زوجة أخ النجم الهندي أميتاب باتشان. ولفتت انتباهي امرأة جذابة بين المدعوين خمنت أنها من أصول آسيوية، وأثارت أعجابي. وكانت ترتدي (شالوار قميص) أسود أنيقًا، وكانت تضع الشال على كتفيها بدلَ أن تغطي به رأسها وفقًا لما جرت به العادة. كان اسمها روبي، وهي منتجة تلفزيونية من باكستان، أنتجت فيلمًا قصيرًا عن مشروع المستشفى الخيري الذي يشرف عليه عِمران، بعنوان: (لنتخلص من السرطان)، وكان عِمران يعرضه خلال حفلات العشاء الخيرية التي كان ينظمها لجمع التبرعات. فتحدثت إلى روبي، وأعجبت بها كثيرًا.

ولدت روبي في لاهور، ونشأت وتربت على يد جدتها. ذلك أنها كانت طفلة مشاغبة جدًّا وكان أبوها دائم السفر، وكانت جدتها تملك وقتًا أكثر تخصصه لها، والوحيدة التي تستطيع التعامل مع روبي. وعندما بلغت سن السابعة، انتقلت مع والديها إلى لندن. وأخبرتني بأنها تلقت تربية إسلامية، وترعرعت بين ثقافتين اثنتين. كانت تتحدث عن دينها بكل وضوح وبساطة، وأخبرتني بأن لا داعي لأن آخذ الأمور بحدة وتوتر. وأضافت: «لكل إنسان حرية تطبيق الإسلام على طريقته الخاصة، بغض النظر عن كونه رجلًا أو امرأة. إن من له أن يحاسبنا على أعمالنا هوالله، وما من أحد سواه. أما أن تغطي المرأة رأسها أوتكشف عنه، فهو أمر يعود

لها الاختيار فيه. إنه أمر بينها وبين الله».

خلصتني كلماتها من وزرٍ ثقيلٍ جدًّا؛ إذ كانت روبي أول امرأة توضح لي كيف أن للمسلم الذي يعيش في وسط غربي، أن يجمع بين الإيمان والدين، والمسيرة المهنية، والحياة الاجتماعية، وتحقيق الذات. كانت نظرة روبي إلى الأمور أكثرتحررًا، ولكن من الواضح أنها —ب الله كذلك. وحين كانت تنهي سرد قصة نجاح في حياتها، كانت تردف قصتها بكلمات الشكر والحمد لله.

---

(1) رواه الترمذي وابن حبان في سننه: 9-484.

(2) انظر الشمائل للترمذي.

(1) مطاردي المشاهير من المصورين.

الفصل السادس

عهد يمضي وفجر يطل

وحين تتخطى طريقًا مفروشة بالصعاب والآلام
ربما ذاك هوالوقت المناسب كي تعرف اسمه (تعالى).

يوسف إسلام

أصبحت رحّالة بين عالمين: كنت في أحدهما، ملكة جيل المراهقين والمراهقات، أقدم برامج موسيقية تحظى بنسب مشاهدة قياسية، وأقدم فقرات سهرات ومناسبات لا تُعد ولا تحصى، وأجوب العالم. ويعرفني كل من يقابلني أينما حللت وارتحلت. وفي العالم الآخر، كنت أكتشف تدرجيًّا عالماً مختلفًا تمامًا؛ ثقافة ودين الإسلام الذي تعرفت إليه في باكستان، ومن خلال أصدقاء عِمران في لندن.

وعلى الرغم من أني شعرت بأن انتقادي الشخصي لعملي بدأ يزداد يومًا بعد يوم، وأنزعج أحيانًا منه، فإنني كنت أستمتع به أيما أستمتاع. وفي الوقت نفسه، كان إعجابي بالإسلام يتنامى في داخلي. وكنت أتعلم شيئًا فشيئًا أن أُقَدِّرَ الرؤية التي كان يقدمها تصور هذا الدين، وأن أفهم فكرة أننا خلقنا لغاية سامية، وعلينا أن نتحلى بالصبر، وأن نتقبل قدرنا. وكان عِمران مثال المسلم الذي يجسد بسلوكه صفتي الصبر والإيمان بالقدر.

وبعد أن قضيت إجازة أعياد ميلاد سنة 1993م مع أسرتي في هامبورج، سافرت إلى لندن لاستكمال آخر التحضيرات لرحلة أخرى إلى باكستان. وكنت أنوي الذهاب برفقة أختي إلى لاهور لزيارة عِمران، ونسافر بعدها عبر السند. وكان عِمران يترقب وصولنا في بيت والده. وحينما وصلت إلى شقته في لندن، كدت أتجمد من البرد، فحاولت أن أشعل المدفأة، لكن زر التدفئة لم يعمل. فاتجهت إلى المطبخ لأجلب أداة لإشعال الموقد باستخدام

الغاز، لكني ما إن أشعلت الموقد حتى انطلقت منه شعلة كبيرة تجاهي. فابتعدت عن الموقد من الصدمة، وما هي إلا ثوانٍ معدودات حتى التهمت النيران العشب المجفف الذي كان يزين محيط الموقد. وفي لمح البصر، امتدت ألسنة اللهب إلى الثوب الذي كان يغطي السقف الأدنى للغرفة، ويعطيها منظرًا جميلًا يشبه منظر الخيمة، وأحرقته كليًّا. وعدت إلى المطبخ لأحضر دلوماء، وحين رجعت إلى الغرفة كانت قد اشتعلت كلها. ولحسن الحظ، أني فكرت في غلق باب الغرفة، واتصلت برقم المطافئ، ويداي ترتعشان من وقع الصدمة. صادف ذلك موسم أعياد الميلاد، فتأخر رجال الإنقاذ في الوصول إلى الشقة. وكانوا قد أخطؤوا في تدوين العنوان، فكان عليّ أن أعاود الاتصال بهم مرات عدة، وركضت حتى نهاية الشارع كي أرشدهم إلى مكان الشقة. وحين وصلوا، تمكنوا بسرعة من وقف انتشار الحريق، وربَّتَ أحدهم على كتفي وهم يغادرون المكان، وانقضى الكابوس أخيرًا.

أصبحت الغرفة أشبه بقوقعة سوداء فارغة، تختنق برائحة الاحتراق الكريهة جدًّا، في حين كانت تعم المكان فوضى عارمة. ومن بين الملابس المسودة، والأقراص المدمجة الذائبة، والوثائق المهمة المحترقة، ظل كتاب واحد في مأمن من النيران، وهو القرآن. رحت أدورفي المكان في ذهولٍ تامٍ، لكني شعرت بالراحة لأن الخسائروقفت عند ذلك الحد، ولم يحدث الأسوأ، ولم أصب بمكروه. بقيت تحت تأثير الصدمة بعض الوقت قبل أن أدرك أنه عليّ أن أُخبِر عِمران بما حدث. لقد كانت تلك شقته، وكان مولعًا بها، ويعدّها فردوسه الخاص به في أثناء إقامته في لندن. وكانت كل ما يملك، بعد أن وهب ممتلكاته الأخرى كلها لبناء المستشفى.

ذهبت للإقامة مع صديقة لي. وحين تمكنت من الاتصال بِعمران في

لاهور، كنت أتوقع أن يستشيط غضبًا، لكن ما كان منه إلا أن قال: «الحمد لله، احترقت كل ذنوبي! تعالَي إلى باكستان في أسرع وقت، فقد اشتقت إليك!». لم يتفوه بكلمة عتاب واحدة، أو يسأل عن حجم الخسائر، أو إجراءات التأمين. رأى عِمران الأمر برمته على أنه قضاء وقدر؛ لأن ما من شيء يحدث إلا بمشيئة الله. وقال لي: «المال يذهب ويأتي، ولا يمكننا التمسك به عندما نموت، فلا تقلقي أبدًا، واحجزي في أول طائرة، وتعالي إلى باكستان». أدهشتني ردة فعله، لكن على غرار كثير من المسلمين، كان عَمران قادرًا على أن يتعامل مع القدر، مهما كانت وطأته، ويتقبله على أنه مشيئة الله، بكل وقار وهدوء.

وعلى الرغم من ذلك، لم يكن بوسعي أن أركب أول طائرة إلى باكستان، وقضيت الأيام القليلة التي تلت الحادث في محاولة ترتيب الغرفة. أرسلت المصالح المختصة مندوبَيْنِ لتفحص مواقد الغاز، وقاما بإغلاق المواقد بلصاق يحمل إشارة الخطر، وأخبراني بأن المدافئ كانت خطيرة جدًّا، وأنها لم تكن مزوّدة بمراوح التهوية، ولم تُرَكَّب على نحوٍ سليم. واصلت تنظيف الغرفة بعد مغادرتهما، ورميت الأشياء التالفة، وأرسلت الملابس إلى محل الغسيل الجاف.

كان عليَّ أن أبحث عن مكان آخر أقيم فيه، حيث كان من الواضح أنه من المستحيل الإقامة في الشقة المحترقة، فاتصلت سكرتيرة [(1)] ستيف فارجنولي لطلب المساعدة. وعندما أتت لرؤية الغرفة، ووقفت على الدمار الذي لحقها، دعتنى على الفور إلى الانتقال للعيش في بيت ستيف الذي كان يتخذ منه مكتبًا كذلك، وكان يقع في حي تشيلسي أيضًا. أخذت معي كمًّا هائلًا من ملابسي التي علقت بها رائحة الحريق المقرفة، والتي كانت تحتاج لأن تُغسل. وكنت أعلق ملابسي في أرجاء المكتب كلها، وحتى على

أجهزة التدفئة وحاملات مصابيح الإضاءة. كان ستيف من مواليد برج العذراء، ويولي عنايةً خاصة بالنظام والترتيب. وكم كانت صدمته كبيرةً حين عاد من عطلته، ورأى حالة مكتبه. ورغم أني كنت قد عقدت عزمي في البداية على أن أمكث في مكتبه مدة شهر فقط، وهي المدة التي قدرت أني سأتمكن خلالها من ترتيب الأمور في شقة عِمر.ان، فإني استأجرت مكتبه عامًا كاملًا في نهاية المطاف.

وبعد كل ذلك العناء والتوتر، كانت تلك العطلة التي قضيتها مع أختي وعِمران في باكستان بالتحديد كل ما أحتاج إليه. كان عِمران يستخدم الطابق العلوي كله من بيت والده. وبينما كان يغوض في العمل ساعات، كنت أقضي ساعات في الشرفة مع أختي في احتساء الشاي و الحديث. لم أكن قد رأيت سوزان منذ أن انتقلت إلى العيش في مدينة ميلانو لتعمل مع زوجها في مجال التصميم. وكان عملها، مثل عملي، يشغل حيزًا كبيرًا من وقتها. وعلى الرغم من انشغالاتنا المهنية، فإن علاقتنا ظلت قوية بالرغم من المسافة التي كانت تفصل بيننا. وفي آخر مرة التقينا فيها في موسم أعياد الميلاد في بيت والدينا قبل أسابيع من رحلتنا إلى لاهور، تفاجأنا حين وجدنا أننا كنا نرتدي معطفين متماثلين في العلامة التجارية واللون والقياس. كانت سوزان قد اشترت معطفها من ميلانو، في حين اقتنيت معطفي من لندن.

وكنا نحكي لبعضنا بعضًا جميع أمورحياتنا. ولأني كنت أختها الكبرى، كنت دائمًا أحاول حمايتها. لم يكن هناك عدد كافٍ من الغرف في إحدى دور الضيافة، خلال تلك الرحلة إلى السند، فاقترح أحدهم أن تقضي سوزان الليلة في غرفة مُعدّة بسريرين منفصلين مع صديق عِمران، وكان اسمه زاك، وهو لاعب (كريكت) سابق. وقلت لزاك بنبرة لم تخلُ من الجد:

«عامِل أختي كما لوكنت تعامل أختك». وكان احتمال أن تشارك امرأة باكستانية رجلًا ليس زوجها في غرفة واحدة أمرًا مستحيلًا تمامًا. وأدرك عِمران من كلامي أن ذلك الاقتراح ليس في محله، وانتهى الأمر بأن قضى صديقه ليلته مفترشًا الأرض في أحد ممرات بيت الضيافة.

ومرة أخرى، أخذت أتساءل عن قدر الاحترام الذي تحظى به المرأة في باكستان في واقع الأمر، ولاسيما المرأة الغربية. وهوأمر فكرت فيه سوزان كذلك. لم تكن واثقة من أن عِمران كان فعلًا الشخص المناسب لي، وكان لديها تحفظات عن مقدار الدعم الذي قد يقدمه لي بعد زواجنا، والذهاب للعيش في باكستان. لقد وقفت على مدى اعتمادي عليه في باكستان، ورأت أني لم أكن هناك كريستيانا المستقلة بنفسها التي عَهِدَتْهَا.

تعرفت خلال تلك الزيارة إلى ثلاث من أخوات عِمران، كن يتمتعن بشخصيات قوية، وواثقات من أنفسهن، تمامًا كما وصفهن. وقد أتين ثلاثتهن إلى منزل العائلة، وتحدثنا ونحن نتناول الشاي والسمبوسة. وكانت إحدا هن طبيبة جراحة، والثانية تَدرُسُ الاقتصاد، في حين كانت الثالثة ربة بيت بعد أن التحقت بالجامعة. وقد حظيت كل واحدة منهن بدعم زوجها في اختياراتها. وحين سألتهن عن دور المرأة في الإسلام، أكّدن جميعهن أن الإسلام أعطى للمرأة كثيرًا من الحقوق منذ سبعة قرون. إن واجب الزوج أن يحمي زوجته، ويوفر لها المأكل والملبس والمسكن. وحتى إن كان فقيرًا، وتزوج من ملكة متوجة، فإن عليه أن يرعى متطلبات الأسرة. أن من حق المرأة أن تحتفظ بالمال الذي تجنيه لنفسها، ولا يلزمها الإسلام بأن تنفقه على أسرتها. وإن قررت أن تسهم في الإنفاق على أسرتها، فإن ذلك يُعدّ صدقة تحتسب لها. وفي الوقت نفسه، فإن للمرأة أن تشتري وتملك وتتصرف في الأملاك، وأن تمثل نفسها في المحكمة.

ونظرًا إلى أني امرأة غربية، ا أفكر قطّ في أن حق تمثيل المرأة لنفسها أمام المحكمة أمر صعب أو مستعصٍ. وكنت أحسبه من جملة أبسط الحقوق الإنسانية التي لا نقاش فيها. غير أني اكتشفت لاحقًا أن هذا الحق ا تكتسبه المرأة في الغرب حتى وقت حصولها على حق التصويت. وتلك حقوق لم تحصل عليها المرأة الغربية إلا في القرن الماضي، في حين كان الإسلام يعترف بها منذ قرون.

ومع ذلك، كنت أشعر بأني حتى ذلك الوقت كنت قادرة على تدبر أمور حياتي، وعلى أن أعيش باستقلال عن أي حماية قد يقدمها لي أي رجل. لكن كان عليّ أن أفكرفي ماهية تلك الحماية، وما الحد الفاصل بينها وبين القمع. أكدت لي جميع النساء اللائي قابلتهن في باكستان أن قمع النساء وانتهاك حقوقهن، كان تصرفًا لا يمت إلى الإسلام بأي صلة تذكر. وأخبرنني بأنه من المفترض أن يقتدي المسلم في مواقفه تجاه النساء بمعاملة الرسول صل الله عليه وسلم لأسرته. وقلن لي: «إن كل واحدة من زوجات الرسول صل الله عليه وسلم كانت تتمتع بشخصية قوية، وأدت كل منهن أدوارًا مهمة في المجتمع، وأسهمن في خدمته، وتحسين أوضاع المجتمع الذي كن يعشن فيه».

وأخبرتني أخوات عِمران بأن إحدى أشهر أعيان النساء في تاريخ الإسلام كانت خديجة، زوجة النبي صل الله عليه وسلم الأولى. وكانت سيدة أعمال ناجحة، وتكبره بخمس عشرة سنة عندما عرضت عليه الزواج. لقد آمنت بمحمد صل الله عليه وسلم حين نزل عليه الوحي أول مرة، وأصبحت أول من أسلم، ودعمته بمالها ونفسها حتى وفاتها. وبعد أن توفيت خديجة تزوج عائشة. أصغر زوجاته، وكانت على الرغم من صغر سنها قوية الشخصية أيضًا. وسرعان ما أصبحت أحد أهم المعلمين في

مجتمع المسلمين. وبعد وفاة الرسول، عَلّمَت المسلمين من سنته وتعاليمه وروت كثيرًا من الأحاديث. ويقوم قسم كبير من الشريعة على ما روته من تلك الأحاديث، وما نقلته عن الرسول صل الله عليه وسلم من أقوال وأفعال. ولم تكن تخجل من أن تُقَوِّمَ أقوال صحابة الرسول إن أخطؤوا في نقل رواية، أو جانبوا الصواب في تأويل شيء من أفعاله.

بعد الاستماع إلى كل هذا، قلت لهن: «كل هذه الأمور عظيمة ورائعة، لكنها تعود إلى أكثر من ألف وخمس مئة سنة، فماذا عن اليوم؟». أجابت أُسْمَى، الطبيبة الجراحة: «لقد علّمن نساء المسلمين كيف يكّن قويات الشخصية، ويتمتعن بالعزة والكرامة، ويؤدين واجباتهن تجاه المجتمع والأسرة على حد سواء. وإن على النساء، مثل الرجال تمامًا، أن يطلبن العلم من المهد إلى اللحد، كما قال الرسول صل الله عليه وسلم.

وقد تسنّى لي أن أتحدث مطولًا مع بعض النساء اللواتي قابلتهن خلال تلك الزيارة، ولمست فيهن شخصيات استثنائية تشع إلهامًا. فمثلًا، إمبساد الزوجة الصغيرة ليوسف، صديق عِمران، لم يكن لديها أطفال، ووقفت إلى جانب زوجها تسانده في حملته الانتخابية للترشح لمنصب حاكم لاهور. وعندما كنت هناك، كانت تدعمه، وتلقي الخطابات أمام جموع كبيرة من النساء، وكانت مع ذلك تجد الوقت لإدارة القصر الكبير الذي كانا يقيمان فيه، وتشرف على أشغال ترميمه. وعلى الرغم من عدد الخدم المدججين خدمتهما، وتنفيذ ما يطلبان، لم يكن الأمر سهلًا بالنسبة إليها، لأن معظمهم لم يدرسوا، وكانوا بسطاء لا يستطيعون فهم ما تطلبه منهم. وكانت كثيرًا ما تفقد أعصابها؛ لأنه «ما من أحد يستوعب ما أطلبه منه»، كما كانت تقول. ولا يمكن أيضًا أن أنسى ذكرسامينا، زوجة موبي، التي كانت سيدة أعمال قوية ومستقلة. وكانت تدير مصنعًا خَلَّفَهُ لها زوجها

الأسبق. وأصبحت سامينا أقرب صديقاتي في باكستان، حيث كانت تهتم بي إلى أبعد الحدود، لدرجة أنها كانت تقف في وجه عِمران من أجلي. ولم تكن من النساء اللواتي يسمحن بأن يملي عليها أي رجل ما عليها فعله.

وكانت شخصية كل من إمبساد وسامينا تنفرد بتميز خاص ومثيرة للاهتمام، ومن الواضح أن القمع والتسلط لم يكونا جزءًا من واقعهما اليومي. وكانتا ترتديان (الشالوار قميص)، وتضعان شالًا واسعًا يتماشى مع لون زيهما على الكتفين، أوعلى الرأس إن كانتا وسط بيئه محافظة، أو في شوارع لاهور. وعندما يميل الطقس إلى البرودة، كانتا تضعان شالًا من الكشمير أو الصوف. وكنت أنا وأختي نحب الذهاب مع سامينا وأخوات عِمران إلى بازارات إسلام أباد ولاهور. وكن يأخذننا إلى أماكن لا يمكن أن يعرفها إلا أهل البلد، واشترينا عددًا كبيرًا من شالات الباشمينا الجميلة المطرزة يدويًّا.

وكنت في كثير من الرحلات أمكث مع سامينا في بيتها، في حين يذهب عِمران لمواعيده الكثيرة. وكان تحت إمرتها جيش من الخدم الذين عملوا في بيتها عقودًا عدة، وكانوا يعتنون بنا، في حين كنا نسترسل في أحاديثنا بلا نهاية. وكانوا يُعِدّون مختلف أنواع العصائر الطازجة، وكؤوس الشاي، وبعض الأكلات الخفيفة كلما طلبنا منهم ذلك. وكانوا يهيئون أيضًا وجبات الطعام الرئيسة، ويقومون بتنظيف البيت؛ بل كانوا يقومون أيضًا يغسل ملابسي وكيها. لذلك بعد كل رحلة إلى باكستان، كنت دائمًا أجلب ملابسي نظيفة ومكوية إلى لندن.

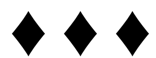
شرحت لي سامينا تعاليم القرآن المتعلقة بتحري التواضع والبساطة في اللباس. وكان معنى تلك التعاليم يتغير بحسب البيئة والثقافة التي يوجد فيها المسلم. فقي الغرب، قد يعني اللباس المتواضع ارتداء سروال من

الجينز وقميص طويل، أما بالنسبة إلى نساء باكستان، فإنه يعني ارتداء (الشالوار قميص) أو حتى البرقع. وسألت سامينا عن مسألة إرغام الفتيات على الزواج، فاعترفت بأنه أمر دارج في المجتمعات الإسلامية، لكنها أكدت أنه ليس من الإسلام في شيء. وأخبرتني كذلك بأهمية عذرية الفتاة، وأوضحت لي أن الثقافة الباكستانية تولي أهمية خاصة لأن تكون المرأة عذراء عند إقبالها على الزواج، لدرجة أن بعض الفتيات اللواتي تجرّ أن على كسر هذه القاعدة، يقصدن أطباء مختصين لإجراء جراحة ترقيع غشاء البكارة، حتى يثبتن لأزواجهن أنهن عذارى ليلة الزفاف. واستغربت جدًّا لإمكانية إجراء هذا النوع من عمليات التجميل.

وإلى جانب هذه العينة من النساء قابلت نساءً أبعدَ ما يَكُنَّ عن قوة الشخصية والاستقلالية مع أنهن لسن ممن يعانين الفقر. حيث حضرنا حفلة شاي، والتقينا أحد معارف عِمران، فلاحظت أن عيني زوجته كانتا خاليتين من أي تعبير، ولم تشارك في الحديث مطلقًا. ولم يبدُ عليها أنها كانت تبالي بما كان يدور حولها، وبدت مكتئبة بعض الشيء. وقد تجاهلها زوجها طوال الوقت. وفي واقع الأمر، لم نكن في أثناء سفري مع عِمران نقابل نساءً بتاتًا، لأنهن لا يختلطن بالرجال. وحين كنا نقابل بعضهن، لم نكن نستطيع التحدث إليهن؛ لأنهن كنّ يتكلمن الأردو فقط. ولكن جُلّ من قابلناهم من النخبة المتعلمة كانوا يتقنون الإنجليزية، وكانوا يتصرفون على سجيتهم. وكانت العاصمة إسلام أباد تحتضعن مقر إقامة طبقة الدبلو ماسيين والمسؤولين الحكوميين، ما منح المدينة نكهة دوليةً بعض الشيء. وفي المقابل، كانت كراتشي مركزًا تجاريًّا ومدينة .حفلاتٍ بامتياز، في حين كانت لاهور مدينة الثقافة والأناقة في كل تفاصيلها. غير أن حياة الحفلات والترف لم تعد تستهوي عِمران، وكان دائمًا يتجنبها.

عندما كنت أنفرد بإمبساد في لاهور أو سامينا وصديقاتها في إسلام أباد، كثيرًا ما كنّ يتذمرن بمرارة من الرجال الباكستانيين. وكنّ يحدثنني عن أنانية الرجال في باكستان، وكيف يخرجون ويعودون إلى البيت وفقًا لأهوائهم. وقد تعد النساء وجبة العشاء. ويُحضِّرن الطاولة، ويُنَمِّقْنَها بأساليبهن الفنية، وينتظر نهم ساعات طويلة. وحين يعودون إلى البيت في وقت متأخر من الليل، يخبرون زوجاتهم بكل بساطة بأنهم تناولوا العشاء في الخارج. وكن يلقين في ذلك اللوم على أمهات أزواجهم اللواتي ربينهم، ودللنهم من دون وضع قواعد واضحة في التربية. وكن يرين في أسلوب تربيتهن سبب تحول الصبية إلى رجال معجبين برجولتهم، ولا يأبهون إلا بتحقيق رغباتهم الشخصية. وكنت في الوقع قد سمعت الشكوى نفسها من نساء في أوروبا، فقلت في نفسي: إن ذلك من جملة الأمور التي قد يقوم بها الرجال في أي زمان ومكان.

أدركت أن الرجال الأنانيين يوجدون في كل أنحاء العالم، وتعود أنانيتهم إلى عوامل عدة: من ثقافة وتربية، وخلفية دينية، وعدم تمكّن الرجال من تحقيق أحلامهم الشخصية. وفي أحيان كثيرة تتآلف هذه العوامل كلها بشكل معقد، ونصبّ في خانة الأنانية.



وأدمنت تدريجيًّا قراءة الكتب التي كتبت عن الإسلام سواء من كتّاب شرقيين أو أوروبيين. وقد رتب عِمران موعدًا للقاء أحد هؤلاء الكتّاب، إنه جاي إبتن، مؤلف كتاب: (الإسلام وقَدَرُ الإنسان). ويُعدّ ذلك الكتاب من أهم الكتب التي أُلفت عن الإسلام باللغة الإنجليزية، وقد استمتعنا أنا وعِمران كثيرًا بالتعمق في قراءته. حيث قدم الكتاب دراسة مستفيضة للدين، بداية من أصول الإسلام في تاريخ الشرق والغرب، قبل أن يتطرق

إلى جوانبه السياسية والثقافية والروحية.

وكان فضولي كبيرًا لاكتشاف محتويات الكتاب، غير أنه لم يكن لديّ أي تصور لما قد يقدمه هذا المفكر. ذلك أن هذا العمل كان من طينة الكتب الرصينة التي تتطلب الحضور الفكري، والتركيز الجيد لاستيعابها. ذهبنا للقائه على وجبة الغداء في يوم صيفي مشمس. وارتديت لتلك المناسبة قميصًا أبيض وتنورة طويلة. وكان جاي إيتن في انتظارنا في المطعم حين وصلنا، ووقف للسلام علينا. كان طويل القامة وأنيقًا، ويراعي قواعد اللياقة. وكان يرتدي بذلة رمادية اللون وربطة عنق، ويحمل منديلًا داخل جيب بذلته العلوي، ويدخن السيجارة باستخدام حامل سيجارة من الطراز القديم. لقد كان إيتن يتمتع بحضور مميز، وحين أخبرنا ممازحًا بأنه تلقى دروسًا في التمثيل، لم أستغرب الأمر بتاتًا. لقد حظي جاي إيتن بحياة حافلة تعلم وخبر فيها الكثير. حيث ولد في سويسرا، والتحق بوزارة الخارجية البريطانية فور تخرجه في جامعة كامبريدج، وعمل في جامايكا ومصر والهند. وبعد تقاعده، عمل في المركز الثقافي التابع لمسجد لندن المركزي بساحة (ريجنتس بارك)، حيث كان يرشد المسلمين الذين كانوا يطلبون مشورته، ويحرر دورية إسلامية تدعى (إسلاميك كوارترلي)، وينقل خطب الجمعة إلى اللغة الإنجليزية. وعادة ما كان يضيف إليها لمسة بجعلها أجمل وأقرب إلى متلقيها. وقد اعترف لي لاحقًا بنظرة فيها مكر واضح، قائلًا: «أحشرفي الخطبة أحيانًا أمورًا لا يستطيع أولئك الذين ولدوا في كنف الإسلام قولها». وأضاف: «يعدّونني في المسجد متمردًا، لكنهم يدركون تمامًا أنهم لا يستطيعون التخلص مني». فضحكنا جميعًا لهذه الكلمات، ولم يكن من الصعب تخيل ذلك. وكان جاي يتمتع بحس دعابة راقٍ يميز الرجل النبيل من الطبقة الإنجليزية الراقية. وعلى الرغم من أنه كان قد جاوز السبعين حين التقيناه أول مرة، فإن روحه كانت تنبض

بالشباب والحيوية. وتحدث إليّ عن المسجد، فقال: «يؤثر السعوديون في هذا المسجد، وهم يتبعون إسلامًا يؤثر التشدد، ويتنافى مع تعاليم التصوف، وهو العلم الذي يهتم بالبعد الروحي لهذا الدين. وأنا المتصوف الذي يمثل حالة النشاز في المسجد، لكن أصبح من المستحيل إبعادي عنه. وما من شخص يقصد المسجد للسؤال عن التصوف إلا ويرسلونه إلى مكتبي».

أُعجبت بجاي من أول لقاء به، وسرعان ما تخطيت خجلي وأنا أتحدث إليه. وأخبره عِمران برحلته الخاصة في إعادة اكتشاف الإسلام بعد أن توفيت والدته، وسأله عن قصة اعتناقه الإسلام، أجاب إيتن: «كنت مهتمًّا بالفلسفة، ودرست أعمال كبار الفلاسفة على أمل أن أجد الإرشاد والحكمة اللذين من شأنهما أن يجيبا عن الأسئلة التي كانت تحتاج إليها حياتي. لكني وجدت أن ما كتبه أولئك المفكرون لا تعدو أن تكون أفكارهم الشخصية وفلسفاتهم الذاتية؛ لذا، لم تساعدني آراؤهم في يحثي عن الحقيقة المجردة والكاملة. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن تلك الفلسفات لم تمدني بنصائح عملية وملموسة أستطيع اتباعها في حياتي اليومية. في ذلك الوقت، بدأت قراءة الكتب المقدسة، وفي نهاية المطاف، توصلت إلى الأجوبة التي كنت أبحث عنها في الإسلام».

فسألته آنذاك: «حين اعتنقت الإسلام، ما الذي تعير في حياتك؟».

ضحك، وقال: «في بداية الأمر،لم يتغير أي شيء. اعتنقت الإسلام في مصر سنة 1951م في القاهرة على يد شيخ قابلته هناك، اسمه مارتن لينجز، قبل أن أعود مجددًا إلى جاميكا الحبيبة، حيث لم أكن أعرف أي مسلم. وكان عمري حينها ثلاثين سنة، ولم أكن مسلمًا جيدًا على أي حال. لكن بذرة الإيمان كانت قد وجدت في قلبي تربة صالحة لأن تنمو فيها».

استأثرت قصته بكل اهتمامي. كان سبق لجاي إيتن أن عمل صحفيًّا في الماضي، وكان يتمتع بالقدرة على شرح أفكارٍ معقدةٍ بأسلوب سهل ومقتضب، ويمتع من يستمع إليه. فأحسست أن بإمكاني الوثوق به، واعترفت له أني على الرغم من انبهاري الكبير بالإسلام، فإني ما زلت أتساءل عن قدرتي على الإلمام بكنه هذا الدين. وأخبرته بأن ما كان يقض مضجعي هوخوفي من ألا أتمكن من الالتزامٍ بقواعد الإسلام. استمع إلي بكل انتباه، ثم قال لي مبتسمًا: «ما من أحد يصير مسلمًا صالحًا بين عشية وضحاها». وأخبرني بأن التبحر في عمق تعاليم الإسلام عملية تستنفد من المرء عمره كله. وأضاف: «إن ما يهم فعلًا، هو أن يتفكر المرء كل يوم في سلوكه من جديد، وأن يسأل نفسه: كيف يمكن له أن يصير شخصًا صالحًا؟ لقد نزل القرآن على النبي محمد صل الله عليه وسلم على مدى ثلاثٍ وعشرين سنة، حتى يتسنى للأشخاص الذين كانوا يلازمونه الوقت الكافي ليتعودوا على الأوامر الإلهية. ولم يسأل الله الناس أن يطبقوا كل ما أمرهم به دفعة واحدة».

لقد أنزلت كلمات إيتن الطمأنينة في قلبي، وشجعني على أن أنظر إلى الإسلام على أنه امتداد للمسيحية وليس نقيضًا لها. وكان هو نفسه يدين بالمسيحية في الأصل «على الرغم من أنه لم يشعر بالانجذاب إليها بصفتها ديانة»، بحسب قوله. وأوضح لي قائلًا: « إن الإسلام لا يلغي المسيحية، بل على العكس من ذلك، فإن كثيرًا من قيمها الأساسية يدعوالإسلام إليها كذلك، مثل الإيمان بالله، وفعل الخيرات، والرفق بالآخرين». وكان يعتقد أنه، «نظرًا إلى أن الإسلام هو آخر الديانات؛ فإنه يلخص الرسالات السماوية التي سبقته ويتممها. وأنه من السهل على الناس فهم التعاليم التي جاء بها».

بعد هذه المحادثة، أدركت أن الإسلام ليس مجرد تمرين فكري، بل هو أسلوب في الحياة، وطريق إلى الله. وشعرت برغبة متنامية في أن أطبق هذه الأفكار بالملموس كيفما أمكنني ذلك. فحاولت في البداية أن أضيف بعض المعنى إلى عملي بصفتي مقدمة برامج، وشرعت في تقديم بعض أعمال نصرت فاتح علي خان في برنامجي على شاشة إم تي ڤي. وخلال برنامجي الألماني، كنت أحيانًا أتكلم عن قضايا بيئية، وأجعل لها حيزًا بين مواد قضايا الشباب، وقد اقترحت على مشاهدِيَّ أن يفكروا في زيارة جداتهم. فلمست تجاوبًا واسعًا فيما يخص قضايا البيئة، حيث أصبح الجميع يتحدث عنها. ولم أكن واثقة من أن فكرة زيارة الجدات لاقت التجاوب نفسه.

مرّ وقت على ذلك، وذهبت أنا وعِمران إلى الكاريبي لمتابعة بطولة (كريكت) في جزر الهند الغربية، إذ كانت تلك تجربة رائعة. وكان عِمران يعلق على المباريات حيثما أجريت، سواء في جامايكا، أو سانت فنسينت، أو غويانا. وكان ذلك وقت عطلة واحتفالات في أرجاء المنطقة كلها. وقد توافد بعض السكان المحليين، وهم يرتدون قبعات كبيرة وملابس من العينة التي يرتديها عشاق موسيقا (الفانك)، ويحملون أجهزة تشغيل شرائط كا سيت ضخمة، أو يستمتعون بالتنزه في كل مكان، حيث كان مشهدًا لافتًا تشارك فيه الجزيرة كلها. وكان كل من استعصى عليه إيجاد مقعد يتسلق الأشجار، ويتابع المباريات من قممها. وقد ارتكبنا أنا عِمران في ترينيداد خطأً فادحًا، حين أخذنا حمام شمس من دون وضع مرهم يقينا من حرارة الشمس الحارقة، لأننا أحسسنا بأن نسمات الريح كانت باردة ولطيفة. فأصبنا بحروق من جراء تعرضنا لأشعة الشمس القوية، وعانينا كثيرًا فيما تبقى من تلك الرحلة. وأصبحنا بعد ذلك نتحرى الجلوس في الظل، ونقرأ الكتب التي كنّا نصحبها معنا عن الإسلام كلما

تيسر لنا ذلك. لكن فجأة، بدأت شائعة تسري بأن بعض اللاعبين الباكستانيين تذمروا من قراءتي القرآن، وأنا أرتدي لباس السباحة. ولم يكن ذلك صحيحًا، ولم أفهم لمَ يتطفلون على شرفتنا، في الوقت الذي يحض القرآن المؤمنين والمؤمنات على أن يغضوا أبصارهم. ومن حسن الحظ أن ذلك السلوك كان الاستثناء الذي يخرق القاعدة، فجُلّ من قابلت من المسلمين كانوا يرحبون باهتمامي بدينهم، وساعدوني كثيرًا.

كنت حينها لا أزال أنا وعِمران نخطط للزواج، وخلال رحلتنا اللاحقة إلى باكستان، بدأنا نحلم بالعيش في مزرعة تعج بالحيوانات في (سكاردو)، وهي منطقة جبلية رائعة الجمال، تتميز بهوائها النقي، وتقع بالقرب من كشمير، شمال البلاد. حيث كان منظر أزهار الكرز الوردية، وهي تتفتح فوق جبال تكسوها الثلوج تحت سماء صافية، يحبس الأنفاس. وكنا نتمشى ساعات خلال ممرات النهر الذي جفّ منذ زمن في سفوح الجبال، حيث جمعت أجمل تشكيلة من الأحجار والحفريات رأيتها في حياتي. كان بعضها أخضر برّاقًا، وبعضها فضيًّا لامعًا، وبعضها الآخرقطعًا من الكريستال الشفاف، إلى جانب محار تحوّل إلى أحجار. فأسرتني جميعها، لدرجة أننا، على الرغم من تذمر عِمران وانزعاجه من ذلك، صحِبْنا معنا حقيبتين كبيرتين مليئتين بتلك الأحجار إلى لاهور، حيث زينت (حمام الجاكوزي) الخاص به بتلك التشكيلة الخاصة من القطع الفنية.

لكن بعد ذلك مباشرة، تسارعت وتيرة التحضيرات لافتتاح المستشفى، وكثّف عِمران رحلاته حول العالم ليجمع التبرعات، فأصبحنا لا يرى بعضنا بعضًا إلا لمامًا. وكان عليه أن يقف على إنجاز أمورعدة في باكستان، ويتنقل بين مناطقها؛ ليحشد الدعم لإنجاح مشروعه. وترك لي مهمة إصلاح الأضرار التي لحقت بشقته في لندن من جراء الحريق. فكانت تلك

مسؤولية كبيرة بالنسبة إلي، وأعانني على إتمامها فريق من المهندسين، إضافة إلى صديقتي لين، التي كانت تعمل مصممة ديكور داخلي. وأصرّ عِمران على أنه كان يعاني ضغطًا كثيرًا بسبب الإعداد لافتتاح المستشفى، وكان عليّ أن أتحمل ذلك بصبر. كنت معجبة بالجهد الكبير الذي كان يبذله من أجل مشروعه، وكنت على استعداد لدعمه، وبذل كل ما يقتضيه ذلك من تضحيات. ولكن حين زرت باكستان في سبتمبر من سنة 1994م، أحسست للمرة الأولى بأن أمرًا ما ليس على ما يرام. وظل عِمران خلال رحلة إلى بحيرة راما ساكتًا على غير عادته. وحين سألته عما يجول في خاطره، كان كلامه عبارة عن تلميحات مبهمة لم أفهم مغزاها، ولم يستعتفض في شرحها. وفجأة اختفى بضع ساعات، ولم أدرِ كيف أفسر ذلك الغياب.

ذهبت مباشرة بعد هذه الرحلة إلى بوسطن لإجراء حوار مع (الرولينج ستونز) و(ليني كرافيتز)، وكانت تلك من أهم محطات مسيرتي المهنية. كان أداء (كرافيتز) تمهيدًا لعرض (رولينج ستونز)، وكنت قد قدمته قبل تلك الليلة في مناسبات عدة، فتحدثت إليه قليلًا قبل إجراء المقابلة معه، وكان أعضاء (ستونز) ممتعين أيضًا. التقطنا بعض الصور مع بعض الفائزين في مسابقة كانت مبرمجة آنذاك، وساعدتني فرقة (رولينج ستونز) كثيرًا ليلتها. ودعاني ميك لتناول العشاء معه بعد الحفل الموسيقي. فراقتني الدعوة، غير أني كنت بصحبة فريق عمل كامل، لذا، استأذنته في أن أُحضِرَ معي منتجة برنامجي. فنظر إليها، ووافق على الرغم من مظهر المرأة المتسلطة المخيفة التي كانت تبدوعليه بارتدائها سروالًا أسود ضيقًا، وسلاسل فضية، وشعرها المصبوغ باللون البلاتيني الأشقر. لكن حين أخبرت المنتجة بدعوة ميك، رفضتها بكل بساطة، وأصرّت على ألا أذهب أنا أيضًا، قائلة إننا مرتبطون بموعد عشاء آخر في مطعم صيني مع فريق التصوير.

لم أفهم تصرفها ذاك، وحاولت أن أقنعها بأن مثل هذه الفرصة لا تتكرر كثيرًا في العمر. غير أنها أصرّت على رأيها، فاقترحت أن نخرج لتناول مشروب ما بعد العشاء. وفي نهاية المطاف، وصلنا إلى باب غرفة ميك في الفندق، منتصف الليل. كان متعبًا حين فتح لنا الباب، لكنه دعانا إلى الدخول بلطف، وأشار إلى طاولة العشاء، قائلًا: «انتظر تكما طوال المساء، وتناولت العشاء وحدي في آخر المطاف». فكرت عندها في أنه ربما ليست تلك أول مرة تتخلف فيها فتاة عن موعد ميك. قدم لنا كأسًا من المشروب، وتحدثنا قليلًا. سألني عن عِمران، فأخبرته بأني عدت توًّا من باكستان، وأن عِمران حدثني عن الزواج طوال عامين كاملين، لكنه يفضل ألا نقدم على ذلك حتى يفتتح المستشفى الذي يبنيه في بلده. حذرني ليلتها ميك من الإقدام على تلك الخطوة، وقال إن عليّ أن أفكر بجد في أن حياتي ستكون صعبة إن عشت في باكستان، ولا سيما بعقليتي الأوروبية.

أجبته بقولي: «لقد نلت قسطي من المتعة، فَلِمَ لا أجرب 'شيئًا مختلفًا». من الواضح أنه لم يقتنع بكلامي، وقال: «زيارة بلد كهذا يختلف عن العيش فيه». ثم اتخد صوته نبرة أكثر جِدًّا، وسألني: «هل تعرفين شيئًا عن سمعة عِمران؟». لا شك في أني كنت أعرف كثيرًا عن سمعة عِمران، لكني كنت متأكدة من صدق نيته في الزواج بي. ولما أخبرت ميك بذلك، نظر إليّ نظرة فيها معانٍ كثيرة.

كانت كلمات ميك اختبارًا لمدى واقعية ما كنت أعيشه من أحلام وطموحات. وعندما فكرت في اليوم اللاحق فيما قاله لي، أحسست بأني أهوي ببطء من السماء السابعة. فخرجت أتجول في ذلك اليوم بين المحالّ التجارية في شوارع بوسطن، لكني شعرت، وأنا في محل لبيع ملابس ومعدات التزلج، بالغثيان بسبب ما أكلته في الليلة السابقة، فغادرته

مسرعة.

كانت تلك السنة الأولى التي لم أقضِ فيها ليلة رأس السنة مع عِمران. ولم يحتفل هوأيضًا به؛ لأنه كان في باكستان حيث لا يحتفلون به. ذهبت إلى ساحل بحر البلطيق مع صديقتي نورا وابنها الصغيروبعض أصدقائها. وانتابني شعور كبير بالوحدة. كنت أذهب مع نورا للمشي على الشاطئ، في حين كانت تدفع عربة ابنها في وجه الرياح القوية. وساعدني الحديث إليها كثيرًا، لكن الجوكان شديد البرودة ومعتمًا، ولم أتمكن من أن أمنع نفسي من الاشتياق إلى شمس باكستان الدافئة. في ليلة رأس السنة, اعدّت لنا إحدى صديقات نورا وجبة شهية, وتناول الحاضرون جميعهم شرابهم، ودخنوا. لم أرد أن أكون هناك، وشعرت بتعاسة كبيرة. وقد تمكنت من الاتصال بعِمران مرة واحدة عبر الهاتف, قال لي خلالها كم هومشغول في حملة جمع التبرعات.

حلت سنة 1995م في هذه الأجواء, وكانت بداية غير موفقة لأصعب سنوات حياتي وأهمها. اتصل بي عِمران في فصل الربيع ليخبرني من دون مقدمات بأن أحد مستشاريه الروحيين قال له إن علاقتنا لا يمكن أن تستمر. شعرت كأن الأرض تهتز تحت قدميّ. لم أكن قد رأيت عِمران طوال شهور عدة، وكنت في ذلك الوقت أشرف على أعمال تجديد الشقة كلها، وما زلت أقيم في غرفة الضيوف عند ستيف. لقد شعرت بالصدمة والارتباك، علاوة على الألم الفظيع، وصارت مشاعري تتأرجح بين الأمل واليأس. كنت في لحظة ما أشتاق إليه، وأشعر بالضياع التام، وفي اللحظة التي تليها أرى بصيصًا من الأمل يبعثني على التفاؤل. عانيت بعد ذلك من ضغط كبير أثر على صحتي. كما أُصبت بطفح جلدي، وفقدان الشهية، وصارت معدتي ترفض أي طعام آكله؛ ونصحني أحد الأصدقاء بأن أزور

طبيبةً في شارع هارلي، وسط لندن.

كان سقف العيادة عاليًا، وبه نقوش تنم عن ذوق رفيع، وكانت رفوف العيادة تحمل كتبًا زُينت بزخارف شرقية. فأحسست كأني في منزل وليس في عيادة طبية، وشعرت فور دخولها بهدوء كبير. ولاحظت وجود كثير من المشغولات([(1)] من الشرق الأوسط، كان من بينها زجاجات عطور عربية، ولوحات كُتبت بالخط العربي. وحين قابلت الطبيبة، أثنيتُ على جمال العيادة، فأخبرتني بأن تلك التحف الجميلة كانت هدايا تلقتها من مرضاها من العرب. وكم تفاجأت حين علمت أن الدكتورة أن كوكسن اعتنقت دين الإسلام. كانت كوكسن ذات شعر أشقر وعينين زرقاوين، وكانت لطيفة وودودة جدًّا. وكانت تمثل الجمال الإجليزي بحذافيره. اسعتفاضَت في الحديث إليّ، وخَلُصَت إلى أن السبب الرئيس للأعراض التي أُصبت بها كان نفسيًّا. وعندما أخبرتها بالمستشار الروحي لعِمران، نصحتني بأن أتحدث أنا أيضًا إلى مستشار روحي. واقترحت أن تصحبني إلى المسجد كي تعرفني على الشيخ ناظم، معلمها الصوفي. لم أرَ في الأمر من سوء، فذهبت.

كان المسجد يقع في بناية اتُّخذت دارًا للعبادة بشارع سانت آن في توتنهام، وهي مقاطعة تقع شمال لندن، وتقطنها أعداد كبيرة من الجالية التركية. وكان المسجد يسمى بالدير، ولم يكن شكله الخارجي يوحي أنه مكان عبادة للمسلمين. وكانت تعلو المبنى بدلًا من المئذنة، سقوف قرميدية على هيئة الجمالونات [(1)] التي تميز البيوت الأوروبية، وله مداخل عدة. دخلنا غرفة كبيرة تعج بالناس، وكان يبدو أن أغلبهم من تركيا. لكن كان من بينهم كذلك باكستانيون وعرب ومسلمون أوروبيون. وكان بينهم أطفال كذلك، وكثير من النساء اللواتي كن يرتدين غطاء الرأس.

وكانوا يتحلقون حول رجلٍ ينحني على عصاه، ويرتدي لباسًا رماديًّا طويلًا وعمامة خضراء. وكانت عيناه كبيرتين لونهما بين الأزرق والأخضر، وتبتسمان برفق، فيما تنساب لحيته رمادية وطويلة بعض الشيء، إنه الشيخ ناظم. عرفت لاحقًا أن لكل مجموعة صوفية شيخًا يقوم بدور المعلم والمرشد والمستشار الروحي لأعضاء تلك المجموعة. ومن لطف الشيخ ناظم، أنه خصص لنا أنا والدكتورة كوكسن مقابلة على انفراد. استمع الشيخ لمشكلاتي، ونصحني بالصبر، وأن أتوجه إلى الله بالصلاة. واقترح عليّ أيضًا أن أحضر إحدى محاضراته حين يسمح وقتي بذلك. وعلى الرغم من أني لم أكن متأكدة من أني قد أعاود الذهاب إلى ذلك المكان مرة أخرى، فإني شعرت بأن زيارتي تلك كانت خطوة مهمة جدًّا. لقد دخلت يومها أول مرة مكانًا إسلاميًّا وحدي، ومن دون عِمران.

لم أكن حتى تلك اللحظة، قد صرحت يومًا باهتمامي بالإسلام، ولم أتحدث عنه أبدًا إلى وسائل الإعلام. وفي شهر مارس، قدمت الحلقة رقم من برنامج (برافوتي في) في هامبورج. كان حدثًا مهمًّا واكبته وسائل الإعلام باهتمام كبير. وأُجرِيَ معي بتلك المناسبة كثير من اللقاءات الصحفية. وقد أعدّ صحفي يعمل لدى صحيفة (بيلد)، التي تعادل في ألمانيا أهمية صحيفة (الصن) البريطانية وانتشارها، إعدادًا جيدًا لإجراء لقاء معي، وسألني مباشرة عما إذا كنت قد اعتنقت الإسلام من أجل صديقي المسلم. فأجبته بأني لم أعتنق الإسلام، ولكني على الرغم من ذلك كنت في الواقع مسلمة في الصميم. ودارت الأسئله كلها التي أعقبت ذلك عن علاقتي بعِمران، وهو أمر لم يسبق لي أن تحدثت عنه من قبل. وعلى الرغم من أني تحريت التحفظ في إجاباتي، فإن الصحيفة نشرت اللقاء في اليوم اللاحق تحت عنوان: «كريستيان باكر: هل تكون سيدة باكستان الأولى القادمة؟».

كان ما كُتِب في الصحيفة أبعدَ ما يكون عن الحقيقة. وبعد أسبوع من ذلك، اتصل بي عِمران من باكستان ليتهمني بأني خنته مع رجل آخر، وينهي علاقته بي. قال لي إني شُوهِدت وأنا أغادر منزل رجلٍ ما في ساعات الصباح الأولى. كانت الفكرة سخيفةً جدًّا، وعارية تمامًا عن الصحة. انهمرت الدموع من عينيَّ، وأنا أحاول إقناعه بأن هناك خطأً ما في الموضوع، وإن كان لا بد من إنهاء علاقتنا، فعلينا أن نجلس كبالغين، ونتحدث في الأمر. بدا وكان الظروف تتآمر علينا، ولم يكن بيدي حيلة في كل ما يحدث. لقد حزنت جدًّا لأن عِمران كان حُبّ حياتي، وكان اتهامه لي بعيدًا كل البعد عن الحقيقة.

توطدت صداقتي في تلك الأثناء بالدكتورة كوكسن، وصِرت أدعوها باسمها الإسلامي، الدكتورة أمينة. حين أخبرتها بما حدث، هزّت رأسها في استغراب، وقالت إن القذف إثم عظيم، وأن الله يقف إلى جوار ضحايا القذف، ولا سيما من النساء. وقالت لي، وهي تواسيني: «لا تقلقي، في كل مرة يرميك أحد بتهمة باطلة، يأتيك النصر من الله»، ثم روت لي هذه القصة:

«كان الرسول يصحب واحدة من زوجاته معه كلما خرج من المدينة المنورة. حيث كنّ يُطَبِّبن الجرحى، ويَحرُسن الخيام. وكانت النساء في تلك الرحلات يركبن الهودج المثبت على ظهر الجمل، حيث يجلسن مستترات خلف الستار الذي يحميهن من لهيب الشمس، ومن أعين المتربصين على حد سواء. ذا صباح، بعد أن ارتاحت الجِمال، زُوِّدت بالزاد اللازم لمواصلة المسير، فتفقدتْ عائشة رضي الله عنها، أصغر نساء الرسول صل الله عليه وسلم، عقدها ولم تجده، فذهبت تبحث عنه. لم يلحظ أحد غيابها، وواصل الركب طريقه. وعندما وجدت عائشة عقدها، واكتشفت أن

القافلة غادرت من دونها، قررت ألا تراوح مكانها حتى يعود من يَلْحَظ غيابها للبحث عنها. ولم يمر وقت طويل حتى قدم شاب يدعى صفوان، كان يسافر وحده خلف القافلة. وعندما عرف من تكون، أناخ لها جمله كي تجلس عليه، وسار هو على قدميه. ولحقا بعد ذلك بالقافلة التي سعد كل من فيها بوصولها سالمة إلى المدينة. غير أن بعضًا ممن رأوها تصل مع صفوان بدؤوا يلون ألسنتهم بكلام غير لائق، ويلمّحون إلى ارتكابها الزنا. لم تعلم عائشة في بداية الأمر بذلك؛ لأنها مرضت، ومكثت في بيت والديها حتى تتعافى. لكنها حزنت حزنًا شديدًا حين سمعت بما تسري به الشائعات. تناهى خبر تلك الأقاويل إلى علم النبي صل الله عليه وسلم فخاطب الناس يطالبهم بإحسان الظن بعائشة وصفوان. لكن كثيرين انتهزوا الفرصة للاستهزاء بالرسول صل الله عليه وسلم وبث الفرقة بين المسلمين، فذهب الرسول صل الله عليه وسلم إلى عائشة التي كانت لا تزال في بيت أهلها، وقال لها: «أمَّا بعدُ يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله، تاب الله عليه». فلما سمعت قوله جفّت دموعها، والتفتت إلى أبيها، وقالت: «أَجِب رسول الله فيما قال»، فقال: «والله ما أدري ما أقول لرسول الله»، ثم التفتت إلى أمّها، فكان جوابها كجواب أبيها. وعندها قالت: «إني والله لقد علمت، لقد سمعتم هذا لحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، لاتصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة، لتصدقني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلًا إلا أبا يوسف، حين قال: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) (سورة يوسف: الآية 18).

وسرعان ماأوحي للرسول صل الله عليه وسلم، قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ

مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (النور: 11).

لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (النور: 12).

لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ (النور: 13).

وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (النور: 14).

إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (النور: 15).

وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (النور: 16).

يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (النور: 17).

وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

(سورة النور: الآيات 18-11) .

فقالت لها أمها: «قومي إليه»، فقالت: «والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله عزّ وجل».

وعندما أنهت الدكتورة أمينة رواية القصة، شرحت لي كيف أن القرآن يُغَلِّظُ عقوبة النَّيْل من عِرْضِ النساء حتى أن عقوبتها تعدل عقوبة الزنا نفسه. فأحسست براحة أكبر بعد أن علمت أن الله وضع قوانين لحماية النساء وتكريمهن، وأن الحق لا يُعلى عليه. وعلى الرغم من ذلك، فإني عندما ذهبت لزيارة والديَّ في ألمانيا لم أستطع أن أتمالك دموعي عندما

كنّا نتناول العشاء ذات ليلة في أحد المطاعم، فأخبرتهم بالقصة كاملة. كانا يعلمان كم كنت أحب عِمران، وأني كنت مستعدة لأن أفعل أي شيء من أجله. وكان دائمًا يردد أنه إن دخل غمار السياسة، يمكن لأي شيء أن يحدث، وأن الأمر لن يكون هينًا أبدًا. لم يَخطُر ببالي مطلقًا أنه قد يتخلى عني بتلك الطريقة. غير أنه كان درسًا مؤلمًا تعلمت منه ألا أعول على أي إنسانٍ، وأنزله منزلة العبادة، فالله وحده من يستحق أن يُعبد. تفهّم والداي حزني، وفعلا ما بوسعهما لمواساتي. لكنهما في الوقت نفسه تنفّسا الصعداء حين تأكدا أني لن أنتقل إلى العيش في باكستان. وكانت أمي قلقة لدرجة أنها قصدت مركزًا للإرشاد في شؤون الزواج لمحاولة معرفة كل شيء عن الزواج المختلط. وقد طلبت منها موظفة في ذلك المركز أن تخبرها كيف سيؤول هذا الزواج لأنه، بحسب خبرتها، سيكون مصير الزواج المختلط بوجه عام، الفشل على المدى البعيد، وأن المرأة هي التي تعاني في العادة. كان ذلك الرأي ينمّ عن قصر نظر صاحبته. ولم أتوقف عنده كثيرًا. لكن عِمران قال لي: «إن الناس في الثقافة الباكستانية ينظرون إلى الزواج المختلط ببعض الريبة؛ لأنهم يخافون من أنه لن يدوم طويلًا، في حين كانوا يعتقدون أن الأصل هو الزواج التقليدي، وأن مستقبله وقَدَرَهَ الاستمرار والدوام». وكنت أتساءل في مثل تلك اللحظات عما إذا كان هو نفسه يحاول أن يقنع نفسه بتلك المعتقدات.

تحدثنا أنا وعِمران بعد مدة، وتمكّنا من تنقية الأجواء بيننا نوعًا ما. وكان من الضروري بالنسبة إلي أن يتقبل حقيقة أني لم أَقُم بما اعتقد أني قمت به، وأظنه اقتنع في نهاية المطاف بذلك. غير أن علاقتنا كانت قد انتهت، على الرغم من أننا استمررنا في الحديث عبر الهاتف بانتظام. وكنت أعتقد أنه لا يجب أن ينصاع لكل ما يقول له مرشده الروحي، وأن عليه أن يصغي إلى قلبه عوضًا عن الانسياق وراء ما يقول له مرشده ذاك،

لكني لم أكن أملك أن أغير رأيه.

بذلت الدكتورة أمينة وأصدقائي الآخرون ما بوسعهم كي يُهَيِّونوا الأمر عليَّ، وقد تبين لهم أني تمكنت أخيرًا من تجاوز تلك المحنة. وفي كل الأحوال، ما كان عِمران ليقضي كثيرًا من وقته معي، لأن المهمة الأولى التي كرَّس لها حياته، وهي بناء المستشفى وافتتاحه، ومن ثم خوض غمار السياسة، ستظل دومًا على صدارة قائمة أولوياته. وعلى الرغم من أني لم أرَ أيّ مانعٍ في ذلك، لأن إيماني بهمته كان كبيرًا، فإنه كان عليّ أن أتقبل مشيئة الله.



---

(1) أمينة سر.

(1) الصناعات التقليدية.

(1) الأسقف المائلة.

الفصل السابع

اعتناق الإسلام

إن لم يكن لديك
هذا الموت وذاك البعث
فإنك ضيف تعيس
على هذه الأرض المظلمة.

يوهان فولفغانغ فون غوته، (الحنين المبارك)، الديوان الغربي والشرقي

مرت بِي أيامٌ بعد ذلك شعرت فيها بأسًى كبير، لكنها كانت في الوقت نفسه بداية مرحلة جديدة في حياتي. وجدت شقة استأجرتها تقع فوق مطعم في حي تشيلسي. فأحسست بالراحة؛ لأني أعيش في مكان خاصٍّ بي. وبعد مدة، بدأت أتخطي ما ظننته أسوأ ما وقع لي في حياتي، وأستعيد تفاؤلي بأن الأمور ستسير على نحوأفضل. لكن على عكس ذلك، كانت صدمة أخرى في انتظاري.

لما نشرت صحيفة (بيلد) تصريحي بأني «في الواقع مسلمة في الصميم»، تلقفت وسائل إعلام أخرى ذلك التصريح، وصورتني معظمها على أني فقدت رشدي تمامًا. وكتبت إحدى الصحف على صفحاتها: «كريستيانا نصلي خمس مرات في اليوم، في حين يقصد الشباب العصري حفلات موسيقى (الروك)». لم أكن لأكترث لمثل تلك العناوين، غير أن بعض الصحف ذهبت أبعد من ذلك، وادّعت أني أدعم الإرهاب. كان والداي وفريق (برافوتي في) يرسلون لي عبر الفاكس(الناسخ) المقالات التي تنشر عني في ألمانيا أولًا بأول، وكانوا جميعًا ينتقدون حديثي الصريح عن الدين

الذي كان يدين به قلبي. وكم ندمت على هذا التصرح الذي لم أظن أنه سيثير كل هذه الجَلَبَة. ولم أتوقع أن تكون ردة فعل الناس في ألمانيا سلبية إلى هذه الدرجة، وكنت متأكدة أن الوضع كان سيكون مختلفًا مع وسائل الإعلام في إنجلترا، ولا سيما في لندن، حيث يؤمن جميعهم يتقبل الآخر وقبول عقائده. ولم يُكَلِّف أيّ صحفيّ نفسه عَنَا سُؤَالي عن سبب دخولي المزعوم للإسلام، ولا ما كان يعنيه ذلك بالنسبة إلي. وكنت أعاني ضغطًا فظيعًا، وكنت حزينة جدًّا، وأفتقد عِمران والترحاب الذي كان يقابلني به الناس في كل مكان في باكستان. وأكثر من كل ذلك، كنت أفتقد أحاديثنا عن الأمور الروحية وعن الإسلام، على الرغم من أن أصدقائي ومعارفي الذين كنت أستطيع أن أتحدث إليهم، وأتعمق معهم في الدين كانوا كثرًا. لكن الأحاديث معهم كانت في الغالب مُرهِقَةً، وتجنح إلى الجدال أكثر من أن تسمو بفكري وروحي. وكنت دائمًا أضطر إلى مصارعة الأفكار النمطية. وأدركت أن ما كان ينقصني هوالتحدث إلى أناس يشاركونني في الاهتمامات نفسها.

كنت أذهب في عطلة نهاية الأسبوع للتنزه في الريف مع توني جيمس، الذي اعتدت أن أخرج معه في نزهات مشيًا على الأقدام. ولم تكن رفيقته اللطيفة بيني، التي كانت تتمتع بروح مرحة، وتمتلك حسّ أمومة حقًّا،تمانع في ذلك. ورغم أنها كانت صديقتي كذلك، فإنها لم تكن من هواة المشي. وكان توني مرهف السمع، ويهتم بالمسائل الروحية. وعلى غرار بيني، قال لي إنه من الواضح أن عِمران لا يستحقني. تحدثت في تلك المرحلة إلى كل أصدقائي، وساعدني ذلك على أن أخفف من الوزر الذي كنت أحمله بداخلي. وكلما أردت أن أحتمي من العالم كله، أو أن أكون بصحبة مسلمين، كنت أذهب إلى المسجد الذي أخذتني إليه الدكتورة أمينة. وكان الشيخ ناظم وأتباعه ينتمون إلى الطريقة النقشبندية، وهي

من أهم الطرق الصوفية التي نشأت في آسيا الوسطى، وانتشرت في كل من روسيا وتركيا والبلقان. وتعني الطريقة الكيفية أو السبيل. وبالمعنى الروحي، تطلق على مجموعة الناس الذين يسلكون طريقهم إلى الله.

وفي البداية، كنت أسعى إلى رفقة المتصوفين، لأنهم رحبوابي، وقبلوني بينهم، وأحسست معهم بالأمان. لم يكونوا على علم بما وقع لي، وكانوا يعاملونني بلطف صادق. ولم أكن في حاجة إلى أن أقول شيئًا، ولم أحتج إلى أي تبريرات. وكان بإمكاني أن أكون أنا، على سجيتي، وقد عاد ذلك عليّ بفوائد كثيرة.

تعددت مشارب أتباع هذه الطريقة، فكان من بينهم الطبيب والسياسي وأرستقراطيون بريطانيون وأمير فارسي، بل وحتى ملك كان يحكم اليمن في الماضي، إضافة إلى كثير من الناس البسطاء وبعض الأشخاص الذين كانوا غريبي الأطوار بشكل من الأشكال. وكانت النساء اللواتي قابلتهن هناك مهذبات، ولا يترددن في تقديم المساعدة لي، وقد دَوَّنَّ لي بعض الأدعية، ورحّبْن بي بينهن. وعادةً ما كان يتأخر الشيخ في الوصول، وكنّا نجلس قبل بداية الدرس وأحيانًا بعده، في حلقات، ونتحدث إلى بعضنا بعضًا. وكنت أحياناً أتحدث عن مشكلاتي، فتواسينني النسوة الحاضرات، وينصحنني بأن أتوكل على الله، وأن أثق بأنه هو وحده النافع، وأن أثق بأن كل ما يحدث إنما يحدث بمشيئة الله العظيم والرحيم. وقالت لي إحداهن: «إننا في دين الإسلام، نعتقد أننا حين نصاب بمكروه من مرض أو مصيبة ما، أو نتعرض للأذى، فإن ذلك لحكمة لا يمكننا إدراكها في حينها. إن للتوكل قيمة عظيمة في مثل هذه المواقف؛ فمن خلال المعاناة، ييسر الله لنا التكفيرعن ذنوبنا. إنها فرصة لتطهير أنفسنا، ويختبر فيها الله سبحانه وتعالى قوة إيماننا وحسن خلقنا». واقترحت عليّ

سعيدة أخرى أن أنظر إلى الجانب الإيجابي من المسألة؛ لأن: «الألم يقربنا من الله، والوصول إلى الله هو هدفنا في هذه الحياة». ثم استشهدت بالرومي الذي قال: «إن الألم هو ما يقرب العبد من ربه؛ لأنه لا يذكر الله ما دام على خير». وحاولت أن أنظر إلى الجانب الإيجابي، وأركز على أن هناك طريقة أرقى للنظر إلى ما كنت أَمُرُّ به من معاناة، وقد ساعدني ذلك كثيرًا. غير أن قلبي استغرق وقتًا أطول بكثير كي يستوعب تلك المفاهيم التي تقبلها عقلي بكل سهولة. وقد علمت أن الرومي يُشَبِّهُ الألم بالماء المغلي الذي تؤضع فيه حبات الحمص حتى تصير لينة وشهية. مكتبة الرمحي أحمد

كان أتباع الشيخ ناظم يدعونني إلى تناول وجبات أعدّوها بأنفسهم، وكانت في الأغلب أطباق كاري. وكنت أحب الجو الذي يواكب تلك التجمعات؛ لأنها كانت تذكّرني بباكستان. وكنت أراقبهم باهتمام كبير وهم يصلون، وأنضم إليهم حين يجلسون على الأرض في حلقات ليذكروا الله، ويرددوا أسماءه، ويصلوا على النبي. كانت هذه الطقوس التعبدية التي تشبه الإنشاد من بين أهم سمات تعبّد الصوفية، وتُسمى ذكر الله. وكنت أستمتع بجلسات الذكر تلك، وأحب أن أجلس، وأتحدث بعض الوقت بعد أن تنتهي.

كانت الدكتورة أمينة لطيفة جدًّا معي، وتوليني عناية خاصة. وذا مساء، ذهبنا للعشاء في مطعم فارسي أنيق، يقع في منطقة نوتينغ هيل بلندن. وأصبح ذلك المطعم بعدها المكان الذي نفضل الذهاب إليه كلما احتجنا إلى أن نتحدث بهدوء. وسألتها كيف وجدت طريقها إلى الإسلام، فقالت: «كنت مسيحية كاثوليكية، أدرس في مدرسة الراهبات. غير أني أحسست بأن شيئًا ما كان ينقصني، واظبت على الصلاة لله كي يرشدني.

وذهبت في إطار عملي إلى الشرق الأوسط، حيث كنت من بين فريق طبي كان يشرف على علاج والدة سلطانِ عُمان. في أحد الأيام، كانت الملكة مريضة جدًّا، وخالفت النصائح كلها بضرورة التزام الراحة، وواصلت كالمعتاد اتباع جدول يومها الذي ينضمن كثيرًا من المواعيد التي تمتد طوال اليوم بلا انقطاع.

وفي نهاية ذلك اليوم، تمددت الملكة من فرط الإعياء، فسَأَلتُها: «إنك تجزلين العطاء لكل من يَفِد عليكِ، فمن ذا الذي يعطيك أنتِ؟». فاعتدلت الملكة في جلستها بعناءٍ كبيرٍ، ورفعت سبابتها اليمنى مشيرة بها إلى السماء، وقالت بصوت ملأته طاقة كبيرة، وكأنها غضبت لسخافة سؤالي: (الله). فشعرت بدهشة كبيرة. فكرت أنه مَهْمَا كان مصدر القوة التي كانت تستمدها هذه المُسنّة المريضة، كنت أريدُ أن أحصل على ذلك المصدر أنا أيضًا». وسألتها: «أهكذا اعتنقتِ الإسلام في عُمان؟».

أجابت الدكتورة أمينة: «كلا، لقد استغرق الأمر وقتًا أطول من ذلك»، وتابعت: «بعد ذلك بوقت قصير، ذهبت في رحلة على متن قارب خلال إجازة في جنوب فرنسا، ورأيت في منامي أني عدت بسيارتي إلى لندن، ورأيت ألسنة اللهب تلتهم شقتي. ثم دارت السيارة بخمس عشرة درجة إلى يسار شارعٍ يوجد في الحقيقة، هو شارع كينجستون بارك. لم تكن أي سيارة أخرى على ذلك الشارع الذي قادني مباشرة وسط لندن، فعبر بي النهر والغابات، ثم قطع بي الصحراء في خط مستقيم إلى الأفق، حيث كان النور يتوهج بكل وضوح. وانبثق شيئًا فشيئًا في ذلك الأفق نورٌ ساطع، برز منه اسم الله مكتوبًا بحروف عربية. حين استفقت من ذلك الحلم، عرفت يقينًا أن تلك الرؤيا هي أمر صريح لي باعتناق الإسلام». وحَكَت لي أنه بعد مرور وقت طويل على ذلك، كانت في شقتها تبحث عن اتجاه القبلة،

فوجدت أن مكة تقع عند خمس عشرة درجة على يسار شارع كينجستون بارك.

كانت تلك القصة مذهلة، وعلى الرغم من أن الدكتورة أمينة كانت سيدة مثقفة ومتعلمة، غير أن اعتناقها الإسلام كان، كما تصفه هي بنفسها، فتحًا من الله سبحانه وتعالى، وقالت: «لم أدرك معنى الإسلام بعقلي حتى مرور وقت طويل جدًّا على ذلك».

لم يمضِ وقت طويل حتى تعرفت إلى امرأة أخرى من أتباع الطريقة النقشبندية، وأصبحنا صديقتين مقربتين. كانت سويدية اسمها زيرو، وتتحدث الألمانية بكل طلاقة. وكانت من أخلص أتباع شيخ الطريقة، وكانت تكبرني بعشر سنوات تقريبًا، وكانت عيناها خضراوين وواسعتين، وترتدي دائمًا ملابس بنفسجية اللون. وبينما كان الشيخ مشغولًا في أحد الأيام في لقاء أشخاص على انفراد، جلسنا على الأرض داخل المسجد، وتحدثنا قليلًا. أخبرتني بأنها عاشت في برلين سنوات طويلة، وكانت من بين مؤسسي حزب الخضر الألماني. وكانت صديقة مقربة لرودي دوتشكه، قائد حركة الاحتجاجات الطلابية الألمانية الذي نجا من محاولة اغتيال سنة 1968م، وتوفي بعد أحد عشر عامًا من جراء متاعب صحية خلفتها له محاولة الاغتيال تلك. كانت زيرو آخر من تحدث إلية، وأحزنتها وفاته كثيرًا. وحين علمت بنبإ وفاة دوتشكه كانت في مصر. ولما رآها بعض أصدقائها تبكي وأخبرتهم بفجيعتها، واسوها وقالوا لها إنهم يؤمنون في ثقافتهم أن المتوفى أصبح مع الله، وذلك ما يشعرهم بالفرحة والامتنان. تأثرت زيرو لفكرة وجود دينٍ هو في الحقيقة أقوى من الموت، وأرادت أن تعرف المزيد عن هذا الدين. أخبرتها من جهتي بأني وقفت على مثل تلك الفكرة في باكستان، وقلت لها: «في باكستان، يُحيِي الناس ذكرى وليّ من

الأولياء في حفل يسمونه العُرس. ويتوافد أحيانًا عشرات آلاف الأشخاص الذين يحجون إلَى الأضرحة ليحتفلوا بذلك اللقاء مع الله. ويدخل الناس في باكستان حالة روحية فريدة يصعب وصفها من تأثرهم بموسيقا وكلمات إنشاد (القواني)، الذي يسموبمن يتذوق هذا الفن، ويدخلهم في أحوال روحانية علية». وأضَفْتُ قائلة: «وَدِدت لو أشهد مثل هذا الحفل يومًا ما. تعجبني فكرة الإيمان بأن الموتى لا يرحلون نهائيًّا، فالناس يستمرون بالدعاء لهم؛ لأن أرواحهم تظل حيّة.»

وافقتني زيرو الرأي، وقالت: «إن للموت معنًى مغايرًا في الإسلام، فهو ليس نهاية، بل حياة أبدية».

قضت زيرووقتًا طويلًا تتبحر في الثقافة العربية، وتتعمق في دراسة الإسلام في مصر وبعض البلدان الإفريقية الأخرى، حيث قرأت أعمالًا مهمة كتبتها قمم علمية، مثل الإمام الغزالي. انتقلت بعد ذلك للعيش طوال ستة أشهر بمركز صوفي مشهور، يقع بالقرب من مدينة هامبورج، لم يسبق لي أن سمعت به من قبل. وقد اعتنقت الإسلام بهذا المركز، ومن ثم تعرفت إلى (طريقة الشيخ ناظم النقشبندية). وقد أهّلها تكوينها في مجال الصحافة لأن تكتب بعض الكتب عنه.

كان الشيخ يذكرنا دائمًا بضرورة أن نُدَاوِمَ على الصلاة بانتظام، ويقول: «الصلاة ستر افقك ليوم القيامة؛ إنها غذاؤك ودرعك الذي يحميك. إنك أقرب ما تكون إلى الله في حالة الصلاة، ومن خلالها يمكنك أن تنمي علاقتك الشخصية معه».

بدأت أعي وقتها أن دراسة الإسلام من خلال الكتب فقط ليست كافية. وعلى الرغم من أنها ساعدتني على فهم معنى هذا الدين بطريقة عقلانية، فإنني كنت كأني واقفة أمام واجهة متجر أرى من خلالها كثيرًا من

الأشياء الجميلة، ولا يسعني إلا أن أنظر إليها، وأعجب بها من بعيد. كان الزجاج، أو ما يسميه المسلمون حجابًا، لا يزال يفصلني عن تلك الأشياء. ولكي يرفع ذلك الحجاب، لم يكن أمامي سوى أن أسجد على سجادة الصلاة، وأبدأ العيش وفقًا لمبادئ الإسلام.

ذهبت مرة في عطلة نهاية الأسبوع لزيارة صديقة لي في مقاطعة كورنوال، وخرجت في نزهات رائعة، تمشيت خلالها على شاطئ البحر، وتنفست ملء رئتي هواء البحر المنعش. وفي المنزل، قضيت أغلب وقتي أقرأكتابًا صغيرًا كنت قد ابتعته، عنوانه: «ما التصوف» لمؤلفه مارتن لينجز. وكان الكاتب نفسه الذي ألّف سيرة الرسول محمد صل الله عليه وسلم التي كنت قد استمتعت بقراءتها مع عِمران من قبل. وكنت في كل مرة أخرج فيها، أتطلع للعودة بشوق إلى المنزل لأواصل القراءة. ويصف هذا المؤلف التصوف بأنه الثمرة الروحية للإسلام، وصورة تقربنا من معنى الجنة في الدنيا. ومن خلال نكر اسم الله، بوسعنا أن نضفي حالة من التطهير الروحي على كل يوم نعيشه، وكل فعل نقوم به. لقد كان هذا الكتاب هو الذي دفعني إلى اتخاذ قراري بأن أعتنق الإسلام.

عرفت حينها يقينًا أن الإسلام كان الطريق التي أردت أن أتبعها، ولا سيما البعد الباطني الروحي الذي يُعنَى به المتصوفون. وما كان عليَّ سوى أن أتوكل على الله، الذي لا يمكن أن يدعني أبدًا وأنا مسؤولة أمامه، وأمامه وحده سبحانه. لقد أصبحت رسالة التوحيد، وأن الله واحد لا شريك له، واضحة لي، ولم يعد يسعني مقاومتها. علمت ساعتها أني كنت متأهبة من أعماق قلبي لخلوة أهم. وقد مدني هذا الإدراك بشعور بالاستقلالية والأمان، وأصبح مصدر قوة عجيبة بالنسبة إلي، ولم يعد بإمكاني أن أنتظر لأمدّ يدي، وأقطف ثمارها. وهناك، في غرفتي بكورنوال،

قمت وصليت لله للمرة الأولى في حياتي.

لكن ما إن عدت إلى لندن، حتى بدأت شكوكي من قدرتي على مسايرة تلك القواعد كلها تساورني من جديد. لكن الدكتورة أمينة وزيرو أكدتا لي بأن الأمر لن يكون صعبًا، وكررتا ما قاله لي جاي إيتن من أن الأمر يحتاج إلى الوقت والصبر والتحمل كي يصير المرء مسلمًا مخلصًا. ولا أحدد ولا حتى الله تعالى. يطلب من أي كان أن يصير ملاكًا بين عشية وضحاها. وقلت في نفسي: إن ذلك أمر جيد؛ لأني أحسست بأن الطريق التي تنتظرني قد تكون طويلة.

ساعدني أصدقائي على التخلص مما تبقى في خاطري من تحفظات عن مكانة المرأة في الإسلام. وكانوا يقولون لي إن المرأة تختلف عن الرجل ولكل منهما خصائص تميزه عن الآخر. لكن معيار القيم الأخلاقية والواجبات الدينية كان ينطبق عليهما معًا، ويتقاسمان المسؤولية نفسها عن الأعمال كلها المنوطة بهما في هذه الدنيا. وقد جاء في الآية 71 من سورة التوبة: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ).

بدا لي ذلك جيدًا جدًّا وكل ما كان عليّ أن أفعله هو أن أقدم على الخطوة الحاسمة. فقد كنت أعلم أني أستطيع مواصلة القراءة وتعلم كل ما أريد تعلمه مع مرور الوقت.

سألت في المسجد عن مراسِم نُطقِ الشهادة وإعلان الإيمان الذي سيدخلني دين الإسلام. فقيل لي إنه قبل صلاة الظهر في يومٍ ما في شهر أبريل يجتمع عدد لا بأس به ممن ينوون اعتناق الإسلام بالشيخ ناظم. وأن بإمكاني أن أحضر وأعاين ذلك بعيني إن أردت ذلك. وإن أحسست بأني مستعدة. يمكنني أن أنضم إليهم. لكن بقي هناك أمر يشغلني، وقررت أن أسأل الشيخ ناظم عنه.

عندما حل الموعد المرتقب. صادف أن ذلك اليوم كان باردًا وغائمًا. ارتديت تنورة طويلة. ولبست بلوزة فضفاضة ومعطفًا فوقهما. وأخذت معي غطاء رأسٍ كما كنت أفعل دائمًا حين أذهب لأي مسجد. لأن النساء كن يغطين رؤوسهن وهنّ فيه. ركنت سيارتي خارج المسجد. ووضعت الغطاء فوق رأسي.

سلمت على الشيخ في غرفة في الطابق العلوي. وسألته كيف يجب أن يكون لباسي كي أرضي الله إن ذهبت في رحلة على شاطئ البحر. فابتسم. وتلا قوله تعالى: (يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) (سورة الأعراف: الآية 26).

لا ينبغي للمرء أن يغفل عن ذكر الله في قلبه وذهنه. وفي أي عمل يقوم به حيثما وجد؛ هذا هوأهم شيء.

إضافة إلى ذلك، أوصاني بأن يكون هندامي بسيطًا؛ لكيلا يجذب لي انتباهًا أنا في غنًى عنه. لكن لا يوجد شكلٌ محددٌ للباسى الذي يجب أن أرتديه، أما انتقاء ملابسي وطريقة لباسي، فهي أمور تعود لي. شكرت الشيخ على وقته ونُصحِهِ لي، وغادرت الغرفة لألتحق بالباقين في الطابق السفلي من المسجد، حيث جلست أفكر فيما قاله لي. يفسر بعض النساء المسلمات اللباس البسيط بألا يذهبن إلى البحر مطلقًا، أو أن يذهين وهن يغطين أجسادهنّ كليًّا. لكن هناك نساء يرتدين لباس السباحة العادي، أو سروالًا قصيرًا للسباحة، ويغطين أنفسهن حين يخرجن من الماء.

كانت تلك المرة الأولى التي وجدتْ فيها آخر أسئلتي العقلانية أجوبتها، وكنت آنذاك مستعدة لدخول الإسلام.

حين وصل الشيخ ناظم، سرنا خلفه إلى قاعة قريبة من المسجد، حيث جلسنا جميعنا على الأرض. قدّرتُ عدد الحاضرين في تلك القاعة بخمسين

شخصًا افترشوا جميعهم الأرض. جلس الرجال في جهة، والنساء في الجهة المقابلة لها. جلس الشيخ أمامنا مباشرة، وأخذ ابن عمه وبعض معاونيه أماكنهم إلى جانبه. استهل الشيخ كلامه لنا بالحديث بوجه عام عما يعنيه اعتناق الإسلام، وأكد على ضرورة أن يشارك المرء في هذا الفعل بقلبه وعقله معًا. منذ تلك اللحظة، بدأت حياة جديدة بالنسبة إلينا، بمعنى أن كل آثام وذنوب الماضي تم غفرانها أو نسيانها، كما قال. لقد شعرت براحة كبيرة لسماع ذلك ولم أحس بأي توتر يذكر. وفي واقع الأمر، أحسست بالطمأنينة، وكنت سعيدة بالإقدام على هذه الخطوة، وأصبحت مسلمة بشكل رسمي، على الرغم من أني كنت مسلمة في قلبي وعقلي حتى قبل ذلك بوقت طويل.

وضع كل منّا يده على كتف الشخص الذي يقف أمامه، وأمسك أقرب شخص إلى الشيخ ناظم بعصا الشيخ التي يتكئ عليها، فكنّا بذلك مرتبطين حسيًّا ببعضعنا بعضًا. وتمتم الشيخ بعض الجمل باللغة العربية التي لم أفهمها، ثم طلب من كل من يريد أن يدخل الإسلام أن يردّد الشهادة، واحدًا تلو الآخر: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.

أطرق الشيخ يفكر بعض الوقت، ثم سمّاني اسمًا جديدًا يرمز إلى هذه البداية الجديدة التي حظيت بها. فاختار لي اسم يُسْرَا، وهو مشتق من كلمة اليُسر، أي السهل. لم تعجبني طريقة نطق هذا الاسم باللغة الإنجليزية, فأعطاني اسم بشرى، أي الخبر السار أو التفاؤل لأمر ما سيحصل. كان نطق هذا الاسم أسوأ، ففضلت أن أحتفظ بالاسم الأول. هنأني جميع الحاضرين، وقالوا لي: «مبروك، أهلًا بِكِ بيننا, حماكِ الله، وبارك طريقكِ».

وهكذا، صرت مسلمةً؛ أي أني لن أحتسي الخمر بعد اليوم، ولن أستطيع

أن آكل النقانق حين أكون في ألمانيا، ولا حتى طبق سباجيتي بلحم الخنزير الذي كنت أحبه كثيرًا. لا بأس في كل ذلك، فقد كنت مستعدة لتقديم التضحيات في سبيل ما هو أكثر أهمية من المأكل والمشرب.

شاركت بعد ذلك في أول صلاة تؤدَّى جماعة، وكانت صلاة الظهر التي تؤدى سرًّا، ولا يقطع سكونها سوى تكبيرات الإمام التي كانت تشير إلى تغيير هيئه الجسم في أثناء الصلاة. وقفت بين النساء في الصفوف الخلفية، وبدأت أقلد حركاتهن من دون أن أقول أي شيء؛ لأني لم أكن أعرف ما عليّ قوله.

شرحت لي الدكتورة أمينة بعد ذلك أن الاسم الذي اختاره الشيخ لي ورد في القرآن في سورة الشرح. كتبت لي طريقة قراءتها بالعربية لكن بحروف إنجليزية؛ كي أتمكن من تعلم طريقة نطقها بالعربية.

alam nashrah laka sadrak * wawadaena eanka wizrak * alladhi 'anqad zahrak * warafaena laka dhikrak * fa'inna mae aleusre yusrana * 'inna mae aleusre yusra fa'iidha faraght .fansab * wa'iilaa rabbik farghab

رغبت في أن أحفظ تلك السورة عن ظهر قلب في أقرب وقت سكن، لكن كان عليّ أن أبدأ أولًا بسورة الفاتحة؛ التي أصبح عليّ أن أقرأها سبع عشرة مرة على الأقل كل يوم. وكان عليّ أن أتعلم أشياء كثيرة، وأن أذكر مسائل عدة.

عملت بنصيحة الدكتورة أمينة، وذهبت مباشرة من المسجد إلى متجر الكتب الإسلامية قرب (ريجنتس بارك)، وابتعت كتابًا للأطفال يُفصل خطوات أداء الصلاة، وما يقال في أثنائها مكتوبًا بالحروف الصواتية الإنجليزية.

أديت أول صلاة على الوجه لصحيح وحدي، من دون مساعدة أو حضور أي شخص آخر، في غرفة المعيشة في شقتي. وكنت قد تلقيت سجادة صلاة هدية، فبسطتها أمامي بعناية، وأنا أشعر بهيبة كبيرة عند أداء الصلاة. كان السؤال ألذي سألته لنفسي حينها: في أي اتجاه يجب أن أقف كي أُصلي؟ كان عليَّ أن أبحث عن اتجاه مكة المكرمة. وقد اشتريت لهذا لغرض بوصلة حتى يتسنى لي معرفة اتجاه لقبلة. وأخبرني أحد أصدقائي من قبل أن مكة تقع في الجنوب الشرقي، ولما كان لنهر في الجنوب، فقد خمنت أن اتجاه لكعبة يقع إلى يسار النهر.

أمسكت بكتاب الأطفال بين يدي، ووقفت على سجادتي في اتجاه مكة المكرمة، وقرأت سورة الفاتحة، أول سورة في القرآن الكريم، وتتكون من سبع آيات. ثم ركعت، وسبحت ثلاثًا، ورفعت من الركوع وأنا أقرأ دعاءً، قبل أن أسجد وأضع جبهتي على الأرض. وكان عليّ أن أقرأ دعاءً آخر وأنا في وضعية السجود، غير أن ذلك لم يكن ممكنًا من لناحية لعملية، فرفعت من الركوع كي أستطيع قراءة لدعاء، ثم وضعت جبهتي على السجادة بعد ذلك لأؤدي حركة السجود. رفعت بعد ذلك من السجود، وقمت واقفة، وكررت أداء هذه لصفة من جديد قبل أن أجلس على ركبتي، وأنا أتلوصلوات على النبي محمد صل الله عليه وسلم وعلى النبي إبراهيم عليه السلام وذريتهما بلغة عربية غير سليمة تمامًا. فأديت بذلك ركعتين في صلاة الظهر، وقمت لأداء ركعتين إضافيتين. شعرت في البداية، بالغرابة وأنا أقف وأنحني أمام الله، من دون أن أفهم معنى ما كنت أقوله، وأحاول في الوقت نفسعه أن أستشعر وجود الله، وهو أمر لم أملك أن أشعر به آنذاك. وعلى الرغم من ذلك، بذلت مجهودًا كبيرًا كي أصلي كل يوم، وسرعان ما أصبحت أجد أداء الصلاة أكثر سلاسة. وحفظت بعض السور القصيرة التي كنت أتلوها بعد الفاتحة. وبعد أن تعودت على أداء

الصلاة، وأصبحت أتقنها أكثر من ذي قبل، نزعت أهم الصفحات من كتاب الصلاة، واحتفظت بها في مفكرتي الخاصة. كنت كلما سافرت أصحب معي هده الصفحات، إضفافة إلى بوصلتي وبعض الكتب كما هي عادتي.

نصحني الشيخ ناظم بأن أبدأ رويدًا رويدًا، وأركز في البداية على فرض أو فرضين كل يوم، أواظب عليهما، ثم أضيف الصلوات الأخرى تدريجيًّا. فبدأت بصلاة الفجر والمغرب اللتين تؤديان، كما يدل اسمهما على ذلك، على التوالي وقت الفجر وغروب الشمس. وإن نمت عن صلاة الفجر، أصليها فور أن أستيقظ من النوم. لكن أحيانًا، حين يكون الشيخ ناظم في المدينة، كانت الدكتورة أمينة تمر لاستصحابي وبعض الأتباع الآخرين بسيارتها في منتصف الليل؛ كي نذهب إلى المسجد الذي يقع شمال لندن لأداء صلاة الفجر مع الشيخ. وقد كنت أتفاجأ لرؤية العدد الكبير من المصلين الذين يتوافدون على المسجد في تلك الساعة المبكرة من اليوم، كما لو أن ذلك كان أمرًا عاديًّا ولا يتطلب منهم أي جهد أو مشقة. وما إن أصبحت أستطيع أن أستيقظ في تلك الساعة المبكرة وأغادر فراشي، حتى صرت أجد في نفسي أُنسًا حقيقيًّا بالذهاب إلى تلك الصلاة في ذلك الوقت المبكر. إن هدوء وقت بزوغ الفجر يجعل منه أفضل وقت للصلاة؛ لأنه وقت تحفّه الملائكة التي تشهد على صلاتنا، وتحملها إلى السماء. في كل مرة كنا ننطلق للمسجد، تكون المدينة لا تزال تغط في نوم عميق، وكان يراودني حينها شعور قوي بأني أقوم بعمل فقط من أجلي ومن أجل الله. عادة ما تكون تلك بداية ليوم ألمس فيه أن البركة رافقتني خلاله طوال الوقت. وكنت أبتسم في نفسي حين أتذكر كيف كنت قبل وقت قصير من ذلك أعود إلى البيت في ذلك الوقت من الصباح بعد سهرة أقضيها خارجًا، وتدوم طوال الليل.

تفاجأ أصدقائي حين أخبرتهم باعتناقي الإسلام، لكنهم احترموا قراري. ومن المؤكد أنهم لم يفهموا الأسباب التي دفعتني إلى الإقدام على هذه الخطوة. لكن عقولهم كانت متفتحة، فصاروا يطرحون عليّ أسئلة عن هذا الدين ليتعرفوا عليه أكثر. كان جلّهم آنذاك في عقدهم الثالث، وكان لكل منهم أسئلة روحية يسعى إلى إيجاد أجوبة لها، وكانوا أيَضًا يتساءلون عن مغزى الحياة ومعناها. وفي المقابل، لم يبالِ بعضهم الآخر بقراري، ولم يولوه أي أهمية. وأذكر من هؤلاء صديقي جونسون الذي قال لي مرة: «أنا معجب بكِ سواءٌ كنتِ مسلمةً، أو مقدمة برامج على محطة إم تي ڤي، كريستيان؛ لأني معجب بكِ أنتِ». وأبدت لي عمتي أيضًا، وهي في الوقت نفسه عرّابتي، كل دعمها ومساندتها. وكانت تتابع كل ما أقوم به، وتجمع المقالات التي تنشرعني. حين قرأت الخبر، كلمتني عبر الهاتف، وقالت لي: «كلنا إخوة وأخوات، وأبونا هو إبراهيم». وأرسلت لي كتابًا بحسن نية لا أظنها قرأته، عنوانه: (سيف الإسلام). كان الكتاب عبارة عن دراسة أنجزها الصحفي الألماني بيتر شول لاتور عن أخطار (الإسلام الراديكاني). وكانت المكتبات الأوروبية وقتئذٍ تعج بكتب تتناول مثل هذا الموضوع وموضوعات أخرى تُستخدم للنيل من صورة الإسلام.

وبعكس موقف عرّابتي، أصيب أبي وأمي بصدمة حقيقية حين عَلِمَا بقراري. وظَنَّا في البداية أنه عملٌ طائش أقدمت عليه دون أن أفكر فيه بجدّ، أو ربما كان سعيًا مني للهروب من الواقع. وكانت مواقفهما سلبية جدًّا ونمطية تجاه الإسلام، ولا سيما تجاه الرجال من المسلمين. وهي أفكار رسختها طريقة عِمران في إنهاء علاقته بي. لم يفهم والداي لماذا قد أحتاج إلى اعتناق دين عِمران؛ فبالنسبة إليهما، ما دمنا لم نَعُد نُخَطِّطُ للزواج، فما من داعٍ لأن أدخل الإسلام. حاولت أن أشرح لهما أني اكتشفت هذا الدين بنفسي، واتخذت منه دينًا لي. وأن كل ما فعله عِمران هو أنه كان

سببًا في أن أكتشف هذا الدين، لا أقل ولا أكثر. وكنت خلال زياراتي التي أعقبت ذلك إلى ألمانيا، أخوض مع أهلي في نقاشات طويلة، أحاول أن أشرح لهم خلالها مبادئ الإسلام الأساسية، وأوضح لهم أن اعتناقي الإسلام لن يغيرني، ولن يغير من علاقتي بهم في شيء؛ لأن حبي لهم لم يتغير، وظل على حاله. وإن وجِد تغير فعلًا، فإن إسلامي وخضوعي لله سيساعداني على أن أصبح إنسانة أفضل مما كنت عليه. لم يقتنع والداي بكلامي؛ لأن رأيهما في الإسلام كان ينبني أساسًا على ما كانت تروج له وسائل الإعلام الغربية، في حين كان ما لمسته، وآمنت به مختلفًا تمامًا عن ذلك الرأي. وبلغ الأمر بوالدي أن ذكَر مفهوم (وحدة الوجود)، وأوضح أنه يعتقد أن المسلمين يريدون أن يبسطوا سيطرتهم على العالم بأسره. فازدادت حدة النقاش بيننا إلى درجة أن والدي طلب مني أن أكف عن الحديث عن الإسلام. ومنذ تلك اللحظة، أصبح الموضوع محرمًا في بيته، وأصبح الحديث يدور في الغالب، عن المسائل العائلية، وربما كان ذلك حلًّا عادلًا على أي حال.

لكن أشد معارضة لقراري باعتناق الإسلام لم تأتِ من عائلتي أو من أصدقائي بل من وسائل الإعلام الألمانية. ذلك أني تلقيت دعوة للمشاركة في برنامج متلفز حواري عنوانه: (أسماء خلف العناوين)، على (سات1) وهي إحدى أهم محطات التلفزة الخاصة في ألمانيا. وكان مقدم هذا البرنامج، أولرتش ماير، الذي كان يضع كثيرًا من (الماسكارا) على رموشه. وكان ضيفا البرنامج الآخران هما بيتر شول لا تور، المتخصص في الصحافة السياسية الذي قضى مدة طويلة في العالم العربي، وبيتي محمودي، مؤلفة أحد أكثر الكتب مبيعًا في الغرب، وهو(ليس من دون ابنتي)، وتروي فيه قصة هروبها من إيران ومن زوجها المسلم. وصادف أني سأكون في تلك المدة في هامبورج لتسجيل برنامجي، فوافقت على المشاركة؛ لأني ظننتها مناسبة جيدة كي أعيد الأمور إلى نصابها، وأشرح للرأي العام الألماني سبب اختياري

اعتناق الإسلام. فأخذت أستعدّ جيدًا لهذه المقابلة من خلال الحديث مطولًا عبر الهاتف إلى كل من الدكتورة أمينة في لندن وعِمران في باكستان. وقد اقترح كل منهما أفكارًا قدّرا أن من المهم إيصالها إلى المتلقي الألماني. واقترحت على مُعِدِّي الحلقة استضافة ضيف آخرعلى أن يكون قد وُلد مُسلمًا، وترعرع في كنف هذا الدين؛ لأن من شأن مشاركته أن تُثري الحوار أكثر. لم يفكروا في استضافة أحد بهذه الأوصاف، لكنهم أثنوا على الفكرة، ووافقوا عليها بعد تردد. لكن المشكلة كانت في إيجاد الشخص المناسب؛ نظرًا إلى قصر الوقت الذي كان يفصلنا عن موعد تسجيل الحلقة، فاقترحت عليهم استضافة أخٍ لي في الطريقة الصوفية، وهو الأمير فريد الدين، الذي كان يعيش بين لندن وباريس.

وفي يوم تسجيل الحلقة، أعلن المنتجون فجأة أن عليهم تقديم موعد التسجيل بعض الوقت، فلم يتمكن فريد الدين من أن يشارك فيها؛ لأن طائرته تأخرت كثرًا. ولما وصل إلى الأستوديو، جلس بين الجمهور بصفته متفرجًا من دون ميكروفون. استُهِلّ البرنامجُ بتقريرٍ يُظهِر نساءً منقبات يغطي لباسٌ أسود أجسامهن كلها، وأُضيفَ إلى تلك الصورِ صوت رجالٍ مسلحينٍ وهم يصرخون: «الله أكبر»، وصور من هجمات كانت قد شُنّت حديثًا، ونُسبت إلى مجموعات إسلامية متطرفة.كان صوتُ المعلق في التقرير الذي أُذيع في تلك الحلقة، يقول: «الخوف من الله...الحرب المقدسة تشتعل في كل مكان من الكوكب..الأصوليون المسلمون يشنون حربًا مخيفةً على الكافرين. ما مدى خطورة الإسلام يا ترى؟».

بدأت أتساءل عن تلك الورطة التي أوقعت نفسي فيها. وكان التقرير الذي عُرض في حد ذاته مثالًا ممتازًا (للإسلاموفوبيا)، أو رهاب الإسلام الذي يعانيه مُعِدّو البرنامج، ويدل بوضوح على جهلهم التام بحقيقة

الإسلام. بدايةً، وبحسب علمي الشخصي، فإن غالبية النساء المسلمات في البلدان الإسلامية يرتدين ملابس بكل الألوان، ولا يرتدين سوى اللباس الأسود كما صوّر التقرير ذلك. ثم إن تعبير (الحرب المقدسة) ترجمة غير دقيقة لكلمة جهاد، التي تعني في الحقيقة «بذل الجهد في سبيل مرضاة الله». ولا يحق للمسلم أن يحمل السلاح إلا في حالة الدفاع عن النفس. وحتى في هذه الحالة، فإن عليه أن يراعي شروطًا أخلاقيةً صارمة جدًّا قبل أن يقدم على حمل السلاح. لكن من الواضح أن هدف التقرير كان إثارة ذعر كل من يراه. ولو أن مثل هذا التقرير عُرِض في إنجلترا، لوقفت له هيئات إسلامية كثيرة بالمرصاد بسبب عدائه الديني الصارخ، وسيكون لها الحق في ذلك.

بعد هذه المقدمة المُرعِبة، التفت مقدم البرنامج إليّ، وسألني: «ما الذي أعجبك، أنتِ، مقدمة البرامج الناجحة على محطة إم تي ڤي، في الإسلام؟»، فأجبته بلا تردد: «أعجبني دفء وطيبة كل من قابلتهم من المسلمين، واستعدادهم للتضحية ونكران ذواتهم من أجل تقديم يد العون للآخرين». وتحدثت عن عِمران، الذي وصفته بأنه صديقي الحميم الأسبق، وما حققه هو وجيش كبير من المتطوعين الآخرين في مشروع المستشفى، الذي كان يدل على إيمانهم وطريقتهم لعبادة الله. وقلت إن الطاقة الجبارة والقوة الهائلة اللتين بذلهما لتحقيق هذا الإنجاز العظيم متجذرتان في عقيدته. وشرحت كذلك كيف أني وجدت أن اسم الإسلام يصف بدقة هذا الدين، أي أن كلمة الإسلام تعني السلام، وأن هذا العنف الذي يستشري في كل مكان بسم الله يتعارض مع ما جاء به هذا الدين من تعاليم. فسألني عندها المقدم: «هل هذا الكلام هوالذي تقولينه على الشاشات في برامجك؟». فصُعِقتُ لسؤاله، ولم أفهم ما الذي يرمي إليه. كان يحاول أن يوحي أني أستغل موقعي في إم تي ڤي و(برافوتي ڤي) لأدفع

المراهقين وصغار السن ممن يتابعونني كي يحذوا حذوي. وضاعت مني الكلمات برهة، لكن سرعان ما تمكنت من أن أردّ بقولي: «أتحدث في برامجي عن الموسيقا وليس عن الدين؛ من الواضح أنك لم تشاهد برامجي».

وطلب بعد ذلك ماير من بيتي محمودي أن تحكي عما عاشته في إيران. فاستهلت حديثها بقولها إنها في البداية لم ترَ سوى الإسلام «الجيد»، بحسب وصفها، إلى أن بدأ زوجها المسلم يُحَوِّلُ حياتها إلى جحيم. فنظر إليّ ماير، وطلب مني أن أعقب على ما قالته، وكان جوابي حينها: «أنا أشعر بالأسف لتعرضها لكل تلك المآسي، لكننا لا نستطيع أن نحكم على دينٍ ما بناءً على سلوك سيئ لبعض أتباعه».

كان ديكور الأستديو خلفنا يحمل عبارة (االخوف من الله)، إلى جانب صورة كبيرة لامرأة تلبس برقعًا أسود اللون تظهر على شاشة فيديو خلفنا. ثم تغيرت هذه الصورة لتصبح صورة ابنة بيتي محمودي، وهي ترتدي غطاء رأسٍ ضيقًا جدًّا، وتحولت في النهاية إلى صورة لعِمران ولي في مباراة (كريكت)، قبل أن تظهر المرأة التي ترتدي البرقع من جديد، وكان أمرًا سخيفًا جدًّا. فأشَرْتُ إلى الصورة، وقلت إن لباس البرقع ليس فريضة فرضها الإسلام، وأن لا وجود في القرآن لأي أمر للمرأة بتغطية وجهها.

ثم جاء دور بيترشول لاتور للرد على الأسئلة. اتفق معي في البداية، وأقرّ بأن كلامي كان صحيحًا. غير أنه سرعان ما بدأ يتهمني بأني أتحدث عن شكل «مُخَفَّفٍ» من الإسلام، أي عن نسخة مثالية من الإسلام، وصفها بأنها «حلمٌ جميلٌ ليس إلا». وكان يحدثني بطريقة يُظهِرُ فيها اللطف، في حين أنه في الحقيقة كان يعاملني بتعالٍ واضح. وقال إني في الغرب وفي لندن، قد أستطيع أن أمارس هذا النوع من الإسلام، غير أنه سيكون من

المستحيل أن أتمكن من ممارسته في بلد أي إسلامي، وقال: «لن نتمكّني من تقديم برامج موسيقية هناك، أو فعل كثير من الأنشطة التي تستمتعين بممارستها هنا». وتلقف ماير الفرصة، وسألني كيف سيكون شعوري إن عشت في بلد إسلامي، وتخليت عن مسيرتي المهنية. فأجبته قائلة: «أنا لا أنوي أن أنتقل إلى بلد إسلامي في الوقت الحالي. إن ما يجعل لندن مدينة رائعة بالنسبة إليّ هو أني أستطيع أن أعيش فيها، وأؤدي وظيفتي، وأكون مسلمة تمارس شعائردينها كما يجب».

وفي الواقع، فكرت في نفسي في أن فكرة الانتقال إلى العيش في بلد عربي قد تكون جيدة؛ كي أتمكن من تعلم اللغة العربية، وربما أقدم نوعًا مختلفًا من البرامج.

ومع مرور الوقت في هذا البرنامج المخيف، أدركت أن لا أحد من المشاركين كان مهتمًّا فعلًا بخوض نقاشٍ جادٍّ حول الإسلام. وما إِن أَذكر أمرًا إيجابيًّا في هذا الدين، حتى يقاطعني ثلاثتهم، ويعارضوني بأفكار مضادة لما كنت أقول. ولم يأخذني أحد منهم على محمل الجدّ، وشعرتُ بأنهم كانوا يعاملونني باحتقار وتعالٍ. ومُجمَل القول أن تلك كانت تجربة محبطة جدًّا، خَلَّفَت في نفسي شعورًا بالأسى. لكنني على الأقل، حاولت أن أدفع الجمهور الألماني إلى التفكير في هذا الدين، وفي الصورة التي يحملها عنه.

تحدثت إلى الأمير فريد الدين بعد البرنامج، واتفق معي على أن أجندته [(1)] معادية للإسلام، ولم تكن منصفة. وقد سرنا في أنحاء الأستوديو، وتحدثنا مع بيتي محمودي التي أقرّت بدورها أن ما عانته في إيران يمكن له أن يحدث في أي مكان آخر من العالم. غير أن نهاية تلك الأمسية كانت أسعد، حيث دعاني أتباع (الطريقة النقشبندية) في برلين إلى تناول العشاء.

وشاهدنا جميعًا تلك الحلقة حين بُثَّت على التلفاز، وقد أفادني كثيرًا أن أكون محاطةً بهؤلاء الناس الذين استجابت قلوبهم، مثل قلبي، للبركة الإلهية نفسها. لقد طيبوا خاطري، وشعروا بما شعرت به، وأحاطوني بدعم روحي كنت في أشد الحاجة إليه. وفي نهاية تلك الأمسية، أهدوني سلسلة من فضة عُلِّقَت بها أذكار تُحَصِّن حاملها.

عدت إلى لندن، وأنا محملة بدعم إخوتي في الله، وتلقيت على مدى الأسابيع التي أعقبت ذلك رسائل عدة من مشاهدين مسلمين حيّوني فيها على شجاعتي في مواجهة اثنين من أكثر الأشخاص عداءً للإسلام، ودعوا لي الله أن يوفقني. وأجمعوا كلهم على أني أبليت بلاءً حسنًا. ومع ذلك، عاهدت نفسي ألا أتكلم عن ديني على التلفاز الألماني مرة أخرى مستقبلًا، وهوعهد وفيت به حتى حين.



بعد أن عدت إلى لندن، تلقيت أخبارًا سيئة أكثرمن ألمانيا، فقد علمت من خلال الصحف أن مقدمة برامج جديدة، تدعى هايك ماكاتش، ستشرع في تقديم برنامجي (برافوتي في)، وهو أمر أنكره دانيال كريج. وكانت تلك أول مرة أسمع فيها بالخبر، فاتصلت مباشرة بمديري في هامبروج لأفهم ما الذي يجري؛ فعلى مدى الأسابيع القليلة التي سبقت ذلك، كان منتجو البرنامج يتوسلون إليّ؛ كي أوقع عقدًا لعام إضافي بصفتي مقدمة لذلك البرنامج. وكنت قد فزت بكل الجوائز التلفازية، ويوم الاحتفال بالحلقة رقم 100 من البرنامج، كان مديريّ كلهم يثنون على عملي، ويؤكدون لي أني كتبت أسطرًا في تاريخ التلفاز الألماني؛ فما الذي حدث ليستغنوا عني؟ لم يتطلب الأمر كثيرًا من الجهد لتخمين سبب ذلك. حيث ادّعى في البداية المنتجون، وكانوا في الوقت نفسه مديريّ، أنهم لا

يعلمون شيئًا عن الأمر، وأنهم سمعوا الخبر بدورهم من الصحف. لكن لم تمر سوى بضعة أسابيع حتى أُخبِرت في اجتماعٍ بأنهم لن يوقعوا عقدًا معي. ولحسن الحظ أني كنت أحمل نسخةً معي من العقد، وأشرت بإصبعي إلى إمضاء اتهم عليه. فتدخّل المحامون في هذه المسألة، ولما كان على المنتجين واجبات تجاهي، فقد عرضوا عليّ أن أقدم برنامجًا يُعنَى بقضايا البيئة. ربما كان عليّ أن أقبل ذلك العرض، لكنني أحسست بأنهم خانوني حينها، وفقدت كل شعور بالثقة تجاه الشركة كلها. ثم إني لم أُرِد أن أبدو على أني هاوية، تُقدِّمُ برنامجًا موسيقيًّا اليوم، وآخر يتعلق بالبيئة في اليوم اللاحق.

كان واضحًا بالنسبة إليّ أن فسخ عقدي بتلك الطريقة المفاجئة كان له علاقة باعتناقي الإسلام، ومشاركتي في البرنامج الحواري الذي بث على التلفاز الألماني. وقد ربط كاتب عمود صحيفة (صنداي تايمز) البريطانية، تاكي تيودوراكوبولوس بين هذا وذاك، ودعا منتجي التلفاز الألماني إلى أن يعيدوا لي وظيفتي في البرنامج. ولم يصدق أحد في إنجلترا أن يُتحامَل على شخصية تلفازية بتلك الطريقة علنًا، ثم يُستَغنى عنها بسبب معتقداتها الدينية. ثم إن إسلامي لم يكن أمرًا أخجل منه أو أداريه. لكن لم يكن باليد حيلة، فما كان مني إلا أن طويت صفحة (برافوتي في)، وفتحت صفحة جديدة من حياتي. ولم تكن تلك مأساة حقيقية، حيث كنت قد قضيت ثلاث سنوات وأنا أقدم ذلك البرنامج، وأظن أن تلك كانت مدة كافية جدًّا في مسيرتي المهنية. وعلى الرغم من ذلك، لم أَستَسِغ الطريقة التي أداروا بها ظهرهم لي حتى قبل أن يجف حبر آخر عقد وقّعته معهم.

تملكّني شعور بعدم الأمان، وكنت في أمس الحاجة إلى النصح. وتذكرت حواري مع جاي إيتن، وكيف ساعدني من قبل في التخلص من شكوكي قبل

أن أعتنق الإسلام. فقررت أن أتصل به في المسجد بريجنتس بارك، حيث كان يعمل. وحين تحدثت إليه عبر الهاتف، تذكّر من أكون، واقترح أن نلتقي في نادي (ترافلرز) بشارع بال مول، الذي تصطف على جهتيه نوادي الطبقة الراقية، وهو ليس ببعيد عن قصرسان جيمس، حيث يقطن أمير ويلز. حكيت له ما حدث معي بسبب اعتناقي الإسلام، لكنه لم يتفاجأ لما وقع، وقال إنه لا مناص لكل من يدخل الإسلام من أن يمر بامتحانٍ ما، وأن طريقة تعامله مع تلك الظروف يبين مدى التزامهم وصدقهم حيال دينهم الجديد. فيكون ذلك النوع من التجارب أقرب ما يكون إلى مقدمة لما يأتي بعدها. وعندما رويت له ماحدث مع عِمران، وما آلت إليه علاقتي به، كان ردّه في منتهى الهدوء، حيث قال لي: «الرجال يظلون رجالًا في نهاية المطاف»، وأضاف: «من الواضح أن هذه العلاقة لم يكن مقدَّرًا لها أن تستمر». وطلب مني أن أثق بأن ذلك الانفصال الذي وقع كان في الواقع خيرًا، حتى وإن لم أكن أستطيع رؤية ذلك بوضوح آنذاك. وكما هوشأن كل معاناةٍ نمرّ بها، فإن الألم الذي يعتري القلب يقوم في الوقت نفسه بتطهيره، ويجعل منّا أشخاصًا أحسن من ذي قبل. وقال: «إن الأمر يشبه قطعة الحديد التي تتلقى الضربات؛ لكي تحصل في نهاية الأمرعلى شكلها النهائي. إن تلك التجارب السيئة ما هي إلا إشارة جيدة؛ لأن الله لايبتلي إلا من يحب»، ثم مازحني بقوله: «ربما لهذا السبب أحباب الله ليسوا كثيرين». لقد خففت كلماته عني كثيرًا.

وأخبرني جاي عن وعاء القلب الشهير الذي يتعين عليّ أن أبدأ في تخليته، وأن الصوفيين يقارنون قلبنا، وهو العرش الذي يتربع الرحمن بداخله، بالوعاء الذي ينساب حب الله خلاله. وعلينا أن نفرغ، ونخلي هذا الوعاء قبل ان نتمكن من ملئه بحب الله. إن عملية التخلية عملية طويلة، وتتطلب جَلَدًا وشخصية قوية وإصرارًا وعزيمةً، وقبل ذلك كله،

فإنها تتطلب إخلاصًا صادقًا. إنها عملية يبسط فيها المرء سيطرته على هواه، وينفيه من الوجود، ويتخلص معه من الحاجات المادية والعادات السيئة وغير الصحيحة، ومن التمسك العاطفي بالآخرين كي يتمكن في النهاية من أن يفسح لمحبة الله مكانًا في قلبه. ويشبّه الصوفية هذه العملية بعملية الموت والبعث من جديد، حيث ورد في قولٍ صوفي مأثور:«موتوا قبل أن تموتوا». وقال لي جاي: «إن هذه الفكرة هي مدار كل طريقِ سلوكٍ إلى الله».

ظلت كلمات جاي منقوشة في ذاكرتي، وكنت أكثر سعادةً بعد مرور أيام عدة على لقائنا يومها. وبعد مدة، اتصل بي عِمران ليخبرني بأنه سيتزوج، وأن ذلك الزواج مرتب. وكانت مفاجأتي كبيرة جدًّا لسماع ذلك. وكنّا حتى تلك اللحظة على اتصال دائمٍ، ولم أدرِ ماذا أقول. وسألته عما إذا كان قد تقدم فعليًّا لطلب الزواج، فأجاب أنه قام بذلك فعلًا. ولا أخفي أن الخبر فاجأني كثيرًا. وبعد يومين من ذلك، اتصل بي الدكتور هارون، وهو طبيب فريق (الكريكت) الباكستاني الذي كان عِمران قد عرفني عليه، وأصبح طبيبي أنا أيضًا، فسألني قائلًا: «هل تدرين أن عِمران سيتزوج من جيميما جولدسميث؟». إذ يبدو أن عِمران كانت له علاقة بهذه الفتاة الجميلة الصغيرة السن، التي تنحدر من أسرة بريطانية عريقة وثرية، ولها مكانتها في المجتمع الإنجليزي امتدت مدة من الزمن. أُصبت بصدمة كبيرة لسماع ذلك الخبر، وتداعت الصورة التي كنت رسمتها لعِمران في مخيلتي. لِمَ لَمْ يُخبرني بالحقيقة بكل بساطة؟ وما إن وضعت السماعة، حتى رنّ الهاتف من جديد. وكان المتصل يعمل في صحيفة (صنداي تايمز) البريطانية، وما إن سمع الخبر، حتى اتصل بي ليطلب مني أن أعلق على الموضوع. فضاعت مني الكلمات، ولم أدرِ ما أقول.

حين غادرت المنزل بعد ساعات من ذلك، وجدت في انتظاري حشدًا هائلًا من الصحفيين الذين كانوا يُشهِرون في وجهي الميكروفونات. لم أكن قد تمكنت من تقبل الخبر بعد، ولم أقل سوى هذه الكلمات: «ما من تعليق». لم يكن من شِيَمِي أن أصرح بشيء عن الموضوع على العلن، غير أن الصحافة لم تستسلم بسهولة، وتمكنت من أن تخطف مني بضع كلماتٍ حوّرتها، واستخدمتها عناوين عريضة لمقالات مثيرة.

استيقظت عند الساعة الثامنة من صباح اليوم التاني على صراخ جاري الذي كان يسب ويزمجر من نافذته. وكان ذلك بسبب عودة الصحفيين مرة أخرى، وأن أحدهم أخطأ، ودقّ جرس بيت ذلك الجار. وحين غادرت المنزل، أشهر الصحفيون في وجهي مقالات نُشرت في الصحف كانت تحمل عناوين، مثل (جرذ الحب)، و(كاذب)، وطلبوا مني أن أعلق على تلك العناوين. فبذلت ما في وسعي كي أتفاداهم من دون أن أستعمل الألفاظ التي استخدمها جاري. ومرت أيام قبل أن يستسلموا أخيرًا، ويمضوا إلى حال سبيلهم. عرضت عليَّ إحدى الصحف مبلغًا كبيرًا من المال مقابل نشر بعض التفاصيل عن علاقتي بعِمران وتعليقاتي على ارتباطه المفاجئ، لكني رفضت ذلك العرض، وسلمت أمر عِمران لله. كان ضميري مرتاحًا، وكنت مصرّة على أن أحافظ على كرامتي.

إن الحديث المسيء للآخرين والغيبة والنميمة كلها ذنوبٌ يقترفها اللسان في نظر الإسلام. وكل من فضح ستر الآخرين، فإن الله يفضح ستره هو الآخر. وعلى الرغم من صعوبة الوضع، فإن كل ما أردت فعله هو أن أدع عِمران وشأنه؛ كي أتمكن من التركيز على الطريق الذي بدأت أسلكه. وحظيت بدعم كبير وتعاطف ومواساة كثيرٍ من الأصدقاء، ومن بينهم أصدقاء عِمران الذين لم تكن نظرتهم لما وقع أفضل من نظرتي. وقالت لي

فيملا، التي تُلَقّب بملكة اليوجا في الهند، إنها عَلِمَت بالخبر عندما كانت في الطائرة، وأوقعت من صدمتها كأس الشامبانيا التي كانت في يدها. واتصل بي أيضًا مستشار عِمران المقرب في مشروع المستشفى، وقال إن خطأ ما وقع في طريقة إعلان اخبر للعموم، وأن الأمور لم تمر كما كان مخططًا لها. كان جميع من قابلتهم في تلك الفترة يمدونني بالنصح. وأذكر أن أحدهم قال لي:«إن التحدي الذي عليك أن تواجهيه، هو أن تجعلي من المحنة منحة حقيقية، وأن تصيري أنسانة أفضل عوضًا عن الاستسلام للحقد والمأساة». وكان ذلك بالتحديد ما كنت أنوي فعله.

وتحدثت إليّ زيرو مطولًا عبر الهاتف عن العفو، وقالت لي إن طريق الإيمان هو طريق العفو. وإن أنا عفوت عن الآخرين، فإن الله سيعفو عني، وروت لي قصة من حياة رسول الله صاى الله عليه وسلم، عندما أتى رجلٌ الرسولَ الأكرم، وسأله عن أي الأعمال توجب رحمتة الله ومغفرته، فأجابه: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» [(1)]، وقالت إن على المرء ألا يحكم بالسوء على أخيه، وأن عليه أن يلتمس له سبعين عذرًا قبل أن يظن به أي سوء [(2)] فتمكنت من أن أجد في قلبي الاستعداد اللازم للعفو عن عِمران، على الرغم من أن الألم ظل يعتصر فؤادي وقتًا طويلًا. وآمنت بأن لله حكمة فيما حدث، وعلى الأرجح أنه يحمل خيرًا لم أَرَهُ حينها. لقد شعرت بامتنان كبير على نعمة الإيمان. وكان الأمر وكأن الله سَخَّر عِمران ليقودني إلى طريقه؛ وفي هذه الحالة فقد أنجز عِمران مهمته كمايجب. ولو أن الله بعث إليّ إمامًا حادّ الملامح، وذا لحية طويلة يدعوني إلى الإسلام، لما كنت استجبت له، أو صرت مسلمة. وما إن أتم عِمران دوره، ووجد الإيمان مكانًا له في قلبي، حتى أبعده الله عن طريقي. لقد أخد الله مني حب البشر حتى أتمكن من

اكتشاف حب أسمى، إنه حب الله. كانت هذه النظرة الجديدة للأمور هى التى ساعدتنى على أن أتخطى كل ما حدث، وأواصل طريقي في الحياة.

وواظبت على الصلاة بانتظام، وتمرنت على تلاوة آيات بسيطة من القرآن الكريم. وكنت أيضًا أرتاد المسجد بانتظام، وأستمع للدروس التي كانت تُلقى فيه، وشاركت في حلقات الذكر.

كان زفاف عِمران وجيميما محط متابعة إعلامية واسعة، وأردت يومها أن أبتعد قدر الإمكان عن لندن، لكن انتهى بي الأمر في المسجد مع الدكتورة أمينة، أدعو الله لهما بالسعادة. وقالت لي الدكتورة أمينة:«ربما فَقَدتِ إنسانًا، إلا أنك وجدتِ من هو أعظم قيمةً وأرفع قدرًا من أي إنسان، إنه الله سبحانه وتعالى. إن أي حبّ إلى زوال، إلا حبّ الله، فهو خالد إلى الأبد»



مضى وقت طويل قبل أن أعود إلى الحياة العامة من جديد. وكانت من أفضل الحفلات التي حضرتها تلك التي أقيمت في بيت بادمينتون، وهو المقر الكبير لإقامة دوق بوفورت في جلوسترتشر. وقد أطلق على لعبة (البادمينتون) اسم هذا البيت الذي بُني في القرن السابع عشر الميلادي، وكانت مساحة إحدى غرفه تطابق مساحة ملعب (البادمينتون). وكان من بين من حضروا تلك الحفلة برايان فيري، وميك جاجر، وجيري هال، وستيف وينوود وزوجته جينا، إضافة إلى عدد كبير من الشخصيات المهمة وأصدقاء العائلة المضيفة.

كان وصول الدوق إلى الحفلة لافتًا، حيث قدم على متن طائرته

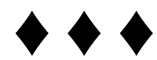
المروحية. ورُحت أسير مطولًا خلال حقول ذلك البيت، حيث تقام سباقات (بادمينتون) للخيل الشهيرة كل عام، والتي كانت تحضرها الملكة. وانضمت إليّ كل من صديقتيّ لين وأجينتا، وهي صحفية إيطالية مليئة بالحيوية والنشاط، كانت تُجري حواراتٍ مع مشاهير وموسيقيين تُنْشَرُ في مجلات إيطالية. وكنّا معجبات جدًّا بالدوق، شأننا في ذلك شأن الفتيات الأخريات كلهن. وفي المساء، ارتدينا جميعًا ملابس السهرة لتناول العشاء الذي عمل على تقديمه فريق خَدَمٍ، عَمِلَ لدى هذه العائلة عقودًا عدة. وفكرت حينها في أن الأمر يشبه ما رأيته في السند بعض الشيء.

وجلست إلى جانب مخرج الأفلام جيمس بيردن. وكان الحديث إليه شائقًا، وسرعان ما سألني عن اعتناقي الإسلام. كان جيمس يعرف عِمران، وعلى دراية كبيرة بعالم الترفيه الذي كنت أعمل فيه، ولم يستطع أن يتخيل كيف لي أن أعيش من دون شرب الخمر وتناول المخدرات، وبعيدًا عن ملذات الجسد. فاخبرته حينها بأني أفضل أن أعيش حياة نظيفة، وأصون نفسي في انتظار الرجل المناسب الذي سأتزوجه. ولم يملك أن يخفي استغرابه الكبير لما قلته، ولا سيما أنه كان قد كتب سيناريو فيلم (فاتال أتراكشن)، أيْ (جاذبية مميتة)، وكان فخورًا بالمشاهد الجنسية التي تخللته.

وبعد تناول وجبة العشاء، انتقلنا إلى قاعة الرقص لمواصلة الجزء النشيط من السهرة. فجلس ستيف وينوود إلى البيانو، وكان لكل من أراد أن يختار أغنية يقوم ستيف بعزفها. واقترحنا عليه بعض أغاني بانتر، الابن الأكبر للدوق. وكان بانتر في حالٍ جيدة، وصدح بالغناء بأعلى صوته. وكان جونسن، وهو أخ بانتر الأصغر، يضرب الطبلة مع ابنه الصغير، في حين رقص ميك مع جينا، زوجة ستيف. ومع تتابع الساعات الأولى للصباح،

أصبحت جينا وأجينتا مقرَّبتين جدًّا، ما أسعد الأخيرة كثيرًا؛ لأنها كانت من المعجبات بستيف وينوود. وفي المقابل، أمسكت لين، التي لم يسبق لها أن عزفت على آلة من قبل في حياتها، بالطبلة، وبدأت تعزف بصوتٍ مدوٍّ، فكانت ليلة لا تُنسى.

وفي صباح اليوم التالي، استيقظت، والتحقت بترايسي، ووجة بانتر، وأطفالها، وأسرة وينوود التي تمارس طقوس الديانة المسيحية، إضافة إلى أجينتا ولين وآخرين، لنؤدي الصلاة في كنيسة المنزل. وكنت قد صليت صلاة الصبح حينها غير أني شعرت برغبة في أن أشارك الآخرين تلك اللحظات في عبادة الله. وقرأت سورة الفاتحة في سري، وأتبعتها بعضًا من الأدعية الخاصة بي.



صِرت أواظب على حضور مختلف الأنشطة الثقافية الإسلامية من محاضرات وندوات. ودعتني الدكتورة أمينة إلى حضور إحدى حفلات العشاء السنوية التي تحضرها شخصيات مهمة من أفراد الجالية المسلمة في لندن. وألقت أسماء وازنة، مثل كارين أرمسترونج، وجون إسبوسيتو، وجاي إيتن محاضرات تتعلق بالله وحوار الأديان، وموضوعات عدة تتعلق بالإسلام. ومع حلول وقت صلاة المغرب، غادرنا طاولة العشاء، وانتظمنا في صفوف خلف الشيخ ناظم الذي كان إمامنا في أثناء أداء تلك الصلاة. وغطيت أنا والدكتورة أمينة رأسينا، ووقفنا في صف واحد إلى جانب نساء أخريات خلف صفوف الرجال، قبل أن نركع ونسجد في انسجام واتحاد تام. وشعرت بانتماء عجيب إلى المصلين، وبعلاقة قوية تربطني بهم. وعدنا بعد ذلك إلى غرفة الطعام لتستمر بعدها فقرات تلك الأمسية. وكنت أرتاح كثيرًا لتلك الوصلات التي كانت تتخلل مثل هذه المناسبات

الإسلامية، حيث كنا نصلي جميعًا لنعود ونستكمل أنشطتنا. وكانت الصلاة جماعةً تعطي بُعدًا أضافيًّا لأي نشاط نقوم به، وتعزز الأواصر الروحية التي تربط المصلين بعضهم ببعض.

كنت قد توقفت عن تقديم البرنامج الشبابي على التلفاز الألماني، فيما واصلت عملي في محطة إم تي ڤي أوروبا، وبدأت العمل بصفة تطوعية مع منظمة التعلم من أجل الحياة التي كانت تقدم الدعم المالي للمدارس في جنوب شرق آسيا. وقد أَسست هده الجمعيةَ الخيريةَ صوفيا سواير؛ وكنت قد زرت مدرستها في تشيترال مع عِمران. واتصلت بي صوفيا ذات يوم، وسألتني إن كنت أودّ أن أدعم مشروعها. فذهبت للقائها في مكتبها بتشيلسي، ووافقت على اقتراحها؛ لأن العمل الخيري عمل لله في المقام الأول. وتقابلنا مرة أخرى على الغداء، وعرفتني إلى زميلين آخرين، هما: روبي وداني. ولحسن المصادفة، كانت روبي هي نفسها التي قابلتها منذ سنوات مع عِمران. كان قد انقطع الاتصال بيننا منذ زمن، وكنّا سعيدتين بأن نكتشف أننا سنعمل معًا. وأصبحت روبي وداني من أعز أصدقائي. وكنّا نحن وصوفيا نطلق على أنفسنا اسم (الفريق أ). وبخلاف الشباب في برامج التلفاز، كنّا نجمع التبرعات التي ترصد للأعمال الخيرية، وننظم حفلات عشاء ندعو إليها أطيافًا مختلفة من أفراد المجتمع، إضافة إلى نجوم (موسيقا الروك) وفنانين آخرين. وكانت المجلات تغطي الأنشطة التي كنا ننظمها، وكانت تلك الأنشطة تسهم في تعليم آلاف الأطفال، ولا سيما الفتيات منهم، في باكستان ونيبال وحتى أفغانستان. وكما يقول الحاج مالك الشباز أو مالكوم إكس: «إن عَلَّمْتَ رجلًا فقد علّمت فردًا، وإن علّمت امرأةَ فقد علّمت أمةً برمّتها». وفي إطار الإعداد لتلك المناسبات، كانت مهمتي في تلك الجمعية أن أدعو الأسماء اللامعة في عالم الشهرة. ولا أشك في أن الله وفقني في ذلك؛ لأني لم أجد صعوبة في حشد

دعم ومساندة من كنت أدعوهم.

وفي أحد الأيام، وبينما كنت أتجول في الحي الذي أقطن فيه مع صديقة لي، قابلت بوب جيلدوف. لم أكن قد قابلته منذ أن أجريت معه حوارًا قبل سنين طويلة، وتجاذبنا أطراف الحديث مع بعضنا، وحكى كل منا للآخر قصة حبه، ووجدنا أنهما متشابهتان نوعًا ما. إذ كانت زوجته باولا يِتس قد هجرته حديثًا من أجل نجم أكثر شهرة في عالم موسيقا الروك، وكانت الصحف كلها تحكي تفاصيل تلك القصة. وقد حضر بوب ضيف شرف في كثير من الحفلات الخيرية التي نظمناها لفائدة جمعية التعلم من أجل الحياة. وشاءت الأقدار أن أقابل ليز ميتشل في المطار في ألمانيا، وأنا أنتظر ركوب طائرتي التي تأخرت في الإقلاع. وكانت ليز من أنجح الأصوات في السبعينيات، وكانت تغني مع فريق (بوني أم) الذي اشتهر بموسيقا (الديسكو). وقد رحبت كثيرًا حين دعوتها ألى الغناء في أحدى الحفلات الخيرية التي نظمناها. وكانت ليلة رائعة، حيث رقصوا جميعهم خلالها، وآنست ليز الحضور بصوتها العذب ساعات متواصلة. وتمكنت أيضًا من إقناع مجموعة فريق (رايت سيد فريد) ، والمغني الأساسي في مجموعة (سيمبلي ريد)، مايك هاكنال من إحياء بعض السهرات التي نظمناها. ولأني تعرفت إلى دودي الفايد من خلال الدكتورة أمينة، فقد تمكّنا من أن نقنع متجر هارودز الشهير بأن يتبرع بكثير من قسائم الشراء لفائدة جمعيتنا. فأصبحت أنا وداني وروبي مثل الأخوات، وصرنا نقضي إجازاتنا مع بعضنا. وكنت أصحبهما معي باستمرار لحفلات المشاهير، وسهرات الموسيقا الصوفية، وللمعارض والمحاضرات، كما عرّفتاني إلى أصدقائهما.

كان لروبي كثير من الصديقات اللواتي ينحدرن من أصول هندية وباكستانية، وكانت (فا)، التي كانت تعمل في مكتب عِمران، من بينهن.

وأذكر منهن كذلك رينا، وهي محامية شابة كانت مولعة بالمشاهير وبنجوم السينما، إضافة إلى كثير من النساء الباكستانيات اللواتي كن يقضين فصل الصيف في لندن. وكانت روبي تعرف حتى بيناظير بوتو، رئيسة الوزراء السابقة في باكستان. وكانت روبي وكل صديقاتها يعشن مع أهلهن، على الرغم من تجاوزهن سن الثلاثين وتمتعهن باستقلالهن المادي. وربما راودت إحداهن فكرة العيش وحدها، غير أن هذا الأمر لم يكن قابلًا للنقاش بسبب المحيط المحافظ الذي ينحدرن منه. ثم إن آباءهن لا يمكن أن يسمحوا لهن بمغادرة المنزل. والنساء في ثقافتهم لا يغادرن بيت أهلهن إلا بعد أن تتزوجن. كان من الصعب عليّ أن أستوعب هذا المفهوم المحافظ. وأظن أن تلك الثقافة المحافظة دفعت ببعضهن إلى أن يعشن حياةً مزدوجة، حيث يظهرن بالمظهر الحسن واللائق أمام أهلهن من ناحية، وما أن تسنح لهن الفرصة حتى يخرجن لعيش حياة اللهو والصخب والرقص. وعلى الرغم من ذلك، فإن هؤلاء الفتيات كنّ يتمتعن بشخصية قوية ومتوهجة، وقد أحببت روحهن الطيبة.

كانت هؤلاء النسوة يتمتعن بقوة داخلية تنبع من إيمانهن المتأصل بالله؛ أيمان ألهمني في حياتي. وبالمقابل، كنّ يرين فيَّ نجمة مشهورة، وذلك بسبب علاقتي الطويلة بعِمران، الذي كان بطلهنّ القومي.

أخبرت روبي بانتمائي إلى طريقة صوفية، فأثار ذلك فضولها وأرادت أن تعرف المزيد عن هذه الطريق التي اخترت أن أمشي فيها. لم تكن فكرة (إسلام القلب) مألوفة لديها.

وعلى الرغم من أنها ولدت مسلمة، وترعرعت في مجتمع إسلامي، فإن الإسلام الذي كانت تعرفه كان نسخة تحمل كثيرًا من التهديد والتخويف. وكان هذا النوع من الإسلام هو الذي يُشِيعُه المشايخ من أصحاب اللحى

الطويلة، والمدرسون الصارمون في مساجد لندن ومراكزها الإسلامية. ولم تكن تعاليمهم تدع مجالًا لمقاصد السكينة والطمأنينة، بل كانت عبارة عن قواعد وقوانين وتعاليم تُحفَظ عن ظهر قلب، وتُتَّبع حرفيًّا. وبطبيعة الحال، كانت وهي طفلة تفزع من تلك التعاليم، وحاولت أن تفلت من قبضتها بكل الطرق.

أصبحت روبي مهتمة بمعرفة المزيد عن التصوف. فصحبتها معي لأحد اللقاءات الصوفية التي أحضرها، وأعطاها الشيخ ناظم اسمًا جديدًا. صرنا نرتاد مسجدًا شمال لندن ارتيادًا دوريًّا كي نتلقى تعاليم الشيخ، وننال بركته. وسمينا نفسنا (الشلة الصوفية)؛ لأننا كنا خلال تلك المدة نحضر كل مناسبة يحضرها الشيخ. وقد توطدت علاقتنا لدرجة أصبحت معها روبي ترى رؤىً في منامها تخصني، وأصبحتُ أفسرُ رؤاها، وإن كان هذا الأمر يبدو غريبًا بعض الشيء. فعلى سبيل المثال، رأت روبي في منامها أن جدتها توصيها بأن تلازم تلاوة سورة بعينها من القرآن الكريم، لكنها لم تعرف أي سورة بالتحديد. وحين أخبرتني بالأمر، علمت فورًا أن جدتها كانت تقصد سور الحِفظِ القصيرة التي تقع في نهاية الحزب الستين من القرآن الكريم التي كنت قد حفظتها حديثًا. وأحيانًا أخرى، رأت روبي رؤًى تتعلق بأمور ستحدث في المستقبل، وسور عليَّ أن أتلوها، أو صدقة عليّ إخراجها. وإخبرتني مرة بأنها تعرفت إلى البعد الروحي للإسلام من خلال رحلتي الشخصية للبحث عن الحقيقة، وأنها بدأت منذ ذلك الوقت تنظر إلى الدين من زاوية عقلية. لقد كان التصوف هو الباب الذي دلفت منه روبي إلى الإسلام. ومن جانبها، علمتني أشياء كثيرة عن الثقافة الشرقية، وكيف أتعامل مع الناس الذين ينتمون إلى هذه الثقافة، ومعنى التضحية من أجل العائلة والأصدقاء، والوقوف إلى جانبهم في الأحوال جميعها.

♦♦♦

في صيف عام 1995م، ذهبت مع صديقاتي وهن بريجيت، التي أصبحت متمرسة في قراءة الطالع، وسيلفي، وهي صانعة مجوهرات تعمقت في دراسة التعاليم البوذية، وزوجها سيزار، الذي كان مصمّم مجوهرات مولعًا بحقبة العصور الوسطى، في رحلة بحرية من مدينة هامبورج إلى البحر الأبيض المتوسط أخذتنا إلى ساحل أمالفي الخلاب. ولم تجمعنا بالركاب الآخرين كثير من الأمور المشتركة، فقد كانوا ثلة من الاشتراكيين الأوروبيين المولعين بالحفلات، وبموسيقا (التكنو) التي كانوا يستمعون لها منذ الصباح. وكنّا نفضل أن نجلس على سطح المركب لمناقشة موضوعات تتعلق بعنى الحياة، بدلًا من المشاركة في الحفلات التي كانت تُقام في أثناء تلك الرحلة.

كم كانت سعادتي كبيرة حين اكتشفت أن هناك مبادئ كونية في صميم الديانات كلها، وهي مبادئ توجد في كل مكان، ويمكن للمرء أن يتعرف إليها بطرق شتى. وأخبرتني بريجيت وسيزار عن قوانين الكون السبعة لِـ (هرمس الهرامسة) التي وجدت ذكرًا لها في الفلسفة الإسلامية [(1)]. ومن تلك القوانين، قانون التوافق الذي ينبني على المبدأ الهرمسي: «لكل شيء في السماء ما يقابله في الأرض، ولكل شيء في الأرض ما يقابله في السماء».

ولكل شيء يوجد في هذا العالم ما يقابله على كل مستوى من مستويات الوجود. والكون بأسره ما هو إلا انعكاس وصورة للجزء الدقيق، وكيفية تفاعلنا مع العالم الخارجي ما هي إلا انعكاس لحالتنا الداخلية؛ إنها مرآة لأنفسنا. وإن كنّا في وئام مع أنفسنا، فإننا سنكون في وئام مع العالم الخارجي. وإن تغيرنا من داخلنا، فإن ذلك التغيير سينعكس على كل ما يحيط بنا. كنت أدرك جيدًا أن ذلك صحيح فعلًا.

اقترحت عليّ بريجيت أن تقرأ لي الطالع في أوراق اللعب، غير أني شكرتها، ورفضت اقتراحها بلطف قائلة: «لا يمكنني أن أقبل لأن ديني لا يسمح لي بذلك؛ يعلمنا الإسلام أن المستقبل بيد الله وحده، ولا يعلمه غيره، ولا حتى رسوله صلى الله عليه وسلم». لم تبالِ بريجيت بردّ فعلي، وقالت: «لست في حاجة إلى معرفة ما يخبئه لك المستقبل على أي حال».

مرت مدة بعد ذلك، وتساءلت عما إذا كانت قد لمحت شيئًا من طالعي وعلمت أن أموري ستؤول إلى منحى مغاير جدًّا عما كانت عليه وقتها. ذلك أنه بعد عودتنا من تلك الرحلة البحرية بمعنويات عالية، اكتشفت أنه قد أوقف بث برنامج (تقرير كوكا كولا)، لأن محتواه أصبح مُكررًا في كثير من البرامج التلفازية الأخرى. وفي سبيل تقديم نوع من أنواع الترضية لي، عرضت عليّ إم لي ڤي أن أقدم البرنامج نفسه الذي كنت أقدمه حين التحقت بالمحطة أول مرة. فشعرت بأن ذلك سيكون خطوة للوراء؛ وخلال الوقت الذي عملت فيه في محطة إم تي ڤي أوروبا، قدمت أصنافًا متعددة من البرامج، وكنت أعلم أن هذه المحطة لم تعد قادرة على أن "تمنحني تحديات جديدة في مساري المهني.

وعلى الرغم من ذلك، استمتعت بحفل افتتاح قناة (ڤي إتش 1) في هامبورج، وكانت قناة تابعة لـِ إم تي ڤي أوروبا تتوجه بمحتواها للجيل الأكبر سنًّا، وكانت تقدم نوعًا أرقى من الموسيقا بالمقارنة مع آخر المستجدات في عالم الأغاني المصورة. ونزلنا جميعنا في فندق (أطلنتيك)، وهو فندق عتيق يطل على بحيرة، ويشتهر باستقباله لنجوم موسيقا (الروك)، من أمثال ميك جاجر الذي أخبرني مرة بأنه معجب بعاملات الفندق اللواتي يرتدين زيًّا أسود ذا تطريز أبيض. وذهبت إلى الحفلة مع برنت وراي، وبقيت معهما بعض الوقت في كواليس ذلك الحفل. ناولني

برنت سيجارة حشيش، لكنني رفضت قائلة: «لم يعد بإمكاني أن أقوم بذلك لأني مسلمة الآن، تخيل أن يشاهدني أحدهم الآن»، فرد ضاحكًا: «قد يفيد ذلك في تحسين سمعتك كثيرًا». وعلى الرغم من إصراره، فإنه لم يستطع إقناعي بأن أتناول تلك السيجارة. وأخبرته بأن شعوري بالذنب بسبب احتسائي كأس شامبانيا يكفيني، لكني أشك في أنه فهم ذلك.

وبعد ذلك بوقت قصير، استوقفني آلان إدواردز، وهو رجل له شأنه في مجال العلاقات العامة، قابلته غير مرة على مدى سنين عدة في مناسبات موسيقية مختلفة لمجموعات موسيقية، مثل (بيت شوب بويز) وغيرها. وأخبرني بأن ديفيد يريد التقاط صورة معي، فلم أصدق ذلك. وأما بالنسبة إليّ، فكان ديفيد بُوِي أحد أعظم النجوم في تاريخ موسيقا (الروك)، وعلى الرغم من أني كنت من المعجبين بموسيقاه، فإني لم أفلح في أن أجري مقابلة معه. ويومها، كان هو من يطلب أن يلتقط صورة معي! فكنت في غاية السعادة لدرجة ضاعت مني معها الكلمات، ولم أدرِ ما أقول له. غير أني تذكرت أنه قضى مدة في برلين مع فريق (إيجي بوب) في السبعينيات، فاستهللت حديثي معه بسؤاله عن تلك السنين. فأخبرني بأنه لم يعد إلى هناك منذ أن أطيح بالجدار، وجعلت برلين عاصمة ألمانيا. وقال لي إنه تزوج من عارضة إثيوبية مسلمة، اسمها إيمان، لكني لم أتذكر معنى هذا الاسم إلا لاحقًا. ومن المصادفات العجيبة، أن أخت ديفيد كان اسمها إيمان. ويبدو أنها غيرت اسمها عند اعتناقها الإسلام بعد أن أُغرمت برجل مصري، وتزوجت به، ولم أكن أعرف ذلك حينها.

وقدّمتُ آخر حلقة من برنامج (تقرير كوكا كولا) من مدينة جلاسكو الأسكتلندية، حيث أجريتُ خلالها حوارًا مع أول مجموعة أُشاهد عرضًا لها في حياتي، وهي (سيمبل مايندز). وكانت تلك أول مرة أرى فيها جيم

كير منذ زمن. فدفعه فضوله إلى سؤالي عن أحوالي، وكيف سارت أموري، ولا سيما في باكستان. وكان قد تابع أخباري من خلال الصحف، وعبّر عن إعجابه بشجاعتي وروحي المغامِرة. كان ديفيد قد طلق زوجته، وعندما قابلته وتبادلنا أرقام هواتفنا. وكانت آخر حلقة من ذلك البرنامج خاصة جدًّا بالنسبة إليّ، وأحسست بأن تقديم آخر فيديو كليب أمام الكاميرا كان نهاية حقيقية لحقبة من حياتي.

كنت قد قضيت مع إم تي ڤي سبع سنوات ونصف. ولم يُجدَّد عقدي حين بلغ نهايته في نوفمبر من سنة 1995م. وكانت المحطة حينها بصدد إجراء عملية إعادة هيكلة كبيرة، أطلقت خلالها عددًا من البرامج المحلية، عوضًا عن الاستمرار في بث مجموعة من البرامج الموجهة للمشاهدين في أوروبا بأسرها من محطة بعينها. وبعد أن غادرت المحطة بوقت قصير، أُطلقت إم تي ڤي ألمانيا، و(إم تي ڤي) إيطاليا، فيما أصبحت فروع أخرى لـ إم تي ڤي تركز على أنواع موسيقية محددة. وصارت المحطة بذلك قادرة بصورة أكبر على تغطية العروض الموسيقية المحلية، ويمكنها أن تستجيب بحسب تقدير إم تي ڤي لمتطلبات جماهيرها. ويبدو أن فلسفة المحطة الجديدة كانت تدور حول عدم السماح بتحويل مقدمي برامج المحطة إلى نجوم حقيقيين. فمن وجهة نظر إم تي ڤي، أصبحت أنا وراي كوكس وستيف بليم وربيكا دي روفو نتمتع بمكانة مهمة أكثر من اللازم. وكنا نحن وجوه المحطة في أوروبا بأسرها، ما أجبر إم تي ڤي على الاعتماد علينا. أما الآن، فقد أصبحت المحطة تقوم بتغيير مقدمي البرامج من وقت إلى أخر، فلا يُسمحُ لهم بأن يتركوا بصمة خاصة بهم لدى المشاهدين. غير أن شبكة الاتصالات (الإنترنت) و(الآي تيونز) غيّرا كثيرًا من الأمور في عالم صناعة الموسيقا إلى درجة فقدت معها إم تي ڤي سطوتها ومكانتها في هذا المجال.

وعادةً ما كنت أتساءل عن سرّ اختياري من بين آلاف المرشحين من أرجاء ألمانيا كافة لشغل هذه الوظيفة. وقد أخبرني مارك بوث لاحقًا خلال إحدى الحفلات التي حضرها زملائي السابقون بعدما تركنا جميعنا العمل في إم تي ڤي، بأن شخصًا نافذًا أوصى بي، وكان ذلك الشخص هو ستيف فارجنولي. وأضاف مارك قائلًا: «لقد كانت تلك صفقة مربحة للأطراف كافة». وأخبرني أيضًا بأن برامجي كانت من البرامج التي تحقق أعلى نسب من حيث المشاهدة الجماهيرية، وهو أمر لم يخبرني به أحد طوال سنوات عملي في المحطة. لقد غادرت إم تي ڤي وأنا على علاقة جيدة جدًّا بطاقمها، وبعد أن حققت كل ما يمكن تحقيقه في المحطة؛ ثم إني مكثت فيها مدة قياسية. لكن في حقيقة الأمر، لم تعد ثقافة الفيديو الكليب تستهويني، وكنت قد تخطيتها منذ زمن، وقد أسهم اعتناقي الإسلام في ذلك. وعلى العموم، فقد كان العمل في إم تي ڤي، بحلوه ومرّه، تجربة مثيرة لم أندم عليه ولو لحظة. لكني كنت أتهيّأ لتحديات جديدة. وقد أقامت (إم تي ڤي) حفلًا كبيرًا لتوديعي بحانة في سوهو، وقدم لي طاقمها مرآة مغربية كبيرة هدية بمناسبة مغادرتي، مازلت أحتفظ بها إلى اليوم. ولم أدرِ حينها أن تلك الهدية كانت كأنها إشارة إلى ما خبّأه لي القدر للأيام القادمة.

غير أن الغريب في الأمر هو أن مغادرتي الهادئة لـ إم تي إم تي ڤي لم يكن لها صدًى في ألمانيا، فقد نشرت صحيفة (بيلد) مقالًا تحت عنوانٍ يؤكد أني قد طُردت، وتبعتها جميع الصحف الأخرى التي نقلت عنها محتوى ذلك العنوان. ولم يكن ذلك صحيحًا مطلقًا، ولا سيما أن المحطة ألحت عليّ كي أعود لتقديم برنامج (أفضل الأغاني) ستة أشهر أخرى، بعد أن غادرت المحطة، غير أن ذلك العرض لم يعد يهمني. كنت وقتها أودّ أن أحظى بقسط من الراحة؛ لذا، قبلت دعوة جيم لزيارته الأراضي المرتفعة في أسكتلندا، فصحبني في جولة ليريني المنطقة. ذهبنا بالسيارة لرؤية

مدينة أوبان الساحلية الخلابة، وشبه جزيرة كينتاير التي ألّف عنها بول ماكارتني أغنيته الشهيرة. وزرنا أيضًا أستديو (مجموعة سيمبل مايندز) الذي يقع تمامًا وسط الأراضي المرتفعة، وتطل نوافذه الكبيرة على مناظر رائعة. لا شك في أن تلك الطبيعة الجميلة كانت تبعث طاقة هائلة في الأغاني التي كان جيم وتشارلي يسجلانها في ذلك الأستوديو، وهذا ما يفسر جمالها. وكنا نذهب في نزهات طويلة خلال المناظر الريفية وبين الجبال البعيدة. وبدا لي أحيانًا وكأننا تركنا وراءنا معالم الحضارة كلها. وهناك، لم أملك إلا أن أتذكر جبال باكستان، وحكى كل منّا أخباره للآخر. وقد مرّ هو الآخر بتجارب عصيبة علمته بعضن الدروس المهمة في الحياة. ونصحني بأن أعمل على تقوية مناعتي تجاه العناوين والمقالات الصحفية التي تتناولني، وأن أتجاهلها تمامًا، سواء كانت إيجابية أو سلبية. وأما من جهتي، فقد أخبرته بالمغامرات التي عشتها في باكستان، وكيف قادتني إلى أن أغير ديني. وكان جيم فنانًا مرهف الإحساس، ولم يُخْفِ إعجابه برحلتي الروحية، وبأقراص الموسيقا الصوفية التي أسمعته إياها، وأراد أن يعرف كل شيءٍ عن التصوف. وقد أخبرني أنه لا شك في أني كنت سأشعر بانسجام كبير مع زوجته الأولى، كريسي هايند؛ لأنها كانت تهتم هي الأخرى بالحياة الروحية.

وفي شهر ديسمبر، دعاني صديقي توني جيمس إلى حفلة رأس السنة التي أقامتها قناة كريساليس. وكان يعرف كثيرًا من الأسماء في عالم الإعلام، لم وعرفني ليلتها إلى توت جوتريدج، وهو المدير التنفيذي لشركة الإنتاج المتلفز، (مينتورن)، التي تتخصص في مجال الترفيه. وقدم لي قطعة من كعكة حظ صينية، قائلًا: «اليوم يوم حظك!»، وأخبرني بأن قناة (إن بي سي) أوروبا طلبت منه العمل على الإعداد لبرنامج ثقافي وترفيهي يومي اسمه (ذي تيكت)، أيْ التذكرة، وكان بصدد البحث عن مقدم لهذا البرنامج. قال

لي ليلتها أنه يعتقد أني أفضل من يمكنه أن يؤدي هذه المهمة، وسيكون عليّ أن أتناول أحداثًا ثقافية وفنية، وأجري مقابلات مع فنانين ومخرجين وموسيقيين.

وعلى الرغم من أن تلك السنة كانت عاصفة بالأحداث، فإن نهايتها كانت مثالية. وبغض النظر عن الأبواب الكثيرة التي أُغلقت في وجهي، لكن القدر أراد أن تُفتَحَ في وجهي أبواب أخرى. جلست مرة مع الدكتورة أمينة، وأخذت أسترجع كل ما مر بي من أحداث، فعلقت على كلامي بحكمة يابانية قديمة، تقول: «الآن وقد احترق منزلي، أستطيع أن أرى ضوء القمر».



[(1)] الهدف من وراء تقديم ذلك البرنامج.

____

[(1)] رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

[(2)] شعب الإيمان للبيهقي.

[(1)] ومما ينسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «دواؤك فيك وما تُبصر، وداؤك منك وما تَشعر، وتزعم أنك جرمٌ صغير، وفيك انطوى العالمُ الأكبر.»

الفصل الثامن

التعلّم من أجل الحياة

تعال، تعال أيًّا من تكون، فذلك لا يهمّ
إن كنت كافرًا أو تعبد الأوثان أو تعبد النار .
تعال، فإن مَجْمَعَنَا لا مكان فيه لليأس. تعال حتى
وإن كنت قد نكثت بعهدك مئات المرات تعال مجددًا.

جلال الدين الرومي - الديوان

بعد أن غادرت محطة إم تي ڤي أوروبا، أصبح بإمكاني أن أخصص وقتًا أطول للعمل مع منظمة التعلم من أجل الحياة الخيرية. وكان اسم تلك المنظمة يلخص بدقة نظرتي الجديدة للحياة، وسرعان ما أصبح شعاري في حياتي الخاصة أيضًا. وكنت حينها قد تخطيت كثيرًا من الأمور، وأخذتُ ألْتَفتُ نحو مستقبلٍ بدا لي فيه كل شيءٍ جديدًا وممكنًا.

احتفلت في ديسمبر من عام 1995م، بعيد ميلادي الثلاثين مع أصدقائي، في مطعمٍ بحي نوتينغ هيل، وكان منهم من تعرفت إليه عن طريق عِمران٠ وكان بانتر، وجونسن، وشريعه باختيار، وتوني جيمس، وصديقته بيني وروبي، إضافة إلى داني ولين وأجينتا من بين الحاضرين. وكانت طاقتي قد عادت إلى سابق عهدها من الحيوية والنشاط، وأحسست بأني خرجت من المحنة التي طبعت تلك السنة، وأنا أكثر قوةً وأكثر حكمةً من ذي قبل. وعلى الرغم من أن بقايا حزنٍ دفين كانت لا تزال عالقة بداخلي، فإن حياتي اتخذت منحًى آخر. وكان أمامي طريق طويل عليّ أن أقطعه قبل أن أتمكن من إخلاء وعاء قلبي، وهو تعبير يستخدم للدلالة على الصفاء. فجاهدت كثيرًا للمواظبة على أداء الصلاة بانتظام حتى أتحلى أكثر بالهدوء والصبر. وبذلت أيضًا جهدًا كي أقلل من تناول الكحول. وكان ديني الجديد

يحتم عليّ أن ألتزم بأسلوب في الحياة أكثر استقامة. وكنت أيضًا أدرك جيدًا أن ذلك لن يتحقق بين عشية وضحاها، وأني في حاجةٍ إلى بعض الوقت كي أفلح في مسعاي. فشلت في أول محاولة خضتها لصوم شهر رمضان فشلًا ذريعًا. وكانت تلك التجربة دليلًا واضحًا على المسافة الكبيرة التي كانت تفصلني عن النجاح في مهمتي. وتعرفت عن طريق إحدى صديقاتي إلى سيدة لطيفة جدًّا في منطقة توتينغ بلندن؛ وكنت أقابلها مرة في الأسبوع لتلقنني أساسيات الدين الإسلامي في جو يسوده الهدوء، ونحن نحتسي فنجان شاي. كان اسمها السيدة خان، وهو اسم اكتشفت أنه شائع في جنوب آسيا، ويعني (الحاكم).

ومع اقتراب شهر رمضان، بدأت السيدة خان تُعِدُّني للصيام الذي يُعدّ ركنًا أساسيًّا من أركان الإسلام. وأوضحت لي أن المسلم يمتنع خلال صومه عن شهوتي البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. والصيام، كما أنه عبادة ربانية، فهو تمرين يَحرم بموجبه المسلمُ نفسَهُ مما هومسموحٌ له به في سائر الأيام، حتى يتمكن من أن يصبر على الامتناع عما هو محرم عليه في سائر الأيام. ويكمن مغزى الصوم في تقوية إرادة المسلم، وهو الهدف الذي يسعى المسلم إلى تحقيقه خلال صومه. ويحرم على الصائم أيضًا أن ينقاد وراء كل خلق ذميمٍ، كأن يطلق لسانه بالكلام البذيء، أو يغتاب، أو حتى يظن ظن السوء بالآخرين.

إنه الشهر الوحيد في السنة الذي يخصص لعبادة الله بصورة حصرية؛ أي أن المسلم مطالب بأن يُمضي وقتًا أطول في قراءة القرآن الكريم والصلاة. وأخبرتني معلمتي بأن عليّ أن أفطر مع أخوتي في الإيمان؛ لأن رمضان ليس شهر كبح شهوات النفس والتطهر فحسب، بل إنه شهر الجود والرحمة والرأفة والعطف على الآخرين كذلك. وكنت أستمع لكلمات

السيدة خان دون أن يكون لها وقع كبير في داخلي، أو أن أستوعبها كما يجب.

وفي الليلة التي سبقت أول أيام رمضان، قصدت مطعم سان لورينزو، وهو مطعم إيطالي شهير كنت أرتاده مع عِمران بانتظام، وبعد ذلك توجهت مع بعض الأصدقاء إلى محل (براونز)، حيث احتسيت كأسين من الشامبانيا. وفي صباح اليوم التالي، استيقظت وأنا أعاني جفافًا كبيرًا وصداعًا شديدًا. ولأني كنت أعلم أني لن أشرب، ولن آكل أي شيء حتى غروب الشمس، قررت، على غير عادتي، أن أبقى في السرير طوال اليوم، فشعرت بسوء كبير. وبعد معاناةٍ دامت ساعات طويلة، ما إن حل وقت ما بعد الظهيرة حتى قررت أني لن أتمكن من صيام رمضان، فأفطرت. واستغفرت الله العظيم، بعدها، وأدركت أن وعاء قلبي ما زال ممتلئًا عن آخره. وتبيّن لي أني، إن بقيت على هذه الحال، فلن أتمكن من أن أسلك طريق الخلاص.

واتضح لي يومها أني إن أردت أن أظل على إسلامي، فما من خيار أمامي سوى الإقلاع عن شرب الكحول.

لقد حرّم القرآن الكريم الكحول، وكل ما من شأنه أن يُذهِب عقل الإنسان وقدرته على التمييز؛ لأن تاثير تلك المواد يمنع المرء من أن يرتقي بخُلُقِهِ، ويحجبه عن ربه. ثم إن تلك المواد تجعل منه فريسةً سهلةً للإغراءات والملذات التي لن يفيد الندم لاحقًا على الاستسلام لها. لذا، فإن خروج المرء عن صوابه بسبب الغضب والحنق الشديدين أمرٌ شدَّد الإسلام في النهي عنه. وقد تدرج القرآن الكرم في تحريم الكحول والخمر على ثلاث مراحل، لسبب وجيه جدًّا. فقد جاء في الآية 219 من سورة البقرة ذكر لمنفعة الخمر، وأن إثم تناوله أكبر من نفعه. ثم ورد بعد ذلك في الاية 43 من سورة النساء نهي صريح للمسلمين عن الصلاة وهم في حالة سكر. وفي

المرحلة الثالثة، نزل التحريم الكامل للخمر في الاية 90 من سورة المائدة. لقد كنت حينها قد تمكنت من تفادي تناول الكحول قبل أداء الصلاة، ولم تكن تلك سوى المرحلة الثانية. وكان عليّ أن أجاهد من أجل أن أحقق المرحلة الثالثة كما يجب.

لكن اتضح لي أن الإقلاع عن شرب الكحول كان أسهل مما تصورت. ذلك أني لم أكن أتناول الكحول على نحوٍ كبير حينها؛ لأني كنت أقود طوال الوقت، وحتى حين كنت لا أزال في إم تي ڤي، كنت من المؤمنين بنظرية (كاترين دونوف) التي تقول إن الشامبانيا هي المشروب الوحيد الذي لا ينال من جمال المرأة. وحين كنت أسجل في الأستوديو، عادةً ما كنت ألاحظ أن وجهي لا يبدو على ما يرام على الشاشة بعد قضاء ليلة في السهر، ولا سيما إن تناولت النبيذ الأحمر الذي كان يجعل وجهي يبدو منتفخًا بعض الشيء. لذا، اكتفيت سنوات طويلة بشرب النبيذ الأبيض والشامبانيا. ومنذ أن دخلت الإسلام، لم أكن أحتسي المشروب سوى في المناسبات الخاصة. وكانت أكبر عقبة في طريقي نحو الإقلاع كليًّا عن تناول الكحول، أو على الأقل هذا ما كنت أقوله لنفسي، هي الناس. لقد كان جميعهم يقدمون لي مشروباتٍ باستمرار، وكان عليّ أن أقاوم كي أكتفي بكوب ماءٍ خلال حفلات العشاء، أو خلال المناسبات الاجتماعية. وكان من بين التعليقات التي كان عليّ تحملها، وهم يقدمون لي المشروب: «هيَّا، لِتكُن هذه المرة استثناءً فقط»، أو «لا تكوني مُمِلَّة»، أو«هيّا، الله لا ينظر إلى ما تفعلين الليلة». لقد كان ذلك مزعجًا جدًّا، وكان عليّ دائمًا أن أبرر سبب امتناعي عن الشرب، وعادة ما كان الناس يستاؤون إن لم أشاركهم في الشرب. وبدأت أدرك مدى أهمية الكحول في المجتمع الذي كنت أنتمي إليه.

وبسبب عملي في عالم الترفيه، كان من الممكن أن أشرب حتى الثمالة في مناسبات مختلفة كل ليلة. ولم يكن أحد يتصور، بمن فيهم أنا نفسي، حفلةً ما من دون كحول.

هناك أمر آخر كان يشعرني بالضيق وكان عليّ أن أتحمله، وهو طريقة تقديمي للآخرين من قبل بعض أصدقائي، عن حسن نية، في أثناء حفلات العشاء، وذلك بعبارات، مثل: «رحِّبُوا بكريستيان، التي اعتنقت الإسلام». لقد كنت أشعر بالإحراج بسبب تقديمي بتلك الطريقة. وكان أغلب الناس يحملون انطباعات سيئةً جدًّا عن الإسلام، وكانوا يتعاملون معي على ضوء تلك الانطباعات. وكان من المستحيل تحاشي الحديث عن إسلامي، فكان الناس يبدؤون حديثهم معي في الموضوع في وقت لاحق من السهرة، حين يتعالى صوت الموسيقا، وبعد أن يكونوا قد احتسوا كؤوسًا من الشراب، وأصبحوا يشعرون براحة أكبر وأجرأ على مواجهتي. كنت في البداية أحاول أن أشرح الأمر من وجهة نظري، وأجيب عن أسئلتهم، لكني أدركت أن ذلك لا يجدي نفعًا. لقد كان الحديث عن الإسلام، أو الحياة الروحية غير مناسب في حفلات العشاء والحانات والملاهي الليلية. وقد ذكرت مرة لمخرجة أفلام أني شعرت بالانجذاب لأناسٍ متواضعين، ويتحلون بإيمان كبير، فكان ردها: «لكن، لمَ يريد المرء أن يكون متواضعًا أومؤمنًا؟ أنا لا أريد أن أكون كذلك!»، أظن أن تلك الخصال لم تكن منتشرة في عالم الترفيه. اعتدت بعد مدة على ألا أتناول الكحول ألبتة، لكني على الرغم من ذلك كنت أستمتع بوقتي في تلك المناسبات العامة. غير أني كنت أعود إلى بيتي حالما يبدأ تأثير الكحول يظهر على الحاضرين. وأصبحت بعد ذلك أستيقظ، وأنا في كامل حيويتي ونشاطي. وبدا لي أني أصبحت أحظى بوقت أطول في حياتي، وأقوم فيها بأمور أكثر من السابق.

لاحظت أني، كلما أتيحت لي فرصة خوض نقاشٍ معمقٍ مع أحدهم، كنت أستطيع أن أجادل، وأسوق الأدلة التي تدعم رأيي على نحو جيد من وجهة نظر إسلامية، سواء كان النقاش ذا طابع اجتماعي أوفلسفي. ولاحظت أيضًا أن ديني كان يُمَكِّنُنِي من النظر إلى الأمور من زاوية مختلفة تحظى بتقدير بعض من أتحاور معهم. وأذكر أن سيدةً أخبرتني خلال حفلِ عشاءٍ كيف عاشت حياتها سنوات، وهي تحمل على كاهلها إحساسًا بالذنب بسبب وفاة جدِّها. ورَوَتْ لي كيف أنها كانت تستعد للذهاب لعملها صباح أحد الأيام، ولم تتمكن من تشغيل سيارتها، فما كان منها ألا أن اتصلت بجدها. وعلى الرغم من كل مشاغله الأخرى، تمكنت من أن تقنعه بأن يترك كل شيءٍ ، ويأتي إليها كي يوصلها إلى مكان عملها. وبينما كانت تتنظر وصول جدها، فكرت في أن تحاول تشغيل السيارة من جديد، ولما نجحت في تشغيلها، انطلقت إلى مكان عملها. وحينما اتصلت بجدها، علمت أنه تعرض لحادث بينما كان في طريقه إليها، وتوفي على إثره. رأيت أثر الأسى والحزن عليها، وهي تسرد لي قصتها، وأخبرتني بأنها من يومها وهي تعاني تأنيب الضمير بسبب ما جرى. فحاولت مواساتها، وقلت لها: «دعيني أحاول أن أخفف عنك هذا الإحساس بالذنب. لقد تعلمت من ديني أن الحياة والموت أمران بيد الله وحده ولا أحد سواه. إننا نموت في الأجل الذي قُدِّرَ لنا فيه أن نموت، وليس قبله ولا بعده بثانية واحدة. لقد توفي جدك في الأجل الذي كان مقدَّرًا له فيه أن يتوفى، ولو أنه لم يُتوفَّ وهو قادم إليك لُتوفِّيَ ظروف أخرى».

كنت آمل أن تكون كلماتي قد أفلحت في التخفيف عنها بعض الشيء. لقد كنت سعيدة؛ لأني كنت أستطيع الاستناد إلى ديني الذي كان يعطيني القوة والتبصر اللازمين للتعامل مع مثل هذه الأمور العميقة. لقد كان ديني مصعدر قوة لي.

وكنت كلما أحسست في نفسي أني في حاجة إلى الرفقة الطيبة، وإلى تجنب الانغماس في ليالي لندن الصاخبة، زرتُ المتصوفة. وخلال بضعة أشهر، أصبحت أجد في الشيخ ناظم وأتباعه ملاذًا أجد فيه منبعًا للطمأنينة والسلام. لقد شعرت بفائدة كبيرة وأنا أشارك معهم في تأدية الصلاة جماعةً، وفي حلقات الذكر وتناول الطعام. غير أني أدركت بعد وقت قصيرٍ أن دوائر المتصوفة ليست دائمًا على ما تبدو من الصفاء. وكنت بين الفينة والأخرى أتحدث إلى أصدقائي عن الصوفية، وما تعنيه لي. فلقيت استجابة عفوية من روبي التي كانت تسميه (الإسلام الحقيقي). غير أن الأمر لم يكن يهم أصدقاء آخرين، ومنهم داني. لقد كانت تؤمن بالله، وأبدت إعجابها بالتصوف، بل ورافقتنا مرات عدة إلى مسجد الشيخ ناظم، لكنها كانت تحمل بعض الأحكام المسبقة عن الإسلام والمسلمين ولم تتمكن من التخلص منها. ولأن داني كانت تحب كلبها كثيرًا، كان أسوأ ما تعيبه على المسلمين هو عدم اهتمامهم بالكلاب؛ لأنهم يعتبرونها ،نجسة. أخبرتها بأن جاي إيتن كان هو كذلك يحب الكلاب، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحب الحيوانات كلها. ولم يُفْضِ الحديث معها في الموضوع إلى أي نتيجة. وعلى الرغم من أن علاقتنا ظلت جيدة على مستويات عدة، فإننا كنا نتحاشى التطرق ألى هذا الموضوع.

وكان بوب جيلدوف من بين المشككين في الإسلام. كانت معنوياته محطمة حين قابلته، وظننت أنه قد يتحسن إن أولى حياته الروحية بعض العناية، على غرار ما وقع معي. غير أنه أخبرني بأنه مُلحدٌ ثابت على إلحاده، على الرغم من أنه ذكر أن أخته تعافت في لورد بفرنسا من مرض كانت تعانيه فيما يشبه المعجزة. ومع ذلك، لم يكن يؤمن بالله. وكان ذلك أمرًا مؤسفًا من وجهة نظري، ولا سيما أنه كان يعمل في سبيل خدمة قضايا إنسانية، وجمع كماً هائلاً من التبرعات من خلال الحفلات

الموسيقية التي اقامها من أجل مساعدة القارة الإفريقية. أعطيته كتاب جاي إيتن عن الإسلام لعله يفتح عقله وقلبه للايمان، ودعوته إلى حضور محاضرة للشيخ ناظم خلال حفل عشاءٍ نظمته مع بعضى أصدقاني لفائدة غير المسلمين الدين كانوا مهتمين بالتصوف.

لا أدري إن قرأ الكتاب ام لا، لكنه وافق على حضور المحاضرة. وقال ننه مهتم بان يقابل «وليًّا صالحا»، بحسب تعبيره. وكان أندروودانى وروبي والدكتورة أمينة والأميرفريد الدين من ضمن الحضور، إضافة إلى بعض أتباع الشيخ ناظم الدين أتوا من دون دعوة. وأنصت بوب للمحاضرة، لكنه أخبرني لاحقًا بأنه شعر بالملل، وأن كلام الشيخ ناظم كان هراءً ، وأنه لم يفعل سوى سرد الأفكار النمطية الواحدة تلو الأخرى؛ بل قال إن الشيخ ناظم ليس شيخًا في حقيقة الأمر، بل مدعيًّا له طائفةٌ من الأتباع، وأن ما يدعو إليه ليس دينًا صحيحًا. أجل، إن بوب معروف بصراحته اللاذعة، وعلى الرغم من أن انتقاده ذاك كان قاسيًا بعض الشيء، فإنني أعترف أن الشيخ ناظم لم يكن ليلتها كما عهدته من قبل. لقد شعرت بالإحراج؛ لأن تلك الليلة لم تمر كما كنت آمل لها، غير أني قلت لنفسي إني لم أخسر شيئًا في محاولتي مساعدته بشكل من الأشكال. لكن ربما كانت المحاولة في حد ذاتها هي تمامًا الخطأ الذي ارتكبته؛ لأنه بعد مرور بضعة أسابيع على تلك الليلة، زارني بوب في منزلي، وناولني مقالًا في إحدى الصحف، قائلًا: «يا لك من امرأة سيئة». كان المقال منشورًا في صحيفة تركية، ويدّعي كاتبه بأن بوب اعتنق الإسلام، وانضم إلى مجموعة الشيخ ناظم الصفية. وذكر المقال أن اسم بوب الجديد هو عبد الله، وأن دليل إسلامه صورةٌ نشرت له وهو على المائدة نفسها مع الشيخ ناظم. من الواضح أن أحد أتباع الشيخ ناظم التقط صورًا خلسة خلال تلك الأمسية، وسربها للصحافة. كم كانت صدمتي كبيرة أمام تلك الواقعة. وأخبرني بوب بأن شركة العلاقات العامة،

وشركة التسجيلات التي يتعامل معها تلقتا عددًا لا حصر له من المكالمات الهاتفية من جهات مختلفة تودّ التَّحقُّق من الخبر. لقد كان من حسن الحظ أن بوب لم يُوِل الأمر أهمية كبرى، وسخر منه، على الرغم من أن شائعة من هذا القبيل كانت آخر ما كان يحتاج إليه، ولا سيما في ظل الظروف العصيبة التي كان يمر بها حينها. شعرت بسوء كبير لما حدث ولم أتمكن من نسيانه بسهولة. كما اتصلت بالمجموعة الصوفية، وصببت عليهم جام غضبي لما وقع. وقلت لهم إن ما حدث كان خيانةً لثقتي بهم، وأن أحد أفراد تلك المجموعة لم يكتفِ بالتقاط صورة لبوب ونشرها من دون موافقته، بل قام بنشر أكاذيب ملفقة عن اهتمامه بالإسلام واعتناقه إياه. كان من الواضح أن تلك المجموعة أرادت أن تستخدم اسم نجم شهر لتعزيز صورة الإسلام. لكني لم أتصور أن ينتهج أحد أسلوب التلفيق والأكاذيب من أجل الدعوة إلى الحق. ولا أعلم إن كان الشيخ قد أقرّهم على فعلهم ذلك أم لا، لكن تلك المسألة لم تغير من الأمر في شيء. وعلى الرغم من حديثي إليهم بشأن ذلك الخبر وزيفه، فإنهم لم يزيلوه من الموقع الإلكتروني للطريقة، بل نشروا بعد ذلك مقالات تلمح إلى اعتناق الأمير تشارلز الإسلام.

توقفت بعد ذلك عن الذهاب إلى مسجد الطريقة النقشبندية، وكنت بذلك قد خسرت المجموعة الصوفية التي كنت ألجأ إليها، ويجد فيها قلبي الطمأنينة التي يبحث عنها. لكن ربما تلك المجموعة هي التي خسرتني. وبعد مدة من ذلك، اضطرت الدكتورة أمينة هي الأخرى إلى ترك تلك المجموعة، وكان لها أسباب وجيهة في ذلك. حيث كانت مكلفة بحسابات تلك الطريقة بصفتها أمينة الصندوق، وكان الصندوق يتلقى تبرعات تسخرها الطريقة في العناية بمقرها، أو في القيام بأنشطة خيرية. وكان أتباع الشيخ ناظم الدين يقصدونه بحثًا عن الإرشاد يجزلون له العطاء.

غير أن الدكتورة أمينة أخبرتني بأنها وقفت على اختلالات في الشؤون المالية للطريقة، وأن الشيخ ناظم لم يتدخل لإصلاحها على الرغم من علمه التام بها. فلم تجد حينها بُدًّا من أن تُبَلِّغَ عن تلك الاختلالات لدى سجل الشركات البريطاني، وسجل الهيئات الخيرية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل اتهم أحد نواب الشيخ الدكتورة أمينة باختلاس مبالغ من الصندوق على مرأى من كل الحاضرين في المسجد، في حين كانت في الحقيقة قد تبرعت بمبالغ كبيرة للصندوق. شعرت بأسًى كبيرٍ لدى سماعي هذه الأخبار. لقد كنا قد أُبهِرنا بالشيخ ناظم، وأحببنا إحساس الانتماء الذي شعرنا به بين ظهراني أتباعه. غير أن ثقتنا به تزعزعت، ولم يكن من بُدٍّ من أن أقاطع تلك المجموعة كليًّا. ووقفت مرة أخرى على أهمية ألَّا أثق ثقةً عمياء في البشر، لأنهم مجبولون على الخطأ. أما الله، فهو الوحيد الذي علينا أن نؤمن به، ونثق فيه ثقة مطلقة. لقد كان الله هومن أسعى إلى الوصول إليه، وأن أعبده، وظللت أتلمس الإشارات التي ستهدينى إلى طريقه.

كانت أغلب تلك الإشارات متضمنة في الكتب التي كنت أمتلكها عن الإسلام. وقد أصبحت مؤلفات آن ماري شيمل من أكثر الكتب التي أنارت بصيرتي. وقد كانت شيمل عالمة ألمانية متخصصة في الإسلام، والتصوف على وجه الخصوص، وكتبت أكثر من ثمانين كتابًا عن الإسلام والتصوف والثقافة الإسلامية، وكانت تحظى باحترام كبير في العالم الإسلامي. وقد حصلت سنة 1995م على جائزة السلام التي تمنحها المكتبات الألمانية خلال معرض فرانكفورت للكتاب.

كان كتاب (الأبعاد الصوفية للإسلام) أول ما قرأت من أعمال شيمل. وكان الكتاب عبارة عن تقديم مستفيض ومعمق للتصوف. كما كنت أحضر محاضراتها في لندن حيث دأبت أكاديمية (تيمينوس)، التي يرعاها

الأمير تشارلز، على دعوتها بصفتها محاضرة شرفية. وكانت شيمل تقدم محاضرات رائعة عن مظاهر التصوف، وأذكر أنها تحدثت في إحدى تلك المحاضرات عن شاعر الحب، جلال الدين الرومي، الذي خصصت له كثيرًا من أعمالها. وكانت حين تتكلم تغمض عينيها، وتسترسل في الحديث من دون النظر إلى أوراقها. وكانت تسرد أشعارًا بلغات مختلفة بكل سلاسة، وتنتقل بكل يسر من الفارسية إلى العربية، بل وحتى لغات محلية كالبشتو. وعقب إحدى محاضراتها، اقتربت منها، وتحدثنا عن باكستان. وعلى الرغم من أنها كانت تعيش في بون، فإنها كانت تعد باكستان وطنها الثاني. وتجدر الإشارة إلى أن أحد شوارع لاهور يحمل اسمها. واكتشفت خلال حديثنا أن لنا أصدقاء مشتركين، مثل يوسف صلاح الدين، الذي بقيت على تواصل معه. وقد أخبرتني شيمل بأنها استمتعت هي الأخرى بتناول وجبة العشاء في قصره في لاهور.

كنت في رحلة إلى توباجو، جنوب بحر الكاريبي، مع صديقتي من هامبورج سيلفي عندما قرأت أول كتبها. كنت حينها في أمس الحاجة إلى الذهاب في تلك العطلة؛ وعلاوة على الظروف الصعبة التي كنت أمر بها حين اعتنقت الإسلام، نشبت خلافات كبيرة بيني وبين زوجة أبي الجديدة، وكنت أشعر بإحباط كبير. وجدت حينها سلواي في كتاب (الأبعاد الصوفية للإسلام). فقرأت أن الصوفية، على الرغم من تعرضهم للانتقاد والاستهجان، فإنهم لم يردوا على ذلك الأذى، بل كانوا يقابلونه بالابتسام، ويمضون في حال سبيلهم. وقد أعجبتني فكرة كسب الناس بالطّيبة وحسن الخُلق عوضًا عن الأذى، بالصبر وسعة الصدر وكرم الروح. وعدت نفسي بأن أمد أغصان الزيتون لزوجة أبي، وأن أقتدي بقوة الصبار في علاقتي بها في أقرب فرصة.

وتحدثت مع سيلفي خلال تلك الرحلة عن الصعوبات التي كنت أواجهها حينها، وأفضت إليّ هي الأخرى بمشكلاتها خلال نزهاتنا الطويلة في تلك الجزيرة. لقد ساعدنا !الحديث على التخفيف من عبء الهموم التي كنّا نحملها على عاتقنا. وتحدثنا كذلك عن الحياة الروحية وحاجتنا إليها. وكانت سيلفي تسلك طريقًا مختلفة عن الطريق التي سلكتها، لكننا اكتشفنا أن مبادئ مشتركة عدة كانت تجمع الطريقين. ذلك أن التصوف والبوذية يدعوان إلى مراعاة الأخلاق والنبل والفضيلة، والتغلب على الأنانية من خلال التربية الروحية. وكلتا المدرستين تصفان الحالة التي يصبو المرء إلى الوصول إليها على أنها الطمأنينة، على الرغم من أن الصوفيين يؤمنون بأن ذلك يكون من خلال فناء الذات وبقاء الروح من خلال الله. أما البوذيون، فيؤمنون بتحقيق ذلك عن طريق ما يسمونه (نيرفانا)، ومعناه الإخماد، ويعرفونه بأنه التحول أو المرور إلى شكل آخر من أشكال الوجود. ويعرّفه الدلاي لاما بأنه «حالة من التحرر من الآلام»، أو «التحرر من الشكل الدوري للوجود».

كانت تلك رحلة استفدنا منها روحيًا، ونلنا فيها قسطًا من الراحة. وبينما كنت أصلي، كانت سيلفي تستيقظ باكرًا لتمارس طقس التأمل. وبعد أن نتناول فطورًا صحيًا، كنا نذهب إما إلى الشاطئ، أو نتجول في الجزيرة بالسيارة للاستمتاع بالمناظر الطبيعية الخلابة أو التنزه خلالها. وكنا في أغلب الأوقات نقضي وقتنا في القراءة. وأذكر أني مرة كنت أقرأ كتابًا في حديقة الفندق، حين بدأ بستانيُّ الحديقة في التحدث أليّ. وتبيّن لي أنه مسيحي مخلص ومتشبث بدينه. وأخبرني عن علامات نهاية العالم وقال إن بعضها ظهر فعلًا. وافقته على كلامه، وأخبرته بأن ذلك مما يؤمن به المسلمون كذلك. بدا لي من خلال الحديث إليه أن اختلال ميزان القيم هو القاسم المشترك بين الأديان، فقد أصبح ينظر ألى السلوك الحسن على أنه

ممل، وغدا السلوك السيئ مثيرًا، ويسترعي اهتمامًا أكبر. اتفقنا على أنه من المؤسف أن أغلب الناس ابتعدوا عن الاهتداء بالتربية الروحية في حياتهم، ولم يعودوا يقبلون بنظرة للكون تضع الله في صلبه، وأصبحوا يجنحون نحو سلوك أناني وربما تدميري، كما لوأن الناس قد أحدثوا قطيعة بينهم وبين النور الإلهي الذي يهدي خطاهم. وبعد نهاية حديثنا، أهداني البستانيّ نبتة صبار اقتلعها بكل عناية من الحديقة. وقد وضعتها في مطبخي، ونبتت وأزهرت زهورًا رائعة الجمال. ولا يقتصر استخدام الصبار في توباجو فقط على علاج الحروق التي تصيب الجلد، بل يستعمل كذلك في تنقية الجسم من السموم التي يحتويها، وهوتمامًا ما أردت أنا وسيلفي أن نقوم به.

تلقينا دعوة من برايان فيري لحضور مهرجان محلي، غير أننا لم نتمكن من تلبيتها بسبب الأنشطة التي كنا نقوم بها خلال عطلتنا. وصادف أنه كان يقضي إجازته في توباجو خلال فترة تواجدنا بها. وقد صادفناه مرة، وهو يتناول العشاء في مطعم بصحبة زوجته وأولاده، فسلمنا عليهم أنا وسيلفي، وجلسنا إلى طاولة منفصلة. لكنه عاد إلى المطعم بعد ساعة من مغادرته وأسرته، وانضم إلينا، فشربنا وتحدثنا معًا. وخلال تلك الأمسية، دعانا باريان إلى حضور ما يسمى (مدرسة الأحد)، وهو مهرجان أسبوعي تشارك فيه فرق موسيقية تعزف على آلات معدنية محلية، وتعزف موسيقا تسمى (موسيقى ستيل)، ويحضر ذلك المهرجان جمهور كبير، وهو يحتسي شراب الرمان، ويرقص حتى طلوع الفجر على نغمات الآلات المعدنية، وموسيقا (الريجي) و(كاليبسو)، فيما يشبه الخط الطويل الذي يتكون من الراقصين يقف الواحد منهم فيه خلف الآخر. ولأني كنت وسيلفي نسعى إلى أن نعتني بالجانب الروحي من حياتنا خلال تلك الرحلة، آثرنا أن نعتذر عن تلبية دعوته، ونمنا باكرًا ليلتها.

لكننا لم نستطع أن نظل بعيدتين عن أجواء الحفلات وقتًا طويلًا، وما إن عدنا إلى لندن، حتى احتفلنا بيوم ميلاد سيلفي في حفل عشاء في مطعم لورينزو الإيطالي الذي يقع في حي نايتسبريدج، حضره كل من برايان وجونسون وداني ولين وشريعة، وبعض الأصدقاء المرحين.

بدأت الأمور في حياتي الشخصية، على الأقل في ظاهرها، تتحسن حين ظهرت صورة كبيرة لي ضمن قائمة مئة عازب وعازبة في مجتمع لندن، الذي يحظى بشهرة كبيرة، وينشر تحت اسم (الكتاب الأسود الصغير)، وتشرف مجلة الصالونات (تاتلر) الشهيرة على إصداره. وكان مفاجأة سارة أن يكون اسمي ضمن تلك القائمة، على الرغم من أن التعليق الذي أرفقته المجلة بالصورة كان: «يُستحسَن أن تتحدث إليها بلغة المساجد».

ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يطرق بابي عدد لا بأس به من الخطّاب الذين كانوا مرشحين ممتازين بالمقاييس كلها، وكان منهم موسيقيون ورجال أعمال وأرستقراطيون وشخصيات تلفازية ومخرجون سينمائيون. وقد أصبح جلهم أصدقاء لي، لم تتطور علاقتي بأي منهم إلى أبعد من الصداقة. ومهما بلغت درجة إعجابي بهؤلاء الرجال، فإنهم كانوا يفتقرون إلى أمرٍ ما؛ كان ذلك الوهج الداخلي هو حب الله الذي أصبحت من خلاله أرى العالم وأختبره. ومن دون ذلك الوهج، كنت متأكدة أن علاقتي بشريك الحياة ستكون محدودة. وقد تساءلت مرارًا وتكرارًا عما إذا كنت أبحث عن المستحيل. وقد نصحتني صديقاني بألا أستثني إمكانية الزواج من رجال غير مسلمين. وكُنَّ يسألنني عن المكان الذي سأقابل فيه خُطَّابِي، وكنّ يقلقن من أن يكون لديهم خلفيات ثقافية مختلفة عني، ولا سيما بالنظر إلى التجارب الخاصة التي عشتها.

لكن لم أستطع أن أتحكم بشعوري وإحساسي، وكان عليّ أن أكون

صادقة مع نفسي، حتى وإن كانت العزوبة هي الثمن. ومن غير قصد مني، كنت أتخلص من الخُطَّاب واحدًا بعد الآخر كلما أخبرتهم بأن ديني لا يسمح لي بأن أعيش علاقة حميمية كاملة خارج إطار الزواج. غير أني استخدمت تلك الورقة غير مرة، حين لم يكن يعجبني خاطب ما. وإن أصرّ ذلك الشخص على موقفه، ولم يكتفِ بتلك الكلمات، لم أكن أتوانى في إخباره بأني كنت أتطلع إلى الزواج من مسلم يحمل القيم والعقائد نفسها التي أومن بها. وإن بالغ في الإصرار، كنت أعطيه كتابًا أو اثنين عن الإسلام حتى تعرف بعض أساسيات الدين الإسلامي. وقد تمكنت بذلك من أن أتحدث مع بعض الأصدقاء عن أمور فلسفية مهمة ومعمقة. لكني كنت أدرك أنهم إن لم يكونوا يؤمنون بالله، أولا يقبلون بفكرة وجوده، فلن أتمكن من أن أنعم بجانب من الحياة هو من الأهمية بمكان بالنسبة إليّ. ذلك أنه من ناحية، كان ديني يعينني على أن أضع الأمور في نصابها، وأن أكون صريحة مع كل خاطب من البداية، وكان ذلك أمرًا يُشعِرُني بحرية كبيرة. لكن من ناحية أخرى، واجهت مشكلة ظلت تتكرر مع كل خاطب غربي وغير مسلم؛ فلا أحد منهم كان يتخيل إمكانية إرجاء العلاقة الحميمية إلى ما بعد الزواج، وأني لم أقابل أيضًا أي رجل يفكر في إمكانية اعتناق الإسلام. وكنت أعرف أن لا أحد من الذين كانوا يتوددون أليّ كان مناسبا لي، وأن العثور على الشخص المناسب قد يستغرق وقتًا طويلًا. لكن أملي هوألا يكون قدري أن أنتظر أكثر من اللازم قبل أن أجده.

صار عملي الجديد في (إن بي سي) أوروبا يستحوذ على كل وقتي، حيث كنت أقدم برنامجًا يوميًّا يُدعى (ذي تيكت إن بي سي) أيْ تذكرة إن بي سي. انطلق بث ذلك البرنامج في خريف عام 1996م، وكان يبلغ عدد مشاهديه الملايين في أوروبا والشرق الأوسط وشمال إفريقيا. وتمكنت في ذلك البرنامج من أن أتطرق إلى موضوعات أكثر تنوعًا من تلك التي كنت أتحدث عنها

خلال عملي في إم تي ڤي. ووجدت أيضًا أن العمل في (إن بي سي) كان أكثر إثارة للاهتمام. حيث أجريت لقاءات مع مشاهير الموسيقا الكلاسيكية في العالم، مثل اليهودي مينوهين وپلاسيدو دومينجو، علاوةً على المخرجين بيتر غرينواي ومايكل رادفورد، والممثل بن كينغسعلي، والمغنية يوت ليمبر.

وكان عملي في البرنامج يسمح لي بأن أتحكم بالمادة التي أقدمها لمشاهديّ، فكنت مثلًا أقدم تقريرًا عن مهرجان السرعة الذي يقام في مضمار ملكية (إيرل أوف مارش)، إضافة إلى مقابلات مع بيتر جابرييل وستيف وينوود. وقدمت أيضًا تغطية خاصة لمعرض رائع للفن الإسلامي أقيم تحت عنوان (أمراء وشعراء وفرسان)، ضم مجموعة خاصة من التحف الفنية من الإمبراطوريات الفارسية والمغولية والعثمانية، تعود إلى الأمير صدر الدين آغا خان. وحين توفي المغني الصوفي الكبير نصرت فاتح علي خان في لندن ولما يتجاوز عمره 49 سنة، قدمت نعيًا له في برنامجي. لقد كان من الرائع بالنسبة إليّ أن أحظى بحرية المساهمة بأفكاري، وأوسّع نطاق اهتماماتي في إطار تقديم ذلك البرنامج.

ومع ذلك، كان الجانب السلبي في تلك المهنة، هو أني كنت مجبرة غير مرة على تقديم مواد تتنافى مع قيمي ومبادئي الجديدة، وكان ذلك يشعرني بحرج كبير. ومن تلك المواد أذكر على سبيل المثال، أفلام المخرج كوينتن تارانتينو، التي تحتل مشاهد العنف فيها حيزًا كبيرًا، علاوة على فيديوهات (موسيقا الهارد روك الشيطانية)، ومواد تتعلق بما يسمى (الفن الصادم) التي كانت تحتوي على مشاهد جنسية. وكنت عادة ما أجد نفسي في صراع مع ضميري بسبب ذلك. وعلى الرغم من أني كنت أستمتع كثيرًا بعملي في (إن بي سي) أوروبا، الذي كان في الوقت نفسه يغطي نفقاتي الحياتية، فإني بدأت أشعر في قرارة نفسي بأني لن أستمر في العمل في مجال الترفيه إلى

الأبد، إن تنامى تشبثي بديني الجديد. وهذا بالتحديد ما وقع.

هلّ شهر رمضان مجددًا، وعلى الرغم من أنه لم يمضِ على بدئي في تقديم ذلك البرنامج سوى بضعة أشهر، فإني كنت عازمة هذه المرة على أن أصوم رمضان كما يجب. وبذلت ما في وسعي كي أستعد لهذا الشهر نفسيًّا، وسخّرت لذلك كل ما أوتيت من قوة.

كان صيام ذلك الشهرتحديًّا كبيرًا جدّا؛ لأن رمضان تزامن مع المدة التي تسبق أعياد الميلاد، وكّنا نصور ضعف عدد الحلقات التي كنّا نصورها عادة؛ حتى نتمكن جميعًا من الحصول على إجازة من أسبوعين خلال تلك الفترة من السنة. وكنت أقف أمام الكاميرا طوال اليوم، إضافة إلى تسجيل وصلات التعليقات التي تُرفق بالتقارير المصورة. وكنت معتادة على أن أجدد طاقتي من خلال تناول وجبة خفيفة أو اثنتين، وبعض الماء الذي كان يجنبني جفاف حلقي وحبالي الصوتية. لكني كنت سأضطر طوال شهر كامل إلى أن أستغني عن المأكل والمشرب من طلوع الفجر وحتى غروب الشمس. وعلى الرغم من نيتي الحسنة، فإني لم أكن متأكدة من قدرتي على تحمل ذلك.

عانيت خلال اليومين الأولين صداعًا في رأسي، غير أن جسمي تكيّف مع واقع الحال. وفي نهاية المطاف لم يكن الصيام بتلك الصعوبة التي تصورتها. بل إني بعد مرور بعض الوقت، استمتعت برمضاني ذاك. وكنت خلال وقت ما بعد الظهيرة أشعر ببعض الدوار، وأحسّ كأني في عالم غير حقيقي، وعلى الرغم من محافظتي على صفاء ذهني، فإني كنت أحسّ كأني في عالم آخر. وبدا لي كأن الصيام كان يؤثر في قلبي وروحي، وجعلهما مستعدين أكثر لتلقي بركات ذلك الشهر. إضافة إلى ذلك، وجدت أن الصيام ينقي حاستي الشم والتذوق لديّ، فأستمتع برائحة الطعام ومذاقه عند الساعة الرابعة

والنصف مساءً. ولقد أحسست بعد أن انصعت بانضباط للتعاليم الخاصة بالصيام بأني حققت إنجازًا كبيرًا. وأخيرًا وليس آخرًا، فإن الصيام اختبار حقيقي لقوة إرادة الإنسان، وكلما شعرت بأن قوة إرادتي بدأت تخور، كنت أذكّر نفسي بأني أستطيع أن آكل ما أشاء بعد غروب الشمس. لكن الغريب في الأمر هو أني، وبعد يوم كامل من الصيام، كنت أشعر بالشبع حين أتناول وجبة صغيرة. إن من السُّنّة أن يفطر المسلمون على بضع تمرات؛ تأسيًا بالمصطفى صلى الله عليه وسلم. وكنت أحب أن أفطر على تمرة أو تمرتين، وكانت كل تمرة منهما كبيرة وحلوة جدًا، مع كوب من الحليب. واعتدت على أن آخذ معي بعض التمر إلى مكان عملي. وكان زملائي في (إن بي سي) ودودين جدًّا، ويعينونني كثرًا. وقد اقترح أحد المنتجين مرة أن يجلب لي وجبة غداءٍ؛ لأني سأواصل العمل من دون توقف، لكنه ما إن تذكر أني كنت صائمة حتى اعتذر لي بشدة على اقتراحه ذاك. لقد دُهش زملائي لقوتي البدنية على تحمل الصيام، ووجّه لي بعضهم الإطراء، وقالوا لي إني أبدو متألقة على الرغم من صيامي. ربما كان مردّ ذلك التألق إلى حقيقة أن الصيام عبارة عن عملية تطهير تطال جوانب عدة من الإنسان، سواء على المستوى المادي أو الروحي. إضافة إلى الامتناع عن الأكل والشرب طوال اليوم، كنت أحاول أن أتجنب الغيبة والنميمة وقلة الصبر والغضب، وأحاول عوضًا عن ذلك أن أحافظ على أدبي وحسن تخلقي مع كل من أتعامل معهم. ربما لم أكن أفلح في ذلك دائمًا، غير أني كنت أبذل جهدًا صادقًا لتحقيق ذلك. وكنت أقرأ القرآن الكريم كل يوم، لكن ليس بالوتيرة نفسها لقراءة أولئك الذين يختمون كتاب الله في هذا الشهر الفضيل. إضافة إلى ذلك، رافقت الدكتورة أمينة بضع مرات لأداء صلاة التراويح في مسجدٍ بجنوب لندن. ربما كان لكل هذه الأمور أثر في المرء يجعله يبدو متألقًا.

وعلى أي حال، وعلى الرغم من عملي الشاق، فإن ثاني رمضان أصومه بعد إسلامي كان ينساب بكل سهولة ويُسر. وكانت أستاذني، السيدة خان، قد أخبرتني بأمرٍ ما كان مصدر تشجيع كبير لي؛ وهو أن رمضان شهر البركات بامتياز، ولا سيما العشر الأواخر منه، لأن ليلة القدر التي أنزل القران الكريم فيها على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تقع فيها. وكانت تقول لي: «إن كل من صام رمضان كان آمنًا طوال ذلك الشهر، ولا يمسه أي سوء». وقد رُوِيَ عن الرسول عليه الصلاة والسلام، قوله: «في رمضان تفتح أبواب الجنة، وتغلق أبواب النار» [(1)]. وبهذا المعنى، يكون الصيام حماية روحية للصائم. لقد أكسبتني معرفة هذه الأمور شعورًا بمزيد من القوة والثبات. وكنت أحيانًا أشعر ببعض الضعف. فأذهب للنوم قبل موعد نومي المعتاد. وقد بدأ الإرهاق يدبّ فيَّ، ولا سيما في نهاية رمضان. لكن ما إن انقضى حتى دبّ فيَّ شعور بالسعادة الغامرة؛ لأني شعرت بأني تطهرت، وأصبحت أقرب إلى الله عز وجل. وكان ذلك شعورًا رائعًا دام حتى بعد انتهاء شهر الصيام.

يحتفل المسلمين بعيد الفطر حين يرون هلال شهر شوال. وتذكّرني كلمة الفطر بالفِطرة،

أي الطبيعة التي فطر الله الناس عليها. إنها الحالة التي ولدنا بها، والتي نسعى إلى العودة إليها من خلال تأدية شعيرة صيام رمضان. اتصلت بي روبي كي تتمنى لي عيدًا مباركًا. ولم ألتقها في ثاني أيام العيد؛ لأنها كانت تحتفل بتلك المناسبة مع أسرتها، شأنها في ذلك شأن جميع المسلمين. وعيد الفطر مناسبة شبيهة إلى حدٍّ ما بتخليد عيد ميلاد المسيح عند المسيحيين، غير أنه مرتبط لدى المسلمين بتأدية فريضة الصيام لشهر كامل. وفي أنحاء العالم الإسلامي كافة، يحتفل المؤمنون بهذا العيد بارتداء أجمل ثيابهم،

وإقامة مأدبة بهذه المناسبة، وتوزيع الهدايا على الصغار. إضافة إلى ذلك، يتبادل المسلمون التهاني، ويتطلعون إلى تناول الأطباق الشهية التي ربما لم يتناولوها خلال شهر كامل. لذا، فقد شعرت بالوحدة خلال أول عيد لي؛ لأني بصفتي مسلمة جديدة العهد بالإسلام، لم تكن لي عائلة أحتفل معها. ومع ذلك أردت أن أستشعر ذلك العيد كما يجب، فقصدت مسجد لندن المركزي في الصباح؛ لأشارك في صلاة العيد التي تُؤدّى جماعة. كان المكان مكتظًا جدًّا بالمصلين. وعلى الرغم من أن كلًّا منهم كان يحاول جاهدًا أن يجد مكانًا له بين جموع المصلين، فإن المسجد كان يعبق بأجواء غاية في الجمال. وكم أعجبتني رؤية الناس، وهم يصلون معًا لله الواحد الأحد على اختلاف مشاربهم وأجناسهم. إذ كان ما يوحدهم هو صيام شهر رمضان، وما تعلموه خلاله من كبح شهوات النفس، وبذل اجهد الجهيد من أجل تطهير النفس، والتقرب من الله عزّ وجل.

وُزِّعَت على المصلين ترجمةٌ إنجليزية لخطبة العيد حتى يتمكن من لا يتقن العربية من فهم مضمونها ومضمون الصلاة. كم أحببت طريقة تلاوة الصلاة على النبي وعلى آله خلال صلاة العيد. ثم سلّم كلّ منّا على الآخر، وهنّأه بهذه المناسبة. وشعرت برابط قوي يربطني بكل شخص في ذلك المسجد، وأنِّي أنتمي إلى أناس أشاركهم في المبادئ والمعتقدات نفسها. ولم يكن سهلًا عليّ أن أترك تلك الأجواء العابقة بالإيمان، وأذهب إلى العمل كما أفعل في سائر الأيام. ولحسن الحظ، ولأن الدكتورة أمينة لم يكن لديها هي الأخرى أسرة أوعائلة تحتفل معها بالعيد، صحبتني لقضاء أمسية ذلك اليوم في مطعمنا الإيراني المفضل، حيث تناولنا وجبة العشاء. وعلى الرغم من أن حياتي عادت إلى أيقاعها المعتاد، وأن ذلك الإحساس الرائع بالنقاء والصفاء تلاشى شيئًا فشيئًا، فإنني بصومي رمضان في تلك السنة أحسست بأني حققت إجازًا كبيرًا في حياتي.

♦♦♦

في فصل الربيع الذي تلا ذلك من عام 1997 م، جمعت كتبي من جديد، وسافرت إلى غرناطة بعدما أخبرني بعض الأصدقاء بأن جماعة صوفية توجد جنوب إسبانيا. وكنت مهتمة جدًّا بلقاء مسلمين أوروبيين آخرين. وقضيت أول ليلة لي في غرناطة في فندق قصر الحمراء. كان فندقًا كبيرًا فُتنت بعمارته الموريسكية الجميلة. وانتقلت بعد ذلك إلى مكان أكثر بساطة، وقريب من ذلك الفندق، وبه مطعم في الهواء الطلق. وكثيرًا ما سحرتني الأندلس لأسباب تاريخية وثقافية. وكنت قد قضيت نهاية أسبوع في اكتشاف (قصر المورق) في إشبيلية برفقة عِمران، وقد أردت منذ تلك الرحلة أن أعود وأزور قرطبة وغرناطة كذلك؛ نظرًا إلى كونهما مركزين كبيرين للثقافة الإسلامية في أوروبا، علاوة على إشبيلية. وكنت أتشوق كذلك إلى زيارة معلمة غرناطة الشهيرة، وهي (قصر الحمراء)، الذي يمثل أحد أروع أمثلة (العمارة الموريسكية) في العالم.

وللأندلس مكانة خاصة لدى المسلمين؛ لأنه فيها ازدهرت الحضارة الإسلامية في أوروبا ما بين سنة 711 و1492 ميلادية. وخلال حقبة حكم المسلمين لجنوب إسبانيا، الذي دام نحو ثمانية قرون، أصبحت الأندلس مركزًا رائدًا للعلم والتعلم. وقد ازدهر خلال تلك الحقبة الذهبية للحضارة الإسلامية عدد من العلوم، مثل الرياضيات والطب والصيدلة وعلم الأديان والفلسفة، إضافة إلى التجارة والفنون. لقد كانت تلك المنطقة في تلك الحقبة منارة علمية حقيقية تزامنت مع العصور المظلمة في أوروبا. وتشهد (العمارة الموريسكية) إلى اليوم على تجذر الإسلام في أوروبا. وتظهر أيضًا بصمة العرب البارزة في موسيقا ورقص (الفلامينجو)، حيث يُقال: إن نداء (أولي) الذي يصاحب هذا النوع من الموسيقا مشتق من كلمة (الله).

أعطاني بعض أصدقائي رقم سيدة أمريكية اسمها بشيرة، اعتنقت الإسلام قبل سنين طويلة. عاشت بشيرة في غرناطة مدة طويلة من الزمن، وكانت متزوجة من الممثل المحلي لشيخ الجماعة الصوفية التي تنتمي إليها، ويحمل لقب مقدم شيخ الطريقة، في حين كان شيخ الطريقة يعيش في أسكتلندا. فزرت بشيرة يوم وصولي إلى المدينة، وتحدثنا ساعات طويلة، وحكت لي قصة حياتها. كانت تحب مثلي الموسيقا الصوفية، وأسمعتني بعض الأغاني الصوفية الأندلسية العربية. طَرِبْتُ جدًّا لأصوات الرجال الجهورية والعذبة التي تصدح بذكر الله في تناغم تامٍّ مع جوقة كاملة من الآلات الموسيقية التقليدية، كالناي والعود والدف والكمان. وقد ابتعت فيما بعد أقراصًا مدمجة لهذه الموسيقا.

كنت أتطلع إلى لقاء صوفيين آخرين من الجماعة التي كانت تنتمي إليها بشيرة، وخططنا لزيارة قصر الحمراء. والتقينا عند الحادية عشرة مساءً في وسط المدينة، ومشينا حتى القلعة الموريسكية التي تقع على تلة عالية. وكانت القلعة مضاءة. ولم يكن بها أحد. في ذلك الوقت من اليوم. يكون السيّاح قد غادروا المكان منذ وقت طويل. وكانت فرصتنا لنستمتع بجمال هذه التحفة المعمارية وروعتها. وقد حدثنا رجل كبير السن من الجزائر، كان هناك برفقة زوجته. عن تاريخ تلك العمارة ومعناها. وزرنا ساحة الأسود التي تتوسطها نافورة. وتصطف على محيطها أعمدة حجرية. وتعلوها أقواس منقوشة بعناية كبيرة وكأنها أشرطة دانتيل. أُعجبنا بـ (المقرنصات). وهي عبارة عن محاريب صغيرة محفورة في البناء. كأنها أقراص من خلية النحل. تزين الأقواس العالية. فتلتقط بأشكالها الضوء. وتؤدي وظيفتها الرمزية بصفتها حلقة بين السماء والأرض.

كم أحببت الزليج [(1)] والفسيفساء الموريسكيين. حيث تنتظم التصاميم

الهندسية في تناسق رائع. ويتضاءل حجمها من الأطراف نحو المركز. في شكل يرمز إلى العودة إلى الله. لقد أبهرني رقي هذا الطراز المعماري وأناقته. ليس فقط بالنظر إلى جماله. بل لما يحمل من رمزية تعبر بجمالية متناهية عن مبادئ دينية مثل وحدانية الله. وأُعجبت كثيرًا بجدران قصر المراء التي تزينها زخارف على شكل زهور تعكس النماذج الجمالية التي تنبض بها الطبيعة التي خلقها الباري عزّ وجل. وتزيد الآيات القرانية من جمالها. وكانت أكثر آية تكرر نقشها على كل جدار وعمود هي «لا غالب إلا الله».

كان المبدأ الهرمسي حاضرًا بقوة أينما نظرت. لقد أدهشتني بلاغة الفن في التعبير عن القيم الإيمانية. فيذكرنا بكل تفاصيله الدقيقة بالله عزّ وجل. لقد أبدع الفنانون هذه التحفة الفنية عبادة لله. ذلك أن «الله جميل يحب الجمال». كما قال الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام [(2)].

وعلى الرغم من أن جمال الفن والثقافة الإسلاميين اللذين وقفت عليهما في الأندلس أدهشاني إلى أبعد الحدود فإن تلك الزيارة كانت سببًا لأن أواجه أمرًا كان يزعجني بعض الشيء في الدين الإسلامي. إذ كان بعض الرجال في تلك الجماعة الصوفية الإسبانية متزوجين بأكثر من زوجة واحدة، ولم تكُ وضعية تنعم فيها الأطراف كلها بالسعادة. وقد أخبرتني بشيرة مثلًا بأن زوجها تزوج عليها، بعد عشرين سنة من الزواج، زوجة أصغر منها بكثير، وأحضرها لتقيم في الشقة نفسها التي كانا يقيمان فيها، وكانت الشقة صغيرة. لقد اضطرت بشيرة إلى أن تشاهد زوجها وهو يداعب زوجته الجديدة قبل أن ينسحبا إلى غرفة النوم معًا بصورة منتظمة. وسرعان ما رزقت الزوجة الثانية بمولود، ما زاد من تعاسة بشيرة. فشعرت بالأسى الشديد لسماع قصة بشيرة، وتعاطفت معها كثيرًا، ولا سيما

أنها لم يكن لديها مكان تذهب إليه حين كانت في حاجة إلى ذلك. صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له زوجات كثر، لكن كان لكل منهن بيت خاص بها، حتى وإن كان عبارة عن غرفة واحدة لا أكثر. ثم إن الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم كان يحرص على أن يقسم الوقت الذي يقضيه مع كل واحدة منهن بالتساوي، وعلى أن يحوط كل واحدة منهن بالاهتمام والعناية التي تحتاج إليها.

وتبيّن أن كثيرًا من صوفيي غرناطة كانوا يبحثون عن زوجة ثانية؛ ويبدو أن شيخ تلك المجموعة أرشدهم إلى أن تلك وسيلة جيدة لنشر الإسلام في أوروبا. فأصبت بحيرة كبيرة لسماع ذلك؛ لأني لم أتوقع أن يصدر مثل هذا السلوك عن مسلمين أوروبيين. ثم إن تعدد الزوجات ليس من الثقافة الإسبانية في شيء. وعلى الرغم من أني أُعجبت بالصوفيين الذين قابلتهم في إسبانيا، فإن قصة بشيرة ومعاناتها في زواجها ظلت تؤرق مضجعي، وشعرت بأن تعدد الزوجات مسألة لا يمكنني أن أتجاهلها بكل بساطة. ذلك أن الإسلام يبيح للرجل أن يتخذ حتى أربع زوجات، وكنت أتساءل: هل كنت سأقبل أن أعيش في ظل هذا النظام من الزواج؟ وكانت إجابتي التلقائية هي أني لن أقبل. وحين عدت إلى لندن، قررت أن أستشير جاي إيتن في الأمر. وكان إيتن قد أصبح صديقًا لي، وكنت أسعد بمناقشة أي موضوعات إسلامية معه.

كان جاي يعيش مع كلبته في بيته العائلي الذي يقع في بيورلي جنوب لندن. فزرته ذا مساء، وأطلعته على الصور التي التقطتها في إسبانيا، ونحن نحتسي الشاي مع بعض الكعك. حين سألته عن مسألة تعدد الزوجات التي شهدتها في الأندلس، ووضع سيجارته في مبسمها وأشعلها. وحدثني بكل صراحة، قائلاً: إن رجال الطبقة الغنية الإنجليزيين كان لديهم دائمًا

عشيقات. وكان محقًّا في ذلك، وكنت على علم أن العشيقات كنّ يُدْعَوْن في بعض المناسبات إلى بيت العائلة، وكنّ يبتْنَ في (غرفة العشيقة). وكنت قد مكثت في مثل تلك الغرفة في بادمينتون مرة، ولكن حقًّا، ليس بصفتي عشيقة! وأضعاف جاي قائلًا: «إن اتخاذ عشيقة كان أمرًا شائعا في فرنسا أكثر من إنجلترا، حتى إن الرئيس الفرنسي مثلًا تكون قيمته منقوصة إن لم يتخذ عشيقة. إن الرجال يجنحون بطبيعتهم إلى التعدد، وهذه حقيقة لا يمكن الجدال فيها».

وكان ردّي على كلامه: «لكن هناك كثير من الرجال المخلصين كذلك».

فردّ قائلا: «صحيح، لكن ما نشهده في الغرب هو أن الرجل يواعد امرأة واحدة تلو الأخرى، فيدخل بذلك في سلسلة من العلاقات المتواصلة. أما في الإسلام، إن أراد الرجل اتخاذ امرأة أخرى، فإنه يحفظ لها كرامتها، ويتزوجها، ومن ثم يصبح أولاده شرعيين منها. وفي الوقت نفسه، تحتفظ زوجته الأولى بمكانتها داخل الأسرة، ولا يتم التخلي عنها، بل تحظى دائمًا بالرعاية. وهناك بعض الحقيقة في فكرة أن تعداد النساءفي العالم أكثر من الرجال، وأن تعدد الزوجات قد يكون حلاً مناسبًا، وأفضل من إقامة كثير من العلاقات السرية، شريطة أن يتم ذلك التعدد في شفافية تامة ووضوح مع كل أفراد الأسرة. لاشك في أن شبح الغيرة يحضر بشكل ما، لأن الغيرة عاطفة إنسانية، فيما يحث القرآن الكريم على أن تتم مراقبتها وضبطها. ويجب الاعتراف بإن ذلك لم يكن بالأمر اليسير، حتى بالنسبة إلى أمهات المؤمنين الفضليات.

فهمت المنطق الذي تحدث به جاي، وأسعدني أنه ذكر بأن الأمر القرآني المتعلق بتعدد الزوجات إنما أتى ليحد من عدد النساء التي كان العرب يتخذونهن زوجات. ومن ثم، فإن الفكرة الاستشراقية القائلة: إن الرسول

صلى الله عليه وسلم تزوج بأكثر من امرأة واحدة، ليرضي نزواته الرجولية فقط، سخيفة جدًّا. ذلك أنه من المستبعد أن ينتظر رجل حتى يبلغ منتصف الخمسينيات ليبحث عن إشباع رغباته الجنسية. ثم إنه كان من الأسهل له أن يتزوج أربع نساءٍ ويطلقهن ليتخذ أربعًا أُخر، وهكذا دواليك، إن هو أراد ذلك. وأن المسلمين كانوا سيسعدون بتزويجه بناتهم. لقد كانت كل زيجاته صلى الله عليه وسلم إما لإعالة هؤلاء النساء، أو تقديم منفعةٍ ما لمجتمع المسلمين. وقد أعتقت إحدى زيجاته قبيلة كاملة من الرقّ. وكانت نسائه جميعهن إما مطلقات أو أرامل، باستثناء زوجة واحدة، بل لم يكن بعضهن يتمتعن بحسن لافت، أوصغر السن. ومع ذلك؛ ولأني خِلت أن موضوع تعدد الزوجات قد يطالني مباشرة يومًا ما، واصلت بحثي في هذه المسألة، وسألت صديقاتي عن رأيهن فيها.

فأخبرتني زيرو بأن: «النساء المسلمات، ولا سيما في إفريقيا، تَعُدُّ الزواج من رجل له عدد من الزوجات نوعًا من التشرف، ودليلًا على القوة، ويخففن عن أنفسهن بفكرة أن تقاسم رجلٍ؛ عظيمٍ مع نساءٍ أخرياتٍ أفضل من أن يكون لكل واحدة منهن رجل ممل تعيش معه وحدها. وأنهن يستطعن بذلك أن يتقاسمن الأعمال المنزلية، وأن ينعمن بوقت أطول لأنفسهن».

أما الدكتورة أمينة، فقالت لي إنها لا تتخيل مسألة تعدد الزوجات إلا داخل حدود الثقافة العربية، فيما أكدت لي روبي أن عمها كان متزوجًا من زوجتين، تعيش كل منهما في بيت خاص بها، وأن كلًّ منهما كانت تعيش في سعادة مطلقة. وأوضحت لي أن ذلك «وضع طبيعي جدًّا في باكستان». وفي المقابل، ذكرت لي إحدى صديقاتي العربيات أنها ترفض مبدأ تعدد الزوجات رفضًا باتًّا؛ وأنها لم تتقبل حتى أن يمازحها زوجها بذكر إمكانية

اتخاذه زوجة ثانية، وعدّت ذلك سببًا كافيًا لها كي تطلب الطلاق؛ لأنها لا تطيق أن يكون لها ضَرَّة. وقالت إنها كانت تخاف من أن غيرتها قد تفتنها وتلهيها عن الله تعالى. لكنها شرحت لي بأن تعدد الزوجات شُرِع في الأصل لحل مشكلات اجتماعية، وحتى يتسنى توفير الرعاية للنساء اللاتي يترملن، والأطفال الذين يَتيتّمون بعد الحروب. وأكدت لي أيضًا أن بإمكاني أن أضيف شرطًا في عقد الزواج، ينص صراحة على أن اتخاذ زوج المستقبل زوجة ثانية، يمكن أن يكون سببًا كافيًا لطلب الطلاق. وقد سبق أن وضعت النساء هذا الشرط في عقود زواجهن قبل مئات السنين.

وكنت لا أزال أودّ معرفة ما جاء في القرآن الكريم عن هذه المسألة، فوجدت أنه لا يسمح بالتعدد إلا إذا توافرت شروط معينة، وأن تلك الشروط كلها تبقي على الرجل منهمكًا في أشغال متعددة. وأول ما عليه أن يلتزم به، هو أن يعيل كل زوجة على حدة، وعليه أيضًا أن يعاملهن جميعًا بالعدل، وهي شروط ليس من السهل الالتزام بها. وقد أقرّ القرآن الكريم بأن تحقيق العدل أمر مستحيل: (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً) (سورة النساء: الآية 3)، ثم جاء بعد ذلك في السعورة نفسها قوله تعالى: (وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ) (سورة النساء: الآية 129).

وقد علمت أن كثيرًا من علماء المسلمين اليوم يؤمنون أن القرآن الكريم حث على الزواج بامرأة واحدة. وبعد وصولي إلى هذه الخلاصات، تمكنت من أن أطوي صفحة هذه المسألة التي طالما أرّقتني، حتى حين.

وخلال لقائي مع جاي أيتن في الأمسية نفسها، تحدثنا عن الجانب الباطن لدين الإسلام الذي كنت أتوق إلى معرفة المزيد عنه. فقال لي إن ما جذبه للإسلام هو في الحقيقة التصوف. ومعنى التصوف هو أن يتمكن

المرء من تصفية قلبه حتى يجد طريقه إلى الله. وقد وجد مع مرور السنين بأن التصوف بوجه عام أيسر منالًا للغربيين، وأن تفسيراته مقبولة أكثر من التفسيرات الإسلامية الشكلية الأخرى. وأوضح لي أنه يُنظَرُ إلى التصوف على أنه قلب الإسلام. وكنت قد قرأت في كتاب مارتن لينجز (ما هو التصوف) بأن لفظة المتصوف مشتقة من الصوف، ويطلق على من يرتدي الصوف، وأن لباس الصوف كان دائمًا مرتبطًا بالعبادة حتى قبل ظهور الإسلام. وقال لي جاي إن التصوف مرتبط أيحضًا بالصفاء، وأن المتصوف يُعنى بقلبه، ويعمل على تصفيته.

أخبرت جاي بأن عِمران ذكر لي مرة عن كرامات الصوفيين، فأجاب: «نعم، كان كثير من الصوفية نساءً، ولا سيما في القرون الأولى للإسلام. خذي مثلًا رابعة العدوية، التي تُعرف أيضًا بِـ (رابعة البصرة). لقد نذرت حياتها لله، وكانت تؤمن بأن كل شيء في الحياة من خير وشر، وجمال وقبح، ما هو إلا تعبير عن كمال الله وقدرته المطلقة».

وقبل أن أغادر منزل جاي، أعطاني كتابًا عن رابعة العدوية بعنوان (روحي امرأة) لمؤلفته آن ماري شيمل. ولدت رابعة لأبوين فقيرين في بداية القرن الثامن في البصرة بالعراق. وتيتمت في سن صغيرة، وبيعت في سوق العبيد، وكان عليها أن تعمل بكد وجهد في خدمة سيدها. رأى سيدها هالة من النور تحيط بها وهي تصلي، فأدرك أنها من أولياء الله، وخاف على نفسه إن احتفظ بها جارية عنده، فأعتقها. فرحلت رابعة عن البصرة، واتجهت نحو الصحراء، حيث عاشت حياة تقشف ونكران للذات، تصوم نهارها، وتقوم ليلها. ويُنسب إلى رابعة كثير من الكرامات، فيُحكى مثلًا أنها ارتفعت يومًا عن سجادتها وهي تصلي، وأن الكعبة أتت لملاقاتها بينما كانت رابعة في طريقها للحج. وسرعان ما ذاع صيتها، وتوافد عليها

الناس طلبًا للتعلم منها. وحاورت أيضًا أشهر رجالات عصرها من العلماء. وعلى الرغم من عروض الزواج التي كانت تتلقاها، وكان أحدها من أمير البصرة، فإنها رفضتها كلها، وآثرت أن تكرس وقتها كله للعبادة، وصرحت أنها لا تملك وقتًا تخصصه لغير الله عزّ وجل. وحين سُئلت إن كانت تشعر بالوحدة، أجابت: «إن حبيبي دائمًا معي». وبحسب أشهر أسطورة رويت عنها، أن الناس رأوها تجري في أزقة البصرة، وهي تحمل في يدها شعلة من نار، وفي اليد الأخرى دلوماء. وحين سُئلت عن سبب ذلك، أجابت أنها تريد أن تخمد نيران جهنم بالماء، وتحرق نعيم الجنة بالنار، حتى تُسقِط تلك الحجب، ولا يبقى مخلوق يعبد الله خوفًا من جهنم، أو طمعًا في الجنة، بل يعبده عبادة خالصة لوجهه الكريم.كانت رابعة أول من تحدث عن عبادة لله وحبه حبًّا خالصًا، دون خوف من عذابٍ، أوطمعٍ في جزاء، وهو ما اصطلح عليه بعد ذلك بالحب الإلهي.

كنت أحب أن أتعمق في دراسة أعمال كبار رجالات التصوف، ويُعدّ جلال الدين الرومي من بين أبرزهم. وقد عاش الرومي في القرن الثالث عشر، حيث ولد في بلخ، التي تقع اليوم في أفغانستان، لكنها كانت حينها جزءًا من الإمبراطورية الفارسية. وهاجر مع أبيه إلى قونية في أنطاليا التركية، حيث أصبح الرومي عالمًا مرموقًا في علوم القرآن والحديث والفقه الإسلامي، علاوة على التاريخ والفلسفة والرياضيات والفلك. غير أن حياة الرومي ما لبثت أن تغيرت سنة 1244م، حين التقى الصوفي شمس الدين التبريزي. فتوطدت علاقة التبريزي بالرومي، وكانت سببًا في نظم كثير من الأشعار الصوفية التي لم تنضب حتى وفاة الرومي. وتحظى أعمال جلال الدين الرومي بإعجاب كبيرفي الغرب والشرق على حد سواء. ومن المفارقات أن هذا المرشد الروحي الفارسي أصبح واحدًا من أشهر الشعراء في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يُنظَر إليه على أنه معلم العصر

الجديد. إن حكمته تخطت حدود الزمان والمكان، ويمكن لأي كان أن يستوعبها بغض النظر عن ثقافته ودينه.

وحين يقرأ المرء أشعار الرومي، يُحيل إليه أول وهلة أنها تدور حول الحب البشري، لكن المتأمل فيها يجد أنها في الحقيقة تدور كلها في فلك الحب الإلهي. وأما بالنسبة إلى الرومي، فإن الحب هو الحقيقة الوحيدة الموجودة، ويرى أنها تتجلى في كل شيء، من الصحراء إلى النار والماء. ويصف الحب المتبادل بين الأحبة قائلًا: «ليس فقط الظمآن يسعى بحثًا عن الماء، بل الماء يسعى هو الآخر بحثًا عن الظمآن».

وقد ضمّن جلال الدين الرومي كتابه (المثنوي) خلاصة تعاليمه وعلمه. وهو عبارة عن ديوان من ستة أجزاء يضم نحوًا من خمسة وعشرين ألف بيتٍ من الشعر، يستهله بقوله: «اصغِ إلى قصبة الناي وهي تقص قصتها، وكيف تغني ألم الفراق». وترمز قصبة الناي إلى أرواحنا التي تتوق للعودة إلى بارئها، إلى الله عزّ وجلّ. وما لنا طوال حياتنا في هذه الدنيا، من وسيلة تخفف عنّا لوعة الفراق غير الصلاة وذكر الله.

قمت في تلك السنة، برحلة إلى إيطاليا بصحبة صديقتي أجينتا. وكانت أجينتا كاثوليكية تملك قلبًا طيبًا، وكثيرًا ما أعجبني إيمانها بالله، وعطفها على المساكين. فكانت مثلًا، تصحب رجلًا مسنًّا على كرسي متحرك نحوالحانة إلى الملهى بانتظام، ووقفت أيضًا إلى جانبي حين انفصلت عن عِمران. وهي اجتماعية جدًّا، وكانت تنظم كثيرًا من حفلات العشاء، وكنّا كثيرًا ما نخرج معًا في لندن. ودعتني إلى أن أقيم معها في بيتها الواقع على ساحل إيطاليا الذي تقضي فيه عطلاتها. ومن هناك ذهبنا إلى ضريح سانتا ريتا، التي عاشت في أواخر القرن الرابع عشر في دير أوجاستينيان للراهبات في كاشيا. وبعد أن مات عنها زوجها وأولادها، أصبحت ريتا

راهبة، ونذرت حياتها لمساعدة المرضى، حيث كان حبها لله بلا حدود. ويُروى أنها، قبل وفاتها، سألت قريبة لها أن تُحضِرَ لها وردة من حديقة بيتها القدم في أمبريا. وكان وقتها شهر يناير، ولم تتوقع قريبتها أن تجد أي وردة؛ لأن ذلك كان أوان سقوط الثلج. غير أنها حين ذهبت إلى الحديقة، وجدت وردة وحيدة متفتحة، فأحضرتها لريتا في الدير. وكانت تلك هي معجزة الوردة، التي كانت سببًا في اتخاذ الوردة رمزًا لقداستها. صَلَّتْ أجينتا في محراب سانتا ريتا، في حين رحت أدعو بعض الوقت في سري. وذهبنا بعد ذلك إلى محل قريب من الدير، فإذا بي أشم رائحة ورد خفيفة. حين أخبرت أجينتا بتلك الرائحة، قالت إنها لم تشمها، وفي الحقيقة لم تكن هناك أي وردة. احترت في أمر تلك الرائحة؛ لأني متأكدة من أني شممتها بوضوح. لكن هل من الممكن أن يكون ذلك ضرب من الخيال؟ أخبرنا بعد ذلك قِسٌّ كاثوليكي، وكان صديقًا لأجينتا، بأن رائحة الورد مقدسة، وأنه يعتقد في أن القديسين والأنبياء والأولياء هم من يحملون رائحة الورد، مثل سيدنا عيسى عليه السلام، والسيدة مريم العذراء، وسيدنا يوسف وسليمان عليهما السلام، علاوة على القديسة ريتا.

وقد قرأت في كتاب عن العلاج الصوفي أن لرائحة الورد مكانة مهمة في الإسلام. ويُروَى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أحب الورد، وأن عرقه الشريف كان يحمل رائحة الورد. ثم إن الصوفية يصفون الطريق إلى الله بأنها سيقان الشوك التي تحمل الورد في قمتها، والذي يرمز إلى الجنة. أحببت كثيرًا ما تحمله الوردة من رمزية كمال الجنة والحب والموت والوله والشغف والقلب والأنوثة. وقد أصبحت بعد ذلك الوردة زهرتي المفضلة.

وقد تبين لي لاحقًا أن الأديان كلها ماهي إلا تجليات مختلفة للحقيقة

نفسها، أو أنها أشبه بنوافذ يمكننا أن نطل منها على السماء نفسها. ووفقًا لتعبيرٍ ألماني، فهي مثل أباريق مختلفة يستخدمها كل منّا ليرفع الماء من البئر نفسها.



---

(1) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلِّقت أبواب النار وصفدت الشياطين». رواه مسلم.

(1) نوع من الفسيفساء انتشر في المغرب والجزائر حمله الموريسكيون الذين استقروا في شمال إفريقيا بعد سقوط الأندلس. ويعتمد هذا الفن على إنتاج قطع هندسية متناهية الصغر من الطين والصلصال وتطلى بألوان بديعة قبل أن تستخدم لتزيين الجدران والأرضيات. لتتسق في لوحات هندسية هائلة.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان بسنده عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى نعمته على عبده، ويبغض البؤس والتباؤس».

الفصل التاسع

صحوة

(سَنُرِيهِمْ ءَايتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي، أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُ)

(سورة فصلت: الآية 53)

استحوذ برنامج التذكرة على كل وقتي. ثم أرسلت محطة (آر تي إل) الألمانية فريقًا إلى لندن؛ لإعداد تقرير عني وعما كنت أفعله منذ أن تركت إم تي ڤي. وكانت المجلة الأسبوعية ستيرن مهتمة هي الأخرى بإجراء لقاءٍ معي عن الموضوع نفسه. فبدأ كل من المحاورين حديثه معي بكل تأدب، وطرح عليّ أسئلة عن البرنامج الذي كنت أقدمه على (إن بي سي)، ثم عن جمعية التعلم من أجل الحياة. لكن سرعان ما تبين لي أنهما مهتمان أكثر بموضوع اعتناقي الإسلام. كنت متخوفة جدًّا من تلك الأسئلة، ولا سيما بالطريقة التي تحول البرنامج الذي شاركت فيه في ألمانيا إلى مهزلة إعلامية، وآثرت أن أتحرى الحذر هذه المرة. غير أني لم أكن أعرف كيف أتحدث عن الإسلام في ألمانيا من دون أن يؤدي ذلك إلى تهافت الصحف على نشر عناوين سلبية ومثيرة، هذا إضافة إلى أني خشيت على مستقبلي المهني.

كان الأمر مختلفًا تمامًا في لندن، حيث شعرت بأن الناس تقبّلوني على ما أنا عليه، ولم أَرْتَبْ أو أتخوّف ولا مرة واحدة من إجراء مقابلات تدور حول كوني مسلمة. بل على العكس من ذلك، شعرت بالسعادة لإجراء تلك المقابلات؛ لأنه من الطبيعي أن أحب التحدث عن موضوع هو من الأهمية بمكان بالنسبة أليّ. وكنت أيضًا آمل في أن أسهم في بناء جسورٍ بين الإسلام والغرب. وقد أفردت جريدة لندن أيفنينج ستاندرد المسائية، التي تحظى بانتشار واسع في لندن، مرةً مقالًا إيجابيًّا عني أفردت له صفحتين

كاملتين. وقد أعادت صحف بريطانية أخرى نشر المقال نفسه، قبل أن يُنشر في صحف ألمانيا بعد ذلك. عندها، جدّد المقال اهتمام وسائل الإعلام الألمانية بقصتي، وحاولت أن يكون ردّي عليه مبهمًا قدر الإمكان، ولا أدلي بتصريحات واضحة قد تُستغل ضدي فيما بعد. وحين سُئلت في أحد البرامج الحوارية عن الإسلام، قلت بكل بساطة: إنه أمر شخصي، وإنني على الرغم من ذلك أومن بالرسالة التي أتت بها الأديان كلها.

وعلى العموم، كنت في تلك المدة أكافح كي أوفق بين ديني والتوقعات التي تمليها عليّ التزاماتي المهنية. وعلى الرغم من أني قابلت من خلال عملي في (إن بي سي) كثيرًا من الناس الجديرين بالاهتمام، فإني أصبحت أحس تدريجيًّا بانزعاج كبير حين يكون عليّ أن أرسم ابتسامة على وجهي، وأروّج لأمور تتعارض مع قناعاتي الدينية. غير أني أدركت أن عملية التغير الداخلية التي يعيشها المرء لا بد لها من أن تنعكس على ظاهره، وأن تلك التغيرات الظاهرة تعود لتؤثر في الباطن، وتغير صاحبها أكثر من ذي قبل. لذا، ربما لم تكن مصادفة أن يحدث أمر في نهاية سنة 1997م كان له أثر كبير في توسيع آفاقي. فقبيل موسم أعياد الميلاد، سألني أحد معارفي إن كنت مهتمة بالمشاركة في مشروع خيري في البوسنة والهرسك. حيث كان المشروع عبارة عن افتتاح مركز (بافاروتي) للموسيقا في مدينة موستار، التي كانت مقسمة إلى شطرين، وكان شطرها الشرقي، حيث يقطن المسلمون، قد حوصر مدة تسعة أشهر سنة 1993م، وتحول إلى خراب بفعل القصف المتواصل الذي تعرض له على يد القوات الصربية والكرواتية.

في سنة 1995م، وضعت حرب البوسنة أوزارها مخلفة مئتي ألف قتيل في أرجاء يوغوسلافيا السابقة كلها. وخلال السنوات الثلاث التي استمرت

خلالها الحرب، التزم المجتمع الدولي سياسة عدم التدخل والاكتفاء بإيصال المعونات الإنسانية، في حين كان الناس يُقتلون أو يُتَّخذون دروعًا بشرية، واغتُصبت آلاف النساء المسلمات، وهُجّر ملايين المدنيين الأبرياء. وحوصرت أيضًا العاصمة البوسنية سراييفو طوال أربع سنوات فيما يُعد أطول حصار عرفته حروب التاريخ الحديث. كما قُتِل نحو عشرة آلاف شخص، كان جلّهم من المسلمين.

بالتزامن مع ذلك، وفي يوليو من سنة 1995م، واصلت قوات الجمهورية الصربية حملة التطهير العرقي، وأحكمت قبضتها على مدينة سريبرينيتشا، حيث قتلت أكثر من ثمانية آلاف مدني مسلم، كان جلّهم من الرجال والأطفال، في حين لم تحرك قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، التي كانت تتألف من أربع مئة عنصر، ساكنًا لوقف جرائم الصرب. فكانت تلك أسوأ مذبحة على التراب الأوروبي منذ الحرب العالمية الثانية، وقد صنفتها لاحقًا المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة في لاهاي على أنها جريمة إبادة جماعية.

كنت قد تابعت عن قرب ما كان يحدث في البوسنة والهرسك، وأنا أشعر بالعجز لعدم قدرتي على أن أفعل شيئًا وكوني مسلمة، كنت أشعر بأني أنتمي إلى المسلمين أينما كانوا حول العالم وقد شبه الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم الأمة بالجسد الواحد الذي «إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر. والحمى» لذا، تحمست كثيرًا حين تلقيت دعوة حضور افتتاح مركز (بافاروتي) للموسيقا في موستار من قبل صديق لي كان يعمل مستشارًا في منظمة (طفل الحرب)، وهي منظمة خيرية دولية تسعى إلى حماية الأطفال في أكثر مناطق النزاع خطورة في العالم، فكان ذلك المشروع رائعًا حقًّا. وقد دأب الموسيقار الإيطالي بافاروتي

سنوات عدة على التبرع بقسم كبير من دخله؛ من أجل بناء مركز موسيقي يكون كذلك مركزًا للأمل والمصالحة في قلب ركام المدينة. وكان برايان إينو ودايفيد باوي من ضمن رعاة المشروع.

كان مقر منظمة (طفل الحرب) قريبًا من أستوديوهات إم تي ڤي أوروبا في كامدن، وكم أسعدني أن أسهم في تنمية الوعي بما يجري في البوسنة. وعملت من خلال صديقتي جانين دي جيوفاني، التي كانت مراسلة حرب، وكانت تعرف البوسنة حق المعرفة، على إجراء حوارات مع مجموعات موسيقية ونشطاء محليين من أجل الكتابة عما يجري في البوسنة في الصحافة الألمانية.

كنت متشوقة لزيارة مدينة موستار بسبب هذا المشروع، إضافة إلى سبب آخر. ذلك أنه طوال خمس مئة سنة، حين كانت البوسنة ضمن حدود الدولة العثمانية، كان اليهود والنصارى والمسلمون يعيشون جنبًا إلى جنب في سلام وانسجام. وبفضل موقعها الجغرافي، وجذورها الثقافية، كانت هوية البوسنة أوروبية بامتياز، ما جعل منها جسرًا فريدًا بين الشرق والغرب، بين المسيحية والإسلام. وفكرت في أن هذا البلد قد يصبح جسري كذلك الذي يربط بين هويتي الأوروبية وهويتي المسلمة.

كان افتتاح مركز (بافاروتي) للموسيقا حدثًا كبيرًا حضره عددٌ كبيرٌ من الصحفيين من أرجاء العالم كافة. وفي وسط ركام موستار التي مزقتها الحرب، وقف صرح مركز الموسيقا في شكل بناية شامخة بعد أن رُممت، وطُليت بلون أبيض يرمز إلى التجديد والتفاؤل. كان المبنى يضم أستديوهات معدَّة بأحدث الأجهزة الصوتية، وكان المنظمون يأملون في أن تُقبِلَ أكبر الأسماء في عالم الغناء على المستوى العالمي على استخدامها، وأن تُسخر لإعطاء دروس في الموسيقا والرقص، تُصمم لمساعدة الأطفال

والشباب على التعافي من الصدمات النفسية التي تعرضوا لها.

وقد أرسل كثير من رجال السياسة المرموقين من أنحاء العالم كافة كلماتهم بهذه المناسبة، في حين كانت آلات التصوير تلتقط صور النجوم والسياسيين البوسنيين، وهم يرحبون بالنجوم العالميين المشاركين في المشروع، الذين قدموا لحضور حفل الغداء الذي أُقيم بهذه المناسبة. وكان بافاروتي حاضرًا إلى جانب توم ستوبارد، وبيانكا جاجر، وزوكيرو، وذي تشيفتاينز، وجوفانوتي، إضافة إلى بونو. ثم حدث ,نجم يوتو إلى الحضور وأراه بكل فخر جواز السفر البوسني الفخري الذي أعطاه إياه الرئيس البوسني الراحل علي عزت بيجوفيتش في تلك السنة، تقديرًا منه لدعم هذا المغني للبوسنة في أثناء الحرب. وقال بونو في معرض كلامه: «على الرغم من أنه لم يعد الارتباط بالأعمال الخيرية من الأمور التي تلقى الإعجاب في هذه الأيام، فإني سعيد جدًّا لأن أكون هنا، وأشارك في هذا الحدث الإعلامي الكبير؛ لأن وسائل الإعلام في البوسنة، كانت هي التي صرخت في وجه الصمت المشين للمجتمع الدولي على ما كان يجري هنا».

لقد بذل بونو كل ما في وسعه ليسلط الضوء على فاجعة البوسنة. وخلال جولته العالمية التي قام بها سنة 1993م، وسمّاها (زوروبا)،كانت مجموعة (يوتو) تُري جماهيرها بثًّا حيًّا من سراييفو وهي -تحت الحصار، ووصلات مصورة من الحرب. إضافة إلى ذلك، كان بونو خلال عروضه الموسيقية يجري مكالمات هاتفية مع السياسيين الغربيين لإحراجهم وسؤالهم عما فعلوه من أجل وقف العنف في هذا البلد.

كان واضحًا في أثناء زيارتي للبوسنة، أن الحياة لم تَعُد بَعدُ إلى طبيعتها وما كانت عليه قبل الحرب. وكان الناس الذين تحدثت إليهم ودودين ولطفاء جدًّا. لكن كلما طال بي الحديث معهم، أحسست بالحزن العميق

الذي لا يزال يسكن أعينهم؛ كان ذلك يدفعني إلى البكاء أحيانًا. لقد فقد كثير منهم أفرادًا من عائلاتهم وأصدقائهم وكل ما يملكون في الدنيا، فيما تعرض آخرون للتهجير والاضطهاد، وأُرغموا على الاختباء أو مشاهدة أقرب الناس إليهم، وهم يتعرضون للاغتصاب والقتل. قال لي الكاتب أوزرن كيبو: «لقد لاحظنا أن شَعر الأطفال كان يشيب بين عشية وضحاها». فهالتني تلك القصص التي سمعتها، وبدأت أدرك أن القنابل والمدن المدمرة ليست أسوأ ما يمكن أن تخلفها الحروب. لقد كان الدمار الذي يلحق بنفوس الناس وإيمانهم بالإنسانية ومعنى الحياة أسوأ من ذلك بكثير. وتبيّن لي حينها مقدار العمل والالتزام والدعم الذي ستتطلبه عملية إعادة الإيمان لمن نجا من تلك الحرب، وإقناعهم بالحاجة الملحة إلى بناء جسور المصالحة بين بعضهم بعضًا، وجسور أخرى نحو المستقبل كذلك.

لم يأت اختيار موستار لتحتضن مقر مركز (بافاروتي) للموسيقا مصادفة، فاسم المدينة مشتق من اسم (موستاري) [(1)]. وكان العثمانيون قد بنوا هذا الجسر في القرن السادس عشر فوق نهر نِرِتْفَا الذي يفصل القسم الغربي الكرواتي من المدينة عن القسم الشرقي منها، والذي يسكنه المسلمون. وكثيرًا ما كان ذلك الجسر رمزًا لصلته بين الشعوب والأديان، بين الشرق والغرب. وقد أقدمت المدفعية الكرواتية على تدميره خلال الحرب بسبب رمزيته تلك. وللسبب نفسه، أخذت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، اليونسكو، على عاتقها إعادة بناء الجسر مرة أخرى. عندما زرت موستار، كانت أعمال إعادة البناء تسير على قدم وساق، وكان العمال ينتشلون الأحجار من النهر، ويضعونها مكان تلك المفقودة من الجسر، وكانوا أيضًا يستخرجون الأحجار من المحجر نفسه الذي استخدم قبل 450 سنة ليبنوا بها الجسر. وكان مشروعًا طموحًا جدًّا استغرق إنجازه

سنوات عدة. وفي سنة 1997م، كان كل ما يربط بين شطري المدينة حبل متمايل، وممر خشبي ضعيف. وكان يصطف على جانبي النهر سلسلة من المقاهي والمطاعم في مشهد رومانسي، زاد من جماله الأشجار المزروعة على جانبي المياه. وكان من السهل على المرء أن يتخيل ما كانت عليه موستار في السابق. لكن حين زرتها، كان الدمار الذي خلفته الحرب يعكر صفو جو المدينة الدافئ. وكان الجانب الشرقي من المدينة، الذي يسكنه المسلمون، هو الذي نال القسط الأكبر من الدمار. أما الجانب الغربي الكرواتي، فظل إلى حد كبير على حاله. وبينما كنت أتجول بين أطلال القسم المسلم، وقعت عيناي على عبارة (الله أكبر) مكتوبة على جدار أحد أهم بنايات المدينة، وقد طالتها كثير من الثقوب من جراء رميها بالرصاص. ولقد انتبهت حينها إلى المعنى العميق الذي - تحمله تلك العبارة. الله أكبر من أي شيء، وباستثناء الله، فإن كل شيء نسبي. وحتى الدمار والمعاناة والموت الذي عاناه سكان موستار سيحكم الله في أمره، فيجازي من ظَلَم ومن ظُلِم بالعدل. إن قناعتي بذلك تمنحني الأمل حتى في أصعب الأوقات.

كان من بين من قابلتهم في أثناء حفل افتتاح مركز (بافاروتي) للموسيقا إينيس زلاتار بيور، المغني الرئيس لمجموعة سيكتر البوسنية. وكان قصير القامة، وشعره داكن اللون. وحينما لمحته أول مرة، كان منهمكًا هو وأحد أعضاء مجموعته الآخرين، وكان أشقر الشعر، في الحديث إلى بونو. أما بونو، فقد كانت آخر مرة تحدثت إليه فيها قبل ستة أشهر في دبلن، ليلة لقيت الأميرة ديانا ودودي الفايد حتفهما. وكان جيم كير قد أعطاني أنا وداني بطاقات مرور حتى نتمكن من التجول خلف كواليس حفل أقيم هناك. وكان بونوقد أخبرني ليلتها بأنه كان يأمل في أن يسجل ألبومًا غنائيًّا مع نصرت فاتح علي خان، لكن ملك موسيقا (القوالي) توفي قبل أن يتمكن

بونو من - تحقيق أمنيته تلك. وكان بونورجلًا مؤمنًا، وتحدّث بصورة جيدة جدًّا عن الإسلام، قائلًا أنه كان يرى أن شعائره تعزز قوة إيمان الناس، وقال أيضًا إنه يحترم الإسلام بصفته طريقًا جديرًا بالتقدير إلى الله سبحانه وتعالى. وكان سعيدًا بدعم مركز الموسيقا في موستار، وقال إنه أحسّ براحة كبيرة في البوسنة.

وفي المقابل، كان بيور شابًّا ذكيًا ومرحًا، ويتمتع بروح شاعرية. وتذكّر بحنين حفل (يوتو) الغنائي الذي أقيم في سراييفو مباشرة بعد أن وضعت الحرب أوزارها. وقال: «إن أجواء المدينة كانت رائعة»، وأن «تلك الاحتفالية كانت تشبه إلى حد كبيرٍ احتفالية دورة الألعاب الأولمبية الشتوية سنة 1984م. وفجأة عادت الكهرباء المقطوعة، واستأنفت القطارات رحلاتها». وأضاف: «كان كل الناس الذين حضروا حفل (يوتو) يعانقون بعضهم بعضًا بغض النظر عن دينهم أو عرقهم، وغنوا معًا أغاني ناجحة، مثل (وان)، و(معك)، أو (من دونك)».

وقد ذكّرني بكلماته تلك بقدرة الموسيقا على تحريك مشاعر الناس. وقال بكل قناعة: «أروع ما يمكن أن يحدث هو أن يتقاطر الناس من أنحاء البلاد كلها، وحالما ينتهي الحفل يعود كلٌّ إلى قريته سفيرَ سلام ومصالحة. إن بإمكان موسيقا (الروك آند رول) أن تحقق ما لم يستطع السياسيون أبدًا فعله». وتذكرت حينها أيامي في إم تي قي، وإحساسي أحياناً بأن ما كنا نقوم به كان سطحيًّا ومن دون معنى. لكن في حقيقة الأمر، وعلى رأي بيور، فإن الموسيقا لغة عالمية تملك القوة على فعل الخير.

لمست الكرم البوسني الصادق حين عرض عليّ بيور أن يصحبني في جولة في اليوم التالي في أرجاء مسقط رأسه سراييفو. تحوط التلال المدينة من كل جانب، وتصطف في شوارعها المحالّ العثمانية التقليدية جنبًا إلى

جنب مع الدور العائلية العريقة والمساجد، والمنازل التي صممت وفقًا لأسلوب الفن الجديد، وكنائس تعود إلى عهد الإمبراطورية النمساوية المجرية، فيما كانت المكاتب والبنايات السكنية الضخمة المبنية من الصلب تعود إلى خمسينيات القرن الماضي، وتمثل تركة النظام الشيوعي في هذا البلد. مررنا في المدينة القديمة ببنايات البوشناق التي استعمل في بنائها خشب داكن اللون على الخصوص، وكانت جلها محالَّ تختص ببيع المشغولات الفنية المحلية. وكان تاريخ سراييفو حاضرًا بقوة، وكانت آثار القصف الذي تعرضت له المدينة منتشرة في كل أنحائها.

كانت هذه المدينة على مدار تاريخها الحافل موطنًا لأربع طوائف دينية هي: الصرب الأرثوذكس، والكروات الكاثوليكيون، والبوشناق المسلمون، واليهود. وأخبرني بيور بأن معتنقي كل واحدة من تلك الديانات عاشوا معًا في أمن وسلام قرونًا طويلة، بل وكانوا يتزوجون من بعضهم بعضًا، لذا، لم يكن من الغريب أن تجد أفراد العائلة الواحدة يدينون بأكثر من ديانة واحدة. لكن ما إن حلت الحرب، حتى وجدت الريبة طريقها للقلوب مثل الوباء، وكانت سببًا في انتشار العداوة والعنف. وكانت كل طائفة تشعر بأنها مهددة من قبل غيرها. وكان الأمر وكأن الناس أصيبوا بمسّ من الجنون، وأضحى حتى أفراد الأسرة الواحدة ينقلبون ضد بعضهم بعضًا.

وأخبرني أيضًا كيف كان من الغريب أن تكون أفضل الحفلات التي حضرها، تلك التي أُقيمت في أثناء الحرب. وكانوا جميعًا يحملون في داخلهم طاقة في حاجة إلى أن تتحرر، ولأنهم لم يكونوا متأكدين مما ستحمله لهم الأيام، فقد كانوا يعيشون كل يوم وكأنه آخر يوم لهم في هذه الدنيا. وتمكّن هؤلاء الناس من تخطي هواجسهم، ولو خلال المدة

التي كانت تصدح فيها تلك الحفلات بعد أن بدا وكأن الوحشية والفوضى التي عانوها ستستمر إلى الأبد. غير أن الخوف كان لا يزال يخيم على سراييفو. وقد تذكر بيور كيف أن واقع الحال كان يذكّره كل يوم بحقيقة أنه سيموت يومًا ما وأنه «حين يتذكر مئة شخص تلك الحقيقة معًا، فإن الأمر يصبح أشبه بحفل كبير». لقد دهشت حين علمت أنهم كانوا عادة ما يقضون الليل بطوله، وهم يرقصون على أنغام أغاني نصرت خان، وهي تصدح بموسيقا (القوالي).

ووفقًا لـــِ بيور، فقد اتجه كثير من أصدقائه نحو الأعمال الإبداعية ليفرغوا طاقاتهم. وكان كثير من الشباب يتابعون إم تي ڤي للهروب من حالة الرعب التي كانت الحرب تنشرها في كل مكان. لقد أسعدني سماع ذلك، وبينما كنت أتجول في أنحاء المدينة، كان المارة يتعرفون إليَّ، ويطلبون مني توقيعي. ربما كان ستيف على حق حين قال لي إني كنت أؤدي عملًا ذا قيمة كبيرة في إم تي ڤي.

سألت بيور أين يجد الإلهام لكتابة كلمات أغانيه، ففاجأني حين أجاب أنه يستلهمها من الشعر الصوفي. وقال إنه في أغنية (الليلة هي إلى الأبد) اقتبس بعضًا من شعر الرومي: «عليك أن تكون مستعدًّا لخسارة كل شيء وكل من تحب يومًا ما». لقد سمعت ذلك الشعر مرارًا وتكرارًا حين كنت في البوسنة، ولم أملك إلا أن أشعر بالحزن لتلك الحقيقة.

كان جَدُّ بيور من أكبر المعجبين بجلال الدين الرومي. وعندما كان صغيرًا، كان جده يقرأ على مسامعه من كتاب (المثنوي) لهذا المُحِبّ الكبير. وأخبرني بيور قائلًا: «إن الرومي قريب جدًّا إلى قلوب الشعب البوسني. ولدينا في سراييفو تقليد خاص، حيث إنه على مدار المئة عام الأخيرة، تجتمع مجموعة من الصوفيين مرة في الأسبوع ساعة من الزمن، يقرأ

الشيوخ والعلماء خلالها من كتاب (المثنوي) للرومي، ويمكن لكل من أراد أن يحضر تلك الحلقة. ويستغرق إتمام قراءة الكتاب كله سبع سنوات».

كان جد بيور متصوفًا كذلك، ومن أتباع الطريقة القادرية التي لا تزال تعقد حلقات الذكر في تكية يقدر عمرها بأربع مئة عام في سراييفو. وتنسب هذه الطريقة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي عاش في القرن الثاني عشر. ولد الجيلاني في محافظة جيلان الفارسية قبل أن ينتقل إلى بغداد، حيث دخل الآلاف إلى الإسلام على يديه. ويُعدّ الجيلاني أول شيخ صوفي بالمعنى الرسمي لِلَّقب.

لقد سرني كثيرًا أن أسمع عن الجذور الضاربة للإسلام في البوسنة. واكتشفت أن القراءة عن التصوف في لندن شيء، والتعرف إليه على أرض الواقع، حيث كان يحيا وينبض بشدة، شيء آخر مختلف تمامًا. سألت بيور عمَّا إذا كان من الممكن لي زيارة تلك التكية العتيقة. ولم يكن يسمح إلا لمن ينتسب إلى تلك الطريقة بدخول التكية، لكن بفضل جد بيور، تمكّن الأخير من أن يدبر لنا أمر زيارتها.

كانت التكية تبدو من الخارج بناية عادية لا تختلف في شيء عن باقي الدور المبنية بالآجرّ الأبيض التي تصطف إلى جانبها. لكن التكية من الداخل، كانت مليئة بالطمأنينة والسكينة. وقادنا المسؤول عن القيام بشؤون المسجد إلى غرفة أرحب كانت أرضيتها من الخشب، وكان سقفها عاليًا جدًّا. وكانت جدران تلك الغرفة مزينة ببضع لوحات من الفن الإسلامي وسيفين متقاطعين. فأخذت أتأمل في ذلك الجو المفعم بالجلال والجمال في آن، وأنا واقفة في الغرفة التي دأب المتصوفة على الاجتماع وذكر الله فيها طوال قرون. وسرنا عبر البهو نحو الحديقة، وإذا بنا أمام تحفة هندسية من الفن الإسلامي تتوسط جدار التكية الأبيض المقابل

للحديقة والمقبرة. وكان الشكل الهندسي عبارة عن حجر مسطح ضخم يبلغ قطره نحو مترين، وكان مزينًا بخطوط مستقيمة تشكل نجمة سداسية. وعندما نظرت إلى الرسم من جانب معين، تبين لي أن تلك الخطوط هي في الحقيقة كتابة لكلمتي الله ومحمد. وقد رأيت على الجدران الحجرية قرب مدخل الحديقة عددًا لا يحصى من الكتابات باللون الأسود كُتبت بالخط العربي. وقد أخبرنا القائم على المسجد بأن كل شيخ عاش في تلك التكية خطَّ على تلك الحيطان ما فتح عليه الله به من علم خلال تفرغه للذكر والعبادة. وأخبرنا بأن أتباع الطريقة، أو الدراويش كما يطلق عليهم هناك، ما زالوا يجتمعون في التكية إلى اليوم. وعلى الرغم من أنهم لا يدورون حول أنفسهم وهم يذكرون الله، فإن ذكرهم ذلك يقربهم من الله سبحانه وتعالى. لقد شعرت بالرهبة للوقوف على هذه التقاليد الصوفية والشعور بها عن قرب، ولا سيما أنها لم تكن في مكان آخر غير أوروبا!

وأخبرني بيور بأن التصوف، على الرغم من أن جذوره ضاربة في البوسنة، فإنه مكتوم ومستتر. وربما كانت تلك الشعلة الإيمانية في قلوب المؤمنين هي ما أبقى على الإسلام حيًّا ينبض حتى خلال الحقبة الشيوعية، حين دُمّرت المساجد عن سبق إصرار وترصد. وقد استمر الحال نفسه تحت الحكم السوفياتي، حيث تعرض الدين للاضطهاد والقمع، وأُغلقت آلاف المساجد. ولكن ذلك لم يمحُ الإيمان من قلوب المتصوفة ونفوسهم. وقد قال لي بيور: «لا يعلم كثير من الناس عن التصوف، على الرغم من أن أتباعه من مختلف الطرق حافظوا عليه حيًّا هنا أكثر من خمسة قرون». وكان أول المتصوفة في البوسنة يتبعون (الطريقة المولوية)، التي ترتبط بجلال الدين الرومي، وفي طريق عودتنا إلى المدينة، أشار بيور إلى محطة بنزين، قائلاً: «في هذا المكان كان مسجد مولوي جميلًا جدًّا؛ انظري بمَ استبدله

الشيوعيون». لقد صُدِمت لسماع ذلك. وأضاف: «لهذا السبب، اختفت (الطريقة المولوية) من سراييفو. لكننا اليوم لدينا طرق أخرى، مثل (النقشبندية)، و(القادرية)، وبقدر أقل (الرفاعية)». وسألته كيف ينظر المسلمون البوسنيون إلى الصوفيين، فأجابني قائلًا: «جميع المؤمنين يحترمونهم، وأنا أحترمهم أيضًا. إن هؤلاء الناس على درجة عاليةٍ جدًّا من الإيمان وعلى خلق طيب، وأوتوا نصيبًا من الحكمة، إنهم ليسوا كباقي البشر».

وعلى الرغم من احترام بيور للمتصوفة، فإن الدين لم يكن حاضرًا في حياته حضورًا كبيرًا ولا في حياة أصدقائه. وكانوا كلهم فنانين يافعين، ويعملون كتّابًا ومخرجي أفلامٍ وموسيقيين. ومع أنهم كانوا يصفون أنفسهم بالمسلمين، فإن أغلبهم كانوا يحتسون الخمر، ولا يؤدون الصلاة المفروضة. لقد عمل النظام الشيوعي على اجتثاث دور الدين في حياة هؤلاء الناس، ولا سيما الأجيال الصاعدة منهم كما أخبروني.

غير أنه تبين في حين قضيت ليلة عيد الميلاد في سراييفو، أن الإيمان يكتسي لدى الناس أهمية أكبر من الظاهر. ورتبت لقاءً مع صحفية اسمها (بوبا) كانت قد ساعدت صديقتي جانين خلال تغطيتها للحرب في البوسنة. ولدت بوبا لأم كرواية كاثوليكية وأب صربي أرثوذوكسي، وبذلك، كانت أسرتها تحمل بعضًا من عوامل النزاع الذي شب في المنطقة. وكانت بوبا ذات قامة طويلة، وشعرها داكن اللون، وتتحرى اتباع إملاءات الموضة في هندامها، وقد غطت الحرب لمصلحة وكالات إعلامية دولية. وقد دعتني أنا وبعض أصدقائها إلى الانضمام إليها لحضور القداس الأكبر الذي يُنظَّم في المدينة بمناسبة عيد الميلاد. وكانت الكنيسة مكتظة جدًّا بالحضور لدرجة أن المقاعد كانت كلها مشغولة، وكان عدد الواقفين لا حصر له،

وكان من الصعب الدخول من باب الكنيسة. وكان بيور وأصدقاؤه من بين الحضور كذلك. وعندما حيّا القسّ المسيحيين، لم يرد عليه عدد كبر من الحضور، غير أنه أطرق برهة قبل أن يحيي جميع الحضور. وقابل الحضور كلمات القسّ بالهتاف والتصفيق، وكان جو ذلك القداس خاصًّا جدًّا ومختلفًا تمامًا عن كل ما عهدته من قبل في حياتي. وكان احتفالًا حقيقيًّا بالسعادة والمحبة. وإنما أتى كل من قصد الكنيسة، سواء من المسيحيين أو اليهود أو المسلمين، لكي يحتقل ويصلي إلى جانب الآخرين.

وأخبرتني صحيفة بوبا بأن عدد مرتادي الكنائس والمساجد، ومعه درجة الإيمان بصفة عامة، ازدادت خلال مدة الحرب. وكان الناس في حاجة أكثر إلى الله في تلك الأوقات العصيبة، ويتلمسون المواساة، ويبحثون عن بصيص أمل يدهم به إيمانهم به سبحانه وتعالى. ثم إن الجيل الصاعد على وجه الخصوص بدأ يكتشف هويته الدينية.

وقد صَدَّقَ كلام بوبا المفتي الأكبر للبوسنة والهرسك، الشيخ مصطفى سيريتش، الذي حظيتُ بفرصة إجراء مقابلة معه في مسجده بعد أيام قليلة من احتفالات أعياد الميلاد. حيث كان يرتدي ثوبًا طويلًا وعمامة عالية تدل على منصبه. وكان رجلًا ذا وقار وهيبة، وكان وجهه يشع إيماناً ولطفًا، وشعره ولحيته المهذبة أبيضين بياض الثلج. وخلال حوارنا قال لي: «حين تُدير لك القوى الدنيوية ظهرها، وتظلين حبيسة الحصار في هذه المدينة أربع سنوات، وتئنين تحت القصف والطلقات حت أنظار مجتمع دولي يقف متفرجًا، فما عساك تفعلين؟ هل تموتين؟ كلا، بل تتجهين إلى السماء بالصلاة، وتستجدين العون من الخالق عزّ وجلّ». كان الشيخ سيريتش خلال الحرب مع الصرب والكروات، يمثل رمز تحدي علماء البوسنة وكرامتهم وإيمانهم القوي بالله عزّ وجلّ. لقد عمل أولئك العلماء

على قيادة وإرشاد شعبهم في مواجهة لامبالاة المجتمع الدولي، وتواطئه الصارخ مع ما وقع. وسبق للشيخ سيريتش أن شغل منصب رئيس المجلس الإسلامي في البوسنة منذ عام 1993م، قبل أن يصبح المفتي الأكبر، أو رئيس العلماء، بعد ست سنوات من ذلك. ويجمع هذا المنصب القيادة الدينية والسياسية معًا. والشيخ سيريتش أيضًا عضو في كثر من المنظمات والجمعيات البوسنية والدولية، ومنها مجلس القادة المئة التابع للمنتدى الاقتصادي العالمي، واللجنة التنفيذية للمجلس الأوروبي للقادة الدينيين، ويُعدّ أيضًا أحد أهم الشخصيات الإسلامية في العالم المعاصر. ويحظى الشيخ سيريتش بسمعة طيبة في العالمين الإسلامي والغربي على السواء، وتلقى عددًا من الجوائز لمجهوداته في سبيل تعزيز التفاهم بين الديانات. وكم كانت دهشتي كبيرة حين ردّد ما قاله لي بيور عن أن حفل فريق (يوتو) الذي أقيم في سبتمبر 1997م، كان من أهم الخطوات نحو المصالحة بعد الحرب في البوسنة والهرسك.

لكن كانت لي دوافع شخصية كذلك دفعتني إلى الحديث إلى عالم على شاكلة الشيخ سيريتش. فبصفتي مسلمة أوروبية، كنت لا أزال أحاول أن أوفق بين هُوِيَّتَيَّ -الأوروبية والدينية-اللتين كانتا أحيانًا تبدوان لي متعارضتين. وكنت أتساءل عن السبيل للتوفيق بين حياتي بصفتي جزءًا من مجتمع لندن، وكوني مسلمة؟ وكان ذلك من الأسئلة التي كان عليّ أن أجد لها جوابًا. وكان جلّ من أعرفهم من غير المسلمين يقولون لي إني أخوض معركة خاسرة. ولم أشأ أن أفوت فرصة سؤال الشيخ عما إذا كانت القيم الأوروبية تُعارض قيم الإسلام، فكان جوابه: «لا إطلاقًا؛ إن الإسلام يدعو أتباعه إلى احترام الديانات الأخرى. ثم إن مبدأ الديمقراطية متجذر في الإسلام». ولا بد من أنه رأى الدهشة مرسومة على محياي، فتابع، وهو يشرح لي: «إذا عُدتِ إلى بداية عهد الإسلام، فستجدين أنه بعد موت

الرسول صلى الله عليه وسلم اختار الصحابة خليفة له من خلال التشاور بينهم لاختيار أقرب صحابي له، وهو أبوبكر الصديق في تصويت ديمقراطي صرف. إن الديمقراطية متوافقة تمامًا مع الإسلام».

لكني كنت في حاجة إلى نصائح خاصة بي، وأردت أن أعرف إن كان بإمكاني أن أسهم في تنمية التفاهم بين الغرب والإسلام من خلال عملي مقدمة برامج، وقد أعطاني ما قاله الأمل في إمكانية قيامي بذلك: «حين يعتنق المرء الإسلام، لا ينسلخ كليًّا عن هويته وثقافته السابقة، لأن كل ما يفعله الإسلام هو أن يجعل من الإنسان فردًا ذا هوية أقوى. إن الإسلام يُعزز شخصيته وفهمه لماهيته بصفته إنسانًا، ويوضح له ما يفترض فيه أن يقوم به في هذه الحياة، ويبين له أيضًا معنى تلك الحياة والهدف منها».

وكنت على الرغم من ذلك لا أزال أحاول أن أعرف لماذا قادني الله إلى الإسلام، وما الدور الذي قدر لي أن أقوم به في هذه الحياة. لكن في الوقت الراهن، كنت سعيدة بأن أطرح أسئلتي، وأستمع للأجوبة التي أمدني بها الشيخ سيريتش. وقد قال لي: «يمكننا أن نتبنى الأمور الإيجابية في الثقافة الغربية، مثل التعليم والإبداع الفني وإتقان العمل والصدق والنجاعة في العمل واحترام المواعيد، ونعيش في الوقت نفسه وفقًا للمبادئ الإسلامية. غير أني لا أتفق مع أن يكون التعبير عن الانتماء إلى الإسلام محصورًا فقط في اللباس الفضفاض، الذي يعود في الحقيقة إلى الثقافة الشرقية لا إلى الإسلام».

وعلى الرغم من أني كنت معجبة ببعض تلك الألبسة الفضفاضة، فإني وافقته على رأيه في أنها تبدو أحيانًا غريبة، ولا سيما في أوروبا التي أصبحت مثل قرية صغيرة. وقد ذهب الشيخ سيريتش إلى أبعد من ذلك بقوله إنه حين يختار معتنقو الإسلام الجدد أن يرتدوا الجلابيب الطويلة أو

(شالوار قميص) في مدن، مثل فرانكفورت أو نيس أو جلاسجو، فإن ذلك يؤدي إلى نتيجة عكسية، ولا يخدم الإسلام في شيء. وقال إنهم بذلك يظهرون ذوي أشكال غريبة، وربما يكون مظهرهم مخيفًا لغيرهم. وفي الحقيقة، فإن بعض المسلمين يضرون الإسلام بتقليدهم عددًا من المظاهر الثقافية عوضًا عن أن يعتنوا بالتعاليم الإسلامية، في حين أن عليهم أن يركزوا على كنهه ورسالته العميقة.

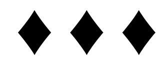
وبطبيعة الحال، لم أستطع مقاومة سؤاله عن حجاب المرأة الذي يُعدّ من أكثر المسائل إثارة للجدل في الغرب. ففي حين تعده النساء اللواتي يرتدينه رمزًا للكرامة والتحرر، على الرغم من التمييز الذي يطالهن في الغرب، فإن بعض غير المسلمين يرى فيه دليلاً صارخًا على القمع والاضطهاد اللذين يطالان المرأة. وقد جزم أغلب علماء الإسلام بأن ارتداء الحجاب مفروض على المرأة المسلمة. وكنت أتساءل عن رأي هذا العالم الأوروبي في هذه المسألة.

وكان جوابه على النحو الآتي: «لن أقول لكِ إن عليك أن ترتديه أولا، فهذا أمر عليكِ أن تتخذي فيه قرارك بنفسك. لكن بحسب علمي بالإسلام، لم يرد أي أمر صريح في القرآن الكريم يفيد بأن ارتداء الحجاب شرط لصحة إسلام المرأة. أنا أعلم أن الإسلام يقوم على الإيمان بالله الواحد الأحد وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وأن أركانه هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، والصلوات الخمس، وصوم رمضان، وإيتاء الزكاة، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، هذه هي قواعد الإسلام».

شعرت براحة كبيرة لسماع ذلك؛ لأن القرآن الكريم يظل المصدر الأول للتشريع في الإسلام، وحتى من دون ارتدائي الحجاب، كنت أجد صعوبات

كبيرة في أن أخبر الناس في أوروبا بأني مسلمة. وكنت أشعر بأني إن بدأت فجأة بارتداء الحجاب، فسأسترعي اهتمامًا أكبر، وأُحدث جدلًا أكبر بكثير، وأن ذلك لا يخدم الإسلام في شيء. وتعهدت لنفسي بأن أواصل دراسة هذه المسألة، واكتفيت حينها بالأجوبة التي توصلت إليها.

لقد كان حديثي إلى المفتي الأكبر مصدر إلهام كبير لي، وأعجبني كثيرًا كل ما قاله. ومن وجهة نظر امرأة أوروبية، شعرت براحة كبيرة بنظرته إلى الإسلام.



عندما عدت إلى لندن، كنت في حاجة إلى المزيد من الوقت كي أستوعب كل ما عشته في البوسنة. لقد كانت تلك الرحلة تجربة فكرية بحق، وأثرت فيّ بالغ التأثير. فأحسست بالحاجة إلى أن أشارك، وأفعل شيئًا ما لمساعدة هذا البلد. وازدادت حاجتي إلى لقاء مسلمين أوروبيين آخرين أبادلهم أفكاري وخبراتي. إن ما أعجبني في البوسنة، هو أن الإسلام كان جزءًا طبيعيًّا من الحياة اليومية للناس، وكانوا يفهمون بعضهم بعضًا من دون الحاجة إلى الخوض في تفسيرات بلا نهاية. لقد كنّا نتشارك في طريقة التفكير نفسها، وكانوا يشبهونني في المظهر والإحساس لأنهم كانوا مسلمين أوروبيين. أما في لندن، فكان جلّ من قابلتهم باكستانيين أو إيرانيين أو عربًا، تلقوا تعليمهم في الغرب، وتشبعوا بثقافته، ولم يكونوا ملتزمين بشعائر الإسلام أو ورعين أو مستقيمين، وكان جلهم مثقلين بعبء إرثهم الثقافي. وكان الرجال منهم على وجه التحديد مذبذبين بين ثقافتين، وغير قادرين على اتخاذ قرار فيما يخص نوع المرأة التي يريدون، وهل تكون ربة منزل تطهو الطعام وترعى الأطفال وتطيع زوجها، أو امرأة مستقلة تكون في الوقت نفسه شريكًا على قدم المساواة مع الرجل وناجحة في

عملها.

ومعظم المجموعات العرقية من المسلمين الذين قابلتهم كانت منطوية على نفسها ضمن نطاق حياتها الاجتماعية، وتجنح للاكتفاء بذاتها. ولم أشعر بالانتماء إلى أي واحدة من تلك المجموعات، ولا حتى إلى مجموعة أوسع وأكبر من المسلمين أكثر تفتحًا. ولم يكن كثير من المسلمين مهتمين، أو يحاولون دخول دائرة أصدقائي الغربيين، ربما باستثناء روبي. ثم إن أغلب المسلمين الذين عرفتهم كانوا يتحركون في نطاق أحيائهم والمساجد التي يقصدونها دون الاختلاط بمسلمين من دوائر عرقية مختلفة عنهم. بل إن كل مجموعة منها كانت تختلف عن الأخرى في وقت بداية صوم شهر رمضان، وتحديد يوم عيد الفطر. ويعود ذلك لاختلاف المقاييس التي تعتمدها كل منها في تبيان بداية الشهر من نهايته، وهي إما رؤية الهلال، أو حساب وقت بروز الهلال الجديد، أو اتباع ما تعلن عنه المملكة العربية السعودية. ولم أكن حينها أفهم سبب تلك الاختلافات.

ولحسن الحظ كانت لندن تعرف بروز طبقة من المثقفين والمفكرين المسلمين الذين كانوا عصريين ومتفتحين، بل إن بعضهم يعيش وفقًا لثقافة (الهيب هوب). وكنت ألتقي هؤلاء المسلمين في مناسبات ثقافية، وحين أحضر محاضرات عن الإسلام أو متعلقة به.

كان نادي (الرّوم) الخاص خلال فترة قصيرة في أواخر التسعينيات، يُعدّ المكان المناسب لاحتضان هذه الثقافة الجديدة. وتعود فكرة هذا النادي إلى رضا الساعي، وكانت محامية ناجحة في السابق. وكان هذا النادي في شكله وطبيعته نوعًا من الرد على نادي (جروتشو). وقد جُهِّز بمطعم وركن للمشروبات، ومكان للاسترخاء، ورواق للعرض، ومكان للجلوس. وكان المكان عصريًّا، لكنه كان يحمل طابعًا إسلاميًّا. أما ديكور النادي من

الداخل، فكان من أنجاز طلبة مدرسة الأمير تشارلز للفنون التقليدية التي تقع في شوريديتش، وهي منطقة في شرق لندن. ويتقن طلبة تلك المدرسة أساليب التعبير عن المقدس بأسلوب معاصر، فيبدعون قطعًا من الأرابيسك (الزخرفة)، وتصاميم هندسية باستخدام الزجاج المسنفر، أو الطين، أو الخشب، أو المعادن.

كنت من المعجبين جدًّا بنادي (الرّوم)، لأنه كان على وجه التحديد ما يحتاج إليه المسلمون، لأنه يتيح لهم فرصة التواصل والتعارف، وبطبيعة الحال كان النادي مفتوحًا لغير المسلمين كذلك. وكان الجو العام للنادي يبعث على الارتياح، وكان بإمكان الرجال والنساء أن يتحدثوا إلى بعضهم بعضًا بكل احترام، بعكس الحانات العادية التي كان يقدم فيها الخمر، وكان التغازل البذيء حاضرًا في كل مكان منها، وهو ما يُشعر المسلمين الملتزمين بتطبيق تعاليم دينهم بالضيق، ويدفعهم إلى الابتعاد عنها. وكنت قد بدأت أشعر بالضيق نفسه في الحانات العادية، وبدأت أتجنب الذهاب إلى النوادي والحانات. وعلى أي حال، لم تعجبني يومًا فكرة الذهاب لاحتساء الخمر حتى الثمالة، وتناول أكياس البطاطس المقرمشة بعد وقت الدوام، عوضًا عن تناول وجبة بمعنى الكلمة وكأس من النبيذ. وكان يزعجني أيضًا أن يبدأ مرتادو الحانات قبل الساعة الحادية عشرة بقليل في طلب كثير من كؤوس البيرة دفعة واحدة.

وفي المقابل، لم أكن أشعر بالارتياح التام في المناسبات الإسلامية التقليدية في لندن، حيث كان الفصل واضحًا بين الرجال والنساء. وخلال بعض المحاضرات، كان الرجال يجلسون على جانب من الردهة، والنساء في الجانب الآخر. وعلى أي حال، كان ذلك أفضل من أن يشغل الرجال المقاعد الأمامية، وتترك النساء في المقاعد الخلفية، وهو مشهد عاينته

أيضًا. ولم أفهم يومًا سبب كل هذه المحاولات للفصل بين الجنسين في لندن، حيث المسلمون، شأنهم في ذلك شأن أي شخص آخر، درسوا وعملوا في أوساط يختلط فيها الرجال بالنساء، وكانوا يستخدمون وسائل المواصلات التي تكتظ براكبيها من الجنسين. وكنت دائمًا أشعر بأن المسلمين يعون أكثر من اللازم بسطوة مجموعة من القواعد التي تحكم التصرف بين الجنسين لدرجة أنهم يقيمون الحواجز فيما بينهم بشكل عفوي. بل إنهم ينادون بعضهم بعضًا (أخي) و(أختي)، للدلالة على أن العلاقات بينهم لا يمكن أن تتعدى حدود الأخوة، على الرغم من أن رابطة وطيدة تصلهم وهي أخوة الإيمان. وكنت أتفهم أن التداخل بين الجنسين لم يكن دارجًا بين المسلمين كما كان بين غيرهم، بل وراقني ذلك. لكني كنت أرى أحيانًا أن ذلك الاحترام كان يُفسَّر بطريقة مبالغ فيها.

أصبح (الروم) المكان المثالي للخروج وقضاء وقت مع الأصدقاء. وكان يوسف إسلام، يرتاده بانتظام، وكذلك بيتر ساندرس، مصور نجوم (الروك) السابق الذي اعتنق الإسلام. حيث كان ساندرز وزوجته حفصة - وهي معالجة من أسكتلندا - من أتباع حركة (الهيبيز) في ستينيات القرن الماضي، قبل أن يهتما بالإسلام خاصة التصوف. وكان جاي إيتن من روّاد هذا النادي كذلك، حيث ألقى فيه كثيرًا من المحاضرات. وحين أصدر كتابه (تَذَكُّرُ الله)، طلب مني أن أقوم بتقديمه خلال اللقاء الذي أقيم في النادي بتلك المناسبة. إضافة إلى ذلك، استضاف النادي عددًا من حفلات جمع التبرعات لمصلحة منظمة التعلم من أجل الحياة، واختاره العالم الأمريكي المشهور الشيخ حمزة يوسف لتقديم (البردة)، وهي أشهر قصيدة نُظمت في خير البرية، وعمل هذا المفكر على إخراجها بصورة مجموعة أقراص مضغوطة تحتوي إنشاد القصيدة؛ إضافة إلى تعليقه عليها باللغة الإنجليزية. وكان من بين روّاد النادي بصورة منتظمة الدكتورة أمينة وعبد

اللطيف سلازار، وهو ممثل ومخرج أمريكي، وزوجته، التي أسست (آركيتايب بابليكايشن)، وهي دار نشر متخصصة في نشر الكتب التي تعنى بالمسائل الإيمانية والفكر الإسلامي. ولكن مما يؤسف له، أن النادي أغلق أبوابه بعد بضع سنين، حين تزوجت رضا؛ لأنها آثرت أن تكرس وقتها كله للعناية بزوجها وأسرتها المستقبلية. لقد خلف إغلاق (نادي الروم) فراغًا كبيرًا في الحياة الفكرية الإسلامية في لندن.

لكن كان هناك كثير من الأنشطة المهمة الأخرى في لندن. وقد استمتعت كثيرًا بزيارة المعارض الفنية، وحضور العروض المسرحية، وحفلات الموسيقا الصوفية. ووجدت أيضًا في المحاضرات والمؤتمرات وسيلة مهمة جدًّا لتعلم المزيد عن الإسلام وموضوعات أخرى. ولحسن الحظ، فإن لندن تستقطب أفضل المفكرين في العالم سواء من الشرق أو الغرب. وكان من بين المحاضرات التي حضرتها بعد رحلتي إلى البوسنة، محاضرة قدمها العالم والفيلسوف الإيراني المشهور، الدكتور سيد حسين نصر. وكان هذا المفكر قد أصدر أكثر من خمسين كتابًا، ومئات المقالات في موضوعات شتى، مثل علم الكون وعلم البيئة والفن الإسلامي والفلسفة، وورد اسمه ضمن مكتبة الفلاسفة الأحياء، إلى جانب آينشتاين وسارتر وراسل وغيرهم من مفكري القرن العشرين. ويُعد الدكتور نصر أيضًا من أبرز أعلام الفلسفة الخالدة، التي تعتقد أن جميع الكتب السماوية والأديان والتعاليم الفلسفية تتفق جميعها على نفس الحقائق الكونية التي تنادي بها، بغض النظر عن الزمان أو الثقافة التي وجدوا فيها. لقد أثارتني هذه الفكرة؛ لأني لمست صحتها من خلال ما عشت في حياتي، وكنت أودّ أن أتعرف إليها أكثر من خلال هذا العالم الكبير.

كانت قاعة المحاضرات مكتظة جدًّا بالحضور، وكان يبدو على الدكتور

نصر، الذي ارتدى ليلتها بذلة سوداء وقميصًا أبيض بياقة نهرو، هيبة ووقار رجلٍ نبيل. كان جديًّا ويتمتع بالدعابة في الوقت نفسه. وخلال تلك المحاضرة، تناول الدكتور نصر مفاتيح الوصول إلى الله، ولخصها في القيام بالفرائض الدينية، والتحلي بالسلوك الحسن، ومعرفة الله. وقد شرح كيف يمكن التمييز بين بعدين للوجود الإنساني هما: البعد الأفقي والبعد العمودي. ويشير البعد الأفقي إلى حياة الإنسان الدنيوية والمادية ومعيشه اليومي، أما الأفقي، فيرمز إلى البعد الروحي. وقال الدكتور نصر في معرض كلامه: «على كل من يسعى إلى التقرب من الله أن يتجاوز البعد الأفقي، ويرتقي بنفسه إلى الله عموديًّا، ويعني ذلك أن يمنح كُلَّهُ لله، قلبَه وجسدَه وروحَه. ويجب ألا يكون في تحركه ذلك أي تردد، أو أن تشوبه أي شائبة من نوع ما». وركز على أنه لا يمكن لمن يسعى إلى هذا التقرب أن يكتفي بالأمور السطحية، وقال: «وفيما يجنح الناس إلى الحوم حول جوانب من الدين، فإن عليهم أن ينغمسوا في طياته مثل العطّاس الذي يهوي بنفسه في البحر بحثًا عن الكنز. إن كثيرًا من الناس في هذا العصر ينتقون أمورًا من مختلف الديانات، في مقاربة يمكننا تسميتها بمقاربة العصر الحديد، لكنهم لا يعتنقون أيًّا من تلك الديانات قلبًا وقالبًا».

وفي الواقع، فإن عددًا كبيرًا من الناس لم يعودوا يؤمنون بالدين بمعناه الهيكلي والشعائري، وأصبحوا مهتمين فقط في أن ينتقوا ما يرونه الأفضل في كل ديانة أو تعاليم روحية. وقد ختم الدكتور نصر محاضرته بقوله: «إن الوسيلة المباشرة للتواصل مع الله هي من خلال الصلاة والذكر».

وقابلت كالمعتاد، كثيرًا من الوجوه المألوفة بين الحضور، وكان من بينهم الدكتورة أمينة. غير أني لم أتوقع أن أصادف أيًّا ممن عرفتهم في عالم صناعة الموسيقا. وبينما كنت أهم بمغادرة المكان لحضور أول عرض لأحد

الأفلام، قابلت كريسي هايند، المغنية الأساسية في مجموعة (ذي بريتاندرز)، والزوجة الأولى لجيم كير. وأمعنت النظر كي أتأكد من أنها كريسي فعلًا، ثم تبادلنا السلام. وكنا قد التقينا في مناسبات موسيقية عدة على مدى السنين، لكن دون أن تسنح لنا الفرصة كي نتحدث معًا. وكان جيم قد نصحني بأن أحاول مقابلتها، وتوقع لنا أن نتوافق توافقًا كبيرًا. وكنت أحب كثيرًا صوتها وأداءها المتزن. فكانت من وجهة نظري ملكة موسيقا (الروك) دون منازع، وقد بدت كذلك أكثر من أي وقت مضى في ليلة محاضرة الدكتور نصر، حيث بدت أصغر سنًّا وهي ترتدي جزمة عالية الساق، وسروال جينز، وقميصًا ذا أكمام قصيرة كانت تعلوه سترة سوداء ذات طراز أنيق.

وكان توقع جيم في محله، حيث استمتعنا بالحديث إلى بعضنا بعضًا، وحين التقينا مجددًا في كواليس حفلة (برايان فيري) بعد أشهرة عدة من ذلك، تبادلنا أرقام هواتفنا، وأصبحنا صديقتين. ومنذ ذلك الحين، لم أفوّت أيًّا من حفلاتها الموسيقية في لندن، وكانت كلها مناسباتٍ لا تنسى. وكانت كل واحدة من حركاتها توحي بالارتياح، وأحببت كثيرًا شخصيتها. وقد اكتشفت لاحقًا أنها من أتباع (هاري كريشنا) المخلصين، وكانت تحب الله كثيرًا، وتهتم بكل الطرق الروحية التي توصل إليه، بما فيها الإسلام، وكانت تسألني بعض الأسئلة عن هذا الدين. وكنا نذهب معًا إلى معارض مدرسة الأمير تشارلز للفنون التقليدية، وصحبتها مرة إلى محاضرة عن جلال الدين الرومي، وكانت من إلقاء الدكتور نصر. لقد كان لتلك المحاضرة تأثير كبير فيّ كذلك، وقد أكدت صحة فكرتي أني إن أردت أن أعتنق ديني كما يجب، فعليّ أن أدمجه في مناحي حياتي كلها، وهو ما كان يتعارض مع تقديمي لبرامج ترفيهية. ذلك أن محتوى ما كنت أقدمه كان يتعارض مع تعاليم الإسلام. ولعل الله استجاب دعائي، حيث أوقفت محطة (إن بي سي) البث

في أوروبا منتصف سنة 1998م. ويبدو أن تقديم جدول من البرامج تجمع بين الأخبار والترفيه والدراما والكوميديا والبرامج الحواريه لم يؤتِ أكله في أوروبا؛ لأن الناس كانوا يودون متابعة قناة تتحدث بلغتهم الأم، فيما كانت اللغة الإنجليزية لغة ثانوية في معظم الدول الأوروبية. وكان السبب نفسه وراء انتهاج إم تي ڤي لمقاربة إطلاق قنوات محلية أوروبية. وكان يأمل القائمون على (إن بي سي) كذلك في أن تنجح فكرة إطلاق قنوات متخصصة، فقرروا أن يركزوا في محتوى برامجهم على الأخبار والاقتصاد. وقد كان توقيت إغلاق المحطة مواتيًا جدًّا لي. وكنت قد بدأت العمل في مشروع خيري جديد، وكنت آمل في أن أعمل على إنجاحه. وبعد افتتاح مركز (بافاروتي) للموسيقا بوقت قصير، سألني سفير البوسنة إلى الأمم المتحدة، السيد محمد ساكيربي، أن أساعد على تنظيم حفل موسيقي يتميز بتعدد الثقافات التي تمثل فيه، بصفته جزءًا من سلسلة من الأنشطة السياسية والثقافية التي كانت مبرمجة في سبتمبر 1998م بسراييفو. وقد أطلق على المشروع اسم (بريدج)، أيْ الجسر. ويهدف إلى تشجيع التعايش السلمي في البوسنة من خلال الحوار السياسي والثقافي والديني. فقبلت دعوة سعادة السفير من دون تردد. ومن ثم كُلِّفتُ بتنظيم مهرجانٍ موسيقي كبير، فاستخدمت اتصالاتي ومعارفي، وحاولت أن أحصل على موافقة أفضل الفنانين للمشاركة فيه. غير أن وقت الإعداد للمهرجان كان ضيقًا جدًّا، وهو ما مثّل تحديًا كبيرًا لي. ولسوء الحظ، كان أصدقائي الفنانون، إما مرتبطين بمواعيد أخرى، أو تعذّر عليهم أن يجتمعوا بفرقهم الموسيقية. وذات مرةٍ وأنا أتصفح الصحيفة، إذ بي أقرأ مقالًا عن خطاطٍ وعالمٍ مسلمٍ هو الدكتور أحمد مصطفى. ذكر المقال أن أعماله عرضت في متحف الفاتيكان بناءً على دعوة وجهّها له بابا الفاتيكان الراحل يوحنا بولس الثاني. وذكر أيضًا أن الدكتور مصطفى سيلقي محاضرة في المركز

الثقافي المصري في لندن؛ ولأني من المولعين بالفن الإسلامي، قررت حضور المحاضرة. وبعد المحاضرة، كان لي لقاء مع محمد ساكيربي ويوسف إسلام، وكنت أنوي إقناع الأخير بأن يوافق على تصدر اسمه (مهرجان الجسر) في سراييفو.

وكانت محاضرة الدكتور مصطفى مثيرة للاهتمام، حيث استهلها باقتباس لأفلاطون يقول فيه: «إن إبداع الله لا ينتهي». واسترسل يتحدث عن أشكال الحروف العربية ومقاييسها، وكيف أنها تخضع لقواعد هندسية صارمة تضفي عليها تناغمًا بصريًّا فريدًا. وكانت تلك القواعد وفقًا للدكتور مصطفى، هي نفسها المقاييس التي وضعها فيثاغورس التي شكلت أساس السلّم الموسيقي والعدد الذهبي. ووفقًا لنظرية فيثاغورس هذه، فإن هذه القوانين الرياضية لا تحكم العالم المادي فحسب، بل تحكم العالم الأخلاقي أيضًا. ويمكن فهم التخلّق على أنه انسجام يطال الروح، وكأنه تعديل منضبط لتلك الرح على أساس تلك القواعد. وأكد الدكتور مصطفى: «وهذا ما يفسر أن الحرف العربي، شأنه في ذلك شأن الموسيقا، يملك القدرة على أن يؤثر تأثيرًا أخلاقيًّا وروحيًّا في من ينظر إليه».

أعجبني كثيرًا ما سمعته، وحين نظرت إلى كراسة أعمال الدكتور مصطفى، وجدت أن كثيرًا من لوحاته كانت زيتية، في حين كانت أخرى مطرزة. وعلى الرغم من أن أعماله كلها كانت مستلهمة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فإنها كانت تنبض بروح العصر، حيث كانت الحروف العربية تتسق في طبقات بعضها فوق بعض في انسجام مثيرٍ وتامٍّ لألوان، ينكسر في أشكال ثلاثية الأبعاد. وذكرّتني بعض أعماله بـِ (فن الفيديو)، وكانت تحمل لدرجة كبيرة نوعًا من الإضاءة زادت من جمالها.

تحدثت إلى زوجته كاثرين التي أخبرتني بالنجاح اللافت الذي لقيته

لوحاته في روما، وكيف أن تأثيرها تجاوز الحدود الثقافية والدينية ليؤثر حتى في كثير من (كرادلة) الكنيسة. بل إن البابا يوحنا بولس الثاني نفسه أعجب بفن الدكتور أحمد مصطفى. فأخبرتها من جانبي عن مشروع (مهرجان الجسر)، وأنه يسعى إلى أن يكون صلة وصل وتحاورًا بين الثقافات والأديان، فقررنا معًا أن نعمل على عرض أعمال الدكتور مصطفى في سراييفو. وعرّفتني بعد ذلك على زوجها الذي رحب بالفكرة أيضًا. وواصلنا حديثنا، وفكرنا في أن تلك الأعمال يجب أن تنتقل مباشرة من روما إلى سراييفو. ولم يتبقَّ لي حينها سوى أن أُقنع السفير ساكيربي بمشاركة هذا الخطاط المرموق. وأعطتني كاثرين كراسة أعمال الدكتور مصطفى كي آخذها معي عند موعد اجتماعي. وقابلت سعادة السفير ويوسف إسلام في مدرسة برونديسبوري للبنين، وهي إحدى المدرستين الإسلاميتين الخاصتين اللتين أسسهما يوسف إسلام في ضاحية برنت بلندن، واللتين أصبحتا أنموذجًا للمدارس الإسلامية في بريطانيا. وكان يوسف إسلام حينئذٍ قد أصبح نشيطًا جدًّا في ميدان الأعمال الخيرية، ويشرف بكل التزام على أنجاز كثير من المشروعات المهمة.

رحب بي يوسف إسلام بحفاوة وبكل احترام. ولم يعد حينها يرتدي الرداء الأبيض الطويل، وكان قد عاد إلى عالم الموسيقا مرة أخرى، وكان أول عرض يشارك فيه بعد انقطاع دام سبع عشرة سنة، هو مهرجان سراييفو سنة 1997م ولم. أجد أي صعوبة في إقناع الرجلين بفكرة مشاركة الدكتور أحمد مصطفى. وكان يوسف إسلام يعشق الفن، وصادف أنه كان يعرف الخطاط. وعبّر كل من يوسف إسلام والسفير محمد ساكيربي عن حماسهما لإنجاح ذلك المهرجان. وكنت متفائلة جدًّا بموافقة يوسف إسلام على الغناء في المهرجان، لكن حين اقترحت عليه إمكانية تأديته أغنية على خشبة المسرح مع المغني بونومن فريق (يوتو)، رفض الفكرة جملة

وتفصيلًا، وشرح لي أنه لا يحبذ فكرة اعتلاء الخشبة مع شخص يعتقد أن «لله أُمًّا». وكنت أعرف أن المسلمين يؤمنون بأن الله لم يلد و لم يولد كما أكدت على ذلك سورة الإخلاص، وأن عيسى هو ابن السيدة مريم، لكني كنت أظنه سيكون من الرائع أن يجتمع الرجلان في أداء أغنية معًا على الرغم من اختلافاتهما العقائدية، وكان من الممكن أن يكون ذلك العرض رمزًا إلى المصالحة، غير أن الفكرة لم يُقدّر لها النجاح.

شُغلت خلال الأسابيع التي أعقبت ذلك كثيرًا بين محاولة إيجاد مجموعات موسيقية للمشاركة في المهرجان، وحجز التذاكر والبحث عن فنادق مناسبة، والاهتمام بكافة التفاصيل اللوجستيكية لتنظيم المهرجان. غير أن نقل أعمال الدكتور أحمد مصطفى النفيسة، حيث كانت كلها لوحات ضخمة الحجم، إلى سراييفو كان من أكبر التحديات التي واجهتها. وقبل موعد معرض لوحات الخط العربي بأسبوعين، وبينما كانت درجة حماسنا وتشوقنا إلى الحدث تصل ذروتها، سافرت مع الدكتور مصطفى وكاثرين إلى البوسنة. وأصبحت كاثرين، وهي مسلمة تنحدر من أسكتلندا، صديقة مقربة لي، وكذلك أحمد الذي أصبح كأنه مرشد بالنسبة إليّ، ولم يكن يتردد في الإجابة بكل صبر وحلم عن الأسئله الكثيرة التي كنت أوجهها له عن موضوعات مختلفة تتعلق بالإسلام. وحين وصلنا إلى سراييفو، وجدنا أنفسنا غارقين في فوضى عارمة. فقد ألغت كثير من المجموعات الموسيقية مشاركتها، في حين تعذّر على مجموعات أخرى الحصول على التأشيرة. وتوالت المصاعب تباعًا؛ وذلك لأن المنظمين الذي تعاملنا معهم كانوا هواةً، ولم يكونوا محترفين. غير أن أكبر مشكلة واجهناها هي حين علمنا أن الشاحنة المحملة بأعمال الدكتور مصطفى قد فُقِدَت. فأصبنا جميعًا بصدمة كبيرة، وبدأت شائعات تسري بأن المافيا حولت مسار الشاحنة، واستولت على كل ما فيها. فأرسل السفير محمد

ساكيربي على الفور من يقتفي أثر الشاحنة. وكانت تلك صدمة كبيرة لأحمد وكاثرين. لكن في مساء اليوم الذي سبق يوم الافتتاح الرسمي للمهرجان، وصلت الشاحنة بسلام إلى موقع المهرجان. وساعد كثير من المتطوعين الدكتور مصطفى على تعليق لوحاته في وقت قياسي في دار (أوميتنيتشكا) للعرض. وعملنا ساعات متواصلة، وكانت نتيجة تعبنا مذهلة. وكانت أهم قطعة من قطع الدكتور مصطفى الفنية عبارة عن مكعب كبير [(1)] من (الأكليريك) الشفاف، يتكون من 10x10x10 من المكعبات الصغيرة، يكشف حين يفتح عن 99 مكعبًا بالتحديد. وكان هذا العمل الفني يرمز إلى الكعبة، أما الرقم 99، فيشير إلى أسماء الله الحسنى التي تحمل صفاته سبحانه وتعالى، ومنها الأحد والعلي والعزيز والحق والرحمن والحي والعليم والكريم والغفور والودود وغيرها. وقد حدثنا الدكتور أحمد أنا وزوجته مرة ونحن نتناول العشاء، أن على المسلم أن يتحرى استشعار تلك الصفات، ويتمثل معانيها في واقع حياته اليومية. وأن بعض المرشدين أو الشيوخ الروحيين، يعطون للمريد اسمًا أو صفة من صفات الله تعالى، فيأخذ المريد في ذكره حتى يجد في نفسه وقلبه أثر ذلك الاسم أو الصفة، بصفته علاجًا أو دواءً لنفسه وقلبه.

قام علي عزت بيجوفيتش، رئيس البوسنة والهرسك حينها، بافتتاح معرض الدكتور مصطفى تحت تصفيق الحاضرين من سياسيين وعلماء دين وفنانين وموسيقيين وعدد من الوجهاء المحليين، إضافة إلى السفير الأميركي. وحين زار المنشدون الصوفيون المعرض، انبهروا بالأعمال المخطوطة لدرجة أنهم انطلقوا يذكرون الله بكل تلقائية. وقد استمر المعرض أربعة أسابيع.

كان اسم لوحتي المفضلة (حيث يلتقي البحران)، وقد قدمها الدكتور

مصطفى هدية لمتحف سراييفو. كان أحمد قد أنجز هذه اللوحة بناءً على تكليفٍ من ملكة بريطانيا هديةً لدولة باكستان، بمناسبة الذكرى الخمسين لانفصالها عن الهند. واللوحة عبارة عن الآيتين 19 و20 من سورة الرحمن: (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ).

وقد تسنى لي بعد سنين عدة من ذلك أن أقف على ظاهرة التقاء البحرين، ورأيتها رأي العين في البرازيل عند نقطة (إنكونتروداس أجواس)، أيْ (التقاء المياه) في ماناوس؛ ففي ذلك الموقع يلتقي نهر نيجرو ونهر جراندي من دون أن تمتزج مياههما، وتسير المياه السوداء والمياه الرملية، كل في خطه، جنبًا إلى جنب كيلومترات عدة. لقد أدهشني ذلك المنظر، وذكّرني بآيتي سورة الرحمن واللوحة التي خطهما فيها الدكتور أحمد مصطفى بخطوط من ألوان مختلفة، تلتقي دون أن تتمازج وكأنها مفصولة بحد غير مرئي للعين. لقد كان ذلك المشهد يرمز إلى التعايش المنسجم بين نقائض يكمل بعضها بعضًا، مثل السماء والأرض، والشرق والغرب، والرجل والمرأة، والاضطراب المُبدِع الذي ينشأ بين تلك النقائض.

أما الحفل الموسيقي في سراييفو، فقد جرى في الأول من سبتمبر من سنة 1998م، في ملعب ميتاليكا أرينا. وقبل خمس دقائق من انطلاقه، فاجأني السفير محمد ساكيربي بأن طلب مني أن أقدم فقرات الحفل كله. ولم أتوقع ذلك الطلب إطلاقًا، وعلى الرغم من أني لم أكن مستعدة لتلك المهمة، فقد اعتليت خشبة المسرح فورًا. وقد تضمن برنامج الحفل أهم الفرق الإنشادية الدينية في سراييفو، وهي الأرثوذكسية واليهودية والصوفية. وكانت أول فقرة من فقرات المهرجان مشاركة لإمام شاب اسمه عزيز أليلي، وقد أتى خصيصًا من زغرب ليؤدي أغنية (الشهيد)، التي كانت تَرثِي وتُحَيِّي من وقعوا في الحرب، حيث كانت مناسبة جدًّا لذلك الحفل.

لقد هزَّ هذا المنشد قلبي بصوته الملائكي، وترنيمات أغنيته الجميلة، وذرف كثيرون دموعهم من رقة أدائه. ولم يكن عزيز منشدًا موهوبًا فحسب، بل كان شابًّا وسيمًا، وكان بإمكانه أن يصير نجمًا ناجحًا إن هو أراد ذلك. لكن لأنه كان حافظًا للقرآن الكريم، اختار أن يعمل إمامًا في مسجد في زغرب.

وبعد ذلك جاء دور مجموعة (دجام آند فام)، التي تمزج في أسلوبها بين العربية والفرنسية، وإريك بوردون وغيرهم ممن قدموا أداءً هائلًا تلك الليلة. وبعد منتصف الليل بوقت قصير، جاء دور العرض الأساسي في المهرجان، وكان من أداء مجموعة (ترانس- جلوبال أندرجراوند) التي ألهبت الخشبة برفقة ناتاشا أطلس. وعلى الرغم من أن رقص ناتاشا على إيقاعات إفريقية لم يكن يمت إلى القيم الإسلامية بصلة، فإن ذلك كان مقبولًا بصفة استثنائية. وكانوا جميعًا فرحين، ورقصوا خلال تلك الليلة، واستمتعوا بوقتهم في الحفل. كان الملحق الثقافي السويسري من بين الحضور كذلك. وعند الساعة الرابعة صباحًا، تنبهت إلى أني أضعت حقيبة يدي التي كانت تحتوي على جواز سفري وتذاكر الطيران ومحفظة نقودي. فعدت إلى الملعب كي أبحث عنها، فوجدت أن عملية التنظيف كانت جارية على قدم وساق. وكانت الكراسي كلها مطوية وموضوعة بعضها فوق بعض. لكني سرعان ما لمحت حقيبتي موضوعة على أحد الكراسي. ومن الواضح أن شخصًا طيبًا وجدها، ووضعها هناك. كم كانت مفاجأتي كبيرة حين وجدت أنه لم ينقص أي شيء مما كان فيها، بل ظلت على حالها. وفي المقابل، فقد قابلت بوب جيلدوف لشرب القهوة بعد أسابيع من ذلك في مقهاه المفضل الذي يلقبه بمكتبه على شارع كينجز، وإذ بحقيبتي تُسرق من أسفل الطاولة في واضحة النهار.

كان مسك ختام زيارتي للبوسنة رحلة قمت بها إلى مدينة موستار برفقة الدكتور أحمد مصطفى وزوجته كاثرين، بناءً على دعوة كريمة من وزير الثقافة البوسني الذي أراد أن يريَنا (تكيةً) للطريقة النقشبندية تعود إلى قرون عدة مضت في قرية بلاجاج. وقد أسهم بعض أجداد هذا الوزير في إقامة تلك (التكية). بعد أن اجتزنا بالسيارة تلال البوسنة الخضراء، سرنا بمحاذاة نهر كان يصب في بحيرة صغيرة محاطة بمنحدرات صخرية عالية، إلى أن وصلنا إلى وجهتنا. إنه منزل أبيض وغريب، كان سقفه على شكل تموجات، في حين كانت نوافذه خشبية. بُنِي المنزل على حافة منحدر يطل على مياه فيروزية، حيث كانت السكينة تحف موقع المنزل، وأحسست وأنا أسير بجوار النهر في طريقي إلى (التكية)، بحضورٍ روحيٍّ قوي. وحين دخلنا المنزل، نزعنا أحذيتنا وإذا بنا في غرفة صغيرة يكسو أرضيتها سجاد أحمر اللون مصنوع يدويًا، يتوسط حلقة من الوسائد. وفي تلك الغرفة، كانت تقام حلقات الذكر. وكان بالإمكان سماع صوت خرير المياه المنسابة في جريانها خلال النهر، وهو ما يجعل ذلك المنزل مكانًا مناسبًا للصلاة والتفكر. وسُمِحَ لنا بزيارة ضريح التكية الذي يضم قبور بعض كبار شيوخ الطريقة النقشبندية الذين كانوا يقيمون هناك. حيث كانت القبور في غرفة صغيرة من الطابق الأرضي، وكان سقفها منخفضًا جدًّا. وكان عدد من السبحات موضوعًا على القماش المخملي الأخضر الذي كان يغطي تلك القبور، فيما كان ينتصب عمود مغطى بثوب من ناحية رأس كل دفين، وتعلوه عمامة خضراء. دخلت إلى تلك الغرفة بكل هدوء، لكنني سرعان ما رجعت أدراجي حين رأيت شابًّا يرفع يديه بالدعاء أمام أحد المقامات. أشار إليّ بأنه انتهى وبأن بإمكاني دخول الغرفة. وبينا كنت أمر أمامه عند باب الغرفة، فاجأني بأن ذكر اسمي متسائلًا، ثم تعجب قائلًا: «لم أتوقع يومًا أن أرى مقدمة برامج على محطة

إم تي ڤي في هذا المكان». لم تكن دهشته أقل من دهشتي؛ لأني لم أتوقع أن يتعرف إليّ أحد في مثل هذا المكان، ولا سيما أني كنت أرتدي ثوبًا يغطي شعري.

وبينما كنّا واقفين أمام النعوش، اقترح الدكتور أحمد أن نقرأ سورة الفاتحة على أرواح هؤلاء الشيوخ. وبينا كنت أنطق ألفاظ الفاتحة بالعربية، حدث لي أمر لم يسبق لي أن خَبِرْتُهُ من قبل. إذ أحسست فجأة بأن موجة قوية من الطاقة استأثرت بي من جهة النعوش. وكنت على وشك أن أفقد وعيي، وإن بشعور قوي من الحب يغمرني ويملأ صدري. ولم أعرف ما الذي اعتراني. وعلى الرغم من أني شعرت بالدوار، فإن إحساسًا بالحبور ملأ قلبي. لقد كان كما لو أن شيئًا ما في قلبي لم أكن أعلم بأنه موجود استفاق في داخلي. لقد لازمني ذلك الإحساس طوال وقوفنا أمام النعوش، ولم يتبدد إلى أن غادرنا ذلك المكان.

حين وصفت لأصدقائي ما وقع لي، أخبروني بأن أولياء الله تلازمهم بركة من أثر ما فنوا فيه حياتهم من الصلاة والتعبد. بل إن تلك البركة تُشِعُّ من قبور أولئك الأولياء. ووجدنا الشاب الذي كان يصلي في تلك الحجرة ينتظرنا في الخارج عند الباب. فتحدثنا برهة، وودّع بعضنا بعضًا على كلماته وهو يؤكد أننا سنلتقي لا محالة يومًا ما.

في طريق عودتنا، زرنا أضرحة (البوغوميل)، وهم طائفة مسيحية قديمة عاشت في المنطقة قبل زهاء خمس مئة سنة، ما بين القرن العاشر والخامس عشر للميلاد، قبل أن تقضي الكنيسة الأرثوذ وكسية عليها. وكانت تلك الأضرحة مزينة بنقش لرسوم لافتة ولأشخاص كأنهم يمدون أيديهم الكبيرة بالسلام، فيما كانت شواهد قبور أخرى تحمل نقش الهلال إلى جانب الصليب، ما يدل دلالة واضحة على التعايش التاريخي الذي ساد

الإسلام والمسيحية، كما أشار إلى ذلك وزير الثقافة البوسني.

ومع دنوّ لحظة الوداع، دعانا وزير الثقافة البوسني لتناول الشاي في حديقة منزله الريفي. وكان ذلك البيت الذي ورثه عن أسلافه قد دُمّر تمامًا بسبب الحرب، فوضعنا الكراسي في الحديقة قبالة مخلفات ذلك الدمار. وكان المساء يطل من بعيد. وبينما كانت الشمس تختفي في استحياء، جلسنا نسترجع كل ما عشناه خلال تلك الرحلة. وكنت لا أزال تحت تأثير تلك البركة التي لمست قلبي في التكية، وكنت سعيدة جدًّا بعد أن مرّ المهرجان ومعرض المخطوطات بسلام. كان الدكتور أحمد وزوجته كاثرين يشعران بالرضا، ومسرورين لنجاح معرضه ذلك النجاح الباهر. أعتقد أن الدكتور أحمد أدرك أنه ما من مكان آخر، غير سراييفو، يمكن لأعماله الفنية أن تؤدي فيه مهمتها أفضل، وتساعد على جسر الهوة بين الثقافات، وتحفيز إيمان الناس.

وحتى نتجنب الوقوع في المشكلات نفسها التي واجهناها خلال عملية نقل أعمال الدكتور مصطفى إلى البوسنة، عملنا على شحن تلك الأعمال النفيسة إلى إنجلترا على متن طائرة تابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني.

ولم يكن من السهل عليّ أن أعود لحياتي اليومية في لندن بعد كل ما عشته في البوسنة، ولا سيما بسبب كثرة الأشغال التي كانت تنتظرني. وتمكنت من أن أحقق حلمًا قديمًا طالما راودني بأن ابتعت بيتًا إنجليزيًّا صغيرًا من طابقين، وكان به مدفأتان وشرفة. غير أن ذلك البيت كان يحتاج إلى عملية إعادة تجديد كاملة.



[(1)] حراس الجسر باللغة المحلية، الذين كانوا يحرسون ستاري موست، ويعني الجسر القديم باللغة المحلية، وهو مَعلَم المدينة الرئيس.

[(1)] http://www.thecubeofcubes.com/index.html

الفصل العاشر

رحلتي الروحية

لا تبقَ يومًا من دون ذكره،

فذكره يعطي لطائر الروح

أجنحته وقدرته على الطيران.

الرومي

عشت خلال حياتي سنوات من عدم الاستقرار. حيث كنت أتنقل بين شقق أستأجرها في لندن، شأني في ذلك شأن شباب العاصمة البريطانية اليافعين. لكنني أدركت بأني في حاجة إلى مكان يكون ملاذي الآمن، ويكون ملكي، وأستطيع أن أشعر فيه بأني في بيتي الخاص بي. بحثت نحو سنة كاملة قبل أن تخبرني داني بأنها رأت إعلانًا للبيع معلقًا على بيت صغير بالقرب من نهر التايمز. فأحسست منذ الوهلة الأولى بأن ذلك البيت يناسبني جدًّا، على الرغم من أنه كان يحتاج إلى عملية إعادة تجديد كاملة. ولحسن الحظ، وجدت مهندسًا جيدًا كي يساعدني على إجراء التعديلات التي كان البيت في حاجة إليها. وفي البداية، قيل لي إن الأعمال في البيت ستستغرق ثلاثة أشهر، ففكرت في أنها مدة معقولة، على الرغم من أني لم أستلطف تعليقات بعض الأصدقاء الذين قالوا لي بكل برود: «مرحبًا بِكِ في جحيم عالم البناء!»، كنت أقول لنفسي أن ذلك لن يحدث لي، وإن كل شيء يبدو على ما يرام. غير أن ظن أصدقائي، ويا للأسف، كان أقرب إلى الواقعية. وقبل أن أتنبه إلى ذلك، أصبح الاثنا عشر أسبوعًا اثني عشر شهرًا. ولما انتقلت إلى العيش في المنزل في يوم عيد ميلادي، كانت غرفة الضيوف المكان الوحيد الذي أُنجزت فيه الأعمال الضرورية كلها إنجازًا كاملاً.

وهكذا، كانت حياتي وكل ما أملك رهن حقائبي التي وضعتها في العلية التي تحولت إلى غرفة ضيوف، في حين واصل العمال أشغال الحفر والدق من طلوع الشمس إلى غروبها. لقد عشت فعلًا في جحيم عالم البناء، لكن لم يكن باليد حيلة. ولم أستطع أن أستمر إلى الأبد بدفع إيجار بيت أسكنه، إضافة إلى أقساط البيت الذي ابتعته، حيث كانت الأشغال تتقدم ببطء شديد. وتعرضت شركة المقاولات الأولى للإفلاس، وكانت مدينة لي بمبلغ كبير من المال، فيما نشبت بيني وبين الشركة الثانية خلافات لا نهاية لها بداية من ألوان الطلاء وصولاً إلى عدد طبقات الطلاء المتفق عليها، إضافة إلى تركيب النوافذ وأجهزة التدفئة ومفاتيح وقوابس الإنارة. وفي أحد أيام شهر رمضان، شعرت بضعفٍ شديدٍ في أثناء جدالي مع العمال، لدرجة أني اضطررت إلى أن أبتعد عنهم، وأذهب إلى فراشي كي أستلقي عشر دقائق لأستعيد بعض طاقتي قبل أن أعود، وأواصل الجدال من جديد. كان اليأس قد بدأ يأخذ مني كل مأخذ، إلى أن تدخل صديق للدكتورة أمينة بأن أوصى لي بالتعامل مع عاملين ليبيين كانا يشتغلان في مجال البناء.

كان أحمد ومصطفى أخوين، وكانا يمتثلان في حياتهما اليومية لتعاليم الشريعة الإسلامية، وتمكّنا فعلاً من أن يحوّلا موقع البناء إلى بيت جميل. كان مصطفى أكبر سنًّا، وكان مثالًا للطيبة والأدب. وقد تبين لي حين حدثت إليه أنه وأخوه ينحدران من عائلة صوفية كبيرة. وحدثني مصطفى عن طفولته في ليبيا، وعن جلسات الذكر والحضرة التي كانت تقام في بيت الأسرة. لقد نشأ ا بين شيوخ صوفيين، وتعلما على أيديهم، فكان مدار حياتهما يدور حول الحياة الروحية. ويملك مصطفى فراسة تمكّنه من أن يقرأ أيدي الناس ووجوههم. وأمدني أيضًا بنصائح عدة لحياتي اليومية، وكان منها ما يوصي به الإسلام في حالة الغضب. لقد أتت وصاياه تلك في الوقت المناسب؛ لأني كنت أعيش في توتر متواصل في موقع بناءٍ يُسمى

بيتًا. وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلَّ من تمكّن منه غضب أن يجلس، وإن كان جالسًا أن يستلقي برهة من الزمن. وإن لم يشعر المرء مع ذلك بالهدوء، فعليه أن يتوضأ أو على الأقل أن يغسل يديه، فذلك يطفئ الغضب. وهناك بعض الأدعية التي ينصح بها، إضافة إلى التنفس بعمق، ومحاولة الابتعاد عن مكان الخلاف، وكلها أمور تساعد في حالات الغضب الشديد.

اتبعت نصيحة مصطفى، ووجدت أنها مجدية؛ لأن محاولة التعامل عن وعي مع المشاعر السلبية بطريقة بنّاءة عوضًا عن الاستسلام لها تساعد المرء على أن يتفادى التمادي في الغضب. وقد أخبرني الأخَوان عن عَمَّةِ أحد أصدقائهما، اسمه أحمد، كان يعرف الدكتورة أمينة هو الآخر، وهو من أوصى بالعاملين الليبيين في بادئ الأمر. وكانت هذه العمة تنوي زيارة لندن في الأسبوع نفسه، وأخبراني بأنها كانت تعمل معالجة في مستشفًى بليبيا، وتعاملت مع حالات شديدة الخطورة، وخففت من آلام أصحابها. وقد كانت قدراتها العلاجية ذائعة الصيت. وبعد أن انتقلت إلى دبلن، كان لها عدد كبير من المرضى الذين ظلوا أوفياء لطريقتها في المعالجة. وسألني أحمد إن كنت أريد أن أجرب الخضوع للعلاج بالقرآن في سبيل التخلص من بعض التوتر الذي كنت أعانيه. فكرت في أن العلاج بالقرآن الكريم ربما هو ما كنت في حاجة إليه، فوافقت على اقتراحه. وذات مساء، صحب أحمد هذه السيدة إلى بيتي، وكانت ترتدي ثوبًا طويلًا وغطاء رأس على غرار النساء العربيات. وتناولنا ثلاثتنا الشاي معًا، قبل أن يتركنا أحمد وحدنا. جلست أنا وضيفتي على أرضية غرفة الضيوف في الطابق العلوي، ووضعت بيني وبينها إناءً فيه ماء. ثم وضعت بعد ذلك يديها برفق فوق رأسي، وأخذت نفسًا عميقًا، وبدأت تدعو، وتتلو آيات من القرآن الكريم بالعربية. استمرت على تلك الحال زهاء نصف ساعة. وعلى الرغم من أنها

لم تمس الماء خلال تلاوتها، فإنها قالت لي بعد ذلك أن الماء وجسمي، تَشَرَّبَا أثر ما كانت تتلوه، وطلبت مني أن أشرب ذلك الماء على مدى الأيام القليلة اللاحقة. وأخبرتني بأن الأدعية عبارة عن موجات من الطاقة يمتصها محيط الأدعية كله، وليس الإنسان فقط. عرفت بعد ذلك أن العلاج بالأدعية والقرآن الكرم يُسمّى (الرقية)، وقد أحسست فعلًا بعد تلقي ذلك العلاج بأن توتري قد خفّ، وشعرت براحة كبيرة وبسعادة حقيقية. وشربت ذلك الماء في الأيام اللاحقة جرعة جرعة.

كان أحمد ومصطفى يبليان البلاء الحسن في تنفيذ الأفكار التي كنت أريد أن أراها في منزلي، بل إن وجودهما في المنزل في حد ذاته أشاع جوًّا لطيفًا في المكان. وكانا يذكران الله في سرهما وهما يعملان، وكانا أيضًا يُشغّلان بعض القطع الموسيقية العربية التي كانت من روعتها تستوقف الجيران الذين كانوا يقصدون المنزل كي يستمعوا لها. كان مصطفى يفهم في الفن الإسلامي والتصميم الداخلي، وكان أيضًا يتذوق الجمال؛ فقد مزج بين الألوان ليحصل على الألوان المطلوبة لطلاء الجدران، ثم زيّن المطبخ بسيراميك فيروزي اشتغل عليه ليعطيه لمعة تضفي عليه لمسة شرقية. وحوّل أيضًا بارافانات خشبية تحمل تصاميم هندسية وأخرى من الأرابيسك إلى ستار للنوافذ. كنت قد عثرت على ذلك السيراميك، وتلك (البارافانات) خلال آخر رحلة قمت بها إلى باكستان مع روبي، وعملت على نقلها إلى المملكة المتحدة.

حين انتهى العمل في بيتي الجديد، كان يبدو في أبهى حلة، وكل من زارني لاحظ الطاقة الإيجابية التي كان ينبض بها. ويعود الفضل في ذلك حقًّا إلى أحمد ومصطفى. وحين انتهت الأشغال في البيت، شعرت بأني حققت إنجازًا كبيرًا، ولا سيما فيما يتعلق بديني. ذلك أني حالما انتقلت

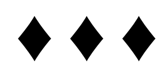
للعيش في بيتي الجديد، عملت على أداء الصلوات الخمس في أوقاتها، وصوم شهر رمضان، ووجدت السكينة والهدوء اللذين تطلبهما الحياة الروحية. إن كل تغيير يمثل بداية جديدة وفرصة للتوقف وإجراء تقييم لما سبق. كنت قد توقفت عن العمل في قناة (إن بي سي)، وكنت أبحث عن فرص عمل أخرى. ولأني طوال مدة تجديد منزلي لم يتسنَّ لي أن أستخدم وثائقي وأشرطتي لأكتب طلب وظيفة، ولم يكن لي حتى مكتب أو طاولة أتخذها مكتبًا، ولم أملك أن أركز وسط كل تلك الفوضى، فقررت أن أحقق حلمًا طالما راودني في الماضي، وهو أن ألتحق بالجامعة.

كنت دائمًا مهتمة بالطب وعلم النفس وعلم التغذية، وكثيرًا ما كنت مهتمة بالعلاقة التي تربط بين المشكلات العاطفية والألم الجسدي. التحقت بجامعة ويستمنستر لسنة واحدة، وكان من ضمن المواد التي تلقيتها دروسًا في طب الأعشاب، والتحقت أيضًا بقسم الدراسات الإسلامية بكلية بيركبيك. لكن قبل بداية الفصل الدراسي كنت على موعد مع مفاجأة سارة. كان وقتها شهر رمضان، وذهبت لأداء التراويح في مسجد تركي برفقة الدكتورة أمينة. وقد قابلنا هناك سيدةً نصحتنا بقراءة سورة الشرح عقب الصلوات المفروضة؛ لأنها تجلب البركة واليسر خلال ليلة القدر، وهي الليلة التي تنزّل فيها القرآن الكريم. وعلى الرغم من أن أحدًا لا يعلم وقت تلك الليلة بالتحديد، لأنها تقع في العشر الأواخر من الشهر المبارك، فإن المسلمين يرجحون أن تكون ليلة السابع والعشرين من رمضان. لذا، فإنهم يكثرون في تحريهم تلك الليلة من الصلاة والقيام، فينقطع بعضهم للتعبد والاعتكاف في المساجد. وسمعت أيضًا بأن فضل أداء العمرة في تلك الأيام المباركة عظيم جدًّا.

وفي السابع والعشرين من رمضان، قرأت سورة الشرح ساعة من الزمن.

وكانت هذه السورة من أوائل السور التي حفظتها بعد اعتناقي الإسلام، فقد ورد فيها الاسم الذي أُطلق عليّ بعد إسلامي وهو يسرا. وقد تكرر قوله تعالى في السورة نفسها:(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) مرتين.

وفي اليوم التالي، فاجأني صديقي المخرج مايكل رادفورد حين اتصل بي ليسألني إن كنت أودّ أن أستعمل جزءًا من رصيد الأميال الجوية التي راكمها لأزوره في كاليفورنيا، حيث يعمل مع زميل له في كتابة نص فيلم سينمائي. لم أصدق أذنيّ، وحمدت الله، وشكرت مايك على تلك الدعوة. كانت تلك فرصة مثالية للهروب من فوضى أشغال تجديد منزلي، وشتاء لندن القاسي ولو مدة أسبوعين فقط. وشعرت بأن الله قد استجاب دعائي، وأراد أن يَهَبَ لي بعض اليسر خلال مدة بدا لي فيها أن أشغال التجديد لن تنتهي أبدًا. وعلى الرغم من أن الأخوين الليبيين كانا ينجزان عملًا غاية في الإتقان، فإن تجربة التجديد تلك كانت بالنسبة إليّ نوعًا من العسر. ولم يمضِ وقت طويل حتى أقلتني الطائرة صوب كاليفورنا وشمسها الدافئة. وقابلت هناك عددًا من أتباع حركة (الهيبيز) السابقين، وكانوا يتمتعون بنظرة متبصرة نحو المستقبل، ويسلكون مسارات روحية مختلفة عن ذلك الذي كنت أسلكه. وعلى الرغم من ذلك، كانت قلوبنا تهفو نحو المكان نفسه، وكنا نسعى إلى الهدف نفسه في الحياة، وهو الصفاء والانسجام الداخلي، بدلًا من صخب عالم الترفيه. وبعد أن أخذت قسطًا من الراحة، واستلهمت كثيرًا مما عشته في تلك الرحلة، عدت إلى لندن وأنا أتطلع لبدء دراستي الجامعية.



مكّنتني دراستي الجامعية من أن أتعرف مختلف الأساليب العلاجية الطبيعية، مثل العلاج المثلي (شكل من أشكال الطب البديل)، والكي كونج

(فن وعلم صيني يعتمد على الطاقة، مثل اليوجا وغيرها)، والطب الصيني التقليدي، وطب الأعشاب، والتغذية، والعلاج بالزهور، والعلاج بالزيوت العطرية. وبالتوازي مع ذلك، كنت أتلقى دروسًا عن حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والتاريخ الإسلامي والشريعة في كلية لندن للدراسات الإسلامية التابعة لجامعة بيركبيك. وبدأت أكتشف شيئًا فشيئًا نقاطًا مشتركة بين العلاج والدين. ذلك أن العلاج المثلي، على سبيل المثال، نوع من العلاج الشمولي الذي لا يركز على الأعراض التي تلم بالجسد فحسب، بل يأخذ نواحي حياة الإنسان كلها في الحسبان، ويعمل على تحليل وتبديد تلك المضار التي تراكمت في جسده مع الزمن في عملية تشبه تقشير البصل، حتى يعود المريض إلى حالته الصحية قبل أن يصاب بتلك المضار.

وتبيّن لي أن الدين كذلك عبارة عن رحلة علاجية، يكون موضوعها الروح. وتظهر العلاقة بين الدين والعلاج جلية في اللغة الإنجليزية، حيث تشتق الكلمات التي تدل على المقدس (holy)، والشمولي (wholesome)، والشفاء (healing) من الجذر نفسه. لكن هذا الاشتقاق اللغوي يبلغ مداه بين الكلمات الثلاث في اللغة الألمانية، وهيheilig، وheil وheilen ويؤمن المسلمون أن الإنسان يولد على الفطرة، وأنه هو من يعمل على تدنيس تلك الفطرة من خلال عاداته السيئة، وسلوكه المجانب للصواب. غير أنه يستطيع، من خلال الصلاة وتلاوة القرآن الكريم وذكر الله، أن يطهر ذلك الدنس الذي لحق روحه، ويعود إلى فطرته الأولى. وأكثر من ذلك، فإن الذكر يحيي القلب. وقد شبه الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم من يذكر ربه ومن لا يذكره بمن هو حي ومن هو ميت. وقد تعلمت من خلال دراستي تلك أن علينا بحصفتنا بشرًا أن نحاول الارتقاء بطاقتنا إلى العلا، إلى النور، إلى الله، عوضًا عن أن نحصر أنفسنا في الطاقة

الدنيا. وعلينا أيضًا أن نحول رغباتنا واندفاعنا إلى إحساس بالرحمة تجاه الآخرين، ونتعلم أن نتصرف وفقًا لما تمليه علينا قلوبنا وفطرتنا النقية. ثم إن البحث عن الهدف من الحياة، الذي لأجله خُلقنا، جزءٌ مهمٌ جدًّا من سعينا في هذه الدنيا. وقد سمّى إدوارد باخ، الذي توصل إلى العلاج الذي صار يحمل اسم (زهور باخ)، ذلك السعي برحلة الروح. إنها عملية تتطلب مراقبة الذات والتفكر فيها، وقبل أي شيء آخر، تتطلب درجة عالية من الصدق مع النفس. ذلك أن القبول بالعيش في كذبة كبيرة، وادّعاء أن كل شيء على ما يرام، في حين نحن منفصلون عن أنفسنا، أمر مجهدٌ جدًّا بالنسبة إلينا، ويؤثر سلبًا في صحتنا على المدى البعيد. وفي حقيقة الأمر، فإننا ندفع ثمنًا باهظًا من جراء تفريطنا في ذلك الصدق مع أنفسنا، وعدم الاعتناء بها. ثم إن التعرف إلى مهمتنا في الحياة، والتواصل مع أنفسنا من جديد، هو في الواقع مفتاح النجاح؛ لأن الهدف الذي تسعى إليه روحنا، هو في الحقيقة الهدف الوحيد لنا في هذه الحياة.

كنت أريد أن أتعرف إلى الهدف الذي تسعى إليه روحي، وعلى سبب وجودي على هذه الأرض. فما عساها تكون رسالة مذيعة سابقة في إم تي ڤي اعتنقت إلى الإسلام؟ وعلى الرغم من أني كنت مثاليةً في تفكيري، فإني لم أصادف مهمة قد ترضي مثاليتي تلك. ودعوت الله كي يرشدني، وسألته: «متى سأتمكن من أن أعمل في سبيلك؟»، ولم أتلقَّ الجواب. ورضيت حينها إذًا بأن «الرحلة هي نفسها المقصد»، وعشتها بتفاصيلها. وبالموازاة مع ذلك، كانت حياتي تتغير شيئًا فشيئًا، وأحسست بأن الحي الذي انتقلت إليه كان يعكس ذلك التغير الداخلي الذي كنت أعيشه. ذلك أني كنت في السابق أعيش بالقرب من جسر ألبرت الذي تحوطه قصص الجنيات، والذي كان مطليًّا بألوان الباستيل. وكان ذلك الجسر يبدو براقًا ولامعًا حين يُضاء ليلًا. أما منزلي الجديد، فقد كان على العكس من ذلك، يقع بمحاذاة

جسر باترسي الذي يوحي بالواقعية. وكانت تزين هذا الجسر أقواس تذكّرني بفن العمارة الإسلامية. وحين كنت أحتاج إلى أن ألتقي الناس، أصبحت ألتقي الدكتور أحمد مصطفى وزوجته كاثرين وجاي إيتن والدكتورة أمينة وروبي، فهم كانوا إخوتي في الإيمان، وأساتذني الذين أصبحوا يشكلون أسرتي الصغيرة.

غير أني كنت سعيدة جدًّا لأن أكتشف أن عددًا من معار في القدامى، ومن عالم صناعة الموسيقا على وجه الخصوص، كان لهم أيضًا اهتمام بالجانب الروحي من الوجود. فمثلًا، تيكسيرا كانت امرأة متألقة ورشيقة، وتشع حيوية، وهي التي كانت تنحدر من أنجولا، وتلفت الأنظار بفساتينها الباهظة الثمن، وكانت في الوقت نفسه أمًّا مثالية تعتني بكل التفاصيل الخاصة بأولادها على مدار الساعة. وكان زوجها توني هامبرو مصرفيًّا، ورسامًا موهوبًا جدًّا، وذا إنتاج فني غزير، إضافة إلى أنه كان يضرب الطبلة مع إحدى المجموعات الموسيقية. وكانت تيكسيرا وزوجها ينظمان حفلات عشاءٍ رائعة في شقتهما التي تطل على نهر التايمز في حي بيمليكو بلندن. غير أنها قلصت شيئًا ما من تلك المناسبات الاجتماعية حتى يتسنى لها التفرغ لأسرتها ورحلتها الروحية. أما جاكلين، وهي نمساوية كانت تعمل في السابق عارضة أزياء، فقد أصبحت مستشارة مالية، وأصبحت تمتثل لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية وطقوسها، وأصبحت تخصص وقتًا للتفكر بانتظام، إضافة إلى أنها تعطي دروسًا في اليوجا في وقت فراغها. وكانت في الماضي إنسانة اجتماعية جدًّا، لكنها أصبحت مكتفية بنفسها، ولا شيء أقرب إلى قلبها من قراءة الكتب المقدسة.

كنت أقابل أناسًا من هذه النوعية في الحفلات الخيرية والمحاضرات والمعارض الفنية أو حتى عندي في البيت. وكانت لي صديقة، وهي محامية

بارعة من أيرلندا تدعى كورا، أقامت في منزلي بعض الوقت. وكانت كاثوليكية أيضًا، وكنا كثيرًا ما نتحدث عن قيم ديانتينا وشعائرهما. وكانت الخلاصة التي عادةً ما نصل إليها في نقاشاتنا، هي أن الإيمان لا يفرّق الناس بل يوحّدهم. وكان القاسم المشترك بين الديانات كلها هي بعدها الروحي الذي يحتل فيه الإيمان بالله، الخالق، والآخرة - وبالنسبة إلى بعضهم عودة الروح لتتقمص جسدًا آخر - مكانًا مهمًّا، إضافة إلى أنه مصدر يستشف منه كل واحد قيمه الأخلاقية. أما بالنسبة إليّ، فكانت إيرلندا أقرب الدول الأوروبية إلى أسلوب الحياة الإسلامية؛ باستثناء ما يتعلق بشرب الخمر بطبيعة الحال. ولاحظت أن الدين ما زال يؤدي دورًا محوريًّا في حياة الناس هناك، أكثر حتى من المملكة المتحدة أو ألمانيا مثلًا. وقد أعجبني الترابط الأسري الذي عاينته في مجتمعها. وتعرفت إلى جزيرة إمرالد، ووقعت في حبها خلال زياراتي المتكررة، أيام المدرسة، لصديقتي نورا التي كانت تعيش مع زوجها الصياد وأطفالهما الثلاثة، في بيت كانت لكل نوافذه إطلالة خلابة على المحيط الأطلسي، ومنطقة حلقة كيري الفتانة. وقد وجدت نورا في إيرلندا السلام، واستعادت صحتها، ووجدت طريقها إلى الإيمان. وقد دأبت على الذهاب إلى الكنيسة مع أسرتها كل يوم أحد. وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلت منفتحة على طرق روحية أخرى غير الكاثوليكية. وعلى غرار أمها، أرادت ابنة نورا، شونا، التي كانت تبلغ حينها ثماني سنوات، أن تراني أصلي. وكان لديها فضول وتقدير كبيران لأي شيء له صلة بالله، وأخبرتني أيضًا بأنها تصلي كذلك. خرجت معها ذات مرة في نزهة، وإذا بسحاب كثيف يغطي السماء فوق رؤوسنا، فقالت لي: «حين أرى الضباب والرذاذ أو الرعد والبرق، فإن ذلك يجعلني أتأمل في أن الله وراء ذلك». وكنت سعيدة بأن ألمس إحساسها الفطري بالله على الرغم من صغر سنها؛ وأظن أن العيش في الريف ييسر للمرء أن يحس

ذلك الإحساس. وأن القرب من الطبيعة يربط الناس بالمخلوقات، وبالخالق كذلك.

كنت خلال نزهاتي بمفردي بين تلال ذلك الساحل المحفوف بالصخور القاسية. أحفظ آيات من القرآن الكريم عن ظهر قلب، ثم أجد مكانًا أستريح فيه، وأستمتع فيه بالمناظر الطبيعية، وأقرأ بعضًا مما كتب الشيخ عبد القادر الجيلاني. وكان أحد كتبه قد ساعد نورا على أن تتخذ قرارها بالانتقال من هامبورج للعيش في إيرلندا. لقد كانت مساهمة الجيلاني في الإسلام كبيرة لدرجة أنه استحق لقب قطب الأقطاب. ولد الجيلاني في مقاطعة جيلان الفارسية في القرن الحادي عشر، واشتهر بأمانته منذ صغره. ويُحكَى أن لصوصًا أوقفير يومًا، وسألوه إن كان يملك مالًا، فردّ بالإيجاب، وأراهم القطع الذهبية التي حيكت في حاشية بردته. فخجل حينها اللصوص منه، وتركوه وأسرته وشأنهم. ثم انتقل فيما بعد إلى بغداد حيث درس الشريعة قبل أن يقضي سنين عدة سائحًا في فيافي العراق. وحين عاد من تجواله بدأ يلقي دروسه أمام الناس، من المسلمين واليهود والمسيحيين الذين كانوا يتحلقون حوله لينهلوا من علمه. وكان أيضًا وليًّا لله، ويملك كرامة التحدث إلى أرواح الناس ومعالجتها. وقد ساعدني كتابه (الفتح الرباني) على أن أصحح نظرتي للأمور، وأركز اهتمامي على أهمها. وكان الجيلاني يحضّ على تصفية النية، وتطهير القلب، والإخلاص في العمل، وكان يردد حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ».

وبعد أن قرأت هذه الكلمات، رحت أفكر في حياتي السابقة، وما صرت عليه في الحاضر، والهدف الذي كان عليّ أن أسعى إليه، إضافة إلى نوعية الناس الذين كنت أودّ مخالطتهم. وكنت أدرك أن الطريق ما زال طويلًا

أمامي، غير أن قراءة ما كتبه الجيلاني أرشدني ونَوَّر بصيرتي. ومن جملة ما قاله: «إن المؤمن يطمئن إلى يقينه بأن الله لن يبتليه ببلاء إلا وفيه خير له، إما في الدنيا أو في الآخرة». وللتأكيد على ذلك، يسوق حديث الرسول صلى الله عليه وسلم:

«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له.» (صحيح مسلم)

وجدت أنه، من هذا المنظور، لا يمكن للإنسان أن يذوق التعاسة أبدًا خلال رحلته في هذه الحياة. وقد ساعدني الجيلاني على أن أنظر إلى الدنيا من منظور مختلف، وأصبحت أشعر بسعادة كبيرة ورضًا أكبر بعد أن قرأت مقتطفات من كتبه. كلما كنت أمر بظروف عصيبة، أو أحتاج إلى مساعدةٍ ما، كنت أفتح كتاب الفتح الرباني، وأقرأ أيّ فقرة أو عبارة ترسو عندها عيناي، فأجد أن ما أقرأ يوافق ويجيب عن مسألتي على نحو كان يدهشني إلى حد كبير. إن الله تعالى يرسل لنا رسائله بطرق مختلفة، وكانت بعض رسائله ني مُتَضَمَّنةً في كتب الجيلاني.



وعلى الرغم من الفائدة الكبيرة لعلم كبار الشيوخ الذي كنت أجده في الكتب، فإني أدركت أني في حاجة إلى ما هو أكثر من الكتب ودروس الحكمة والأصدقاء حتى أتقدم في مشواري الروحي. وكنت أشعر شيئًا فشيئًا بأني في حاجة إلى معلم، يكون مرشدي الروحي، ويأخذ بيدي في الطريق إلى الله. وكان جاي إيتن قد ذكر لي قولًا مأثورًا مفاده أن: «من لا شيخ له فالشيطان شيخه». وبحسب تعبير عربي شائع آخر: «من كان شيخه كتابه كثر خطأه وقلّ صوابه». هكذا بدأت رحلة البحث عن معلم،

كما جاء في الإنجيل: «ابحث وسوف تجد، واقرع الباب وسوف يُفتَحُ لك». لكن الأمر لم يكن سهلًا، وكان مشواري في الحقيقة خطوات تُصيب مرة، وتخيب مرات. ووجدت نفسي مرة بين ظهراني جماعة صوفية حول شيخ يمني. كانت النساء يجلسن في غرفة الأطفال في الطابق العلوي، ومنها يتابعن مذاكرة الشيخ عبر شاشة تلفازية مخصصة لذلك الغرض. وحين تنتهي المذاكرة، كنا نفرش ثوبًا على الأرض، ونتحلق حوله لنأكل معًا. وأحسست بدفء تلك النسوة وطيبتهن، لكني كنت أعلم أن تلك المجموعة ليست ما كنت أبحث عنه. وبعدما غادرت مكان تلك المجموعة، أردت أن أستفسر عن الطريق كي أعود إلى بيتي، فسألت سائق شاحنة أن يساعدني، ويدلني على الطريق، فقال لي: «إن الطريق طويل جدًّا إلى حيث تريدين الذهاب». وكان ذلك إحساسي على وجه التحديد. ولم يكن كثير من المنتسبين إلى مجموعة صوفية أخرى كان مقرها قريبًا من منزلي، مسلمين. وكانوا يشربون الخمر، ولا يمتثلون لتعاليم الإسلام في حياتهم. وربما كان ذلك الأسلوب يناسبهم، غير أني كنت أبحث عن الطريق القويم. وكنت أتردد على جاي إيتن في منزله في بيورلي طلبًا للنصيحة. فاقترح عليّ أن يعرّفني إلى شيخه الذي اعتنق الإسلام على يديه في القاهرة قبل سنوات طويلة وهو الدكتور مارتن لينجز، وَيُعْرَفُ كَذَلِكَ باسم: «لشيخ أبي بكر سراج الدين». ولم يخيل إليّ أن يكون مؤلف تلك الكتب كلها التي استمتعت بقراءتها شيخًا صوفيًّا، وكنت أتشوق إلى معرفة المزيد عن الرجل. وأخبرني جاي بأن لينجز ولد في إنجلترا سنة 1909م، ونشأ في بيئة مسيحية بروتستنتية، ودرس الأدب الإنجليزي في جامعة أكسفورد. وفي تلك المدة أصبح مهتمًّا بالتعرّف على مختلف الأديان في العالم، وجذبته كتابات رينيه غينون وفريثجوف شوان. وقد أصبح فيما بعد تلميذًا لشوان، وانضم سنة 1938 إلى مجموعته الصوفية في مدينة بازل

السويسرية، حيث دخل الطريقة الشاذلية، وهي طريقة منتشرة لا سيما في شمال إفريقيا.

في أربعينيات القرن الماضي، عَمِلَ لينجز أستاذاً للغة الإنجليزية في جامعة القاهرة، ودَرَسَ بالموازاة مع ذلك اللغة العربية والتصوف. وكان أمين سر شخصيًّا لرينيه غينون، الذي كان يُعْرَفُ كذلك باسم: «لشيخ عبد الواحد». وقد قابل جاي لينجز في مصر، وحكى قال لي جاي قائلاً: «حين تعاظمت الثورات في مصر ضد الوجود البريطاني، اضطر لينجز إلى العودة هو وزوجته إلى إنجلترا، حيث استكمل دراسته للغة العربية، وأنجز رسالة دكتوراه كان موضوعها أحمد العلاوي، العالم والشيخ الصو في الجزائري الذي كان شيخَ شوان». وقد نشرت رسالته تلك بالإنجليزية تحت عنوان: (شيخ صوفي من القرن العشرين) [(1)]، وتُعد من أهم ما كُتِب عن التصوف في عصرنا الحالي. وقد عمل لينجز لاحقًا في المتحف البريطاني مسؤولًا عن قسم المخطوطات الشرقية. وحينما علمت أن مارتن لينجز كان عالمًا كبيرًا وشيخًا صوفيًّا كذلك، تحمست لاقتراح جاي بمقابلته، فربما يكون شيخي ومرشدي كذلك. وقد هيّأ جاي كل شيء، ومررت صبيحة أحد الأيام منزله لنذهب للقائنا المرتقب أواخر شهر إبريل من سنة 1999م. وكانت الطريق إلى مقاطعة كِنْت غاية في الروعة؛ لأنها كانت محفوفة بالتلال والأودية التي تمتد في الأفق على مد البصر. لقد كانت تلك المنطقة تستحق فعلًا لقب (حديقة إنجلترا). ولدى وصولنا، فتح لنا الباب رجل وقور متقدم في السن، كان يلبسن جلبابًا مغربيًّا من الصوف. وكان قصير القامة وبنيته ضئيلة، وذا عينين زرقاوين، فيما غطى اللون الرمادي لحيته وشعره. رحّب بنا الشيخ، ودعانا إلى الدخول. سرنا وراءه في ممر ضيق من بيته الريفي إلى أن وصلنا إلى حديقة غنّاء تحفها زهور زرقاء وحمراء

وصفراء وبيضاء، وتحيط بها الحقول من كل جانب. وأخبرني بأنه يعشق البستنة، وقال لي بلكنته الإنجليزية الراقية إنه مهتم برمزية اللون. وكان يبحث عن زهور نادرة في العالم بأسره، وحرص على أن يجد ما كان يبحث عنه تمامًا، مثل لون معين من الأزرق، الذي كان يرمز إلى الكمال الإلهي.

وأوضح لي قائلًا: «إن البستنة فن إلهي وبلسم للروح». عرفت ساعتها يقينًا أني وجدت شيخي. إذ لم يكن رجلًا حكيمًا وذا حضور روحي فحسب، بل كانت تحيط به كذلك هالة من الوقار والبركة، كانت ثمرة نحو سبعة عقود كرّس خلالها نفسه لذكر الله. لقد كان الدكتور مارتن لينجز مسلمًا سنيًّا يمتثل لأحكام الشريعة، وينظر إلى الأمور كلها من منظور روحي. وكان يولي قيمه الدينية أهمية قصوى، على الرغم من أنه كان واقعيًّا فيما يخص العيش في العالم المعاصر. ولم يكن لديه جهاز تلفاز أو حاسوب في منزله أو أي شيء آخر من شأنه أن يشغله، أو يلهيه عن الهدف الحقيقي من الدنيا. لكنه كان عمليًّا فيما يخص حاجة الناس إلى أن يكونوا فاعلين في إنجاز عملهم. وإن كان ذلك يستدعي العمل على الحاسوب، فلم يكن يمنع أيًّا من مريديه من أن يستعمله. وقد أوضح ني أن الأمر المهم في العمل هو أن ينجز بإتقان، مع مراعاة أعلى المعايير الأخلاقية والعملية، وأن يكون ذلك العمل في سبيل الله ومخلوقاته تعالى. وبهذا يكون أي عمل يقوم به المرء نوعًا من الصلاة.

كانت أكبر حجرات المنزل تلك المخصصة للصلاة، وهي الزاوية. وكان يغمرها ضوء صافٍ، ويخيم عليها الوقار. وكانت تلك الحجرة مفروشة على الطراز المغربي التقليدي، وكانت جدرانها تحمل بضع لوحات لاسم الجلالة، وبعض الأدعية خُطَّتْ بخط عربيٍ أنيق، فيما كانت أرضيتها مفروشة بسجاد ناعم وبعض جلود الخراف، إضافة إلى زرابي [(1)] مغربية بألوان

دافئة. وفي نهاية الغرفة وُضِعَ مصحفٌ مفتوح على حامل خشبي. عرفني الدكتور مارتن إلى زوجته، السيدة رابعة، التي انصرفت تتحدث إلى جاي إيتن، في حين جلست أنا مع الشيخ. أثنيت على جمال حديقة بيته والزاوية، فشرح لي أن المفترض في جو المنزل أن يعين الإنسان على سلوكه الطريق إلى الله، لأن ذلك يؤثر في الروح تأثيرًا عظيمًا. وأشار إلى أن تنسيق البيت يجب أن يكون جميلًا لكن بسيطًا، وقورًا لكن ألوانه هادئة، وليست براقةً. اقترح عليّ الشيخ أن أخصص غرفة في بيتي للصلاة، أو على الأقل أن أخصص ركنًا بغرفة معينة للصلاة والتفكر. وأضاف مستشهدًا بالرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم: «لأنه من بنى مسجدًا لله بنى الله له بيتًا في الجنة» [(2)]. وسألني الشيخ أبوبكر عن حياتي، وكيف دخلت في الإسلام، فأخبرته بقصتي باختصار، وقلت له إني قرأت كتابه (ما هوالتصوف؟)، والسيرة التي كتبها عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وأني على الرغم من استمتاعي بقراءة كتب أكبر شيوخ الإسلام وعلمائه، فإني كنت أبحث عن مرشد يأخذ بيدي، ويرشدني بطريقة عملية. وشرح لي الشيخ أن كلمة (طريقة) مشتقة من كلمة الطريق، أي الطريق إلى الله، واتُّخِذَت لتدل على كل منهاج صوفي يتوخى اتباع قواعد وآداب معينة للوصول إلى الله. وكل طريقة صحيحة ترتبط بواسطة سلسلة من الشيوخ بالرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم. ويتطلب اتباع هذا الطريق الصوفي مجهودًا عظيمًا وأعلى درجات الانضباط، وجهدًا قلبيًّا كبيرًا. ويتطلب أيضًا مغالبة النفس، وتحري السلوك الحسن، واستعمال لغة مهذبةفي الكلام، وتأدية واجبات السلوك من أذكار وأدعية.

أخبرته بأني على استعداد لأن أبذل قصارى جهدي، على الرغم من أني كنت بعيدة جدًّا عن الكمال. فاقترح عليّ حينها أن أعطي لنفسي بعض

الوقت حتى أرى إن كان هذا الطريق يناسبني أم لا، وشرح لي أنه إضافة إلى الفرائض المكتوبة على المسلمين كافة، فإن من يريد أن يقطع أميالًا إضافية على طريق الله، عليه أن يؤدي عبادات طوعية أخرى، منها ذكر أسماء الله الحسنى وأوراد أخرى.

وسألته: «ما الهدف من هذه العبادات كلها؟». وكان جوابه: «إن هدف الصوفية هو الوصول إلى الولاية، أي أن يصبحوا أولياء لله. وفي نهاية المطاف، فإن طريق التصوف هو الاستعداد للموت ولقاء الله».

ولخص لي بعد ذلك جوهر الطريقة بأنها ذكر لله دون انقطاع، وأنه يجب أن يستمر في قلوبنا سرًّا حتى ونحن منهمكون في أعمال حياتنا اليومية. وقال إن تلك هي صلتنا بالله، وإن ذلك الذكر يمكّننا من أن نتذوق بعضًا من نعيم الجنة هنا والآن، أي في الدنيا قبل الآخرة. وكل ما كان عليّ أن أبدأ به هو ترديد لا إله إلا الله بصوت مرتفع، وخفيض، أو في سري، نحو عشر دقائق، ثلاث مرات في اليوم. وقال إني إن فعلت فستكون تلك بداية جيدة. وقبل أن أنصرف، نصحني بقراءة بعض الكتب، وكان منها كتابه الذي يدور حول سيرة الشيخ العلاوي، ودعاني إلى حضور مجلس الذكر الذي يترأسه، والذي يجتمع له المريديين وشيخهم كل أسبوعين. وكنت سعيدة جدًّا لأني وجدت شيخي النبي أثق به، وأتطلع إلى حضور مجالسه، حيث سأقابل مسلمين يتقاسمون معي نمط التفكير نفسه.

كان يراعى في زي المجلس أن يكون إسلاميًّا تقليديًّا؛ فكانت النساء يرتدين زي (الساري الهندي) فوق بلوزة بأكمام طويلة، أو جلبابًا على الطراز المغربي وغطاءً فضفاضًا للرأس، في حين كان الرجال يرتدون الجلباب المغربي الذي يشبه لونه في الغالب لون الصوف الأصلي، وعمامة على

الرأس. وكان أول ما فعلته هو شراء جلباب نسائي من مصممة الأزياء البريطانية أليجرا هيكس، حيث كنت قد قابلتها من قبل لأستشيرها في موضوع تصميم منزلي. وكانت قد أضافت (القفطان) [(1)]، إلى مجموعة تصاميمها، وكان ذلك يناسبني جدًّا. حين ارتديت (القفطان) في بيتي، وصليت به أول مرة، شعرت براحة أكبر من الصلاة وأنا أرتدي بنطال الجينز. إن هيئة (القفطان) الواسعة تناسب وضعيات الجسم كافة في أثناء الصلاة، وتستره كليًّا. لم يكن المجلس يُعقد في كِنت، بل في بيت واسع جنوبي لندن. وكان يحضره عدد كبير من الرجال والنساء، وكان من بينهم زوجان من سريلانكا وبعض الباكستانيين والعرب، وعدد من الإيرانيين، وسيدة أمريكية كانت متزوجة من لبناني وسيدة من البرازيل، إضافة إلى السيدة رابعة زوجة الشيخ أبي بكر. وكانت السيدات في الطريقة يُنادين بلقب (سيدة)، أما الرجال فيُنادون بلقب (سِيدِي)، وهي ألقاب منتشرة في شمال إفريقيا. وكان مكان المجلس، (الزاوية)، أكبر من الغرفة المخصصة للصلاة في بيت الشيخ، لكن تصميمها الداخلي كان نفس تصميم غرفة الصلاة في بيت الشيخ والمستوحى من شمال إفريقيا لتلك الغرفة، إضافة إلى لوحات الخط العربي التي تزين الجدران، وحصير الخوص الذي كان يغطي الثلث الأدنى من الجدران.

صلينا جماعة، حيث وقف الرجال في الصفوف الأمامية، في حين اصطفت النساء خلفهم. وهو نظام الصلاة نفسه التي شهدته في كل المساجد التي ذهبت إليها. وقيل لي إن السبب في ذلك هو الحرص على أن يحفظ الرجال أنظارهم في أثناء الصلاة من النظر إلى النساء، وهن في أوضاع الركوع والسجود. وجلس الرجال عقب الصلاة، في حلقة في مقدمة الغرفة، في حين اصطفت النساء في الخلف. وتلونا بعدها ورد الطريقة،

الذي يُستهل بالاستغفار. وأمسك كلّ بسبحته، وردّدنا «أستغفر الله» 99 مرة. وبعد ذلك ردّدنا عددًا من الأدعية الأخرى 99 مرة على نفس المنوال. ثم بدأ الشيخ حديثه إلى (الفقراء)، وهي تسمية تطلق على الصوفيين؛ لأنهم يعدّون أنفسهم فقراء إلى الله، وأكد فيه على أهمية التركيز على الحق، على الله تعالى، بدلًا من الباطل أو الوهم، وهي الدنيا الزائلة. وأنشد جميعهم بعد ذلك عددًا من الأناشيد في حمد الله والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، وأعقبتها بعد ذلك (الحضرة)، وهو ذكر جماعي يؤديه المنتسبون إلى الطريقة فقط. وما إن بدأت (الحضرة) حتى جلست على الأرض، وتابعت ما كان يقوم به (الفقراء) الآخرون. ثم وقفوا جميعًا للمشاركة في الحضرة، وبدؤوا يتحركون في حركات متزامنة على إيقاع دف واحد، وهم يذكرون اسم الله. كان ذلك الذكر ابتهالًا صادقًا أدّاه الذاكرون بكل خشوع وهمة. ولم أدرِ إن كان سيسمح لي بأن أشارك في الحضرة، ومتى سيكون ذلك، لكنني كنت سعيدة بوجودي هناك، وحريصة على أن أعاود حضور المجلس. وكنت أريد أن أكون طالبة مجتهدة، وخلال الأسابيع الأولى، كنت أذكر الله مرات عدة في اليوم. ولم أشعر بشيء في البداية، لكن التوقف بانتظام عن أي عمل آخر أقوم به خلال اليوم لأذكر الله أفادني كثيرًا، وأدخل على نفسي بعض الطمأنينة.

أخبرت الشيخ أبا بكر بحماسي، فأثنى عليّ، وحذّرني من مغبة التوقف عن ذكر الله بانتظام حتى ولو لم أشعر بالرغبة في الجلوس للذكر. وقال لي إنه من الطبيعي أن تشعر النفس ببعض النفور، وأن عليّ أن أقاومها، وأستمر بالذكر. وأضاف أنه من الأفضل أن أشغل كل وقت فراغ بالذكر؛ لأن قلب الصوفي الحق عامر بالله، ولسانه يظل دائمًا رطبًا بذكر الله. وكان الشيخ على حق في كلامه، وقد بدأ حماسي الأول بالفتور، حيث كنت في بعض الأحيان أشعر بالتعب، وأحيانًا أخرى بالكسل. وكان يتملكّني أيضًا

الغضب مرات من أن لاشيء يحدث، فلا أرى أي علامات من الله أو تَنَوُّرًا، لا شيء. لكن الشيخ شرح لي أن ذلك ليس هو ما يهم. إن المهم هو تلك الصلة الداخلية بالله التي تقوم بإحداث التغيير في داخلنا تدريجيًّا. وكانت العقبة الأخرى التي واجهتها هي التركيز في الذكر. وحين ذكرت مشكلتي لإحدى (الفقيرات)، نصحتني بأن أرفع صوتي بالذكر قليلًا كلما راودتني الأفكار خلال ذكري الله. فاتبعت نصيحتها في بيتي، وقد ساعدتني بعض الشيء.

ومع ذلك، كنت أحب حضور مجالس الذكر تلك. ومهما كنت أعاني من توترٍ وقلقٍ قبل مجلس ما، وكنت أعود بعده إلى البيت وأنا سعيدة ومرتاحة وفي حالة عجيبة من الانشراح. وأصبحت هذه المجالس هي طوق نجاتي كلما كنت أصادف متاعب وصعوبات في مناحي أخرى من حياتي. وكنت وقتها في مرحلة انتقالية من حياتي المهنية، وكانت مصدر قلق بالنسبة إليّ وإلى والديَّ، وكنت أيضًا لا أزال عزبة، وأريد فعلًا أن ألتقي شريك حياتي.

ولكني أحمد الله على أني تعرفت إلى قلوب طيبة في ثلة مريدي الشيخ أبي بكر، كانوا أتقياء ويتصفون بأخلاق نبيلة، وفي الوقت نفسه ذوي تعليم أكاديمي عالٍ، وكثير منهم يحملون شهادات الدكتوراه، وتخرجوا في جامعات مرموقة، مثل أكسفورد وكامبريدج. كانت مقاربتهم للدين روحية وعقلية وليست صارمة وجازمة. ولم يكن الأمر بالنسبة إليهم نظرياً، بل إن الدين كان يدخل في كل تفاصيل حياتهم. بل إن كثيرًا منهم غيّر مساره المهني ليدمج تربيته الدينية في مهنته، فصاروا يكتبين الكتب عن المسائل الروحية، أو ينجزون أفلامًا وثائقية عن أعلام الفكر في التاريخ الإسلامي، مثل الإمام الغزالي أو عن الحج أو رمضان، وغيرها من موضوعات إسلامية

أخرى. وإن بعضهم نجح في أن يترجم المفاهيم الميتافيزيقية في شكل أعمال هندسية، وتصاميم ديكور داخلي أو ديكور الحدائق. فكرت في أن ذلك كان تمامًا ما كنت أودّ أن أقوم به، وأن أدمج بين مهنتي ومعتقداتي، لكن السؤال الذي ظل يؤرقني هو كيف السبيل إلى ذلك. ثم إني كنت منبهرة بسلوك الفقراء، فقد كانوا كلهم على قدر كبير من الأدب، ويبادرون إلى تقديم المساعدة كلما أمكنهم ذلك. ولم أسمع أيًّا منهم يسب أو يلعن. وكان جاي إيتن كثيرًا ما يردد معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإسلام سلوك ومعاملات».

سيدي حسن، وهو اسم جاي الإسلامي، نفسه كان مثالًا رائعًا في الأدب. حين كنت أزوره في بيته في بيورلي، كان يعدّ لي بنفسه الشاي، ويخبز لي كعكة إسفنجية. وكنت ألاحظ كيف أنه كان دائمًا ما يسكب لي الحليب من قنينة جديدة فتحها خصيصًا لي، في حين يسكب لنفسه من قنينة مفتوحة. وكان يحرص أيضًا على أن يعطي لكلبته قطع البسكويت الخاصة بها؛ كي لا تشعر بأنها مقصيّة خلال حديثنا.

ولم يمر وقت طويل حتى بدأت ألتقي بعض الفقراء من مريدي الشيخ أبي بكر، وقد عرفت بعدذلك أن أمير ويلز كان أيضًا من المعجبين بالشيخ أبي بكر، وكان يلتقيه سنويًّا، ويعقد معه لقاءات خاصة. وكانت السيدة سامية المتألقة تحمل شهادة محاماة، وتملك محل مجوهرات. وقد جاءت في الأصل من سريلانكا، وكانت تعيش مع أسرتها في منزل كبير يقع في حي هولاند بارك القريب من منزلي. وكان ديكور بيتها الداخلي دافئًا ومصممًا بذوق رفيع، وكان يجمع بين الأسلوبين الشرقي والغربي، فيما كانت تتوسط حديقة البيت نافورة مزينة بالزليج [(1)] المغربي. وكانت سامية متزوجة من أشهر الجراحين في المملكة المتحدة، وكانا معًا يجمعان بين القيم

التقليدية والحياة الروحية، مع أنهما كانا يعيشان حياة معاصرة. وأكثر ما كنت أفضل في رفقتهما هو أنهما كانا دائمًا يدعوانني، أنا ومن كان حديث العهد بالإسلام، ولا يملكون أُسَرًا يحتفلون معها بمناسبة عيد الفطر، لنحتفل به كلنا في منزلهما. فأصبحت أخيرًا أشعر بدفء الانتماء إلى كيان يرحب بي في هذه المناسبة الخاصة جدًّا لدى المسلمين. بل كانت سامية تعد أحيانًا وجبة إفطار في رمضان تدعو لها بعض الفقراء. وفي العشر الأواخر من الشهر الكريم، كانا يعقدان مجلسًا صغيرًا للذكر في ليلة القدر. وفي تلك المناسبة أيضًا، كان الشيخ أبوبكر ينتقل من مقاطعة كِنت إلى لندن خصيصًا ليؤم ذلك المجلس.

وكنا نجلس كلنا على أرضية غرفة المعيشة حول حواشي ثوب مبسوط وضعت عليه وجبة الإفطار، في انتظار أذان المغرب. وما إن نسمع الأذان حتى نفطر على بضع تمرات، وقليل من الحليب، وحساء، ووجبة خفيفة قبل أن نقوم لصلاة المغرب جماعةً، ونجلس للذكر. كم كانت صلاة الجماعة تشعرني بالانتماء إلى إخواني من المؤمنين والمؤمنات، وبالصلة الروحية التي تربطني بهم. ولا عجب في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال إن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة. فأحببت تلك اللقاءات في الله، وقد حذوت حذو إخوتي من الفقراء والفقيرات في الطريقة كي أشتغل أكثر على نفسي. وواظبت على ذكر الله بانتظام، وأحيانًا كنت أذكر الله وأنا واقفة في طابورٍ أنتظر دوري، أو أتنزه. وأحسست بأن أوقات الفراغ كانت أفضل فرصة لذكر الله تعالى والاتصال به جلّ وعلا. ولاحظت أني، كلما كان مزاجي مُعكّرًا، كان للذكر القدرة على أن يعيد إليّ الهدوء والسكينة. فاشتريت مجموعة أقراص مدمجة للقرآن الكريم وترجمة لها بالإنجليزية، وصرت أنصت إليها في سيارتي؛ وهكذا، صار كل وقت أقضيه وأنا أقود السيارة مليئًا بكلمات الله.

ولم يعد الانتظار الطويل في أثناء الازدحام يسبّب لي التوتر؛ لأني كنت حينها أنصت إلى القرآن الكريم. وصارت اللحظات الفارغة في حياتي مليئة ولها معنى، وعوضًا عن الشعور بالوحدة، كنت أنعم بأفضل صحبة، صحبة الله تعالى. لقد كان للذكر والتعلم ومصاحبة الفقراء، والاقتداء بهم يؤثر في شخصيتي شيئًا فشيئًا، وبدأت أشعر بأني أتغير من الداخل، وبدأت تتغير كذلك نظرتي إلى العالم، وكيف أشعر تجاهه. وكنت من قبل أجنح إلى الحرية في كل شيء، ولم أكن أستسيغ أن يملي عليّ أحد ما عليّ أن أفعلهُ، وما لا يجب عليّ فعله، ولا سيما في مرحلة المراهقة، حيث كنت أثور على القواعد كلها التي أصادفها. لكني أصبحت أجد حلاوة في اتباع القواعد، وعلى الأقل كنت أبذل قصارى جهدي كي أتبعها. ثم إنها قواعد خطها الله العزيز الحكيم. ولا يعني ذلك أني كنت دائمًا أفلح في مهمتي تلك؛ لأنه من الصعب جدًّا التخلص من عادات لازمت المرء سنين طويلة. غير أني كنت أبذل جهدًا كي أتحسن، وكلما وجدت أني تصرفت تصرفًا غير لائق، أو أن ردّ فعلي في موقف ما لم يكن مناسبًا، كنت أسارع للاعتذار لمن أسأت إليه، وأستغفر الله بسبب ذلك. وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعونا إلى أن نستفيد من أخطائنا، ويقول: «لا يزال العبد يذنب فيستغفر، فيذنب فيستغفر، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يغفر له، ويقول: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب، قد غفرت له». وكانت السيدة خان، وهي أول من علمتني أمور الإسلام في منطقة توتينغ بلندن، قد نصحتني بالشيء نفسه. وكلما كنت أشعر بالحزن أو بعض الاكتئاب، كانت تطلب مني أن أعود بذاكرتي لما فعلت خلال الأيام القليلة الماضية؛ لأن ذلك الإحساس ما هو إلا دليل على أني ابتعدت عن الله، وأني كنت في حاجة إلى أن أعود إليه من خلال الاستغفار.

كنت أشعر بأن الإيمان بدأ يتغلغل إلى قلبي أكثر من ذي قبل، وأن

المعرفة الأساسية التي كنت أتعلمها كانت تؤثر فيّ وفي حياتي، وهي معرفة يُمكِن تعلمها، غير أنها لا تُدَّرس أينما كان. ذلك أن على المرء أن يبحث بجدّ، وأحياناً في أماكن لا تخطر على البال، غير أن الجهد يؤتي أكله في النهاية. وكل يوم أحد، كان الشيخ أبوبكر وزوجته يدعوان عددًا من الفقراء إلى منزلهما في كِنت مرات عدة في السنة، وكنت من بين المحظوظين بتلك الدعوة. وكانت تلك اللقاءات تبدأ عادة بشاي بداية المساء. وعلى الرغم من سنّه المتقدمة، كان الشيخ يصر على أن يُضَيِّفَنَا بنفسه. ثم كنا نخرج بعد ذلك جميعنا في نزهة معًا، وكان لكل منّا فرصة الحديث على انفراد مع الشيخ في أمور خاصة، أو طرح أسئلة ذات طابع شخصي خلال تلك النزهة. وفي إحدى تلك النزهات، أردت أن أعرف كيف يرى مختلف الأديان وهي تؤدي وظيفتها باستقلال عن بعضها البعض، وأسأله ما إذا كانت كلها تقود إلى الخلاص أم أن ديناً أصح من دين آخر.

شرح لي الشيخ في جوابه، قائلاً: «الإسلام هو آخر الأديان السماوية، وهو كامل من حيث تشريعاته، وكَوْنِيٌّ من حيث رسالته؛ إنه لا يقرّ الديانات التي سبقته وحسب، بل يحمل الرسالة الحقة التي أتت بها تلك الديانات كذلك». وفي الوقت نفسه، فإن «الإسلام يعني الاستسلام لمشيئة الله وحده، وهو ما يمكننا أن نحققه بطرق شتى». إن كل دين سماوي جاء ليلبي حاجات الإنسان في مختلف العصور. وشبّه الشيخ أبوبكر الأشكال المختلفة التي تتخذها الأديان بنقاط موضوعة على محيط قرص، وكل واحدة منها ترتبط بمركز القرص عن طريق شعاع خاص بها، مثل شعاع العجلة. وعلى الرغم من أن الأديان يختلف بعضها عن بعض من حيث شكلها، فإنها كلها تتحد من حيث مضمون رسالتها والغاية منها. «وحين نتخطى مستوى الشكل، فإننا نمر من التعدد إلى الوحدة، من الخاص إلى الكوني. وكل مسار روحي صحيح يتبعه المرء بالتزام يقود بالضرورة إلى الله

تعالى. إن القرب من الله والخبرة الصوفية تتوسط قلب الديانات الصحيحة كلها، وذلك هونقطة التقائها جميعًا».

أعجبتني كلمات الشيخ، إذ أنها لخصت ما شعرت به عند قبر القديسة ريتا وفي البوسنة. وأخبرني أيضًا كيف أن بعض المسلمين المتحمسين أتوه سائلين عن طريقة تمكّنهم من دفع كل من في الغرب إلى اعتناق الإسلام، وكان ردّه لهم هو: «الأَوْلَى هو أن يؤمن الناس بوجود الله مجددًا، وإن اتبع كل إنسان الدين الذي وجده سائدًا في ثقافته، فإن ذلك يعد في حد ذاته إنجازًا عظيمًا»، فارتحت لسماع هذه النظرة المسالمة للأمور.

وجرت العادة في المساء بعد انتهاء تلك النزهة، أن تتطوع إحدى السيدات بتقديم وجبة طعام تكون قد أعدتها سلفًا، وأحضرتها معها. فكان شرفًا عظيمًا بالنسبة إلينا نحن السيدات، أن نطهو للشيخ ولنحو اثني عشر من الفقراء المدعوين الآخرين، على الرغم من أنها كانت مهمة مخيفة بسبب حرص كل فقيرة على تأديتها كما يجب. كنت أتمتع بسمعة طيبة في الطبخ، وقيل لي أيضًا إن يدّيَّ تتمتعان ببركة الطهو، وكان ذلك إطراءً جميلًا. لكن يبدو أن تلك البركة فارقتني يوم احتجت إليها أشد الحاجة، حيث طهوت مرة طبق كسكس بالدجاج والخضراوات في بيتي، ونقلته بسيارتي في قدرين كبيرين إلى بيت الشيخ في كِنت. وكل ما كان عليّ فعله هو تسخين الطعام قبل تقديمه. ولسوء الحظ، لم أضبط حرارة الفرن، الذي كان جديدًا، على الدرجة المناسبة؛ وحين قدمت أنا والسيدات الأخريات الطعام كان دافئًا ويقارب البرودة. فاضطررنا إلى أن نحمل أطباق الحاضرين واحدًا واحدًا، ونعيد تسخين ما فيها من طعام. فكان موقفًا محرِجًا جدًّا. ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحد، فحين هممنا بمغادرة المكان، لاحظت وأنا أودع الشيخ أنه كان جافًّا بعض الشيء؛ ومن الواضح

أنه لم يشعر بالرضا لما حدث. ولم يكن ذلك أسوأ ما في الأمر، ففي صباح اليوم التالي، اتصل بي جاي إيتن ليخبرني بأنه هو والشيخ وبعض ممن تناولوا الطعام أصيبوا باضطراب في معدتهم، ومرضوا. لا بد من أن إعادة تسخين الطعام قد حفزت بعض البكتيريا. وتوقعت أن أُمنَعَ من الطبخ للشيخ والفقراء بعد الذي حدث. لكن لم يمر سوى أسبوعين حتى تلقيت دعوة أخرى من الشيخ إلى بيته من جديد، وفوجئت بأنه يطلب مني أن أطبخ الطبق نفسه. فلم أصدق نفسي وأنا أسمعه من خلال الهاتف؛ غير أني شعرت بعد ذلك بارتياح كبير. لقد رأيت في تصرف الشيخ مثالًا عاليًا لكرم الأخلاق، لأن الصفح، على عكس العقاب، يُهَذِّب القلوب.

وجدت أن للقلب معنًى خاصًّا في الإسلام، فالقرآن الكريم يذكر «من كان له قلب»، ويؤكد: (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ) (سورة الحج: الآية 46). بل إن المسلمين يدعون الله ليلهمهم البصيرة، بصيرة القلب، التي يكنهم بها معرفة الحق، واتباع الطريق القويم في أحوالهم كلها. وقد سمعت العرب غير مرة يستعملون عبارات، مثل: «اِسْتَفْتِ قلبك»، أو «قلبي يخبرني».

أذكر أن أنطوان دوسانت - إيكسوبيري كتب في قصته (الأمير الصغير)، يقول: «لا يملك المرء أن يرى إلا بقلبه، لأن أكثر الأمور أهمية محجوبة عن حاسة البصر». وربما يعود ذلك إلى حقيقة أن القلب هو عرش الرحمن، وكم كنت تواقة لأن أسلك طريق القلب ذاك.

في أواخر عام 1999م، سافرت مع الشيخ وعدد من مريديه إلى مصر لقضاء مدة تتميز بلقاءات مكثفة للمتصوفة من أتباع هذه الطريقة من أنحاء العالم كافة. فكانت فرصة مذهلة يغتنمها الفقراء، ولا سيما أولئك الذين لا يقطنون في لندن، للقاء الشيخ والإفادة من صحبة إخوانهم من

السالكين طريق الله. وكانت مناسبة طيبة لنا كي ننعم بالمكث في بلد مسلم ذي تاريخ عريق في الإسلام. فقابلت نخبة متنوعة من الشخصيات، وكانوا جميعًا من مريدي الشيخ أبي بكر الذين ينحدرون من الأردن ومصر وماليزيا وجنوب أفريقيا وإسبانيا. وكان هناك أيضًا مريد وزوجته من تركيا، والسيد هيلالي وزوجته، والسيد سالازار وزوجته من لندن، ومصطفى مجذوب من إيران، الذي كان يرافق الشيخ في أسفاره، وينشد أعذب الأناشيد خلال مجالس الذكر، والسيد رضا، المتخصص في الدراسات القرآنية، الذي كان يعيش مع زوجته، نورين، بالقرب من منزل الشيخ في كِنت، وكان مساعده الأقرب. وبعد وقت قصير من حلولنا بالقاهرة، قدم الدكتور سيد حسين نصر من الولايات المتحدة برفقة عدد من طلابه. وكان هو العالم نفسه الذي حَضَرْتُ له محاضرةً في لندن من قبل.

لقد أدهشتني نوعية معتنقي الإسلام الذين قابلتهم في القاهرة. وكان كثير منهم يتمتعون بشخصيات غنية ومثيرة للاهتمام، مثل شمس فريدلاندر وهو مصمم جرافيك من نيويورك، وكان فد عمل في الماضي في مجال الموسيقا. وحينما قابلته، كان بصدد إعداد أفلام عن جلال الدين الرومي، ويدرس في الجامعة الأمريكية. وكان منهم أيضًا الصحفي عبد الله شلايفر، وهو أمريكي عَمِلَ مراسلًا في العالم العربي لدى عدد من المنابر الإعلامية العالمية طيلة عقودٍ من الزمن. وشغل أيضًا منصب مدير مكتب محطة (إن بي سي نيوز) بالقاهرة مدة طويلة من الزمن. وقد أسس لاحقًا، وأدار مركز أدهم للصحافة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. والتقيت كذلك جراي هينري، وهي سيدة رائعة من لويفيل بالولايات المتحدة، وكان أسلافها ممن أسسوا تلك المدينة. وتمتلك جراي شركة متخصصة في نشر الكتب التي تُعنى بالتراث الروحي للأديان، وتُدعى (فونس فيتاي). وكان الشيخ يمكث في فيلتها (منزلها المستقل) الكائنة بحي المعادي بالقاهرة

حين يحل بالقاهرة.

وكانت القاهرة مترامية الأطراف، وتنبض بحركة وحيوية ملفتة. وفي خضم الهرج والمرج وفوضى الزحام والضجيج الذي يطبع المدينة، زرنا كل الأماكن السياحية الموجودة فيها، ووقفنا على كنوز توت عنخ آمون، وتجولنا في (سوق خان الخليلي)، وهو أقدم سوق في القاهرة. واشترينا كثيرًا من المصنوعات اليدوية، ومنها السبحات المرصعة بالفضة، والكؤوس الزرقاء الفيروزية، وقطع الحلي المزينة بنقوش إسلامية، والأحجار شبه الكريمة. وصحبتني بعض السيدات إلى خياط متخصص في حياكة الجلابيب النسائية التي تناسب حضور مجالس الذكر. وتناولنا الشاي في ذلك الحي بمقهى الفيشاوي الشهير، ودخَّنَّا (الشيشة)، وزرنا بيت السحيمي، وهوبيت عريق رُمِّم، يقع في قلب القاهرة القديمة، وهي منطقة تعود إلى القرن العاشر. وكنا نذهب مرة كل يومين في الصباح الباكر لركوب الخيول العربية الجميلة عند سفح الأهرامات، نشق بها الرمال نحو الأفق البعيد. وأذكر أني سابقت مرة سيدي رضا نحو إسطبل الخيول عبر الصخور الوعرة والكثبان الرملية. وحين وصلنا مجهدين من أثر السباق الشائق، حمدنا الله أننا تمكّنا من الصمود كلٌّ على ظهر حصانه خلال السباق.

لم تكن غاية رحلتنا لهذه العاصمة الإسلامية الترفيه والسياحة، بل كان الغرض منها النهل من معينها الروحي ما يكفي لتقوية إيماننا وعزيمتنا على طريق الله. وكان الأذان يدوّي خلال المدينة منطلقًا من كل مسجد، يدعو المؤمنين إلى الصلاة خمس مرات في اليوم. وعلى الرغم من أني كنت أحب سماعه، فإني كنت محظوظة لأني لم أكن أقيم مع بعض الفقراء الذين نزلوا بفندق الحسين المجاور لمسجد الحسين مباشرة في المدينة القديمة. ذلك أن سيدي حميد، وهو أميركي اعتنق الإسلام، وقدم إلى القاهرة من

واشنطن، قال لي ذات مرة: «إنه يكاد يسقط من سريره في الرابعة والنصف من كل صباحٍ، بسبب علوّ صوت مكبّر الصوت الذي يُسمع منه أذان الفجر».

وما إن يعلو صوت الأذان من المآذن المنتشرة في المدينة بلا عدد، حتى يتوقف جلّ الناس عن العمل، فيقصدون المساجد للصلاة جماعة. وكنت أحاول والفقراء الآخرون أن نفعل مثلهم حيثما أدركنا وقت الصلاة. وكان يغمرنا شعور جميل حين نصلي في تلك المساجد العتيقة التي كانت تمتلئ عن آخرها وقت صلاة الجمعة. فقررنا أن نذهب لأداء صلاة الجمعة في جامع السلطان حسن، الذي يعود إلى القرن الرابع عشر. إنه أحد أكبر المساجد في العالم الإسلامي، وبداخله صحن مكشوف. خلعنا نعالنا عند مدخل المسجد، وسار الرجال حفاة حتى وصلوا إلى الصفوف الأمامية، في حين تجمعت النساء في الخلف على مساحة مرتفعةٍ بعض الشيء مقارنة بصحن المسجد. وكان بإمكاننا من موقعنا ذاك أن نرى المكان كله، بعكس بعض المساجد الأخرى التي صليت فيها، حيث كان الرجال ينعمون بالصلاة وسط جمال المسجد وهيبته، في حين كانت السيدات يزاحم بعضهن بعضًا في غرفة صغيرة منفصلة. لذا، كنت سعيدة بأن ذلك لم يكن الحال في جامع السلطان حسن. وعلى الرغم من مساحته الشاسعة، فإنه سرعان ما كان يمتلئ بآلاف المصلين، وكان أغلبهم يرتدي جلاليب بألوان مختلفة. وكان بعضهم يتوضأ في النافورة الكبيرة التي تتوسط صحن المسجد، في حين كان الأطفال يجرون ويلعبون حولها. فتخيلت أني لو عدت مئات السنين إلى الوراء، لكنت شهدت المشهد نفسه من دون أي تغيير يذكر. ثم اعتلى مفتي الجمهورية، وكان حينها الشيخ علي جمعة، المنبر وألقى خطبته، قبل أن يؤم الصلاة. وكانت كتفاي تلامسان كتفي السيدتين اللتين تصليان عن يميني ويساري، وقدماي تلامسان قدميهما. فكان

إحساسًا مهيبًا أن أصلي إلى جانب النساء الأخريات في حضرة هيبة ذلك المكان. وقمنا كذلك بزيارة مسجد سيدنا الحسين رضي الله عنه بالقاهرة، وهو قريب جدًّا من (سوق خان الخليلي). وقد سُمي المسجد باسم حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم، الحسين بن علي، ويُعتقد أن رأسه الشريف مدفون في هذا المكان. ويعد المسلمون ذلك المقام أعظم مكان في مصر. ويقصد كثير من الناس هذا المسجد من مختلف بقاع العالم لزيارة سيدنا الحسين والدعاء له. غير أني اكتشفت أن مسجد الحسين ليس المقام الوحيد الشهير في القاهرة. إذ إن المدينة تعج مقامات كثير من العلماء والأولياء.

وقد زرت بصحبة سامية وزوجها هلالي وسفينة، وهي فقيرة أخرى من لندن، وأصلها من باكستان، كثيرًا من مقامات الأولياء تلك. وكم سررت حين علمت أن كثيرًا من المقامات كانت لسيدات من أولياء الله. وكانت الأماكن كلها تعج بالزائرين من دون أي استثناء. وكنت أحيانًا أحسّ بطاقةٍ ما تشع من المقامات، وعلى الرغم من أنها لم تكن بقوة ما أحسست به في البوسنة، فإنها كانت كافية لتذكرني ما شعرت به في التكية. ولا تنظر بعض الآراء الإسلامية المحافظة مثل السلفية بعين الرضا إلى مثل هذه الزيارات؛ لأنها ترى أن الزائرين قد يتوجهون بصلوات للأولياء وليس لله عزّ وجلّ، وهو ما يَعُدُّونَهُ شِركًا، وهو أعظم إثم على الإطلاق. ولم يكن ذلك الأمر صحيحًا بالنسبة إليّ، وقد قلت لنفسي: إن لكلٍّ وجهة نظره في تلك المسألة. وأما أهم ما كان في تلك الرحلة بالنسبة إليّ، فهي مجالس الذكر التي كانت تُعقد كل ليلة. إذ كان تُـهيَّأ حافلة صغيرة لنقلنا من الفندق إلى مكان المجلس، وكنت أحيانًا أذهب برفقة أحد الفقراء الذين يعيشون في القاهرة، وهو أسترالي مسلم. وكان دائمًا ينقل الدكتور نصر، الذي كان ينزل بفندق شيبرد، واثنين من مرافقيه من ساحة التحرير. حيث كان موعد تجمعنا مع غروب الشمس خارج الفندق، ونحن نرتدي جلابيبنا، لنتجه

بعد ذلك إلى مسجدٍ في مدينة الموتى، أو (ترب الغفير) كما تُعرف في القاهرة، وهي مقبرة كبيرة تقع بمحاذاة القاهرة، تضم رفات آلاف الأموات، وبها يقطن كثير من ضعاف الحال من المصريين. وكان مجلس الذكر يعقد في المسجد الذي يضم مقام الحكيم ابن عطاء الله السكندري الذي عاش في القرن الثالث عشر، وهو ثالث شيخ في سلسلة الطريقة الشاذلية. وكتب أول كتاب جامع عن الذكر بعنوان: (مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح في ذكر الكريم الفتاح). وهو دليل عملي يعنى بالمشكلات التي تحصل للمؤمن في الصلاة، وفي أثناء ذكره الله، وهي أمور كثيرًا ما خبرتها، مثل الشرود أو عدم استحضار وجود الله. فعزمت على أن أقتني هذا الكتاب فور عودتي إلى إنجلترا لمساعدتي على عبادة الله كما وصفها الرسول صلى الله وسلم، بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وفي مسجد ابن عطاء الله، اجتمع أكثر من مئة وخمسين متصوفًا من مختلف أنحاء العالم للصلاة وذكر الله، وكان لذلك الحضور وقع قوي. وكان الشيخ أبوبكر يتحدث إلى الفقراء بمذاكرة عن أمر من أمور الحياة الروحية، قبل أن ينشدوا بعض الأذكار، ويؤدوا الحضرة. لم أشارك في الحضرة لأني لم أكن قد انتسبت إلى الطريقة بعد، واكتفيت بالجلوس ومتابعة ما يحدث. لقد أشعرني ذلك المشهد بهيبة كبيرة.

حاولت أن أتلقى أقصى قدر من البركة في ذلك المسجد، وغيره من المقامات والأضرحة. وكنت أحيانًا أخرج، وأستكشف تلك الأماكن وحدي. وقد قضيت صبيحة يوم من الأيام ساعتين في جامع الأزهر، وهو واحة من السكينة يقع في قلب القاهرة الإسلامية القديمة. وحاولت أن أذكر الله في ذلك الجامع مدة من الزمن. وبعد مرور بعض الوقت وأنا أذكر الله جالسة، قمت من مكاني، وتجولت حافية القدمين بين الممرات وأنا أسرد

وردي، قبل أن أجلس من جديد. وبينما كنت هائمة في التفكر، لاحظت قطة تتجه نحوي من الجهة المقابلة داخل المسجد. بدأت القطة تتمسح برجلي قبل أن تقفز وتجلس في حجري، فصرت أمرر يدي على ظهرها، فيما كانت تصدر صوتًا وكأنها كانت تثني على فعلي ذلك. وحين أخبرت بعض الفقراء بما حدث في المسجد ونحن على العشاء تلك الليلة، لم يندهشوا وقالوا لي إن قططهم تهوى الجلوس بقربهم وهم يصلون في بيتهم. وكان الدكتور نصر قد أشار إلى أن الحيوانات تتمتع بحس مرهف بكل ما هو روحي. سعدت كثيرًا لسماع ذلك، وقلت لنفسي إن كانت أذكاري قد لفتت ذلك الحيوان، فلعلني على الطريق الصحيح. وفي أثناء وجودي في القاهرة، أعددتُ للقاء عبد الله شلايفر على وجبة غداء في فندق كونراد المقابل لفندق شيبرد. كان الرجل يتمتع بشخصية لطيفة، وأحسست بأنه شخص يمكنني أن أتعلم منه. كان في بداية الستينيات من عمره، طويل القامة ونحيفًا، وكان لا يزال يعمل صحفيًّا، ويدير مركز الإعلام الذي أسسه في الجامعة الأميركية بالقاهرة. وكان آنذاك قد قضى نحو خمسين سنة من عمره مسلمًا ملتزمًا بتعاليم الإسلام، وكان أيضًا عضوًا في عدد من المنظمات الإسلامية والدولية التي تعنى بدراسة الأديان، إضافة إلى كونه أستاذًا فخريًّا، وخبيرًا مرموقًا في شؤون الشرق الأوسط. وحدثني عبد الله عن رحلته إلى الإسلام. كان في شبابه جزءًا مما عرف بـــِ (جيل البِيت) في الولايات المتحدة، وهو خط فكري كان يدور حول ويليام بوروز وألهم (حركة الهيبيز) التي ظهرت فيما بعد ذلك، وقال لي: «إن الحب المتحرر من القيود كلها، والإقبال على تجربة تناول المخدرات كانت السمات الأساسية للثقافة البوهيمية المتمردة، التي اتخذت من الشعر والنثر أدوات لها». غير أن شلايفر سرعان ما ابتعد عن هذا الجانب المظلم من (ثقافة البِيت)، وقال لي: «لقي كثير من أصدقائي حتفهم بسبب تناولهم

جرعات كبيرة من المخدرات، كما أن حياة المجون وعدم الاكتراث بالروابط العائلية رَمَيَا بي في وحدة قاتلة». وقال لي شلايفر، الذي كان في شبابه ملحداً وجودياً: «لم أتنكر يومًا لإمكانية وجود إله، كل ما هنالك أني لم يكن لي تصور عما قد يكون. وبطبيعة الحال، لم أكن أتخيله رجلًا كبير السن، وذا لحية بيضاء يتربع في تعاليه عرشًا في السماء». لم يكن ذلك تصوري عن الله كذلك.

سألته عندها: «كيف تنبهت، وأنت في خضم حياة التحرر والمجون والمخدرات، إلى أنك في الواقع كنت تبحث عن الأمان الروحي؟».

فأجاب: «ربما كان حبي الجمال؛ لأن الجمال، كما يقول عنه الأفلاطونيون، من تجليات الخير. ثم إن نمط الحياة الذي واجهنا به مجتمع الخمسينيات والستينيات المحافظ كان نوعًا من البحث عن السلام الروحي. غير أنه كان بحثًا خطيرًا؛ لأنه كان يدور حول فكرة أن الوصول إلى الحقيقة لا يمكن أن يتأتى سوى عن طريق تجربة كل شيء من دون أدنى خوف أو تردد. بل إننا تجرأنا في ذلك السعي على أن نتلاعب بحواسنا من خلال تناول المخدرات والعلاقات غير الشرعية، مقتدين في ذلك برأي شاعر القرن التاسع عشر الكبير، الفرنسي ريمبو». ذكرتني كلماته شيئًا ما بحياتي ودائرة أصدقائي. وكان زوج سيلفي، سيزار، مثلًا أرستقراطيًّا ووسيمًا، وصائغ جواهر ناجحًا جدًّا في مجتمع الصالونات. وكان عضوًا في جماعة (الروزيكروشيان) السرية، ودرس نصوصًا تعود إلى العصور الوسطى. وكانت جواهره تجسيدًا لذلك البحث المتواصل عن الحقيقة الذي كان يقوم به، وعادة ما كنّا نتحدث في أمور العقيدة والفلسفة. غير أنه وجِد ميتًا في أحد الأيام في غرفة أحد الفنادق، وقد قطع شريان يديه وعنقه بعد تناوله خليطًا من المخدرات. وكانت الحادثة صدمة شديدة لي؛ لأنه كان

صديقًا لي، وكنت قد قابلته هو وزوجته في مدينة هامبورج قبل يومين فقط من وفاته. وخلال مراسيم جنازته، تم تشغيل أغنية (وولك أون ذا وايلد سايد)، أيْ السير على الجانب الجامح، لمغنيها لوريد. وقال لي القس يومها إنه يعتقد أن ركون سيزار لتناول المخدر كان في الحقيقة بحثًا عن السلام الروحي. فشعرت بأنه ربما كان صائبًا. ومما يؤسف له، أنه تم يرَ نور ما كان يبحث عنه قبل أن يقضي وهو في ريعان شبابه.

لقد أدرك عبد الله شلايفر حقيقة خطر الركون إلى المخدرات والجريمة في الوقت المناسب، فقرر أن يذهب إلى المغرب. وكانت مدينة طنجة العتيقة محجًّا حقيقيًّا لـِ (جيل البِيت) الذي اشتهر بالتجوال. وكان ألن جينسبرج يزور هذه المدينة بانتظام، فيما كان ويليام بوروز لا يزال يعيش بها حين حل بها شلايفر. وبعد أن قضى شهورًا في شمال أفريقيا، بدأ شلايفر يعجب بجمال تحف الصناعة التقليدية، والهندسة العمارية، ونماذج التصاميم التقليدية في العمارة، إضافة إلى اللباس الإسلامي الطويل الذي يرتديه الرجال والنساء. وأعجب أيضًا بسلوكهم الراقي، من قبيل أنهم يضعون اليد اليمنى على القلب عند إلقاء التحية للتعبير عن صدقهم. وقال لي: «لقد ملأني ما رأيته بشعور غريب خالط فيه الحسد حزنًا شديدًا، لأني أدركت أن كل ذلك، بما فيه الجمال ونظافة الجسم وتقبل الآخر واحترامه والرحمة بهم، كل ذلك كان من أثر الامتثال لأوامر الله أو أوامر رسوله. ومن الواضح أن كل ذلك كان مردّه إلى الله، غير أني تم أكن أفهم ما الله».

ترك شلايفر طنجة وهو في عزّ أزمة وجودية وعلى شفا انهيار عصبي. وتذكر تلك المدة العصبية قائلاً: «وفي أول يوم بعد عودتي إلى الولايات المتحدة، وفي تصرف كان أقرب إلى صرخة قوية للبحث عن النور، أمسكت

بنسخة الترجمة الإجليزية التي كنت أملكها للقرآن الكريم، وأغمضت عيني، وفتحت المصحف، وبدأت أمرر أصبعي على الصفحة التي فتحتها وأنا مغمض العينين. ثم فتحت عيني لأقرأ ما وقع عليه إصبعي، فكانت الآية: (لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ) (سورة الأنعام الآية: 103). فقلت لنفسي ولله وقتها: «أستطيع أن أومن بإلهٍ يُـخْبِرُني بأنه يفوق إدراك البشر».

وفي تلك اللحظة المحورية في نيويورك اعتنق شلايفر الإسلام، وقد وصف ني حالته حينها، بقوله: «كان الأمر أشبه بـحجاب رفع عني». لقد تأثرت بقصته تلك؛ لأن الله أنار دربه حين كان في أشد الحاجة إلى ذلك. ومنذ ذلك الوقت، سلك عبد الله طريقًا روحيًّا يقربه من الله عزّ وجل.

حلّ شهر رمضان في آخر يوم من أيام رحلتنا تلك. وكان آلاف الناس قد تجمعوا في مسجد سيدنا الحسين في المدينة العتيقة للقاهرة بعد غروب الشمس ترقبًا لظهور هلال الشهر الفضيل. وفي تلك الليلة، جاب منتسبو كثير من الطرق الصوفية الطرقات، وهم يحملون أعلامًا وشعارات، ويهتفون: «رمضان كريم، أين هلالك؟». وما إن أُعلن عن رؤيته حتى ابتهج الناس، وفرحوا لذلك فرحًا كبيرًا. وجرت الدموع من عيني لرؤية فرحة الناس باستقبال الناس رمضان، وهو شهر المشقة والصيام ونكران الذات. وكان الجو العام احتفاليًّا ومفعمًا بالسرور، حيث امتلأت المقاهي بالناس الذين تجمعوا بها للاحتفال بقدوم رمضان طوال تلك الليلة، وهم تتطلعون إلى قضاء ثلاثين يومًا في عبادة الله تعالى، والسمو والارتقاء فوق حاجات أبدانهم ورغباتها. وتمنيت لو كان بإمكاني قضاء الشهر الفضيل في تلك الأجواء الخاصة، لكننا عدنا إلى لندن في اليوم التالي. وصمت خلال رحلة العودة، على الرغم من أن القرآن الكريم رخص الإفطار في السفر؛

لأن ما عشته في القاهرة أثر فيّ لدرجة أني لم أرَ ما يمنعني من الصوم يومها، ثم إنه من المستحيل وصف الجلوس في الطائرة أربع ساعات بالرحلة الشاقة.



[(1)] "A Sufi Saint of the Twentieth Century"

[(1)] بُسط.

[(2)]رواه الترمذي.

[(1)] نوع من الجلباب النسائي مطرز من الواجهة والأكمام، وهو لباس تقليدي في شمال إفريقيا.

[(1)] الفسيفساء

الفصل الحادي عشر

بيعة وولاء

كيف لطائرٍ أن يحلق دون سربه؟

جلال الدين الرومي، المثنوي

كنّا على مشارف موسم أعياد الميلاد، فذهبت لزيارة عائلتي في هامبورج بألمانيا. ولم يكن حينها شهر الصيام قد انقضى بعد، وساورني بعض القلق من أن يستاء والِدَيَّ من أني لا آكل إلا بعد غروب الشمس. وفي يوم عيد ميلاد المسيح، اجتمعت عائلتي كلها في منزل ابن عمي لتناول العشاء التقليدي الذي يكون الطبق الرئيس فيه طائر الديك الرومي المحمّر. غير أن ذلك اللقاء العائلي بدأ بتناول القهوة وقطع الكعكة الذي يكون في بداية وقت المساء. وكان لابن عمي طفلة في السابعة من عمرها، فهبت دون سابق إنذار، وقالت للجميع: «لا يمكن أن نأكل حتى يحين موعد إفطار كريستيانا». وأصرت على أن ينتظروا جميعًا، فكان لها ما أرادت. ولحسن الحظ، لم يكن يفصلنا عن موعد صلاة المغرب سوى بضع دقائق. لا أظنهم كانوا سينتظرون موعد المغرب لو صادف رمضان وقت عيد الفصح الذي يحل في شهر أبريل، حيث تغرب الشمس في وقت متأخر أكثر، لكنه كان تصرفًا لطيفًا من أفراد عائلتي الذين أبدوا لي بتصرفهم ذاك بعض الدعم فيما كنت أقوم به. ولم يستسغ والديّ اختيار اعتناق الإسلام، وهو أمر أحزنني بقدر ما أحزنهما. غير أني أظنهما احترما فيّ التزامي بتعاليم ديني في حياتي اليومية، على الرغم من أنهما لم يفهما قراري، ولم يكونا مستعدين لسماع المزيد من التفاصيل عن ذلك الموضوع برمته. وكانا يتركاني أصلي بسلام، ولا يقدمان لي لحم الخنزير أو الكحول، لكنهما كانا أحيانًا يحتسيان المشروبات الكحولية وقت العشاء. وفي ليلة عيد ميلاد

المسيح بالتحديد، قرأت لأبي بعض المقاطع من الإنجيل، كنت دونتها في محاضرة للأديان حضرتها في لندن. وعلى الرغم من قلة اهتمامه بالدين بوجه عام، إلا أنه قال لي إنه سبق أن سمع تلك المقاطع من قبل. وكم كانت مفاجأتي حين قال لي إن أمه كانت كثيرًا ما تكرر تلك المقاطع نفسها على مسامعه.

وقال لي حينها: «أنتِ تذكرينني بها كثيرًا». وكانت عمتي وجدتي وحتى أم جدتي كلهن يلتزمن بتعاليم الدين المسيحي. غير أنه سرعان ما غيّر الموضوع حين قال: «لكن علينا الآن أن نهتم بالأمور الدنيوية؛ فشجرة عيد الميلاد هذه تحتاج إلى من يزينها، ويمكن لأحد ما أن يساعد على إعداد العشاء». وكنّا عادة ما نتناول أكلة سمك في هذه المناسبة. إذًا، توقفت محادثتنا عند ذلك الحد، غير أنها ظلت عالقة بفكري. ولم أهتم في طفولتي بدين أجدادي، ولكن حين تملكني الفضول لأعرف عنه قدر المستطاع، لم يتسنَّ لي ذلك؛ لأن أجدادي كانوا قد فارقوا الحياة. وعلى الرغم من ذلك، ما زلت أذكر مدى التزام أخت جدتي بأبرشيتها، وأنها كانت تعدّها عائلتها الثانية. وكانت عمتي هيرثا مثال الكرم والطيبة والنبل، فلم تشتكِ يومًا مع أنها فقدت زوجًا في الحرب، ولم يكن لها أبناء. وعلى الرغم من ذلك، كانت دائمًا تقابل الناس كلهم بالبهجة والعناية، وكانت تعاملهم جميعًا بكل لطف وسعة صدر. وكانت دائمًا ما تحوك من الصوف، أو تصنع بالكروشيه [(1)]) ألعابًا على شكل حيوانات، وملابس لأبناء عمومتي ولأختي ولي.

حينما فاتحت أبي صباح اليوم التالي بكل حذر في موضوع دين العائلة مجددًا، اقترح عليّ أن أحضر قداس عيد الميلاد الذي يُعقد في اليوم الذي يعقب يوم عيد الميلاد، بكنيسة بينتيكوستال بإيليم، التي كان أجدادي

ينتسبون إليها، ويحضرون العظة الأسبوعية فيها بانتظام. وأخبرني أبي كذلك بأن أجدادي شهدوا بعض المظاهر الباطنية، مثل تلقي المؤمنين بركات روح القدس، أو تحدثهم بألسنة لم يكونوا يعرفونها. ولكن لأنه لم يكن مهتمًّا بهذه الأمور، لم يستطع أن يعطيني تفاصيل أكثر مما ذكر لي. استقصيت عن مكان تلك الكنيسة، وذهبت لحضور القداس بها. وأنشد المنشدون ترانيمهم بكل همة، وراح كل واحد من الحضور يحيّي الآخر بحرارة. وكانت الأجواء مفعمة بالخشوع والحب، وصادف أن موضوع عظة القس يومها كان عن صوم المؤمن لإظهار تضامنه مع الآخرين. وكانت البهجة تحف بالكنيسة وكل من كان فيها، فذكّرتني تلك الأجواء بالكنائس الإنجيلية التي زرتها خلال مقامي طالبة في الولايات المتحدة الأمريكية. وبعد نهاية القداس، ذهبت إلى القس آملة في أن يحدثني عن أجدادي. وبدا في البداية متأثرًا باهتمامي بأن أعرف عن أجدادي، لكن ما إن أشرت إلى موضوع عظته، وأني كنت حينها صائمة لأني مسلمة حتى تغير لون وجهه وتجهم، وعوضًا عن أن يرى القواسم المشتركة التي تجمع بين الإسلام والمسيحية، قال لي: «ما من إنسانٍ تصله رسالة المسيح عليه السلام ويختار ألا يتبعها فإنه ملعون». كانت تلك الكلمات كافية لتبديد كل انشراحي وبهجتي بما عشته آنفًا في تلك الكنيسة.

وكنت قد سمعت مثل ذلك الكلام من أول أستاذة درستني أمورًا عن الإسلام. وقالت لي: لما كان الإسلام هو آخر الديانات التوحيدية، فإنها تعتقد، شأنها في ذلك شأن كثير من المسلمين اليوم، أنه ينسخ جميع الأديان التي جاءت قبله، وأن كل من يتبع تلك الأديان القديمة فإن مصيره النار. وكنت قد عارضتها حينها بشدة؛ محاولةً أن أوضح لها أن لتلك الديانات أيضًا أتباعًا مخلصين كانوا يصلون، ويعملون الصالحات من الأعمال. لم أستطع تقبل فكرة أن كل أولئك الناس، من فيهم أصدقائي

الكاثوليكيين مثلاً، سيذهبون إلى النار. كنت قد قررت ألا أقابل تلك الأستاذة مرة أخرى بسبب ما قالته لي. وتركت ذلك القس وأنا أشعر بالإحباط والضيق لما قاله لي أيضاً. إذ لا أرى أي اختلافٍ بين أن يصوم الناس لله في شهر رمضان، أو يوم كيبور [(1)]، أو الصوم الكبير. ثم إن وجود شعيرة الصوم بصفته أحد الأسباب للتقرب إلى الله في الأديان كلها دليل واضح على أنها تتقاسم القيم نفسها. ولأننا نعيش اليوم في عصر يتيح للناس كلهم أن يسافروا، ويكتشفوا ثقافات أخرى، ويتعرفوا معلومات هائلة بفضل التقانة الحديثة، فإنه لم يعد من مجال لالتماس الأسباب لمثل هذه الأفكار الظلامية.

مكثت في هامبورج حتى حلول عيد الفطر الذي احتفلت به بأن قصدت لأول مرة مسجد المدينة الرئيس، الذي يقع على بحيرة ألستر. وكان ذلك المسجد يَتَّبِعُ المذهب الشيعي، ولونه ما بين الفيروزي والأزرق، ومدخله نافورة، وزينت خلفيته بسيراميك فارسي رفيع، فيما انتصبت صومعتان فوق قبته. وبينما كنت أسير على ضفة البحيرة، أحسست بغرابة كبيرة وأنا أرتدي الحجاب لأول مرة؛ وكنت خائفة من أن يتعرف أليّ أحدهم. لكن ما إن دخلت المسجد، وخلعت حذائي حتى شعرت بطمأنينة كبيرة. وكان المسجد مكتظًّا بالمصلين، فرحت أبحث حتى وجدت مكانًا للصلاة بجوار سيدة كردية. وكالعادة، أحببت كثيرًا صلاة العيد والابتهالات العذبة التي تصاحبها، ثم دعتني بعد ذلك السيدة الكردية للاحتفال بالعيد معها في بيتها. لم يكن قد سبق لي أن قابلت هذه السيدة من قبل، لكنها ربما خَمَّنَتْ أني كنت وحيدة، ولم يكن لي أي ارتباطات أخرى في ذلك اليوم. فأسعدتني دعوتها كثيرًا، وقبلتها بكل سرور. وكنت يومها على موعد مع الشيخة حليمة كراوسن، وهي متخصصة في علم الأديان من هامبورج

وتعمل في ذلك المسجد، حيث يفيد النساء والأزواج من خبرتها فيما يتعلق بالزواج والحياة الأسرية في الإسلام. وتنشط كراوسن في مجال حوار الأديان، وعادة ما تلقي محاضرات في لندن. وقد تعرفت إلى الشيخة كراوسن خلال محاضرة ألقتها بمقر جمعية النساء في ويمبلي، وتناولت فيها موضوع تزكية النفس. وخلال استراحة الغداء، علمت أنها تنحدر كذلك من هامبورج، حيث ولدت حليمة في كنف عائلة مسيحية، ثم اعتنقت الإسلام في سن مبكرة، قبل أن تتزوج من باكستاني. وأعجبني أسلوبها في مقاربة الدين؛ لأنها كانت مقاربة جديدة، غير تقليدية، وعملية. وأما عن تحولها إلى الإسلام، فقالت لي: «حين أقدمت على تلك الخطوة، لم أغير اسمي فقط، بل إني وجدت بها طريقي إلى الله». قَرأت كراوسن الإنجيل حين بلغت التاسعة من عمرها، وسرعان ما انجذبت لمفهوم المسيح والقيامة. لكنها وجدت أطروحة موت المسيح تكفيرًا عن خطايا البشر غريبة جدًّا، إضافة إلى فكرة التثليث. فبدأت بعد ذلك تجمع في كتاب خاص بها الأقوال الدينية التي تسترعي انتباهها، وهي تقرأ مختلف النصوص الدينية التي كانت تجدها في المكتبة. وكان معظم تلك الأقوال من نصوص إسلامية، ولم يمضِ وقت طويل حتى اتخذت قرارها. وفي سن الثالثة عشرة، كانت تدرك تمامًا أنها مسلمة، وأن طريقها لن تكون مفروشة بالورود. صعقت أمها حين علمت بقرارها، وطلبت مساعدة قسِّهم والأستاذ الذي يدرس حليمة الأديان لإعادتها إلى الطريق القويم. وقد وصفت حليمة تلك المرحلة بقولها: «كنت كأني أسير إلى الجحيم حافية القدمين وأعود منه». وجالت حليمة كثيرًا في بقاع العالم الإسلامي، ودرست خلال تلك الأسفار مواد الدراسات الإسلامية والعلوم الدينية. لقد كانت حليمة مهتمة بقضايا المرأة والتعليم، وكانت أحد أعضاء فريقٍ عكف على ترجمة القرآن الكريم، وبعض النصوص الدينية الأخرى إلى اللغة الألمانية.

وبعد أداء صلاة العيد في المسجد، قابلت الشيخة كراوسن في مقهًى يقع على ضفاف البحيرة، حيث ذهب كثيرٌ من المسلمين بعد الصلاة لشرب القهوة. وتعرّف إليّ بعضهم من خلال ظهوري في التلفاز. ولم أفوّت فرصة لقاء كراوسن لسؤالها عن أمر طالما أرقني. كنت أريد أن أعرف ما إذا كان القرآن يبيح حقًّا للرجال ضرب نسائهم إن لم يُطِعْنهم. صُعقت حليمة لسماع سؤالي، وأكدت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يوبخ أي رجل يضرب زوجته، وقالت لي: «إن فعل (ضَرَبَ)، الذي يترجم عادة بمعنى الضرب الجسدي، له معانٍ متعددة في اللغة العربية، مثل وضع علامة على شيء ما، أو فسر أمرًا ما مع التأكيد عليه، أو اتخاذ مسافة من شيء ما، أو الرحيل عن مكان ما؛ وعلى العموم، كل هذه المعاني تفيد معنى التنبيه إلى أمر ما». إن هذه المعاني هي التي يجب أن تُستخدم في تأويل هذا الفعل المعقد في سياق العلاقة الزوجية [(1)].

وما إن تفوهت الشيخة كراوسن بتلك الكلمات حتى صار الحديث أكثر إثارة وحماسًا، وسألتها إحدى الفتيات الأخريات: «وهل فعلاً على الزوجة أن تطيع زوجها؟». فأجابت حليمة: «طبقًا لما ورد في القرآن الكريم، فإن النساء والرجال شركاء، لذا، عليهم أن يناقشوا كل مسألة، ويحلوها في إطار من الودّ. أما في سياق الآية التي كنا نتحدث عنها، فإن كلمة النشوز التي تترجم عادة على أنها تعني عدم الطاعة أو المعصية، فإنها في الحقيقة تصف سلوكًا ينافي الطبيعة الاجتماعية للفرد، ليس فقط تجاه الزوج بل تجاه الله والمجتمع عمومًا. ثم إن ما يفهم من القرآن هو أن النساء لسن وحدهن المعنيات بالتحذير من النشوز بل الرجال كذلك».

وكانت البنات كلهن يصغين بإمعان لشرحها، وكنّ شاكرات جدًّا لسماع هذا التفسير الجديد لهذه الآية. ولا شك في أننا في حاجة ماسة إلى علماء

مستنيرين، مثل الشيخة كراوسن، كي تلهم الرجال بفهمها هذا لآيات الله تعالى. وطلبت مني بعد ذلك الفتيات اللواتي حضرن ذلك اللقاء أن أروي لهن قصة دخولي الإسلام، ثم احتفلنا كلنا بعد ذلك بالعيد معًا. وكانت تجربة مهمة بالنسبة إليّ؛ لأني تمكنت لأول مرة في مدينتي هامبورج من أن أظهر علانية بصفتي مسلمة، وأقضي وقتًا مع مسلمين آخرين. وكان ختام يومي بلقاء السيدة الكردية التي دعتني إلى الاحتفال بالعيد في بيتها الواقع في ستيلشوب، وهو حي على أطراف هامبورج ذهبت البنايات العالية بجماله. وبمجرد أن دلفت من باب المنزل، أدركت أن تلك السيدة وعائلتها، بعكسي، كانوا يتبعون المذهب الشيعي. حيث كانت جدران البيت مغطاة بصور للرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم وابن عمه وصهره علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه. تلك الصور محط اختلاف كبير بين العلماء؛ لأن تجسيد الأشخاص يدفع الناس إلى التركيز على ما يحدث للأشخاص المجسدين من أحداث دنيوية عِوضًا عن مساعدتهم على التفكر في الله. ولهذا السبب يعارض السنة المحافظون ذلك التجسيد. وكان الاستثناء الوحيد الذي يقبلون به لهذه القاعدة المنمنمات [(1)] الفارسية والهندية؛ وذلك لأنها مرسومة ببعدين اثنين، وتحاول أن تتجاوز الأمور الدنيوية لتعكس حقائق كونية. وتلقى اللوحات التي تصور الصالحين، ولا سيما علي ابن أبي طالب وولديه الحسن والحسين، شعبية كبيرة بين قسم من الشيعة. وبعض النظر عن تضارب الآراء الفقهية حول تلك الصور، فقد كنت سعيدة بدعوة تلك السيدة، وأحسست بأننا مسلمون سواء ولدنا مسلمين أو اعتنقناه، وسواء كنّا شيعة أم سنّة.

وقدمتني مضيفتي إلى أفراد أسرتها جميعًا، ثم أعطتني خاتمًا هدية بمناسبة العيد، قبل أن نجلس جميعنا على الأرض مع الأطفال ورب الأسرة

وأقرباء كثيرين آخرين للأسرة لتناول طبق لحم ضأن شهيّ. وكم أحببت تلك اللَّمَّة العائلية، وأن أشارك في حدث يلتئم له جميعهم في فرح وابتهاج. وها أنا ذا في هامبورج، المدينة التي ولدت فيها، أصلي وأحتفل لأول مرة بيوم العيد إلى جانب إخوتي من المسلمين. كانت أسرتي والبيت الذي ترعرعت فيه ومدرستي القديمة على بعد كيلومترات قليلة من المنزل الذي كنت فيه. وعلى الرغم من أني كنت أحتفل بالعيد مع أناسٍ تعرفت إليهم حديثًا، فإنني أحسست بأني قريبة جدًّا منهم. وعلى الرغم من أني كنت غريبة عن تلك الأسرة، فإنني كنت أشعر بأني في بيتي أخيرًا!.



وبعد عودتي إلى لندن، دعاني مايكل رادفورد أنا وروبي للاحتفال بحلول السنة الجديدة. أردت أنا وروبي بصفتنا مسلمتين صالحتين، أن نشهد حلول الألفية الجديدة ونحن في كامل وعينا، فاكتفينا بأن شربنا ماء الورد احتفاءً بحلول السنة الجديدة. وبينما كنت أشاهد الألعاب النارية وهي تزين السماء فوق نهر التايمز مع أصدقائي وشقيقتي، التي قدمت بصحبة زوجها لقضاء تلك الاحتفالية الخاصة معي، عدت بأفكاري إلى مصر ولا سيما إلى شخص قابلته هناك.

كان الدكتور نصر قد دعاني مرة إلى مقابلته مع أحد أصدقائه واسمه ألفريد، وهو نمساوي كان يقيم آنذاك في القاهرة، وعادةً ما كان يتنقل معه بين أنحاء المدينة. كان ألفريد يعرف المدينة جيدًا، وخاصة المساجد والأضرحة، ويتكلم العربية بكل طلاقة. وكان قد مر على طلاق ألفريد من زوجته المصرية الألمانية سنوات عدة. وكان في الماضي يدرس الأدب الألماني في جامعة الأزهر، لكني حين تعرفت إليه كان يعمل صحفيًّا مستقلًا في محطة تلفزة ألمانية، فيهيّئ لمواقع تصوير، أو يجري مقابلات لفائدة تلك

المحطة. وكان ألفريد يكبرني ببضع سنوات، وكان نهمًا بالقراءة، ومفكرًا لا يعرف الحدود، وشغوفًا جدًّا بالتصوف، وأعترف أني أعجبت به. وقد قضينا أمسية كاملة ونحن نتحدث بالألمانية، وهو أمر كان غريبًا بالنسبة إليّ؛ لأن كل ما يخص ديني كان ينتمي إلى شق حياتي الذي ينطق باللغة الإنجليزية. لذا، أحسست بـأنه قريب جدًّا مني وكأني أعرفه منذ زمن. ولم أتنبه قبل ذلك إلى مدى اشتياقي إلى الحديث عن أمر هو من الأهمية بمكان بالنسبة إلي بلغتي الألمانية. وأظن أن ألفريد أحسّ بالإحساس نفسه. وعلى أي حال، وعدني بأن يخبرني بزيارته التالية إلى أوروبا. ومنذ ذلك الحين، واظبنا على التراسل بشكل يوميّ.

لم يمر أكثر من بضعة شهور حتى قدم ألفريد إلى جنوب ألمانيا للعمل، وكنت مرتبطة بتقديم لقاءٍ في فورتسبورغ، فاتفقنا على أن نلتقي، ونذهب لزيارة الدكتور نصر الذي كان أحد المحاضرين في المنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس. فجاء ألفريد إلى مكان الندوة التي كنت أقدمها ليصحبني بسيارته، وذهبنا معًا إلى جنوب سويسرا. وتوقفنا في طريقنا في المكان الذي رأى فيه باراسيلسوس، الطبيب والكيميائي العظيم، النور. وكنت قد قرأت كثيرًا عن هذا المعالج العظيم خلال مدة دراستي الطب الطبيعي. وبعد أن أتممت سنة الدراسة التمهيدية للجامعة، قررت أن أتخصص في العلاج الـمِثلي. وزرنا أيضًا دير أينسيدلن الذي أُسس قبل نحو ألف سنة، ويُعدّ محجًّا للزوار من داخل سويسرا وخارجها. ويُعدّ هذا الدير أيضًا محطة مهمة على طريق سانت جيمس، وهو حج (شانت ياقب)، أو (سانتياجو دي كومبوستيلا) في إسبانيا، الذي يجتذب سنويًّا مئات آلاف الحجاج من المسيحيين وغيرهم، مثل الهندوس. وما يفسر شهرة هذا الحج وشعبيته لدى أولئك الحجيج كلهم هو تمثال العذراء السوداء، وهو تمثال للسيدة مريم أُقيم في العصور الوسطى يجسدها على

هيئه امرأة سوداء، في دليل واضح على أن الروح تسمو فوق العرق ولون البشرة.

جلسنا في كنيسه بندكتين حيث تلونا بعض الأذكار سرًّا، واستغرقنا في التفكر بعض الوقت، غير أن تلك الزخارف والجداريات الداخلية التي كانت مفعمه بالألوان، إلى جانب تماثيل الملائكة الذهبية الماريه لم تثر إعجابي كما في السابق، وهو أمر عَجِبْتُ له.

وقلت لألفريد حينها: «إني أفضل التناغم الهندسي البصري للعمارة الإسلامية». أمّا هو، فكان معجبًا بأشكال وألوان العصر الباروكي؛ لأنه نشأ بين أحضانه في النمسا، في حين نشأت أنا في شمال ألمانيا البروتستانتية، حيث تمتاز الكنائس باعتماد التصميم الخطي البسيط والرصين في آن واحد.

وعلى الرغم من أن أذواقنا الفنية كانت متباينة فيما يخص الهندسة والمعمار الأوروبيين، غير أننا كنا منسجمين جدًّا فيما عدا ذلك. وكان ألفريد على قدر كبير من الأدب واللطف والذكاء. وكان كلّ منّا يتطلع إلى معرفة المزيد عن حياة الآخر. وفي إحدى الأماسي، أخبرني ونحن نتناول العشاء، كيف اهتدى إلى الإسلام. إذ كان قد بدأ دراسة الأديان بإمعان كبير في بداية شبابه، وكان يتطلع إلى قراءة النصوص السماوية بألسنتها الأصلية، لذا، تعلم كلًّا من السنسكريتية والعبرية والفارسية، ثم العربية حتى يستطيع قراءة القرآن الكريم.

وقال لي إنه انجذب كثيرًا لقصة سيدنا موسى عليه السلام: كانت قصة موسى مع العبد الصالح الأقرب إلى قلبي. وقد وردت تلك القصة في سورة الكهف، التي أوصى الرسول عليه الصلاة والسلام بقراءتها كل يوم جمعة. وقال لي ألفريد: «جاء في القصة أن موسى عليه السلام التقى عبدًا صالحًا،

آتاه الله علمًا كثيرًا واسمه الخضر، وأن هذا العبد الصالح دفع سيدنا موسى إلى أن يعيد النظر في كيفية حكمه على الأمور بظاهرها، ولامه على أنه يتسرع في تقدير الأمور، فيحسب الخير شرًّا والشر خيرًا، واكتشف موسى خلال أطوار تلك القصة، أن حقيقة الأمور ليست كما تفيد به المظاهر».

فأجبت ألفريد حينها: «لقد لَفَتَتْ نظري تلك القصة كذلك. وكم كانت دهشتي كبيرة حين وجدت فيها العتاب موجهًا لنبي كريم بسبب قلة صبره. وقد جعلتني تلك القصة أفكر في قلة صبري أنا كذلك».

وأشار ألفريد بعد ذلك، قائلاً: «في نهاية المطاف، تقبل موسى أن عليه أن يوقن أن الأمور كما هي كلها خير». أما بالنسبة إليه، فيكمن مغزى القصة في أن التوكل على الله هو أعظم حكمة، وأفضل وسيلة للتعامل مع الحياة.

بهرتني معرفة ألفريد الواسعة بالأديان والحضارات القديمة. لكن سعادتي كانت أكبر بأن ألتقي شخصًا يسلك الطريق نفسه الذي كنت أسلكه، ويتحدث بلغتي، ويشاركني في الخلفية الثقافية نفسها. وكان يجمعنا أيضًا حب السفر، وعشق الثقافات الشرقية، إضافة إلى أن عملي وعمله كانا متشابهين إلى حد ما. وكان ألفريد شديد الإيمان، وعادة ما كان يتحدث عن الأماكن التي تعزز إيمانه ذاك في القاهرة وفي الصحراء، حيث يذهب لينهل من نبع البركة الإلهية،كما يصفها.

لم يمضِ وقت طويل حتى أصبح كل منّا يكن مشاعر خاصة للآخر. بدت الأمور مواتية جدًّا، غير أني أُصِرُّ على أن الإطار الوحيد الذي يمكن لعلاقتنا أن تتطور فيه هو الزواج، وقد وافقني ألفريد الرأي في ذلك. لكن السؤال الذي طُرح حينها، هو ما إذا كان علينا أن نتزوج في أقرب وقت ممكن،

فبدأنا ندرس عددًا من السيناريوهات.

وصلنا إلى دافوس، حيث اجتمع قادة العالم والاقتصاديون والفلاسفة ليناقشوا مستقبل الكوكب الذي نعيش فيه. وتحول منتجع الرياضات الشتوية الصغير هذا إلى مركز يستضيف منتدى دوليًّا يحتشد له الناس والسيارات والحراس والشرطة، وكل هؤلاء على قدر كبير من الأهمية. ولم نكن ممن اختيروا لحضور أشغال المنتدى، فاكتفينا بالاستمتاع بجو تلك المدينة وجمالها الطبيعي الخلاب، وكنا نلتقي الدكتور نصر كلما تسنى له ذلك. وقد كان يسعده أن تتجنب بعض الأجواء الرسمية للمنتدى، ويلتقي الأصدقاء. وركبنا معه مرة مصعد التزلج للاستمتاع بالمناظر الطبيعية من أعلى الجبل، فحدثنا عن جبال فارس. وقال بصوت بدا فيه شوقه إلى وطنه واضحًا: «يطلق على بلادي لقب سويسرا الشرق». لقد فقد الدكتور نصر كل شيء وقت قيام الثورة الإسلامية، ولم يعد إلى إيران بعد أن غادرها منذ ذلك الوقت.

حين عدنا إلى دافوس، تناولنا وجبة عشاء سويسرية طيبة في مطعم دافئ على جبال الألب. ولما كان الدكتور نصر هو من عرّفنا بعضنا على بعض، قررت أنا وألفريد أن نستشيره في موضوع زواجنا. فكرت في أن أترك الدراسة في لندن، وأنتقل للعيش مع ألفريد في القاهرة، وأبدى ألفريد استعداده لأن يعتني بي، وأبدى حماسه للقيام بذلك. وتحدث إلينا الدكتور نصر عن معنى الحب والزواج في الإسلام، ومسؤولياتنا داخل مؤسسة الزواج، وقال لنا: «إن الزواج هو الإطار الطبيعي الذي يمكن للمرأة والرجل أن يكونا فيه». وتلا علينا قوله تعالى: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (سورة الذاريات: الآية 49).

وذَكَّرَنَا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتحدث دائمًا عن أهمية

الزواج، بل ووصفه بأنه نصف الدين، وقال: «مَا بُنِيَ فِي الإِسْلَامِ بِنَاءٌ أَحَبُّ إِلَى اللهِ عَزّ وَجَلّ مِنَ التَّزْوِيجِ». وأضاف الدكتور نصر: «أي نوع من أنواع الحب من المنظور الإسلامي يجب أن يكون لله، ولا ينفصل عن الله». وتابع في توضيح معانيه الإيمانية قائلًا: «إن الحب الذي لا يكون في الله، ويبعدنا عنه تعالى، يمكن أن يؤدي بالروح إلى الهلاك. أما إذا فُهِمَ الحب بمعناه الصحيح، فبإمكانه أن يصير هدية إلهية يرتقي بها المرء ليصل إلى الحب الحقيقي، وهو خالق الحب، الله عزّ وجل».

أسعدتني كلماته كثيرًا، وشعرت بأن قلبي ينبض على وقع سعادة عجيبة سببها أني وجدت أخيرًا إنسانًا أستطيع أن أحبه في الله، وأن أبني معه علاقة طالما ظلت غائبة عن حياتي. وكما أخبرنا الدكتور نصر، فإن التركيز الحصري على تأدية الشعائر الدينية وحدها، يمكنه أن يورث في القلب قسوةً لا يخفف منها سوى التقارب الذي يجمع بين زوجين، يمكنهما أن ينعما بالطمأنينة التي يجدها أحدهما في صحبة الآخر، وذلك مما يعين المرء على العبادة. لكن الدكتور نصر لفت انتباهنا كذلك إلى أمور يجب الحذر منها، وقال لنا ممازحًا: «الزواج نوع من السجن، ويتطلب تنازلات باستمرار. إنه يجبرنا على أن نتدارس رغباتنا طوال الوقت، ونتراجع عن بعض تلك الرغبات». لكنه في النهاية تمرين جيد للنفس الإنسانية، كما قال الدكتور نصر، وأفضل أسلوب يحسن للمرء أن يعيش وفقًا له.

وذكّرنا كذلك الدكتور نصر بقوله إن القرآن الكريم يصف الرابطة التي تجمع بين الزوج وزوجته على نحوٍ لطيف جدًّا، فشبهه باللباس في قوله تعالى: (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) (سورة البقرة: الآية 187)، إن هذا التشبيه يفيد معاني التجميل والطمأنينة والحماية، إضافة إلى الائتمان على الأمور الخاصة، وستر العيوب. واسترسل قائلًا: «أنتما شخصان صالحان

وتحبان الله، لكن القرار يعود إليكما في الحسم فيما إذا كان كل منكما مناسبًا للآخر، وتستطيعان معًا أن تُنْجِحا هذا الزواج».

وعلى الرغم من أن الوقت الذي قضيته أنا وألفريد معًا كان قصيرًا جدًّا، فإننا كنّا متحمسين جدًّا لبعضنا إلى بعض، ومتفائلين بما ستحمله لنا الأيام، حتى وإن كان كل منّا يريد أن يتعرف إلى الآخر مدة أطول من الزمن. فإن ذلك كان مستحيلًا؛ نظرًا إلى التباعد الجغرافي بين إقامتي وإقامته. ثم إن كلًّا منّا كان يعرف أن المسلمين نادرًا ما يطيلون مدة تعارفهم قبل أن يتخذوا قرار الزواج. وينمو حب كل منهما للآخر بعد الزواج. وعادة ما يهيّئ الآباء الزيجات، ولا يرى أحد الزوجين الآخر أحيانًا سوى مرة واحدة قبل اتخاذ القرار بالإقدام على هذه الخطوة المهمة. وإذا تقابل المرشحان للزواج مرات عدة، فإن ذلك يكون بحضور محرم. وفي حالات أخرى، يمكن للشخصين أن يتقابلا، ولكن في أماكن عامة وآمنة على مدى مدة محددة من الزمن. وقد ذكر لي شاب بريطاني من أصل باكستاني كيف أنه ترك أمر اختيار زوجته لأمه وأخته بسبب كثرة انشغالاته المهنية، ولأنه كان يثق في حسن اختيارهما. بل إنه لم يرَ هناك حاجة إلى لقاء عروسه التي اختارتاها قبل الزواج. وقد شاء القدر أن ينعم وزوجته بحياة مليئة بالسعادة، ورُزقا بكثير من الأطفال.

أما أنا وألفريد، فكان الأمر مختلفًا؛ لأن كلًّا منّا نشأ وتربى في محيط ثقافي مختلف عن الآخر، وكان لكل منّا تحفظاته. وعلى الرغم من أن الإقدام على هذه الخطوة المهمة بدا لي غريبًا بعض الشيء، فإنه كان أشبه بالمغامرة. وكنت أتوق أيضًا إلى أن أتعرف أكثر إلى زوج المستقبل بعد أن نعقد قراننا. ولما أيقنا أننا قيّمنا الأمر من الجوانب كافة، قررنا أن نتزوج في لندن. واخترنا تاريخًا يوافق زيارة الدكتور نصر للندن حتى يتمكن من

حضور هذه المناسبة، ويشهد على عقد قراننا. وكنت متفائلة بأن أبي وأمي سيسعدهما أني وجدت أخيرًا رجلًا يشاركني في ثقافتي الغربية. وإن كان لا بد من أن يكون زوجي مسلمًا، فإن إتقانه اللغة الألمانية، وتحدّثه إلى أبوّيَّ بها سيكون عاملاً إيجابيًّا جدًّا. كنت متحمسة جدًّا لفكرة الزواج، وحين عدت إلى لندن، أخبرت صديقاتي بالنبأ السعيد، وقد فرحن جميعهن لسماع الخبر، وكن متشوقات لمقابلة ألفريد.

بالموازاة مع ذلك، اتجهت لقراءة كتب عن الإسلام والزواج. فوجدت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يكنّ كل الحب لنسائه؛ وهو حب ألهمه الله تعالى إياه، ويدل على أن «كمال الإنسان مرتبط بالضرورة بحب غيره من الناس، وليس فقط بحب الله»، كما تقول الأكاديمية اليابانية ساشيكو موراتا في كتابها عن العلاقات بين الجنسين في الإسلام. ولما كان من المفترض في المسلمين الرجال أن يقتدوا بالرسول صلى الله عليه وسلم، فإن من واجبهم أن يكنّوا الحب لزوجاتهم تمامًا كما كان الرسول الأكرم يكنّ الحب لزوجاته أمهات المؤمنين، وتمنيت لو أنهم يعون أهمية هذا الجانب من دينهم. وقد جاء في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أدنى أمر قد يقوم به الزوج تجاه زوجته، كأن يضع لقمة طعام في فمها يجزل الله به له الحسنات الكثيرة. وقرأت أيضًا أن المعاشرة بين الزوجين لها أهمية بالغة في الإسلام، وأن الله يثيب عباده عليها، بل إن إمساك الزوج بيد زوجته حسنة. وأن يقبّلها حسنة أكبر، وإن عاشرها كان له أجر أكبر. ويرى المتصوفة في المعاشرة بين الزوجين انعكاسًا لصورة الخلق، وقال ابن عربي إنها فرصة لاختبار أعظم صورة لتجلي الله تعالى. إن المتعة التي تعود بها المعاشرة علينا هبة من الله سبحانه وتعالى، وهي أيضًا لمحة من نعيم الجنة. وبعكس التصور الكاثوليكي للمعاشرة، فإن الهدف منها في إطار الزواج الإسلامي هو المتعة وليس التناسل، فيما يُعدّ الأطفال هبة

ربانية أخرى تنضاف إلى المتعة الجسدية. ويؤكد القرآن الكريم على ضرورة التمهيد للمعاشرة بالتعبير عن العاطفة أولًا، في قوله تعالى: (وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ) (سورة بقرة: الآية 223). كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خاطب الرجال، قائلًا: «لَا يَرْتَمِي أَحَدُكُمْ عَلَى امْرَأَتِهِ كَمَا تَرْتَمِي الْبَهِيمَةُ، اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْجِمَاعِ رَسُولًا». قالوا: «وَمَا هُوَ الرَّسُولُ يَا رَسُولَ الله؟»، قال: «الْقُبْلَةُ وَالْكَلَام».

أذكر أني ذكرت مرة لصديقتي ريبيكا، وهي يهودية الديانة، أن الإسلام يوجب على الرجل أن يُمَكِّنَ زوجته من متعة المعاشرة. كان جوابها عند سماع ذلك: «إن كان الأمر كذلك، فسأعتنق الإسلام!».

لقد دُهشت حين وجدت أن هذه التعاليم تحترم طبيعة كل من الرجل والمرأة على حد سواء. وراقني كثيرًا أن تنحصر المعاشرة في إطار الزواج، وأنها بذلك لا تكون مرتبطة بالحب فقط، بل بالمسؤولية تجاه الزوجة والأطفال كذلك. وأعترف أني كنت فيما سبق أشك في أن تحريم المعاشرة خارج إطار الزواج يكون ناجعًا، وأنه ليس ضروريًّا للتأكد من نجاح الزواج فعلًا، ولم أتمالك إلا أن أفكر في أن الإقدام على الزواج قبل تجريب ما يعنيه التقارب الجسدي مع الجانب الآخر ضرب من التهور. لكني تعلمت أن المرء يستطيع أن يقيّم مدى وجود انسجام وتوافق مع شخص ما دون أن يحتاج إلى التأكد من أمر التقارب الجسدي. لقد أحببت ألفريد؛ لأنه كان شخصًا صالحًا بالنسبة إليّ، وبدا ني أنه يمتثل إلى حد كبير لتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم. وبعد مرور شهرين على رحلتنا إلى سويسرا، جاء ألفريد إلى لندن، حيث تزوجنا أمام الله خلال حفل زواج في زاوية الشيخ أبي بكر في كِنت. وعلى عكس المسيحية، فإن الإسلام ينص على أن الزواج عقد يمكن فسخه. وعلى الرغم من أنه عقد مقدس، لكنه يمكن أن ينتهي

بالطلاق. وقد منح الإسلام لكل من الزوج والزوجة أن يشترطا شروطًا تُدوَّن في العقد. ومن جانبي، طلبت أن ينص العقد على أن رغبة ألفريد مستقبلاً في اتخاذ زوجة ثانية تكون كافية للطلاق، إضافة إلى بعض الشروط الأخرى التي أردت منها أن أطمئن على أحوالي في حال رزقنا بأطفال، وسارت الأمور نحو الأسوأ. صحيح أن كلًّا من القاضي أو المأذون أو العدول في البلدان الإسلامية هو من يعقد القران في حفل الزواج. لكن يمكن لاي مسلم ثقة أن يقوم مقامه بحضور شاهدين اثنين من المسلمين.

لقد زَوَّجَنَا الشيخ أبوبكر، وشهد على عقد القران كل من جاي إيتن والدكتور نصر. وحضرت أمي تلك المناسبة، فيما لم يتمكن أبي وزوجته من الحضور؛ لأنهما كانا في إجازة سبق أن أعدّا لها قبل اتخاذنا قرار الزواج بوقت طويل، لكنه بارك هذا الارتباط، وقال إنه راضٍ عنه. وكانت تلك فرصة طيبة كي تلتقي أمي إخوتي الصوفيين الذين طالما حكيت لها عنهم، وأن ترى الزاوية التي كنت أصلي فيها. وكانوا جميعًا يرتدون لباسًا تقليديًّا، وكان ألفريد قد ابتاع لي جلبابًا جديدًا من خياط مصري، في حين كانت أمي ترتدي تنورة طويلة وسترة، إضافة إلى أنها وضعت غطاءً على رأسها احترامًا للمكان والمناسبة والحضور.

كان الحفل بسيطًا، حيث جلست أنا وألفريد أمام الشيخ، في حين قرأ سيدي رضا قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) (سورة الروم: الآية 21)، ثم تلا الشيخ أبوبكر صيغة عقد القران، بعد أن سأل كلًّا منا إن كان يقبل الزواج من الآخر، وأجاب كل منا «نعم». وألبسَ كلٌّ منّا خاتمًا للآخر، وأصبحنا بذلك زوجًا وزوجة أمام الله تعالى.

ثم ذهبنا بعد ذلك إلى منزل سيدي رضا وزوجته، السيدة نورين،

للاحتفال برفقة بعض فقراء الطريقة. وكانت السيدة نورين قد أعدت بعض السلمون المدخن، ومأكولات خفيفة أخرى، إلى جانب الشامبانيا الخالية من الكحول. أما تتمة الاحتفال، فكانت في مطعمي اللبناني المفضل، حيث انضم إلينا أصدقاء آخرون. وكانت تلك السهرة لطيفة جدًّا، وقد أُعجب الجميع بألفريد، ولا سيما أمي، التي سُرِرْتُ برؤيتها في انسجام تامٍ معه. وقضينا أيامًا جميلة عدة معًا قبل أن تعود أمي إلى هامبورج.

أخذت ألفريد في جولة في أنحاء لندن، حيث تمشينا في أحيائها، وزرنا عددًا من المعارض بها، والتقينا بعضًا من أصدقائنا الصوفيين. وفي يوم الجمعة، لم يشأ ألفريد أن يفوّت صلاة الجمعة في مسجد لندن المركزي (بريجنتس بارك). وأريته المكان الذي عشت فيه سنوات طويلة، واتفقنا على مكان نلتقي فيه بعد أداء الصلاة. وبينما كنت أهمّ بمغادرة المسجد مع النساء الأخريات، كان زوجي ينتظرني لأول مرة مع مئات الأزواج الذين كانوا ينتظرون زوجاتهم خارج المسجد. لقد غمرني ذلك بشعور رائع لم أحسّ به قبل.

كان على ألفريد أن يعود إلى القاهرة بعد أسبوع واحد. وبعد مرور شهرين على ذلك، سافرت أنا إلى القاهرة لقضاء شهر العسل معه هناك. وذهبنا في رحلة بالقارب عبر نهر النيل من الأقصر إلى أسوان، حيث نزلنا في فندق (أولد كاتراكت) العتيق، وهو مكان خلاب يتميز بتصميمه الموريسكي الداخلي الذي يزيد النخيل بظله الوافر من جماله، وأمكننا ذلك من أن نتمتع بإطلالة رائعة على نهر النيل.

وخلال الأيام القليلة التي أعقبت ذلك، عرّفني ألفريد على عالمه الخاص. وصعدنا إلى مقابر وادي الملوك، ووقفت مندهشة أمام عظمة معبد (الكرنك) في مدينة طيبة التي تقع شمال الأقصر، في حين حدثني

ألفريد عن تاريخ الفراعنة وثقافتهم. وقد غمرني منظر بهو الأعمدة الكبير الذي بناه رمسيس الثاني، وعرض الأنوار الذي يقدم في المساء بهيبة كبيرة.

وفي أثناء رحلتنا تلك، واجهنا أول سوء تفاهمٍ بيننا. ذلك أن مرشد الفوج الذي أخذنا في جولة على البازارات السياحية، كان يتوجه بكلامه إليَّ بشكل خاص، فأزعج ذلك ألفريد كثيراً، حتى إنه كان جافًّا في حديثه إليه. كانت نتيجة ذلك أننا غادرنا المكان فجأة في حالة من الغضب، وعدنا إلى القارب قبل الموعد المحدد. لم أفهم سبب تصرفه ذاك، لكني قلت لنفسي ربما كان ذلك مما كان يعنيه الدكتور نصر حين أخبرنا ممازحًا بأن الزواج سجن وفرصة لممارسة فن التفاوض.

حين عدنا إلى القاهرة، صحبني ألفريد إلى منزله الذي يقضي فيه عطلة نهاية الأسبوع في أبوصير، وهو موقع صحراوي لا يبعد عن القاهرة كثيرًا، وقال لي ألفريد: إن ذلك الموقع مرتبط بعبادة أوزوريس. وخلال نزهاتنا في الصحراء، زرنا معبدًا قديمًا يضم كنوزًا أثرية تفوق الخيال، مثل قطع الحجر الضخمة التي كانت تحمل كتابات بالهيروغليفية ومنتشرة في تلك الصحراء. وقضينا في القاهرة أيامًا عدة، لكننا لم نمكث في شقته التي اعترف بأنها لا تصلح للسكنى. فصحبني ألفريد إلى مكتبه، ثم إلى خان الخليلي حيث خاض نيابة عني في مفاوضات لا تنتهي مع الباعة ليحصل على أفضل سعر لما اشتريته. وأخذني كذلك في جولة زرنا فيها زوايا وأضرحة في القاهرة، ولا سيما أضرحة آل البيت.

بعد انقضاء شهر العسل، عدت إلى لندن، وبدأت في تقديم برنامج عبر شبكة الاتصالات [(1)] يُعنى بقضايا البيئة. ومر أكثر من شهرين قبل أن أرى ألفريد مجددًا حين سافرت إلى القاهرة. وعلى الرغم من أننا كنا سعداء بلقائنا مجددًا بعد تلك المدة الطويلة، فإننا شعرنا وكأننا غريبان بعضنا

عن بعض، وكان على كل منا أن يتأقلم مع الآخر مرة أخرى. كان الصيف وقتئذٍ في ذروة حره، وبدأنا نبحث عن شقة في حي الزمالك، وهو حي تقطنه جاليات من دول عدة، يقع في الجزء الشمالي من الجيزة، ويضم عددًا من السفارات. وكان معظم القائمين على الشقق هناك ودوديين، ولا يترددون في تقديم المساعدة لنا. وكانوا جميعًا يرتدون جلابيب طويلة، ولاحظت أيضًا علامة بنية على جباههم. ولما سألت ألفريد عن تلك العلامة، قال: «إنها ظهر على محيّا المرء من كثرة الصلاة». ولكنه أضاف، قائلًا: «إن بعض المصريين يتصنعونها عمدًا».

ولم يمضِ وقت طويل حتى عثرنا على شقة لطيفة، ثم ذهبنا إلى بازار يضم كثيرًا من محال النجارة كي يقوم أحدها بصنع أثاثٍ لشقتنا. وفي ليلة ذلك اليوم، أخذني ألفريد إلى مطعم بسيط متخصص في صنع الكُشَرِي، كان الأفضل في المدينة. وكان في ذلك المطعم تلفاز ذو صوت عالٍ. وكان المطعم لا يقدم سوى الكشري، وهو الطبق القومي المصري الشهي الذي يُعد من المعكرونة وصلصة الطماطم الحارة مع الفلفل، والعدس والأرز والبصل المحمّر.

وذهبنا مساء يوم آخر، إلى حضور نوع غريبٍ ما من العلاج. وكان ألفريد يشتغل على مشروع كتاب عن (الزار)، وهو احتفال قديم يمارس في إطار ما يسميه ألفريد (الإسلام الشعبي)، وترجع أصوله إلى الثقافة الإفريقية والفرعونية. ويقول بعض الأنثربولوجيين المعروفين إن مثل هذا النمط من العلاج، الذي تشرف عليه النساء، يظهر في أوساط يتم فيها إقصاء النساء عن القيام بأدوار قيادية في تأدية الطقوس الدينية الرسمية، في حين يرفض المحافظون مثل هذه الأساليب، ويعدّونها ليست من الإسلام في شيء. لكن ألفريد كان يصر على أن (الزار) لا يتعارض مع أي من تعاليم

الله، ويقول إن الشيخة التي كنّا نهمّ بزيارتها امرأة ورعة تقية، وكان الفضول يدفعني إلى معرفة المزيد عما وصفه ألفريد بأنه «ظاهرة هامشية رائعة من ظواهر الثقافة الإسلامية».

أُقيم (الزار) في منزل الشيخة كريمة التي كانت تتمتع بشخصية جذابة ودافئة. وكانت ترتدي جلبابًا أزرق وغطاء رأس أسود. وكانت عيناها، اللتان زينهما الكحل، معبرتين، وتشعان لطفًا، في حين كان قرطان من الفضة يتدليان من أذنيها، ويظهران من تحت عمامتها. عند وصولنا، خلعنا أحذيتنا، وقادتنا إلى غرفة صغيرة، كانت مضاءة بغازنيون، وحيطانها ذات طلاء أخضر، وكان بها بعض المقاعد البسيطة المسندة إلى الحائط. وكانت مجموعة من المخالب المخيفة معلقة على الحائط بمحاذاة مدخل الغرفة، فيما كانت بالونات وشرائط براقة تتدلى من السقف. ثم جلسنا تحت آية قرآنية كانت مخطوطة على الجدار المقابل لمرضى الشيخة كريمة. وكان جلّ مرضاها سيدات في عقدهن الخامس. وكانت قدرة هذه الشيخة العلاجية مشهورة، ولا سيما فيما يخص الأمراض النفسية، وحالات التلبس بالجن، والمشكلات بالنساء، والخلافات الزوجية. بل إن بعض المؤسسات الصحية كانت ترسل مرضاها إلى الشيخة لاعتقادهم في قدرتها على علاجهم أفضل من الطب النفسي التقليدي.

ثم بدأ (الزار)، فقام رجل مسن يرتدي لباسًا طويلًا وطاقية رأس من الكروشيه الدقيق بإطلاق البخور، وراح ينشر دخان البخور في أرجاء المكان حتى يهيئه لحصة الزار. وتلت بعد ذلك الشيخة آيات من القرآن الكريم، وأدعية أخرى باللغة العربية لتستجلب الأرواح لبدء عملية العلاج. ثم راحت بعد ذلك هي وسيدتان أخريان يضربن على الدفوف، فيما كان رجل آخر يقرع رِقًّا ذا صاجات نحاسية، وآخر يهز آلة تصدر صلصلة عند

تحريكها، وبدؤوا جميعًا في التمايل مع الإيقاع. فأشارت الشيخة كريمة إلى النساء بالنهوض والرقص معها، في حين كانت تنشد أدعية، وهي تضرب على الدف أمام المريض المراد علاجه. ثم قامت النساء بهدوء، وأطلقن لأجسادهن العنان، وصرن يتمايلن، وراحت أذرعهن ترتفع وتهوي حول أجسامهن. وحين دعتني الشيخة إلى المشاركة في (الزار)، ترددت قليلًا في البداية، لكني لم أرفض؛ لأني آخر إنسان يرفض أي فرصة للعلاج. اقتربت الشيخة مني وهي تضرب الدف، بينما كان مساعدوها يضربون على الصاجات باتجاهي، فبدأت أتمايل مع الإيقاع، واستسلمت له مع بقية النساء. وكانت جلسة علاجية تنبض بالحيوية ومن الواقع. وعلمت أن تلك الجلسة كانت مقتصرة على طقس (الزار) دون غيره من الممارسات الأخرى كأن يُضحى بدجاجة أو عنزة أو حيوان آخر، ثم يكون طبخه وأكله على العشاء جزءًا من عملية العلاج. غير أن ما شهدته كان كافيًا بالنسبة إليّ، ثم تناولنا بعد ذلك الشاي، في حين كانت مساعدات الشيخة يتناوبن على التدخين من (الشيشة) نفسها.

وقد استمتعت بالوقت الذي قضيته في القاهرة. وكان ذلك العالم رائعًا، وله سحر خاص وثقافة غنية، وينبض بشحنة إيمانية تفوق التصور، على الرغم من الفوضى العارمة والتلوّث الخانق وحرارة الطقس العالية. وكان على ألفريد أن يستأنف عمله، فيما ذهبت أنا لزيارة بعض الأصدقاء. وقابلت معالجًا متخصصًا في (العلاج المثلي)، كان أستاذي في لندن قد نصحني بزيارته، وذلك كي أنظر في إمكانية العمل معه. لكن مع مرور الأيام، كانت الفوارق التي تفصل بيني وبين ألفريد تبدو تدريجيًّا بجلاء، فتبين لنا أننا شخصان مختلفان جدًّا من حيث مزاج كل واحد منّا وخلفيته الثقافية. وفي حين كنت أنا حيوية ونشيطة، كان هو يجنح إلى الوحدة، ومنغلقًا على ذاته. وكانت حياة كل منّا قبل زواجنا مختلفة تمامًا عن حياة

الآخر، فقد عاش هو عشرين عامًا في القاهرة بصفته رجلًا يحيا في كنف أسرة في انسجام تامٍ مع الثقافة المحلية، في حين كنت أنا فتاة عزبة في مقتبل العمر في قلب عالم الإعلام في لندن. وكان تصور كل منّا عن معنى أن ينعم المرء بحياة هنيئة مختلفًا تمامًا عن تصور الآخر. وباختصار، فقد اتضح أن التخطيط لمستقبلٍ يجمعنا معًا أصعب مما كنت أتصور. واتضح أيضًا أن حضور زوجته السابقة في حياته كان أقوى مما كنت أتخيل. لقد كانا لا يزالان يتشاركان في السيارة نفسها، وكان من الصعب علينا استعمالها متى شئنا. ثم إنها رفضت أن تعطيه مفتاح منزل أبوصير الذي كان يقول إن بإمكاننا قضاء عطلات نهاية الأسبوع فيه. وقد تصرف ألفريد معي بكل نبل، وحاول قصارى جهده أن يسعدني، على الرغم من أني أحسست بالإحباط، بل وبالاضطراب أحيانًا. لقد بدأت أشعر بعدم الأمان بشأن فكرة الانتقال والعيش بصفة دائمة في القاهرة. وعلى الرغم من أني حاولت أن أجد عملًا، فإني لم أرَ لنفسي مستقبلًا مهنيًّا في القاهرة. وبدأت عندها أشكك في إمكانية أن أنعم حقًّا بحياة مطمئنة مع ألفريد في هذا البلد.

صرّحت بمخاوفي تلك لأصدقائي المقربين في لندن، وتبيّن لي أن التخلي عن حياتي بكل تفاصيلها في أوروبا تخليًّا كاملًا ينطوي على مخاطرة كبيرة. وكنت قد أخبرت بوب بنيتي الانتقال للعيش مع ألفريد في القاهرة، فما كان منه إلا أن سألني بصراحة: «وكيف ستتصرفين إن لم تجرِ الأمور كما تخططين لها؟»، لم أكن مطمئنة حيال كل ذلك، وصار القلق يكبر في داخلي شيئًا فشيئًا، ورويت لألفريد تلك الأمور كلها عبر الهاتف. وعلى الرغم من أنه شعر بالحزن لسماعها، فإنه حاول أن يكون متفهمًا، وقدم إلى لندن بعد شهرين خصيصًا ليبحث عن فرصة عمل. لكن شعوري بأن الحياة في القاهرة لا تناسبني، قابله شعور من ألفريد بأنه لا يستطيع أن يعيش في

لندن مدة طويلة من الزمن. وعلى الرغم من صعوبة الأمر، وبعد الخوض في أحاديث مطولة، كان علينا أن نعترف بأن زواجنا لم يكتب له الاستمرار. حيث كان عالم كل واحد منا وشخصيته وظروفه متباينة عن الآخر، وأدركنا أننا سنكون سعداء أكثر إن كنا إخوة في الله. وتعاهدنا على أن نبقى كذلك؛ لأن تلك الأخوة الإيمانية كانت حقيقية.

كنّا حزينين لفشل زواجنا، وكانت نهايته بداية فترة عصيبة في حياتي. ولُـمت نفسي لعدم انتباهي للتفاصيل العملية للزواج كما يجب، مثل البعد الجغرافي الذي كان يفصلنا، ونمط حياة كلّ منّا. وكانت تلك العلاقة مثالًا صارخًا لمقولة «الحب أعمى». لكنني واسيت نفسي بأني على الأقل عشت تجربة سعيدة أحسست فيها بالحب، ثم إني بذلت جهدي كي أحفظ حدود الله.

لكن، كما يقال، فإن الأزمة فرصة كبيرة لا يجب أن تضيع، فقررت ألا أضيعها من دون أن أستفيد منها.

وعدت إلى التركيز على دراسة (العلاج المثلي)، وتعلمت كثيرًا عن الطرق الاستشفائية، ولا سيما كيفية معالجة نفسي. وبفضل (العلاج المثلي)، تمكنت فعلًا من أن أعالج نفسي من حمى القش [(1)] التي لازمتني سنين طويلة. وبدأت أستوعب مدى أهمية التخلص من السلبية، وتجاوز الماضي، والتطلع إلى المستقبل. وتعلمت أيضًا ما هو قانون الجذب أو التفكير الإيجابي، وهو علم يمكنه أن يغير حياة المرء. حيث يقوم هذا القانون على فكرة أن كل شيء في الوجود بما فيه الأفكار والمشاعر، هو في الحقيقة عبارة عن طاقة. ولما كان الشبيه ينجذب إلى شبيهه، فإن الطاقة تجذب الطاقة التي تشبهها، أي إن الطاقة التي نرسلها هي التي ترتد إلينا. وإذا كنا نشع إيجابية، فإننا لا نجعل الآخرين يشعرون بالسعادة فحسب، بل إننا

نجذب الخير إلى حياتنا. وقد فسر جلال الدين الرومي هذا المبدأ، بقوله:

إذا فكرت في الورود، فأنت حديقة من الورود
وإذا فكرت في الشوك، فأنت وقود فرن

وقد وجدت أن معنى قانون الجذب ورد في القرآن الكريم كذلك؛ فعندما ضحكت زوجة سيدنا إبراهيم، بشرها الله بإسحاق ويعقوب عليهما السلام وهي العجوز العقيم (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) (سورة هود: الآية 71). وإن نحن أردنا أن نغير من ظروفنا الخارجية، فإن علينا أولًا أن نغير من دواخلنا ومواقفنا وسلوكنا. وإن صفينا ذبذبات طاقتنا الداخلية، عن طريق الإقلاع عن الخمر أو المخدرات مثلًا، وتَنَاوُلِ وصفات العلاج المثلي، والتأمل أو ذكر الله، فإننا سنبدأ في استجذاب طاقات مغايرة تمامًا إلينا. إن التَّغَيُّرَ الداخلي للأفضل يعود بأثر إيجابي على الآخرين والعالم الخارجي كله. وهو أمر ورد ذكر كذلك في القرآن الكريم صراحة [(2)](#) في قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) (سورة الرعد: الآية 11).

وأردت أن أحسّن من نفسي، وهو أمر تطلب مني أن أتوقف عند حقيقة من أكون في الداخل، عند حياتي وأفكاري وردود أفعالي وأحلامي. فكنت أصلي، وأذكر الله، وأدرس، إلى جانب المواظبة على حضور مجالس الفقراء المتصوفة بانتظام. وأَسِفَ الشيخ أبوبكر جدًّا لفشل زواجٍ عُنيَ بإبرامه بنفسه، لكنه ذكّرني بأن الأمور كلها بيد الله، وتجري وفقًا لمشيئته تعالى، وأن واجبي أصبح أن أركز على رحلة سلوكي طريق الله. وبعد مدة، كنت مستعدة لأن أبايع الشيخ، وأدخل رسميًّا في الطريقة، فيقوم المريد خلال مراسيم هذا الطقش، بمبايعة شيخ الطريقة، وهي في الحقيقة

مبايعة لله تعالى، حيث إنها صورة عن أول بيعة بايع فيها المسلمون الله ورسوله. صلى الله عليه وسلم على الولاء والطاعة: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) (سورة الفتح: الآية 10).

وكان الأمر أكثر جدًّا، ورحت أتساءل عما إذا كنت مستعدة لتحمل وزر مثل هذه المسؤولية. وهل كنت فعلًا مستعدة لأن أتعهد لله بأني سأمتثل أوامره؟ وما الذي قد يحدث إن لم أمتثل لإمرٍ ما، أو ضللت على الطريق إليه تعالى؟

قابلت جاي أيتن مرة أخرى للحديث في هذا الأمر، وصحبني هذه المرة إلى (ذي شاتو)، وهو منزل إنجليزي ريفي أنيق لا يبعد كثيرًا عن بيته في بيورلي. وسبق لنا أن ذهبنا إلى هذا المكان مرات عدة من قبل، وفي كل مرة كنا نطلب (إيتن ميس)، وهي حلوى مصنوعة من المورانغ والفراولة والكريمة. وبينما كنا نتناول العشاء، أكد لي جاي أن كثيرًا من المسلمين الصالحين يشاركونني هواجسي نفسها. واعترفت له بأني كنت متوترة، وتمكّن على عادته من أن يهدّئ من روعي، حين قال لي: «انتابني القلق نفسه قبل أن أدخل الطريقة سنة 1965م. وقبل أن أقدم على تلك الخطوة، وقعت فريسة شكوك كثيرة لم أجد مناصًا من أن أحدث شيخي في شأنها، لقد كنت دائمًا متمردًا بطبعي»، واستطرد قائلًا: «كنت أخشى أن أعصي أمرًا ما لا لسبب إلا لأني أجد صعوبة كبيرة في الامتثال للقواعد».

ثم اعتدل جاي في جلسته، وأخذ صوته نبرة حازمة وهو يروي لي ما نصحه به شيخه، حيث قال له: «إننا لا نصدر الأوامر، ولن نلقي بك في السجن إن لم تمتثل لتعاليم الإسلام وقواعده، إن ذلك بينك وبين الله. إن

كل ما نسألك إياه هو ذكر الله، ولا شيء غير ذلك».

كان كلامه مقنعًا جدًّا، وشعرت براحة كبيرة لسماع قصته قبل دخول الطريقة، ولا سيما أن طباعنا المتمردة كانت متشابهة، غير أني كنت أعلم أني كنت أريد أن أداوم على ذكر الله، وأبذل قصارى جهدي في تأدية بقية العبادات كما يجب أيضًا.

جرى طقس دخولي إلى الطريقة على نحوٍ رسمي بعد بضعة أسابيع من لقائنا ذلك في الزاوية الكبيرة نفسها التي يقام فيها مجلس الذكر بانتظام. فجلس الرجال في حلقة مع الشيخ، في حين اصطفت النساء في الجانب الآخر من الغرفة. وكما جرت العادة بذلك، حين يهم مريد أو مريدة بدخول الطريقة، فإن جميع الحاضرين يبدؤون تلاوة آيات من القرآن الكريم جماعة وبصوت خافت، ومنها قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) (سورة الفتح: الآية 4).

ناداني الشيخ بالاسم الذي أخبرته به حين اعتنقت الإسلام، يُسْرَا، فقمت واتجهت بكل هدوء صوب حلقة الرجال. فدخلت تلك الحلقة، وجلست بين يدي الشيخ. فكانت تلك لحظةً خاصةً جدًّا شعرت فيها بأني محط انتباه الحاضرين كلهم. وراح الشيخ يتلو أدعية في سره، وأخذ بعد برهة يدي بين يديه، ثم راح يدعو من جديد. وحين انتهى، ترك يدي، وقال: «الفاتحة»، فرفع جميع الحاضرين أيديهم، وقرؤوا سورة الفاتحة، ثم دعوا لي سرًّا بعض الوقت. فأخفضت نظري، وأنا أشعر بالعرفان بالجميل لدعوات وأماني الخير التي خصني بها الفقراء يومها. ثم قمت بعد ذلك، ووضعت يدي علي قلبي، وقلت: «السلام عليكم» قبل أن أعود إلى مكاني من دون أن أدير ظهري للشيخ. فكنت بذلك قد دخلت طريقة الشيخ أبي بكر على نحوٍ رسمي.

ومنذ تلك اللحظة، صرت واحدة من فقراء الطريقة، ما يعني أني أستطيع أن أشارك في الحضرة، وكنت سعيدة جدًّا بذلك، على الرغم من أنه كان عليّ أن أتمرن على التنفس في انسجام مع دقات الدف الذي ينظم إيقاع ذكر الصدر. وحين جلست بعد الحضرة، شعرت بتأثير الذكر وهو يتغلغل بداخلي. وعقب المجلس، هنّأني باقي الفقراء، وباركوا لي دخولي الطريقة. وبعد ذلك تحدث أليّ الشيخ على انفراد. وأعطاني صيغة جديدة للذكر، وذكّرني أن الله يكون حاضرًا حين أناديه. إن اسم الله هو سر وخلاصة أسماء الله الحسنى جميعًا. ثم عَهِدَ إليّ الشيخ بأول مهمة على الطريق إلى الله وهي الخلوة. إنه وقت أنقطع خلاله لذكر الله. وكان عليّ أن أقضي ست ساعاتٍ، وحبذا لو كانت في تلك الليلة، لا يشغلني فيها سوى ذكر الله، ولا أحدّث خلالها أحدًا، ولا أقوم بفعل أي شيءٍ آخر؛ وذلك من أجل أن أُعِدَّ روحي لتكون دائمة الاتصال بالله.

وحين عدت إلى البيت، جعلت الإضاءة خافتةً جدًّا، وجلست على الأرض، ودخلت خلوتي. فوجدت صعوبة في التركيز مدة طويلة، فكنت أغير من هيئة جسدي وأنا أذكر الله تعالى. وبعد أن جلست مدة على الأرض أذكر الله تعالى، رحت أذكره وأنا واقفة، ثم وأنا أسير في الغرفة، قبل أن أعود إلى الجلوس مرة أخرى. وبدأ التعب يدب فِيَّ، فاستلقيت برهة على جنبي قبل أن أعود إلى الجلوس مرة أخرى. وطوال ذلك الوقت، لم أفتر عن الذكر أبدًا، وأنا أردّد ألصيغة التي أعطانيها الشيخ، سرًّا أو بصوت خافت. وبدأ الذكر يصدح في داخلي شيئًا فشيئًا، وأصبحت أشعر كأن قلبي بدأ ينبض على إيقاعه، ثم بدأت أفقد تركيزي مجددًا، وأصبحت أحسّ بقلة صبري؛ لأن الوقت كان يمر ببطء شديد. غير أني بدأت أحسّ بهدوءٍ عجيب يتسلل إلى نفسي، عدت بعده لأحسّ بالتعب مرة أخرى. وتناوبَتْ عليّ مشاعر عدة، وكانت تجربة الخلوة اختبارًا لقوة التحمل كذلك. وبعد مضيّ

الساعات الست وكأنها الدهر كله، بزغ الفجر، فآويت إلى فراشي وأنا أشعر بنعاسٍ شديدٍ. لكن كياني كانت تملؤه طمأنينة وسعادة كبيرتان.



____

[(1)] النسيج.

[(1)] عيد الغفران عند اليهود.

[(1)] انظر كتاب: ضرب المرأة وسيلة لحل الخلافات الزوجية! لعبد الحميد أبو سليمان.

[(1)] المزخرفات أو الرسوم.

[(1)] الإنترنت.

[(1)] حساسية الأنف.

[(2)] الآيات من 275 إلى 278 من سورة لبقرة، والآية 130 من سورة آل عمران والآية 161 من سورة النساء.

الفصل الثاني عشر

بداية جديدة

«العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ»

حديث شريف [(1)]

كنت أخطو بثباتٍ على طريقي إلى الله. وبعد أربع سنوات من الدراسة، حصلت على شهادة الاختصاص في (العلاج المثلي)، وأصبح لديّ عيادة أمارس فيها تخصصي. لكنني لم أستطع أن أسترزق من عملي الجديد. وكنت قد استأجرت غرفة صغيرة بالقرب من منزلي، لكن المرضى كانوا يأتون متأخرين جدًّا عن مواعيدهم أولا يأتون أصلًا، أو يأخذون وقتًا أطول مما يجب. وعلى صعيد آخر، اضطررت إلى التوقف عن تقديم برنامجي المتلفز عبر الإنترنت، الذي استمتعت به كثيرًا، بعد أن أُغلقت بوابة الموقع الإلكترونية؛ لأن طريقة تقديم البرنامج كان متقدمًا كثيرًا عن وقته. لكنني كنت بالموازاة مع ذلك أقدم مؤتمرات وحفلات عشاء كبرى في أوروبا، غير أنها لم تكن منتظمة، ولم توفر لي دخلًا ثابتًا يضمن لي دفع أقساط شراء منزلي. ولم تفلح أيضًا جهودي في إيجاد عمل في محطة التلفزة الألمانية، وكنت أرى أن فرصي في أن أنجح في العمل فيها كبيرة جدًّا. وقد نصحني بعض الوكلاء في ألمانيا ألا آتي على ذكر أي شيء عن ديني؛ حتى لا يؤثر ذلك في فرصي في العثور على عمل. وحين طُلِبَ مِنِّي أن أكتب كتابًا عن تجاربي، أجمع الوكلاء كلهم على الرأي نفسه: «إن علمت أي شركة أو محطة تلفزة أنك مسلمة، فلن يعطيك أحد أي فرصة عمل. إن الارتباط بهذا الدين له حمولة سلبية». ولما كنت في حاجة ماسة إلى العمل، فإني لزمت الصمت، ولم أتحدث عن ديني في ألمانيا، مع أني لم أطق ذلك كلما رأيت تغطية إعلامية عدائية للإسلام، ولا يعكس محتواها حقيقة هذا

الدين. لقد كان ذلك الجو محبِطًا جدًّا، وعزّز من قراري أن أستمر بالعيش في لندن.

وبالموازاة مع ذلك، ساعدني حضور المجالس بانتظام، والحديث إلى الفقراء على أن أنظر إلى هذه المحن من وجهة نظر إيمانية، وأن أكون صبورة، وأتكل على الله بدلًا من أن أستسلم للقلق والحزن. فتعودت على حقيقة أن حياتي لا يوجد بها أي أمان أو استقرار، واكتشفت أن الشعور بالأمان حالة يشعر بها المرء في ذهنه وكيانه. وحين يبدو كل شيء أمامي مظلمًا على الرغم من محاولاتي لأن أصلح من مجرى الأمور، كنت أتضرع إلى الله بالصلاة والدعاء، واكتسبت شيئًا فشيئًا القدرة على المضي قدمًا. وقد ورد في كتاب (الفتح الرباني والفيض الرحماني للجيلاني)، قوله: «من أراد الله به خيرًا أغلق أبواب الخلق في وجهه، وقطع عطاءهم عنه حتى يرده بذلك إليه يقيمه من الغدر [(1)] إلى الشط، أيْ يقيمه من لا شيء إلى شيء» [(2)]. ولما كانت كثرة الدعاء تقربنا من الله، فإن الدعاء والتوجه إلى الله تعالى فضل في حد ذاته. وكثيرًا ما كنت أفكر في أنه لولا أني مسلمة، لما علمت كيف أتعامل مع كل تلك الضغوط التي كنت أعيش تحتها.

فحاولت أن أداوم على الذكر، وبدأت ألاحظ أني كلما رحت أذكر الله، كنت أستجيب بوعيي وروحي لصيغ الذكر التي كنت أستعملها، فتحملني بعيدًا عن دواعي قلقي وحزني الخارجية إلى حيث أنعم بطمأنينة داخلية عجيبة. وكنت أحيانًا أشعر بإحساس جميل، كما لو أنها موجة من السعادة تنبع من داخلي. وفي الأيام الجيدة، كنت أشعر بالذكر وهو يصدح في جسدي، أينما ذهبت ومهما كان العمل الذي كنت أقوم به، من المشي الحديقة العمومية إلى الجلوس إلى حاسوبي، أو وأنا أجثوساجدة أصلي. ويقال إن الذكر يعطي نكهة مختلفة للحياة، إنها نكهة الجنة.

وسرعان ما أصبحت أكثر صلابة أمام القلق، وأشعر بثقة أكبر، وأصبحت قدرتي أكبر على الصبر والتحكم في نفسي حين يزعجني أحدهم؛ على الأقل في معظم الأحيان. وأذكر أن أمي امتدحتني يومًا لأني كنت أكثر تأدبًا، وتصرفت بلياقة أكبر مع الناس. ولا بد من أنني كنت لا أُطاق في السابق. لكن أفضل ما في الأمر هو أن ذلك التغيير لم يحدث رغم أنفي، أو أنه كان يتطلب جهدًا جهيدًا، بل كان أمرًا سعيت له، وأردته أن يحدث. صحيح أني كنت أمر بلحظات أفقد فيها تلك السكينة التي اكتسبتها، وهو أمر آلمني أكثر من ذي قبل؛ لأني شعرت بأن ذلك كان في الواقع خطوة إلى الوراء.

كانت تأديتي الفرائض، وتلاوة الأوراد اليومية، وذكر الله باستمرار في منزلي تجري على ما يرام. لكني حينها أتممت ست سنوات وأنا مسلمة، وبدأت الرغبةُ في زيارة بيت الله الحرام في مكة المكرمة، وقبر النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة تكبر في قلبي. وأحسست كذلك بأن تلك الزيارة ستكون تطهيرًا روحيًّا ضروريًّا لي. فعلى الرغم من أني كنت أترجى أن تكون ذنوبي السابقة قد غُفرت باعتناقي الإسلام. لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله. فإنني كنت أخشى من أني راكمت ذنوبًا أخرى بعد ذلك. وكان شيخنا يزور هاتين البقعتين المباركتين كل سنة برفقة بعض الفقراء، وقد تعهدت في يناير 2001 بأن أنضم إليهم، وأذهب في أول رحلة لي إلى مكة.

أن العمرة تُؤدَّى في أي وقت من السنة. بخلاف الحج الذي يُؤدّى في وقت محدد من التأريخ الهجري. وكانت بداية الرحلة إلى القاهرة للمشاركة في الاجتماع السنوي لأتباع الطريقة. حيث قابلت ألفريد قبل سنة من ذلك. وبدت لي الطريق من مطار القاهرة إلى المدينة، التي حفّتنا فيها المآثر التاريخية والمساجد والقباب المزينة والمآذن مألوفةً، وأطلقت في ذهني شريط الذكريات التي صارت تتسارع في مخيلتي. وخلال مقامي في

القاهرة. التقيت ألفريد مرات عدة. وعلى الرغم من أن الأمر كان مؤلـمًا أحيانًا، فإنه أعانني على مداواة جراحي النفسية. وتحدثنا بكل صراحة عن الأمور التي أودت بزواجنا إلى الفشل، وساعد ذلك كلًّا منا على الشعور بارتياح كبير. ولأني كنت أحس بأني كنت لا أزال أحمل في نفسي بعض الحزن والأسى، قررت أن أشارك مع ألفريد في جلسة (زار)، لكن ليس بصفتي متفرجة هذه المرة، بل بصفتي مريضة تسعى للعلاج. وكان الدكتور نصر مهتمًّا أيضًا بالتعرف إلى هذا النوع من العلاج، شأنه في ذلك شأن السيدة بهية، وهي فقيرة من الولايات المتحدة الأمريكية، كانت هي الأخرى في حاجة إلى العلاج بعد أن انهار زواجها الذي دام 25 عامًا. وذهبنا جميعًا إلى منزل الشيخة كريمة التي سعدت برؤيتنا، ورحبت بنا. مرت جلسة (الزار) تمامًا كما في المرة السابقة. وشاركت أنا والسيدة بهية في الرقص على وقع الدفوف والصاجات، فشعرت ببعض الراحة والخفة بعد ذلك. ولأني قصدتها من أجل العلاج هذه المرة، طلبت مني الشيخة كرمة أن أترك عندها شيئًا من متعلقاتي، وذلك ما فعلت. وجلست معي مدة وهي تنظر في مشكلتي قبل أن تقول لي إنها ستواصل الدعاء لي. ووصفت لي علاجًا، وهو أن أطعم ثلاث قطط لبنًا وخبزًا في اليوم التالي. كان ذلك سهلًا جدًّا، لأن القطط تسرح في شوارع القاهرة القديمة بالملايين. ولا أستطيع أن أجزم بنجاعة تلك الوصفة، لكن الأكيد هو أن بعض تلك القطط حظيت بوجبة جيدة ذلك اليوم.

شُغلت بعد ذلك بمرافقة جاي إيتن في أرجاء المدينة بعد أن أقنعته بأن يصحبنا في هذه الرحلة، ويحتفل معنا بعيد ميلاده الثمانين في القاهرة. وكان قد مضى وقت طويل على آخر زيارة له للعالم العربي الذي أثر كثيرًا فيه خلال مرحلة شبابه. لقد كان حضوره مجالس الذكر في القاهرة تجربة رائعة بالنسبة إليه، إضافة إلى عودته إلى بلد مسلم بعد كل تلك السنين.

غير أنه كان قد صُدم من حجم التغيير الذي لحق المدينة خلال الخمسين سنة التي غاب فيها عنها. وما كاد يتعرف معالم القاهرة التي كان يعرفها جيدًا في الماضي. ووجد أن ساكنة [(1)] هذه المدينة أصبحت تفوق تعداد ساكنة مصر كلها، وأن العمران الذي كان يحيط بضواحي القاهرة التي كان يعرفها، قد زحف حتى مشارف الأهرامات التي يذكر أنها كانت محاطة بالصحراء. وقد ذُهل حين وجد أن مطعم (كنتاكي) للدجاج المشوي فتح محلًّا له مباشرة قبالة تمثال أبي الهول. لكنه كان سعيدًا بأن يعود إلى هنا مجددًا، على الرغم من كل تلك التغيرات.

واحتفالًا بعيد ميلاد جاي، أعددت عشاءً مع بعض الفقراء من لندن، والقاهرة والولايات المتحدة الأمريكية في مطعم هندي بفندق مينا هاوس الأنيق، المحاذي للأهرامات. وأحببت أن أعبّر له عن شكري لدعمه لي طوال تلك السنين التي عرفته خلالها. وقام جاي بإمتاعنا بسرعة بديهته وسحره المعهود. وبعد أن تناولنا وجبة شهية جدًّا، استمعنا إلى موسيقا هندية كلاسيكية. وكم أسعدني أن أراه مستمتعًا بوقته في صحبة الأصدقاء.

بعد مدة قصيرة، كان عليّ أن أستعد لرحلة العمرة. فذهبت إلى خان الخليلي مع السيدة سفينة، التي كانت تستعد هي الأخرى للذهاب إلى العمرة كذلك، حيث بحثنا عن أقمشة بيضاء، واخترت قماشًا أبيض بتطريزات لامعة. وطلبت من خياط أن يصنع لي منها جلبابًا، لأتخذه لباس إحرام. وخلال مناسك الحج والعمرة، على المرأة أن تستر جسدها كله عدا الوجه والكفين. وابتعنا أيضًا بعض أغطية الرأس القطنية منها الأبيض والأسود كي نرتديها تحت الثوب الذي نغطي به الرأس. أما إحرام الرجال، فهو قطعتان من القماش الأبيض غير المخيط يشده حزام يوضع على الخصر، وأصبح في أيامنا هذه يشد ببعض الدبابيس. أما اللون الأبيض،

فيشترك في لبسه الرجال والنساء. وتحدث الشيخ أبوبكر إلى من عزم من الفقراء على أداء العمرة، وأخبرهم بأن اللون الأبيض يرمز إلى الأخوة والمساواة أمام الله تعالى.

وأخبرنا كذلك بأنه عندما يقبل الله عزّ وجل العمرة، فإنه يمحو ذنوبنا كلها، ونعود بذلك إلى حالة الفطرة التي خلقنا الله عزّ وجلّ عليها. ولأن الحج يعني ميلادًا جديدًا للإنسان أيضًا، حسبتها فرصة جيدة أختار فيها لنفسي اسمًا جديدًا، ولم يكن ذلك أمرًا نصحني به الشيخ أبوبكر، لكنه ترك لي حرية الاختيار بين أن أتخذ اسمًا جديدًا، أو أحتفظ باسم يسرا. ومنذ أن اعتنقت الإسلام وأنا أستخدم هذا الاسم مع أصدقائي المسلمين فقط، لكنه لم يكن يعجبني كثيرًا، وكان مرتبطًا في مخيلتي بتجاربي السيئة مع المجموعة الصوفية الأولى التي كنت أنتمي إليها.

وبينما كان الاسم يعني اليسر والسهولة، فإن حياتي على الصعيدين الشخصي والمهني كانت تفتقر إلى هذين المعنيين على وجه التحديد. وربما كانت مشاعري دليلًا على أني ما زلت في حاجة إلى العمل بجد أكبر كي أتغلب على طبيعتي التي تتميز بقلة الصبر، وأن ذلك الاسم قد أمدّني ببعض العون على الرغم من أني لم أدرك ذلك. لقد تعاطفت مع المتحدث في قصيدة (آثار أقدام في الرمال) الذي كان يشعر أحيان بأن الله تخلى عنه. وقد صادفت تلك القصيدة خلال زيارتي لمزار مريم في مدينة نوك في أثناء قضائي عطلة بإيرلندا، بصحبة صديقتي داني قبل سنوات عدة. وقد أقلّتنا الطائرة على متن خطوط (ريانير)، وقررنا زيارة هذا الموقع الذي يُعد محجّ الرومان الكاثوليك. ولم نكن ندري حينها أن زيارتنا تصادف ذكرى تجلي السيدة مريم العذراء في ذلك الموقع، فوجدنا أنفسنا وسط آلاف الزائرين الذين تجمعوا حول المقام ليستمدوا منه البركة والشفاء.

كان قلبي يهتز لقصيدة (آثار أقدام في الرمال)، لماري ستيفنسون، كلما قرأتها:

ذات ليلة حلمت بأني أسير على الشاطئ مع الرب.

وإذا بكثير من مشاهد حياتي تنبعث في السماء.

وفي كل مشهد لمحت آثار أقدام على الرمال.

أحيانًا كان هناك مجموعتان من آثار الأقدام،

ومرة أخرى كان هناك مجموعة واحدة فقط لتلك الآثار.

أزعجني ذلك لأني لاحظت أنه خلال الأوقات المظلمة

من حياتي، حين كنت أعاني الكرب أو الألم

أو الهزيمة، كنت أرى فقط مجموعة واحدة من آثار الأقدام، لذلك قلت للرب،

«لقد وعدتني يا ربي، بأني إن اتبعتك، فستسير دائمًا إلى جانبي.

لكني لاحظت أنه في أحلك أوقات

حياتي لم يكن هناك سوى مجموعة واحدة من آثار الأقدام على الرمال.

لماذا، حين كنت في أمس الحاجة إليك، لم تكن إلى جانبي؟»

أجاب الرب:

«يا طفلتي الغالية، أنا أحبك، ولن أتخلى عنك يومًا في الأوقات العصيبة، حين كنت تعانين

حين كنت ترين مجموعة واحدة فقط من آثار الأقدام،

اعلمي أني كنت حينها أحملك».

بينما كنت في القاهرة، وقبل أن ننطلق إلى العمرة، تحدثت إلى الدكتور نصر الذي أسف كثيرًا لأن زواجي لم يكتب له النجاح، ونصحني بأن أطلب الغفران من الله خلال رحلة إلى بيت الله الحرام.

ولكي أفتتح بداية حياتي الجديدة، اخترت لنفسي اسم (زهرة)، الذي يحمل كذلك معنى الإشراق. فسُرَّ الدكتور نصر باختياري، وقال لي: «إن ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم، فاطمة الزهراء، قدوة لنساء المسلمين». وأضاف بأنها كانت قريبة جدًّا من أبيها، وكانت شديدة الإيمان، وتدافع عن حقوق الفقراء والمستضعفين من الناس.

أحببت معاني اسم زهرة، وشعرت بأن السيدة فاطمة الزهراء مثال عليَّ أن أقتدي به. وبذلك أصبح لي، إضافة إلى اسميَّ المسيحيين، اسمان مسلمان أيضًا. مكتبة الرمحي أحمد

وبعد أن حسمت أمر الاسم، سافرت مع السيدة سفينة وفقيرة أخرى إلى مدينة جدة في المملكة العربية السعودية، وقرأنا خلال الرحلة في الطائرة عن تاريخ مكة المكرمة، ومعاني مناسك العمرة. وكان وصولنا إلى الأرض التي شهدت ميلاد الإسلام محفوفًا بالصعاب. بداية، فإن المرأة العزبة التي لا ترافقها عائلتها لا يمكنها أن تدخل هذا البلد بكل سهولة، فهي تحتاج إلى محرم، وهو أمر لم يكن متيسرًا لنا. والبديل عن هذا الشرط هو أن تكون المرأة جزءًا من فوج رسمي قادم للعمرة، ومحرم المرأة ضمن ذلك الوفد، أو أن تأتي تلبية لدعوة من مواطن سعودي الجنسية، يكفلها، أو أن تكون تلك الدعوة مدعمة بتأشيرة عمل. ولأني كنت في تلك الرحلة أرافق مجموعة أتباع الطريقة التي كنت أنتمي إليها، والشيخ أبوبكر هو محرمي، اخترت أن أدبر دعوة لي من حامل جنسية سعودي. وكان سعودي من أحد معارف الدكتورة أمينة قد عرض أن يكتب رسالة رسمية بشمأني

للسلطات السعودية. وكان المفترض أن تصل تلك الرسالة إلى سلطات الهجرة، لكنني فوجئت لدى وصولي إلى المطار أنهم لم يتسلموها، ولم يسمح لي بدخول الأراضي السعودية. فحاولت أن أشرح موقفي بكل الوسائل، لكن محاولاتي باءت بالفشل. والأسوأ من ذلك هو أني قلت للمسؤولين إن سائقًا يفترض أن يأتي ليستقبلني في المطار، وأن بإمكانه أن يكفلني. لكن السائق لم يكن هناك، ولم تفلح محاولاتي في الاتصال به. ووسط هذه الظروف اختفت السيدتان اللتان قدمتا معي، فما من أحد يحب أن يقضي ليلة كاملة في المطار، ولا سيما أنه كان عليهما أن يدبرا أمر حجز غرف في فندق أيضًا. كنت وحيدة في مطار جدة، وشعرت بالضياع، ولم أدرِ ماذا أفعل.

وفجأة، رأيت أحد المسؤولين في المطار، وكان ذا لحية طويلة، يحمل حقيبتي ويختفي في اتجاه صالة المغادرين. فقفزت من مقعدي، وأسرعت باتجاهه، وطلبت منه أن يعيد إليّ حقيبتي، وقلت له: إني أتيت لأداء العمرة. وخضنا في نقاش حادٍّ، كان كل منا أشد تشبثًا بموقفه من الآخر، وكان الأمر متعبًا جدًّا. وفي نهاية المطاف، تمكّن مسؤولو الهجرة من الاتصال بالسائق الذي كان في طريقه إلى بيته. وما حدث هو أنه التبس عليه اسمي، وظنّ أني لم آتِ على متن تلك الرحلة. وقد أعدّ لإرسال رسالة صديق الدكتورة أمينة في الرياض بالفاكس [(1)] إلى أحد المطاعم في جدة، وقدم إلى المطار بعد انتظار وهو يحمل الرسالة في يده. وسمح لي أخيرًا بدخول المملكة العربية السعودية. فوصلت إلى الفندق بعد ساعة من التأخير، وما إن لامس رأسي الوسادة، حتى رحت في نوم عميق.

وفي اليوم التالي، كان أول ما قمت به هو أني سألت السائق أن يأخذني في جولة في أنحاء المدينة، ويرشدني إلى مكان أشتري منه عباءة محلية؛ كي

لا ألفت الأنظار بلباسي المختلف. وكان هناك أنواع مختلفة من العباءات، لكنها كانت كلها سوداء اللون، وطويلة الأكمام، وتلامس الأرض من طولها. فابتعت عباءة خفيفة، وتُقفل من الأمام مع غطاء رأس أنيق. وكانت سفينة قد أخبرتني بأن بإمكاني أن أجد في المملكة العربية السعودية أفخم أنواع الأوشحة السوداء التي تُستخدم لتغطية الرأس، لذا، فإن مقتنياتي كانت استثمارًا جيدًا. فارتديت ثيابي البسيطة الجديدة، وانطلقت في جولة في أرجاء المدينة. وخلال تجوالي مع السائق في السيارة، أشار إلى بعض المنازل التقليدية المزينة بالمقرنصات الخشبية [(1)] وإلى متحف تاريخ مكة والمدينة وجدة، قبل أن يريني ساحة كبيرة وخالية. وأخبرني بأن أحكام الإعدام تنفذ في تلك الساحة، فشعرت بالدم يتجمد في عروقي، وسألته أن يتابع مسيره فورًا.

أزعجتني رؤية تلك الساحة كثيرًا، فأجريت لاحقًا بحثًا عن عقوبة الإعدام. ووجدت أنه، بحسب منظمة العفو الدولية، فإن 58 دولة حول العالم تطبق هذه العقوبة، منها الصين والهند وإندونيسيا والولايات المتحدة، وأن السعودية وإيران هما الدولتان الوحيدتان اللتان تطبقانها أمام الملأ. وينادي كثير من العلماء، مثل طارق رمضان، بإعادة التفكير في تفسير، نصوص الشريعة، ويطالبون بتعليق تطبيق العقوبات البدنية، والرجم والقتل. وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد طالب القضاة منذ أكثر من 1400 سنة بأن ينظروا في كل مسوغات العفو والصلح قبل تطبيق الأحكام، وأن ينحازوا إلى الرحمة قبل إجراء العقوبة. لذا، يجب أن يعكس الفقه الإسلامي طبيعة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي وصفه ربه في كتابه العزيز: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (سورة التوبة: الآية 128).

وقد نحيّتُ تلك الأفكار جانبًا، في حين كنت أستعد لموعدي القادم. وكثيرًا ما فكرت في خطة لإنتاج سلسلة من مستحضرات التجميل المستخرجة من مصادر طبيعية. ويقال إن أفضل زيوت العطور في العالم تأتي من السعودية. وقد أدّت العطور، على مر التاريخ، دورًا مهمًّا في مجتمع الجزيرة العربية، فهي تستعمل في البيوت أو لتعطير الملابس والأبدان. وقد أحببت تلك الزيوت العطرية الطبيعية وقدراتها العلاجية منذ أول زيارة قمت بها إلى باكستان، ثم إني كنت أداعب فكرة إطلاق مشروع يكون في تخصصه صلة بين الشرق الغرب.

وتمكنت من أن أُعِدّ لقاءين مع اثنين من أشهر تجار العطور في جدة، كان أولهما يملك محلًّا فاخرًا للعطور في شارع جانبي، رُصّت به قناني بلا عدد تضم عطورًا صنعت من الزيوت الطبيعية. وكان من زبائن هذا التاجر أمراء وأميرات عرب يقصدونه للحصول على عطور يصنعها خصيصًا لكل واحد منهم، أو يضعون لديه مواصفات لصنع عطور خاصة. فجلست أراقبه وهو يصب زيتًا من قنينة كبيرة كان يمسكها عاليًا، في أخرى صغيرة جدًّا من دون أن تنسكب منها قطرة واحدة على الأرض. ولم أفوت تلك الفرصة دون أن آخذ عينات من بعض العطور العجيبة التي لم يسبق لي أن صادفتها من قبل. وكانت بعض تلك العطور القوية ممنوعة في الغرب، مثل المسك الأصلي والعنبر الأصلي لأسباب تتعلق بحقوق الحيوانات. كما أن العود، وهو من أشهر العطور العربية، يصعب العثور عليه في الغرب. وقد أراني ذلك التاجر قطعة عود طولها نحو خمسين سنتيمترًا، تساوي عشرة آلاف دولار أمريكي. ويتم عادة حرق قطع العود، الذي تتميز رائحته بأنها غنية، وتشبه إلى حد ما رائحة الأرض، في المناسبات الخاصة. وكان الشيخ أبوبكر يحرق بعض رقائق العود في مشعل خاص، فتعم رائحته الزاوية كلها.

اشتريت مقدارًا ضئيلًا من رقائق العود، في حين أعطاني صاحب المحل بعض العينات من عطور أخرى هدية، ومنها الورد الطائفي، وهو يتميز برائحة ورد ويطلق عليه (ملك الورود). وهو، كما يدل عليه اسمه. ينمو في مدينة الطائف الجبلية، جنوب مكة، ذات الهواء النقي جدًّا. وهذا ما يمنح الورد الطائفي ذلك العبق الاستثنائي. وتمتاز مدينة الطائف بمكانة خاصة لدى المسلمين، فإليها لجأ النبي صلى الله عليه وسلم حين أُجبر على الخروج من مكة، غير أن أهلها شتموه، وقذفوه بالحجارة. وحين جُرح عليه السلام، وسالت الدماء من قدميه الشريفتين، ناجى ربه قائلًا: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، إلى من تكلني، إلى عدو يتجهمني، أو إلى قريب ملكته أمري، إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك» (1).

عاد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة بعد ذلك وهو مليء بالحزن والأسى، ورجا ربه أن يخرج من أصلاب الذين آذوه من يوحد الله، ولا يشرك به شيئًا. إن هذا الدعاء الذي دعا به عليه الصلاة والسلام في مواجهة الكراهية والعنف، يعلمنا ألا نرد على معاملة من يؤذينا بالقدر نفسه من الغضب ومحاولة الثأر لما أصابنا، بل بالصبر والأمل والصفح، إضافة إلى الدعاء لمن يعادينا ولأبنائهم بالهداية والصلاح. إن الورد الطائفي يذكّرني بهذه القصة، وتذكّرني رائحته أيضًا بكرم الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم.

شكرت صاحب المحل لكرمه، وغادرت محمَّلةً بمقتنياتي وهداياي

الثمينة متوجهة نحو المتجر الثاني. وشاءت المصادفة أن أصادف هناك بائعًا ليس عربيًا، وقد استقبلني بإشارة جافة فهمت منها أنه يطلب مني أن أغطي وجهي. تملكّني عندها شعور كبير بالغضب لأني بذلت قصارى جهدي كي أحترم تقاليد البلد الذي كنت فيه، وارتديت في سبيل ذلك عباءة جديدة وغطائَيْ رأس لكي أضمن ألّا تظهر شعرة واحدة من شعري. وما كان مني حينها إلا أن قلت له: «لا يأمر القرآن المرأة أن تغطي وجهها؛ لَم لا تهتم بالله عوضًا عن الاهتمام بهندامي؟»، فغادر البائع عندها من فوره، وعاد ومعه مدير المحل، الذي كان يؤمن أن الزبون ملك، ودائمًا على صواب، وهي مقولة يؤمن بها المتدينون وغير المتدينين في هذا العالم. فتجاهل المدير البائع، وصار يساعدني بكل تفانٍ واحترام، وأضاف عينات عدة أخرى إلى ذلك الكنز الذي كنت أحمله.

وفي المساء، دعانا الشيخ إلى الاجتماع به استعدادًا للرحلة المرتقبة إلى مكة المكرمة. وجلسنا إلى الشيخ في منزل بودو راش، وهو مهندس ألماني كان يعمل في السعودية، ويملك شقة في مكة وبيتًا في المدينة المنورة. وكنت أتطلع إلى سماع حديث الشيخ. فاستهل كلامه بالحديث عن بيت الله الحرام الذي كنّا نهم بزيارته، قائلاً: «إن الكعبة المكرمة أقدم مكان للعبادة وأقدم محج في العالم. وقبل أربعة آلاف عام، قام سيدنا إبراهيم، أبو الأنبياء، هو وولده إسماعيل عليهما السلام، بإعادة بناء البيت الذي كان قد بناه سيدنا آدم عليه السلام. والحج الذي أدوا شعائره امتثالًا لأمر الله تعالى لا يزال يُؤدّى إلى يومنا هذا».

وكان الشيخ يقوم بعمرة كل سنة، وتكون إحدى محطات جولته تأخذه إلى كل من مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة وباكستان وماليزيا. لقد كنا نقدر فيه تلك الطاقة وتلك الإرادة لسفر إلى أقاصي الأرض، على الرغم من

كبر سنه، كي يزور مريديه حول العالم. وبسطنا في تلك الليلة ثوبًا على الأرض، ووضعنا فوقه وجبة عشاء شهية كان قد جلبها أحد الفقراء السعوديين، وبقينا نتحدث حتى وقت متأخر من الليل. ولكن قبل أن نشرع في تناول الطعام، تناول الشيخ أبوبكر سبحته، ففعلنا مثله. وقاد الشيخ مجلسًا مصغرًا لذكر الله. وشعرت فجأة في أثناء الذكر، بالإحساس نفسه بالحب الذي ينبع من قلبي الذي كنت قد شعرت به في أماكن مقدسة مختلفة. وصار ذلك الإحساس يزداد حدة وجمالًا لدرجة أني تمنيت لو أنَّا لم نتوقف عن الذكر. وأحسست بأن ذلك الشعور كان أقوى مما خبرته من قبل، وتساءلت ما إذا كانت تلك الطاقة نابعة من مكة المكرمة والمدينة المنورة، وعبق القرب منهما هو الذي لمس فؤادي.

وفي اليوم التالي، انطلقنا في وقت الغروب، وكنا على بُعد مسيرة ساعة بالسيارة من مكة المكرمة. كان الجو لطيفًا، وتعمدنا أن نسافر ليلاً حتى نتجنب حرّ النهار. وقبل أن ننطلق، كنا قد تطهرنا الطهارة الكبرى بأن اغتسلنا، وارتديت ملابس الإحرام، وصليت ركعتين، ونويت أداء العمرة. ثم نزلت بعد ذلك إلى بهو الفندق لأقابل اثنين من الفقراء اللذين ينتميان إلى الطريقة. وقد شعرنا بأن التقوى بادية علينا ونحن بملابس الإحرام، من دون أي زينة أو مساحيق، وكأننا ثلاث راهبات. والتقطنا بعض الصور لنؤرخ لتلك اللحظة، وعزمنا على أن نتصرف في الأيام القادمة ما يقتضيه لباسنا ومظهرنا من الأدب وحسن السلوك.

حين يكون الحجاج أو المعتمرون في حالة الإحرام، يحرم عليهم الجماع والصيد والتزين وإزالة شعر البدن، ما يعني أن الرجال لا يستطيعون الحلاقة. ويفترض أيضًا أن يتحاشوا الأخلاق الذميمة كالكبرياء والغضب والحقد والضغينة، وأن يتصرفوا بتواضع جميل يرضى الله تعالى عنه.

وكنّا نلبي طوال الرحلة، قائلين: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لا شَرِيْكَ لَكَ». وبعد نحو 45 دقيقة، وصلنا إلى مشارف مكة المكرمة، ووجدنا في استقبالنا صرحًا أخضر كبيرًا جدًّا، كان عبارة عن مجسم لحامل مصحف، وعليه مجسم لمصحف مفتوح. وكانت تلك العلامة تشير. إلى المحل الذي يُحظَر على غير المسلمين اجتيازه. وهي تبعد عن الكعبة المشرفة اثنين وعشرين كيلومترًا، ومنها يبدأ الحرم المكي. ويضم الحرم المدينة التي تحيط بالبيت الحرام والأرض كلها التي تحوطها بكيلومترات عدة في الاتجاهات كافة. وتضمن حرمة ذلك المكان الأمان والحماية لكل من دخله، بما في ذلك الحيوانات والنباتات. إنها أرض الطمأنينة حيث يحرم العنف والعدوان.

ومررنا ونحن في السيارة ببعض المباني الحديثة جدًّا التي كانت أشبه بناطحات سحاب، وفنادق متناهية في العلوّ لم تكن توحي بشيء من الروحانية التي يتميز بها هذا البلد. وتوقفنا خارج فناء رخامي أبيض يؤدي إلى مبنى ضخم من الرخام الرمادي، وتعلوه مآذن عدة شاهقة. لقد كنا أمام المسجد الحرام، الذي تتوسطه الكعبة المشرفة. إن هذا المسجد شاسع على نحوٍ مذهل، حيث يغطي ثلاث مائة وستة وخمسين ألف متر مربع، ويتكون من ثلاثة طوابق يمكن التنقل بينها عن طريق سلالم عادية، وأخرى كهربائية. وخلال موسم الحج وشهر رمضان المبارك، يمكن للمسجد أن يتسع لمليوني مسلم يصلون في مكان واحد في آن واحد. ويتسع أيضًا الحزام الخارجي المحيط بالمسجد، وهو مغطى كذلك بالرخام، ويُنظَّف مرات عدة في اليوم الواحد، لمليون إضافي من المصلين. وحيثما وجهت ناظريَّ، كنت أشاهد حجّاجًا أتوا من أنحاء العالم شتى لتأدية العمرة، وكان جُلّهم يرتدي زيه الأبيض. خلعنا نعالنا عند أحد مداخل المسجد، وسرنا حفاةً بين أعمدة المسجد والحجاج المتشحين بالبياض حتى وصلنا إلى

الساحة التي تتوسطه. وحين رأيت الكعبة لأول مرة، وجمت أمامها. ووقفت هناك برهة من الزمن أتلو أدعية، وأنا أحدق في خشوع إلى هذا المكعب الأسود الضخم الذي ينتصب فوق الرخام الأبيض المصقول، في حين يطوف به الحجاج، وهم يدعون ويبتهلون إلى العزيز القدير.

وتُعدّ الكعبة أقدم بيت أقيم للناس للعبادة. ويعتقد أن أبا البشرية، آدم عليه السلام، بناه على هيئة عرش الرحمن. وأن سفينة نوح عليه السلام طافت به سبع مرات، قبل أن يعيد إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، بناء البيت على الأساسات القديمة نفسها. وواصلنا السير إلى أن انضممنا إلى الحجيج الذين كانوا يطوفون بالبيت العتيق في حركة دائرية بعكس عقارب الساعة. ولأن وقت أداء عمرتنا صادف ما بين شهر رمضان وموسم الحج، لم يكن المسجد الحرام مكتظًّا بالطائفين، فتمكنا من الاقتراب من الكعبة ولمسها. وكانت حيطان الكعبة، المبنية من حجر الجرانيت، مكسوّة برداء أسود اللون، طُرّزت به آيات من القرآن الكرم تطريزًا بارزًا، مغطى بأسلاك الفضة المطلية بالذهب. وتُغيَّر الكسوة مرة كل سنة. ويشير كل ركن من أركان الكعبة بشكل تقريبي إلى الاتجاهات الأربعة للبوصلة. أما الحجر الأسود الشهير، فيقع في الركن الشرقي، قرب باب الكعبة. وأخبرنا الشيخ بأن الحجر الأسود حجر من الجنة، أعطاه الملكُ جبريل لإبراهيم عليهما السلام. وروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الحجر كان أشد بياضًا من اللبن، قبل أن تُسَوِّده خطايا بني آدم. وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أيضًا أنه كان يقبل هذا الحجر عند الطواف بالكعبة، ويحاول الحجاج الاقتداء به في ذلك، وقال لنا الشيخ: «إن ذلك التقبيل يرمز إلى تجديد الميثاق الذي أخذه الله من ظهر آدم وذريته». ومن لم يستطع أن يصل إلى الحجر الأسود، يشر إليه بيده اليمنى في كل مرة يقابله فيها خلال الطواف بالبيت. وكان من حسن حظّي أني

تمكنت من أن أصل إليه مرات عدة، وبدا لي أنه يشع من الداخل. ولامست شفتاي الحجر لتقبيله، فشعرت كأن الحجر قبّلني هو كذلك. وبينما رحت أتم طوافي، لاحظت رجالًا أقوياء البنية يُحنون رؤوسهم، ويضعون أيديهم على باب الكعبة، ويبكون في خشوع مثل الأطفال. ولاحظت أيضًا عبق مسكٍ طيب، يقال إنها كانت الرائحة التي يفضلها الرسول صلى الله عليه وسلم. وكان ذلك العطر ينبعث من جدران الكعبة المعطرة التي تُعطَّر بزيت المسك، وتُعطَّر كذلك الجدران الداخلية بالزيت نفسه، كما تعلوها آيات من القرآن الكريم، وما من شيء داخل الكعبة عدا العطر والآيات. وفي عهد النبي عليه الصلاة والسلام، كان ينتصب بها عدد كبير من الأصنام التي كان يعبدها مشركو مكة قبل مجيء الإسلام. وقد أمر الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم بتطهيرها من الأصنام كلها، وأن يجعلها قبلة المسلمين بعد أن كانوا يصلون باتجاه بيت المقدس. فأصبحت الكعبة منذ ذلك العهد المركز الروحي لرسالة الإسلام وقلبه النابض. ويصلي باتجاهها اليوم نحو مليار ونصف مليار مسلم خمس مرات في اليوم. وطهر الرسول صلى الله عليه وسلم الكعبة من الآلهة المزيفة، وعلينا نحن أيضًا أن نطهر قلوبنا من الأوهام، وكل ما نتعلق به بشدة من دون الله، حتى يملأها حب الله دون غيره.

وضعت كلتا يديّ على الكعبة، وأنا أتضرع إلى الله تعالى، وأدعو لنفسي ولأسرتي وأصدقائي، بأن يرفع عنّا المعاناة، ويحل السلام في العالم. وكانت مناجاة صادقة مع الخالق سبحانه وتعالى. وبعد أن طلبت كل ما جال في خاطري في تلك اللحظات، رفعت يدي من على حائط الكعبة، فصارت جموع الحجاج تجرفني معها باتجاه حركة الطواف. فأحسست بالسعادة وبحضور كلي لوجداني وعقلي، وأني كنت أعني تمامًا كل كلمة قلتها خلال دعواتي تلك. وبينما كنت أطوف بالكعبة، تحققت بأن الله تعالى هو مركز

الكون بحق. وبعد أن طفت حولها سبعة أشواط، صلينا ركعتين خلف مقام إبراهيم عليه السلام، حيث إن أثر قدم هذا النبي الشريفة معروض داخل نصب مذهّب. وقد أخبرنا القرآن الكريم بأن هذا النبي الكريم وقف بذلك المكان خلال عملية بناء الأجزاء العلوية من الكعبة، وسيدنا إسماعيل يجلس على كتفيه. وقد دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعل هذا المكان أرض طمأنينة وأمان.

وعلى حافة ساحة المسجد الحرام، تقع بئر زمزم، والعين التي انفجرت منها المياه في عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام. وبحسب الرواية الإسلامية، لم يرسل سيدنا إبراهيم عليه السلام زوجته الثانية، السعيدة هاجر، وابنها الرضيع إسماعيل عليه السلام إلى الصحراء وحيدين، كما ورد في العهد القديم، بل رافقهما إلى هناك. غير أن الله سبحانه وتعالى أمره بعد ذلك أن يترك زوجته ورضيعها مع قليل من الماء والتمر في الوادي القاحل. وحين اشتد العطش بهما، بدأ الرضيع يبكي بكاءً شديدًا، فصارت حينها هاجر تهرول بين الصفا والمروة في حرّ الصحراء الشديد، وهي تبحث عن ماءٍ لرضيعها أو أي وسيلة للمساعدة، وهي تدعو وتتضرع إلى ربها. وبعد أن قطعت عددًا من الأشواط بين الجبلين، ظهر لها مَلَكٌ ضرب بجناحيه الأرض، فانفجر منه ماء يقال إنه يتدفق مباشرة من الجنة. وحين عاد إبراهيم عليه السلام، بنى بيت الله في موضع هذه البئر. وكانت تلك هي قصة بداية أمر مكة المكرمة.

سرنا بعد ذلك على سنّة السيدة هاجر بأن هرولنا سبع مرات بين الصفا والمروة. ويرمز ذلك السعي إلى سعينا في هذه الدنيا في أي أمر نود الحصول عليه أو تحقيقه، ورحمة الله التي تفوق ما نصبو إليه بكثير. واليوم، تسقي بئر زمزم ملايين الحجاج بمائها. وتبلغ المسافة بين الصفا

والمروة 400 متر، قطعها معنا الشيخ أبوبكر بكل حيوية، على الرغم من أن سنّه قد جاوز التسعين. وبعد انتهاء شعائر العمرة، قصّت إحدى رفيقاتي في تلك الرحلة خصلة من شعري بمقص أحضرته خصيصًا لهذ الغرض للتحلل من الإحرام. أما الرجال، فيقوم كثير منهم بحلق رؤوسهم إشارة لإقبالهم على بداية جديدة.

وبعد أن أنهينا مناسك العمرة، توجهنا إلى المدينة المنورة التي هاجر إليها الرسول صلى الله عليه وسلم سنة 622 للميلاد، بعد أن ترك مكة المكرمة. وعاش عليه الصلاة والسلام فيها إلى أن توفي بعد عشر سنوات. وكان هو وأتباعه قد تعرضوا للاضطهاد من قِبل أكابر قبيلة قريش، الذين أنكروا رسالته التوحيدية، وعقدوا عزمهم على أن يقتلوه. وفي المقابل، استقبله أهل المدينة هو ومن هاجر معه، واحتفوا بهم. وتمكّن في المدينة من أن يوحد قبائل متناحرة، ويؤاخي بينها، ويبني أول مجتمع إسلامي. وقد عاد عليه الصلاة والسلام إلى مكة بعد ثماني سنوات من هجرته منها، وطهر الكعبة من الأصنام، لكنه لم ينتقم ممن آذوه في السابق. وكان من نتائج رحمته بهم أن جلّ سكان مكة دخلوا الإسلام.

وقد أطلق العرب لفظ (المنوّرة) على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه دفن بها، ولأن بركته لا تزال تحفها إلى اليوم. وقد لاحظت أن اللطف يطبع هذه المدينة وأهلها.

وبمجرد وصولنا إلى المدينة المنورة، ذهبنا لتناول وجبة الغداء في بيت المهندس بودو راش، الذي يعرف كذلك بلقب (مهندس الله)؛ وذلك نظرًا إلى المشروعات التي نفذها في بعض الأماكن المقدسة في المملكة العربية السعودية. وكان يَعُدّ من بين عملائه أسرة ابن لادن ذات النفوذ الواسع، من خلال مجموعة ابن لادن السعودية، وهي من أكبر شركات المقاولات في

العالم. وقد استعانت هذه الشركة بالمهندس راش لبناء مظلات عملاقة في فناء المسجد النبوي لتحمي زوّاره من أشعة الشمس الحارقة. وصمّم إضافة إلى ذلك مخيمًا مترامي الأطراف، لنصب خيام مصنوعة من قماش مقاوم للاشتعال لتلافي الحرائق في وادي مِنى خلال موسم الحج. ولسوء الحظ، فقد اضطر بودو راش إلى أن يغادر قبل وصولنا، لكني قابلته بعد مدة قصيرة من ذلك في لندن.

كان الغداء رائعًا، وكم كان جميلًا أيضًا أن أستمتع بصحبة إخوتي في الإيمان، ومع الشيخ الذي تحدث بحب كبير عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم. لقد كان بحق مرجعًا ثقة فيما يخص السيرة النبوية بعد أن ألّف كتابه عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، معتمدًا على المصادر المتقدمة والأقرب إلى حقبته التاريخية. وبعد ذلك، ارتدينا أفضل جلابيبنا لأننا كنا نهم بزيارة النبي صلى الله عليه وسلم. وكان سائق في انتظارنا بعد الغداء مباشرة ليقلّ بسيارته مجموعة السيدات لزيارة قبر الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، لأن زيارة النساء له عليه السلام وقتها محدود، ما بين الساعة الواحدة والثالثة ظهرًا. وقد لاحت لنا من على مسافة بعيدة القبة الخضراء للمسجد النبوي الشريف الذي كان مطليًّا باللون بالأبيض، وهي العلامة التي تدل على مكان قبر الحبيب صلى الله عليه وسلم. ويقع القبر الشريف في البيت الذي كان يسكنه مع زوجه عائشة رضي الله عنها. ويتوسط قبره الشريف عليه السلام قبري صاحبيه الخليفة الأول للمسلمين، أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والخليفة الثاني، عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ولا يمكن الوصول إلى أي من تلك القبور؛ لأنها مغطاة بقماش أسود، ومسيّجة بأبواب معدنية ذهبية، نُقشت عليها آيات من القرآن الكريم. أما المكان المجاور لقبر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فقد تُرك شاغرًا حتى يُدفن فيه سيدنا عيسى عليه السلام،

الذي يعتقد المسلمون أنه سيعود يومًا ما.

ووقفنا في خشوع خلف تلك الحواجز المعدنية، ورفعنا أكف الضراعة إلى الله تعالى، وقرأنا سورة الفاتحة، ودعونا للنبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه رضي الله عنهما. عندها شعرت بإحساس الأنس الدافئ واللطيف نفسه الذي شعرت به عند المداومة على الذكر، وهو يمتلك عليّ جوارحي. وددت لو أمكنني أن أبقى مدة أطول، لكن إحدى النساء القائمات على المكان، وكانت ترتدي عباءة سوداء، طلبت منّا أن نتحرك من أمام المقام الشريف. وصلينا صلاة العصر سرًّا قبل أن ننضم إلى سائر أعضاء مجموعتنا للقيام بجولة على.خُطا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم. لقد ملأتني تلك الجولة، التي كنا نسير فيها على الأرض نفسها التي وطِئَتها قدما الرسول الأكرم وأتباعه، حيث عاشوا وصلوا، بالسعادة والتبجيل. ثم زرنا عددًا من المعالم الإسلامية التي لها وزنها في تاريخ الإسلام، مثل جبل أحد حيث دارت سنة 625م المعركة التي هُزم فيها المسلمون على يد كفار مكة، ونجا فيها النبي صلى الله عليه وسلم فيها بحياته.

كانت تلك حقبة مليئة بالابتلاءات والمحن. وزرنا كذلك مسجد القبلتين، الذي شهد تحول القبلة من القدس إلى مكة المكرمة. لقد مرّ على هذا المسجد وقت كان يضم فيه محرابين. لكن خلال أعمال الصيانة الأخيرة، أُزيل المحراب الموجَّه نحو بيت المقدس، وتم الإبقاء فقط على المحراب المتجه نحو مكة المكرمة، وهو أمر مؤسف حقًّا.

ثم عدنا إلى المسجد النبوي حيث أدينا صلاة المغرب. وكنت أحب سماع صوت الأذان. ثم راح الإمام يتلو في تخشع آيات الذكر الحكيم بعذوبة كان يرتفع فيها صوته وينخفض، حركت مشاعري وإذا بالدموع تنهمر من عيني. لقد كانت تلك أحلى صلاة صليتها في حياتي.

ومع دنوّ رحلتنا من نهايتها، عاد بعض أفراد مجموعتنا إلى مكة المكرمة في زيارة قصيرة لأداء عمرة أخرى. ولما كنّا في أرض الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، فقد كنا حريصين على أن نستمد أقصى ما أمكننا من بركة المكان. وقد نزلنا هذه المرة، في أحد فنادق الخمسة نجوم، الشاهقة الارتفاع، وكان قد أُقيم في السنين الأخيرة مباشرة قبالة المسجد الحرام. وقد حكى لنا الشيخ أبوبكر كيف أن الحرم كان أكبر وأعلى مكان في مكة المكرمة فيما مضى، بل وكان من السهل تمييزه؛ لأنه كان منعزلًا عن باقي المباني. وعلى الرغم من أن تلك الأيام ولّت إلى غير رجعة، فإني كنت سعيدة لتمكّني من زيارة الكعبة بكل سهولة ويسر، وأن أشاهد أفواج المعتمرين وهم يطوفون بالكعبة من نافذة غرفتي بالفندق.

وطفنا هذه المرة، في وقت متأخر من الليل، وكانت ساحة الحرم شبه خالية من الحجاج وهادئة هدوءًا لافتًا. إضافة إلى أن لليل سحرًا زاد من الشحنة الإيمانية التي أحسسنا بها. وبقينا نذكر الله حتى سمعنا صوت المؤذن يشق هدوء وصفاء ذلك الصبح. فصلينا صلاة الفجر جماعةً، واستقبلنا معًا الفجر الجديد.

بداية جديدة تلك التي كنت آمل أن تكون في انتظاري حال عودتي إلى لندن.



---

(1) رواه البخاري.

(1) غُدُر: جمع غدير.

(2)الفتح الرباني والفيض الرحماني، المجلس العاشر.

(1) سكان.

(1) الناسخ.

(1) زخارف تشبه خلايا النحل.

(1) الطبراني.

الفصل الثالث عشر

إسلام القلب

(فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (سورة الحج: الآية 46).

مرت بضعة شهور، وفي ربيع عام 2001م، اتصل بي بودو راش يسألني إن كنت ما أزال عزبة. فاجأني سؤاله، واستغربته كثيرًا، لكنه أخبرني بأنه يعرف شخصًا ما، ويعتقد أنه قد يكون الزوج المناسب لي. إن مثل هذه الطريقة في عقد الزيجات ليست غريبة في أوساط المسلمين. وقد أخبرتني روبي وفا بأن الأمهات والعمّات والخالات بمجرد أن يبلغ الأبناء سن الخامسة عشرة تقريبًا، يصبح شغلهن الشاغل هو محاولة التقريب بين الشباب والشبان وتزويجهم. وفي الواقع كنت شاهدة على محاولات روبي إيجاد شباب مناسبين لقريباتها. أما بالنسبة إليّ، فإن تجربة التعارف الوحيدة التي خضتها كانت تلك التي تزوجت فيها ألفريد، ولم يكتب لها النجاح. وعلى الرغم من المفاجأة، فإني كنت أشعر بالامتنان لبودو لأنه فكر فيَّ واتصل بي. وكان اسم الشخص الذي اقترح تقديمي له بَكر بن لادن. ولم يعنِ لي ذلك الاسم شيئًا وقتها. وقال بودو إن بكرًا ينحدر من عائلة سعودية تمتلك شركة كبيرة للبناء والتشييد، وأنه أحد أفضل عملائه. فسمحت له بأن يعطي رقم هاتفي لبَكر، ولم يمضِ وقت طويل حتى اتصل بي.

وكان يتحدث الإنجليزية بكل بطلاقة، ويمتلك روحًا مرحة. وتكلمنا مدة عبر الهاتف وعلى سبيل الممازحة، قال لي: «خمني كم عدد إخوتي وأخواتي. يمكنك أن تعطي عددًا ينقص أو يفوق الرقم الحقيقي بعشرة، وإن أجبت إجابة صحيحة، فستربحين رحلة حول العالم». بدا بَكر متأكدًا من أني لن

أفلح في تخميني، ومنحني ثلاث محاولات، فقلت له: «15؟ 28؟ 40؟» فلم تصب أي من تخميناتي، وقال لى بكل فخر: «لديّ 54 أخًا وأختًا وكلهم من أب واحد». قلت حينها في نفسي: «يا لها من بداية!».

وتحدثنا بعد ذلك مرات عدة عبر الهاتف، وقررنا أن نلتقي على وجبة عشاء، خلال زيارة بَكر اللاحقة إلى لندن. فوجدت أنه يتمتع بشخصية لطيفة ودودة. وقال على العشاء أنه على قدر قليل من التدين. وكان بَكر قد تلقى تعليمه في الغرب، وكان واضحًا أنه شخصية منغمسة في الحياة، بكل ما للكلمة من معنى. وأخبرني بأنه يسافر على متن طائرة خاصة، وأنه يزور كوت دازور الفرنسي وماربيا الإسبانية، ويقضي بهما وقتًا بانتظام. وفي معرض حديثه عن أسرته، ذكر شيئًا عن أخ نصف شقيق له وصفه بالغموض، وقال: «إن العائلة تبرأت منه».

كان بَكر محببًا ومسليًّا، لكن أعتقد أن كلًّا منَّا أدرك أننا لاانناسب بعضنا بعضًا. ومنذ ذلك الحين لم أتلق منه اتصالًا سوى بعد شهور عدة، حين اقترح عليّ فكرة برنامج متلفز كان يودّ. أن نطورها معًا. وكانت فكرته عبارة عن دليل سفر دولي يهم مدنًا عالمية وثقافاتها. فراقني عرضه كثيرًا، وتحمست لفكرة المشاركة في إنتاج البرنامج وتقديمه. وطلب مني أن أساعده على الاتصال بشركة متخصصةفي الشبكات والإنتاج، وقد أفلحت في ذلك. وتمكنت من أن أتصل بمنتج كان يعمل سابقًا في قناة (بي بي سي)، وتفاوضنا مع شركة إنتاج سبق لها أن أنجزت برامج لقناة (ديسكافري). فقابلت المدير المسؤول، وعرضت عليه الفكرة، وأخبرته بأن التمويل اللازم لإنجاز ذلك البرنامج متاح. فأبان عن تحمسه للفكرة، وبدا واثقًا من إمكانية إخراجها إلى الوجود.

وفي ذلك اليوم نفسه، الذي صادف بداية سبتمبر من عام 2001م،

سافرت إلى لوس أنجلوس لزيارة صديقي القديم ستيف فارجنولي. وكان قد اكتشف قبل سنتين أنه مصاب بالسرطان، ولم يكن عمره حينها يتجاوز الخمسين، وبدا كأن المرض قد تمكّن منه، وأنه قد يموت في أي لحظة. ومن المؤسف أن برينس، الذي كان ستيف من اكتشفه ويحبه من كل قلبه وأصبح أنجح مغني روك يشتغل لفائدته، استغنى عن خدماته وهو في أوج نجاحه المهني. وقد فكرت غير مرة في أن ستيف لم يتمكن يومًا من أن يتعافى من صدمة تخلي برينس عنه.

وشأني شأن كثير من أصدقاء ستيف، أردت أن أراه كي أودعه. وكان مارك بوث، الذي كان وراء تعييني مقدمة برامج في قناة إم تي ڤي، والملحن جوزيف فيتاريللي، وسينايد أوكونرن وجانيت ستريت بورتر، وبعض صديقات ستيف السابقات، وأرما أندون، الذي كان يسكن معه حينها في نيويورك من بين الذين كانوا يترددون باستمرار على جناحه في أعلى طابق من فندق دبليو. لقد بذلنا ما في وسعنا كي نجعل من أيامه الأخيرة أيامًا هنيئة وسعيدة، على الرغم من تدهور حالته الصحية. وكم آلمني أن أراه في تلك الحالة المزرية. وقد تمكنت من قضاء بعض الوقت معه، على الرغم من أني لم أتمكن من توديعه كما يجب؛ لأن صديقاته القديمات، ولسبب كنت أجهله تمامًا. صعّين عليّ مهمة زيارته. لقد كنت أقدر ستيف وأحترمه لما كان يتحلى به من رقيّ وشجاعة، بل إنه كان يطلق النكات ويضحك في الأيام الأخيرة من حياته. وقبل أن يسلم الروح بوقت قصير، تمكّنّا من أن نحتفل بعيد ميلاده، وأحضرنا كعكة كبيرة لهذا الغرض.

وفي أحد الأيام، وبينما كنت في جناح ستيف، بدأت الغرفة كلها في الاهتزاز فجأة، وتحرك الشمعدان من مكانه من اليمين إلى اليسار. ولم

يكن قد سبق لي أن مررت بتجربة الزلازل من قبل، وانتابني خوف كبير في بداية الأمر، لكنني سرعان ما استجمعت شجاعتي، وانتظرت مرور تلك الهزة، متّكلة في ذلك على ثقتي في أن ذلك الفندق، مثل غيره من ناطحات السحاب كلها في لوس أنجلوس، قد بُني بطريقة تمكّنه من امتصاص صدمة الزلازل. وقد سمعنا لاحقًا في الأخبار أن ذلك الزلزال كان بقوة 4,5 على مقياس رختر، وأن مركزه يوجد على بعد أقل من ميل واحد من الفندق.

وبين زياراتي العسيرة لستيف، كنت أذهب في نزهات مع صديقي مايكل رادفورد، الذي سمح لي بأن أمكث في منزله، بين جبال سانتا مونيكا، وكثيرًا ما كنت أتوقف عند متجر الكتب الروحية الشهير، (بودي تري)، الذي كان يقع في شارع ميلروز. وكانت رفوف هذا المتجر تعج بكثير من الكتب والأقراص المضغوطة، وأقراص (دي في دي) المتعلقة بجلال الدين الرومي. وابتعت (هدية حب: موسيقى مستلهمة من أشعار الرومي في الحب) من تقديم ديباك تشوبرا وعدد من المشاهير الآخرين، مثل جولدي هاون ومادونا ومارتن شين وديمي مور، إضافة إلى خمس نسخ من طبعة فاخرة جدًّا من ترجمة لأشعار الرومي، عمل على تقديمها في شكل فني رائق الفنان الأميركي مايكل جرين. فأردت أن أقدم تلك النسخ هدايا لأصدقائي فا وروبي وجيم ومايك، وأحتفظ بواحدة لنفسي.

لقد أصبح التصوف، ولا سيما الفيلسوف والشاعر الصوفي الفارسي جلال الدين الرومي، يلقى إقبالًا كبيرًا في الولايات المتحدة. وقد استخدمت دونا كاران قراءات لشعر الرومي خلفية موسيقية في أحد عروض أزيائها، فيما كشف أوليفرستون أنه يريد أن يعمل على فيلم يتناول حياة الرومي. وقد أصبح شعره الأكثر مبيعًا في الولايات المتحدة الأمريكية. ولم تتفوق على شهرة أعمال الرومي سوى شهرة (حركة الكابالا). وقبل أن أغادر ذلك

المتجر أخذت معي صحيفة متخصصة في القضايا الروحية. وكم سُررت بعد أن قرأت بعض محتوياتها، حين اكتشفت أن البعد الباطني لليهودية يشبه إلى حد بعيد تعاليم التصوف، حيث يُركِّز على العبادة المخلصة للواحد الأحد وعلى الإيمان بطريق القلب وغير ذلك من التعاليم الميتافيزيقية والوجودية. بل إن ذلك التشابه يطال بعض المصطلحات في اللغتين العبرية والعربية، مثل كلمة (شالوم) وتعني السلام، و(نيفيش) وتعني النفس أو الأنا العليا التي يجب على الإنسان أن يتعلم كيف يكبح جماحها. وتجد تعاليم (الكابالا) والتصوف أصلها في ملة أبينا إبراهيم عليه السلام، على أن الأولى انبثقت من صلب اليهودية، والثانية هي كنه الإسلام، وكلاهما يخرجان من سراج إلهي واحد.

وكانت (الكابالا) موضة حقيقية في هوليوود خلال زيارتي تلك. وفي إحدى حفلات عالم صناعة السينما التي دعاني إليها مايك، كان الضيوف كلهم يتحدثون عنها، إلى جانب حديثهم عن أفلام ناجحة، مثل أفلام جولدي هاون وبين ستيلر. فسُررت حين وجدت أن المشهد السينمائي وعالم صناعة الترفيه بوجه عام، كانا يبديان اهتمامًا بالأمور الروحية، وتمنيت ألا يكون الأمر مجرد موضة عابرة وحسب.

وفي ليلة العاشر من سبتمبر، كنت مدعوّ إلى حفل عشاء أنا وبعض الأصدقاء، ومنهم المنتجة جوليا فيردين التي عملت مع مايك في فيلم بصحبة صديقتها إليزابيث هيرلي، والتي لم أكن قد التقيتها منذ مدة. وعندما قابلتها بعد مدة قصيرة من انتقالي إلى لندن، كانت إليزابيث ممثلة مبتدئة حصلت حديثًا على أول دور لها، وكان في مسلسل متلفز بريطاني. وكانت حينها صديقة لكارولين، شريكتي في السكن، ولتوني جيمس، من مجموعة (سيج سيج سبوتنيك). وكنا نخرج كلنا معًا بين

الفينة والأخرى، في حين كان صديقها هيوج، الذي كان أكثر جدية بطبعه، يمكث في البيت لينكب على دراسة الأدوار التي كانت تسند إليه. وكنت معجبة بشخصية هيرلي، فقد كانت خفيفة الظل، ذكية ومتواضعة. وكنت قد مكثت عندها أسبوعًا كاملًا بعد حفل توزيع جوائز إم تي ڤي الذي أقيم في لوس أنجلوس عام 1992م. ويحتفظ كلٌّ منّا بذكريات سعيدة عن نزهاتنا التي كنّا نأخذ فيها كلبها للتجول في تلال سانتا مونيكا، إضافة إلى خروجنا للسهر مساءً. كانت إليزابيث تحت دعوة الأصدقاء للعشاء وعلى وجبة الغذاء الإنجليزية التقليدية يوم الأحد، وكانت عبارة عن الدجاج المحمر في الفرن الذي يقدم مع البطاطس المهروسة وكميات سخية من الزبدة، وكانت تقول دائمًا: «طعم الأكل يكون أفضل بكثير إذا أُضيف إليه كثير من الزبدة». وأخبرتني يومًا ما بأن هيوج يهوى رياضة الكريكت، وسيسرّه كثيرًا مقابلة عِمران. وقد عرّفت الرجلين بعضهما على بعض فعلًا سنة 1993م، حين صحبت إليزابيث هيوج معها لحفلة عيد ميلادي التي نظمها ستيف. ولم تمضِ سوى شهور قليلة حتى عانق هيوج النجومية بفضل فيلمه أربع زيجات وجنازة [(1)] لكن حين حضرت إليزابيث، أوليز كما يحلو للكثيرين مناداتها، العرض الأول لذلك الفيلم في لندن، خطفت الأضواء بفستان مثير ارتدته لتلك المناسبة، من تصميم فريساتشي، حيث كان أسود، ضيقًا، ولا تربط بين أجزائه سوى بعض الدبابيس الكبيرة. لقد أفلحت في تطبيق مقولة: «ما قلّ من اللباس يفي بالغرض»، وتمكنت من أن تنطلق وتلتحق بكوكبة المشاهير على الساحة العالمية. إن مهارات التسويق قد تحدث المعجزات إن هي اتفقت مع جمال الشكل والشخصية الجذابة. وعندما التقيت ليز بعد أن فقدت الاتصال بها طوال سبع سنوات، أسعدنا أن نحظى بفرصة الالتقاء مجددًا واستدراك ما فاتنا من الوقت. فأخبرتني بأنها كانت في ذلك الوقت تحاول الإقلاع عن التدخين،

وكانت تشعر. بالتوتر بسبب ذلك. وسألتني عن المدة التي سأمكث خلالها هناك، فوجدتني أجيبها قائلة: «غدًا؛ لكني لا أدري إن كنت سأذهب فعلًا». قلت ذلك على الرغم من أنه لم يكن بالإمكان تغيير تذكرة تلك الرحلة، أو استرداد ثمنها.

في صباح اليوم التالي، استيقظت على صوت أحدهم، وهو يصرخ بأعلى صوته: «بلادنا في حالة حرب!» كان ذلك في وقت مبكر جدًّا بالنسبة إليّ، فاستدرت على الجانب الآخر، وواصلت نومي. وخلال تناولنا وجبة الإفطار، طلبت من مايك أن يشغل التلفاز، فأُصبنا جميعنا بالذهول، ونحن نشاهد أعمدة الدخان تتصاعد مخترقة سماء نيويورك بعد الهجوم الذي تعرض له مركز التجارة العالمي. لم نصدق أعيننا، وبقينا مشدودين إلى الشاشة طوال ساعات عدة. فأدركت حينها أن رحلة العودة باتت مستحيلة بعد أن أُغلق مطار لوس أنجلوس، ولم يسمح لأي طائرة بالتحليق منه طوال أسبوع تقريبًا.

وشعرت بغاية الأسى لما جرى. وبينما كنا نتجول خلال الجبال، رُحنا نتحدث عن هذا الحادث المريع، ونتساءل: كيف يمكن لمسلمين أن يرتكبوا مثل هذه الجريمة الفظيعة؟ فحاولت حينها أن أوضح أن هذه الهجمات لا تمت إلى الإسلام بتاتًا، وعلى الرغم من أني كنت واثقة من أن مايك استوعب ما كنت أقوله، فإنه كان في حاجة إلى أن ينفّس عن غضبه. وكنت مستاءة كثيرًا أنا كذلك، وكوني مسلمةً جعل الموقف أكثر تعقيدًا. وفي لمح البصر، لاحظت أن كثيرًا من الناس بدؤوا يتصرفون بعداءٍ بادٍ تجاهي. وأذكر أني زرت ستيف في يوم تلك الاعتداءات، وكان الناس جميعًا يشاهدون الصور المريعة على التلفاز. وفجأة، قالت إحدى رفيقات ستيف السابقات: «إذا سمعت كلمة الله مرة أخرى، فستجدين نفسك في خارج

هذه الغرفة!»، لم أكن قد قلت أي شيء يذكر. ثم قالت إحدى صديقاته الأمريكيات: «علينا أن نقصف الشرق الأوسط كله، ونتخلص من الإرهابيين كلهم بضربة واحدة». وقد وافقها الرأي ثلة من الحضور، فشعرت كأن بعضًا من ذلك الغضب والعداء الذي كان المتحدثون يعبرون عنه كان موجهًا لي شخصيًا.

كان كل شيء يبدو كأنه ضرب من الخيال، ولا أظن أن ستيف كان يدرك ما وقع، فقد كان في ذلك الوقت تحت تأثير جرعات كبيرة من المورفين، إلى درجة أنه كان يخيل له أحيانًا أنه بصدد إخراج فيديو كليب. وكان أرما يهز رأسه، وهو يردد مرارًا وتكرارًا: «كان من المفترض أن أركب تلك الطائرة، لا أصدق ذلك. إن احتضار ستيف هو الذي أنقذ حياتي»، فسالته: «ماذا تقصد بذلك؟»، فكان جوابه: «لقد ابتعت تذكرة للذهاب في رحلة من بوسطن إلى لوس أنجلوس، وطائرة تلك الرحلة نفسها هي التي اختطفت، واستخدمت لضرب البرجين. ولوا لم أتلقَّ اتصالًا من جوفيتاريللي قال لي فيه إني أن أردت أن أرى ستيف حيًّا، فيحسن بي أن آتي إلى هنا يوم الإثنين وليس الثلاثاء - لأنه قد لا يعيش حتى الثلاثاء - لكنت في عداد الموتى الآن.» وكان أرما في حالة صدمة حقيقية، بل كنّا كلنا مصدومين.

حاول أرما أن يخفف من حدة التوتر الذي خيّم على جناح ستيف. فصحبني لتناول الغداء. وقال لي إنه استاء لما تعرضت له في جناح ستيف، وقال أيضًا: «إن معاملتهن لك كانت غير مقبولة. لقد ناديتهن جميعهن إلى خارج الغرفة، وقلت لهن أن يتوقفن عن ذلك. ويبدو أنهن يشعرن بالغيرة منكِ». فتساءلت عن سبب غيرتهن، لكني لم أسأله؛ فعلى أي حال، كثيرًا ما واجهت غيرة النساء خلال حياتي.

وفي اليوم الذي توفي فيه ستيف، كنت أجلس مع أرما على شرفة مطعم

يطل على المحيط، فإذا بطائر نورس يحط على حافة الشرفة على بعد بضعة أمتار منا، فصار يحدق بنا برهة قبل أن يحلق مؤتمرًا بحركة الريح.

قال أرما: «انظري، لابد من أنه ستيف، إنه هنا معنا». كان لطيفًامنه أن يفكر في ذلك.

لكني أجبته قائلة: «أنا لا أو من بتناسخ الأرواح، فلكلٍّ روحه المستقلة عن روح الآخر، وحين نموت تلتحق كل روح بعالم آخر، فتعود إلى بارئها». ومع ذلك، كان من الواضح أن لحضور النورس ذاك معنًى ما، وقد ظل يحلق ويعود إلينا، وآنسنا ونحن نتناول الغداء.

بعد أيام قليلة من ذلك، كنت أتناول وجبة إفطار متأخرة مع مايك في (سانتا باربرا)، ونتحدث عن العمل، فأخبرته عن البرنامج التلفازي الذي طلب مني بَكر بن لادن تطويره. وفجأة، أحسست كأن كل من كانوا في المطعم سكتوا وكانوا ينظرون إليّ، ولاحظ مايك الأمر نفسه هو الآخر. وعلى الرغم من تفهمي مدى غضب الأمريكيين وألمهم؛ لأن ما حدث كان يبرر ما شعروا به، وهم بشر في نهاية المطاف، فإني كنت أشعر بالرعب من الكيفية التي يصبّ بها بعضهم جام غضبه على المسلمين كلهم دون أي تمييز. وكان علينا أن نتحمل الإهانات والتمييز والأفعال العدائية يوميًّا، ولا سيما أولئك الذين يمكن من هيئتهم تخمين أنهم مسلمون، مثل الفتيات المحجبات، أو الرجال ذوو البشرة الداكنة واللحى. وقد تعرض كثير من المسلمين للاعتقال من دون توجيه أي تهمة إليهم، وأُخضعوا للاستجواب من طرف السلطات الأمريكية. ففي تكساس مثلًا، هاجم أمريكيون مسلحون مسجدًا، وسُجل كثير من جرائم القتل غير المبررة في أرجاء الولايات المتحدة الأمريكية كافة. وفي لوس أنجلوس، تعرض صاحب متجر مصري، وكان مسيحيًّا، لإطلاق نار، في حين قتل في أريزونا رجل كان

يملك محطة وقود. وكان القتيل من طائفة السيخ، وكان يعتمر عمامة بيضاء، التي ترمز في ديانته إلى السلام والتفاهم.

وفي الأسبوع نفسه، شعرت بالضيق وعدم الارتياح حين دعاني مايك لمرافقته إلى عشاء يجمعه بوكيلته روز وزوجها، وكانا يعيشان في فيلا معزولة في ضاحية بيلير الخاصة، وكانا يهوديين. ولأني كنت مسلمة، فضلًا على كوني ألمانية أيضًا، كنت قلقة من أن الأحداث المتتالية قد تدفع بهما لأن يعاملاني معاملة غير لائقة. غير أنهما بدّدا مخاوفي كلها، وكانا مختلفين تمامًا عما توقعت. فقد رحّبا بي بحفاوة، ووجدت أنهما على اطلاع بما يجري، وكانا متفتحين جدًّا. وأخبراني بأن لهما أصدقاء من المسلمين، وقالا لي إن كثيرًا ممن قضوا في الهجمات على مركز التجارة العالمي كانوا مسلمين. ولم يخطر ببالهما أبدًا أن يظهرا أي عداوة لي، أو أن يجرموا المسلمين كلهم بذنب ما حدث. لقد كانا صادقين في مشاعر الأسى التي كانا يشعران بها، لكنها كانت خالية تمامًا من أي عدوانية. ومرة أخرى، أدركت بأنه إذا اجتمع الدين مع حسن الاطلاع والقابلية لتخطي الحدود الذاتية في النظر إلى الأمور، فإن ذلك هو أفضل ترياق للعنف والتطرف. وتأثر مايك كثيرًا بمقولة سمعها من قس أمريكي من أصل إفريقي خلال مقابلة على التلفاز الأمريكي مباشرة بعد تلك الأحداث، وكان كثيرًا ما يرددها، وقد نقلها لنا في تلك الليلة: «أنا مصدوم بصفتي أميركيًّا، ومدمر بصفتي أحد سكان نيويورك؛ وبوصفي رجلًا أسمر البشرة، أسأل نفسي: ما الذي فعلناه كي نستحق هذا». لا شك في أنه ما من أحد، بغض النظر عن لون بشرته أو ودينه، كان يستحق أن يُقتل على يد إرهابيين، لكنني وافقته في أن هناك حاجة ماسة إلى التوقف والتفكير في آلام الناس الآخرين التي تسببت فيها السياسة الخارجية للبلدان الغربية، حتى يتمكنوا هم كذلك من العيش بكرامة وسلام وعدل.

وقرأت خلال رحلة عودتي إلى لندن، مقالًا مطولًا عن عائلة ابن لادن واستثماراتها الكبيرة في الولايات المتحدة التي تضم سلسلة مراكز تجارية وعمارات سكنية وعقارات فخمة، بل ومطارًا كذلك. وكانوا يمولون أيضًا صندوق الأساتذة الزائرين بجامعة هارفارد الأمريكية، وبرامج منح تابع لمركز الدراسات الإسلامية بجامعة أكسفورد البريطانية. وكان بَكر بن لادن رجل أعمال ناجحًا، لدرجة أنه كان يلقب بالحاكم الفعلي لمدينة جدة، وكان معروفًا على الصعيد الدولي، وذا نفوذ كبير. وبعد أسابيع فقط، دُعيَ لحفل عشاء ترأسه الأمير تشارلز في هايجروف، لدعم مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية. ولم يتصل بي بَكر مجددًا، وأظن أنه بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر، كان له مشاغل أكثر أهمية من إنتاج برامج متلفزة.

كنت سعيدة بالعودة إلى لندن، والحديث إلى العائلة والأصدقاء عن كل شيء، والتأمل فيما حدث. وكان الجو العام في إنجلترا مشحونًا كذلك، وكان السكان جميعًا يتحدثون عن تلك الهجمات وتداعياتها. وقد كُتِبَ على جدار أحد المساجد: «انتقم للولايات المتحدة الأمريكية، واقتل مسلمًا». وقد أشعل خطاب جورج بوش التحريضي، ودعواته لشن حرب صليبية على الإرهاب جنون الحديث عن صدام الحضارات بين المسيحيين والمسلمين، وألقى بذور الكراهية، وعدم الثقة في الإسلام.

لكن مع مرور الوقت، بدأت الأمور تعود إلى طبيعتها، وتعلّم الناس كيف يفرقون بين المسلمين والإرهابيين. وعلى الرغم من ذلك، لم أتمالك أن أبحث في الموضوع، فقرأت عن مبدأ الجهاد، وعن كرم صلاح الدين الأيوبي ورحمته تجاه أعدائه خلال الحروب الصليبية؛ بل إنه عوّض أرامل الجنود الذين كانوا يحاربون ضده من ماله الخاص. ولقد تمكّن بشخصيته من

كسب احترام الأوروبيين، وصار مثالًا يضرب في الشهامة والفروسية. وتحدثت كذلك في هذا الموضوع مع عدد من المفكرين، وكان منهم جاي إيتن وحليمة كراوسن ورضا شاه كاظمي، فأجمعوا كلهم على حرمة الحياة في الإسلام، وهذا ما يفسر أن الانتحار يعد إثمًا عظيمًا. واتفقوا على أن السلام هو صلب الدين وعماده، وأنه لا يوجد في القرآن الكريم أو في أخلاقيات الإسلام ما يبرر العنف أو الإرهاب [(1)]. بل إن القرآن الكريم بأنه: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا) (سورة المائدة: الآية 32).ويصف المسلمين أيضًا بأنهم أمة الوسطية: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) (سورة البقرة: الآية 143). أي أنه لا مكان للتطرف في الإسلام. وحين يرتكب المتطرفون العنف وجرائم القتل باسم الله، فإن ذلك يكون تحريفًا خطيرًا لتعاليمه، كما أنهم يفعلون ذلك على حساب الغالبية العظمى من المسلمين المسالمين الذين يحترمون القانون، والذين يصبحون بعد ذلك في مرمى سهام الكراهية.

ذهبت لزيارة جاي إيتن في منزله، وبعد الترحاب الحار الذي خصتني به كلبته الصغيرة توينك، قصدت أنا وجاي غرفة المعيشة. فجلس على كرسي مكتب عتيق ومريح، فيما جلست أنا على الأريكة قرب توينك التي انهمكت في اللعب بلعبة على صورة عظم. أشعل جاي سيجارة، وأخبرني بهذه القصة: «خلال معركة بدر عام 624 للميلاد، أراد أهل مكة أن يدمروا المدينة المنورة والمجتمع الإسلامي الذي كان يخطو أولى خطواته في الحياة، غير أن الغلبة كانت للرسول الأكرم وجيوشه. وفي طريق العودة من المعركة، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. قالوا: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟، قال: جهاد النفس.»

حينها سألت جاي: «ما مستلزمات جهاد النفس، إذًا؟».

فكان جوابه: «إنه بذل الجهد في ممارسة فرائض ديننا. إن أداء الصلوات الخمس في موعدها جهاد، والتغلب على أهواء النفس، والعيش وفقًا لأخلاق الإسلام وقواعده جهاد كذلك. إن أعظم (المحاربين الروحيين) ليسوا أولئك المتسلحين بالأسلحة، بل أولئك المتسلحين بالصلاة وسبحات الذكر». وعلى الرغم من أن ما قاله لي كان منطقيًّا جدًّا، فإنني كنت أريد أن أعرف أكثر عن فكرة الجهاد في حياتنا اليومية.

وشرح لي جاي، قائلاً: «إن ما عناه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجهاد الأصغر، أي قتال العدو، لا يكون شرعيًّا إلا في حالة الدفاع عن النفس ضد اعتداء خارجي، أو مقاومة نظام قمعي وغير عادل، وبعد أن تُستنفد الخيارات الدبلوماسية كلها. وحتى في تلك الحالات، هنالك شروط صارمة يجب احترامها. فيحرم محاربة غير المقاتلين، مثل كبار السن والرهبان في أديرتهم، ويجب أيضًا الحرص على سلامة النساء والأطفال، بل وحتى الحيوان والنبات من شجر وغيره» [(1)] وأضاف: «ثم إن هناك أمرًا مهمًّا لا يجب إغفاله، وهو أن الحاكم الشرعي للدولة الإسلامية والعلماء الثقات هم من يجوز لهم فقط إباحة الجهاد، أو الدعوة إليه دفاعًا عن الوطن. ولا يملك أي متعصب أن يعلن الجهاد في بلد غير بلده، أو أن يرتكب أعمالًا إرهابية باسم الجهاد».

ولأستبين الأمر أكثر، سألته حينها: «هذا يعني أن الجهاد الذي أعلنه أسامة بن لادن ضد الولايات المتحدة هو في الحقيقة ضد الشريعة؟». فأجاب جاي دون تردد: «بكل تأكيد. وحتى في حالة الجهاد المشروع، يدعونا القرآن الكريم إلى تحري التوسط، وألا ننساق وراء مشاعر الغضب والرغبة في الانتقام».

وطلب مني جاي أن أجلب له المصحف الشريف والنظارات التي يستعملها للقراءة. وبدأ يتصفح أوراق المصحف، في حين أفرغت مطفأة سجائره، وداعبت توينك إلى أن وجد الآية التي كان يبحث عنها، وتلاها. على مسامعي: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (سورة البقرة: الآية 190).

ثم قال لي بامتعاضٍ بادٍ: إن الإرهاب يولد من رحم الكراهية والانتقام، والقرآن الكريم يحذرنا بوضوح: (وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا) (سورة المائدة: الآية 8).

دوّنت هذه الآيات، وسألته عن العمليات الانتحارية في سبيل الله، فأجاب: «إن فكرة الهجوم الانتحاري بصفته تذكرة للدخول إلى الجنة لا تمت للإسلام بأي صلة. إن الإسلام يحرم الانتحار جملة وتفصيلًا. وهناك كثير من الطرق المحمودة للكفاح من أجل تحقيق العدالة التي هي مبدأ إسلامي». واستشهد في قوله هذا بحديث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء» [(1)]، وأضاف أنه صلى الله عليه وسلم، قال: «إن العلماء ورثة الأنبياء» [(2)].

فكرت برهة فيما قاله لي قيل أن أقول له: «في عصرنا الحالي، قد يكون مداد العلماء عبارة عن آلة تصوير ومكبر صوت، أو هاتف جوال وحاسوب. إن ما يحتاج إليه الإسلام اليوم هو العمل الإعلامي، وليس القنابل والمتفجرات». ولأن جاي كان على دراية كبيرة بشؤون الإعلام، ضحك وأقرّني على ما قلته. ثم حان بعدها وقت إعداد عشاء توينك، وطلب عشاء لنا كذلك.

◆◆◆

تابعت حياتي كما قدر لي، وعدت لأول مرة في غضون عقد من الزمن تقريبًا، إلى التلفاز الألماني، حيث كنت أقدم برنامجًا أسبوعيًّا يستغرق خمس دقائق. وكنت أسافر كل شهر إلى مدينة كولون لتسجيل حلقات برنامج قصير يُعنى بتقديم نصائح صحية على قناة (آر تي إل). وبينما كنت أنتظر موعد صعود الطائرة في المطار يومًا ما، إذ بي أرى مجموعة من النساء اللواتي كن يرتدين عباءات سوداء، ويغطين رؤوسهن بأقمشة من اللون نفسه. لا أدري لماذا، ولكني شعرت برغبة في التحدث إليهن. ولم يكن ذلك أمرًا من الممكن أن أقوم به عادة، لكن فكرة العودة إلى ألمانيا بدأت تراودني. فسألت تلك النسوة كيف يشعرن بصفتهن مسلمات في ألمانيا. فأجبن بأنهن سعيدات جدًّا، وأن الألمان أناس غاية في الطيبة. فأسعدني كثيرًا أن أسمع ذلك، وتابعت حديثي معهن لبعض الوقت. وبينما كنا نهم بالصعود إلى الطائرة، قالت لي إحداهن إنها يمنية لكنها تعيش في السعودية. فظننت حينها أنها ربما تعارض التصوف؛ لأن السعودية من البلدان التي ترفض التصوف. وبينما كنا على متن الطائرة، رأيت تلك السيدة تتناول سبحتها قبل أن تشرع في ذكر الله. وأخرجت سبحتي كذلك، وحين عدت إليها، تبادلنا الابتسامة، وكل منّا تشير إلى الأخرى بسبحتها. وبعد هبوط الطائرة، أعطتني رقم هاتف صديقة لها تعيش في لندن، واقترحت عليّ أن أتصل بها. وأعطيتها أنا كذلك رقم هاتفي، ولكني نسيت هذا اللقاء بمجرد عودتي من السفر.

وبعد أسابيع عدة من ذلك، اتصلت بي صديقتها التي أرادتني أن أكلمها، ودعتني لتناول الغداء معها.كانت يمنية كذلك، اسمها فدوى، وبيتها غير بعيد عن بيتي في ساوث كنسينجتون. وحين ذهبت لمقابلتها،

كانت ترتدي عباءة طويلة مُزهَّرة، وغطاء رأس على هيئة عمامة. فجلست معها على الأريكة، وأخذنا نتحدث فيما قدمت لنا خادمتها وجبة طعام. وتبيّن أن السيدة التي قابلتها على متن الطائرة هي والدة شيخ يمني متصوف مشهور، هو الحبيب علي الجفري. وكانت فدوى مهتمة بسماع قصة اعتناقي الإسلام، وما عشته منذ أن أصبحت مسلمة. وسألتني كذلك عما إذا كنت متزوجة. فأجبت عن أسئلتها، وأخبرتها كيف أني أحيانًا أحس بأني معلقة بين ثقافتين، ولا أستطيع أن أنسجم مع أي منهما. أما عن مسألة الزواج، فقلت لها: «لا شك في أني أريد الارتباط بمسلم يمتثل لتعاليم دينه، وأن يكون شخصًا أشاركه حياتي وديني، لكني لم أقابل الشخص المناسب بعد». فتعاطفت فدوى معي، وتفهمت معضلتي، ونصحتني قائلة: «ركزي على علاقتك بالله؛ وطهري قلبك وحياتك، وأخلص نيتك، واعكفي على تحسين دينك. إن تحليت بالصبر والعزيمة، فإن الله سيثيبك أجرًا حسنًا إن شاء الله».

وتطرقنا إلى موضوعات أخرى، وسألتها عن العين الضارة التي سمعت كثيرًا عنها. وكان سؤالي لها: «هل هذه العين الضارة موجودة حقًّا؟»، فأجابت: «أجل، هي حقيقية. وأغلب الأذى الذي تتسبب فيه يكون أصله الغيرة. بل يقال إن العين الضارة هي عين الغيرة». ولأني أعتقد أنني تعرضت لها كثيرًا في حياتي، سألتها: «ماذا نفعل إذًا لنحمي أنفسنا من غيرة الناس؟»، قالت: «عليك بتلاوة سورة الفلق حيث التعوذ «من شر حاسد إذا حسد». ومن الأفضل تلاوة سورة الإخلاص والفلق والناس كل صباح ومساء للحفظ. وكذلك حين ترين شيئًا جميلًا يسرك، عليك أن تقولي: «ما شاء الله!»، وفي ذلك اعتراف وإقرار بأن كل جميل هو من عند الله سبحانه وتعالى». لقد كانت منبعًا فياضًا من الإيمان والنصح الجميل، وقد سررت كثيرًا حين طلبت مني أن أبقى على اتصال بها، وأن أزورها مجددًا.

منذ أن التقيتها أول مرة، رأيت في فدوى المرأة القوية والمتعلمة والورعة، والمستقلة بقرارها. وبعد تعارفنا بوقت قصير، قصدتني من أجل تلقي العلاج المثلي. وعندما فتحت لها الباب، فوجئت حينما وجدت أنها ترتدي ملابس سوداء من رأسها حتى أخمص قدميها. فدعوتها للدخول، وأنا أقول لها: «لابد من أن زوجك رجل صارم جدًّا!».

فضحكت قائلة: «على العكس تمامًا؛ إنه تركي ولا يحب أن أرتدي النقاب، إنه خياري أنا». وكانت فدوى ترتدي نقابًا يغطي وجهها كله؛ تأسيًّا بزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم، وكانت تشعر بالراحة لذلك. ولم تكن تخلع النقاب إلا أمام النساء، لكنها لا تتخذ أي موقف من أي سيدة غير محجبة أو متنقبة. وكنت في غاية الاندهاش، وأعدت النظر في فكرة أن ارتداء النقاب أمر يفرضه الأزواج على زوجاتهم، وأن أولئك النسوة كنّ محدودات التفكير. لم تكن فدوى كذلك مطلقًا، بل كانت سيدة ودودة وكريمة، وتسلك طريق التصوف بكل إخلاص. لقد كان حبها لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام، الذي تنحدر من عترته الشريفة، معديًا. وكانت تشع بهالة من الطهارة، وكنت أشعر خلال الوقت الذي أقضيه معها بسلام داخلي حقيقي. وكان كل شيء في عائلتها وبيتها طاهرًا وهادئًا، وبطبيعة الحال حلالًا [(1)]. ومن ذلك الفصل بين الجنسين، ففدوى لم تكن تخالط الرجال إلا من أجل طلب العلم، أو لتحية أفراد من العائلة، وأخبرتني بأنها تشعر براحة أكبر في صحبة النساء. ولم يمضِ وقت طويل قبل أن عرفتها على الدكتورة أمينة التي سرعان ما أصبحت هي الأخرى ضمن دائرة معارف فدوى.

وحين حلت ذكرى مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم، دعتني فدوى أنا والدكتورة أمينة إلى حفلة كبيرة في منزلها للاحتفال بهذه المناسبة. وكان

الحاضرون زهاء الخمسين أو يزيدون من النساء والأطفال من جنسيات مختلفة، عربًا وأوروبيين وأتراكًا وباكستانيين. وكنّ جميعهن يرتدين ثيابًا طويلة جميلةً، وكان بعض النساء يرتدين غطاء رأس أخضر اللون؛ لأنه كان اللون المفضل للنبي صلى الله عليه وسلم، ولأنه أيضًا لون الجنة كما ورد في القرآن الكريم. فاستهلت مجموعة من المنشدات السوريات حصة من الذكر، أردفنها بأناشيد جميلة، رافقها دف يدوي، وشاركنا جميعنا في الإنشاد معهن. وتحدثت سعيدة أخرى عن رحمته صلى الله عليه وسلم، وكيف أن الحيوانات والأشجار كانت تحبه عليه الصلاة والسلام. وأعطتني إحدي صديقات فدوى، اسمها زين، بعض الأذكار كي أقرأها في ظروف مختلفة. وتناولنا بعد ذلك وجبة طعام عربية شهية، ثم كعكة تمر، تتقن فدوى صنعها، تناولناها دافئة مع الكريمة. وامتد بنا الحديث والاستمتاع بالحفلة إلى ساعة متأخرة من تلك الليلة، فكانت ليلة مليئة بالدفء والرحمة.

وأصبحت فدوى أقرب صديقة لي، فكانت أختي في الله ومعلمتي في أمور الدين. ولم أكن الوحيدة التي تقدرها كل ذلك التقدير. وقد اعتادت أن تضحي بوقتها وأشغالها كي تقدم الدعم والإعانة لمن يحتاج إليهما، ولا سيما من المسلمين الجدد، وأي امرأة تطلب مساعدتها. وكانت فدوى تستقبل مشايخ من الخارج لإلقاء دروس ومحاضرات في بيتها، مثل الشيخ حمزة يوسف من الولايات المتحدة، والحبيب علي الجفري، الداعية اليمني المقيم في أبو ظبي. وكانت هي وزوجها يعدان المغني البريطاني يوسف إسلام، أو كات ستيفنز سابقًا، وأسرته من بين أصدقائهم، وكان أطفالها أيضًا يدرسون في المدرسة الإسلامية التي أسسها يوسف إسلام في لندن.

وكثيرًا ما كنت أكنّ احترامًا كبيرًا للطريق التي اختار يوسف إسلام أن

يسلكها، وكنت أيضًا من أشد المعجبين بموسيقاه. والتقينا على هامش كثير من الأنشطة الفنية الإسلامية، وكان لنا أحاديث قصيرة. وكان مشغولًا جدًّا بالعمل في شركة التسجيل (ماونتن أوف لايت) التي أسسها، وكم أسعدني أنه عاد إلى كتابة الأغاني مجددًا. وقد فرحت كثيرًا حين تلقيت دعوة لحضور حفل خيري، حيث كان سيلقي كلمة بصفته ضيف شرف. ولم يكن ذلك الحفل إسلاميًّا، لكن الحضور كانوا خليطًا من الاشتراكيين والأرستقراطيين، إضافة إلى كثير من النشطاء في عالم صناعة الموسيقا، مثل بوب ديكنز، المدير السابق لوورنر ميوزك بريطانيا، وبعض المعجبين الذين دفعوا خمسين جنيها إسترلينيا حتى يستمعوا لسبب تحول هذا المغني من كات ستيفنز إلى يوسف إسلام. وكان قد باع أكثر من ستين مليون أغنية وهو في قمة نجاحه العالمي، وفي رصيده قائمة طويلة من الأغاني الناجحة، حين قرر أن يدير ظهره للموسيقا في أواخر سبعينيات القرن الماضي.

اعتلى يوسف إسلام الخشبة بلحيته المهذبة، وبذلة ضاربة إلى اللون الأصفر. وكان حديثه رصينًا ومتزنًا، ولم يخلُ من روح الدعابة، تمامًا كما كان في أيامه الخوالي بصفته نجمًا في عالم الموسيقا. فوقع الجمهور تحت سحر يوسف، وظل متنبهًا لكل كلمة ينطق بها. وأخبر الحضور بأن نقطة التحول في حياته كانت بسبب تجربة الاقتراب من الموت التي مرّ بها عندما كان يسبح في مياه شاطئ ماليبو، وجرّه التيار إلى داخل البحر. فأدرك حينها أنه هالك لا محالة. وقال واصفًا تلك اللحظات: «في تلك اللحظة، دعوت الله، وتعهدت بأن أكرس نفسي له عزّ وجلّ إن هو نجاني من الغرق». ولم ينسَ يوسف تعهده، وبدأ طريقه بحثًا عن الحقيقة التي قادته في نهاية المطاف إلى الإسلام.

لقد كانت الطبيعة الخالدة للرسالة الإسلامية هي التي أقنعته باعتناق

هذا الدين. وشرح قائلًا: «كانت كلمات القرآن الكريم مألوفة على نحوٍ غريب، لكنها كانت في الوقت نفسه مختلفة عمّا سبق أن قرأته في حياتي». ودخل الإسلام سنة 1977م، وغيّر اسمه إلى يوسف. وقال في هذا الصدد: «لقد شعرت بأن قصة يوسف في القرآن قريبة جدًّا مني، ذلك أن إخوته باعوه كأي سلعة في السوق». ذلك لأنه شعر بأن صناعة الموسيقا عاملته معاملة سلعة تُباع وتُشترى، وليس معاملة فنان.

فكرت أن ذلك أمر عجيب. ذلك أنه حتى في تلك الحقبة من الزمن، كانت التجارة تتحكم في صناعة الموسيقا. وبعد مرور كثير من السنوات على ذلك، كان برنس وجورج مايكل يشتكيان بمرارة من الأمر نفسه؛ ويبدو أن شيئًا لم يتغير في هذا المجال، على الأقل نحو الأفضل. وفي عام 19م، انقطع يوسف عن العالم من أجل سلوك طريق الله وعبادته عزّ وجلّ. وكم أسعدني رؤية ذلك العدد الكبير من الحضور يصغون باهتمام كبير لقصته، ويطرحون عليه أسئلتهم. وكان من بينها: «لماذا توقفت عن الغناء بعد إسلامك؟». إنه سؤال جال بخاطرهم جميعًا. وإن معجبيه حول العالم، سواء أمسلمين كانوا أم غير مسلمين، فكروا في أنه من المشين أن يضع موهبته جانبًا، ويتناساها، لأنها في نهاية الأمر هبة من الله سبحانه وتعالى.

أجاب يوسف إسلام، قائلاً: «إن ما بدا للعالم من حولي على أنه تحول بمقدار 180 درجة كان في الحقيقة تحولًا تدريجيًّا؛ فقد كنت دائمًا أبحث عن الحقيقة، وموسيقاي تعكس ذلك. أما تجربة الاقتراب من الموت، فكانت مثل تذكير لي بأن عليّ أن أسلك ذلك الطريق بإصرار أكبر». وصرح أيضًا أنه كان في حاجة إلى أن يبتعد عن عالم الموسيقا؛ لأنه بلغ درجة لم يعد يستطيع معها تحمل ضغوطه الكثيرة سوى بتناول الكحول والمخدرات.

لابد من أن تحوّله ذلك تطلّب قوة خارقة، وهذا دليل على قدرة الإيمان على تحريك الجبال. وأدهشني كذلك أن أسمعه يفسر أنه بعد اعتناقه الإسلام كان تحت تأثير الوهابية، وهو فكر متشدد داخل الإسلام السنّي، يؤمن بالتأويل المتشدد والحرفي للنصوص الدينية، ويحرم أنواع الموسيقا كلها. وقد اعترف يوسف قائلًا: «لو عاد بي الزمن إلى الوراء، لفعلت الأشياء على نحوٍ مختلف تمامًا».

وفي تلك السنة نفسها، حضرت حفلة له في قاعة (رويال ألبرت هول) بلندن بمناسبة الاحتفال بذكرى تأسيس المدرسة التي أنشأها، احتفالًا إسلاميًّا. فكانت تلك المرة الأولى خلال خمس وعشرين سنة يغني فيها أغنية (قطار السلام)، وكان ذلك حدثًا تاريخيًّا بامتياز.



اقتربت أكثر من بلوغ سلامي الداخلي بعد ذلك في أثناء زيارتي لصديقتي نورافي أيرلندا، حيث قدِمت للقائي في مطار كورك، وصحبتني في سيارتها إلى الساحل الجنوبي الغربي. ثم توقفنا في مطعم صغير لتناول الغداء، وجلسنا في الخارج نمتّع ناظرينا بمنظر الحضرة الساحرة، ونتبادل أخبارنا. وما إن قدّم لي النادل وجبة سرطان البحر، حتى رنّ هاتفي.

«أهلًا بكِ عزيزتي، كيف حالك؟» كان صوت المتحدث غائرًا ومألوفًا جدًّا، ثم قال: «هذا أنا، عِمران!».

لم أصدق المفاجأة، وتركت الطاولة حتى أتحدث إليه على راحتي: «يا إلهي، يا لها من مفاجأة!» قلت له أول مرة: «السلام عليكم». فردّ عليّ حينها، قائلًا: «وعليكم السلام».

وأخبرني بأنه انفصل عن زوجته، وأنه اتصل ليعتذر عما سبّبه لي من ألم

خلال تلك السنوات الماضية كلها. فقلت له وأنا ما زلت من مفاجأتي بتلقي اتصاله: «لقد سامحتك من كل قلبي منذ زمن بعيد». وأخبرني بأنه بصدد إتمام إجراءات الطلاق من زوجته، وأنه كان يشعر بأنه يدفع ثمن المعاناة التي سببها لي. فشعرت بالأسف لسماع ذلك، وقال لي كذلك: «لقد كنت أدعو لك كثيرًا».

شكرته، وقلت له: «لقد دعوت لك بدوري ولزوجتك يوم زفافك».

فردّ بنبرة جافة: «حسنًا، لم يجدِ ذلك نفعًا».

وأخبر كل منّا أخباره للآخر، وعلى الرغم من أن تسع سنين مرت على آخر حديث لنا، فإنني كنت سعيدة جدًّا بتلقي اتصاله ذاك. وكنت قد نسيت الجرح الذي خلَّفَتْه في قلبي الطريقة التي انفصلنا بها، وكنت قد سامحته حقًّا، لكن اعتذاره داوى ندوبًا صغيرة كانت لا تزال محفورة في مكانٍ ما في قلبي. وقد أسعده أن يسمع أني أصبحت مسلمة تتحرى اتباع تعاليم الدين الإسلامي كما يجب.



وكنت أريد أن أعمّق معرفتي بالإسلام، فحرصت على حضور دورات عدة، برفقة الدكتورة أمينة أحيانًا. ودرسنا عددًا من السور القرآنية في (أُترُج)، وهو مركز خاص يديره الشيخ اللبناني هيثم تميم، الذي درس علوم القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه على يد علماء في سوريا والمدينة المنورة. إضافة إلى ذلك، كنت أحضر حلقات دراسة القرآن الكريم طوال سنة كاملة، أيام الأحد في منزل قريبة إحدى صديقاتي، وكانت تلك القريبة تعمل طبيبة. وكان معلمنا من كشمير، وكان الطلاب باكستانيين وعربًا وبريطانيين من الأعمار كلها. ودرسنا القرآن الكريم آية آية، وكنّا نقارن بين

الترجمات والتفاسير المختلفة للآيات، إضافة إلى مقارنتها بما جاء في الكتب المقدسة الأخرى كالعهد القديم والعهد الجديد. وكان المُدرِّسُ يجيب عن سؤال كل طالب بصبر وأناة، وكنا نتبع جلستنا بتناول كأس شاي، وتجاذب أطراف الحديث. وكنت دائمًا أعود إلى بيتي في حالة انشراح عجيبة. وقد ورد أن الملائكة تحضر المجالس التي تعقد على حب الله.

غير أني سرعان ما أدركت أني إن أردت التعمق في معرفة القرآن الكريم، فإن عليّ أن أتعلم اللغة التي نزل بها، وهي العربية. ذلك أن الترجمة لا يمكن أن تكون سوى قراءة ذاتية للمعنى الأصلي، ومهما بلغت من درجات الإتقان، لا يمكن لأي ترجمة أن تكون مخلصة لجمال وعذوبة النص الأصلي، ولا أن توصل المعاني كلها المتضمنة في كل كلمة. لقد وقفت على اختلافات كبيرة بين الترجمات والتفسيرات لكثير من القضايا الواردة في النص القرآني، ومنها تلك المتعلقة بالمرأة.

ولكي أتمكن من فهم القرآن الكريم بصورة معمقة أكثر، التحقت بدورة جامعية لدراسة اللغة العربية في الكلية الإسلامية بلندن. غير أن مهمتي لم تكن سهلة على الإطلاق. ذلك أن الطلاب كلهم في فصل المبتدئين كانوا يعرفون حروف الهجاء العربية، ويستطيعون القراءة والكتابة بالعربية. وكنت أقضي ساعات طويلة كل يوم في البيت في محاولة تدارك تخلفي عن الباقين، لكني استسلمت، وتخليت عن تلك الدورة لأني لم أستطع التفرغ كليًّا للدراسة، ولا سيما مع مشاغلي الكثيرة الأخرى. فقررت بعدها أني كي أنجح في مهمتي، عليّ أن ألتحق بدورة مكثفة في بلد عربي قبل أن أعاود الانضمام إلى دورة الكلية الإسلامية من جديد. ولم يمضِ وقت طويل حتى تسنت لي الفرصة للقيام بذلك.

ففي خريف عام 2004م، كانت مجموعة من إخواني في الطريقة

تستعد لحضور ملتقًى عالمي للمنتسبين للتصوف في المغرب. وكان جاي إيتن من بين المدعون له كذلك، لكنه طلب مني أن أذهب بدلًا منه؛ لأنه لم يكن بصحة جيدة حينها، وكنت سعيدة جدًّا بتلك الفرصة. وقد نُظِّم في مدينة مراكش، التي اشتُهرت عبر التاريخ بتاريخها الصوفي الطويل. فكان تجمعًا استثنائيًّا بحق، نُظّم تحت الرعاية السامية لأمير المومنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس، ودعت له وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية مئات المنتسبين للطرق الصوفية من أرجاء العالم كافة، وكانوا كذلك علماء وكتابًا وفنانين ومحامين وعلماء الأنثربولوجيا. لقد كان ملك البلاد داعمًا كبيرًا للتصوف، الذي أسهم في تشكيل هوية المغرب الروحية والثقافية والاجتماعية.

تم التفكير والتحضير لهذا الملتقى على أنه شكل من أشكال الرد على الهجمات الإرهابية التي ضربت مدينة الدار البيضاء قبل عام من تاريخ تنظيم الملتقى، بهدف تقديم التصوف على أنه ترياق مضاد للتطرف العنيف. وقد لاقى هذا التصور بعض الانتقاد من أصوات عدّت التصوف طريقًا إلى الله، ولا يمكنه أن يكون أداة سياسية. وكنت أعرف كثيرًا من الوجوه التي دُعيت إلى الملتقى، وكان من بينها صديقتان ذهبتا معي في رحلة العمرة، والسيد سلازار وزوجته من لندن، والدكتور نصر الذي شارك بمحاضرة خلال تلك التظاهرة، وجراي هنري من الولايات المتحدة الأمريكية، وسيدي فيصل، وهو صديق مغربي كنت قابلته من قبل في مصر. وقد وجّه الأخير لجلّ المشاركين في ذلك الملتقى دعوة كريمة إلى وليمة هائلة أقامها في محل إقامته خارج مدينة مراكش.

وفي إطار برنامج الملتقى، قام المشاركون جميعًا بزيارة أولياء مراكش السبعة، أو السبعة رجال في الجزء العتيق من هذه المدينة القدية. وكما

هو الحال في القاهرة، كانت مقامات هؤلاء الأولياء تغص بالزائرين من المؤمنين الورعين. وتُعد مراكش موطنًا لعدد كبير من الطرق الصوفية وعدد أكبر من الزوايا، حيث ظل المريدون والسالكون يواظبون على ذكر الله منذ قرون غابرة. ويشعر المرء داخل تلك المدينة العتيقة بدفء المكان وترحاب خاص به، لأسباب ليس أقلها لون الغالبية الساحقة من بيوتها الأحمر الطيني.

وكان في صلب هذا الملتقى زيارة لمقام الشيخ البربري الصوفي الذي عاش في القرن الثامن، سيدي شيكر، الذي كان بيته، الواقع على بعد بضع ساعات من مراكش، ملجأ روحيًّا ومركزًا إشعاعيًّا لتعليم العلوم. فأقلّتنا حافلتان للذهاب إلى مقام هذا العلامة الذي يقع في الصحراء، خارج المدينة الحمراء. وتوقفنا في الطريق لأداء صلاة الظهر، حيث اصطف مئات المشاركين على سجاد بُسِطَ في صفوف متراصة على الرمال. لقد كان ذلك الموقع استثنائيًّا؛ فبينما كنت أصلي مع الباقين تحت أشعة الشمس، أحسست بإحساس عجيب. وعندما وصلنا إلى وجهتنا، قمنا بجولة في مقام سيدي شيكر والمدرسة التابعة له، حيث كان الشيخ يعلم البربر تعاليم الإسلام. وبعد تناول غداء من الطاجين والكسكس داخل خيمة مغربية كبيرة، عدنا أدراجنا إلى مراكش. ومساء كل ليلة من ليالي الملتقى، كنا نستمتع بوصلات من الموسيقا العربية الأندلسية من أداء مجموعات رائعة داخل جنبات رياض ساحر. ولم يسبق لي أن شاهدت في حياتي مثل ذلك الجمال المعماري الذي يحيط بالمرء من كل جانب. وكان كل موقع زرناه كنزًا معماريًّا حقيقيًّا بحق يشبه في بنائه وهندسته إلى حد بعيد قصر الحمراء في غرناطة. لقد استمتعت بكل دقيقة من ذلك الملتقى. وفي الليلة الختامية لتلك التظاهرة، دعانا المنظمون إلى مأدبة عشاء على ضوء الشموع في قصر الباهية. وكانت ليلة رائعة في جورومانسي، حيث كانت

الموسيقا الصوفية تملأ فضاء المكان حتى ساعة متأخرة من الليل. ووجدتني أستسلم لسحر تلك المدينة، وأقع في غرامها على الرغم مني. وعندما اقترح عليّ أحد المنظمين أن ألجأ إلى خدمات مدرس متخصص في تعليم اللغة العربية الفصحى، وليس العامية الدارجة في بلد المغرب، عقدت عزمي على أن أعود في أقرب فرصة إلى هذا البلد للدراسة.

ومكثت في زيارتي الثانية لمراكش ثلاثة أسابيع، انضم إليّ في الأسبوع الأول منها أصدقائي مايكل رادفورد وزوجته إيما، التي كانت حاملًا حينها، وسعيد أبو الريش، وهو كاتب من لندن، إضافة إلى صديقته نانسي. وقضينا ليلة رأس السنة معًا، واستمتعنا فيها بالاستماع إلى عازفي العود، وبأكلة كسكس شهية حُضِّرت في المنزل. مرة أخرى، كان لسحر مراكش أثره الفاعل فيّ، ثم ذهبنا لاكتشاف بعض الحدائق الغنّاء التي تحتفي داخل أسوار المدينة، والتي صممت لترمز إلى الجنة. وأسرتني حديقة المنارة بوجه خاص، وهي عبارة عن واحة هادئة جدًّا، تتوسطها بحيرة تعكس مياهها روعة المكان مثل مرآة واضحة خلال يوم صحو.

صَحِبَنا صديق لمايك، وهو كاتب سيناريو يعيش في مراكش، للتسوق في المدينة العتيقة. وتناولت القهوة مع نانسي وسعيد في ساحة جامع الفنا الشهيرة، حيث استمتعنا بعروض مروّضي الثعابين والأكروباتيين [(1)] وفناني الشارع. وكل ليلة كنا نتناول العشاء في أحد المطاعم التقليدية الجميلة في المدينة العتيقة، على الرغم من أنه قيل لنا إن أفضل الطعام، في المغرب، هو ذاك الذي يُعدّ في المنزل.

ولاحظت في أثناء هذه الزيارة كيف أقبل الأثرياء الأوروبيون على شراء عقارات كثيرة من المدينة العتيقة؛ فقد فتحت كثير من المعارض الفنية الغربية، والفنادق الفاخرة، والمطاعم الغالية الثمن، وصالات [(2)] الديسكو

أبوابها. وكان مشاهير من أمثال مادونا وكيت موس وجيرارد ديبارديووأخت ريتشارد بارنسون يملكون عقارات في هذه المدينة الملكية العتيقة. فشعرت بأن المدينة تسير لتصبح أحد مواطن المتعة الحسية في شمال إفريقيا، وتبتعد عن ثقافتها الإسلامية الأصيلة. وتمنيت من كل قلبي ألا تتحول مراكش إلى ماربيلا [(1)] جديدة.

وما إن غادر أصدقائي حتى بدأت دراسة اللغة العربية. فانتقلت للعيش في رياض مغربي تقليدي وسط المدينة العتيقة. وكان صاحب المنزل يعتني بالمستأجرين، ويوفر لهم كل ما يمكن أن يحتاجوا إليه؛ وهو ما برهن لي مرة أخرى على أن الكرم العربي شيء لا يمكن التفوق عليه. وكانت مدبرة المنزل تدللني بأن كانت تعد لي الفطائر والشاي بالنعناع على وجبة الإفطار، وتطهو لي أطباق الطاجين والكسكس الشهية على العشاء. وكان مدرسي يزورني يوميًّا، ويعلمني حروف الهجاء العربية وكيفية نطقها، وقواعد النحو، ويغني رصيدي من المفردات العربية. وكنت خلال مقامي بمراكش، أحب أن أصلي في مسجد الكتبية، وهو المسجد الذي لا يسمح بدخوله إلا للمسلمين، ويعود بناؤه إلى القرن الثاني عشر. وتُعدّ مئذنته، التي يبلغ علوها 70 مترًا، أهم معلمة بهذه المدينة. ويعود أصل تسمية هذا المسجد إلى الكتبيين، أي بائعي الكتب، وذلك لأن المسجد كان محاطًا بباعة الكتب. ومسجد الكتبية أكبر مسجد في المدينة، ويتسع لخمسة وعشرين ألف مصلٍّ، ولم يكن خلال مقامي مراكش، يعج بالمصلين خلال أوقات الصلاة اليومية، لكنه كان متلئ عن آخره وقت صلاة الجمعة. وكان الطلاء الداخلي للمسجد أبيض ناصعًا، وكانت الأقواس التي بُنيت على الطراز الموريسكي تمثل صورة واضحة للتناغم البصري والكمال والنقاء الذي لا تشوبه شائبة. وقد كنت أشعر براحة كبيرة حين كنت أجلس بين

جنباته أتلووردي في الجو الهادئ لهذا المسجد العتيق، علاوة على الصلاة فيه.

وفي صبيحة أحد الأيام، اتصل بي جعفر، وهو الصديق الذي هيّأ لتفاصيل دراستي ومقامي في مراكش، ليخبرني بفاجعة موت الشيخ أبي بكر. لم أتوقع بتاتًا أن أتلقى مثل هذا الخبر، وحزنت له حزنًا شديدًا. فاتصلت من فوري بجاي في لندن الذي لم يكن قد عرف بالخبر بعد. وقصدت بعد ذلك زاوية تقع بجوار الرياض الذي كنت أسكن فيه. وكنت منهارة من وقع الفاجعة، ورحت أدعو لشيخي بإلحاح حتى غلبتني دموعي، واستسلمت للبكاء. رأتني سيدة كانت جالسة في تلك الزاوية، وأتت لمواساتي، قلت لها إني على ما يرام، ولكنّ شخصًا عزيزًا عليّ قد توفي. قالت لي حينها: «لا تحزني؛ إن صديقك في مكان عظيم عند رب العالمين»، ثم تلت قوله تعالى: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (سورة البقرة: الآية 156).

كنت في حاجة إلى أن أختلي بنفسي كي أحاول أن أتعامل مع هذه الخسارة. لقد كان الشيخ وإرشاده ومجموعة فقراء الطريقة التي أنتمي إليها يمثلون كل شيء بالنسبة إلي، وكان ذلك أيضًا السبب الذي دعاني إلى الاستمرار في العيش في لندن، على الرغم من أني لم أجد عملًا حقيقيًّا هناك. لقد أصبحت أشعر كأن قلبي قد فقد بوصلته التي كانت ترشده إلى برّ الأمان. وعندما اتصلت بجاي مرة أخرى، أخبرني بأن الشيخ كان بصحة جيدة، وأنه كان يخرج في جولاته اليومية حتى أيام قليلة قبل وفاته. وتمنيت لو لم أكن في بلد بعيد؛ لأن ذلك كان يعني أني لن أتمكن من حضور الجنازة التي من المفترض أن تتم في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة من الوفاة، تبعًا للتعاليم الإسلامية. ولكني واظبت على الدعاء لشيخي وأنا في مراكش. وأكد لي جعفر، الذي كان يعمل لدى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،

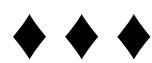
أنه سيحرص على أن يدعو كل أئمة مساجد مراكش للشيخ أبي بكر الذي كان يحظى باحترام كبير في المغرب.

وفي صباح يوم الجمعة، الذي يحظى فيه الموظفون برخصة مغادرة العمل باكرًا لأداء صلاة الجمعة، شاركت في جلسة ذكر عند مقام أحد رجال مراكش السبعة، وهو الولي الصالح سيدي عباس السبتي، الذي عاش في القرن السابع، واشتهر بعمله مع الفقراء والمحتاجين، ولا سيما أكفّاء البصر. وبينما ولجت المسجد، مررت بصف من أكفّاء البصر، ورأيتهم متخشعين في صلاتهم. وكان صوفي مغربي قد قال لي: «إن كفيف البصر هو البصير الحقيقي؛ لأنه يرى بعين بصيرته». كان الضريح من الداخل يأخذ بالألباب. وكانت أرضيته وبعض أجزاء حيطانه مزينة بفسيفساء هندسية، وتزيد الخلفية البيضاء من جمالها. لقد أحببت كثيرًا التعابير الجمالية المغربية، وكانت الهندسة المغربية من تلك التعابير.

وجلس نحو عشرين رجلاً يرتدون جلابيب في حلقة على الأرض بجوار قبر الولي، وراحوا ينشدون أناشيد في حبّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بأصوات رخيمة وجميلة. فانضممت إلى مجموعة من النساء كنّ يجلسن على يسار مدخل الضريح، ويرتدين، مثلي تمامًا، جلابيب نسائية وغطاء رأس. وشاركنا جميعًا في ذكر الله في هدوء. ومر بنا أحد القائمين على خدمة الضريح، فسكب بعضًا من ماء الورد من إناءٍ تقليدي. وبعد أن أنهينا حصة الذكر، قدم لنا الشخص نفسه أكواب الشاي المغربي بالنعناع. لقد كانت جلسة الذكر تلك والأجواء التي أحاطت بها ساحرة بحق.

خبرت المغرب بصفته بلدًا أصيلًا ومعاصرًا في آن، متدينًا ومنفتحًا، حيث كان التصوف جزءًا لايتجزأ من ثقافته. وكانت النساء فيه يخرجن للعمل، وعلى العموم لم ألحظ أي فصل بين الجنسين. ونظرًا إلى قربه الجغرافي من

أوروبا، والعلاقات التاريخية التي تربطه بفرنسا وإسبانيا، إضافة إلى ازدهار قطاعي السياحة وصناعة الأفلام، فإن البلد منفتح جدًّا على الغرب. وقد كنت في قمة سعادة لتمكُّني من أن أقف على حقيقة التصوف الأصيل وأختبره شخصياً بطرق استثنائية. ذلك أنه في بقاع أخرى من العالم، يواجَه التصوف إما بالرفض التام، أو أنه يحيا على هامش المجتمع أو متخفيًا، ويظل أيضًا عرضة للانتقاد، أو يُتَّهم بأنه بدعة. أما في المغرب، فالأمر مغاير لذلك تمامًا؛ ذلك أن المغاربة يؤمنون أن المتصوفة الراسخين في العلم هم الأقدر على فهم الحقيقة المحمدية، ويتمثلون أخلاقه، مثل الصدق والشهامة والأخلاق العلية. ومن المهم الإشارة هنا إلى أن حجة الإسلام، الإمام الغزالي، أسهم إسهامًا كبيرًا في إغناء الفكر الإسلامي حين جزم بأن أشكال التقرب كلها التي يتبناها الصوفيون جزء لا يتجزأ من الشريعة الإسلامية.



وبعد ستة أشهر من ذلك، وقفت لأول مرة بنفسي على صعوبة ممارسة المتصوفين أورادهم وأذكارهم في بعض البلدان ذات الأغلبية المسلمة، وذلك حين رافقت الدكتور نصر وبعض تلامذته في جولة ألقى خلالها عددًا من المحاضرات في تركيا. وقد تضمن برنامج تلك الجولة زيارة إسطنبول وقونية، حيث ضريح مولانا جلال الدين الرومي.

وبخلاف المغرب، أصبح التصوف ممنوعًا رسميًّا في تركيا منذ أن فرض كمال أتاتورك العلمانية في البلاد في عشرينيات القرن الماضي. ويمكن لأي شخص يُضبَطُ، وهو يمارس طقسًا من طقوس التصوف في تكية أو زاويةٍ ما أن يُقتاد إلى مخفر الشرطة للتحقيق معه. وقد سُجن فعلاً أتباع كثير من الطرق الصوفية في ثلاثينيات القرن الماضي. وعلى مر سنين طويلة، كانت

تشكل ممارسة شعائر الإسلام علانية وعلى نحوٍ منتظم، مثل الذهاب إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة، عقبة أمام تدرج الشخص وتقدمه من الناحية الوظيفية، ولا سيما بالنسبة إلى العاملين في مجالي التعليم والجيش. وعلاوة على ذلك، فإن النساء يُمنعن من ارتداء الجاب في الجامعات وغيرها من المؤسسات العامة.

ومع ذلك، فإن الإسلام ظل راسخًا في تاريخ تركيا وثقافتها. وعلى الرغم من أن المنع المضروب على التصوف لا يزال قائمًا، فإن أشكال ذلك الحظر خفت بعض الشيء تحت قيادة حكومة أبدت سعة صدر أكبر تجاه مختلف الأديان. أما الموقف العام تجاه الطرق الصوفية، فيمكن القول إن المزاج العام يجنح إلى التغاضي عن الخوض في موضوع هذه الطرق، ويفضل تحاشيه. وعلى الرغم من أن النشطاء العلمانيين يصفون المتصوفة بالشبح المخيف، وينعتونهم بأنهم مناهضون للجمهورية، فقد رأت النور ثلة من السياسيين المرموقين الذين كانوا نتاج الدوائر الصوفية. أما الطرق، فقد تأقلمت مع الوضع الجديد، وأصبحت تنعم بحرية أكبر على هيئة مراكز ثقافية وجمعيات فنية وفلكلورية وتاريخية.

وفي أثناء زيارتي تكية صوفية في قديمة في مقاطعة جالطافي إسطنبول، التي حُوِّلت إلى متحف، رأيت شجرة عتيقة، وقد شَقَّتِ الشَّاهِدَ المُقَامَ على قَبرِ وليّ صالح، بُني بالرخام، واخترقته لتقف شامخة فوقه. فبدت الشجرة كأنها تنبع من البركة التي تنبعث من ذلك الوليّ، ورأيت فيها صورة لجذور التصوف الضاربة في تركيا.

قضى جلال الدين الرومي، الذي كان يحب جميع الأديان، وكان بحسب قوله يدين بدين الحب، سنين طويلة من حياته في تركيا. وفي القرن الثالث عشر، أسس بها مريدوه الطريقة المولوية، التي يُسمى أتباعها اليوم بـِ

(الدراويش الدوّارين). ويرقد جثمان الرومي في قونية، بقلب الأناضول. وقد حُوِّل ضريحه، الذي كان مقرًّا لطريقته، إلى متحف وهو يحظى بالمرتبة الثانية في إسطنبول من حيث عدد زائريه، بعد قصر توبكابي. وبالنسبة للفارسيين، فإن هذا المقام يأتي ثانيًا بعد الكعبة المشرفة من حيث قداسته.

وكثيرًا ما أسرتني أشعار الرومي، حتى قبل دخولي الإسلام، وكنت سعيدة جدًّا بزيارة مقام مولانا جلال الدين. وحتى أُنشّط ذاكرتي، وأستحضر روح كلماته، إن جاز لي التعبير، قرأت خلال رحلتي إلى قونية كتاب (طريق الحب الصوفي) لمؤلفه ويليام تشيتيك، وهو عبارة عن مجموعة رائعة من دروس الرومي الروحية. ويقع ضريح هذا المعلم تحت قبة فيروزية في بيت بُني على الطراز السلجوقي، تقع خلف حديقة بها نافورة ومحل لبيع هدايا تذكارية. أما داخل الضريح فهو بسيط، حيث زُيّنت حيطانه ببضع آيات من الذكر الحكيم خُطّت بخط عربي بديع، وبعض مشغولات الأرابيسك (الزخرفة العربية). وقد دُفن إلى جانبه عدد من كبار أعلام الصوفية، إضافة إلى بعض من أفراد عائلة الرومي. وكان كل قبر مغطًّى بالقماش، فيما وضعت عمامة عند رأس كل واحد منهم. أما قبر الرومي، فهو أقصى قبر داخل الضريح، ويغطيه قماش مطرز بآيات قرآنية، في حين تزين الحائط الذي يقع خلفه مباشرة بالمزيد من الآيات القرآنية التي خُطّت بلون ذهبي. وجلسنا أمام قبر الرومي ندعو له، ونسأل الله أن تعمنا بركته. وكان هناك قبالة القبر مباشرة، عرض لبعض أغراض الرومي الشخصية التي كان يستخدمها في حياته، مثل سبحته، وعدد من معاطفه، ونايه الشهير، والدف، وبعض آلات العود، إضافة إلى بعض أشهر أشعاره التي كانت معروضة بلغات مختلفة. وفي طريقي لمغادرة المكان، لم أستطع أن أقاوم الدخول إلى محل الهدايا التذكارية، ومنه اشتريت كوبين يحملان

اسم الرومي، أحدهما لي، والآخر لروبي، وأنا أفكر في وعاء القلب الذي يجب علينا أن نُخْلِيه.

وحينما عدنا إلى إسطنبول، زرنا بها مساجد غاية في الجمال، مثل مسجد السلطان أحمد، المعروف بالمسجد الأزرق، الذي يشتهر بمآذنه الرفيعة الست. وقد تسنّى لنا أن نصلي فيه صلاة الجمعة. وقد رسُمت في قباب المسجد من الداخل رسوم لا نهاية لها على شكل ورود، وزُينت بزخارف باللون الأزرق. ويتدلى من سقف المسجد عدد من الشمعدانات الضخمة، في حين فُرشت أرضيته بالسجاد الأحمر. خلعنا نعالنا واتجهت إلى الجهة المخصصة للنساء، وقد صُممت على هيئة شرفة تُمكّن من كان بها من أن يحظى بإطلالة هائلة على سائر أنحاء المسجد. إنه من المساجد القليلة التي تستطيع النساء فيها أن ينعمن بجمال العمارة العريقة وعبقريتها، ويمكنهن أيضًا أن يصلين إما في مساحات مخصصة لذلك في الخلف، أو في الرواق. لقد كنت في غاية السرور وأنا بين جنبات هذا المسجد، حيث أمكنني أن أستمد بركة المكان، وأصلي صلاة الجمعة إلى جانب بضعة آلاف من المصلين. وقد حرصت على أن أعود وأصلي في هذا المسجد كلما أمكنني ذلك خلال مقامي بتركيا.

وزرنا كذلك البازار الكبير، وذهبنا إلى أحد أقدم الحمامات للاستمتاع بفرصة الاسترخاء به. ولما ذهبنا في رحلة بالقارب عبر مضيق البوسفور، كان في انتظاري أروع منظر غروب رأيته في حياتي؛ وقد أغرق صفحة الماء كلها في لون الشفق البرتقالي القاني. وكانت أبرز زياراتنا تلك التي قمنا بها إلى الطريقة الجراحية، حيث شهدنا جلسة من السماع، أعقبها رقصة (للدراويش الدوّارين). أما المكان فكان في تكية سرية لا يمكن لمن يراها من الخارج أن يشك أبدًا في أنها تكية. ولا يمكن لأحد أن يتخيل أنه،

بداخل ذلك البناء، كانت تُنظَّم جلسات ذكر بانتظام. وقد دُعيت المجموعة التي كنت أرافقها في تلك الرحلة للانضمام إلى جلسة الذكر تلك مساء يوم الخميس، وهي ليلة اليوم الذي يعظّمه المسلمون، وهذا ما جرت به العادة بعقد مجالس الذكر حول العالم. فخلعنا نعالنا على باب التكية، ودلفنا إلى الداخل حيث جلسنا لتناول الطعام على الأرض مع بقية الحاضرين. وجلست النساء منفصلات عن الرجال. وكان المكان كبيرًا نسبيًّا، وذا سقف مرتفع، وبه رواق مخصص للنساء، وتزين حيطانه آيات قرآنية، وبه محراب زُيِّن بقطع بلاط تحمل رسومًا على شكل ورود. وبعد تناول الطعام، صلينا المغرب، قبل أن تبدأ جلسة الذكر. وكان الرجال يرددون صيغ الذكر التي كان يقولها الشيخ، وهي صيغ لذكر الله وأسمائه الحسنى، في حين كانوا يغيرون باستمرار وضعيات أجسادهم؛ ففي البداية، كانوا يذكرون جلوسًا، قبل أن يقفوا في صفوف متراصة، وهم يمسكون بأيدي بعضهم بعضًا، ويتحركون بانتظام على وقع الدف. وكان الشيخ يقود حركات الفقراء، وينبه كل من يخرج عن التناسق العام للمجموعة بحركة منه. وكانوا في أثناء ذكرهم ذاك يتحركون إلى الأمام وإلى الوراء، وصارت حركاتهم وتعابيرهم تزداد همة وحزمًا شيئًا فشيئًا. وقد زادت مدة ذلك الذكر على الساعة من الزمن، وانضمت إليه النساء في رواقهن، وصرن يتحركن على إيقاع الذكر. وكان بعضهن يفقدن التحكم بأنفسهن من أثر ذلك الذكر، في حين كانت تنساب دموع بعضهن الأخريات.

تقدم بعد ذلك عدد من الدراويش بكل بطء وأناة حتى أخذوا مكانهم وسط العرفة. وكانوا يرتدون طرابيش طويلة وعباءات طويلة سوداء قد نزعوها بهدوء. وترمز العباءة السوداء إلى قبر الدرويش، وحين ينزعها، يكون قد نزع ذاته، وَوِلِد من جديد. وانطلق الناي فلمس قلبي بترانيم الحب والشوق للمحبوب. ثم بدأ الدراويش يدورون كلٌّ حول نفسه،

بإيقاع متسارع إلى أن بدأت أطراف عباءاتهم البيضاء ترتفع عن الأرض بفعل دورانهم، وراحت تدور حولهم تمامًا مثل تموجات الماء. وبدوا في حركاتهم تلك كأنهم يرتفعون عن الأرض. لقد سرّتني أناقة تلك الحركات والانسجام التام الذي يميز كل تفاصيلها.

وقد كان الشيخ أبوبكر قد فسر أن ذلك الدوران يزج (بالدرويش) في حالة من التركيز التام مع الله سبحانه وتعالى، وقد وصف رمزيتها بقوله: «إن المركز الذي لا يُرَى ولا يتحرك هو الوجود الإلهي، وكل شيء يركز حركته حول هذا المركز. أما ما نراه، فهي دوائر تتوسط دوائر أخرى. وترمز الدائرة في حد ذاتها إلى الجنة الكائنة على الأرض، في حين أن الدائرة المركزية هي جسم (الدرويش) الذي يدور حول المركز الذي لا يرُى. وفيما عدا ذلك، فإن الدائرة الخارجية ترسمها ذراعا (الدرويش) اللتان يمدهما، وترسمها أيضًا أطراف عباءته السفلية التي تسير في تماوجها، وتشكل حلقة حين جسم الإنسان.

وتشهد الذراعان على خاصية الإنسان التي خُلق بها، وهي وظيفته بصفته واسطة بين السماء والأرض. وفيما نظل كف (الدرويش) اليمنى مفتوحة نحو السماء لاستقبال نعم الله، فإن الكف اليسرى تبقى مفتوحة إلى الأسفل من أجل إيصال هذه النعم إلى الأرض. إن هذه الرقصة هي أبلغ صورة لما كان عليه الإنسان، وعلى الحالة التي ينبغي له أن يعود إليها». (الرومي، أجنحة الحب لمؤلفه شمس فريدلاندر)

بينما كنا نهمّ بمغادرة المكان، لاحظت أن ما من أحد من أولئك (الدراويش) رفع عينيه لينظر إلى النساء، وهي علامة على ورعهم وتقواهم.

ويدرك المجلس التركي للسياحة تمامًا مدى انبهار الناس من كل بقاع

العالم بـِ (الدراويش الدوّارين)، لدرجة أنه جعل منهم جزءًا من حملاته الترويجية للسياحة في تركيا. وتُقام عروض (الدراويش الدوّارين) في أرجاء البلاد كلها، وحتى خارج تركيا. وهو أمر يلاقي بعض الانتقاد على أساس أن هذه العروض تقام لأغراض تجارية محضة، وأن المعنى الحقيقي لهذه الرقصة لم يعد موجودًا. ومن ناحية أخرى، فإن تلك العروض تمكّن الناس من أن يتذوقوا ولو من بعيد جانبًا من جمالية التأمل الصوفي في معنى الحب. وربما تكون تلك العروض سببًا في انطلاق جذوة البحث عن الحقيقة. وبحسب تعبير الرومي: «كل أشكال الحب جسر إلى محبة الله، ومن لم يذق ذلك الحب، لا يمكنه أن يعرف».

ومن المفارقات أن جلال الدين الرومي، المعروف بأنه المعلم الصوفي وشاعر الحب، الذي عبّر عن حقيقة الإسلام كما لم يفعل غيره، مشهور في الولايات المتحدة وأوروبا كشهرته في تركيا وإيران. وهو ما يدل على أن التصوف يمكنه أن يكون جسرًا ثقافيًا وروحيًا بين الشرق والغرب. بل ويمكن لهذا البعد الروحي داخل الإسلام أن يكون ترياقًا للتطرف. وعلى الرغم من أن التصوف يجب أن يبقى أسمى من أي حسابات سياسية، فإنه مما لا شك فيه أن لا وجود لشيء اسمه الصوفي الإرهابي.



[(1)] فور ويدينجز آند آي فيونيرال.

[(1)] انظر كذلك كتاب جوزيف لامبارد: (الإسلام، الأصولية وخيانة

الموروث الإسلامي).

[(1)] البيهقي.

[(1)] الجامع الصغير للإمام السيوطي.

[(2)]رواه الترمذي وغيره وصححه الألباني.

[(1)] البهلوانيين.

[(2)] قاعات.

[(1)]مدينة سياحية إسبانية.

[(1)]أي أنه كان طاهرًا من الناحية الأخلاقية والشرعية.

الفصل الرابع عشر

رحلة إلى الفؤاد: الحج

أصبحنا جميعًا إخوة.

مالكوم إكس

مرّ نحو عقد من الزمان على دخولي الإسلام، تغيرت فيه أشياء كثيرة في حياتي؛ فقد أصبحت أتبع التعاليم الإسلامية، وتركت جزءًا كبيرًا من حياتي وراء ظهري. وأصبحت أصلي بانتظام، وأصوم رمضان، وأحتفل بالأعياد الإسلامية، وأمتلك دائرة أصدقاء مسلمين يدعمونني معنويًّا، ويشاركونني في معتقداتي الدينية.

لكن كان لا يزال عليّ أن أقوم بواحدة من أهم الخطوات على طريقي إلى الله، وهي حج بيته الحرام. فالمسلمون كلهم يتوقون إلى تأدية هذه الفريضة، على الأقل، مرة واحدة في العمر. وكنت قد خبرت صورة عن هذه الرحلة حين ذهبت في رحلة العمرة. وعلى الرغم من أن هناك تشابهًا بين بعض مناسك كل منهما، فإن العمرة سُنّة اختيارية ووجيزة من حيث وقت أدائها، في حين أن الحج فريضة، وخامس أركان الإسلام، وهو أضخم تجمع ديني سنوي في العالم. ويجب الحج مرة واحدة في حياة كل مسلم قادر بدنيًّا وماديًّا على القيام به. وبخلاف العمرة التي يمكن أن تؤدى في أي وقت من السنة، فإن وقت أداء الحج يبدأ من الثامن إلى الثاني عشر من شهر ذي الحجة. وخلال هذه الأيام، تعج مكة المكرمة بنحو ثلاثة ملايين حاج؛ ما يجعل الحج الإسلامي أضخم حدث في العالم بما يقتضيه من تجهيزات وإعدادات لوجستية هائلة. وقد تمت توسعة المسجد الحرام مرات عدة في محاولات لاحتواء أكبر عدد ممكن من الحجيج. وما زال يعرف أشغال ووسعة إلى الآن. ويمكث الحجاج كذلك في مِنى، حيث

يقيمون ثلاث ليالٍ في خيامها التي تنصب على بعد خمسة كيلومترات شرق مكة المكرمة، ويقومون في أثناء مقامهم ذاك برمي الجمرات. ومكان رمي الجمرات هو المكان الذي رجم فيه سيدنا إبراهيم عليه السلام الشيطان، حين أتاه يريد أن يحول بينه وبين تنفيذ أمر ربه له بأن يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام.

ويفكر كثير من الحجاج في إمكانية عدم رجوعهم إلى بلدانهم وأهليهم أحياء. ويعود ذلك إلى أنه قبل تطور وسائل المواصلات، وظهور الطائرات والقطارات والسيارات، كانت رحلة الحج طويلة وعسيرة ومحفوفة بالأخطار. وإلى اليوم، يكتب كثير من الناس وصيتهم قبل القيام بهذه الرحلة، إضافة إلى أنهم يودعون أقاربهم، ويحاولون أن يصلحوا ذات بينهم مع من نشبت معهم خلافات. وحتى مع التطور الحاصل على المستويات كلها، فإن هذه الفريضة لا تزال عسيرة، ولا يُستغرب وفاة كبار السن بصورة طبيعية في مكة المكرمة؛ وذلك بسبب مشقة هذا الركن من الإسلام. ويُدفن من يتوفاه الله بتلك الديار المقدسة في مكان مخصص لذلك قريب من الكعبة المشرفة، بعد أن تُؤدى عليهم صلاة الجنازة.

في أغسطس من عام 2005م، ذهبت مع أبي وزوجته نفس المنتجع الذي اعتدنا الذهاب إليه كعائلة في طفولتي، ويقع على ساحل بحر الشمال في ألمانيا. فصليت صلاة الفجر، ثم رحت أردد تلاوة آية من سورة الحج، كانت زين قد نصحتني بقراءتها. وكانت الآية 27 التي جاء فيها: (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ).

عدت إلى النوم بعد ذلك، وإذ بي أسمع في منامي صوتًا عميقًا وقويًّا كأنه قادم من مكان ما في الكون، وليس صوت بشر. وسألني ذلك الصوت العالي: «هل تريدين الذهاب للحج؟»، ثم رأيت المهندس المعمار الذي

يعمل في السعودية، والذي لم أقابله منذ سنين طويلة، ما ذكّرني بأنه لا تزال في ذمتي فاتورة كبيرة القيمة لم أسدد ثمنها بعد. لقد بدا لي المعنى واضحًا؛ كان الله سبحانه وتعالى يدعوني لأن أحج، لكن كان عليّ أن أسدد ديوني قبل ذلك. ولا يمكن للمسلم أن يذهب إلى الحج إلا إن كانت ذمته خالية من الديون، أو على الأقل أن يكون قد أعدّ إعدادًا مناسبًا لضمان سدادها. إن مسألة الديون لها أهمية قصوى، وتؤخذ بجدية كبيرة في الإسلام. وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِنَّ أَعْظَمَ خَطِيئَةٍ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ الْكَبَائِرِ الَّتي نَهَى اللهُ عَنْهَا أَنْ يَمُوتَ الرَّجُلُ، وَعَلَيْهِ دَيْنٌ فِي عُنُقِهِ لا يَجِدُ لَهُ قَضَاء». وأنه صلى الله عليه وسلم رفض أن يصلي صلاة الجنازة على رجل مات، وترك خلفه ديونًا حتى سُددت عنه تلك الديون.

ويقال إن على المسلم أن يحج متى ما أتيحت له الفرصة لأداء هذه الفريضة؛ لأن تلك الفرصة قد لا تتاح له مرة أخرى. وقد صادف أن موسم الحج 2005م تزامن مع عطلة أعياد الميلاد في شهر ديسمبر، إضافة إلى عيد ميلادي الأربعين. ولم يكن هناك ما يحول دون ذهابي في هذه الرحلة، ولا سيما أن مجموعة من أصدقائي كانوا يفكرون كذلك في حج بيت الله الحرام. فكانت تلك الفرصة مواتية جدًّا، على الرغم من أني كنت أتمنى لو أمكنني أن أؤدي هذه الفريضة برفقة زوجي. ولأن ما من إشارة كانت تدل على قرب ظهور هذا الزوج المنتظر، لم يكن هناك من مبرر لتأخير أداء هذا الواجب الديني. وبدا سداد ديوني أمرًا لا يستحق كثيرًا من التفكير. غير أني شعرت في الخريف بأني أصبت بداء الانزلاق الغضروفي، وأظهرت الأشعة أنني في حاجة إلى إجراء عملية جراحية. ومرت عليّ أيام لم أكن أقوى فيها على الوقوف أو المشي منتصبة القامة من دون أن أجلس بين الفينة والأخرى لأريح ظهري، لكني كنت مصرة على تجنب الخضوع للجراحة. ووصفت لي الدكتورة أمينة جلسات منتظمة للعلاج الطبيعي،

إضافة إلى مضادات الالتهاب وأدوية قوية لإزالة الألم، كنت آخذها إما في الصباح الباكر أو في المساء؛ لأني كنت أصوم شهر رمضان المبارك. وكانت تلك الأدوية قوية لدرجة أنها جعلتني أشعر أحيانًا بأني لست في كامل وعيي وصفائي الذهني. وكانت فدوى وصديقتها زين أول من زارني، وقد بذلتا كل ما في وسعهما كي ترفعا من معنوياتى، وذكّرتاني بما قاله الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم: «الْمَرِيضُ ضَيْفُ اللهِ مَا دَامَ فِي مَرَضِهِ، يَرْفَعُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ عَمَلَ سَبْعِيْنَ شَهِيْدًا، فَإِنْ عَافَاهُ مِنْ مَرَضِهِ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، فَإِنْ قَضَى عَلِيْهِ بِالْمَوْتِ أَدْخَلَهُ أَلْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ» [(1)]

نزلت هذه الكلمات بردًا وسلامًا على قلبي، وأحسست بأن آلامي بدأت تخف شيئًا فشيئًا. غير أن اختصاصي العلاج الطبيعي الذي كنت أزوره ثلاث مرات في الأسبوع نصحني بعدم الذهاب للحج، لأنه سيكون تحديًّا حقيقيًّا بالنسبة إليّ، إضافة إلى الساعات الطويلة التي يقضيها الحجاج في التنقل بالحافلات، وهو الذي سيكون له مفعول السم على فقرات ظهري. ولم أجد بدًّا من أن أقبل بنصيحته. لكني شعرت ببعض التحسن بعد بضعة أسابيع، لدرجة أني بدأت أمارس تمارين تقوية العضلات الأساسية وتمارين بيلاتيس [(2)]، أملاً في أن تقوّي وتشد عمودي الفقري. وعقب مجلس ليلة القدر السنوية في منزل صديقي سامية، طلبت من زوجها هلال، وهو أحد أهم أطباء جراحة الظهر في بريطانيا، أن يلقي نظرة على صور أشعة ظهري، ويخبرني برأيه في حالتي، فقال لي إنه من الواضح أن إحدى فقرات ظهري انزاحت على نحوٍ خطير عن مكانها، لكني على الرغم من ذلك تعافيت بصورة مذهلة بفضل الله سبحانه وتعالى، وأنه ما من سبب يمنعني من الذهاب إلى حج بيت الله الحرام إن لم أعد أشعر بالألم. لقد رأيت في تلك المعافاة معجزة تحققت لي بفضل الله في شهر رمضان

المبارك.

وزاد من تحمسي لرحلة الحج أني علمت أن الدكتورة أمينة، التي سبق لها أن زارت مكة المكرمة مرات عدة، تفكر هي الأخرى في الحج. ويقدم وكلاء السفر المتخصصون في خدمات الحج عروضاً تتنوع بين الأساسيات الضرورية والخدمات الفاخرة. فاقترحت الدكتورة أمينة أن نذهب مع وكالة تقدم أبسط الخدمات. وقالت إنها سبق أن ذهبت مع هده الوكالة، وبحسب تجربتها فإن هذه الوكالة، التي تقع بالقرب من مسجد ريجنتس بارك، تتميز بمستوًى أعلى من التنظيم، وتقدم خدمات تناسب احتياجات كل حاج، أكثر من عروض الحج الباهظة الثمن. فقررت أن أقصد تلك الوكالة للحصول على قدر أكبر من المعلومات. وقابلت حمدي، مدير الوكالة، الذي شرح لي باستفاضة كبيرة مراحل الحج كلها، ولم يُخْفِ تواضع مستوى أماكن الإقامة في إطار هذا العرض. وأعطاني شريط فيديو لمشاهدته في البيت حتى أتأكد أني على علم، وأوافق على تفاصيل ذلك العرض. وكان شريط الفيديوواضحاً، ولم يحاول مداراة المشقة التي ينطوي عليها ذلك العرض البسيط، ومما لا شك فيه أنه كان حجًّا بالقلب. وبعدما تبينت ما كنت مقبلة عليه، قررت أن أحجز للقيام برحلة الحج مع تلك الوكالة. وقلت لنفسي أنه، في نهاية المطاف، لا يجب أن يخلط المرء بين الحج الحقيقي والعطلة الترفيهية.

يُقال: ما من أحد يمكنه أن يحج من دون أن يكون مدعوًّا لتلك الرحلة من الله عزّ وجلّ. وحتى لحظة جلوس المرء في مقعده من الطائرة التي ستأخذه إلى مكة المكرمة، فإن أي شيء قد يحدث، وقد تجري كثير من الأمور بما لا تشتهي السفن. وما إن أكدت حجزي، حتى واجهت أول عقبة في طريقي للحج؛ ذلك أن السفارة السعودية تشترط لمنح تأشيرة الحج أن

يكون جواز سفر الحجاج ساري المفعول مدة ستة أشهر على الأقل بعد دخولهم أرض المملكة العربية السعودية، في حين كانت صلاحية جوازي على وشك الانتهاء. ولحسن الحظ، فقد كنت قد استمعت لنصيحة أمي التي أشارت عليّ خلال آخر زيارة لي لها مبورج، بأن أبدأ إجراءات تجديد جواز سفري. فاتصلت بالسلطات الألمانية، وحاولت، ثم أفلحت في إقناعهم بأن يسمحوا لأمي بأن تنوب عني في استلام جوازي. وعلى الرغم من أنها كانت قلقة من ذهابي للحج، وتمنت ألا أذهب، فإنها أرسلته عن طريق البريد السريع إلى لندن، فوصلني في الوقت المناسب لكي أبدأ إجراءات طلب تأشيرة الحج. وقال لي أحد الأصدقاء وقتها(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ) (سورة المدثر: الآية 31).

كنت أنا والدكتورة أمينة ضمن فوج من خمسين حاجًّا بريطانيًّا، على أن ينضم إلينا خمسون حاجًّا مصريًّا لدى توقف الطائرة بالقاهرة. وأعدّت وكالة الأسفار تفاصيل الرحلة كلها من إجراءات التأشيرة، إلى أماكن الإقامة، ووسائل التنقل بين البقاع المقدسة. وكان المشرف على فوجنا يقوم مقام المحرم بالنسبة إلى النساء غير المتزوجات. وقد رافقنا إمام على درجة كبيرة من العلم. وكان أحد خريجي الأزهر الشريف، ويلقي أحيانًا خطبة الجمعة بالمسجد المركزي في لندن. كان هذا الإمام يشرح لنا مناسك الحج، ويجيب عن الأسئلة التي يتلقاها من الحجيج خلال الرحلة. وأُعطي كلٌّ منا بطاقة تعريف كُتب عليها معلومات تتعلق بكل واحد منّا بالعربية والإنجليزية، بما فيها أرقام الهواتف، وأرقام مسؤول الاتصال المحلي، وعناويننا في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وطلب منا أن نحتفظ بهذه البطاقات معلقة حول العنق طوال الوقت، حتى يمكن عن طريقها الاستدلال علينا بسهولة إن ضللنا الطريق.

مع حلول شهر ديسمبر، كنت منهمكةً في الإعداد لرحلة الحج. واشتريت ما يلزمني للمبيت في الصحراء، مثل فراش المبيت ووسادة تصلح للسفر ومنشفة؛ ولأن درجات الحرارة قد تنـزل إلى أدنى مستوياتها ليلاً، فقد أردت أن أكون في تمام الاستعداد. فأخذت معي عددًا من غيارات الإحرام وأحذية مريحة؛ لأن رحلة الحج تعتمد على الكثير من المشي، إضافة إلى حزام من نوع خاص يلبس حول الخصر؛ لدعم الظهر خلال الساعات الطويلة التي نقضيها في وسائل المواصلات. وأخذت معي كذلك حقيبة من العلاجات المثلية تضم إسعافات أولية وأدوية إنفلونزا؛ لأن الإنفلونزا من الأمور التي تشيع بين الحجاج. وكان لديّ كذلك حقيبة كتف أحمل فيها مصحفي وأغراضي الأساسية، من صنع خيّاطتي نينا، التي تنحدر من الهند. وكانت نينا شديدة الإيمان، وقد أصبحت صديقة مقربة لي، ومستشارتي في كل شؤون حياتي، تمامًا كما هو شأنها مع زبائنها الآخرين. وكنت طوال عشر سنوات، أوكل إليها مهمة توسيع ملابسي أو تضييقها أوإصلاحها.

وقبل موعد الذهاب إلى العربية السعودية بوقت وجيز. اتصلت بي قناة الإسلام البريطانية لتسألني إن كنتُ مهتمة بأن أغطي مناسك الحج لمصلحتها. وبعد أن فكرت في ذالك العرض قليلًا قررت أن تكون أول رحلة حج لي خالصة لوجه الله تعالى. وأردت أن أركز كليًّا على تلك الرحلة، وأعيشها بتفاصيلها الإيمانية الدقيقة، فكان عليّ أن أعتذر بلطف على قبول ذلك العرض.

ولم يبخل عليّ أصدقائي بنصائحهم، بل قدّم لي كثير منهم هدايا مفيدة. كان من بينها كتيب صغيركنت أعلقه حول رقبتي، وكان يحتوي على المعلومات الأساسية التي تخص مناسك الحج، والأدعية التي تقال في كل

مشعر من المشاعر. ووعدت أصدقائي كلهم أن أدعولهم في المسجد الحرام.

ثم أتى يوم الرحلة المنتظر، واستمر القسم الأول من الرحلة خمس ساعات، توقفنا بعدها في القاهرة. وتعرفت خلال تلك المدة إلى عدد من رفقائي من الحجاج. كان من بينهم فاطمة، وهي سيدة فنلندية كانت ذاهبة في ثاني رحلة لها لأداء مناسك الحج. وسيدة من الكاراييبي على كرسي متحرك، والسيد إمام، وهو متصوف من بنجلاديش في الثمانين من عمره، وكان صديقًا للدكتورة أمينة. إضافة إلى شاب يُدعى عزيزًا كان يرافق السيد إمام. وكان الرجلان ينتميان إلى جماعة الشيخ ناظم الصوفية، وأصبحا أخويَّ في رحلة الحج تلك. بعد أن وصلنا إلى القاهرة. غادرناها إلى جدة في منتصف الليل. وكانت الطائرة تعج بالحجاج. وكان أغلبهم يرتدون زي الإحرام الأبيض، تمامًا مثل لباس سيدنا إبراهيم عليه السلام. وفي حقيقة الأمر، فإن القيام برحلة الحج يُعدّ عودة في الزمن إلى وقت سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهذا ما يفسر أن كثيرًا من شعائر الحج مرتبط بأبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام.

ولدى وصولنا إلى جدة. توجهنا مباشرة إلى القاعة المخصصة للحجاج، حيث انتظرنا ساعات عدة، الحافلات التي ستقلنا إلى المدينة المنورة. وهي الوجهة التي كنا سنبدأ منها زيارتنا. وعلى الرغم من أن الوقت كان ليلًا، فإن المطار كان يعج بالحجاج الذين ينتظرون حافلاتهم وغيرها من وسائل المواصلات، تحت مظلات بيضاء عملاقة، كان بودوراش قد صممها. أما المحال التجارية بالمطار، فكانت توفر للحجاج كل ما يحتاجون إليه للحج من فرش بلاستيكية تفترش للنوم في الصحراء، وملابس إحرام وسبحات. وافترش كثير من الناس الأرض، وناموا في المطار. وتجولت في المكان إلى أن وجدت مصلّى النساء، فصليت فيه الفجر. وبدأت درجات الحرارة ترتفع

بعد شروق الشمس، ثم شعرت كأني نقِلْتُ إلى عالم مختلف تمامًا.

وكانت رحلتنا إلى المدينة المنورة شاقة جدًّا؛ ذلك أن الحافلة كان صغيرة، وغير مريحة، ومزدحمة بالحجاج الذين كانوا أشبه بسمك سردين في علبة صغيرة. فحاولت أن أنام قليلًا، لكنني كنت أصحووكلما سقط رأسي على كتف زوجة الإمام، التي كانت جالسة بجواري. وبدأت أدرك أنه لا يجب الاستهانة بالمجهود البدني الذي يتطلبه الحج. غير أني هونت على نفسي بالتفكير في ثواب تلك المشقة التي سيبدلنيها الله سبحانه وتعالى في مقابل إيماني أستشعره في قلبي. وتوقفنا عند إحدى الاستراحات على الطريق، وتناولنا الشاي. ونبهتني إحدى السيدات إلى أن بعض الشعيرات أفلتت من غطاء رأسي، على الرغم من أني كنت أضع تحت غطاء رأسي شريطًا خاصًّا يمنع شعري من الإفلات من حجابي. وقد اقترحت عليّ قائلة: «عليك أن تلفي غطاء رأسك حول رأسك مرتين، مثلنا، ثم تحكمي شده بالدبابيس. بهذه الطريقة، سيبقى غطاء رأسك في مكانه». ولحسن الحظ، كنت قد ابتعت عددًا لا بأس به من الدبابيس، عملًا بنصيحة الدكتورة أمينة.

ولدى وصولنا إلى المدينة المنورة، اتجهت مع الدكتورة أمينة مباشرة إلى الغرفة التي كان مقررًا لنا أن نقتسمها مع خمس سيدات أخريات، وكانت فاطمة إحداهن، حيث كانت الدكتورة أمينة، التي كانت حينها في أواخر الستينيات من عمرها، عادةً ما تدفع كرسيها المتحرك. وقد منعتني الدكتورة أمينة من أن أساعدها على دفع السيدة فاطمة، لأني كنت لا أزال أتعافى من انزياح فقرات ظهري؛ أما رفاقنا من الحجاج الرجال، فمن الواضح أنه كانت لهم أولويات أخرى. وعلى أي حال، فقد كانت فاطمة محظوظة؛ لأنها كان تلقى عناية خاصة من طبيبة مقتدرة. وكانت تلك

رحلة الدكتورة أمينة الخامسة للحج، ولا شك في أن البركة كانت تحفها بسبب تفانيها وحرصها على زيارة بيت الله الحرام. وقد شاء القدر أن تتوفى السيدة فاطمة بعد مدة قصيرة من عودتنا من رحلة الحج التي جمعتنا معًا.

لم تكن الشقة التي مكثنا فيها مزوّدة بأدنى وسائل الراحة، وفي بداية الأمر، لم تكن مزوّدة حتى بالماء. إنّ ما كنت في أمس الحاجة إليه بعد تلك الرحلة الطويلة هو الاستحمام. لكننا كنا قد اخترنا الخدمة الأساسية للحج، ولم يكن لدينا أي خيارآخر غير تقبل ذلك الوضع على حاله. ونظرًا إلى خبرتها وعلمها بتلك الظروف، جلبت الدكتورة أمينة معها بعض قناني ماء بها بخاخ، وسمحت لنا جميعًا بأن ننتعش بتلك البخاخات قبل الذهاب إلى المسجد النبوي الشريف.

وترجلنا من الحافلة في أقرب مكان من المدخل الرئيس للمسجد يمكن لها أن تصل إليه، حيث كان المارة كلهم متوجهين نحو الوجهة نفسها، وهي المسجد النبوي الشريف. وكانوا جميعًا يرتدون ملابس طويلة بألوان مختلفة. ومشينا على ممر الراجلين [(1)]، ومررنا في طريقنا على بائعي السجاد والصندل ومحال بيع المجوهرات إلى أن لاح لنا المسجد بعظمته وجلاله. وكان ذلك وقت المغيب، وكان ما تبقى من لون الشمس الوردي يتآلف في انسجام تام مع الهندسة الرائعة ومآذن المسجد العشر التي تنتصب شامخة نحو السماء. ثم علا صوت أذان المغرب من إحدى المآذن، فأسرع الحجاج الخطا نحو المسجد. وفي مدخل المسجد، ذهبت أنا ونساء مجموعتنا إلى المكان المخصص لنا.

لقد كنت في غاية السرور لعودتي مرة أخرى إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ووقفت منبهرة أمام جمال قبابه ومآذنه المنتصبة شامخة

في سماء تلك الأمسية. ولم أستطع أن أتمالك نفسي، فأخرجت آلة التصوير، ورحت ألتقط بعض الصور. وما إن صورت بعض النسوة اللاتي أتين للصلاة بهذا المسجد، حتى نادتني سيدة ممن يعملن بالمسجد، وكانت ترتدي ثيابًا سوداء، وسألتني عن اسمي، وحاولت مصادرة آلة التصوير. وأخبرتني بأنه، في العربية السعودية، لا تحبذ النساء المنقبات أن يصورهن أحد. ولحسن الحظ، تمكنت من إقناعها بألا تصادر آلة التصوير، ووعدتها بألا ألتقط مزيدًا من الصور. وجلست بكل احترام وتأدب، إلى جوار السيدات اللواتي كن يصلين، ذلك أني لم أتمكن من أداء الفريضة حينها. وفيما يمكن للنساء، في مدة الخيض، ان يقمن بالدعاء والتبتل لله تعالى بصورة فردية، فإنه تسقط عنهن أداء الصلوات الخمس المفروضة. ويرى بعض العلماء أن الحائض لا ينبغي لها أن تدخل الحرمين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، غير أن أحاديث نبوية من السنة الشريفة أوردت أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب من زوجته عائشة رضي الله عنها أن تحضر له سجادة صلاة من المسجد، وكانت حائضًا وقتها. وعلى كل حال، قررت أن أبقى في باحة المسجد.

أسفت لعدم قدرتي على المشاركة في أداء الصلاة المفروضة جماعة، لكني كنت مسرورة؛ لأن هذا العذر سينقضي قبل وصولي إلى مكة المكرمة، وإلا لما أمكنني الطواف بالكعبة المشرفة، ولكان عليّ أن أؤدي الطواف في وقت لاحق. ولتفادي الوقوع في هذا الموقف، تتناول بعض النسوة أدوية هرمونية تؤخر وقت الحيض قبل الشروع في أداء فريضة الحج. أما بالنسبة إليّ، فقد كنت سعيدة بأن أكون في تلك البقاع المقدسة، أذكر الله وأستمع للإمام، وأشاهد السيدات اللواتي قد اصطففن يؤدين الصلاة، وينحنين في حركات غاية في التناسق والانسجام.

ولدى عودتنا إلى الشقة، شعرنا بسعادة كبيرة حين وجدنا أن الصنابيرصلحت، وأن المياه أصبحت متوافرة. وما إن اغتسلت وأكلت وجبة من خبز الروتي والعدس، حتى آويت إلى فراشي وأنا منهكة من التعب. وعلى الرغم من أن الفراش كان قاسيًا وغير مريح، لكنني سرعان ما رحت في نوم عميق خلال دقائق، استيقظت بعدها عند الثالثة فجرًا بسبب إشعال ضوء الغرفة. وكانت رفيقاتي يتهيّأن للانطلاق لأداء صلاة الفجر في المسجد النبوي. وكان علينا أن نلحق بالحافلة عند الخامسة صباحًا، وإلا فسيكون من الصعب علينا أن نجد مكانًا للصلاة في المسجد النبوي. وكنّا حريصات جدًّا على الصلاة فيه؛ لأنها تعدل ألف صلاة في غيره من مساجد العالم، باستثناء المسجد الحرام في مكة المكرمة.

وفي المساء، كنّا على موعد مع اجتماع لمجموعتنا مع منظّمي الرحلة والإمام المرافق لنا للتحضير للأيام المقبلة. وقد تحدث إلينا الإمام، قائلًا: «أن ما نعيشه خلال رحلة الحج ما هو إلا انعكاس لما بداخلنا. وفي حين يجد بعضنا في هذه الرحلة اختبارًا عسيرًا، يعيش بعضنا الآخرخلال كل لحظة من لحظاته سعادة عارمة، بغض النظر عن التعب الكبير وقلة سبل الراحة». وبعد ذلك، عاد كل من أعضاء مجموعتنا إلى غرفته، وتسنّى لنا بعد ذلك أن يتعرف بعضنا إلى بعض، ونحن نتناول وجبة عشاء خفيفة.

كان ذلك اليوم هو الخامس والعشرين من شهر ديسمبر، ولكن في المدينة المنورة، بدا كأن مناسبة عيد ميلاد المسيح بعيدة جدًّا. وعلى الرغم من ذلك، فقد تلقيت خلال النهار رسائل نصية تهنئني بتلك المناسبة على هاتفي من عائلتي وأصدقائي في ألمانيا وإنجلترا، وشعرت كأن تلك الرسائل وردتني من عالم آخر.

وما هي إلا أيام قليلة حتى تمكنت من الانضمام إلى جموع المصلين في

أداء الصلوات المفروضة. وكان الجوباردًا صباح أحد الأيام، وكان الظلام لا يزال يخيم حين وصلت إلى المسجد. وفجأة، اعترضت سبيلي سيدتان من حارسات المسجد ترتديان ملابس سوداء، ولا يُرى منهما شيء. فتشتا حقيبتي، وأخذتا آلة التصوير على الرغم من أني لم أستخدمها؛ لكنهما، هذه المرة، أخبرتاني بأن بإمكاني استعادتها بعد انتهاء الصلاة. وسرعان ما تعلمت كيف أخفي آلة التصوير وهاتفي المحمول في ملابسي حتى لا يعثر عليهما أحد.

لم يكن أفراد مجموعتنا في العادة يخرجون كلهم، بل كنا ننقسم إلى مجموعات صغيرة. وكنت أساعد عزيزًا في العناية بالسيد إمام الذي أعطاني نصائح قيمة تتعلق بالصلاة، وأفدت من حكمته شيئًا كثيرًا. وكنت أحيانًا أستمتع بأن أخلو بنفسي. وكم كانت تروقني مشاهدة جموع المصلين الوافدة على المسجد، وتلك التي كانت في طريقها لمغادرته، والتنوع البشري الهائل الذي كان يميز تلك الجموع. وقد قدم أولئك الناس كلهم من أنحاء المعمورة كافة، ولم أملّ برهة من مشاهدة تنوع ملامحهم وألوانهم وثيابهم. وكان من بين تلك النساء سيدات من مالي، بكامل أناقتهن في أزيائهن الأرجوانية والبرتقالية والخضراء، وعمائمهن التي تناسب ألوانها ألوان تلك الأزياء، ويتدلى منها شريط من القماش من أحد الجنبين. أما الأندونيسيات، فكن يرتدين قفازات وغطاء رأس باللون الأبيض كان يغطي جيوبهن وقد زُيّن بالدانتيل [(1)]، فيما كانت الإيرانيات عادة ما يلبسن ألبسة طويلة سوداء أوزرقاء مع شادور رمادي يصل حتى تحت مستوى ركبهن. ومن جانبهن كان من السهل التعرف إلى المغربيات اللواتي يتميزن بما يسمى في بلادهن (القب)، أو غطاء الرأس الذي يتدلى مثل كيس من أعلى ظهر جلابيبهن. ورأيت كذلك مجموعة من النساء

اللواتي كن يرتدين حجابًا أصفر اللون مع علامة طُرّزت بشكل بادٍ عليه باللون الأزرق، ما يدل على أنهن ينتمين إلى ولاية كيرلا الهندية. وسمعت أيضًا في هذه البقاع المقدسة أصواتًا تتحدث باللغة الألمانية والفرنسية والإنجليزية والأمريكية. وخلال أوقات تجوالي، التقيت مجموعة من الرجال من طاجيكستان يرتدون معاطف مبطنة مطرزة بالدانتيل ومخملية، مع أغطية رأس سوداء مطرزة بخيوط ذهبية. وكان هناك رجال آخرون يغطون رؤوسهم بالكوفية أو الغترة الفلسطينية الشهيرة، أو عمائم بلون فضي لامع، أو غطاء الرأس العربي التقليدي الرجالي، أو الطاقية البيضاء المعروفة. وكان كثير من الباكستانيين يتجولون بلحاهم الطويلة المخضبة بالحناء. والتقيت في تلك الرحلة فقراء الناس وأغنياءهم، شيبهم وشبابهم، وأطفالًا، بل وحتى رُضَّعًا. لقد بدت لي المدينة المنورة وكأنها صورة مصغرة من العالم.

ولا يزال الوقت الذي يسمح للنساء بزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيه مقتصرًا على الصباح الباكر وعند منتصف النهار. وحين ذهبت لهذه الزيارة وقت الظهيرة، كانت تجربتي أبعد ما تكون عن الإيجابية. بداية، كان عليّ أن أنتظر في غرفة مجاورة لمكان قبر الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ساعة كاملة، وسرعان ما ازدحمت خلالها بالنساء. وراح الحراس الرجال يحاولون تدبير أمر الزحام من خلال حمل السيدات على الاصطفاف على هيئة سلسلة، تمسك فيها كل واحدة بيد الأخرى. وحين فتح أخيرًا الباب المؤدي إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم دفعتني جموع النساء المتزاحمة بشدة لدرجة أن صف الحراس نفسه اختل، فوجدت نفسي ملتصقة بأحد الأعمدة، وأنا أتنفس بصعوبة كبيرة، وأُصبت أيضًا ببعض الكدمات. ولما وصلت إلى القبر، وجدته وقد غُطي بقماش أبيض، وما هي إلا ثوانٍ قليلة حتى بدأت الحارسات المنقبات بزيهن

الأسود يصرخن في وجهي كي أغادر المكان، وهن يرددن: «يَلَّا يا حاجة، يلَّا». وفي المحاولة اللاحقة، فكرت في أن الصلاة قرب قبر الرسول صلى الله عليه وسلم تعادل الصلاة في الجهة الأمامية قبالة القبر مباشرة؛ فقمت بالصلاة في منتصف الجهة المخصصة للرجال، حيث كان المسجد خاليًا نسبيًّا حينها، إلى أن أجبرني أحد الحراس على الابتعاد.

وقمت باستكشاف المنطقة المحيطة بالمسجد مع السيد إمام وعزيز، وتجولت بين المحال التجارية هناك. وجدنا سبحات صُنعت يدويًّا من الخشب، إضافة إلى زيوت عطرية وعباءات وشالات ومجوهرات، علاوة على بعض المستحضرات المفيدة للحجاج، مثل مستحضرات تجميل الوجه والمناديل الورقية، وحبوب فيتامين سي، التي لم أتردد في اقتنائها. وكنت قد قضيت أيامًا قبل ذلك وأنا أكافح الإنفلونزا بمستحضرات طبيعية من العلاج المثلي، وهي (إشيناسيا وأوسيلوكوكسينوم)، غير أن فاعلية هذه العلاجات بدأت تخبو شيئًا فشيئًا. ذلك أن المرء حين يحاط بملايين من البشر الذين يسعلون ويعطسون طوال الوقت من حوله، يصير من المستحيل تفادي التقاط إنفلوانزا الحج.

وبعد ستة أيام من الاستيقاظ على الساعة الثالثة فجرًا من أجل أداء صلاة الفجر في وقتها في المسجد، قررت أن أبقى في فراشي صباح ذلك اليوم. حين استيقظت، كانت النسوة جميعهن قد غادرن الغرفة، فأخذت حمامًا، وصليت وحدي في غرفتي. وأحسست كأني في شبه غيبوبة. وكان حلقي ملتهبًا جدًّا، ولا تستطيع حبوب العلاج المثلي سوى تلطيف حدته بعض الوقت فقط. وكان مما زاد في سوء حالتي، استماعي المتواصل لحديث النساء الذي كان يبدأ منذ الثالثة صباحًا، وإضاءة النور الساطعة والفراش القاسي والطوابير الطويلة على الحمامات كل صباح، استعدادًا

لصلاة الفجرد، حيث كان هناك ثلاثة حمامات فقط مُعدّة لخدمة خمسين شخصًا. وبدأت أتساءل كم قد يكلفني قضاء ليلة واحدة فقط في فندق لطيف. لكن لم يكن باليد حيلة؛ فقد اخترت طريقة الذهاب في رحلة الحج القاسية، وكان ذلك على وجه التحديد ما حصلت عليه.

أخبرتني الدكتورة أمينة بأن النساء العزبات يتلقين عروضًا للزواج خلال موسم الحج. وأضافت قائلة بجد: «إذا لم تتلقَّ إحداهن عرضًا للزواج، فذلك يعني بالتأكيد أن ثمة مشكلة ما». ولم أتبين بوضح ما إذا كانت جادة فيما تقوله، أوأنها كانت تريد أن تستوضح رأيي في الموضوع. ويجب أن يتم التصريح بعروض الزواج إما قبيل الحج أو بعيده مباشرة؛ لأن الحديث عن خطبة النساء في أثناء الحج حرام. وصادف أن إحدى صديقات الدكتورة أمينة دعتنا إلى عشاء فخم في المدينة المنورة، وكان أخوها من بين الحضور. وبعد مدة قصيرة أفصح هذا الشخص عن رغبته في الارتباط بي. وكان إنسانًا لطيفًا، لكنه لم يكن يناسبني، بل إنه كان قد اعتنق المسيحية. أما أنا، فقد كنت أبحث عن زوج يعيش معي ديني بكل تفاصيله. لم تمر مدة طويلة حتى حدّدت لبنى، وهي إحدى السيدات اللواتي ذهبن معي في رحلة الحج نفسها، لي موعدًا مع شقيقها الذي عاش في القاهرة. وكان حينها موجودًا في المدينة المنورة. فجلسنا معًا في بهو أحد الفنادق بحضورها بصفتها محرمًا ومترجمة بيني وبينه؛ لأنه لم يكن يعرف الإنجليزية، ومستواي في اللغة العربية كان لا يزال ضعيفًا. وعلى الرغم من أنه لم يكن يفتقر إلى مواصفات الجاذبية، فإني أزحت بصري عنه حالما وقع نظري عليه، وذلك بسبب لحيته الطويلة. ولم تكن المسألة بالنسبة إليّ مسألة مظاهر، على الرغم من أني لست من المعجبات باللحى الطويلة، ولا سيما حين يكون شعر صاحبها قصيرًا جدًّا. إن اللحية الطويلة كانت ترمز، بالنسبة إليّ، إلى عقلية معينة لا يمكنني أبدًا أن أتعايش معها. قد يكون

هذا حكمًا غير منصف، وأنا متأكدة أن هناك استثناءات له، لكن في حالة هذا الخاطب، كنت على صواب فيما فكرت فيه. لقد أخبرني من دون مواربة بأنه ينتظر أن تغطي زوجته الثالثة جسدها كاملًا، وألا تلبس سوى العباءات والأثواب الطويلة بألوان داكنة. وحتى لا أحرجه، قلت له إني سأفكر في الأمر، في حين شكرت لبنى لمحاولتها تلك، وأخبرتها بأن عرضه لا يناسبني. وفكرت بعدها في نفسي، أنه على الأقل ليست لديّ أي مشكلة، بعد تقدم اثنين لخطبتي.

بحلول الثلاثين من ديسمبر، غادرنا المدينة المنورة صوب مكة المكرمة. وكنا جميعًا متحمسين جدًّاد، ولكن كنّا متوترين بعض الشيء؛ لأننا شعرنا بأن رحلتنا بدأت تقربنا من أهم محطاتها، وهي لقاء الله سبحانه وتعالى. وكان ذلك كأنه عودة إلى الفطرة التي يجب أن تُطهَّر من كل الشوائب العالقة بها، والتي تلخص رمزيتها الكعبة المشرفة الخالية بكسوتها السوداء. وبينما كنا نحزم أمتعتنا استعدادًا للسفر، إذ بإحدى السيدات اللواتي كن مقيمات معي في الغرفة، تقول لي: «إن صدر مني ما أزعجك، أرجو أن تسامحيني!».

فاجأتني كلماتها، فأجبتها قائلة: «سيطيب لي أن أسامحك إن علمت علامَ أسامحك». فشرحت لي عندها أنها ربما أزعجتني، أو آذتني من دون قصد منها. وتوخيًّا للحذر، طلبت منها أنا الأخرى أن تسامحني كذلك. ثم تبادلت كل السيدات اللواتي كنّ في الغرفة كلمات الاعتذار والمسامحة. ولا بد من أننا ضايقنا بعضنا، لكن نظرًا إلى مدى الضغط والتعب اللذين كنا نواجههما، فمن البديهي تفهُّم ردود فعلنا في المواقف التي مررنا بها. وعلى الرغم من ذلك، فقد كنّا حجاجًا، وكان لا بد من أن نطلب المسامحة، ونسامح بدورنا.

عند الثانية ظهرًا، كنا قد اغتسلنا، وأدينا طهارة الاغتسال في إشارة لتطهرنا من خطايانا، ولبسنا الإحرام، وتجمَّعنا خارج البناية التي كنّا نسكن فيها انتظارًا لوصول الحافلة التي ستقلنا إلى مكة المكرمة. الآن، وقد كنت من دون أي أثر للمساحيق والخطوط حول العينين، أحسست كأني متجردة وخجلى بعض الشيء من مواجهة العالم دون مساحيق تجميل. ويتعيّن على الحاج في حالة الإحرام أن يتجنب أية مشاعر سلبية، مثل التوتر وسرعة الغضب. لقد كانت الكلمة السحرية خلال مراحل وتفاصيل رحلة الحج كلها، هي الصبر.

كان الليل قد انتصف عندما وصلنا إلى العلامة الدالة على بداية أرض الحرم، التي لا يسمح بدخولها سوى للمسلمين. وبعد أن مررنا على محل آخر لبيع كل مايمكن للحاج أن يحتاج إليه خلال حجه، وصلنا إلى مسجد ذي الحليفة، ميقات إحرام أهل المدينة، الذي تزيد من بهاء جماله حدائق أشجار النحيل المضاءة بإضاءة جميلة. وكان فوج من الحجيج في ملابس الإحرام يتجهون نحونا، في حين كان آخرون متجهين نحو المسجد. فلحقنا بالمجموعة التي تقصد المسجد. وقبل ولوج أرض الحرم لأداء مناسك الحج، على كل حاج أن يعقد النية على أن يقوم بهذه الفريضة خالصة لله تعالى، وذلك بأن يصلي ركعتين اثنتين. وكانت المساحة المخصصة للصلاة داخل المسجد مزدحمة بالحجيج الذين كان كل منهم يحاول أن يجد له موطئ قدم داخله. ومرت بعض النساء مباشرة أمامي بينما كنت أصلي، وهو أمر لا يجوز فعله، ويعد من قلة التأدب داخل المسجد؛ لأن المار بذلك يحول بين المصلي وربه. غير أنه أمر يصعب تفاديه في أوقات الزحام والتدافع الشديدين؛ وقد سبق لي أن فعلته أنا أيضًا في بعض المواقف المشابهة. وما إن انتهيت من صلاتي، حتى أقبلت عَليّ فتاة إفريقية ذات حسن، وابتسمت في وجهي وهي تعتذر لمرورها أمامي، وأنا أصلي. لقد أثر فِيَّ

تصرفها ذاك، وكادت دموعي تنزل من تأثري به.

يقال إن الحج يرقق القلوب، ورحت أدعو في سري، قائلة: «ربِّ اغفر لنا خطايانا وأنانيتنا وعدم مراعاتنا للآخرين». فحان عندها موعد بداية الحج.



وصلنا أخيرًا إلى مكة المكرمة، حيث كان الحر أشد مما كان عليه في المدينة المنورة. وكان مقر إقامتنا يبعد نحو أربعين دقيقة سيرًا على الأقدام عن الحرام الشريف، لذا، ركبنا واحدة من بين كثير من الحافلات الصغيرة التي تجوب شوارع مكة ليلًا ونهارًا. وكانت مكة نفسها متهالكة فيما عدا المنطقة المحيطة بالحرم، حيث كانت تُرَى الرافعات هنا وهناك وبنايات شاهقة في طور البناء. ولاحظت أن وتيرة البناء قد تضاعفت على نحوٍ لافت منذ آخر زيارة لي، وأن الواجهات الزجاجية والحديدية للفنادق ذات الخمسة نجوم والمجمعات التجارية كانت تلمع تحت أشعة الشمس. لقد تضاءل حجم المسجد أمام علوّناطحات السحاب على أنواعها في صورة تعبر تعبيرًا صارخًا عن غطرسة الإنسان. غر أنه يجب الاعتراف بأن ملايين الحجاج والمعتمرين يحتاجون إلى فنادق تأويهم خلال موسم الحج. وقد اقترح الإمام المرافق لفوجنا أن تطوف مجموعتنا كلها في الوقت نفسه، بحيث يكون الرجال على الجانب الخارجي من الطائفين، والنساء على الجانب الداخلي لهم، حتى لا يتيه أحد منّا. وضعت صندلي [1] في حقيبتي المسطحة، ودخلت المسجد حافية القدمين، وأنا أردّد صيغة التلبية مع باقي الحجاج: «لبيك اللهم لبيك». مررنا بجانب عدد من الحجاج الذين كانوا يلبون كذلك قبل أن تبدولنا أخيرًا الكعبة المشرَّفة، قلب الإسلام،

وبيت الله الحرام.

وبخلاف زيارتي الأولى التي أديت فيها العمرة، كان صحن المسجد ممتلئًا عن آخره بالحجاج، وكان جلّهم يرتدي ملابس بيضاء. ومنهمكين في الدعاء والتبتل لله تعالى. فأمسكت بيد السيد إمام، وانضممنا إلى جموع الحجيج الذين كانوا يصلون. وكانت الجموع تتدافع في زحام كبير، وكانت وتيرة السير بطيئة جدًّا. وأحيانًا كنا نتوقف قليلًا قبل أن نستأنف طوافنا من جديد. وتختلف أدعية الطائفين بحسب الجهة التي يمرون بها من الكعبة المشرفة. ويقال إن أفضل مكان يمكن للحاج أن يدعو فيه لنفسه هو الذي بين الركن اليماني، الذي يشير نحو اليمن، والحجرالأسود. ومن السنة المشرفة أن يردد الحجاج في هذا الموضع بالذات أدعية من القرآن الكريم، مثل قوله تعاني: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (سورة البقرة: الآية 201)، و (وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ) (سورة آل عمران: الآية 193). كنت أسمع حجاجًا آخرين يرددون جماعة الآيات نفسها بصةتٍ عالٍ وتخشُّع، فانضممت إليهم بالدعاء. وكان شعورًا لا يوصف، فأحسست حين غمرني أني انفصلت كليًّا عن المكان والزمان، وأصبحت فيه واحدة على الرغم من كل تلك الجموع، ونحن في حضرة الواحد الأحد. لقد كنت، شأني شأن كل حاجٍ وحاجة من حولي، في حضرة الحق سبحانه وتعالى.

استغرق طوافنا نحو ساعتين، نال في نهايتها التعب من السيد إمام. شربنا بعده من ماء زمزم، واسترحنا بعض الوقت. وقد ورد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أن في هذا الماء شفاءً للأبدان وللقلوب، وقال عليه السلام: «مَاءُ زَمْزَمَ لِـمَا شُرِبَ لَهُ، إِنْ شَرِبْتَهُ تَسْتَشْفِي بِهِ شَفَاك اللهُ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لِشِبَعَكَ أَشْبَعَكَ اللهُ بِهِ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لِيَقْطَعَ ظَمَأَكَ قَطَعَهُ اللهُ» [(2)].

ومامن مسلم إلا ويحب هذا الماء. ذلك أن طعمه يميل إلى الحلاوة، وقوامه أكثر كثافة من الماء العادي. وحين هممت بشربه، أسررت بدعاء قصير. ثم انتقلنا بعد ذلك لأداء شعيرة السعي التي تتمثل في الهرولة سبعة أشواط بين الصفا والمروة، تأسِّيًا بالسيدة هاجر، زوج سيدنا إبراهيم عليه السلام، حين كانت تبحث عن الماء لرضيعها. وقد زوِّد طابقان بمسارات عدة، في الاتجاهين، إضافة إلى مسارين أوسطين مخصصين للكراسي المتحركة. وأمسكت بيد السيد إمام، وانطلقنا في السعي في الطابق الأرضي. وكنا كلما أنهينا شوطًا من السعي، نتلودعاءً معينًا. وقد تفاجأت حين لاحظت أني كنت أنا والسيد إمام أسرع حجاج مجموعتنا في إتمام كل شوط من أشواط السعي. وكم أتمنى أن أكون بلياقته نفسها حين أبلغ التسعين من عمري.

بعد أن أنهينا الجزء الأول من حجنا، أمكننا أن نتحلل من إحرامنا، ونأخذ قسطًا من الراحة. ومع ذلك، لم يركن أي منّا إلى الراحة، بل حرص كل منّا على أن يمضي أطول وقت ممكن في المسجد الحرام بجوار الكعبة المشرفة. ذلك أن الصلاة فيه تعدل مئة ألف صلاة فيما سواه من المساجد.

وفي أول يوم من السنة الجديدة، زرنا غار حراء، الذي يقع على بعد نحو ثلاثة أميال شمال شرق مكة المكرمة، على جبل النور. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي إليه معتكفًا متعبدًا، إلى أن أتاه سيدنا جبريل عليه السلام بالوحي في هذا الغار. واقتداءً بسنته العطرة عليه الصلاة والسلام، يحاول المسلمون أن يختلوا بأنفسهم لعبادة الله سبحانه وتعالى، لكن القليل منهم يستطيع أن يقوم بذلك بصفة منتظمة. لقد كان تسلق الجبل أمرًا شاقًّا؛ ما أجبر السيد إمام على الجلوس هو وبعض الحجاج الآخرين بعد أن قطع ثلث المسافة المؤدية إلى الغار، وانتظار عودة بقيتنا من أداء تلك الزيارة.

كانت الطريق ألى الغار حادة الارتفاع، ويسهل الانزلاق فيها، ولا سيما أنها ليست مزوّدة بما يمكن للمرء أن يستند إليه، أو يمسك به ليتسلق بأمان. ثم إن عدد الناس المتجمهرين عند قمة الجبل جعلت من الصعب علينا دخول الغار. وعند مدخل الغار، كتبت أول آية أوحي بها إلى محمد صلى الله عليه وسلم: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ). (سورة العلق: الآيات 1-5)

ومررنا في أثناء نزولنا من الجبل، بأعداد كبيرة من الفقراء والمعاقين الذين جلسوا على جانب الطريق يستجدون الصدقات. وكان من المستحيل أن نمر بهم دون أن نعطيهم شيئًا من المال، على الرغم من أننا كنّا نعلم أنه قد يكون من بينهم من يدّعي الفاقة والمرض ليستميل عطف الحجاج. إن موسم الحج كان موسمًا ينتعش فيه دخلهم. وقَدِمت إلينا عائلة حسنة الهندام، وأخبرَنا أفرادها بأنهم حجاج تعرضوا للسرقة، وأنهم في حاجة إلى ألف ريال حتى يتمكنوا من تسديد مختلف ما يتطلبه الحج من نفقات. ولأن كثيرين حذرونا من هذه النوعية من المتسولين، فقد أشرنا عليهم بأن يتجهوا إلى مكتب خدمة الحجاج، الذي يأخذ على عاتقه التعامل مع الحجاج الذين تعرضوا للسرقة، أو الذين تاهوا في أثناء أداء المناسك.

وحين ركبت سيارة أجرة مع السيد إمام لتقلنا إلى مكان إقامتنا، سلك السائق بنا طرقًا ملتوية وبعيدة جدًّا كي يزيد من تكلفة أجرته. ولم يكتفِ بذلك فقط، بل كان قليل التهذيب، وقال لي إنه ينبغي عليّ أن أغطي وجهي، فأجبته عندها بلغة عربية ركيكة بأن القرآن الكريم لم يأمر النساء بذلك، فضلًا على أنه يحرم على المرأة تغطية وجهها داخل المسجد الحرام.

وأخبرته كذلك بأن سيارته مهترئة، فردّ قائلًا: «لا تقلقي، سأوصلكما ألى إقامتكما سالمين». وكان قد نال من صبري، فأشرت إلى نسخة مصغرة من المصحف الكريم كانت معلقة في مرآة السيارة، وقلت له: «لست قلقة؛ لأن القرآن معنا».

وحين قابلت الدكتورة أمينة وأخبرتها بما حدث معنا، قالت لنا: «لا يمكن مقارنة ذلك بما حدث معي؛ وقبل أن أتمكن من الطواف بالكعبة المشرفة، كان عليّ أن أطوف بمكة بأسرها. لقد أقلتني سيارة أجرة عند الساعة الحادية عشرة ليلًا نحو المسجد الحرام. ولكن بدلًا من أن يأخذني السائق إلى الحرم الشريف، انطلق بأقصى سرعته على الطريق السريع المؤدي إلى جدة. وحين لم يستجب لاحتجاجي على ذلك، فتحت باب السيارة التي كانت تجري بسرعة سبعين ميلًا في الساعة، وأخذت أصرخ حتى أرغمه على التوقف».

لقد ذُهلت لهول ما سمعت، وقلت لها: «يا إلهي، كان من الممكن أن تموتي».

لكن الدكتورة أمينة طمأنتني بأنها بخير، وتابعت سردها قائلة: «لم أجد بُدًّا من أن أسير على الطريق السريع عكس اتجاه السيارات مدة أربعين دقيقة قبل أن أصل إلى الحرم الشريف».

فاحتضنتها، وقلت لها: «الحمد لله أنك بخير الآن».

وذهبنا مساء ذلك اليوم، لأداء صلاتي المغرب والعشاء في الحرم المكي. فصحبت السيد إمام إلى الدور الثالث، حيث وجدت مكانًا مناسبًا يمكنه الجلوس فيه، ووضعت سجادة صلاتي الخضراء، التي كنت قد ابتعتها حديثًا، إلى جواره، قبل أن أذهب لأداء شعيرة الطواف. وانضممت إلى جموع الطائفين. ولما كنت وحدي حينها، فإنني كنت حرة أكثر بالتحكم في

وتيرة حركتي، وقررت أن أحاول لمس الكعبة المشرفة. وبينما كنت أطوف ببيت الله الحرام، كنت أقترب شيئًا فشيئًا منه، على الرغم من أن ذلك لم يكن سهلًا بتاتًا، ولا سيما أن عددًا من الحجاج كانوا يطوفون جماعات، ويمسكون بأيدي بعضهم بعضًا، وحالوا دون مروري. ورأيت رجالًا يحملون أطفالهم، وامرأة تحمل رضيعها في حضنها. وقد أثر فيّ أيضًا منظر أزواج كانوا يطوفون معًا، حيث كان كل رجل يمشي خلف زوجته، وهويضع ذراعيه حولها حماية لها من الزحام. ورحت أدعوالله بعفوية أن أتمكن يومًا ما إن شاء الله من أن أؤدي فريضعة الحج وأنا زوجة، تحت حماية زوج يرعاني. وكنت كلما اقتربت أكثر من الكعبة، أحسست بالزحام يشتد أكثر فأكثر. وما إن تجاوزت الركن اليماني، حتى رأيت اثنين من الحرس، وهما يزيحان حبالًا بلاستيكية كانت قد وضعت من قبل حتى يتسنى تنظيف تلك المساحة. فكرت في أن تلك فرصتي الذهبية التي لن تعود أن أهدرتها، فانطلقت، شأني شأن كثير من الحجاج الآخرين، محاولة أن ألمس الكعبة المشرفة. ووقفت مباشرة قبالة الكعبة، ووضعت يدَيَّ عليها، ورحت أدعو من كل قلبي لأفراد عائلتي وأصدقائي بأن يحقق لي ولهم ما يرجون. لقد كانت قائمة تلك الأحلام طويلة جدًا، ودعوت أن تتحقق جميعها. لقد أفرغت قلبي بين يدي الحق سبحانه وتعالى إلى أن حملتني الجموع بعيدًا، وانصهرت داخل دورانها من جديد. إن الاستسلام لحركة الطواف تلك، والركون إلى قوة جريانها جزء من تجربة الطواف التي تدل على ضآلة حجمنا، وقلة حيلتنا في هذه المنظومة الكونية. وفي الوقت نفسه، شعرت بنشاط عجيب دب فيَّ، وأحسست بأن السكينة والحضور الإلهي قد ملأا عليّ أعماقي. وعدت إلى حين كان السيد إمام ينتظرني، وأنا أحس بسعادة ورضًا عارمين. وقد سعد كثيرًا حين وجد رائحة المسك التي ظلت تنبعث من يَدَيَّ طوال ذلك المساء. لقد كانت خير بداية للسنة الجديدة.

ظلت أفواج الحجاج تتوافد بأعداد مطردة كل يوم على مكة المكرمة، إلى أن أُغلقت المدينة، ولم يعد يُسمح لأحد بالدخول إليها. وبلغ حينها تعداد الحجاج بها ثلاثة ملايين نسمة تقريبًا، امتلأ بهم كل شبر من مكة المكرمة. ولقد ذكّرتني تلك الجموع بعروض الروك الكبرى، أو المباريات المهمة في كرة القدم، غير أن اجتماع الحجاج هذا يستمر. يوميًّا على هذا المنوال أسابيع متواصلة. إضافة إلى ذلك، فإن طبيعة الحجاج في الديار المقدسة تختلف تمامًا عن أولئك الذين يحجون إلى المناسبات الموسيقية أو الرياضية. وراودتني أحلام يقظة وأنا في الحرم المكي، رأيت فيها نفسي وأنا أهرب من هذه الجموع؛ لأجلس مع نفسي بين أحضان طبيعة غنّاء، أو على شاطئ البحر.

وكنّا نقضي معظم وقتنا في المسجد، وعادةً ما كنّا نعود في المساء من أجل الطواف بالكعبة، والجلوس بالقرب منها أو في الأدوار العلوية، نصلي ونذكر الله حتى الفجر. فلم يغص الحرم بالناس ليلًا كما في النهار، وكانت المدة الواقعة بين الواحدة والثالثة صباحًا أكثر الأوقات هدوءًا. وما إن تنتهي هذه المدة حتى يعود ليمتلئ مجددًا بالحجاج والمصلين. ونظرًا إلى أن بعض الحجاج قدموا من قرًى بعيدة جدًّا، ولم يكونوا على دراية بكيفية تشغيل المصاعد والسلالم الكهربائية، وجدتني غير ما مرة أمسك سيدة مسنّة من يدها وأساعدها. وبينما كنت أؤدي شعيرة الطواف، كنت أحيانًا أشعر بأحدٍ ما يدفعني من الحلف، أو يحشر مرفقه في أضلعي. وعندما كنت ألتفت، كنت أجد أن الفاعل رجل قليل الصبر، وذو لحية طويلة. ولاحظت أيضًا آخرين يقفزون، ويدفعون الناس بعنف من أجل أن يشقّوا لأنفسهم طريقًا نحو الحجر الأسود. لقد أخافني ذلك المشهد لدرجة أني لم أفكر حتى من الاقتراب من ذلك المكان. ولقد أدهشني أيضًا أن ألاحظ كيف أن الناس لأ يملكون سوى أن يكشفوا عن طباعهم، حتى وهم داخل

المسجد الحرام، وأنهم في النهاية يتصرفون وفقًا لأخلاقهم وعاداتهم السيئة. لقد كان الأندونيسيون والماليزيون يتميزون عن غيرهم بحسن أخلاقهم، وكانوا يكفون الناس شرَّ مَرافِقهم، وكانوا دائمًا ما يتصرفون بطيبة ولطف. وسرعان ما تعلمت بعض الطرق كي أتعامل مع الجموع المتزاحمة، فكنت أبقي على ذراعَيَّ ملتصقتين بجسدي، وأرفع كَفَّيَّ إلى الأمام حتى أجعل مسافة بيني وبين الشخص الذي أمامي. وكم كانت دهشتي حين وجدت أن ظهري لم يكن يؤلمني إطلاقًا، حتى مع كل ذلك التدافع والمشي يوميًّا حافية القدمين على الأرضية الرخامية. وأظن أن ظهري قد استفاد من تلك التجربة، لأني كنت أشعر بتحسن أكبر كل يوم.

ومع اقتراب موسم الحج من ذروته، راحت الأسعار في مكة المكرمة ترتفع ارتفاعًا جنونيًّا، وراحت قيم الرحمة والإيمان في الانحسار، وحلت محلها قوانين العرض والطلب. وهكذا، انتقلت تكلفة سيارة الأجرة التي تقلنا من الفندق إلى الحرم الشريف من عشرين أو أربعين ريالًا إلى مئة ريال سعودي. وكانت المدينة كلها تضيق بالزحام الشديد الذي كان يحفّها، حتى إنه من كثرة ازدحام وسائل النقل، صرنا نضطر إلى الانتظار ساعتين على الأقل قبل أن نجد سيارة أجرة أو حافلة صغيرة تقلنا إلى مكان سكنانا. وفي أغلب الأحيان، كنّا نفضل البقاء في الحرم، أو نبحث عن مكان قريب نشتري منه شيئًا نأكله. غير أن المطاعم والمقاهي القريبة من الكعبة المشرفة كانت مزدحمة هي الأخرى، وأصبحنا نرى الشوارع المحيطة بها وهي تمتلئ بأكوام القمامة يومًا بعد يوم. وبينما كانت الأسعار مرتفعة بالنسبة إليّ، كانت بالتأكيد بعيدة كل البعد عن القدرة الشرائية لحجاج آخرين. فكثير من ضيوف الرحمن قدموا من أوساط فقيرة، وأتوا في رحلة العمر لأداء هذه الفريضة التي لا بد من أنها استثمار باهظ الثمن بالنسبة إلى الكثيرين. وقد أخبرنا السيد إمام بأن الحج قد

يكلف الفرد الواحد في بنجلاديش نحو ألف وخمس مئة يورو، وهي تكلفة كبيرة جدًّا. وعادةً ما يسهم أفراد الأسرة كلهم في ذلك المبلغ حتى يستطيع أحدهم فقط أن يؤدي هده الفريضة.

بدأ موسم الحج يقترب من ذروته بحلول الثامن من شهرينايير. وقد شرح لنا إمام الفوج حينها معنى الحج بأنه موتٌ وولادة ثانية؛ إنه تجديد المؤمن لإيمانه، وللميثاق الذي يربطه بالله سبحانه وتعالى. إن الحج رحلة يشدّ فيها الحاج الرحال إلى بيت الله، ويقابل مضيفه هناك. إن مكة المكرمة ليست قلب الإسلام فحسب، بل إنها تمثل أصلنا. وقد أوضح لنا الإمام، قائلًا: «الحج عرفة؛ ففي اليوم التاسع من شهر ذي الحجة، يتجمع الحجاج كلهم على جبل عرفات متوسلين متضرعين لله عزّ وجلّ. إنه صورة عن يوم الحشر، يوم تقف الخلائق أمام الله سبحانه وتعالى عرايا للحسعاب، «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم».

وبعد الاستماع لهذه الكلمات، ارتدينا ملابس الإحرام البيضاء مرة أخرى. إن ذلك اللون الأبيض يرمز إلى النقاء، والموت الروحي، حيث ينسى الحاج المحرم كل ما يربطه بالدنيا، ولا يفكر سوى بعلاقته بالله سبحانه وتعالى. لقد أحببت فكرة مساواة الناس، باختلاف درجاتهم الاجتماعية والمادية، في ارتداء الثياب نفسها، لأن الله ينظر إلى «أكرمكم»، و (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (سورة الحجرات: الآية 13). وبعد عرفات، شددنا الرحال إلى منى. وقد بلغ تعداد المتوجهين إليها نحوثلاثة ملايين حاج، وعلى هذا، استغرق الانتقال إليها بالحافلات ثماني ساعات، على الرغم من أنها تقع على بعد خمسة كيلومترات فقط من مكة المكرمة. إن نجاح السلطات السعودية في تنفيذ هذه المرحلة من الحج بنجاعة وصبر، إضافة إلى وقوف الله عزّ وجلّ إلى جانبهم يُعد إنجازًا لوجستيًّا حقيقيًّا.

حين وصلنا إلى خيام منى، كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل. فترجّلنا بعد ذلك بين الخيام إلى أن وجدنا الخيام الأربع التي كانت محجوزة لفوجنا؛ اثنتين للرجال، وأخريين للنساء. وعلى عكس ما توقعنا، كانت الخيام مزوّدة بكثير من وسائل الراحة؛ فكانت مفروشة بالسجاد ومكيَّفة ومزوّدة بماء بارد للشرب. فتحت فِراشي في أحد أركان الخيمة، وحاولت أن أنام قليلًا. غير أن الإنفلونزا التي كنت أعانيها اشتدت شيئًا ما، فرحت أتقلب في مكاني لساعات. لقد كانت حالتي مزرية. وعندما أشعلت إحدى السيدات الأخريات الضوء عند الرابعة فجرًا استعدادًا للصلاة، طلبت منها أن تطفئه فورًا لأن المصابيح المنتشرة خارج الخيام تغني عن الحاجة إلى النور داخلها. وبدا لي كأن الصلاة استمرت وقتًا طويلًا جدًّا، قبل أن أستطيع مواصلة نومي بضع ساعات إضافية.

وفي صبيحة اليوم التالي، كانت الحرارة مرتفعة جدًّا خارج الخيمة، فلم أملك سوى أن أبقى معظم الوقت داخلها أقرأ القرآن الكريم، وأذكر الله سبحانه وتعالى. أما استخدام الحمام للاغتسال أو قضاء الحاجة، فكان أشبه بمغامرة صغيرة. وكانت هناك مساحات خاصة بالاغتسال مزوّدة بصهاريج من كل جانب. وكانت الصهاريج الخاصة بالسيدات تقع تحت أشعة الشمس الحارقة، في حين توجد الصهاريج المخصصة للرجال في الظل. ولا شك في أن إعطاء الأولوية للسيدات لم يكن المبدأ السائد هنا. وأما أماكن الاغتسال، فكانت داخل المراحيض. وكانت طوابير الانتظار طويلة جدًّا. لكننا سرعان ما اكتشفنا أننا كلما ابتعدنا عن خيامنا، قلّت أعداد الناس التي تنتظر دورها لاستخدام الحمامات، وكانت الأخيرة أكثر نظافة.

وبعد أداء صلاتي المغرب والعشاء، ذهبت مع بعض أخواتي الحاجات في جولة في المكان. فصعدنا ربوة من الجبل حتى نستطيع رؤية الخيام التي

كانت ممتدة نحو الأفق، قبل أن نقصد السوق لنشتري بعض ما نحتاج إليه، مثل الزبادي والخبز والجبن والزيتون والماء. واشتريت إضافة إلى ذلك سجادة صلاة خفيفة كان لونها ذهبيًّا، وتحمل صورة الكعبة المشرفة. فكرت في أنها ستكون عملية خاصة خلال أسفاري. وفي وقت متأخر من تلك الليلة، جربت حظي، وتمكنت من أن أحظى بفرصة القيام بالطهارة الكبرى، الاغتسال، وارتداء ملابس إحرام نظيفة استعدادًا للوقوف بعرفات. وعاد الإمام ليذكرنا بأهمية هذا الركن من أركان الحج، والذي هو في الحقيقة جوهر الحج. ويقف الحجاج يومهم ذاك فوق جبل عرفات، وهم يذكرون الله ويستغفرونه. إن مغفرة الله الواسعة تشمل كل من كان حاضرًا يومها في عرفات، وحتى كل من لم يكن حاضرًا، وكان يستشعر أهمية هذا اليوم العظيم.

وفي حجة الوداع، وقف الرسول صلى الله عليه وسلم على جبل الرحمة في صعيد عرفات، حيث تنزلت عليه آخر آيات القرآن الكريم، وخطب خطبة الوداع الشهيرة. وإضافة إلى المغفرة، فإن يوم عرفات هو يوم التضحية والطاعة. وفي هذا اليوم، يجب على الحجاج أن يستشعروا وجود الحق سبحانه وتعالى وحضوره. ذلك أنه في هذا المكان كان على سيدنا إبراهيم الخليل أن يجتازأقسى اختبارإلهي له، حيث أمره الله سبحانه وتعالى أن يضحي بأول أبنائه، سيدنا إسماعيل عليه السلام. لذا، فإن الاحتفال بعيد الأضحى يبتدئ في العاشر من ذي الحجة، وهو اليوم الذي يلي نزول الحجاج من صعيد عرفات. وعلى المسلمين حول العالم ممن يمكنهم ذلك أن يذبحوا أضحية العيد، أويتصدقوا بقيمتها احتفاءً بذكرى انصياغ سيدنا إبراهيم لأمر ربه وطاعته له. ولمن لا يملك أن يضحي أويتصدق أن يصوم عددًا من الأيام عوضًا عن ذلك. ويتم توزيع لحم أضاحي الحجاج على المسلمين في أنحاء شتى من العالم. أما الذين يذبحون

أضاحيهم في بيوتهم، فيقتسمون لحمها بين نصيب للفقراء، ونصيب لضيافة الأقارب والجيران، وقسم آخر لأنفسهم. وهكذا، تختزل شعيرة عرفات أربعة مبادئ إسلامية أساسية، هي: الغفران، وطاعة الرحمن، والتوكل على الله، وفعل الخيرات.

ونصحنا الإمام بألا نكثر من الأكل والشرب ونحن على جبل عرفات؛ لأن المراحيض هناك كانت أكثر بدائية من تلك التي تركناها في منى، وأن المرافق الصحية ستكون أقل عددًا في مزدلفة. وكان من المقرر أن نغادر من منى صوب عرفات ما بين منتصف الليل وفجر يوم التاسع من ذي الحجة، ونقضي اليوم في عرفات، قبل أن ننتقل إلى مزدلفة، حيث نقضي ليلة العيد نفترش الأرض، ونلتحف السماء. وانطلقنا في الرابعة فجرًا، ووصلنا خلال ساعة من الزمن إلى عرفات، على بعد أربعة عشر كيلومترًا. وكانت حينها الشمس قد أشرقت كليًّا فوق الصحراء الحارقة، في حين كانت مدينة من الخيام تنتظرنا بين أحضان التلال المحيطة بنا. وما إن وجدنا الموضع المخصص لنا حتى قررت أن أسير نحو جبل الرحمة. من على هذا الجبل، خطب النبي صلى الله عليه وسلم خطبته الأخيرة في حجة الوداع التي حضرها زهاء مئة ألف صحابي، وأوصى الرجال بالصلاة وبزوجاتهم خيرًا.

قبل أن أنطلق، حاولت أن أتعرف موضع الخيمة، وبناءً على نصيحة الدكتورة أمينة بأن أتذكر منظر الجبل عن بُعد بالنسبة إلى خيمتنا؛ حتى أتمكن من أن أتعرفه وسط بحر الخيام المتشابهة وقت عودتي. وفي أسوأ الأحوال، فقد كنت أحمل بطاقة تعريفي، وبعض أرقام الهواتف حن عنقي احتياطًا. وأدركت جيدًا أن تلك كانت مخاطرة من جانبي، غير أني لم أستطع أن أقاوم رغبتي في صعود الجبل. وبدأت مسيري إلى الجبل

الشريف. ومررت بين شجيرات صغيرة، ثم فوق الطريق الرملية، إلى أن وصلت إلى شارع، ورأيت علامات صفراء كبيرة الحجم تشير إلى حدود جبل عرفات. وأكملت طريقي في الاتجاه الذي اعتقدت أن جبل الرحمة يوجد فيه، على الرغم من أني لم أكن أستطيع رؤيته بعد؛ لأنه كان لا يزال متواريًا خلف الأشجار. ولكن سرعان ما لاح لي الجبل، وكان عليه عدد من الحجاج الذين كانوا في لباسهم الأبيض. وما إن وصلت إلى سفح الجبل حتى انضممت إلى الجموع التي كانت تتسلق الجبل الذي يرتفع نحوستين مترًا، إلى أن توقفت عند صخرة ارتفاعها متران، فأدركت أني لن أستطيع تسلقها. وبينما وقفت هناك أفكر فيما يمكنني فعله، إذْ بيدٍ تمتد إليّ من الأعلى؛ كانت يد حاجٍ أمسك بيدي وساعدني على أن أعتلي تلك الصخرة. وكان من الجميل أن يشعر المرء خلال رحلة الحج كيف أن الناس كانوا يتنبهون لاحتياجات بعضهم بعضًا، ويراعونها. فشكرت ذلك الحاج، وعجبت لذلك الرابط الذي أحسست بأنه يصل بين الحجاج، على الرغم من أن كلًّا منهم أتى من أماكن مختلفة من هذا العالم، ولا يعرفون بعضهم بعضًا، وقد لا يلتقون مجددًا أبدًا.

حين وصلت إلى قمة الجبل أخيرًا، طلبت من أحد الحجاج أن يلتقط لي صورة هناك، لكنه لم يكن على دراية بكيفية تشغيل آلة تصوير أوتوماتيكية، فاتجهت بطلبي إلى حاجٍ آخر، استطاع هذه المرة أن يضغط على زر التصوير. وكنت قد وجدت لنفسي موقعًا مناسبًا بين الحجاج الآخرين يظهر في خلفيته صعيد عرفات كله في اتجاه الكعبة، وكانت تشير كثير من العلامات إلى ذلك. ووقفت هناك أتطلع عبر جموع الحجيج الذين اجتمعوا بين الأحراش والأشجار والخيام، إلى الجبل الشامخ الذي يسد الأفق. وعلى الرغم من أن الساعة لم تكن قد تجاوزت الثامنة صباحًا، فإن درجة الحرارة كانت مرتفعة، وكنت سعيدة لأني أحضرت معي المظلة

الشمسية التي سُلِّمت إلينا لدى وصولنا. فجلست تحتها، واستغرقت في الدعاء.

بعد نحو خمس وأربعين دقيقة، بدأت أترجل نزولًا من الجبل الذي بدأ وقتها يزدحم أكثر فأكثر بالحجاج، ثم سرت على الشارع ألتمس مكان خيمتنا. وكانت أكوام القمامة تنتشر هنا وهناك، فيما كانت بعض العربات المتنقلة تبيع وجبات خفيفة. وكنت في حاجة ماسة إلى كوب شاي، وقد وُفِّقْتُ في أن أجده، بل وتناولته مع بعض الحليب والسكر، إضافة إلى بيضتين مسلوقتين مع رشة ملح. وكانت الحافلات تقل المزيد من الحجاج، وبعضها يصل بلا توقف، بل إن بعضها كان يحمل الحجاج حتى على أسقفها من شدة الازدحام. وكانت درجات الحرارة في ارتفاع مستمر، وبفضل الله، والحدس الأنثوي لكشافة متمكنة، استطعت أن أجد طريق العودة إلى خيمتنا.

الحج عرفة، كما جاء في الأثر، والوقت الذي يفصل بين صلاتي العصر ومغيب شمس يوم المغفرة أفضل وقت للدعاء، وفيه تستجاب الدعوات. والملائكة التي تشهد ذلك اليوم تغطي الأفق من كثرتها.

وخلال ما تبقى من ذلك اليوم، استرخيت في الخيمة شأني في ذلك شأن جلّ الحجاج الآخرين، وذلك كي نكون في أتم لياقتنا خلال وقت استجابة الدعاء. وبعد صلاة العصر، خرجت من الخيمةلأنضم إلى مئات الآلاف، بل الملايين من الحجاج الذين وقفوا بهمة وثبات، رافعين أكف الضراعة تلمسًا لرحمة من الله ومغفرة. إن هذا الوقوف يُعدّ صورة عن يوم الحشر، يوم لا يغني مال الدنيا عن المرء من شيء، ولا يعتد سوى بالقلب السليم والعمل الصالح. فرفعت كَفَّيَّ واستجمعت كل تركيزي وطاقتي، ورحت أدعوبكل إخلاص لعائلتي وأصدقائي وكل من ساعدني، أو أسدى إليّ معروفًا

في حياتي، ولكل من هو في ضيق أو حاجة، ودعوت أيضًا أن يعمّ السلام والخير هذا العالم في المستقبل. وسألت الله عزّ وجلّ أن يغفر لي أي إساءة صدرت مني لأي إنسان، ولكل من أساء إليّ. وبقينا على حالنا تلك من الدعاء والتبتل إلى الحق سبحانه وتعالى حتى مغيب الشمس.

حان بعد ذلك موعد ذهابنا إلى مزدلفة. ولما وصلنا إليها، وجدنا الناس وقد افترشوا أفرشة بلاستيكية أو أغطية على الرمال السمراء، وغطوا بأجسادهم مساحة على مدّ البصر. ومشينا بينهم بحذر إلى أن وجدنا مكانًا لمبيتنا. وجمع بعد ذلك كل منّا تسعًا وأربعين حصاة لا يتجاوز حجم كل منها سنتيمترًا أو اثنين، قبل أن نخلد إلى النوم تحت نور النجوم المتلألئة. وأحسست بدرجات الحرارة تنخفض شيئًا فشيئًا، فتلحفت بغطائي، ورحت أتأمل السماء. وما إن أغمضت عيني حتى استيقظت مجددًا على صوت أحدهم يناديني باسمي. حين نظرت حولي، وجدت أن جميع من كانوا في مجموعتي قد رحلوا باستثناء أحد المنظمين الذي كان لا يزال يستعد للانطلاق. فتبيّن لي أن حجاج مجموعتي قرروا أن ينطلقوا قبل باقي الحجاج الآخرين المتوجهين إلى منى في اليوم التالي، وأنهم رحلوا فعلًا. وكان عليّ أن أنطلق أنا أيضًا من فوري إن كنت أودّ اللحاق بهم؛ لأن الحافلة قد تأتي بين لحظة وأخرى. لكن ما حدث هو أن الحافلة التي كان من المفترض أن تقلنا لم تكن من بين الحافلات الموجودة هناك، فكان علينا أن ننتظر ما يزيد على الساعة على جانب الطريق.

ولدى وصولنا إلى منى قصدنا محل رمي الجمرات. وفي ثمانينيات القرن الماضي، أطلقت مجموعة الروك الأسترالية (إينكسيس) أغنيتها الناجحة (الشيطان في داخلي)، جاء فيها: «كل واحد منا هو الشيطان الذي يختبئ في الداخل».إن هذه الكلمات تلخص كنه شعيرة الرجم، وهوطرد رغباتنا

ونزواتنا الوضيعة، مثل قلة الصبر والتكبر والغضب والجشع والحسد، أيْ كل ما يدفعنا إلى أن نتصرف تصرفًا سيّئًا، وينأَى بنا عن الطريق القويم.

كان الليل قد انتصف، وبلغ مني التعب مبلغه، فلم أعد أستطيع أن أفتح عينيّ. وكان الوقت حينها لا يسمح لنا سوى بشراء كوب شاي على عجل، لي وللدكتورة أمينة ولفاطمة، من أحد تلك المحال المنصوبة على مدار أربع وعشرين ساعة على الطريق الرملية بالقرب من خيمتنا. وكانت المسافة التي تفصلنا عن مكان رمي الجمرات تُقدَّر بأربعة كيلومترات، وهي مسافة طويلة شيئًا ما، ولا سيما في ذلك الصباح الباكر. فتتبعنا إشارات ضوئية ضخمة تشير إلى الطريق نحو مكان رجم الشيطان، إذ كان الصبح قد حلّ لدى وصولنا هناك. وقد بُني مكان رمي الجمرات ثلاثة أدوار دائرية الشكل، وقد بُني أيضًا جسر بمحاذاة تلك الأدوار حتى يتمكن الحجاج من أن يرموا جمراتهم، إما من أرضية المكان، أو من ذلك الجسر. فارتأينا أن نصعد فوق الجسر لرمي جمراتنا.

وعلى مدى السنوات المتعاقبة، شهد يوم رمي الجمرات وفاة كثير من الحجاج. وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى جمراته مباشرة بعد صلاة الظهر؛ ولأن المسلمين يتحرون اتباغ سنته عليه السلام، فإن التزاحم الشديد في مدة ما بعد صلاة الظهر كان سببًا في وقوغ كثير من الحوادث ولا سيما في هده المدة. ولحسن الحظ، فقد اختار المشرفون على مجموعتنا ألا يتبعوا هذا التأويل الحر في للسنة النبوية، وتابعنا رمي الجمرات خلال اليومين اللاحقين وقت الفجر، علمًا أن السلطات المختصة قد حددت مدة الرمي في أربع وعشرين ساعة. ومما لاشك فيه أن هذا القرار الحكيم قد حافظ على أرواحنا. وفي ظهيرة أحد الأيام، سمعنا أن تدافعًا حصل في المدخل الشرقي للجسر، فأودى بحياة 346 حاجًّا، وخلّف

بعض مئات من الجرحى. وعقب هده الحادثة، بنت مجموعة ابن لادن جسرًا إضافيًّا من طوابق عدة حتى تحتوي جموع الحجاج على نحوٍ أيسر.

ومع بزوغ نور الفجر، رميت الحصيات بكل ما أوتيت من قوة، في إصرار وعزيمة على أن أقضي على الشيطان اللعين. وعدت بعد ذلك مع الدكتورة أمينة إلى منى، وتمكّنا أخيرًا من أن نجد متسعًا من الوقت للحديث إلى بعضنا بعضًا. واتفقنا على أننا استمتعنا بهذا الجانب العملي من ممارسة ديننا الحنيف؛ لأنه سمح لنا بأن نختبر إيماننا ليس فقط في بعده العقلي، بل جسديًّا وروحيًّا كذلك. ذلك أن الحج امتحان جسدي وعاطفي وروحي.

ولما عدت إلى الخيمة، تناولت إفطارًا خفيفًا، واغتسلت وبدلت ملابس الإحرام بعباءة طويلة ملونة كنت قد اشتريتها من المدينة المنورة. وكان يومها عيد الأضحى، الذي جرت عادة العائلات فيه أن تجتمع، ويحظى الأطفال بالهدايا، في حين يسرد أفراد العائلات الذين سبق لهم أن حجوا بيت الله الحرام قصصًا مما عاشوه في تجربتهم تلك. وللتحلل من الإحرام، والذي يرمز إلى استهلال المرء بداية جديدة في حياته، حلق كثير من رجال مجموعتنا رؤوس بعضهم بعضًا، فيما اكتفت النساء بقص بعض الشعيرات مثلما كنا قد فعلنا عقب انتهائنا من العمرة. وقامت رفيقاتي في الخيمة بإزالة بعض شعر الوجه الزائد باتّباع طريقة هندية قديمة تعتمد على استخدام الخيط، حيث يُمرّر الخيط بكل براعة وسلاسة على الوجه للتخلص بالشعيرات غير المرغوب فيها. وقد أهدتنا مجموعة أخرى من الحجاج، كانت في خيمة مجاورة لنا وآثرت إلا أن تعبّر عن كرمها وسخائها في يوم التضحية، طبقًا لذيذًا من الكاري. أما ما تبقى من ذلك اليوم، فقضيته في الخيمة مع باقي السيدات.

قضينا أيام التشريق الثلاثة في منى اقتداءً بسنة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت تلك تجربة مجهدة لنا نفسيًّا وبدنيًّا. حيث كانت الحرارة شديدة جدًّا خلال النهار. وقد أصيبت الدكتورة أمينة بضربة شمس طفيفة بعد أن أخطأت بخروجها تحت أشعة الشمس الحارقة وقت الظهيرة. وكنّا ننام على فرشنا فوق الأرض الصلبة، في حين كان أكلنا بسيطًا جدًّا. ولأني كنت أطول سيدة في مجموعتنا، فقد كانت رفيقاتي في الخيمة يطلبن مني، مرارًا وتكرارًا، أن أصل أو أفصل شاحن بطاريات هواتفهن بمصادر الكهرباء التي كانت تقع على ارتفاع مترين على الحائط، وذلك مراعاة لقواعد السلامة. أما أجري على تلك الخدمة، فكان الدعاء الصالح لي، وكان أفضل أجر. وتلقيت لقاء ذلك هدية دنيوية، وكانت عبارة عن طبق من البلاستيك، أفدت منه أكبر فائدة.

وكانت علاقتي طيبة مع جميع من كنّ في الخيمة، على الرغم من أن الأمور لم تكن دائمًا وردية. ذلك أن سيدتين كانتا تريدان التأكد دومًا من أنه لا توجد أيّ فتحة في الخيمة تسمح لأي رجل بالنظر من خلالها. وكان ذلك يعني عدم السماح للهواء الخارجي بالدخول إلى الخيمة، وهو أمر عانينا بسببه. وقد ردّت إحدى النساء الأخريات، متسائلة: «إن الرجال والنساء ينامون متجاورين في مزدلفة، بل وحتى في الحرم المكي، فلِمَ قد يشكل الإبقاء على منفذ للهواء مشكلة ما؟». وعلى الرغم من ذلك، لم تتمكن من إقناع السيدتين اللتين أبقتا على الخيمة مقفولة المنافذ، فيما عانينا شدة الحر والعرق.

وبعد انقضاء الأيام الثلاثة في منى، حان وقت العودة إلى مكة المكرمة والحضارة من جديد. وكان سريري مريحًا إلى أبعد الحدود. وكل ما تبقى لنا لإتمام شعائر الحج هو طواف الوداع حول الكعبة المشرفة. وللاحتفاء

بهذه المناسبة، ولأني ضقت ذرعًا بالاغتسال في الحمامات العامة، قررت أن أتوضأ كما يجب في فندق أنتركونتيننتال الذي يقع مباشرة قبالة الحرم. وقد سمح لي المكلف بالاستقبال بالفندق بكل لطف بذلك، على الرغم من أن تلك الحمامات كانت مخصصة لنزلاء الفندق حصريًّا. ولقد شعرت بمتعة كبيرة، وأنا أستخدم الحمامات العصرية التي بُنيت بالرخام، وكانت مزوّدة بصنابير فضية لامعة، ومرايا بعرض الحائط. ولأني لم أكن أضع مساحيق الزينة، وكنت أرتدي جلبابي المغربي الذي نالت منه الرمال، شعرت وكأني متشردة أمام نساء الرياض، اللواتي كنت يرتدين عباءات سوداء أنيقة مرصّعة بتطريز ماسي لامع. لكن لا ينبغي للحاج أن يكون مختالًا. وتحدثت برهة مع بعضهن ونحن نصفف شعرنا أمام المرآة، وقد امتدحن شعري قبل أن تغطي كل منّا رأسها، ويُعِدْنَ سدل نقابهن على وجوههن. وسألتهن إن كان ارتداء النقاب أمرًا مزعجًا بالنسبة إليهن، فأجبن أنه لا يشكل أي إزعاج يذكر، ولا سيما أنهن بدأن في ارتدائه منذ سن المراهقة، ولذلك لم يختبرن لباسًا غيره.

وأنهيت طواف الوداع مع السيد إمام وعزيز، وهنأنا بعضنا بعضًا بالعبارة التي يتداولها الحجاج في هذا الموقف، وهي: «حجًّا مبرورًا». لكن ما إن انتهى الحج، حتى عاد الشيطان مرة أخرى. وبعد أن سرنا تقريبًا المسافة كلها التي تفصل بين سكننا والحرم بسبب قلة وسائل النقل، وأدائنا طواف الوداع، كنّا منهكين جدًّا، وخاصة السيد إمام. وحاولت إيقاف سيارة أجرة لتعيدنا إلى مقرسكننا، لكن دون جدوى. وكانوا جميعهم مشغولين بالسفر إلى جدة. وكنت أشير إلى صديقنا الحاج الذي كان يبلغ من العمر تسعين سنة والذي كان في أمس الحاجة إلى أن يرتاح، لكن أحدًا لم يعبأ بنا، ففقدت صبري وأناتي وأنا أتحدث إلى أحد السائقين. وحين فكرت في الأمر، لم أشعر بالرضا عن نفسي؛ لأني على الرغم من

محاولاتي كلها خلال ثلاثة أيام في مكافحة الشيطان، فإنها لم تكن كافية. ومن بين الدروس التي تعلمتها خلال حجي ذلك أن أُبقي على مراقبتي نفسي، وأحافظ على صلتي بربي عزّ وجلّ، لأن الإصلاح من حال النفس كفاح لا ينتهي أبدًا. وكان علينا أن نسير إلى الجهة الأخرى من الحرم المكي كي تقلنا إحدى الحافلات. لكن قبل أن ننطلق في رحلتنا تلك، استلقينا بعض الوقت على الأرض كي نستريح، ونستجمع قوانا مرة أخرى.

وفي آخر يوم لي في مكة المكرمة، ذهبت لشراء بعض الهدايا التذكارية، ووعاء كبير من ماء زمزم أقتسمه مع أصدقائي لدى عودتي إلى لندن. وبذلك انتهت رحلة القلب التي استمرت ما يزيد على ثلاثة أسابيع ونصف، ملأت عليّ وعلى مرافقيّ كياننا. لقد تعاملنا خلالها مع مختلف التحديات، وتعلمنا الصبر، وكيف ننام ونحن جلوس، وحتى ونحن واقفون. لقد أدينا كل شعيرة من شعائر الحج، وتضرعنا إلى الله سبحانه وتعالى أن يغفر لنا، وكشفنا عن قلوبنا وما تخفيه. وأحسسنا أيضًا برباط قوي يجمعنا بعضنا ببعض، وأننا اقتربنا أكثر من الله العزيز القدير.

لقد أتيت إلى قلب الكون، حيث يلتقي عالما الغيب والشهادة. وكنت أسبح في هذا البحرالرائع من الإنسانية، الذي يطوف مثل النجوم في مجرة، حول بيت الله...

لقد وجدت أخيرًا ذلك البعد حيث يتحرر الوجود الإنساني من شرك الرغبات الحسية والدنيوية، وحيث تتحيرالروح في جو من الطاعة والاستسلام المسالم للحضورالإلهي.

هذه الكلمات المؤثرة التي كتبها يوسف إسلام بعد عودته من الحج سنة 1980م، تعبر بكل بلاغة عن عمق هذا الركن الأبدي من أركان الإسلام.

♦♦♦

حين عدت إلى لندن، نمت أكثر من اثنتي عشرة ساعة متواصلة على سريرلائق أخيرًا. ولما استيقظت، شعرت كأني استفقت من حلم رائع. وكان عقلي وقلبي لا يزالان في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وشعرت بسكينة غامرة تملأ عليّ كياني. وأحسست كأني ألتحف غيمة من الجنة، وقد لازمني ذلك الإحساس أسابيع طويلة، ولم أرد له أن يفارقني أبدًا. ومرّ وقت طويل قبل أن أشعر بالرغبة في لقاء أيّ شخصٍ كان أو الحديث إليه. وكل من تواصلت معهم كانوا إما والِدَيَّ، أو بعض أصدقائي المسلمين المقرَّبين فقط. لقد كنت في حاجة إلى أن أستوعب تمامًا الخبرات التي عشتها، ولم أكن مستعدة لأن أنزل من العالم الجميل الذي كنت أحلق فيه. وكان عليّ أن أتعافى من إنفلونزا الحج، على الرغم من أنه: «ما من أحد يتعافى تمامًا من تجربة الحج، وهو أمر جيد» كما جاء على لسان الشيخ أبي بكرٍيومًا، أيْ أنّ الإنسان لا يمكن أن يعود إلى حياته السابقة كأن شيئًا لم يكن، بل إنه يركز تركيزًا أكبر على صلته بالله عزّ وجلّ. والتحدي الذي واجهني ويواجه العائدين كلهم من الحج، كان هوالحفاظ على حالة النقاء الروحي التي عدنا بها.

وبعد مرور أسابيع قليلة على حجي، حكى لي العالم الأميركي، الشيخ حمزة يوسف، خلال حفل تكريم الشيخ الراحل أبي بكر سراج الدين في مسرح شكسبير العالمي قصة فريدة.

خلال العصورالوسطى، سافرمحي الدين بن عربي في ثلة من العلماء، وكانوا مريديه، من الأندلس إلى مصرللقاء بعض الإخوة في الإسلام. وبعد إقامة حفلة على شرفهم، قدم لهم المضيف طبقًا كبيرًا من الفاكهة الشهية. وشكرالضيوف مضيفهم، وأقبلوا على تناول الفاكهة. وفي نهاية المأدبة، لم

يتبقَّ من الفاكهة شيء. وبينما كانوا يهمون جميعًا بالرحيل، كُسرالطبق الذي كان يحوي الفاكهة. فسأل ابن عربي أتباعه إن كانوا يعرفون سبب ذلك، فأجابوا أنهم لا يعرفون السبب. فأوضح لهم حينها أن ذلك الطبق كان جديدًا، وأنه في الحقيقة مَبْوَل [(1)]. ونظرًا إلى كثرة الضيوف ليلتها، استُخدم طبقًا لحمل الفاكهة. وأضاف: «بعدما لمستموه أنتم، أحباب الله، أصبح الطبق طاهرًا، بل وارتقى إلى مقام أنبل مما كان عليه من قبل. ولكي يتفادى أن يعود إلى الغاية الأولى من صنعه، انكسرالطبق. هل تفهمون المعنى العميق للقصة؟». فأجاب العلماء بأنهم لم يفهموا، فقال لهم: «إن الطبق يرمزإلى قلب الإنسان؛ وما من إنسان يطهرقلبه، عن طريق الشعائرالدينية مثل الحج إلى بيت الله الحرام، ثم يعود ليلطخه بالمعاصي مرة أخرى، إلا وينكسرقلبه».

قررت ألا أدع شيئًا يكسر قلبي من الآن فصاعدًا.



[(1)]السمرقندي في تنبيه الغافلين بأحاديث سعيد الأنبياء والمرسلين.

[(2)] هي نوع من التمارين الرياضية التي طورها في بداية القرن العشرين جوزيف بيلاتيس، الذي ولد في ألمانيا. وهي تساعد على تقوية العضلات الداخلية، وبالتالي فإنها تعود بنفع كبير على الأشخاص الذين يعانون من مشاكل في الظهر. إن واظب المريض على ممارستها بانتظام، فإن تمارين بيلاتيس تحسن مرونة الجسم وتعزز القوة الجسمانية،

بالإضافة إلى مساهمتها في تطوير التحكم في وظائف الجسم وتحسين قدرته على التحمل. وتركز هذه التمارين على تناسق أعضاء الجسم وعلى التنفس وتحسين توازن الجسم.

[(1)] المشاة.

[(1)]خيوط متشابكة ومنسقة.

[(1)] خُفّي.

[(2)] سنن الدارقطني.

[(1)] إناء يصلح للتبول فيه.

الفصل الخامس عشر

الزواج

أتعرف ما الحب؟

إنه الطيبة كلها، إنه الكرم.

جلال الدين الرومي

كثيرًا ما حلمت بأن أتزوج مسلمًا يمتثل لتعاليم دينه في حياته اليومية، وتوسمت أن يكون قادرًا على جسر الهوة بين العوالم التي كنت أعيش فيها. وكنت آمل في أن يكون معي في البيت قادرًا على أن يعيش في الشرق والغرب معًا. وبعد رحلة حجي إلى بيت الله الحرام بوقت قصير، بدا لي وكأن الله استجاب لدعائي. وكنت قد سمعت أنا وروبي من صديقة مسلمة تعمل بالأمم المتحدة في نيويورك عن مزقع إلكتروني متخصص في مساعدة الشباب المسلم على إيجاد شريك الحياة. وكان لديّ في البداية بعض التحفظ على تمكّني من إيجاد الرجل المنا سب على الإنترنت، لكن روبي قالت لي إن المسلمين من أنحاء العالم كافة يقبلون اليوم على استخدام الإنترنت للبحث عن نصفهم الثاني. وكان عزيز قد أخبرني في المدينة المنورة بأن تلك كانت وسيلته للتعرف إلى خطيبته الجزائرية. وحين فكرنا في الأمر أنا وروبي، قررنا أن نقدم على هذه الوسيلة نحن كذلك؛ على الرغم من أني لم أعقد آمالًا عظيمة عليها.

لم يمضِ وقت طويل حتى وجدت شخصًا راقني. وكان مغربيًّا اسمه رشيد، ويعمل صحفيًّا لدى محطة تلفزة لسنوات طويلة بالولايات المتحدة الأمريكية. وبحسب الموقع الإلكتروني، فإننا كنا مناسبين لبعضنا بعضًا. وكان رشيد وسيمًا ذكيًّا، وبدا من صورته أنه جذاب جدًّا. وبدا كل شيء إيجابيًّا، غير أنه كان في بلاد بعيدة جدًّا. والطريف أنه كان يعيش في

منطقة تسمى جيرمان تاون (المدينة الألمانية)، قريبة من العاصمة الأمريكية واشنطن. وسرعان ما أصبحنا نتواصل بانتظام عبر الرسائل الإلكترونية والهاتف، وتبين لنا أننا حضرنا مناسبات عدة من قبل، وكان من الممكن أن تتقاطع طرقنا من قبل. ومن بينها أن كلًّا منّا قام بتغطية دورة الألعاب الأوليمبية التي استضافتها برشلونة عام 1992م. ووجدنا كذلك نقاط توافق عدة في حياة كلٍّ منا. وأخبرني رشيد بأنه مسلم يقيم الصلاة، ويصوم رمضان، وهذا أمر استحسنته فيه. وكان على الرغم من ذلك، مثلي، منفتحًا على الحياة الثقافية وممارسة الرياضة والقراءة. وكان قد أجرى لقاءاتٍ مع سياسيين ورياضيين، وله علاقات كثيرة في الحياة العامة قبل أن يصبح مهتمًّا أكثر بحياته الدينية. لقد حدث معي الشيء نفسه أنا الأخرى. وتحدثنا عن الدين وكيفية إدماج المبادئ الإسلامية في الحياة اليومية، وأخبرني بأن المقاربة الحرفية والضيقة للدين لا تهمه، مضيفًا بأن جده كان شيخًا، وأن التراث الصوفي غير غريب أبدًا عن عائلته. وكان كل ما يقوله لي يوافق تمامًا المبادئ التي كنت أومن بها، وأبحث عنها في شريك حياتي. وأخبرني رشيد كذلك بأنه كان يعمل صحفيًّا، ومن عمله ذاك يغطي نفقات دراسته في عدد من جامعات رابطة اللبلاب [(1)]، ويسهم في دعم عائلته في المغرب ماديًّا. ومن الواضح أنه كان موهوبًا، ويتحلى بحسّ المسؤولية. وحين أرسل لي بطاقة إلكترونية بها وردة بمناسبة عيد الحب، أحسست بأن قلبي توقف برهة. وفي مساء ذلك اليوم، ما إن رأتني صديقاتي حتى سألنني عما إذا كان هناك شخص جديد في حياتي. لقد كانت الأمور تتخذ منحًى لم أتوقعه من قبل، ذلك أننا لم نكن قد تقابلنا بعد.

وكم كانت سعادتي كبيرة حين أرسل لي رشيد رسالة إلكترونية يطلب

فيها صراحة يدي للزواج. وعلى الرغم من أن هذا الأمر غيرمألوف بتاتًا في الثقافة الغربية، فإنه كان يدل على نية رشيد الجادة في الارتباط بي، ويعني ذلك أن أي علاقة مستقبلية بيننا لن تكون سوى في إطار الزواج. واقترح رشيد أن يستقيل من عمله في العاصمة الأمريكية واشنطن، وينتقل للعيش في لندن، ويبحث فيها عن عمل جديد، حتى لا يضطرني إلى أن أبتعد عن حياتي التي ألفتها، وإذا أفلح في الحصول على عمل، يمكننا أن ننتقل معًا إلى مكان آخر، فبدا لي اقتراحه مثاليًّا. لكن انتقاله للعيش في لندن كان يعني أن عليّ أن أعيله خلال الأشهر الستة الأولى، في حين وعد بأن يعيلني، ويسهر على احتياجاتي لما تبقى من حياتي؛ ولأني كنت عائدة توًّا من رحلة الحج، كان قلبي مبتهجًا ومتفائلًا ويرى كل شيء ورديًّا. وكنا نتبادل الرسائل الإلكترونية يوميًّا، باستثناء عطلة نهاية أسبوع واحدة، شُغل خلالها بحضور مؤتمر في كندا، فانقطع الاتصال بيننا مؤقتًا.

التقيت الشيخ هيثم تميم من مؤسسة أُترج، التي كنت تلقيت بها دورات دراسية على مدى سنين طويلة. وكم كانت دهشتي كبيرة حين نصحني بألا أقدم على هذه الزيجة لأسباب عدة، كان من بينها اختلاف طبائعنا. وقال لي: «إن الزوج في الإسلام، هوالمسؤول عن إعالة زوجته». وقد سمعت الكلمات نفسها من صديقتي الدكتورة أمينة. فقررت ألا ألقي بالًا لتلك النصائح؛ لأن التوافق الذي كان يجمعني برشيد كان واضحًا جدًّا بالنسبة إليّ، ووقعت في حبّه فعلاً. إضافة إلى ذلك، فقد مرّ علي زمن طويل وأنا وحيدة، وهذا ليس مما يقبل به الإسلام كذلك. ولم أُرِدْ لهذه الاعتبارات البسيطة أن تقف حجر عثرة في طريق سعادتنا، وكنت أعرف أيضًا عددًا من النساء اللواتي أَعَلْنَ أزواجهن في بداية حياتهن معهم، ونَعِمْن بالرضا على المدى الطويل. ووافقت على اقتراح رشيد شريطة أن يحدث تفاهم بيننا، فيما أدرت ظهري لعروض الزواج الأخرى التي تلقيتها

بعد حجي.

وصل رشيد إلى لندن في عيد الفصح، ونظرًا إلى شوقي الكبير للقائه، ذهبت لاستقباله في المطار. وكنت متوترة نوعًا ما، وقرأت الصحيفة وأنا في انتظاره عند باب المطار. فسمعت فجأة صوتًا، يقول: «آنسة كريستيان؟» فكان رشيد، وبدا لطيفًا. وكانت عيناه كبيرتين عسليتين، ولونه مائلًا إلى السمرة، على الرغم من أنه كان في الحقيقة أكبر سنًّا مما يبدو عليه من الصورة التي كان يستخدمها على الموقع الإلكتروني. وفي طريقنا إلى لندن، سألني عن رأيي فيه حتى ذلك الحين، فقلت له إنه أعجبني. وكان انطباعه عني إيجابيًّا كذلك، كما قال لي. واعترف لي لاحقًا بأنه حين رآني في المطار وأنا أرتدي معطفي المغربي، وكان لونه لون الصوف الطبيعي، قال لنفسه: «هذه زوجتي». حين ذهبنا إلى البيت، أعددت العشاء، وخلال اليومين اللذين أعقبا وصوله، وجدنا أن هناك انسجامًا واضحًا يجمع بيننا وعلى مستويات عدة، وأحسسنا بأننا نقترب أكثر فأكثر من بعضنا بعضًا. وكانت رفيقتي في السكن حينها، جنيفر، دعت صديقة لها كي تقضي نهاية الأسبوع معها. وقد أسرّت الاثنتان لي أنهما أُعجبتا برشيد. فقررنا أن نقدم على خطوة الزواج، وقد اقترحت صديقتي فدوى أن تستضيف حفل عقد القران في بيتها بحضور عدد محدود من الأصدقاء.

كان يومها يوم جمعة، فذهبت أنا ورشيد للصلاة في مسجد ريجنتس بارك، حيث قابلنا السيد إمام الذي كان ضمن المجموعة التي أدّيتُ فريضة الحج معها، والذي قام مقام وكيلي في هذا الزواج. والتقطنا بعض الصور عند الباب الشهير للحديقة المجاورة للمسجد. وكنت قد رأيت فيما قبل كثيرًا من العرسان وهم يخلدون لحظة اقترانهم أمام عدسة آلة التصوير في ذلك المكان، ثم ذهبنا بعد ذلك إلى بيت فدوى. كانت

صديقاتي والإمام والشاهدان على عقد القران، وهما ابن فدوى وصديقه، في انتظارنا. وتحدث السيد إمام باقتضاب عن مسؤوليات كلٍّ من الزوجين، بحيث يتعين على كلٍّ منهما أن يحفظ سرّ الآخر ويحترمه ويعامله بالمعروف، وأن من أدوار الزوج القيام بحاجيات زوجته المادية كلها. وبعد أن ألبس كل منّا خاتم الزواج للآخر، التقطت فا بعض الصور لنا، وجلسنا لتناول الغداء، الرجال منفصلون عن النساء. وكان رشيد يجلس مع السيد إمام وباقي الرجال، فيما كنت أنا مع صديقاتي. غير أني ذهبت للجلوس لاحقًا مع زوجي والسيد إمام. وانضمت إلينا روبي كذلك، وطرأت لنا فكرة أن نسافر إلى واشنطن معًا؛ حتى أتمكن من زيارة رشيد هناك، فيما تلتقي هي إحدى صديقاتها.

وقضيت بعد ذلك أسبوعًا جميلًا مع رشيد تعرفنا خلاله أكثر إلى بعضنا بعضًا، على الرغم من أننا لم نسلم من سوء الفهم الذي عكر صفونا أحيانًا. وكان أصدقائي قد حذروني من أن أول سنة بعد الزواج تكون هي الأصعب في حياة الزوجين المسلمين؛ لأنهما لا يزالان يتعرفان إلى بعضهما بعضًا. وأخذت رشيدًا إلى أحب الأماكن إلى قلبي في لندن. وبينما كنا نسير يومًا في حديقة هايد بارك، إذ به يقول لي: «الآن وقد صرت زوجتي، أصبحت في غنىً عن علاقاتك العامة مع رجالٍ آخرين». وأضاف: «لقد أصبح لديك الآن زوج». فوافقته الرأي بكل بساطة. وكنت أدرك أن رجالًا مسلمين آخرين يحملون الفكرة نفسها، وكنت سعيدة بالتركيز على زواجي.

ولما حان لرشيد أن يعود إلى الولايات المتحدة الأمريكية، كان حزينًا لأنه سيغادر من دون زوجته؛ ولم يكن حالي أفضل من حاله. ولحسن الحظ، لم يمضِ سوى أسبوعين قبل أن تمكنت من زيارته في العاصمة الأمريكية. وكانت روبي معي على متن الرحلة نفسها. وقد راجعنا جميع

أسماء أصدقائي من الرجال، وقررنا أيها يجب محوه من قائمة هاتفي النقال، كما طلب رشيد إليّ تمامًا. وعلى متن تلك الرحلة، تخلصت من الأرقام كلها التي لم أعد في حاجة إليها. وكان رشيد ينتظرني في المطار بباقة من الورود الحمراء. وعلى مدى الأيام اللاحقة، أخذني لزيارة معالم واشنطن، مثل كابيتول هيل، والبيت الأبيض، والمتحف الوطني للطيران والفضاء. وتناولنا وجبة العشاء في ساحة (دوبونت سيركل) الرائعة، وزرنا(كرامربوكس آند أفتروودس)، وهي أروع مكتبة زرتها؛ لقد كانت تستضيف مساءً مجموعات تقدم عروضًا حية لزبائنها. وفي إحدى الأماسي، التقينا روبي وصديقتها في مطعم مغربي من أجل الاحتفال بزواجنا. وفي الليل، كنت أستمتع كثيرًا بالصلاة مع رشيد. وكانت قراءته القرآنَ الكريم جميلة جدًّا، وكان أحيانًا يضع يده بعد الصلاة على رأسي، ويتلولي بعض الأدعية باللغة العربية. وفي أحد الأيام، صحبني رشيد إلى الجامعة التي درس وتخرج فيها. وبينما كنا نتجول في الحرم الجامعي، سألته إن كانت لديه بعض الصور القديمة؛ لأني كنت أودّ أن أراها. فقال لي عندها إنه مزّق الصور كلها التي يظهر فيها مع فتيات. وكان أمرًا مؤسفًا، ولاسيما بأنه أخبرني أن بعضها كانت مع نجمات شهيرات من هوليوود. وفجأة، أخبرني بأنه يتوقع أن أفعل الأمر نفسه مع صوري، فتعجبت: «ماذا؟»، أجاب بإصرار: «نعم، عليكِ أن تتخلصي من صورك كلها التي تظهرين فيها مع رجال في حياتك السابقة». فاعترضت على طلبه، وأوضحت له أن من تلك الصور ما هو مهم من الناحية المهنية. ووافق عندها أن أحتفظ بأقل عدد ممكن، فيما كان عليّ أن أتخلص من الصور الأخرى كلها، ولاسيما تلك التي أظهر فيها مع أي رجل كنت مخطوبة أو مرتبطة به بشكل من الأشكال. وقال لي كذلك: «لا حاجة لَكِ بهذه الصور؛ لمَ نحتفظ بصور رجالٍ آخرين في البيت؟». وفي محاولته أن «يطهرحياتي» بحسب اعتقاده، طلب مني

كذلك أن أتخلص من الهدايا كلها التي تلقيتها من رجال آخرين. وبدت لي تلك المطالب مبالغًا فيها، لكني لم أُرِدْ أن أظهر وكأني حريصة على التشبث بالماضي أو بأغراض مادية. فأقنعت نفسي بأني لم أكن أطالع تلك الصور على أية حال، وما دام أن ذلك كان يعني له الكثير، فلا بأس من أن أتخلص من بعضها.

تابعنا تجوالنا في تلك الجامعة العريقة والجميلة، قبل أن نتناول الغداء في مقهًى لطيف قريب، اعتاد ارتياده حين كان طالبًا. ومن ذلك المقهى، اتصلنا بوالدي، وطلب رشيد رسميًّا يدي منه. وبدأنا حينها نخطط عمليًّا للعيش معًا، ونفكر في موعد قدوم رشيد للعيش معي في لندن، وكيف نُعِدّ للتفاصيل الأخرى كلها. وفجأة، تبين أن رشيد كان بصدد تسديد دينٍ عليه، وكان يفكر في أَن يقبل عرض عمل براتب مغرٍ في منطقة خطيرة جدًّا مدة ستة أشهر تقريبًا، لا يُسمح بقدوم الزوجات إليها. وكان السبيل الوحيد أمامنا كي نعيش معًا كما اتفقنا، هو أن أسدد ذلك الدين على أن يسدد قيمته لي حالما أمكنه ذلك. ولأني كنت عروسًا حديثة، كان آخر ما أودّ فعله هو العيش بعيدة عن زوجي مدة غير معروفة من الزمن. لقد كنت أحب زوجي، وأريد العيش إلى جانبه. ولا شك في أن تباعدنا في بداية مشوارنا معًا مدة طويلة لم تكن لتخدم زواجنا، أوخططنا لتأسيس أسرة خاصة بنا، فما كان مني سوى أن وافقت بلا تردد. واقترح رشيد أن نعقد زواجًا مدنيًّا في الولايات المتحدة الأمريكية؛ لأننا إلى تلك اللحظة كنا مرتبطين بعقد قران أمام الله فقط. في حين أنه في البلدان ذات الأغلبية المسلمة يُسجل ذلك العقد رسميًّا، وأما في الغرب، فيجب تسجيل الزواج على نحوٍ منفصل. وقبل الإقبال على الزواج المدني، أردت أن يعرف كل منّا الآثار القانونية المترتبة على هذا الزواج، وهو أمر كان لا يزال علينا أن نتعرف عليه. وأردت أيضًا أن يشهد أبي وأمي هذا الزواج؛ لذا، تركنا أمر

هذا الزواج إلى وقت لاحق، وذهبنا لقضاء شهر العسل في بوكونوس، وهي وجهة رومانسية شهيرة. وكما توقعنا، كانت غرفتنا مزوّدة بحوض جاكوزي على شكل قلب، وسريرٍ بأربعة أعمدة مع ستائر حريرية تتدلى منه، بتصميم يتعارض بجلاء مع الطبيعة العذراء التي كانت تحيط بنا في الخارج. وخلال نزهاتنا الطويلة بين الغابات الخضراء، فكرنا في أن نحتفل بزفافنا بعد شهر من وقتها وفقًا لما تمليه التقاليد في بلده المغرب، الذي كان مقررًا لي أن أزوره كي أشارك في مهرجان الموسيقا الروحية بفاس، على أن يأتي رشيد إلى هناك قادمًا مباشرة من الولايات المتحدة الأمريكية لملاقاتي هناك.

كانت الأيام التي قضيتها مع رشيد في الولايات المتحدة لطيفة جدًّا، وقد استمتعنا بصحبة بعضنا بعضًا، وجمعنا روح الدعابة نفسها. وكل ما في الأمر أنه عاد ليذكّرني بأن عليّ أن أقطع كل صلاتي مع أصدقائي ومعارفي من الرجال. وأكدت له أني قمت بمحوكل أرقام من كنت أعرفهم من الرجال من هاتفي المحمول. لكني سألته: «ماذا لواتصل بي أحدهم؟». فاقترح عندها أن أخبرهم جميعًا بأني صرت امرأة متزوجة، وأن عليهم أن يتوقفوا عن الاتصال بي. من الواضح أن هذا الأمر كان مهمًّا جدًّا بالنسبة إلى رشيد، وأني سأحتاج إلى أن أتأقلم مع هذا الواقع. ويمكنني أن أتفهم أن لا مكان في حياتنا المشتركة لمُعْجَبِيَّ ولعلاقاتنا العاطفية السابقة. لكني تعرفت عبر السنين كذلك إلى أصدقاء لم تربطني بهم علاقات عاطفية، وكان هؤلاء مهمّين جدًّا بالنسبة إليّ.

ولما عدت إلى لندن، قطعت صلاتي بأصدقائي كما طلب مني رشيد مرارًا وتكرارًا. ولاقيت تفهمًا من صديق سوري، وفيما عدا ذلك، فقد قوبلت بالاستغراب والتعجب وبعض القلق والأسف من سائر معارفي من الرجال.

وكان ألفريد صديقي الغربي الوحيد الذي تفهم الأمر؛ لأنه يعرف العقلية التي يمكنها أن تصوغ مثل ذلك الطلب. وتمنى لي الخير، وقال: «كل ما أتمناه لك هو أن تحظي بالاحترام لشخصك، وأن تتمكني من الحفاظ على حريتك في التفكير».

وحتى أقنع رشيد بصفاء نيتي، قمت كذلك بمحوجميع تفاصيل الاتصال بكل رجل ضمن دائرة معارفي من حاسوبي ومن الفاكس ([1]) الخاص بي، وتبرعت ببعض الهدايا للجمعيات الخيرية، ومزقت صورًا قديمة لأي رجل عرفته. لكنني استثنيت بعض الصور، وأخذتها كي أخبئها في بيت أبي. ومن البديهي أن أبي وزوجته عبّرا عن استغرابهما لذلك، وقالا لي: «هذه العلاقات جزء من حياتك، وأسهمت في بناء الشخصية التي تمتلكينها اليوم». وافقتهما على ذلك، غير أني أحسست أنه بتلك الطريقة أمكنني أن أنقذ بعض الصور النفيسة من الإتلاف. وزرت صديقتي القديمة كلاوديا من أيام المدرسة لأخبرها بزواجي، وأدعوها إلى حضورحفل زفافي الذي سيقام في المغرب. حين تحدثت لاحقًا إلى رشيد عبر الهاتف، سألني كيف مرت زيارتي لها، فأخبرته بأنني قضيت وقتًا لطيفًا، تناولت خلاله الغداء مع عائلتها التي كانت مكوّنة من أطفالها وزوجها. وعندها استشاط غضبًا لأني جلست مع رجل آخر. وبدأت أشعر بأني ممزقة بين توقعات زوجي مني وحياتي العادية مع عائلتي وأصدقائي. وحاولت أن أتفهم مطالبه وأتحلى بالصبر، غير أن ذلك كان يسبب لي التوتر في كثير من الأحيان.

كنّا ننسق تفاصيل حفل الزفاف المغربي عبر الهاتف، بمساعدة أخته التي كانت تعيش في المغرب. ولم يكن الأمر هينًا بسبب فرق التوقيت والمتطلبات اللوجستية، وأحيانًا سوء الفهم الذي دفع رشيد غير مرة إلى التهديد بإلغاء حفل الزفاف برمته، غير مراعٍ في ذلك أن بعض المدعوين

كانوا قد حجزوا فعلًا تذاكر رحلاتهم لحضور الزفاف. وفي أحد الأيام، اتصل بي صديقي سعيد أبو الريش، الذي كان يبلغ من العمرسبعين سنة، ليهنئني بزواجي، ويدعوني أنا وصديقتنا أجينتا إلى الغداء. فشرحت له أنه قد يكون من الصعب عليَّ أن أقبل دعوته، وأني في حاجة إلى الاستئذان من زوجي أولًا. فأُصيب سعيد بالدهشة لما سمع مني، وقال إنه كالأخ الأكبر بالنسبة إليّ، إضافة إلى كونه رجلًا مريضًا. غير أني كنت قد وعدت رشيدًا، وأرسلت له رسالة إلكترونية بهذا الموضوع من باب التأدب. ولم أتوقع مطلقًا أن يكون هذا الطلب سببًا في نشوء أزمة حقيقية مع زوجي. ومن وجهة نظر رشيد، فقد تخطيت حدود اللياقة حين تحدثت مع سعيد أصلًا، وقال: إنه كان عليّ أن أخبر سعيدًا بأني أصبحت الآن امرأة متزوجة، وأضع حدًّا للمكالمة. إن مجرد اقتراحي أن ألتقي رجلًا آخر، بغض النظر عن سنّه ومرضه، أو أنه مرتبط وأن صديقته ستكون حاضرة في ذلك اللقاء، كان كافيًا لإثارة غضبه. وبينما كان يبث غضبه عبر الهاتف، كنت أسمع صوت تدبيس بعض الأوراق. فأخبرني بأن تلك تذكرة طائرة ابتاعها للذهاب إلى البرازيل، والاختفاء هناك إلى الأبد. وأخبرني كذلك بأنه قرر إلغاء كل شيء، من حفل زفافنا وزواجنا وخططنا المستقبلية كلها. ولم أصدق أن تلك كانت ردة فعله، وقمت بإلغاء تلك الدعوة عن طريق أجينتا التي لم تفهم قراري بتاتًا. وعلى الرغم من ذلك، أحسست بأن زواجنا كان مقدسًا، وأنه استجابة من الله لدعائي خلال حجي لبيته الحرام، ولم أكن مستعدة للتضحية به مقابل دعوة على الغداء. واتصلت برشيد مرات عدة لأهدئ من روعه، بل إن فدوى قامت بالوساطة بيننا، وأكدت له أن نيتي كانت صافية. وأوضحت له أيضًا أنه لا يمكن أن يحكم على تصرفاتي من منطلق وجهة نظر عربية محافظة؛ لأني أنتمي إلى ثقافة أوروبية. وتمكنا في نهاية المطاف أن نصل إلى تفاهم ومضينا في خططنا كما في السابق.

وحين التقينا في مطار مدينة فاس المغربية في شهر يونيو، كان كل منّا سعيدًا برؤية الآخر بعد شهر طويل وعصيب من الفراق، وقد بدا وكأن تلك الخلافات كلها صارت طي النسيان. وزرنا بعض مآثر المدينة القديمة قبل أن نذهب إلى المهرجان، حيث تعرف كثير من الصحفيين إلى رشيد الذي رفض الحديث إلى أيّ منهم، قائلًا بافتخار إنه هناك بصفته مرافقًا لزوجته لا غير. وكان وجودي إلى جانبه يعني لي الكثير، فقد كان يشعرني بأنه يحميني، ويهتم بأمري. وبعد تناول وجبة الغداء، ذهبنا بالسيارة إلى العاصمة الرباط، حيث كان رشيد سعيدًا بتقديمي إلى أمه وأخته وزوجها. لقد كان ترحاب عائلة رشيد بنا حارًا. وتناولنا الشاي المغربي بالنعناع الشهير، وما يسمى بـ (المسمّن)، وهو عبارة عن فطائر مورقة مربعة الشكل، عادةً ما تقدم في الإفطار، أو مصاحبة لشاي ما بعد العصر. وقد علّمتني أخت رشيد كيف أعجن هذه الفطائر، وطريقة طيها وقليها مع كثير من الزبد والزيت حتى تصير مقرمشة من الخارج ولينة من الداخل. وكانوا كلهم متحمسين لحفل الزفاف، وقد قمنا بكثير من الترتيبات التي استدعاها في آخر لحظة. مرت أيام قليلة، وبدأنا نتردد على المطارلاستقبال أبي وأمي وصديقاتي. ولم تكن عائلتي مرتاحة تمامًا بهذا الارتباط؛ ذلك أنه على الرغم من أن رشيد عاش في الولايات المتحدة الأمريكية عقودًا طويلة، فإن الاختلافات الثقافية التي تقف بيني وبينه كانت تقلقهم. إضافة إلى ذلك، كانا يريان في زواجنا خطوة متسرعة شيئًا ما. فحاولت أن أشرح لهما بأن المخطوبين في الإسلام لا يمكنهما التعرف إلى بعضهما بعضًا قبل الزواج، لأن هناك حدودًا من الاحترام يجب أن تحفظ. وبحسب التقاليد، فإن العائلات تتحرى الدقة في البحث لأبنائها عن شريك حياة مناسب، وما إن تضع أعينها على الشخص المناسب. ويتأكد لديها أنه جديربالثقة، ويتحلى بالصفات المطلوبة، وهو أهم ما يضمن فلاح الزواج، تبدأ التحدث في

التفاصيل، مثل أسلوب المعيشة ومستواها، وعقد الزواج الذي ينص على قدر المهر الذي يدفع للعروس. وقد علمت لاحقًا أن للمرأة الحق في أن تطلب ما شاءت في حدود إمكانيات الزوج. كأن تطلب بيتًا أو جواهر أو عشرات آلاف الدولارات. وتحاول كثير من النساء أن يقتدين بأمهات المؤمنين، اللواتي كن يطلبن القليل من المتاع. فيطلبن مهرًا تكون قيمته رمزية فقط. وعادةً ما يقوم أحد أفراد أسرة العروس أو شيخ بمهمة مناقشة هذه التفاصيل نيابة عن العروس نفسها. وفي دول الخليج، جرت عادة الآباء على أن يطلبوا مهورًا كبيرة. ويفرضوا على الأزواج كتابة مقدار المبلغ الذي سيدفع للزوجة في حالة الطلاق. ولا يستغرب أن تصل تلك المبالغ إلى مئة ألف دولار مثلًا. وهو في نظرهم إجراء يوفر. نظريًا، نوعًا من الحماية للزوجات. ذلك أنه يمكن للرجل ألا يطلق زوجته. ويدعها معلقة في زيجة لم تعد تريدها. ويتزوج امرأة ثانية. وفي حالتي مثلًا، وحيث إن الزواج غيرموثق. لا يحتاج الرجل إلى أكثر من كلمة «أنت طالق»، أو«طلقتك» ثلاثًا حتى يصبح فعل الطلاق ساري المفعول. ويشار إلى أنه يمكن للرجل أن يردّ زوجته بعد الطلقة الأولى والثانية خلال مدة العدة التي تستمر ثلاثة أشهر، وذلك من خلال العودة إلى العيش مع زوجته في علاقة زوجية عادية. لكن بعد الطلقة الثالثة. يصعب ردّ الزوجة إلا في حالة زواجها من غيره. ثم لم ينجح ذلك الزواج وطلقها. حينها يحل للرجل الأول أن ينكح المرأة نفسها مجددًا. ونظرًا إلى أنه ما من رجل قد يقبل بذلك. فإن الطلقة الثالثة تُعد نهائية.

وفي حالتي أنا ورشيد، لم نخض في هذه النقاشات كلها قبل زفافنا. وبدا في مثل عمرنا، أن الصواب هو أن نتخذ قراراتنا بأنفسنا. وكنت أيضًا حديثة العهد بالإسلام، ولم أكن لا أنا ولا والداي على دراية بهذه الحيثيات كلها. وقبلت إذًا بمهر رمزي؛ لأنني شعرت بأن الزواج يعتمد على الحب

والثقة، وليس على الامتيازات المادية التي يمكن تحصيلها من هذا العقد. كما أن زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم اكتفين بمهور بسيطة جدًّا. وقد أخبرني رشيد بأن أصواتًا داخل عائلته انتقدته، وحذرته من الارتباط بامرأة أوروبية، ولا سيما من إنسانة اشتغلت في ميدان صناعة الموسيقا، على الرغم من أني كنت قد تركت ذلك المجال قبل عشر سنوات من ذلك. لكنّ والدته وأخاه ساندا ارتباطنا منذ البداية. وفي اليوم الذي وصل فيه أبي وأمي وبعض صديقاتي من لندن، ذهبنا جميعًا لزيارة الآثار والمقابر الرومانية في موقع شالة الأثري، الذي أصبح اليوم مأوى اللقالق والقطط. وقصدت النساء بعد ذلك الحمام المغربي، وهو طقس مهم من الطقوس التي تسبق ليلة الزفاف. لقد كان الحمام مكتظًّا بالنساء والأطفال الدين كانوا يغسلون أبدانهم ويفركونها، أو يزيلون ما بها من شعر زائد بكل ارتياح. وبعد الاستحمام بالماء والصابون، استلقينا على أرضية الحمام الساخنة، وارتخينا في جوه الرطب، في حين أسلمنا أجسادنا لجلسة فرك وتدليك. وبعد هذا الحمام المتميز، وبعد أن استعدنا حيويتنا ونشاطنا، ذهبنا للعشاء في بيت أخت رشيد، حيث التقت الأسرتان لأول مرة. وكانت والدة رشيد وأخته قد أعدّتا طبق طاجين من الدجاج والزيتون، وطبق كسكس بلحم الخروف. وكان التواصل عسيرًا شيئًا ما؛ لأن والديَّ لم يكونا يتقنان الفرنسية أو العربية، في حين أن أهل رشيد لا يتحدثون الألمانية، ويستطيعون بصعوبة التحدث بقدر قليل من الإنجليزية. وقد حاولت أنا ورشيد وأخته جهدنا للترجمة بين الحاضرين. غير أن المهم هوالتواصل القلبي، وهو ما أحسست بأنه بدأ يحدث، ولا سيما بين أمهاتنا وأخواتنا.

عقدت ليلة الحناء في اليوم التالي، فألبستني سيدتان قفطانًا مغربيًّا أخضر مطرزًا بتطريز ذهبي رائق، ثم قادتاني إلي الطابق العلوي، حيث انضممنا إلي الاحتفال. وبينما كان رشيد يرحب بالضيوف، قامت سيدتان

من الخبيرات في نقش الحناء بنقش رسوم من الأزهار باستخدام خليط الحناء على يدي وقدمي، ثم حان دور من ترغب من المدعوات أن تحظى بنقش الحناء كذلك. وبعد تقديم وجبة تتكون من عدد من السلطات الطرية، وطبقي الطاجين والكسكس، دخلت فرقة موسيقية ارتدى أعضاؤها جلابيب طويلة وطرابيش حمراء، ورفعت من إيقاع الاحتفال من خلال الضرب على دفوف كبيرة والنفخ في أبواق ضخمة. ولأن واجبي كان أن أحرص على عدم إتلاف نقش الحناء طوال تلك الليلة حتى يبقى أثرها باديًا على اليدين والرجلين أسابيع عدة، فلم أستطع المشاركة في الرقص. لكني على الرغم من ذلك كنت سعيدة لرؤية ضيوفنا، وهم يستمتعون بفقرات ذلك الحفل. أما يوم الزفاف في حد ذاته، فقد كان في اليوم الثالث. وحددت لي أخت رشيد موعدًا بعد ظهيرة ذلك اليوم مع صالون تجميل، كما تفعل جميع العرائس المغربيات. وعلى الرغم من أني طلبت منهن أن يضعن لي زينة طبيعية إلى أبعد الحدود، فإني لم أتعرف على وجهي بعد انتهاء المزيِّنات من وضع المساحيق على وجهي. ذلك أني لم يسبق لي أن وضعت كل ذلك القدر من مثبت الشعر ومساحيق التجميل من قبل، ولا حتى عندما كنت أظهر على شاشة التلفاز. وصحبني بعد ذلك رشيد إلى قاعة الأفراح التي أقيم فيها العرس، وقادني إلى غرفة الملابس المحاذية لقاعة الاحتفال الرئيسة. وكان المدعوون قد بدؤوا في الوصول، لكن التقاليد المغربية تقضي بتركهم ينتظرون أوقاتًا طويلة، يُقدَّم لهم فيها الحليب المعطر بالزهر، وانواع من عصير الفاكهة، في حين تأخذ العروس وقتها في التزين والتأهب. وألبستني سيدتان قفطان الزفاف المغربي الأبيض والمجوهرات، وقدمتا لي الشاي المغربي بالنعناع. بعد مرور ساعتين على ذلك، جلست على ما يشبه هودجًا، يسمى في المغرب (الميدة أو العمارية)، زُيّن بزينة برّاقة، قبل أن يحمله ستة رجال، وساروا بي في القاعة الكبيرة

نحو رشيد. كان الرجال يتمايلون ويرقصون في تناسق تامٍ على إيقاع الموسيقا نفسها التي استمتعنا بها في الليلة السابقة، وأطلقت النساء زغاريدهن الرنانة كما هي العادة في حفلات الزفاف العربية، في حين كنت أجلس حريصة على التشبث بهودجي كي لا أقع من فوقه. أما أهلي وأصدقائي، فكانوا مشغولين بالتقاط الصور.

قام رشيد بوقع الطَّرْحة التي كانت تغطي وجهي، وقادني إلى الجلوس إلى جانبه على الأريكة التي أُعدت لهذا الغرض على منصة تقابل باقي الحاضرين. وبينما جلسنا نوزع الابتسامات على الحضور، كان كل من المدعوين يتقدم ليسلم علينا، ويأخذ صورة إلى جانبنا، باستثناء الدكتورة أمينة. فعدنا إلى الجلوس على المنصة مرتين خلال مدة الحفل، وذلك بعد تقديم كل وجبة، في الوقت الذي كنت أغير فيه القفطان الأبيض لأرتدي فستانًا صُمّم خصيصًا لي. وتقتضي التقاليد المغربية أن تلبس العروس خمسة أشكال من الأزياء [(1)]. غير أني اكتفيت بثلاثة أشكال فقط. وكنت أفضل أن أشارك فعليًا، وأعيش جزءًا من حفل زفافي عوضًا عن الاكتفاء بقضاء كل ذلك الوقت خلف الكواليس في تغيير ملابسي. ورقصنا حتى ساعة متأخرة من الليل، وكان الزفاف ليلة من ألف ليلة وليلة، وقد شعرت طوال ثلاثة أيام بأني أميرة عربية.

وفي صباح اليوم التالي، ذهبت أنا ورشيد مع أبي وأمي للتسوق. واشترى لهم رشيد بعض الهدايا، واخترنا بعض القطع التي صنعت بحرفية يدوية عالية حتى نأخذها معنا، قبل أن نجلس في مقهى لتناول شاي بالنعناع. وطلب مني وَالِدي أن آخذ سلطانية مصنوعة يدويًا ومصبوغة بعناية فائقة، كانت من بين ما اقتنيناه يومها، وأضعها في سيارة الأجرة حتى لا تتأذى أو تتعرض للكسر. وانطلقت من فوري لأسلّم السلطانية للسائق.

لكن حين عدت لم يستطع رشيد تمالك نفسه، وهمس إليّ بغضب: «إن الزوجة لا تذهب للحديث مع الغرباء. إن في ذلك إهانة لزوجها». لم يكن لوالدي أي فكرة عما كان يجري، بل ولا حتى أنا. لكن لأني كنت أكنّ الاحترام لثقافةرشيد، واعتذرت إليه، ووعدته ألا يصدر مني مثل ذلك التصرف مجددًا، ونسيت ما حصل. لكن خلال الأسابيع الأولى من زواجنا، بدأت أدرك أن أسلوب حياتي سيتغير رأسًا على عقب.

وبعد أن غادر والِداي، ذهبت مع رشيد في جولة لزيارة أقاربه في مختلف أنحاء المغرب. وأينما حللنا، كان أهله يقدمون أصناف الطعام المعدّ في البيت بكل عناية، وأنواع الفطائر والهدايا. وقصدنا بعد تلك الجولة منتجعًا رومانسيًّا خارج مدينة مراكش، حيث كنا نستمتع بتناول وجبتي الإفطار والعشاء في شرفة زُيّنت على الطراز البدوي، قبالة منظر طبيعي خلاب يمتد حتى الأفق. واستمتعنا أيضًا بأخذ حمامات نقعت فيها أوراق الورود، وجلسات تدليك الوجه. وكانت وجهتنا القادمة فندقًا بيئيًّا أمازيغيًّا بين أحضان جبال الأطلس المتوسط، بُنِيَ بالطين. وكان ذلك الفندق بسيطًا، لكن أسلوب بنائه وزخرفته كان متميزًا، وأعجبنا جدًّا بالطبخ المحلي الذي كان يقدمه. وكنا نجلس للاسترخاء أمام منظر الجبال المحمرة شيئًا ما، والحقول الخصبة، والمروج الخضراء. وكنا نرى الفلاحين منهمكين في حرث الأرض، والحمير وهي تنوء بجر العربات المثقلة، والفتيات وهن يرفعن الماء من بئر قريبة. وخلال جولاتي الطويلة على الأقدام مع رشيد، أخبر كل منا الآخر بماضيه، وبدأنا نستأنس بمعنى الحياة الزوجية. وكانت تغمرنا سعادة حقيقية. وصار دوري أن أرعاه، في حين كان عليه أن يقوم بالوساطة بيني وبين العالم الخارجي. ولم يكن من المفترض حتى أن أطلب أن يُحضِرلي نادلٌ الملح، أو أن ألتقط سكينًا أوشوكةً سقطت على الأرض؛ وكل ذلك كان من تعداد مسؤولياته. وأوضح لي رشيد

أن عليّ أن أستمتع بصفة الزوجة التي تتمتع بامتيازات، والتي لم تعد تحتاج إلى أن تقضي وقتها في الجري في كل الاتجاهات؛ لأنه أصبح لديها زوج يحميها، وكان الأمر يبدورائعًا. لكنني كنت في حاجة إلى وقت طويل كي أتكيف مع واقعي الجديد، لأني كثيرًا ما كنت مستقلة في حياتي السابقة، وقادرة على الاعتناء بنفسي. غير أني كنت مسلمة اعتنقت الإسلام ولم أولد فيه، لذا، أردت أن أتعلم كيف أكون زوجة مسلمة صالحة، وشعرت بأني كي أتمكن من تحقيق ذلك عليّ أن أتأقلم مع طريقة رشيد في النظرإلى الأمور. وفي المساء، كنا نجلس في الشرفة على ضوء الشموع أمام منظر الجبال، ونحن نستمع للأذان الذي كان يملأ جوّ الوادي الموحش. وكان كل شيء كما سبق وتمنيت له دائمًا أن يكون، وقد أحسست بأن كلًّا منا خُلق لكي يكون إلى جانب الآخر.

بعد أيام قليله، عدنا إلى مراكش، وحدث شيء لن أنساه أبدًا. في الليلة التي سبقت سفرنا إلى لندن، أصررت على أن نتوقف عند ضريح سيدي عباس السبتي، أشهر أولياء المدينة. وكنت قد ترددت على قبره حين أقمت وحدي في المدينة من قبل. وحين ذهبنا للزيارة، كان وقتها مساء الخميس، وكانت مجموعة من أكفّاء البصر يجلسون في حلقة يذكرون الله سبحانه وتعالى. فجلست في الجهة اليمنى، مستندة إلى الحائط، في حين جلس رشيد في الجهة المقابلة خلف أولئك الرجال؛ وإذ بأحدهم ينادي «الشَّريف.. الشَّريف.. الشَّريف..». وراح يصر في المناداة إلى أن أدرك رشيد أنه المعنيّ بذلك اللقب. فقام من فوره إلى أن وصل إلى شيخ الحلقة، وجلس بقربه. عندها قال الشيخ لرشيد: «إنه لشرف عظيم أن نتنسم بين ظهرانينا ريح شريف»، وهي كلمة تطلق على من له نسب يصله بالرسول الأكرم صلى الله غليه وسلم. لقد كانت شجرة نسب عائلة رشيد متصلة بالنبي صلى الله غليه وسلم، كما قيل لي. وكنت مندهشة من قدرة هذا

الكفيف على استشعار تلك الحقيقة. هذا يعني أن المتصوف الذي أخبرني سلفًا عن بصيرة أكفّاء البصر كان على حق. لقد أدهشني ذلك؛ لأن رشيد لم يعد بالنسبة إليّ زوجي فحسب، بل إنه إضافة إلى ذلك من نسل أشرف الخلق، سيدنا محمد عليه أزكى الصلاة والسلام.

سافرنا إلى لندن لنبدأ حياتنا الجديدة معًا. وأحببت دوري الجديد بصفتي زوجة، وأصبح رشيد مَلِكِي المُتَوَّج، وطلباته أوامري. وكنت أغسل ملابسه وأكويها، وأطبخ له أطباقًا شهية من المطبخ الألماني والإيطالي والمغربي، بل تمرنت على صنع (المسمّن)، تلك الفطائر المغربية المربعة الشكل، التي كانت تصير قاسية بعض الشيء بعد طهيها. غير أن رشيد لم يكن يتضايق لذلك. وكان يشرح لي بأن الزوجة تؤجر على خدمة زوجها وطاعته. وفي المقابل، كان رشيد يبحث عن عمل، ويساعدني على رفع الصحون من الطاولة، وغسل الأواني، وحمل مشتريات المنزل، ويحميني ويحبني. وكان يكتب لي الأشعار، ويحدث الناس عن زوجته التي يحبها كثيرًا، وكان يشملني بالاهتمام والرعاية بحب وشغف باديين. ولم يسبق لي أن خبرت هذا القدر من التفاني العاطفي. وكنا كذلك نعمل معًا، نضحك معًا، ونصلي معًا. وكان أفضل رفيق حظيت به في حياتي. وقد ساعدني على إعادة كتابة محتوى صفحتي على الإنترنت، في حين كنت أسانده خلال إعداده لإجراء لقاءات للحصول على عمل وغيرها من الاجتماعات. وكان يتلو القرآن الكريم على مسامعي بلسان عربي، ويترجم لي نصوص عبد القادر الجيلاني من النسخ الأصلية باللغة العربية. وقد أحرزت تقدمًا في دراسة اللغة العربية بفضله. وكان يفتح الباب كلما رنّ الجرس، وكنت أشعر بالأمان إلى جانبه. وبفضل رشيد، أمكنني أن ألمس وأتذوق بعضًا من أجمل جوانب الثقافة العربية. وكنّا سعيدين جدًّا. وقد شعرنا في أول رمضانٍ نقضيه معًا بأننا مرتبطان برابط إيماني قوي لم يسبق لأي منّا أن

أحسّ به من قبل. لكن عليّ أن أعترف أن هذا الشهر الفضيل بدأ على وقع سوء تفاهم آخر، حيث تلقيت مكالمة من أحد خطابي القدامى، الذي أصبح لاحقًا مجرد شخص أعرفه لا أقل ولا أكثر، وكنت نسيت أن أقطع صراحة صداقتي به. لقد كان ذلك الأمر خارجًا عن إرادتي تمامًا، لكنه أغضب رشيدًا كثيرًا.

في خريف عام 2006م، سافرت أنا ورشيد إلى برلين، حيث قدمت الاحتفال الأول للثقافة الألمانية الإسلامية، وكان ذلك المهرجان يحمل اسم (إنسان). وقدم كثير من الفنانين الناجحين عروضًا في ذلك المهرجان، وكان اسم المطرب البريطاني المسلم سامي يوسف يتصدرهم. وأدرت على هامش المهرجان مائدة مستديرة عن الإسلام بمشاركة بعض سياسيي برلين. وتحدث كثير من الفتيات اللواتي كنّ بين الجمهور يومها عن صعوبة حصولهن على فرصة عمل بسبب ارتدائهن الحجاب. بل إن إحداهن صرحت بأنها تعرضت للطرد من مدرستها التطبيقية للسبب نفسه. وقد وعد السياسيون بالنظر في قضيتها، وأرجو أن يكونوا قد وفوا بوعدهم ذاك. وساندني رشيد أيما مساندة، ونظرًا إلى أنه ينتمي مهنيًّا إلى مجال الإعلام، فإنه كان يستطيع أن يخمن ما أحتاج إليه، وكان خلال ذلك المهرجان يقوم بدور وكيل العلاقات العامة، وحارسي الشخصي، وحتى رفيقي في تقديم فقرات تلك التظاهرة. وكم كانت سعادتي كبيرة لوجود شريك إلى جانبي يناسبني إلى أبعد الحدود.

لكن على الرغم من كل ذلك التوافق والأحاسيس التي كان كل منّا يكنّها للآخر، سرعان ما تبين لي أن رؤية كل منّا عن معنى الحياة الزوجية المبنية على أسس إيمانية كانت متباينة تمامًا. فكان رشيد يقول إنه يريد أن يقربني من الله أكثر، وكنت شاكرةً جدًّا للإرشاد الذي قدمه لي. وعلمني

الترتيب الصحيح لفرائض الوضوء وسننه، وكتب لي أدعية في مفكرة صغيرة احتفظت بها. كما لا يمكن أيضًا إنكار حقيقة أنه هو الذي ولد مسلمًا، وكنت أحترم ذلك. وأصبح رشيد إمامي كذلك، يؤمّني في الصلاة، وكان يتمتع بسلطة دينية وأخلاقية بالنسبة إليّ. وعلى الرغم من أننا كنّا نختلف في شأن بعض التأويلات الدينية، فإني كنت في النهاية أتبع رأيه في كل القضايا والمسائل حتى ولو كانت عملية، وذلك لكي أُرْضِيَ رَبِّ، وأنعم بالسلام في بيتي. ومن ذلك أني لم أعد أستطيع حضور مجالس الذكر كما في السابق؛ لأن رشيد اختلف مع أحد الأئمة هناك. لقد كان ذلك أمرًا مؤسفًا جدًّا، ترتب عليه أني لم أعد مواظبة على تلاوة أذكاري وأورادي اليومية في البيت كما كنت أفعل من قبل.

أعترف أني تعلمت أمورًا وسلوكيات كانت غريبة عني؛ لأني لم أترعرع في كنف أسرة مسلمة، ولا في وسط عربي. لكن في الوقت نفسه تمنيت لو أن رشيدًا كان أقل صرامة، وأكثر تفهمًا، تمامًا كما كنت أصبر عليه حين يتصرف بخلاف العادات والمعايير الغربية؛ لأني كنت دائمًا واثقة من صفاء نيته. وفي أحد الأيام، طلب مني أن يحضر لجلسة العلاج الطبيعي مع المتخصص الذي كان يعالج ظهري قبل ذهابي إلى الحج، وأصرّ على أن الإسلام يحظر على المرء أن يكون في نفس الغرفة مع شخص من الجنس الآخر، ولا حتى الطبيب. فوافقته على ما قال، وحضر معي تلك الجلسة فعلًا؛ لكنه سرعان ما غادر العيادة غاضبًا حين رأى بأن تدليك الطبيب ظهري لم يكن بالطريقة الصحيحة، وأنه كان يتخطى حدود المهنية الطبية. أما بالنسبة إليّ، فكان المعالج الفيزيائي مهنيًّا إلى أبعد الحدود، وعلى الرغم من ذلك، فضلت أن أبدأ بارتياد عيادة معالجة فيزيائية؛ لأني أقررت رغبة رشيد في ألا يلمسني أي رجل آخر على أنها تأويل مشروع لتعاليم الإسلام. وفي المقابل، أذكر أننا حين حظينا بجلسات تدليك في حمام البخار في حمامات

قريبة من مدينة فاس، تخطت المدلكة حدودها المهنية، وناولته رسالة قصيرة تطلب منه فيها أن يتصل بها فيما بعد. غضب رشيد لتصرفها ذاك، وأراني تلك الرسالة لاحقًا. وأصابني ذلك الحادث بالحيرة وقتها، لكن تصرفي لم يكن أكثر من أني ضحكت منه. ومن الواضح أن كلًّا منا كان يصدر عن الثقافة التي نهل منها، وذلك ما كان ينعكس على تباين ردود فعلنا أمام مختلف المواقف. غير أني أتفهم وأقدر قداسة الجسد من منظور إسلامي، وأن الاتصال الجسدي مع الجنس الآخر يظل حقًّا حصريًّا للزوج أو الزوجة، عدا حالات استثنائية، مثل أن يتعذر العثور على طبيبة في اختصاص طبي معين. ويعير قسم كبير من المسلمين اهتمامًا كبيرًا للقواعد الشكلية لدرجة أنهم لا يصافحون النساء، وعلى الأغلب فإنهم لا يرتاحون لفكرة تبادل قبل عابرة على الخد مع الجنس الآخر. وكان هذا الشكل من التحية يضايق رشيدًا إن حدث معي، في حين لم أكن أتوقف عند هذا الأمر حين يتلقى رشيد قبلًا من نساء أخريات على خده، وهو أمر حدث كثيرًا خلال مقامنا في المغرب، ولم يكن يبدي لهن أي اعتراض على ذلك. إن هذا السلوك الأوروبي أصبح عادة منتشرة، لدرجة أنه صار من الصعب تجنبه من دون التسبب للطرف الآخر في الإحراج. لكني أذكر أن هذه لم تكن عادة الناس في التحية قبل عشرين سنة. وأعترف بأن ذلك التقبيل قد يُعدّ تجاوزًا لخصوصية الآخرين، ولا سيما حين يتعلق الأمر بشخص نقابله أول مرة أو زميل عمل. وعلى الرغم من ذلك، أحسست بأن السبيل لتخطي هذا المشكِل، هو محاولة تفادي مثل هذا الشكل من أشكال التلامس الجسدي، وإن حدث ووقع عن غير قصد، فعلى المرء أن يحاول تفسير ما حدث عوضًا عن التسبب في إثارة زوبعة من لا شيء. ومن نافلة القول، أن هذه القواعد يجب أن تنطبق على الزوج والزوجة.

كان رشيد يصرّ على أنه يخشى على إيماني، وأنه كان يريد أن يحميني

من الوقوع في مواقف قد تؤثر في نقائي، بحسب تعبيره. وفي نهاية المطاف، فإنه كان ينظر لي لا بصفتي زوجة فقط، بل بصفتي حَاجَّة كذلك. لقد كان ذلك الأمر لطيفًا، لكنه يعني كذلك أن عليّ أن أمتنع عن الحديث إلى أي رجل سوى في حالات الضرورة القصوى، سواء أكانوا زملاء عمل أو وكلاء أو مندوبي مبيعات أو مدرسين أو حتى سائقي سيارات أجرة. وحين شرحت هذه الأمور لأسرتي، لم يتمالك والدي نفسه، وقال لي مستنكرًا: «لكن الرجال بَشرهم كذلك». فكان ردّ رشيد بأنه يعرف تمامًا كيف يفكر الرجال في حضرة النساء، وأنه لا يريد أن أكون عرضة لأفكارهم غير السوية. وربما كانت نيته حسنة، لكنها نغصت علينا عيشتنا بعض الشيء. ولما كنت أسعى لأن أعيش حياة سعيدة مع رشيد، فقد كنت أحاول ما أمكنني أن أنصاع لرغباته، وأجتنب التعامل مع الرجال كليًّا. وقد حدث أن دُعيت لتقديم حفل بمونت كارلوفي المجمع الضخم للعروض والاحتفالات، فطلبت من المنظمين أن يجلسوني بين اثنتين من السيدات، خلافًا لما جرت له العادة بإجلاس المشاركين بصورة متعاقبة رجل ثم امرأة ثم رجل ثم امرأة وهكذا، لأن رشيدًا أصرّ بشدة على ألا أتحدث إلى أي رجل آخر. لقد كانت مهمة توضيح سبب طلبي ذاك للمنظمين محرجًا بعض الشيء، وتمنيت لو أن رشيدًا أبدى تفهمًا أكبر لثقافتي والتزاماتي المهنية. إن انعدام الثقة وحاجتي إلى أن أحسب حساب كل خطوة أقوم بها في حياتي، كانت أمورًا لم أعهدها حتى مع صديقاتي المسلمات المتزوجات؛ لقد كان يصرّ على قراءة رسائلي الإلكترونية، وأحيانًا يحرر الرد على تلك التي تردني من مراسلين (رجالًا) نيابة عني، بل وكان يستقصي عن تفاصيل محادثاتي مع صديقاتي.

وإن حدث أن تحدّث معي أحد معارفي، حتى الأتقياء والمسلمين منهم، ولم يكن يدرك معضلتي، أو سلّم عليّ في حفلٍ ما، أو أرسل إليّ رسالة نصية

أو إلكترونية، مهما كانت رصينة أو محترمة المحتوى والصياغة، فإن النتيجة تكون الدخول في مشكلات لا نهاية لها مع رشيد. إن ما كان يصعب الأمر عليّ أكثر هو حقيقة أن ما من رجل كان يستطيع أن يشغل حتى ولو ركنًا صغيرًا في قلبي؛ لأنه كان وقفًا على رشيد الذي كان يشغله كله. لكن كان من الواضح أنه لا يفهم ذلك. لقد أحببته حقًّا، وآمنت بأنه زوجي الذي سأقضي معه باقي أيام عمري. ومع أنه كان يخبرني بأني أعظم حب في حياته، فإنه كان يرى في كل مكالمة هاتفية، أو رسالة إلكترونية أو نصية، أو أي حديث عابرٍ تهديدًا مباشرًا لزواجنا. وكان السؤال الذي يشغل بالي على الدوام هو كيف لنا أن نعيش بمنأى عن العالم، ولا سيما بالنظر إلى طبيعة عملي. ثم إنه كان قد اطلع على محتوى موقعي الإلكتروني قبل أن نتزوج.

ولتخفيف حدة التوتر بيننا، غيّرتُ أرقام هواتفي. وفي قمة يأسي وحيرتي لإيجاد حل لمعضلتي، رحت أسأل بعض صديقاتي المسلمات المتزوجات عن طريقة تعاملهن مع معارفهن من الجنس الآخر. لقد كان على فدوى هي الأخرى أن تقطع صلتها بزملائها كافة من المرحلة الجامعية بعد أن تزوجت، وكان على زوجها أيضًا أن يقوم بالأمر نفسه مع زميلاته من الجامعة. ولم تُبْقِ على اتصالها سوى مع أساتذة أكاديميين أو في أمور الدين. ولم يرَ زوجها ضيرًا في ذلك لأنه يثق في زوجته. وكان زوج إحدى صديقات روبي يرفض فكرة أن يكون لزوجته معارف من الرجال، لكنه لم يكن يمانع أن تتحدث إليهم في العمل، أو لأسباب إدارية، أو لقضاء مصالحها اليومية. أما سامية وحميراء، اللتان كانتا تديران جمعية النساء حيث قابلت حليمة كراوسن، فلم تضطرا إلى قطع صلتيهما بمعارفهما من الرجال ما دام أن تلك المعرفة كانت ضمن حدود اللياقة والاحترام. ثم إن حضور اجتماعات عمل مع زملاء من الرجال لم يكن يطرح أي مشكلات

بالنسبة إلى زوج أي منهما. بل ربما كان لزوجيهما زميلات أو معارف من مرحلة الجامعة من الجنس الآخر يقابلانهن أحيانًا. وقد قلت لرشيد إن هذه الطريقة في أخذ الأمور قد تكون أكثر اتزانًا، غير أنه لم يلقِ بالًا لكلامي.

فأصبح قلق والِدَيّ وأصدقائي يتنامى بسبب كل التغير الذي لحق بحياتي. لكنهم لم يريدوا أن يقفوا في طريق سعادتي. فطلبت منهم جميعًا أن يتحلوا بالصبر، وأوضحت لهم أني في حاجة إلى أن يَدَعوني أحاول إنجاح زواجي، آمِلَةً في أن يتكفل الوقت بمعالجة الأمور بكل سلاسة. ذلك أنه حين تخطى أصدقائي، مثل الدكتورة أمينة وداني، الحدود التي أصبحت موضوعة بيني وبين العالم الخارجي، واستنكروا أفكار رشيد وطريقة معاملته لي، لم يتردد في أن يمنعني من الاتصال بالمتدخلين. وعلى الرغم من أن ذلك كان يحزنني، فإنني كنت مضطرة إلى أن أختار، إما أصدقائي أو زواجي. وخلال أسابيع طويلة، لم أكن ألتقي سوى نينا، خياطتي ومُصلِحة ملابسي، التي قابلت رشيد، وكانت تعرف كيف تتعامل معه، هو وزميلتها في العمل، نانا. ثم ظهرت مشكلة أخرى بدأت تهدّد زواجنا، وهي «مَاضِيَّ»، على اعتبار أن ماضي رشيد، الذي كان أكثر تعقيدًا، لم يكن يخيم بظلاله على حياتنا. وكان رشيد يبدي حساسية خاصة من شخص عِمران خان، الذي كان قد عرّفني بالإسلام قبل خمس عشرة سنة. وكان رشيد يستاء بشدة كلما ربطت وسائل الإعلام بين اسمي واسم رجل آخر، على الرغم من أن تلك الصلة كانت تعود إلى أكثر من اثنتي عشرة سنة مضت. وعلى الرغم من أني لم أجد لاستيائه ما يبرره، فإني عملت، من حرصي على راحته، على محو أي معلومة عن علاقتي بعِمران من الإنترنت. وراسلت القائمين على المواقع الإلكترونية ومديري تحرير الصحف المكتوبة حول العالم، أرجوهم أن يزيلوا ذكر اسم لاعب الكريكت الأسبق من أي مقالات

تتعلق بي؛ لأني صوت سيدة متزوجة، وذلك الأمر يضايق زوجي. وفي حين لقيت الاستجابة من بعضهم، فإن بعضهم الآخر لم يستجب لطلبي، فيما لم أتمكن من أن أتواصل مع جلّهم. وبغض النظر عن حب رشيد لي، بدأت أسأل نفسي عما إذا كان، في قرارة نفسه، يظن أنه تزوج بإحدى حور العين اللواتي لم يكن لديهن أي اتصال مع العالم الخارجي. أنا لم أكن كذلك قطعًا، ولم أكن أملك أن أصير كذلك، وإن بذلت في ذلك المسعى جهدي الجهيد. ظلت روبي تردد على مسامعي أن ماضي المرأة ملكها وحدها، ولا يملك الرجل أن يسأل عن تفاصيله. ألم يتزوج النبي صلى الله عليه وسلم مطلقات كذلك؟

بعد أن قضينا ستة أشهر في لندن، عثر رشيد على وظيفة في الولايات المتحدة الأمريكية. فأصبحت الخطوة القادمة هي أن يلتحق بعمله على أن ألحق بهِ متى ما تيسر لي ذلك. فصليت صلاة الاستخارة، وهي الصلاة التي يلجأ إليها المسلم طلبًا من العلي القدير أن يهديه للقرار الرشيد، كما كان يفعل الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم قبل الإقبال على اتخاذ قرارات مصيرية. وسرعان ما تلقيت إشارة لم تكن إيجابية، وكانت بصورة جدال جرى بيننا في الخامسة صباحًا، حين اتصل من الولايات المتحدة. غير أننا تصالحنا مجددًا، وتناسيت تلك الإشارة.

ومع اقتراب الذكرى الأولى لزواجنا، وبعد أن فكرت في الأمر مليًّا، قررت السفر إلى واشنطن. وكنّا سعداء جدًّا بأن نلتقي مجددًا، واحتفلنا بلمّ شملنا بأن ذهبنا مرات عدة للعشاء في أجواء رومانسية. وأخبرت رشيد عن التحديات التي تواجهني في عملي الجديد، فعبّر لي عن قلقه من أنهم لا يعاملونني بالاحترام الذي أستحقه. وقال لي كذلك إنه يشتاق إلى قربي، ويريد من زوجته أن تكون إلى جواره، وطلب مني أن أستقيل من عملي.

وكنت حينها أقدم برنامجًا يُعنى بمختلف الأديان يُبث على قناة تلفزة جديدة، وكنت أستضيف. وأحاور فيه شخصيات دينية مختلفة من فنانين وعلماء وناشطين اجتماعيين وعلماء نفس. فاستمتعت بعملي كثيرًا على الرغم من المشكلات التي كانت تعترض سبيل المحطة في بداياتها الأولى. بالإضافة إلى أن ذلك العمل كان سببًا وجيهًا بالنسبة إليّ كي أخرج من البيت. وكانت جلّ صديقاتي المسلمات يعملن، ما عدا من كان لديها أطفال صغار تعتني بهم. ولا شك في أني كنت أريد أن اكون إلى جوار زوجي أكثر من أي شيء آخر، لكني لم أكن متأكدة من سلامة قرار استقالتي في ذلك الوقت، لأني لم أكن مستعدة لمغادرة لندن بعد. ذلك أن البيت كان يحتاج إلى أشغال إعادة صيانة قبل أن يمكنني عرضه للإيجار، وكنت أيضًا في حاجة إلى الدخل المادي الذي كان يوفره لي ذلك العمل. وعلى الرغم من وعد رشيد لي بأن يتكفل بالنفقة عليّ بصفتي زوجته، فإني كنت حتى ذلك الوقت أتكفل بكل احتياجاتي المالية بنفسي.

اتفق رشيد معي على أن يتكفل بتغطية احتياجاتي المالية من الآن فصاعدًا، وقررت من جهتي أن أستقيل حتى أتفرغ لزواجنا، الذي كان الأولوية الأولى في تلك المرحلة من حياتي. لقد وثقت في أنه سيفي بوعده هذه المرة، واتكلت على الله سبحانه وتعالى كما أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم: «اعقلها وتوكل» [(1)].

بعد عودتي إلى لندن، كنت أتحدث إلى رشيد عبر الهاتف كل يوم، ومكثت في البيت أغلب الوقت كما طلب مني. وقد عاد عليّ ذلك التغيير ببعض النفع. وخلال تلك المدة، أشرفت على أعمال الصيانة في البيت، وبدأت بكتابة المسودة الأولى لكتابي. حين كنت أريد الخروج مساءً، كنت أتصل به في واشنطن، أو أرسل له رسالة إلكترونيه حتى أستأذنه في الأمر.

وقد ذكّرني ذلك شيئًا ما بأيام المراهقة. حيث كان الوقت الذي لا يمكنني تخطيه خارج البيت هو العاشرة مساءً، وهو الوقت الذي كان يتصل بي فيه. غير أني تمكنت ذات مرة أن أقنعه بأن يسمح لي أن أتأخر حتى الثانية عشرة ليلًا، وذلك لحضور حفل زفاف صديقتى روبى. ووافق رشيد على ألا أتوجه للعريس بنصف كلمة، وقد التزمت بذلك الشرط حقًّا. واضطررت إلى أن أترك الحفل المخصص للنساء على عجل، وأسرعت إلى المنزل من الجانب الآخر من المدينة حتى أكون في البيت في الموعد المحدد. وقد اتصل بي رشيد فعلًا عند الثانية عشرة تمامًا. ولكن حتى عندما كنت أخرج في وقت مبكر من المساء، لم يكن رشيد دائمًا راضيًا. بل كان أحيانًا يمنعني من أن أرى إحدى صديقاتي حتى أكون وحدي في البيت. فأخبرته مرة عن محاضرة رائعة حضرتها، وكان موضوعها المحدّثات من النساء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر الإسلام، وقلت له أني سألت سؤالين خلال تلك المحاضرة، فكان ردّه الجاف لي هو: «أنتِ ببساطة لا تستطيعين مقاومة رغبتك في الحديث إلى الرجال، أليس كذلك؟». ومهما حاولت، وبالنظر إلى خبرتي في الحياة، فإن الفصل التام بين الجنسين لم يكن أسلوبًا ممكنًا للعيش في الغرب.

كان مستوى الضغط والتوتر عاليًا جدًّا بالنسبة إليّ، لدرجة بدأت معها أشعر بالخناق يُضيَّق عليّ، وأحسست أيضًا بالحزن والعزلة. لقد كان إصرار رشيد على هذه القواعد الشكلية بعيدًا كل البعد عن تعاليم الإسلام التي تعلمتها، والتي كانت تعتمد على الجهاد الروحي، وحسن السلوك في إطار الشريعة. كان الأمر غريبًا جدًّا لأننا حين تحدثنا عن توقعاتنا قبل أن نتزوج، قال لي بكل وضوح إنه يفضل المقاربة الباطنية للدين، بخلاف المقاربة الظاهرية له. غير أن حقيقة زواجنا كانت مختلفة جدًّا عن ذلك الكلام، ومع الوقت، لم أملك سوى أن أشعر بأني أعيش داخل سجن تحت

حراسة مشددة. فسألت الله سبحانه وتعالى أن يساعدني، وأن يجعل زوجي يفهمني أكثر، ويرقّق قلبه عليّ. ذلك أنه في بعض الأحيان كانت نينا أوروبي أو فدوى تضطر لأن تتصل برشيد وتحاول تهدئته. لكن حتى في خضم تلك المشكلات كلها، كانت تتخلل لقاءاتنا لحظات حب جميلة، وكنّا أيضًا نستمتع كثيرًا برفقة بعضنا بعضًا. فكانت تلك اللحظات هي التي تقويني وتدفعني لمواصلة حياتي معه. وتقبُّل التحديات الكبيرة التي حملها لي هذا الزواج، وأخطو معه كل خطوة إلى أن يفرقنا الموت. ولأني كنت مسلمة بالاعتناق لا بالولادة، وجديدة العهد بالزواج ومخلصة لديني ولزواجي، فإني كنت أريد أن أفعل الصواب. لذا. سعيت إلى أن أتغير لأصبح تلك المرأة التي يرتضيها رشيد زوجة له. لقد ابتعدت عن كثير من التفاصيل التي كانت تملأ حياتي قبل زواجي. مثل أصدقائي والثقافة التي تربيت فيها، ومجالس الذكر التي كنت أحضرها وعملي. لقد آمنت من كل قلبي أن تضحياتي تلك كانت في سبيل غاية أسمى. وأن خلافاتنا ستُحل مع الوقت. علمًا أن من بين كل ما أحلّه الله سبحانه وتعالى. فإن الأبغض إليه عزّ وجلّ هو الطلاق [(1)]).

ومن وجهة رشيد، فقد قدم تضحيات كبيرة حين قدم للعيش معي في لندن. غير أن الواقع أثبت أن ذلك الأمر كان أصعب مما تصور أيٌّ منّا. ثم إني قمت في رأيه بكثير من الأخطاء، ولا سيما في بداية زواجنا، وقبل أن نعيش معًا، وذلك من خلال عدم انصياعي التام لأهم واحدة على قائمة قواعده، وهي أن أمتنع عن مخاطبة أي رجل مهما يكن. وشعرت بالأسى لأني جرحت رشيدًا دون قصد مني، لذا، طلبت منه. ومن الله تعالى. أن يسامحني مرارًا وتكرارًا. لقد علّمنا الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال سنّته الفعلية أهمية العفو، بل قال: «مَنْ اعْتَذَرَ إِلَى أَخِيهِ بِمَعْذِرَةٍ، فَلَمْ يَقْبَلْهَا

كَانَ عَلَيْهِ مِثْلَ خَطِيئَةِ صَاحِبِ مَكْسٍ» [(2)].

كنت أطلب من زوجي أن ننظر إلى الصورة في شموليتها، ونعي ونتذكر العهد الذي قطعناه على أنفسنا أمام الله سبحانه وتعالى، ونسعى لننال رضاه جلّ علاه. ولو أمكننا تجاوز خلافاتنا اليومية بهذه النظرة الإيمانية للأمور، لكان ذلك رائعًا. ولكن ذلك كان صعب المنال في حالتنا. أفلح رشيد في إيجاد فرصة عمل مهمة جدًّا في الشرق الأوسط. وقررنا أن ألحق به إلى هناك. وقمت عندئذٍ بالإشراف على عملية صيانة المنزل وتجديده، وعرضته فعلًا للإيجار. ووافقت كذلك على طلبه بأن أبعث له مبالغ مالية إضافية لمساعدته على الانتقال من الولايات المتحدة الأمريكية، وذهبت إلى هامبورج لوداع والدي. وخلال تلك الزيارة، قمت بالتخلص من البقية الباقية من الصور التي كانت لا تزال قابعة في العلية. وعدت إلى لندن، ورتبت لقطع خدمات الكهرباء والماء والإنترنت، وبدأت في ترتيب حقائبي للسفر، فإذا برشيد يتصل بي فجأة، ويقول لي إنه لم يعد يريد أن يعيش معي، وأنه بإمكاني أن أسافر إلى حيث هو كي نتحدث عن الأمر. لم أصدق ما كان يحدث، ولكن في تلك اللحظة تمامًا أصبحت الإرادة والطاقة التي كنت أحملهما في داخلي للدفاع عن هذا الزواج وإنجاحه في أدنى مستوياتهما. وفكرت في أنه لو كان يقصد فعلًا ما يقول، فعليه هذه المرة أن يأتي إليّ هو ليتحدث إليّ. لكنه لم يفعل، واكتفى بتطليقي عبر الهاتف، علمًا أني كنت لأول مرة في وضعية أستعد فيها للعيش على نفقة زوجي وفقًا لوعده الذي طال انتظاره. وا يكلف نفسه عناء السؤال، أو التأكد من أني في أمان، أو أن يفضّ ما كان عالقًا بيننا. ألقيت بنفسي على السرير، وانهمكت في البكاء. لم أستطع أن أنهض، وكنت أشعر بأني في أضعف حالاتي. لقد نزل عليّ الطلاق كالصاعقة؛ لأنه كان آخر شيء أتوقعه حينها.

ورغم أني وثقت برشيد من كل قلبي، لكن من الواضح أني لم أتحرّ الأسباب كما أوصانا بذلك الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم.

لقد كان الأمر بالنسبة إليّ أكبر من مجرد انفصال نهائي عن شخص كنت قد أحببته، وضحيت بكل شيء من أجله. لقد كان هزيمة شخصية مدوية. ذلك أن رشيد وأسرته كانوا الأسرة المسلمة الوحيدة التي كنت أنتمي إليها والتي كنت أشاطرها حياتي الإسلامية، من الإفطار في رمضان والاحتفال بالعيد والصلاة معًا. لقد أملت بزواجي من مسلم ولد في دار الإسلام في أن أبين لأسرتي، التي كان لها كثير من الأفكار المسبقة والتحفظات عن الإسلام، ولا سيما الرجال المسلمين بعد تجاربي السابقة، أن الزواج بين امرأة غربية ورجل شرقي مشروع يمكنه أن ينجح. لكن زواجي فشل فشلًا ذريعًا، وأصبح مثالًا حيًّا لفشل التعايش بين الثقافات.

ولكي ينجح الزواج بين طرفين من ثقافتين مختلفتين، أظن أن على المعنيين أن يتّحدا في فهمهما للحياة الزوجية، ويفكرا مليًّا في سلوكاتهما الثقافية، ويحاولا فصلها عن جوهر الإسلام. وفي واقع الأمر، يمكن للزوجين أن يكونا كالمرآة يعكس كل منهما للآخر صورته، فتصبح عملية الحوار والاكتشاف وسيلة لتنقية المبادئ والأخلاق الإسلامية مما علق بها من ممارسات ثقافية، وتلونت بلون الدين. إن من شأن هذه المقاربة أن تقرب الزوجين من الثقة، ومن الله سبحانه وتعالى. وفي نهاية المطاف، قد يكون مآل هذا المشروع النجاح، أو الفشل، كما في حالتنا. وفي محاولتي استعادة توازني من جديد، صليت كثيرًا، فيما حاولت أسرتي وأصدقائي أن يواسوني في محنتي. أما صديقتي فدوى، فقالت لي: «خير إن شاء الله». ومن جديد، وجدت سلواي في حكمة رفيقَيَّ الرومي والجيلاني. وقد قال الأول:

حين يُحرق بُستانُكَ يُهْدِيكَ العنب؛ وفى عتمة الحزن والأسى، يبعث لك السلام...

ولهذا، فإن خليل الله يشتكي أبدًا، لأن ما يُؤْخَذُ منه يُرَدُّ إليه في صورة أخرى.

أما في كتاب الجيلاني، فقد وجدت هذه الكلمات:

الخَلْقَ عَجَزة لا يضرونك ولا ينفعونك، إنما الحق عزّ وجلّ يجري ذلك على أيديهم [1].

إن ذلك يعني أن الجيلاني يدعونا إلى أن ننتبه لله، ولا نأبه بالبشر؛ وهذا ما حاولت القيام به، أن أرتقي بنفسي بصفتي سيدة مسلمة أوروبية بعد تجربة الزواج ورحلة الحج، حتى أتفتح وأشرق مجددًا، تمامًا كما يدل على ذلك اسمي، زهرة.



لا شيء يحدث إلا بإرادة الله سبحانه وتعالى، كما أن الحياة لا تسير دائمًا وفقًا لما خطط له العبد. ذلك أن العبد في التفكير والرب في التدبير. إنّ ما يجب أن ينصاع إليه المرء هو في الحقيقة مشيئة الله عزّ وجلّ. وكلما فكر الإنسان فيما حصل له، وجد لكل أمر معنًى. مع مرور الوقت، بدأت أفهم زواجي وديني أكثر شيئًا فشيئًا. لقد وقعت في حب جوهر الإسلام الطاهر الجميل وشخصية المصطفى صلى الله عليه وسلم. لكن الحياة علمتني أن المسلمين، بمن فيهم أولئك الذين يقومون بظاهر ما يقتضيه الإسلام من أركان، لا يتمثلون تلك التعاليم ومعانيها وغاياتها في نفوسهم. كنت أسعى للتقرب من الله سبحانه وتعالى من خلال الالتزام برغبات زوجي السابق. لكني في الحقيقة لم أكن مُسَلِّمَةً لله، بل لإنسانٍ كان فهمه للدين يختلف تمام الاختلاف عن فهمي له. لم تكن طريقه إلى الله طريقي. وأضحى فهمه للإسلام نوعًا من التحكم، بل والقمع، ربما لأنه كان يخشى أن يفقدني. وكانت النتيجة أني خسرت بعض أصدقائي

ووظيفتي، بل وحتى نفسي. كان من المستحيل لمثل هذه العلاقة أن تستمر على المدى البعيد. لأن الحب يحتاج إلى الثقة والحرية (في إطار حدود الله عزّ وجلّ) كي ينمو ويترعرع. ولا يمكن للسعادة الزوجية أن تستمر إلا إن كان طرفاها متوهجين، ويحققان كل الإمكانات التي أودعها الله سبحانه وتعالى فيهما، في ظل الاحترام والمساندة المتبادلين.

وقد عبّر الأديب والفيلسوف اللبناني جبران خليل جبران عن ذلك، بقوله:

ليحبَّ كل منكم الآخر، لكن لا تقيدوا المحبة بالقيود

اجعلوا من المحبة بحرًا متماوجًا بين شواطئ أرواحكم.

ليملأ كل منكم كأس الآخر، لكن لا تشربوا من نفس الكأس.

تقاسموا خبزكم فيما بينكم، ولكن لا تأكلوا من رغيف واحد.

غنوا وارقصوا معًا وليعمكم الفرح،

لكن دعوا كلًّا منكم ينعم بحريته،

فحتى وإن كانت أوتار القيثارة كل على حدة

كلها تهتز لنفس الموسيقا.

أعطوا قلوبكم، لكن لا تدعوها أمانة عند بعضكم بعضًا؛

ذلك أن يد الحياة هي الوحيدة الكفيلة باحتواء قلوبكم.

قفوا معًا ولكن ليس على مسافة متقاربة جدًّا من بعضكم بعضًا؛

لأن أعمدة المعبد تقف بمنأى عن بعضها بعضًا،

وشجر السنديان والسرو لا ينمو أي منها في ظل الآخر.

خلال الأسابيع القليلة التي أعقبت استعادتي حريتي، خرجت أكثر مما

اعتدت عليه خلال العام السابق كله. ربما كنت أريد أن أتدارك الوقت الضائع، وأحسست براحة كبيرة حين عدت إلى مخالطة الناس مجددًا. وأحسست أيضًا بأني تحررت، لكني شعرت كذلك بالغرابة والوحدة.

الحمد لله أني سرعان ما تمكنت من أن أعود إلى نشاطي المهني مرة أخرى. فقبلت عرض عمل في التلفاز استنزف كل طاقتي، وربما كان ذلك أفضل شيءٍ يمكن أن يحدث؛ لأنه ساعدني على ألا أفكر كثيرًا في الماضي. وأعجبني جو الاحترام الذي ساد أجواء تلك القناة الإسلامية. ولم يكن من الممكن تصور أي نوع من سوء التهذيب والتطاول من أي من الرجال العاملين في المحطة تجاه واحدة من زميلاته، خلافًا لما كان يقع عادة في محطات التلفزة الأخرى وغيرها من المنابر الإعلامية التي مررت بها خلال مسيرتي المهنية. وخلال شهر رمضان الفضيل، كنّا نفطر معًا عند مغيب الشمس بأطباق شرقية شهية، كان رئيسنا عادة ما يُحْضِرُها. وكان كثير منّا يأخذ أوقات استراحة من العمل كي يصلي. وكان من الجميل أن أصلي مع زميلاتي في غرفة الزينة. لكن بعد مرور عشرة شهور فقط، أوقفت برامج عدة، من ضمنها برنامجي.

انتقلت صديقتي فا للعيش معي مباشرة بعد طلاقي حتى تدعمني. وفي حين كنت أتمنى أن أحظى ببعض الراحة في خضم كل ما كنت أعيشه، وأنعم ببعض الدلال، إذا بها تحط الرحال في بيتي مع خادمتها لتتفرغ لتدليلي. إنه فن يتقنه الشرقيون بمهارة. وفي الأوقات العصيبة، يتجمع الناس بعضهم مع بعض، ولا يُتْرَكُ أحدٌ وحيدًا. كانت فا وخادمتها تطهوان الطعام لي، وتعتنيان بالمنزل. وكنا نصلي معًا، وكانت تسدي لي كثيرًا من النصائح الإيمانية للتعامل مع ألم الانفصال. لقد حجزت نفسي داخل شرنقة خلال العام المنصرم. وبدأت أستشعر محيطي من جديد، وعاودت الاتصال

ببعض أصدقائي القدامى. وكانت داني سعيدة جدًّا بعودتي وضمتني إلى حضنها. لقد كانت قلقة جدًّا عليّ لأنها كانت تدرك طوال الوقت أن الأمور لم تكن تسير على ما يرام. ولأنها كانت ممنوعة من الاتصال بي، فإنها لم تكن تدري ماذا تفعل.

زرت كذلك جاي إيتن الذي شعر بالسعادة والارتياح لرؤيتي. ولم تشفع له سنّه المتقدمة، حيث كان في أواخر الثمانين من عمره، ومكانته في حياتي كأب روحي بالنسبة إليّ، وأنه علمني كثيرًا عن الإسلام على مدار السنين، في استثنائه من قاعدة رشيد في عدم مخاطبة الرجال بصورة مطلقة. لقد قال جاي مرارًا وتكرارًا إن ما كان يحصل معي لم يكن من الإسلام في شيء، وأنه كان عليّ أن أواجه زوجي، وأعبّر عن عدم رضاي عن وجهات نظره وتصرفاته تلك. قبل أن أتزوج، كنت أدوام على زيارته مرة أو مرتين شهريًّا طوال عشر سنوات. وقدمته إلى كثير من أصدقائي ومعارفي، مثل روبي وكورا والدكتورة أمينة وكريسي هايند والشيخ حمزة يوسف، إضافة إلى عدد من الشباب الصغار السن الذين كانوا في حاجة إلى نصحه وتبصره، وكانوا كلهم يحبونه كثيرًا دون استثناء. وخلال واحدة من تلك الزيارات، سألته كيف لمسلم يؤدي أركان الإسلام من صلاة وصيام، ومن الواضح أنه يتحلى بالإيمان، أن يتصرف بسوء تجاه الآخرين. لقد وقفت على هذه الحقيقة مرارًا وتكرارًا. ولم يكن الأمر مقتصرًا على ثقافة أو منطقة جغرافية معينة دون غيرها. وهو أمر كان يصيبني بالحيرة. وقال لي جاي إنه كثيرًا ما اهتم بالناس ونقاط ضعفهم. وكان تفسيره أن إيمان بعض الأشخاص يبقى سطحيًّا، ولا يختلط بدواخل خلقهم.

لم يمر وقت طويل قبل أن يطلب مني فؤاد نهدى، زوج حميراء، وهو رجل ينشط في ميدان الإعلام، وله كثير من العلاقات في هذا الميدان، أن

أُيسّر لقاء الشيخ الحبيب علي الجفري بجاي إيتن. لقد كان شرفًا كبيرًا لي أن أقابل أخيرًا الشيخ الذي كثيرًا ما سمعت عنه الكثير شخصيًّا. وقدم الشيخ الجفري لجاي إيتن، أو سيدي حسن، جائزة لما قدمه خلال حياته الحافلة خدمة الإسلام. وتحدّث الرجلان عن جوهر الدين، وهو خلق الإحسان، وأن الكلمةَ اسمٌ آخر من الأسماء التي تُطلق على التصوف. إن هذا الخُلق يدور حول الامتياز والرقيّ والجمال الروحي. وهي أخلاق اتفق الرجلان على أن على كلٍّ منّا أن يتحراها في حياته الشخصية. بدلًا من إيلاء الاهتمام كله للتفاصيل الظاهرة أو الأعراف الثقافية. وعندما علم الشيخ الجفري بطلاقي، قال لي: »لقد كان ذلك امتحانك«. ونصحني بأن أحاول أن أعفو وأسامح، وأسعى من خلال هذا التصرف إلى أن أنال محبة الله عزّ وجلّ من دون أن يكون عفوي رهينًا بالشخص الذي ظلمني. وقال لي أيضًا: »إن هذا هو الدواء الإلهي، ذكّري نفسك حين تتعنت. ألا تطمعين في أن يغفر لك الله يوم الحساب كذلك؟«. فكرت فيما قاله لي الشيخ، فوجدت أن نصيحته حلّت عقدة كانت لا تزال عالقة بقلبي، وعقدت عزمي على أن أعمل على جعل عفوي وصفحي خالصًا لوجهه سبحانه وتعالى. ونصحني الشيخ أيضًا، محذّرًا: »كوني حذرة فيما تطلبينه في المستقبل«. ووعدني أن يدعو الله لي بشكل خاصٍ، أن يرزقني زوجًا مسلمًا يقدّرني ويحبني كما أنا، إن شاء الله تعالى.

وقابلت كذلك إيما ومايكل رادفورد. وبينما كنت أروي لهم قصتي، وأنا أهزّ رأسي من استغرابي كيف استطعت أن أعيش تلك التجربة بتفاصيلها، بل وكنت أضحك وأنا أسرد لهم بعض تلك التفاصيل، أشار مايكل إلى أني على الأقل، أصبحت أنظر إلى الحياة بصفتي مسلمة، بشيء من الطرافة، فأجبته قائلة: »إن لم أضحك فسأبكي لا محالة«. بدأت أحاول أن أستعيد وتيرتي السابقة في ذكر الله، لكن الضغوط الخارجية كانت تقيدني كثيرًا، ولم

يكن الأمر سهلًا بتاتًا. لكني كنت سعيدة جدًّا بالعودة إلى حضور مجالس الذكر بصورة منتظمة. وكنت قد افتقدت صحبة أولئك الأشخاص الطيبين، واشتقت إلى الصلاة معهم جماعةً. لقد رحّبوا بي، وأعانوني على أن أفهم ما حصل من وجهة نظر إيمانية. لكن على الرغم من الدعم كله الذي حظيت به، كنت غالبًا ما أشعر بالحزن، وكنت أشتاق إلى رشيد. وقد زادت مكالماته المتكررة لي، وهو يذرف الدموع، من صعوبة الأمر. ولأتغلب على ألم الفراق، وصفت لنفسي وصفات (علاج مثلي)، وخلال لحظات الضعف التي كانت تجتاحني، كنت أتذكر مشاهد من زواجنا، فهمت من خلالها بعقلي وقلبي أنه من الأفضل لي أن أبقى عزبة على أن أكون طرفًا في علاقة غير متوازنة. وتذكرت تجربة كانت قد استأثرت باهتمامي، وأعجبتني خلال مدة دراستي العلاج البديل، وألهمت مسرحية قدمتها فرقة مسرح الخيال كنت شاهدتها مع صديقتي فا. في تلك التجربة، قام العالم وطبيب (العلاج المثلي) ماسارو إيموتو بتجميد قطرات من الماء، وصور البلورات التي تكوّنت بعد التجميد، حتى يوثق الأثر الذي يكون للعوامل الخارجية في إعطاء أشكال معينة لجزيئات الماء. ووجد هذا العالم أنه حين تتعرض جزيئات الماء مثلًا للموسيقا الكلاسيكية أو الدعاء أو كلمات العرفان، فإنها تتأثر إيجابيًّا، وتكون بلورات جميلة ومنسجمة، تبدو كأنها جواهر صنعت بأنامل صائغ من الطراز العالي. وفي المقابل، فإن الماء الذي يتعرض للموسيقا الصاخبة، والأحاسيس السلبية، أو الإهانة اللفظية فإنه يتخذ بعد ذلك شكلًا مشوهًا وقبيحًا، ولا تكون هيكلته متسقة ولا متناسقة، بل مرتبكة وغير منسجمة. ولأن جسم الإنسان مكوّن بالأساس من الماء، فإن هذه التجربة تظهر أهمية تفادي السلبية، والحرص على إحاطة المرء نفسه بكل ما هو إيجابي لصحته.

إن هذا بالتحديد هو ما أردت فعله. لقد استوعبت بعض الدروس من

تجربة الزواج التي مررت بها. ومن بين الآثار الإيجابية للعزلة التي خبرتها أني أصبحت أعتمد أكثر على الله سبحانه وتعالى، وأتوكل عليه، وتعلمت أيضًا أن أحلّ كثيرًا من المسائل بيني وبين ربي، عوضًا عن اللجوء إلى طلب النصح من الآخرين. ثم إني من خلال تلك التجربة صرت أعرف من هم أصدقائي الحقيقيون.

وقد وصف الجيلاني الصداقة بأسلوب رائق، فقال:

الصديق، من يصادقه في الخير تدوم صداقته في الخلوة والجلوة،

في السراء والضراء، والشدة والرخاء([(1)]).

كنت محظوظة لأني كنت أملك بعض الأصدقاء المخلصين الذين شاركوني في أفراحي وأحزاني. وانتقلت روبي للسكن معي مباشرة بعد رحيل فا. ولم تكن تجربة زواجها ناجحة هي الأخرى، ولم ترد أن تعود إلى بيت والديها كما يقتضيه العرف، وهو السيناريو الأمثل لفتاة باكستانية »على خلق«، بعض النظر عن سنّها. علمتها طريقة إعداد أطباق الطاجين المغربي، والسمك والباستا الإيطالية أو العجائن، فيما تعلمت منها طريقة تحضير العجة الباكستانية، وكاري ديسي [(1)]. بل وخضت مغامرة إعداد خبز (الروتي)، فكنت أحرك العجينة المسطحة والطرية بخفة من يد إلى أخرى، قبل أن أضعها فيما يسمى بِـ (تاوا)، وهي صينية طبخ مسطحة. لا يمكنني القول أني صرت أتقن صنع (الروتي) كما يجب، لكن روبي أكدت لي إتقانه يتطلب سنوات من الخبرة العملية. لكن خلال ذلك الشهر، وبفضل وصفات أخت روبي، فزت في برنامج مسابقات في الطبخ في ألمانيا، وهو يعادل من حيث قيمته والمتابعة الجماهيرية التي يلقاها برنامج (تفضل للعشاء عندي) في المملكة المتحدة، بتشكيلة من الأطباق سميتها (ولع

باكستاني). نظمت أنا وروبي أماسيّ نسائية، واستمتعنا بحريتنا، وقلوبنا يملؤها الله تعالى. وقررنا أننا أن تزوجنا مستقبلًا، فلن نرتبط سوى برجال يشاطروننا قيمنا نفسها.

أحييتُ صداقتي مجددًا بصديقيَّ السابقين بيني وتوني على وجبة عشاء بنادي جروتشو، حيث كان ذلك الثنائي متألقًا. وكانا قد عقدا قرانهما منذ مدة، وانتقلا للعيش نهائيًا في الريف، وكان ذلك من بين أسباب انقطاع الاتصال بيننا خلال السنوات القليلة الماضية. وقد أعيد توزيع إحدى أغاني توني مع مجموعة (جينير ايشن إكس)، وهي (دانسينج ويذ مايسلف)، وأصبحت تسمع في كثير من المسلسلات المتلفزة. ولقد سعدت جدًّا برؤية هذا الثنائي مجددًا، وأرى سعادتهما معًا بعد أن دامت علاقتهما طوال عشرين سنة، وهو أمر قلمّا نجده في أيامنا هذه. وزرتهما في بيتهما الريفي خلال عطلة نهاية الأسبوع، وجلسنا نحدث بعضنا بعضًا بأخبارنا، ونسترجع ذكرياتنا القديمة. وكان لهما منهج شمولي وروحي يقاربان به الحياة، وكانا سعيدين بالاختيارات والقرارات التي اتخذاها حتى ذلك الوقت. وقد وافقتهما الرأي في أن المرء مع تقدمه في العمر، ينعكس نوع الحياة التي عاشها على تقاسيم وجهه وهالته التي تحيط به. في ذلك الوقت، أصبح لديّ فهم أكبر لنفسي وللبشر والدين ومعنى الزواج والصداقة. ذلك أن العالم غير مقسم إلى أبيض وأسود، ومظاهر الأشياء لا تعكس حقيقتها، وأننا لسنا شخصيات كرتونية يمكن تقسيمها إلى قسمين، أحدهما خيّر والآخر شرير. إننا مخلوقات مركبة، ولها أوجه متعددة، وتحمل في ذواتها كثيرًا من نقاط الضعف. إن البشر يخذلون لا محالة، لكن الله تعالى موجود دائمًا. وقد يرسل لنا إشارات في صورة كلمات تنطق بها ألسنة أناس آخرين، وعلينا أن نتحلى بالحكمة لنصغي لمن نثق بهم، ولصوت ذواتنا الداخلية، إنها الحكمة الإلهية التي يتردد صداها داخلنا. ومهما سعبت

الحياة، أوقست أحيانًا، فعلينا أن نتمسك بإيماننا. قد لا نصادف دائمًا العدل في هذه الدنيا، لكن الرأفة والعفو خصلتان من الأهمية بمكان؛ لأنهما تساعداننا على أن نتخلص من السلبية التي نحملها. إن إعمال الرأفة والعفو في حياتنا مع الآخرين يعود بالنفع علينا في المقام الأول. لقد كنت أريد أن أتخلص من وزر ما حدث، وأواصل طريقي.



أدركت أهمية أن أعمق معرفتي بقضايا المرأة في الإسلام، حيث كنت قد قابلت، وأُعجبت بسيدات عربيات وباكستانيات لم يكن للخوف مكان في علاقتهن بأزواجهن وعائلاتهن، وكن يتكلن في كل أمورهن على الله سبحانه وتعالى وتعاليمه. أما أنا، فعلى الرغم من أني كنت سيدة غربية قوية، كثيرًا ما اعتمدت كليًّا على نفسها في رعاية أمورها كلها، فلم أستطع أن أدافع عن حقوقي داخل إطار الزواج. لذا، قررت أن أدرس سير النساء في تاريخ الإسلام وفي عصرنا الحالي، وكنت سعيدة بأن أرى أن عدد الحركات النسائية والعالمات المسلمات في أمور الدين والشريعة في ازدياد مطّرد [1]. ولا يجب أن ننسى أن الفقه الإسلامي، والتأويلات والقوانين المرتبطة به، ظل قرونًا طويلة حكرًا على الرجال دون غيرهم، وأن هناك حاجة ماسة اليوم إلى تغيير الأمور، وكسر هذا الاحتكار. ذلك أن وجهة النظر الذكورية، كغيرها من وجهات النظر، قد تكون حبيسة الظروف الثقافية والاجتماعية والفكرية لصاحبها، ومن ثم تنأى عن المنهج النبوي الذي كان دائمًا يوصي الرجال بأن يحسنوا معاملة النساء بالطيبة والاحترام. ولو أن الرجال المسلمين طبقوا تعاليم الإسلام بالطريقة الصحيحة، لكانت زوجاتهم أسعد نساء الدنيا. إن الحقيقة التي لا يجب أن ننساها هي أن الإسلام لا يقهر المرأة أو يقمعها، بل الرجال هم من يقهرونها. وأحيانًا

تكون النساء مصدر قهر نساء أخريات، أو يتواطَأْن مع الممارسات الذكورية المتعصبة. وعلى الرغم من ذلك، وبعد كل ما مررت به، وبعد أن عمقت معرفتي بقضايا المرأة في الإسلام، كنت أحيانًا أتساءل عن جدوى تلك المعرفة والفهم في إنجاح مشروع زواج محتمل في المستقبل من رجل مسلم بالولادة، قد يكون له آراء وتوقعات مختلفة تمامًا عن آرائي وتوقعاتي. وعليّ أن أعترف أني بدأت أفكر في أنه ربما يكون من الأنسب لي أن أرتبط برجل غربي لديه حسّ إيماني، ويستطيع أن يفهم ثقافتي، على الرغم من أنه قد لا يكون مسلمًا. وكنت قد تأملت في هذه الأفكار كلها، وتدربت عليها بعد تلك السنين كلها التي قضيتها في دراسة الإسلام وممارسته، فحاولت أن أمحوها كلها بسرعة، لأني في أعماق قلبي كثيرًا ما تمنيت أن أحظى بزوج مسلم يشاركني أعز شيء بالنسبة إليّ. غير أني حين كنت أمعن التفكير في تجاربي، كنت أتساءل: ما الرسالة التي يريد الله سبحانه وتعالى أن يرسلها لي؟ وإضافة إلى قراءة سير النساء في الإسلام، كنت أستمتع كذلك بسماع تلاوة القرآن الكريم باللغة العربية. إن المسلمين يسمونه بلسم الروح. وعلى الرغم من أني اشتريت أشرطة وأسطوانات عدة لمقرئين مختلفين على مدى السنين، فإن مقرئي المفضل كان الشيخ المصري عبد الباسط عبد الصمد، الذي توفي عام 1988م. لقد اشتهر بطريقته الفريدة في تجويد القرآن الكريم وترتيله، وتحكّمه في طبقات صوته العالية. وكان صوته يأسر الأسماع في مساجد القاهرة حتى وهو شاب صغير. ولا يزال صوته فريدًا في العالم الإسلامي، وله مكانته الخاصة التي لا يُعلى عليها بعد كل هذه السنين. فقررت أنا وروبي أن نستقبل سنة 2009 بقراءة سورة (يس)، التي تُسمى كذلك (قلب القرآن). إنها سورة جميلة جدًّا، وعلى الرغم من أنها طويلة نسبيًّا، فإنها كثيرًا ما تُقرأ، ولاسيما حين يتوفى أحد ما، أو حين يريد المرء تحقيق إحدى أمانيه.

وفي ليلة رأس السنة، جلست مع روبي على بعض الوسائد في غرفتي، وغطينا رأسينا، وفكرنا في أمانينا للعام الجديد. ففكرت مليًّا، ثم قررت أن أدعو الله قائلة: »إلهي، اللهم قدِّر لي ما هو خير لي، وبارك لي فيه، وقني شر ما قضيت لي، واصرفه عني. فإنك تعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب«. ثم ضغطت على زر تشغيل آلة التسجيل، ليصدح صوت جميل بتلاوة سورة (يس).

---

(1) Ivy League Universities

(1) الناسخ.

(1) يمثل كل زي من تلك الأزياء منطقة معينة من مناطق المغرب، في إشارة إلى غنى البلد وتنوعه الثقافي.

(1) الترمذي.

(1) ابن ماجة.

(2)سنن ابن ماجة.

(1) الفتح الرباني والفيض الرحماني، المجلس الثالث عشر.

(1) الفتح الرباني والفيض الرحماني، المجلس الرابع عشر.

(1) أي من جنوب القارة الآسيوية.

(1)تحاول مفكرات مسلمات مثل حليمة كراوسن وأسماء بارلاس وليلى أحمد تقديم قراءة للقرآن الكريم وسنة سيدنا محمد صلى الله عليه

وسلم من وجهة نظر نسائية. كما نذكر هنا جهود خالد أبو الفضل، أستاذ القانون الدولي والشريعة الإسلامية في جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس، بالولايات المتحدة الأمريكية، في الدفاع عن حقوق المرأة. كل هؤلاء المفكرون يحاولون إرساء العدالة الاجتماعية والاستقرار الروحي للرجال والنساء معًا من خلال تفسير معاصر للقرآن. وقد كتبت آمنة ودود، أستاذة الدراسات الإسلامية، في كتابها (في قلب جهاد النوع) تقول؛ «إن من التحول الشمولي للنموذج الفكري من داخل منظومة المجتمع الإسلامي أن يحدث تغيراً جذرياً بالنسبة للنساء والرجال المسلمين ويزيد من الفعالية الإسلامية من خلال إحلال التفاني الطوعي محل المشاركة القسرية». صحيح أن شخصية هذه السيدة مثيرة للجدل، إلا أن كتابها يثير العديد من القضايا الجديرة بالتأمل. وما زال هناك الكثير من العمل الجاد الذي ينتظر خاصة المتخصصات المسلمات في قضايا المرأة.

الفصل السادس عشر
هويتي الجديدة بصفتي مسلمة أوروبية

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)٢(وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ (سورة الطلاق: الآيتان 3-2)

كثيرًا ما كنت أخرج من الشدائد أصلب عودًا. وبعد أن استغرقت بعض الوقت في التعافي من انهيار زواجي، تبين أن سنة 2009م كانت سنة رائعة بكل المقاييس، لأنها كانت بداية مسيرة جديدة في حياتي سواء على المستوى الشخصي أو المهني. فقد رأى كتابي (من إم تي في إلى مكة) النور في نسخته الأولى باللغة الألمانية، وكنت أجوب أرجاء ألمانيا طولاً وعرضًا لإجراء مقابلات عن الكتاب، وقراءة مقتطفات منه عن رحلتي إلى الإسلام أمام الجمهور، وتوقيع نسخ لهم. لقد كنت أستطيع أن أنجز كمًّا هائلًا من الأشغال في اليوم الواحد، لدرجة شعرت معها أن الملائكة تحملني على أجنحتها من موعد إلى آخر، أو أن الله سبحانه وتعالى، بحكمته البالغة، كان يطوي لي الزمن.

لقد منحني الكتاب فرصة لقاء كثير من الجاليات المسلمة المنتشرة داخل تراب المجتمع الألماني، وسماع التحديات التي يواجهونها بسبب تنامي رهاب الإسلام أو (الإسلاموفوبيا). لكن ما أسعدني هوبروز ثقافة إسلامية خاصة بين أبناء الجيل الثاني والثالث لتلك الجالية المسلمة في ألمانيا. وقد تلقيت دعوة من سيدة تدعى كريستيان، وكانت من أتباع (الطريقة النقشبندية) في العاصمة برلين. ولبيت تلك الدعوة بعد شهور عدة لعرض الكتاب، ولقاء الجمهور للحديث عنه. وصادف أن تلك الليلة كانت تشهد كذلك حفل توزيع جوائز إم تي في للفيديو كليب. وبعد تلك الجلسة، صحبتني كريستيانا إلى المركز الصوفي، حيث فوجئت بنحو

خمسين شخصًا ينتظرونني. ورحّبوا جميعهم بي بحرارة، واصطُحبت إلى مقعدٍ خُصّص لي بصفتي ضيفة شرف تلك الليلة، بجوار الشيخ أفندي، وهو شاب من أصول تركية، ويرتدي اللباس النقشبندي التقليدي الرمادي والعمامة التي ينساب من تحتها شعره إلى أن يلامس كتفيه. وعلى الرغم من هيئته الجادة، فإنه كان يحمل بريقًا متوهجًا في عينيه، وكان يتحدث بنبرة تناسب الإعلام، على الرغم من أنه لم يكن طليق اللسان في اللغة الألمانية. وقدّم مساعدُه الأقربُ نفسَه لي، وقال: إن اسمه متين، وأخبرني بأنه سبق أن التقينا من قبل.

أجبته: «عفوًا، وأين كان ذلك اللقاء؟».

فقال لي: «أنا هو الشاب الذي كان يذكر الله في تكية بلا جاج بالبوسنة والهرسك قبل سنوات عدة عندما دخلت إليها،ألم أقل لك حينها إننا سنتقابل مرة أخرى؟».

نعم، لقد تذكرته. كان الشاب نفسه الذي كنت قد التقيته قبل تسع سنوات في التكية الصوفية قرب مدينة موستار. فقلت له مندهشة: «سبحان الله؛ يا لها من مفاجأة؛»، وقدّم لنا أحدهم الشاي وبعض الحلوى التركية، وأراد الشيخ أن يعرف تفاصيل لقاءنا الأول، وطلب مني أن أروي قصة ذلك اللقاء لكل الحاضرين. حكيت لهم قصة معرض الفنون والحفل الموسيقي الذي نظمته في سراييفو، ثم زيارتنا لجوهرة البوسنة، هذه التكية الصوفية النقشبندية الشهيرة. وتذكرت أيضًا ذلك الإحساس الغامر بالحب الذي انتابني أمام أحد الأضرحة. ومن الواضح أن الشيخ تأثر بما سردت يومها، فسألني: «أتعرفين من دفين ذلك الضريح؟»، فأجبت: «ليس لي أدنى فكرة». وكان جوابه: «كان ساري سالتوك بابا صوفيًّا من الطراز العالي، ويعدّه كثيرون وليًّا صالحًا. انتقل قبل نحو800 سنة من مدينة

بخارى في أوزباكستان إلى البلقان. لقد كانت له برَكة روحية خاصة، وقد أرسله شيخه التركي ليفتح قلوب الغربيين».

كان أمرًا مدهشًا حقًّا، فقلت له: «وبعد مرور كل تلك القرون، فتح قلبي».

أوضح لي الشيخ عندها بقوله: «في عالم الأرواح، لا يوجد اعتبار للزمان أو المكان. كما لا مجال فيه للمصادفة. وحيث إنه لمس قلبكِ وأنتِ في تمام وعيكِ، فذلك يعني أنه أصبح لديكِ مهمة عليكِ أن تؤديها».

وأصبح لي عدد أكبر من الإخوة في الله في أنحاء شتى من ألمانيا، وفاجأني أيضًا ردّ فعل الجمهور التركي والعربي حين قرؤوا كتابي. ذلك أني أصبحت أتلقى دعوات أكثر للحديث عن الكتاب، وعن تجربتي لم أكن أتوقعها من قبل. وتبيّن لي أن المسلمين يحبون معتنقي الإسلام، وهو أمر جيد جدًّا. وقد أظهرت دراسة استطلاعية قامت بها المنظمة التي تُعنى بالأديان (فيث ماترز)، أيْ أمور دينية، أن أكثر من خمسة آلاف بريطاني يعتنقون الإسلام سنويًّا، وأن العدد نفسه سُجل بين معتنقي الإسلام في أوروبا. وسرعان ما تنبهت وسائل الإعلام لهذا الرقم، بل ورصدت أن غالبية هذه الفئة هي من النساء ذوات التعليم العالي، وينتمين إلى الطبقة المتوسطة، ومن ذوات البشرة البيضاء، اللواتي لا يقدمن على هذه الخطوة بسبب رغبتهن في الارتباط برجل مسلم (لأن دين الأخير يسمح له بأن يتزوج مسيحية أويهودية)، بل عن اقتناع شخصي تامٍ. إن هؤلاء النسوة قمن، مثلي، بما يلزم من البحث في هذا الدين قبل أن تتمكن الرسالة المحمدية من قلوبهن. وتشير دراسة أخرى أُجريت في لايتشستر تحت عنوان (أقلية داخل أقلية)، أنه على الرغم من أن وسائل الإعلام تصور الإسلام على أنه دين يقمع المرأة ويضطهدها، فإن ما يجذب ربع النساء اللواتي يعتنقن

الإسلام إلى هذا الدين هو بالتحديد ما يمنحه الأخير للمرأة من مكانة وحقوق. ولا تفوتني الإشارة هنا إلى أن بعض المحللين يزعمون بأن: «التغيرات الاجتماعية الجذرية التي عرفها الغرب منذ ستينيات القرن الماضي، دفعت بعض معتنقات الإسلام الجديدات إلى العودة إلى القيم التقليدية التي كانت سائدة في أوروبا في منتصف القرن العشرين، مثل النظر بتمييز أكبر بين دور كل من الرجل والمرأة في المجتمع، أكثر من الإحساس بواجب الجمع بين مسؤولية البيت والعمل، وذلك بدلَ أن يعتنقن أسلوب حياة لا يمت إلى الثقافة الغربية بصلة» ([1]).

ومن بين أشهر معتنقي الإسلام من الرجال، نذكر يوسف إسلام، الذي لم تقتصر مساهمته على مجال الموسيقا والغناء في بريطانيا فحسب، بل تخطتهما لتشمل عددًا من المشروعات في ميدان التعليم وخدمة الأهداف الخيرية. ويُعدّ آخر مشروع أتمته مؤسسته مركزًا متعدد المرافق، مزوّدًا بحمام سباحة ومقهى ومطعم وساحة للعروض الفنية. وقد سمعت لأول مرة عن هذا المركز خلال الحفل الموسيقي الذي أقيم بمسرح ألبرت هول الملكي، والذي مثّل عودة يوسف إسلام إلى الساحة الفنية. كان ذلك الحفل أحد أكثر الحفلات الساحرة التي حضرتها والتي لا تنسى. وكان ذلك أول حفل رسمي ليوسف إسلام في لندن منذ عام 1972م، وكان مفعمًا بالعواطف الجياشة. كان يوسف ليلتها لطيفًا، وتحدث بالدعابة التي عهدها جمهوره فيه. وكان من الرائع أن الجمهور الذي حضر تلك الليلة، وأغلبهم ممن غزا الشيب رؤوسهم، والمعجبون الأوفياء لهذا المغني، بالإضافة إلى قلة من المسلمين، تجاوب بإعجاب كبير مع الأغاني الجديدة لألبومه (رودسينجر)، أيْ مغني الطريق، بنفس تجاوبه مع أغانيه الخالدة. وكان لكل أغنية أدّاها معنًى عميق، ووقع خاص في قلبي. وكان

ذلك الحفل متعة حقيقية للروح والقلب، وكانت تلك أول مرة أرى فيها يوسف وهو يؤدي أغانيه التي صدح بها قبل اعتناقه الإسلام، ومنها: (وايلد وورلد)، أيْ عالم متوحش، و(مورنينج هاز بروكن)، أيْ أشرق الصباح، و(فاذر آند صن)، أيْ أب وابنه. وبدا يوسف منسجمًا إلى أبعد الحدود في هويته الجديدة، وبدا ذلك الانسجام جليًّا بين تلك الهوية، وما كان يقدمه، ويقوم به على خشبة المسرح. لقد كان نجمًا عالميًّا يقدم فنه وإبداعه أمام جمهوره، ويتمتع بثقة كبيرة وهو يريه أن قلبه مليء بحب الله سبحانه وتعالى.

إن التقدم في العمر في عالم (الروك آند رول) والترفيه ليس بالأمر السهل. وبعض معاصريه في صناعة الموسيقا ما زالوا يواصلون طريقهم؛ وسيلتهم في ذلك ترديد الصيغ القديمة المستهلكة نفسها، ويحاولون أن يُظهِروا أنهم في طليعة الإبداع، على الرغم من تقدمهم في السن وثرائهم الفاحش. وفي محاولاتهم تلك، لا يمكنهم أحيانًا أن يتفادوا التصنع والابتعاد عن العفوية. وعلى النقيض من ذلك، بدا يوسف أصيلًا، مليئًا بالإلهام، خفيف الظل وحكيمًا في الوقت نفسه. فكرت وأنا أتابع عرضه أنه سيكون من السهل عليه أن يواصل مشواره مئة سنة أخرى. وكان قد استهل حفله بقوله: «إن هناك نوعين فقط من القصص؛ فبعضها يحكي عن مغادرة البيت، وبعضها الآخر يروي عن العودة إليه». ثم اقتبس مقولة تي إس إليوت من رباعيته الشعرية (جيدينج الصغيرة):

لن ننتهي من الاكتشاف

وفي نهاية اكتشافنا

سنصل إلى حيث بدأنا

ونعرف (حينها) ذلك المكان أول مرة.

لقد عاد يوسف إسلام إلى حيث ينتمي، إلى خشبة المسرح، ليقوم بأكثر شيء يتقن القيام به. لقد تصالح مع كات ستيفنز، وأصبح صاحب الأعمال الخيرية، والمؤمن ونجم موسيقا (الروك) شخصًا واحدًا، ووجد طريقه إلى موطنه. تمنيت أن تكون عودة يوسف إسلام للغناء مثالًا للشباب المسلمين والموهوبين، ورسالة لهم مفادها أن بإمكانهم أن يعبروا عن نفسهم من خلال الإبداع الفني، في إطار ما يقدمه لهم دينهم من إرشاد وخلق، ليصبحوا فنانين ورسامين وشعراء وصحفيين وصناع أفلام وموسيقيين. وبذلك يمكنهم أن يحتفوا بالأوجه الكثيرة والمتنوعة للحياة، والحب بشتى أشكاله. لقد شهدت بروز فنانين مسلمين، مثل رئيف وماهر زين ومسعود كورتس حديثًا، وهم يسحرون جمهورهم على وقع أغانيهم الإيقاعية والعميقة المعنى في حفل خيري في لندن. وبعد ذلك بوقت قصير، سرّني التمازج الموسيقي الذي عملت على تنفيذه الأركسترا الباكستانية (ساتشال جاز). وكلما حضرتُ أُخِذْتُ بأغاني عزيز إبراهيم الإيمانية والإيقاعية، وقد قدم هذا المنشد عضو فرقته الذي يضرب على الطبلة، بقوله: «إنه مستقبل الإيقاع البريطاني». وهؤلاء المبدعون كلهم يعطونني الأمل في أن الموسيقا الإسلامية المعاصرة والتقليدية يمكنها أن تنمو وتزدهر، على الرغم من محاولات القوى المحافظة لمنعها من المضي قدمًا. ولسوء الحظ، فإن هذه القوى مصرّة على كبح تقدمها، وهو أمر وقفت عليه بنفسي.

وتلقيت دعوة للمشاركة بكلمة خلال الاحتفال بعيدٍ في مركز إسلامي بألمانيا، وكان ذلك أجمل عيد قضيته حتى ذلك الوقت. وقد غنت المنشدة التركية الألمانية هوليا كاندمير، ذات القامة الضئيلة، أناشيد لله تعالى، ولامست بصوتها الملائكي قلوب الحاضرين الذين تأثروا بشدوها إلى حدّ البكاء. وقد تخلل جلسة توقيع كتابي ومختلف الأنشطة الأخرى، وصلات قمنا خلالها بالصلاة جماعة. وتناولنا بعد ذلك برفقة بعض السيدات

اللواتي عنين بتنظيم ذلك الحفل وجبة طعام مغربية أُعدت في البيت. وكانت هوليا ذات مواهب عدة، منها كتابة الأغاني وأداؤها. وقد سبق لها أن غنت مع موسيقيين، من أمثال جوان بايز وشيريل كرو. وقد قارنتها وسائل الإعلام بالمغنية تريسي تشابمان وجوني ميتشل، ولكن لأنها ترتدي الحجاب، فإن الرأي العام يوصد دونها الأبواب. وقد تعجبت حين علمت أن بعض الجاليات المسلمة في أوروبا رفضتها كذلك. ويعود ذلك إلى أن المحافظين يرون في صوت المرأة أنه قادر على أن يغوي نفس سامعه، حتى وإن شدا بحب الله سبحانه وتعالى. كما أن هوليا تعزف على الجيتار كذلك، وهي آلة يرفضها بعض علماء المسلمين، وهو ما لا يساعدها إطلاقًا. وأجد من الغرابة بمكان أن يعترض بعض المسلمين على غناء امرأة مسلمة، لا يجدون غضاضة في حضور حفل لما دونا أو ليدي جاجا. لا أفهم سياسة الكيل بمكيالين هذه، لذا، تعهدت ليلتها بأن أساعد هوليا على الحصول على عقد تسجيل في لندن، وأن أقترح مشاركتها في عدد من اللقاءات والتظاهرات الإسلامية التي تُنظَّم هناك. غير أن محاولاتي لم تُجدِ نفعًا. بل إن منظمي لقاءات بمناسبة العيد في لندن لم يترددوا في رفض طلبي صراحة؛ خوفًا من إغضاب المسلمين المحافظين.

وحين قابلت هوليا، وأدركت الخط الذي اختارت السير فيه، صار من الواضح بالنسبة إليّ أن الدور الذي اخترته لنفسي لم يكن هينًا أيضًا. وحدث أن تلقيت دعوة من جمعية للطلبة المسلمين للحديث في تظاهرة بإحدى الجامعات البريطانية. لكن اللجنة الطلابية المحافظة ألغت تلك الدعوة، حين رفضت أن ألقي كلمتي وأنا أرتدي الحجاب، علمًا أن تلك المحاضرة كانت ستسجل، وتعرض على موقع يوتيوب لاحقًا. وخلال الأسابيع التي سبقت ذلك الحفل، قيل لي أنه سيكون من بين الحاضرين بعض الأشخاص المحافظين جدًّا، لذا، قبلت في البداية أن أرتدي غطاء رأس،

قبل أن أعرف أن مداخلتي ستُسجل، علمًا أن تلك الكلمة كانت موجهة للتأثير في جمهور غربي بالأساس. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن المنظمين طلبوا مني أن أشرح لهم موقفي من الحجاب في رسالة إلكترونية. فكتبت تلك الرسالة، وقلت فيها: إني قررت أن أغطي رأسي في الأماكن والتجمعات ذات الأغلبية المسلمة، مراعية في ذلك رأي كثير من العلماء الذين استشرتهم في هذا الأمر، ومن بينهم أستاذي الأسبق، الدكتور زكي بدوي، إضافة إلى تفسير محمد أسد للآيات المتعلقة بهذا الموضوع من القرآن الكريم، الذي يمكن تلخيصه أن الهندام المقبول يعتمد في شروطه ووصفه على الثقافة المحلية المحيطة بالمرأة. بل إن الشيخ يوسف القرضاوي نفسه أفتى لي بأن أغطي رأسي ما استطعت، لكنه أجاز لي أن أتركه إن كنت أواجه بسببه ضغوطًا هائلةً في الغرب.

وبطبيعة الحال، كان غالبية أعضاء اللجنة الطلابية رجالًا، وقد كان الشباب منهم على الأخص هم من أثاروا مسألة حجابي، وأصروا عليها. لقد أقلقني ذلك القدر الذي خبرته من عدم تقبل الاختلاف بين الشباب البريطانيين المسلمين. وخلال أحاديثي المطولة معهم، كنت أجادل بأن عليهم هم والمجتمع معًا أن يحترموا الخيارات الشخصية للنساء، سواء اتفقوا معها أولا. ولحسن الحظ، كانت هذه التجربة استثناءً فقط، حيث لم يمر وقت طويل قبل أن تتصل بي إدارة (مؤسسة إكسبلورينج إسلام)، أيْ مؤسسة اكتشاف الإسلام؛ لتخبرني بأنها تود أن ترشحني لمهمة سفيرتها العالمية، ودعتني كي أكون أحد وجوه حملتها الإعلامية (ألهمني محمد). لقد كان هدف هذه الحملة تسليط الضوء على وصايا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكيف أنه قدوة وله القدرة على أن يلهم كل مسلم في عصرنا الحالي، وكيف أنه أحد أكثر الشخصيات الدينية التي يُساء فهمها في الغرب. وعلى مدى أسبوعين كاملين، غطت الملصقات الخاصة بهذه الحملة

حافلات لندن، وجدران محطات قطارات الأنفاق، وسيارات الأجرة. وكانت تلك الملصقات تحمل صورًا لشخصيات مسلمة. وعبارات على لسانه، مثل: «أنا أومن بحقوق المرأة، ومحمد كان يؤمن بها كذلك»، أو «أنا أومن بالحفاظ على البيئة، ومحمد كان يؤمن بذلك أيضًا». وكان الشعار الثاني هو المرافق لصورتي.

وكان السبب من وراء تنظيم حملة (من وحي تعاليم محمد) النتائج المقلقة لحملة استطلاع للرأي قامت بها (مؤسسة يوجوف). وقد أظهرت الدراسة أن أكثر من نصف البريطانيين يربطون بين الإسلام والإرهاب والتطرف. وأن ثلثي البريطانيين يربطونه باضطهاد النساء. واعترف زهاء ستين في المئة من الأشخاص الذين شاركوا في الاستطلاع أن معرفتهم بالإسلام محدودة جدًّا، وأن المصدر الأول لما يعرفونه عن هذا الدين هي الأخبار التي تُعرض على شاشة التلفاز. كنّا نأمل في أن تساعد الملصقات الإعلانية وموقع الإنترنت [(1)] على إيصال بعض وصايا المصطفى صلى الله عليه وسلم وتعاليمه، وتبين الحاجة إليها في وقتنا الحالي. وسُررنا كثيرًا حين تنبهنا إلى أنه بعد سويعات فقط من نشر الملصقات. انتشر صدى هذه الحملة حول العالم بأسره، وذلك من خلال شبكات التواصل الاجتماعي والمدونات، إضافة إلى التغطية الإعلامية العالمية التي حظيت بها. وقد تمت دعوتي لبرنامج (السؤال الكبير) على قناة (بي بي سي) للحديث عما إذا كان الإسلام في حاجة إلى حملة إعلامية. وأجريت أيضًا حوارًا على قناة الجزيرة الإخبارية. وفي كثير من الصحف عن السؤال نفسه. وقد كانت تلك الحملة واحدة من أنجح حملات الدعاية في الغرب.

«لا شك في أن الإسلام يحتاج إلى حملة دعائية»، وكانت هذه كلمات منتج برنامج الرحلات الذي كنت أقدمه. وقد قالها حين كنّا نعد إحدى

الحلقات، وكان يسألني أسئلة في أبجديات الدين الإسلامي. لم يكن منتجي يعرف مثلاً أن ذكر إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام تكرّر غير مرة في القرآن الكريم، إلى جانب أنبياء آخرين نعرفهم من الإنجيل. ولم يكن يعرف أيضًا أن القرآن الكريم يحتفي بالسيدة مريم، وأنها قدوة للمؤمنين لعفّتها وتقواه [(2)]، حيث قال تعالى في كتابه الحكيم: (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ) (سورة التحريم: الآية 12). وبدأت أرى شيئًا فشيئًا أن القيم الإسلامية هي أحد الكنوز التي ما زالت مخفية عن الغرب. إن الناس يخافون الإسلام على الرغم من أنهم لا يدرون حقيقته.

وقد أظهر استطلاع للرأي أُجري حديثًا، بأن خمسة وأربعين في المئة من البريطانيين لا يجدون حرجًا في الاعتراف بأنهم يعتقدون أن هناك عددًا أكبر من اللازم من المسلمين في بريطانيا. إن الأفكار المسبقة والخاطئة بشأن ديانتي كانت تشعرني أحيانًا بالإحباط. وخلال حفل عشاء في لندن خلال السنة نفسها، سألني رجل من النمسا لم يسبق لي أن قابلته من قبل عن محتوى كتابي. ونظرًا إلى أن الإجابة عن هذا السؤال عادة ما تقود إلى نقاش مطول عن الدين، فلم أرد أن أجيب بالتفصيل؛ لأن العشاء كان على وشك أن يُقَدَّم. غير أن الرجل أصرّ على أن أخبره باختصار بقصة اعتناقي الإسلام. لكن ما إن أنهيت كلامي حتى بدأ هجومه على ما قلته. وأصرّ على أن الإسلام دين عنف وإرهاب، وأنه الدين الوحيد الذي يجبر المرأة على ارتداء البرقع، ولم يكلف نفسه حتى عناء الاستماع لردي على كلامه. واحتدم بعد ذلك النقاش لدرجة أني تركت تلك الطاولة، وانتقلت إلى طاولة أخرى حتى أستطيع تناول وجبتي. وغادرت تلك المناسبة مبكرًا، وعدت إلى بيتي وأنا في غاية الإحباط. وظل يجول بخاطري كثير من

الأسئلة، منها: هل من الممكن أن نحقق تفاهمًا بين الثقافات؟ وهل سيأتي يوم يصبح فيه الإسلام دينًا محترمًا في أوروبا؟ وهل سيتمكن الناس يومًا من أن يفرقوا بين ما هو ثقافي وما هو من صميم الدين؟ وهل سيكفّ الناس يومًا عن أخذ غالبية المسلمين بذنب الجرائم التي ارتكبتها ثلة من المتطرفين الذين شوّهوا تعاليم الإسلام لخدمة أهدافهم الدنيئة؟ أليس للجهود التي بذلت في سبيل بناء الجسور بين الإسلام والغرب أي وزن أو أثر في الواقع؟ وفي قمة يأسي ليلتها، فتحت القرآن الكريم، فإذا بي أقرأ قوله سبحانه وتعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ

(سورة النمل: الآيات79-81).

فأُصبت بدهشة كبيرة حين قرأت تلك الآيات لأنها كانت إجابة صريحة لما حدث معي في تلك الأمسية. وفي اليوم التالي، كتبت رسالة إلكترونية لذلك الرجل الذي ضايقني بحديثه، ونصحته بأن يقرأ بعض المراجع التي انتقيتها، إضافة إلى أني أمددته برابط على اليوتيوب لكلمة ألقاها الأكاديمي بجامعة كامبريدج، تيم وينتر، التي قدم فيها شهادة لمؤسسات وجِهات، مثل مكتب التحقيقات الفدرالي، ومركز الإحصاء يوروبول، تفيد بأن المسلمين هم أقل الفئات ميولًا إلى ارتكاب الجرائم وأعمال العنف. ولم تمضِ سوى بضع ساعات قبل أن يردّ على رسالتي ليشكرني، ويعتذر لمضايقته لي، وقد وعدني بأن يعمق بحثه أكثر في هذا الميدان. لقد أسعد ذلك قلبي كثيرًا، وساعدني تدريجيًا على التخلص من شعور الحسرة والضيق الذي أصبح هاجسًا بالنسبة إليّ. وعلى الرغم من ذلك، أحسست بحاجة

ماسة إلى ما يواسيني ويهوّن عليّ؛ لأني لم أكن راضية عن الطريقة التي انفعلت بها. لقد كنت ضحية سهلة للاستفزاز، وفقدت هدوء أعصابي واتزاني بسرعة كبيرة. وعدت إلى القرآن الكريم لأقرأ قوله تعالى:

(وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (سورة فصلت: الآيات34-36).

إن دفع السيئة بالحسنة حتى يصير العدو صديقًا حميمًا، هو الفن الذي كنت أريد أن أعمل جاهدة كي أتقنه. لقد آنسني القرآن الكريم، ودفعني إلى أن أتضرع إلى الله سبحانه وتعالى، وأواصل القراءة. وبعد هنيهة قصيرة، وقعت عيناي على هذه الآية:

(وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (سورة الشورى: الآية 15).

مرة أخرى، أدهشني الاختلاف الواضح بين الآيات السابقة وهذه الآية. لقد كان الأمر وكان القرآن الكريم حيّ ينطق، ويتحدث إليَّ. تحدثت فيما جرى وفحوى هذه الآيات مع مراد هوفمان، السفير الألماني الأسبق الذي اعتنق الإسلام، وكنت أجريت معه حوارًا متلفزًا في الماضي. ونصحني بأن أتحلى بالصبر في التعامل مع الذين يحملون فهمًا خاطئًا تمامًا لديننا، لأنه، في نهاية المطاف، لكلٍّ منّا تجاربه الخاصة، ومن يدري ما الذي قاد ذلك النمساوي إلى أن يقف ذلك الموقف المعادي للإسلام. أما بالنسبة إليّ، فقد تحوّل ذلك الحادث الذي كان غير لطيف ومؤلمًا في بداية الأمر إلى تجربة إيمانية جميلة ومهمة، دخلت بفضلها فيما يشبه حوارًا مع ربّ العالمين

سبحانه وتعالى، لم يزد قدمي إلا رسوخًا في الإيمان. وكم كنت سعيدة حين علمت أن (جمعية فيث ماترز) أطلقت في فبراير من سنة 2012م خدمة تسمح للمسلمين بالإبلاغ عن أي حادثة تتسم بـِ (رهاب الإسلام)، أو ما يسمى (الإسلاموفوبيا) [(1)]. وكان المأمول من هذه الخطوة أن تسهم في مراقبة هذه الظاهرة، والمساهمة في القضاء عليها([(2)]).

لم تمر سوى أيام قلائل قبل أن أجد نفسي أمام موقف آخر مرتبط بالصورة السلبية التي تلازم الإسلام، وأحزنني كثيرًا. ذلك أن أحد أصدقائي، واسمه ألكسندر، كتب إليّ عبر الفيسبوك ليخبرني برغبته في إبداع قطعة فنية تسلط الضوء على العنف الذي يتسم به الإسلام. وقد طلب مني في تلك الرسالة أن أساعده على الوصول إلى الجالية المسلمة. وكان جوابي له: «إنه موضوع مهم جدًّا»، واقترحت عليه أن نناقش الأمر معًا. وصادف أني كنت يومها أملك تذكرة إضافية لحضور فيلم في السينما، يتناول الأحداث الإرهابية التي ضربت لندن في السابع من يوليو2005م، واقترحت عليه أن يرافقني لرؤية ذلك الفيلم. فجاء ألكس ليصحبني معه، وبينما كنّا في طريقنا إلى السينما، صبّ جام غضبه على المتطرفين المسلمين، وأخبرني بأنه يريد التعبير عن غضبه ذاك من خلال فنّه.

كان جوابي على ما قاله لي: «إن المسلمين يشعرون هم كذلك بالغضب للجور والظلم الواضحين اللذين تتعامل بهما تجاههم السياسة الخارجية للدول الغربية. ولاشك في أن هذه القضايا يجب أن تعالج من جذورها عن طريق الدبلوماسية والقنوات الديمقراطية وليس بالعنف». حاولت أن أحثه على التفكير في مسؤوليته بصفته فنانًا يمكنه أن يؤثر من خلال فنه. وسألته: «أتريد أن يكون فنك مصدر إلهام يكون له وقع إيجابي، وتقرب الناس من الحقيقة، أم أنك تريد أن ترسخ الأفكار المسبقة، وتزيد من

الهوة التي تباعد أطراف النزاع اتساعًا؟».

شاهدنا فيلم (نهر لندن)، وتأثرنا به كثيرًا. كان الفيلم يتخذ من أحداث صيف 2005م خلفية له، وعمل على تسليط الضوء على التعايش الذي كان يطبع المجتمع اللندني الذي يتسم بتعدد ثقافاته. وأظهر كيف أن القيم المسيحية، أو بالأحرى الإنسانية البحتة، مثل التآلف بين الجيران، قد تكون اختبارًا حقيقيًا لأفراد حين يصادف أن ينتمي الجار إلى ديانة أو عرق مختلفين.

وخلال ما تبقى من تلك الأمسية، ذهبنا للعشاء في مطعم تركي قريب من تلك السينما، وتحدثنا عن الفيلم والقضايا التي أثارها عن الإسلام والمسيحية والفلسفة والفن. وخلال أطوار ذلك الحديث، لاحظت مؤشرات على أن موقف ألكس ربما بدأ يتغير. وفي معرض حديثنا، ذكر لي أنه يذكر أن روجر واترز تحدث خلال حفل موسيقي لـِ (مجموعة بينك فلويد) بهايد بارك بلندن للجمهور عن الإسلام، وقال لهم إن ما يقرؤونه عن ارتكاب المسلمين لجرائم بشعة باسم الإسلام، لا يمت بصلة لذلك الدين كما خبره هو. وحكى أيضًا كيف أنه، حين جاب بلدان الشرق الأوسط، وهو طالب لا يملك المال الكافي لتلك الرحلة، كان المسلمون يرحبون به أينما حلّ، ويدعونه للمقام في بيوتهم، ويطبخون له الطعام، ويمنحونه سقفًا يبيت تحته. لقد أثر حسن معاملة المسلمين له، وكرمهم الصادق أيما تأثير في قلبه، وقال للجمهور: «إن ذلك هو الإسلام الحق». حقًّا، لقد أدهشني كيف أن ألكس تذكّر كلمات روجر واترز عن المسلمين، التي قالها خلال حفل موسيقي. وكان روجر قد تحدث عن أمور خبرتها بنفسي، وأنا بين ظهراني المسلمين كذلك.

وفي اليوم التالي، أرسل لي ألكس رسالة إلكترونية يشكرني فيها على تلك

الأمسية، ويعدني بأن يبدع عملًا فنيًا يُظهِرُ فيه الإسلام بإيجابية أكبر، ويمكنه في الوقت نفسه أن يسترعي انتباه الجمهور واهتمامه. وبعد وقت قصير من ذلك، بدأت العمل معه على مشروع فني، يُعنى بالأديان تحت اسم (سَمّ الخِيَاط) [(1)]، يرمز إلى أهمية واحد من التعاليم التي نصت عليها الديانات الإبراهيمية الثلاث. لقد علمتني هذه التجربة مع ألكسندر أهمية التأني والتريث، وأخذ الوقت اللازم للتجاوب حين يبدي أحدهم اهتمامه بالدين الإسلامي، وأهمية الصبر في تبيين المسائل الأساسية، وإيضاحها في حياة المسلمين. إننا بصفتنا أقلية في الغرب، وفي الحقيقة بصفتنا أغلبية في الشرق كذلك، فإننا كلنا سفراء للإسلام. وعلينا أن نتواصل، ونسهم بأفضل السبل في كل مناسبة يمكننا المشاركة فيها، خدمة لهذا الدين.

إنه الأمر الذي كثيرًا ما أكد عليه صديقي جاي إيتن، إضافة إلى إعطاء القدوة الحسنة من خلال حسن الخلق والسلوك. وعلى امتداد صداقتي به، التي دامت خمسة عشر عامًا، كنت أنهال عليه بأسئلتي عن مختلف جوانب هذا الدين. وكنت بصفتي وافدة جديدة على الإسلام،

أسمع كثيرًا من الأمور التي كان لزامًا عليّ أن أمحصها، وكان جاي يتحدث إليّ بصبر لا مثيل له، ويستمع لكل شكوكي، ويبددها الواحد تلو الآخر، في حين تكون ردوده في غاية العقلانية والحكمة، بل لا تخلو من حسّ الدعابة.

وسألته ذات مرة، ونحن نحتسي الشاي: «أحقًّا يجب قتل المرتدين؟». لقد تلقيت هذا السؤال مرارًا وتكرارًا، وقبل لقائي جاي ذلك بقليل من قبل صحفي في صحيفة (صنداي تايمز) البريطانية، وهو سؤال كان يؤرقني. فأجابني قائلًا: «بالتأكيد لا يا عزيزتي. في عهد رسول الله صلى الله عليه

وسلم، كان الأمر يُلخَّص في من هو مع النبي، ومن هو ضده عليه السلام. وفي حالة من كانوا ضده، فهم خونة كانوا يتآمرون على مجتمعه الفتي ودين ذلك المجتمع. وأما من غيّر دينه بهدوء بصورة شخصية ومنفردة، وتابع حياته العادية، فلم يعبأ به أحد. ألم يكن القرآن الكريم صريحًا في تأكيده على أنه لا إكراه في الدين؟». لقد شعرت براحة كبيرة حين سمعت إجابته تلك.

في يناير من عام 2010م، لم تكن صحة جاي على ما يرام. وكانت عائلته قد ذهبت في عطلة، وحين زرته، لم تكن له شهية للأكل، وتكاد شفتاه لا تلامسان الحساء الذي أعددته له. ومع ذلك أمدني على عادته بنصائح إيمانية من ذهب. لم أعرف حينها أنها ستكون آخر مرة أفيد فيها من إرشاده وتبصره. فأوصاني بأن أملأ قلبي وكياني بالله سبحانه وتعالى، وحين سألته عن الذكر، أكد لي أنه يذكر الله في كل أحواله وحالاته، حتى وهو ينتظر في مرآب السيارات وهو يتنزه، وحينما يكون في البيت، وقال لي: «إن المداومة على ذكر الله جزء من حياتنا». ثم أخبرني عن رؤيا رآها في منامه: «بينما كنت جالسًا في حديقة أذكر الله وأنا أنظر إلى حائطٍ، تبدد ذلك الحائط فجأةً، ليظهر لي من خلفه تلال خضراء تغطيها الزهور والأشجار، في حين كانت الطيور ترفرف بين الأغصان. وكانت تتوسط تلك التلال بحيرة شديدة الزرقة، تطير فوقها فراشات ذات ألوان زاهية، تحت ضوء الشمس الساطعة». ربما كانت تلك رؤيا عن الجنة، وسألته بعدها إن كان يظن أنه يقترب من نهاية مشواره، فأجابني بلا تردد: «نعم، بل وسأر حب بتلك النهاية». لقد كان جاي مستعدًّا للقاء ربه سبحانه وتعالى، وكان يستعد لهذه اللحظة طوال حياته بذكره للحق جلّ وعلا.

وقبل ذلك بوقت قصير، كنت قد صحبت بعض الصحفيين لإجراء لقاء

متلفز معه في بيته، وجلست أدوّن ملاحظاتي في أثناء ذلك الحوار. كان يومًا رائعًا، وتم التصوير في حديقة البيت. وفي أثناء التصوير، سأله محاوره عن الكيفية التي يمكن للمرء أن يتقرب بها من الله، فأجاب: «بالطرق التي عرّفنا إياها. إن الإسلام واحد من تلك الطرق، فهو حبل من الله ورحمة. وإن نستمسك بهذا الحبل، ونضع رضا الله نصب أعيننا، نكن قد قطعنا إلى برّ الأمان، مهما يقع في الحياة. إن الموت يُدخل الجميع في رحمة الله تعالى، عندها يكون إيماننا القلبي وممارساتنا اليومية فعلًا التي تصدق ذلك الإيمان، هما الحبل الذي يمكننا به أن نصل إلى رحمته تعالى. لذا، فإن إيماني من الأهمية بمكان». وقد أنهى جاي تلك المقابلة بهذه الكلمات، لقد كان متمسكًا بذلك الحبل حتى آخر نفس في حياته.

مرّ أسبوع على زيارتي له، حين اتصلت بي مارجريت، زوجة ابنه، لتخبرني بأن جاي أُدخل إلى المستشفى. فذهبت من فوري لرؤيته، لكنه ظل نائمًا تقريبًا طوال زيارتي. واتصلت بصديقنا المشترك أحمد مصطفى، وطلبت منه أن يأتي إلى المستشفى، ويحضر معه مصحفًا. ولم تكن عائلة جاي المسيحية على دراية بما ينص عليه الدين الإسلامي في مثل هذا الموقف. لذا، كان جاي قد أوصى أحمد، عندما يحين وقت رحيله عن هذه الدار، بأن يحرص على غسله ودفنه وفقًا للأصول الإسلامية، وباتجاه الكعبة المشرفة. فأدركنا آنذاك أن ذلك الوقت قد يحين في أي لحظة.

فتح جاي عينيه بعض الوقت حين دخل أحمد غرفته في المستشفى. ونظر أحمد بإعجاب إلى كتاب جاي الجديد الذي كان قد نُشِرَ حديثًا، ثم فتح المصحف الشريف، وبدأ يقرأ سورة (يس)، وتعرف جاي الآيات التي كان يسمعها، فاعتدل في جلسته لأول مرة يومها، وراحت عيناه تلمعان في توهج بادٍ. ورأيت السعادة بادية على محيّاه، حين ذكّرته بوعدي له أن

أذهب يومًا ما لأحج نيابة عنه - وكان الركن الإسلامي الوحيد الذي لم يتمكن من أدائه. وبقلب يعتصره الألم، ودّعت جاي، فنبس بآخر كلماته لي قائلًا: «وداعًا، حبيبتي».

غير أن الحياة تمضي، وفي اليوم التالي، سافرت إلى القاهرة لحضور مؤتمر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر، ولكي أتسلم ميدالية العلوم والفنون، التي كان من المفترض أن يكون قد تسلّم جاي مثلها. لو أن جاي تمكن من الذهاب معي مرة أخرى إلى القاهرة لكان أمرًا رائعًا. لكن يا للأسف، فإن تلك الرحلة جاءت متأخرة، ولم أكن متأكدة أني أستحق تلك الميدالية حقًّا، لكن ربما كانت إشارة من الله عزّ وجلّ يخبرني من خلالها بأني على الطريق الصحيح. وجدت حكمة في كتاب (الحكم العطائية) لصاحبه ابن عطاء الله السكندري، الصوفي المصري الذي عاش في القرن الثالث عشر للميلاد، والذي يقال إنه يضم رحيق تعاليم أهل الطريق، أزالت شكوكي إلى حدٍّ ما:

إذا فتحَ لكَ وِجْهةً من التَّعرُّفِ فلا تبالِ معها أن قلَّ عملُكَ

فإنه ما فَتَحَها لك إلا وهو يريد أن يتعرَّفَ إليكَ

ألم تعلم أن التَّعَرُّفَ هو مُورِدُهُ عليك، والأعمال أنت مهديها إليه

وأين ما تُهديه إليه مما هو مُورِدُهُ عليكَ.

وبعد مرور شهور عدة، دعتني ابنة عمتي، واسمها بيت، لزيارة قطر، هذا البلد من العالم الإسلامي الذي لم أكن أعرف عنه شيئًا. كانت بيت بصدد تأسيس شركة مختصة في تقنيات المعلومات بهذا البلد، وأخبرتني بقرب انعقاد منتدى دولي لسيدات الأعمال بالدوحة في شهر مايو، وقالت إنها ستكون فرصة جيدة لزيارة البلد. وكانت تلك أول مرة أسافر فيها إلى

قطر، وعلى الرغم من أني لم أجد بها ثقافة عريقة أتعرف إليها، أو عمارة فريدة تستأثر بإعجابي، باستثناء بعض القطع المعروضة في المتحف الإسلامي، فإن رحلتي تلك كانت رحلة تعلمت فيها كثيرًا.

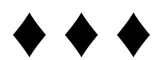
وفي طريقي من المطار إلى الفندق، صدمني عدد الأبراج العالية التي كانت فارغة، لكنها كانت مضاءة في أثناء الليل. لقد كان ذلك إسرافًا واضحًا في استهلاك الكهرباء. كما أن علامات البذخ والترف كانت تحيط بالمرء من كل جانب. وكانت قطر تنبض بالحياة والطاقة بما في الكلمة من معنى، وبدا لي أن هذا الجزء من الشرق الأوسط كان يعدو نحو المستقبل بكل ثقة، في حين كان الغرب لا يزال يرزح تحت وطأة آثار الأزمة المالية العالمية. ويعد أمير البلاد، الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني من أنشط القادة العرب، في حين ساعدت زوجته المتألقة، الشيخة موزة، على إرساء دعائم ثقافة وتعليم من الطراز العالمي من خلال مؤسسة قطر التي اجتذبت كلاًّ من دار النشر البريطانية (بلومزبري)، وجامعة جورج تاون الأميركية العريقة. غير أن قضيتها الأولى تظل هي مسألة تمكين المرأة. وبصفتها سيدة البلاد الأولى، فإنها قدوة للنساء القطريات، وتؤثر إيجابيًّا في مكانة المرأة القطرية بصورة عامة. ومن الصعب على الرجال القطريين أن يمنعوا زوجاتهم من العمل في الوقت الذي تقضي فيه الشيخة موزة، بمساندة أمير البلاد، جهدًا ووقتًا في تشجيعهن على الخروج إلى العمل. وقد فاجأني وأسعدني في الوقت نفسه رؤية العدد الكبير من السيدات اللواتي يمتلكن مواقع قيادية، ليس فقط في قطر، بل في السعودية والسودان ولبنان، وفي بلدان العالم العربي كلها. لقد غيرت رؤية أولئك النسوة نظرتي عن قدرة المرأة في البلدان ذات الأغلبية المسلمة على التوفيق بين مسؤوليات العمل من جانب، ومتطلبات الحياة الأسرية من جانب آخر.

وقد تميزت في نظري شيخة خلال أعمال ذلك المؤتمر، ليس بجمالها وعباءتها البهيجة الألوان ومجوهراتها فحسب، بل بقيمة تعليقاتها الدقيقة، ورؤيتها المتبصرة للأمور. حين سألتها في أثناء الاستراحة إن كان بإمكاني أخذ صورة لها، وافقت بابتسامة منها، وبدأنا حينئذٍ حديثنا. كانت الشيخة دُرَّة تتكلم الإنجليزية بكل طلاقة. وأخبرتني بأنها تونسية الأصل، وأنها قدمت إلى قطر كي تتزوج أحد أمراء العائلة المالكة. وكانت وزوجها يميلان إلى هوايات عدة، منها سباق السيارات والموسيقا. وبينما كان يعزف على العود كانت تعزف هي آلة البيانو. وبعد أن تزوجت، حصلت على الدكتوراه في فلسفة الأعمال من جامعتي أكسفورد وهارفارد. وكان زوجها يساند كل خطواتها، بل وقد رافقها إلى كل من إنجلترا والولايات المتحدة مدة من الزمن. وهي تدير حاليًا مشروعاته وأعماله، وتعمل مديرة اتصالات بأحد البنوك القطرية. لقد تمكنت درة من تحطيم كثير من الصور النمطية التي كنت أحملها عن وضع المرأة في العالم العربي، لدرجة أني بدأت أشك في أني استوعبت ما قالته لي على الوجه الصحيح، ولاسيما بالنظر إلى تجربتي في الزواج من رجل عربي. لكنها أكدت لي أني فهمت فعلًا كل ما أخبرتني به.

لقد دُهشت حين وقفت على الاحترام الذي تلقاه السيدات اللواتي قابلتهن في الدوحة، سواء في مراكزهن بصفتهن سيدات أعمال، أو من مواقعهن بصفتهن زوجات وأمهات. لقد كنّ يملكن اختيار العمل من عدمه، في استقلال تام عن أزواجهن. ثم إن رؤية تلك النسوة العربيات اللواتي قررن خوض غمار العمل من دون أن يتخلين عن أنوثتهن، ولا الحاجة إلى أن يتصرفن كالرجال حتى يتقدمن في مسيرتهن العملية، ألهمتني كثيرًا. صحيح أن.حقوق المرأة في هذا الجزء من العالم ما زالت تحتاج إلى عمل دؤوب، وإلى كثير من الإصلاحات الهيكلية من أجل تحسين

فرصها في الحياة العملية والاجتماعية، لكن على الأقل يمكن القول إن هذه القضية قد دخلت في سيرورة، وانطلقت فعلًا. وربما سيكون موقع المرأة في المجتمع، وقدرتها على المشاركة فيه بشكل فاعل مؤشرًا لقياس مدى نجاح الحراك العربي الذي اندلعت شرارته بعد شهور قليلة من زيارتي تلك. وبوجه عام، فإن لقاءاتي مع هؤلاء السيدات العربيات القويات زادت من عزمي على المساهمة في مجتمعنا العالمي بصفتي أوروبية مسلمة.

وقبل أن أعود إلى لندن، وأبدأ التفكير في كيفية تحويل هذه الأفكار إلى خطوات عملية، زرت مقر قناة الجزيرة الفضائية في قطر، وقابلت في آخر أيام زيارتي تلك أحد مقدمي برامجها المشهورين، وهو أحمد منصور، للحديث عن إجراء مقابلة معه في إطار برنامج (بلا حدود) الذي يقدمه. فصحبني للعشاء في مطعم (لي دوماجوتس) في شبه جزيرة لؤلؤة قطر، وهي سلسلة جديدة من الجزر الاصطناعية الجديرة بالاهتمام، ولا تزال أجزاء مهمة منها في طور البناء. وتُعد هذه المنطقة من أجمل وأفخم المجمعات السكنية والمخصصة للتجارة والأعمال في الخليج بأسره. وقد روعي في بنائها المزج بين الطراز الإسلامي التقليدي وأحدث تقنيات التصميم.



بعد أشهر قليلة على زيارتي الأولى، عدت إلى الدوحة مرة أخرى في رمضان من عام 2010م، بناءً على دعوة لإجراء لقاءٍ على قناة الجزيرة. وكانت تلك المرة الأولى التي أقضي فيها شهر رمضان في بلد مسلم. وكنت أذهب خلال النهار إلى اجتماعات تحضيرًا للقائي المرتقب، في حين كنت أكتشف (سوق واقف) مع ابنة عمتي بيت، وأتناول معها العشاء في الهواء الطلق، وأشتري أوشحة لتغطية الرأس، وأعاين أحدث تصاميم العباءات في

(سوق فالح) القريب من (سوق واقف)، الذي يُعد مكان تجمع أشكال وتصاميم العباءات كلها بامتياز. وقد وجدت به عددًا كبيرًا من التصاميم التي تليق بمناسبات مختلفة، ولا سيما شهر رمضان. وكانت العباءات تتميز بتفصيل رائق ومطرزة بـِ (خرز سواروفسكي)، وأخرى تنسدل كالفساتين.

وفي صباح اليوم الذي أعقب وصولي، كنت على موعد مع رئيس مجلس إدارة مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان، الدكتور إبراهيم النعيمي، لمناقشته في مشاركتي بمداخلة في مؤتمرهم القادم. وكان يرتدي على غرار جُلّ الرجال في قطر، ثوبًا أبيض طويلًا، وغترة بيضاء وضع عليها عقال. وسلمني الدكتور النعيمي بطاقته التعريفية قبل أن يقدم لي نادله فنجانًا من القهوة العربية تناولته منه بيدي اليسرى؛ لأني كنت لا أزال أمسك بالبطاقة بيدي اليمنى. فتبيّن بعد ذلك أن تصرفي ذاك لم يكن في محله. وذلك أن الدكتور إبراهيم أشار بلطف إلى أن المسلمين يحرصون على أن يقوموا بكل شيء كما يجب، بما في ذلك تناول الطعام والشراب باليد اليمنى، تيمنًا بسنة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وقال لي: إنه كان عليّ أن أضع البطاقة أولًا، ثم أتناول الفنجان بيدي اليمني. وبعد أن اعتذرت له عن سوء تصرفي، تابعنا حديثنا عن المؤتمر. وحين سألته عن العدد التقريبي للحاضرين الذي ينتظر أن يسجله المؤتمر، قال لي إنه سيكون زهاء خمسين شخصًا. فقلت له حينها: «لا بأس في ذلك، أيمكنك أن تخمن كم بلغ عدد أكبر جمهور لي إلى اليوم؟»، ولم تكن له أدنى فكرة عن ذلك، فأخبرته، فقال عندها متعجبًا: «سبعون ألفًا!»، وأوضحت له أني قمت فيما مضى بتقديم مسابقة إم تي في، في إطار مهرجان (الروك) بألمانيا قبل أن يعتلي برنس خشبة المسرح، وقال لي عندها مبتسمًا: «أنا أعرف برنس، بل وقابلته من قبل». كان حينها دوري كي أصاب بالدهشة،

فسألته: «وكيف ذلك؟»، فردّ أنه حين كان يدرس في الولايات المتحدة، لمحه ذات مرة في مطار لوس أنجلوس، وقال: «كنت وقتها أحد معجبيه، فذهبت إليه، وتحدثت إليه قليلًا، ووجدت أنه كان ودودًا جدًّا». لم يكن قد سبق لي أن قابلت كثيرًا من الناس الذين يمكنهم أن يقولوا إنهم التقوا برنس، وتحدثوا إليه، ورئيس مجلس إدارة مؤسسة لحوار الأديان في الدوحة كان آخر شخص يمكن أن يتخيل المرء أنه كان أحد معجبي برنس. صحيح أن المظاهر خدَّاعة. وتحدثنا قليلًا عن برنس قبل أن ينتهي الاجتماع باتفاقنا على أن أتحدث في المؤتمر الذي يعتزم المركز تنظيمه.

التقيت كذلك شخصية مثيرة للاهتمام وهو الشيخ المشهور والمثير للجدل، الدكتور يوسف القرضاوي، الذي بيّن لي مرة أخرى أن الإسلام ليس إما أسود أو أبيض، كما يعتقد ذلك كثير من الناس - في الغرب. ويعد كثيرون من المسلمين من السنة الشيخ القرضاوي مرجعًا دينيًّا، له مكانته لديهم. وحفظ هذا الشيخ القرآن الكريم قبل أن يتم العاشرة من عمره، وحصل على رسالة الدكتوراه من جامعة الأزهر الشريف بمصر. ويجيب أيضًا عن تساؤلات المسلمين من أنحاء العالم كافة من خلال برنامج (الشريعة والحياة)، الذي يبث على قناة الجزيرة، وهو أنجح برنامج ديني فضائي أسبوعي، طوال أكثر من سبع عشرة سنة. ويحظى الشيخ القرضاوي بشعبية كبيرة في العالم العربي، غير أنه لا يحظى بتأييد مطلق. وقد تعرض لانتقادات لاذعة في الغرب؛ بسبب موقفه الداعم للعمليات الاستشهادية الفلسطينية، بوصفها نوعًا من المقاومة المبرّرة في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية. وبحسب علمي، فإنه يدين التفجيرات الانتحارية في غير فلسطين من بقاع العالم، ويقول: إن التعايش السلمي هو أحد أقرب الموضوعات إلى قلبه. كان القرضاوي أحد أبرز وجوه جماعة الإخوان المسلمين في مصر، قبل أن يغادرها خلال ستينيات القرن الماضي

ليستقر في قطر، حيث أسس كلية الشريعة بالتعاون مع الأسرة المالكة. ويترأس أيضًا المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، ونشر أكثر من مئة كتاب في موضوعات مختلفة تتطرق إلى جوانب متعددة من الحياة الإسلامية والأدب والشعر.

ورافقني سمير بيومي، مساعد أحمد منصور، للقاء الدكتور القرضاوي في منزله الريفي الواقع على أطراف مدينة الدوحة في الصحراء. ولم أستطع تصور كيف سيكون اللقاء، لكني تخيلت أني سأقابل شيخًا كبيرًا في السن، حازمًا ومتعصبًا في رأيه. كان القرضاوي يجلس على مكتب كبير انتصبت خلفه مكتبة، تعج رفوفها بكتب وجوائز وأطباق وتحف إسلامية. وقف الشيخ لتحيتنا بابتسامة عريضة. وكان يرتدي ثوبًا أبيض طويلًا، ولم يكن يضع على رأسه أي عمامة أو كوفية من أي نوع. وكانت لحيته قصيرة نوعًا ما، وبدا ودودًا ولطيفًا. فدعانا إلى الجلوس، وسرعان ما لمست أنه منفتح أكثر مما توقعت، بل ويملك روح الدعابة.

سألته عن رأيه في التصوف مقارنة بالسلفية، [(1)] فأجابني قائلًا: «من المستحسن العمل على تنقية القلب والروح والتخلق بالخلق الحسن والمواظبة على الذكر. ولقد كتب الإمام أبو حامد الغزالي كثيرًا عن فوائد هذه الأعمال، غير أني لا أومن باعتزال العالم كما يفعل بعض المتصوفين. كما لا يجب عليهم أن يُدخِلوا بدعًا لا أصل لها في ممارستهم للدين». وواصل بقوله: «يمكن للمتصوفين أن يتعلموا من السلفيين كيفية اتباع تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم ووصاياه كما نصت على ذلك الشريعة، في الوقت الذي يمكن للسلفيين أن يتعلموا فيه سلوك الرفق وحسن الخلق وتحري التقرب من الله تعالى». وقررت أن انتهز الفرصة لأسأله عن رأيه في عزف النساء على الآلات الموسيقية. وخلافًا لما توقعته، لم

يبدِ الشيخ القرضاوي أي اعتراض على غناء المرأة من حيث المبدأ، وقال إن الأمر يعتمد على النية من وراء ذلك الفعل أو العمل الفني، وأضاف: «إذا كانت تلك الأغاني تحمل معاني إيجابية، ولا سيما إن كانت كلماتها تدور حول الله ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، فإنها تكون مستحبة، وتستحق التشجيع». لقد كان ذلك رأيًا مختلفًا عمّا ألفتُ سماعه حتى ذلك الحين، وأخبرته بأن الموسيقا الصوفية كانت أول ما فتح قلبي للإسلام.

عندختام لقائنا، أهداني كتابه (الحلال والحرام في الإسلام)، باللغة العربية، وأهديته في المقابل كتابي (من إم تي في إلى مكة) باللغة الألمانية. وأخذت بعض الصورة التذكارية إلى جانبه قبل أن ينتهي لقاؤنا. ولدى عودتي إلى الفندق، نشرت رأي الشيخ من خلال حسابي في تويتر وفيس بوك، وكلي سعادة بفرصة نقل رأيه بدقة، ولا سيما لما لهذه الشخصية من تأثير في الرأي العام الإسلامي.

في تلك الأمسية، أقلتني سيارة أجرة إلى مقر قناة الجزيرة، حيث كنت سأجري حواري على برنامج (بلاحدود). وكنت أرتدي فستاناً أسود طويلًا، وغطاء رأس أحمر شفافًا. ويُعد أحمد منصور في العالم العربي من طينة جريمي باكسمان في بريطانيا. وقد حذرني كثير من أصدقائي على صفحة الفيسبوك الخاصة بي من أسئلته القاسية، ونصحوني بأن أعمل على الإعداد بجد لذلك الحوار. وكنت متوترة بعض الشيء، ولم تكن لديّ أدنى فكرة عما يمكن أن يحدث. استقبلني أحمد منصور بابتسامة وأخذني في جولة في غرفة الأخبار. واستهل برنامجه بإعطاء مشاهديه لمحة عن قصتي. وكان يتكلم بكل هدوء، ولحسن حظي فقد أدار الحوار بطريقة ودودة. وخلال أطوار تلك الحلقة، اتصل مشاهد من إسبانيا يقترح على قناة الجزيرة أن أعمل مقدمة برامج على شاشتها. وكنت على وشك أن أرسل له قبلة على

الهواء؛ لكني تذكرت أني أرتدي الحجاب، فاكتفيت بأن شكرته على اقتراحه. وفجأة، قامت القناة بعرض عنوان موقعي الإلكتروني على الشاشة. ونتيجة لذلك، تلقيت خلال الأيام القليلة التي تلت ذلك اللقاء آلاف الرسائل الإلكترونية الرقيقة واللطيفة، بل وعروضًا للزواج كذلك، من أرجاء المعمورة كافة. وكان جُلّها من أشخاص في العشرينيات من عمرهم. لقد كتب لي كثير من الرجال والنساء والأطفال ليخبروني بأنهم تأثروا بمتابعة ذلك الحوار إلى درجة البكاء. وكان ذلك أكثر تفاعل عاطفي تلقيته من خلال حواراتي المتلفزة.

وبينما كنت أقرأ عدد الرسائل الإلكترونية التي وصلتني في اليوم الذي أعقب تلك المقابلة، استوقفتني رسالة من الشيخة جواهر القاسمي، حرم حاكم إمارة الشارقة بدولة الإمارات العربية المتحدة، تخبرني فيها بأن سموّها تودّ لقائي، ولا سيما بعد مشاهدة لقائي على قناة الجزيرة. وقد كان من دواعي سروري أن أقبل دعوتها الكريمة.



وبعد عودتي إلى لندن، تابعت عن قرب الأخبار المتعلقة بباكستان عن طريق أصدقائي، وتملكّني القلق لما كان يعرفه البلد من تطورات، ولا سيما أن هذه الأرض هي التي عرفتني بأروع طريقة على الثقافة الشرقية والدين الإسلامي. وترزح باكستان منذ وقت طويل، تحت سطوة الاضطراب وعدم الاستقرار؛ بسبب المشكلات السياسية الداخلية، وتدخّل القوى الخارجية. فمن ناحية، تعاني تَقاتُل المسلمين فيما بينهم، واضطهاد الأقليات، وانتشار التفجيرات الانتحارية التي تطال حتى بيوت الله، إضافة إلى الملايين التي تعيش تحت خط الفقر، ومن ناحية أخرى، تعيش النخبة الباكستانية وفقًا لنمط غربي، حياة مرفهة تنافس في مستوى معيشتها

نيويورك ولندن. وإن دلّ ذلك على شيء، فإنما يدل على تراجع درجة الإيمان في قلوب الكثيرين.

في مايو من سنة 2010م، وتقريبًا بالتزامن مع زيارتي الأولى للدوحة، تعرّض مسجدان تابعان للطائفة الأحمدية في لاهور للاعتداء. وبعدها بشهرين، هزّ تفجيران انتحاريان أهم زاوية صوفية، وهي (داتا داربار)، حيث يرقد وليّ لاهور، داتا جانج بخش. حدث ذلك ليلة يوم خميس، حين كانت الزاوية تضم أكبر عدد من الزوار. وقد نجم عن ذلك الاعتداء مقتل مئتين وخمسين شخصًا ومئات الجرحى. وأيًّا من كان وراء هذه التفجيرات، فإنه قد تعمّد أن يضرب قلب باكستان؛ لأنها استهدفت مسلمين عمدًا وهم يصلون. لقد كان ذلك هجومًا على المقدسات، وأثر تأثيرًا سلبيًّا في ثقافة الاحترام، وتقبُّل الآخر مهما كان توجهه الديني، التي كانت تميز باكستان.

لقد كان ذلك مقام أحد أولياء الله الصالحين، وهو داتا جانج بخش، المعروف كذلك بأبي الحسن علي الهجويري. وقد قال عنه المتصوف الهندي الكبير معين الدين الشستي:

إنه تجلي نور الله تعالى للناس،

ومرشد أمين للخطّائين، ومرشد للصالحين.

وقد عاش الهجويري في القرن الحادي عشر الميلادي، وكان عالمًا بعلوم القرآن الكريم والفقه الإسلامي. ويُعدّ كتابه (كشف المحجوب) من أهم ما كتب في التصوف. ويشار إلى أن هذا الكتاب يعين المسلمين في الحاضر على فهم دقائق الإيمان. وقد كتب قبل ألف سنة تعريفًا للتصوف، فقال:

لقد كان التصوف في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم حقيقة من دون

اسم.

أما اليوم، فقد أصبح اسمًا لا حقيقة له.

وإن صحت كلماته لوصف زمانه، فإنها تصح أكثر لتصف زماننا اليوم.

إن التفجيرات الانتحارية التي تنتشر اليوم في باكستان، والتي لم يكن لها أي وجود حين كنت أزور البلاد بانتظام، تُعد الحصاد العنيف لبذور ما يسمى بـِ (الحرب على الإرهاب)، بما في ذلك الغارات بطائرات من دون طيار التي لا تنتهي على المناطق القبلية الخاضعة للإدارة الاتحادية، والتي خلفت مقتل مئات المدنيين، ودمارًا يتعدى بكثير الأهداف المحددة لتلك الهجمات، واستمر سنوات طويلة. لقد فقدت باكستان أرواحًا أكثر من أي دولة أخرى في ما سمي بالحرب على الإرهاب. لكن الحقيقة المرة هي أن العنف لا يولّد سوى العنف. ثم إن أي نوع من العنف، تحت مسمّى الدفاع عن الدين أو حمايته، هو أبعد ما يكون عن روح رسالة النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، التي تُلخَّص في كلمة واحدة هي الرحمة. إن الرحمة تحمل معاني الطيبة والتعاطف، وهي أقرب إلى شعور الأم تجاه وليدها. ثم إن اسم الرحمن من أسماء الله تعالى الحسنى الذي تُفتتح به كل سورة من سور القرآن الكريم. وهو يمثل صفة الجمال التي هي من صفات الله، إضافة إلى صفة الجلال. وهناك سورة كاملة تحمل اسم الرحمن، تُلقب بـِ (عروس القرآن)، وهي من أجمل السور القرآنية من حيث معانيها وجرس آياتها. ويقول رب العزة سبحانه وتعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) (سورة الأعراف: الآية 156). الكريم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه «رحمة للعالمين».(1)، ليس لبني آدم فحسب، بل للحيوان والنبات أيضًا. ولو أننا تمثلنا الحقيقة المحمدية والأخلاق التي يدعو لها القرآن الكريم والسنة الشريفة، لما كان للعنف أو التطرف أي

وجود، ولا سيما ذلك الذي يطال الأبرياء من الناس وأولياء الله الصالحين.

ويبدو أنه أصبح على باكستان، وتعني الأرض الطاهرة، أن تتذكر جذورها الروحية، وتفتح صفحة جديدة لتستعيد روحها، وتحقق الحلم الذي رأت النور من أجله.

[(1)] انظر مقال: (النساء والإسلام: التصاعد المطرد للمسلمات من النساء) في جريدة إندبندنت أون صنداي البريطانية، عدد 6 نوفمبر 2011.

[(1)] www.inspiredbymuhammad.com

[(2)] السيدة مريم هي المرأة الوحيدة التي ذكرت باسمها في القرآن الكريم. وتكرر ذكرها في القرآن الكريم أكثر من ذكرها في العهد الجديد من الإنجيل بكثير. وقد وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها أطهر نساء عصرها وعدها من بين سيدات نساء الجنة الأربع، إجانب زوجته السيدة خديجة وابنته فاطمة وآسية، امرأة فرعون. بل إن بعض علماء الإسلام مثل ابن عربي وابن حزم يعدونها نبية من الأنبياء.

[(1)]وهو مصطلح معناه، التحامل والكراهية تجاه المسلمين أو الخوف منهم.

[(2)]طالع صفحة الجمعية على الرابط:

-http://www.huffingtonpost .co.uk/dr-leon-moosavl/the

وكذلك: http://falth-matters.org

fight-agalnst-lslamoph.bla-_b_1293441.html

"The Eye of needle"[(1)]

[(1)] يتبنى السلفيون تفسير حرفيًا لما جاء به الإسلام، ويتخذ من السلف الصالح، وهم الأجيال الثلاثة الأولى للمسلمين، كمنهج وقدوة.

الفصل السابع عشر
وتستمر الرحلة

(وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (سورة البقرة: الآية 115).

كان موعد سفري إلى مدينة الشارقة الإماراتية بعد أشهر عدة من تلقّي دعوة كريمة للمشاركة بمداخلة في منتدى الشارقة الدولي السابع للنساء المسلمات. وكانت (التنمية الذاتية) هي شعار نسخة ذلك العام من المنتدى. إنه أحد أبرز الموضوعات التي صادفتها خلال دراسة عن العلاج الطبيعي في لندن، وكم أسعدني الاهتمام الذي أصبح يحظى به في العالم العربي.

خُصِّص لي خلال حفل افتتاح المنتدى مكانٌ في الصف الأول على أريكة حمراء مخملية ووثيرة، في حين وضِعتْ أمامي طاولة رخامية. وحين وصلت الشيخة جواهر، قام جميعهم احترامًا لها. حيتني بأن صافحتني قبل أن تجلس بيني وبين أميرة سعودية، كانت ستلقي هي الأخرى كلمة في الحفل الافتتاحي. وكانت الاثنتان ترتديان عباءاتين سوداوين. غير أن الذي فاجأني هو أن شعورهن كانت مسدلة من غير حجاب؛ وذلك لأن الحدث كان مقتصرًا على النساء فقط. أما أنا، فقد كنت ألبس عطاء رأسٍ يتماشى لونه مع لون سترتي الأبيض الضارب إلى الأصفر.

وفي كلمتها الافتتاحية، حثت الشيخة جواهر الشابات المسلمات من شتى أنحاء العالم على النهوض بالمسؤولية التي حمّلها الله تعالى لكل واحدة منهن في هذه الحياة، وقالت: «إن على النساء أن يعملن مع أشقائهن من الرجال على قدم المساواة في سبيل تنمية المجتمع، ويتركن بصمتهن الخاصة، ويخلفن إرثًا خاصًّا بهن. وعلى أي حال، فإن الرجال

والنساء مسؤولون عن المهام التي أُنيطت بهم، وكلٌّ سيُسأل عنها ويحاسب». لقد فوجئت وسعدت كثيرًا بسماع هذه الكلمات المليئة بالإلهام بالنسبة للسيدات من زوجة حاكم مسلم. وعلى الرغم من أني لم أكن أعرف كثيرًا عنها من قبل، فإني اكتشفت أن الشيخة جواهر مثال يُقتدى به في العالم العربي. وقد أدت دورًا محوريًّا في تنمية بلادها خلال السبع والعشرين سنة الماضية، حيث عملت بدأب على الدفع بكثير من المشروعات التي أطلقتها خدمة للنساء والأطفال والشباب. ثم إن أكثر ما أعجبني في جهودها تلك لتمكين الشابات في الشارقة، هو ارتباط تلك المجهودات الوثيق بالدين. وهكذا، خصّص المنتدى في أعماله وفعالياته كافة لإعطاء النساء الوسائل الكفيلة بتمكينهن من تنمية وتحقيق ذواتهن، دون إغفال أهمية تمتين علاقتهن بالله عزّ وعلا. ولقد ألفت أن أرى كيف أن الدين والإيمان يحتلان مرتبة متدنية لدى المسلمين الناجحين، حيث إنهم ضحوا بهويتهم في سبيل تحقيق النجاح في هذه الحياة، والاندماج داخل نسيج المجتمع. وتشير الأرقام إلى أن ثمانين في المئة من مسلمي أوروبا لا يمارسون شعائر دينهم في حياتهم اليومية.

وخلال مدة إقامتي بالشارقة، عملت سيدتان في مقتبل العمر على التكفل بكل ما يتعلق بتفاصيل رحلتي. كانت الجميلة عائشة، ابنة السابعة والعشرين، إحداهما. وهي في الحقيقة قريبة الشيخة جواهر، وتعمل في مكتب الأخيرة، وتشرف على شؤون ضيوفها أما الثانية، فكان اسمها شاهزاد، وقد سبق لها أن امتهنت التدريس قبل أن تلتحق بفريق الشيخة جواهر، وقد دعتني مرة لتناول وجبة غداء فخمة. وكانت الاثنتان نِعْمَ الرفيقتان، وقدمتا لي أفضل مساعدة يمكن أن أحظى بها. وفي اليوم التالي، صحبتني الشيخة عائشة لإلقاء كلمة في الجامعة الأمريكية التي أسسها حاكم الشارقة سنة 1997م. وكنت قد سمعت كثيرًا عن فكره

وورعه وطيبته، وقد ظهر ذلك جليًّا في اختياره التركيز على التعليم لتطوير بلاده، عوضَ لعنايةِ بناطحات السحاب والمراكز التجارية الفارهة. وكانت الجامعة عبارة عن بناء من الرخام مزوّد بأحدث المرافق الممكنة، إضافة إلى قاعة مخصصة للوسائل المتعددة الوسائط.

لقد أدهشتني وتيرة عمل الشيخة الشابة، على الرغم من أنها ولدت أميرة في وسط ميسور جدًّا. وكنّا نغتنم الوقت الذي يفصل بين مواعيدنا المتعددة للحديث عن حياتها بصفتها أميرة، فسألتها مرة: «ما الأمر الذي تستمتعين بالقيام به خارج نطاق العمل؟».

فأجابت: «أقابل بنات أخوالي وخالاتي وأعمامي وعماتي في أحد منازلنا، ونتحدث ونستمع للموسيقا، ونستمتع بوقتنا». وأخبرتني بأنها عاشت في كنف والديها، وأنها كانت لا تكاد تقابل رجالًا، باستثناء نطاق ضيق في إطار العمل. ورحت أفكر في حياتها، وكيف أنها محاطة بشتى أنواع الحماية، وكيف أنها مختلفة كثيرًا عن حياتي حين كنت في مثل سنّها. فسألتها عندها: «كيف ستجدين زوجًا إذًا؟». فردّت وصوتها يحمل نبرة المُسَلِّمَة بالأمر الواقع، قائلة: «سأنتظر»، وتابعت: «نظرًا إلى مكانتي الاجتماعية، فإن عائلتي لن تسعى بكل السبل لتجد لي عريسًا». فتعاطفت معها عند سماع تلك الكلمات. ومن الواضح أن الله عزّ وجلّ يختبر كل فرد من عباده، وحتى الأميرات لا يجدن دائمًا ما يردنه.

وخلال تلك الزيارة رتبت لي الشيخة عائشة مرة لتناول الغداء في نادي سيدات الشارقة. وهذا النادي مزوّد بكل ما تحتاج إليه المرأة وأبناؤها في مكان واحد، من حضانة للأطفال إلى مركز للرياضة وصالون للتجميل، والعلاج بالمياه المعدنية، وحوضين للسباحة، وملاعب تنس، وساحة جليدية للتزلج، وشاطئ خاص، ومطعم عصري للأكل الصحي. كان مكانًا رائعًا،

وددت لو أمكنني البقاء فيه أسابيع وليس بضع ساعات فقط. وكان لي لقاء خلال الغداء مع مجموعة من أصدقاء الشيخة جواهر من الشابات النشيطات. وعلى الرغم من أني كنت معتادة على أجواء جلسات المجتمعات الراقية، فإن هؤلاء السيدات كن يتمتعن برقي وإشراقة يزيدهما التواضع والصدق بهاءً ، وكنَّ مختلفات كثيرًا عما خبرته في الغرب. وكنّ يتمتعن بشخصيات ودودة وصادقة، من دون أي قدر من التعالي والتصنع. وكنّ يتمتعن أيضًا بالأناقة، وسبق لهنّ أن سافرن شرقًا وغربًا، ويشغلن مراكز إدارية متنوعة. وكنّ جميعهن مواظبات على ممارسة شعائر دينهن، وعلى الرغم من أنهن لم يكنَّ يرتدين الحجاب داخل المطعم المخصص للسيدات فقط، فإنهنّ كنّ يغطين رؤوسهن، ويضعن عباءاتهن قبل أن يدلفن إلى خارجه. لقد شعرتُ برابط قوي من الأخوّة يجمعني بهؤلاء الشابات، واستمتعنا كثيرًا ونحن نتحدث عن الحياة والحب.

وفي صبيحة اليوم التالي، كنت على موعد مع صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى لدولة الإمارات العربية المتحدة، وحاكم الشارقة في قصره الأبيض الكبير، المشيد فوق ربوة عالية. كان سموّه في انتظاري خارج المدخل الرئيس لإقامته. وسرنا معًا خلال ردهة رخامية ينتصب بها كثير من الأعمدة، إضافة إلى سلالم هائلة الحجم. فجلسنا في غرفة كبيرة مطلية بدرجات مختلفة من اللون الأحمر الطيني، ومؤثثة بالكراسي والأرائك والطاولات. وقُدِّمَ لنا عصير البرتقال الطازج والقهوة العربية، التي تناولتها بيدي اليمنى هذه المرة. وقد أراني سمو الشيخ كيف أهزّ الفنجان للنادل إن لم أكن أرغب في تناول المزيد.

راح سموّ الشيخ سلطان القاسمي يحدثني عن تاريخ الشارقة بدءًا من الاحتلال الفرنسي وحتى الاحتلال البريطاني، ثم مرحلة تشكيل دولة

الإمارات العربية المتحدة سنة 1972م. وقد حكم سمو الشيخ هذه الإمارة منذ يناير سنة 1972م. وسمو الشيخ القاسمي مؤرخ حائز على شهادتي دكتوراه من جامعات بريطانية، وألّف عددًا هائلًا من الكتب ونشرها، وزوّدني بنصيب كبيرمنها. وقد ذكر لي أن الشارقة تضم عشر كنائس، وأنه كان يحرص شخصيًّا على العناية بها. ودُهشت حين عرفت أن عددًا من نجوم هوليوود زاروا هذه الإمارة، ومنهم الممثل الأميركي الراحل باتريك سويزي، الذي كان يريد أن يؤدي دور شيخٍ عربي في أحد الأفلام. وقد استلهم سمو الشيخ القاسمي منه فكرة كتاب كتبه بعنوان: (الشيخ الأبيض)، مقتبسة من قصة واقعية لرجل أبيض البشرة عاش وسط العرب إلى أن صار شيخًا.

وسألني سمو الشيخ عن حياتي ورحلتي وعملي والتحديات التي واجهتني بعدما اعتنقت الإسلام، وقال لي: «أيمكنني أن أناديك (أختي؟)»، وطلب إليّ أن أعدّه أخي، وتأثرت كثيرًا بودّه وطيبته. وبعد ساعة ثمينة من الحديث، صحبني سمو الشيخ بسيارته الرباعية الدفع إلى إسطبلات الخيول التي لا تبعد عن قصره بكثير. ومن المعروف أن سمو الشيخ يملك أجمل الخيول العربية، وقد وضعت إحدى أفراسه مولودًا صباح ذلك اليوم، وكانوا جميعًا سعداء بذلك. وجلسنا فوق دكة على حلبة مفروشة بالرمل، قبل أن يأتي عمال الإسطبل بالفرس ومُهرِها الجميل الذي كان ذا وجه جميل وكأنه منقوش؛ كانت خطواته الأولى أمامنا متعثرة، لذا، حاول أن يستند على أمه قبل أن يتمكن أخيرًا من أن يثب بضع وثبات. لقد أثرت فيّ كثيرًا رؤية ذلك الرابط الذي كان يجمع بين الفرس ومهرها. وبينما كنت أشاهد ذلك المخلوق اللطيف مع أمه، فكرت في الله عزّ وجلّ، وشاهدت فيما كان أمام نَاظِرَيَّ آيةً تنطق بجمال الخالق جلّ وعلا. ثم كان على سمو الشيخ أن يغادر لحضور موعده التالي، فيما كان عليّ أن أستأنف

سلسلة المقابلات التي كانت تنتظرني.

كان جدول مواعيدي مليئًا باللقاءات لدرجة أني كدت لا أتمكن من أن أعود في الموعد المحدد للقصر كي أحضر حفل العشاء الذي نُظّم فيه ليلتها. وجلسنا في قاعة تناسقَ فيها الأزرق الفاتح واللون الأبيض الضارب إلى الأصفر (الكريمي) في تناغم بديع، فيما احتلت آلة البيانو أحد أركانها، واصطفت الكراسي والأرائك على مدار حيطان تلك القاعة، في حين كانت تتدلى وسط تلك الردهة ثريا ضخمة الحجم.

كان أعضاء كل من الوفود الحاضرين ليلتها يرتدون أزياءهم الوطنية التقليدية الجميلة، وكنت سعيدة لأني تمكنت من شراء زيٍّ يليق بتلك المناسبة مع شاهزاد، وكان عبارة عن عباءة عربية سوداء مطرزة بخيوط ذهبية وغيرها من الألوان. وجلست بجوار سيدة في مقتبل العمر كانت تتمتع برقيّ خاصٍّ، اسمها أميرة، كنتُ قد قابلتها من قبل في نادي سيدات الشارقة. وقد أخبرتنى بأنها صديقة العائلة، وكانت تشغل منصب رئيسة مجلس سيدات أعمال الشارقة، ورئيسة جمعية أصدقاء مرضى السرطان. لمست فيها عطفًا كبيرًا وسرعة بديهة جعلاني أستمتع برفقتها. وقد فوجئت حين علمت أنها لا تزال عزبة هى الأخرى، وكنت أحياناً أتساءل: «هل أصيب الرجال بالعمى؟»، غير أني أعود وأتذكر أنه في مجتمع يفصل بذلك الشكل بين الجنسين، لا يمكن لأي رجل من خارج عائلتها أن يراها. وقد كانت تسهب في مدح حاكم الشارقة وزوجته، على غرار كل من قابلتهن في إمارة الشارقة، وقالت لي إن هذا الثنائي يولي شؤونَ شعبِهِ عناية كبيرة، وأنهما يسيران في الخط الذي رسمه لهما القدر بإخلاص تام.

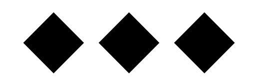
لم يمضِ وقت طويل قبل أن تصل الشيخة جواهر وهي ترتدي عباءة فيروزية اللون، فيما كان يزين جيدها عقد من الألماس، يتوسطه حجر

كريم أزرق اللون. ولم تكن تغطي رأسها، على غرار هيئتها في المنتدى، شأنها في ذلك شأني وشأن جميع صديقاتها. وقف الجميع لدى وصولها إلى القاعة، وشعرت بفخر كبير حين جلست إلى جواري. ودون أن تفارقها ابتسامتها المعهودة، أمسكت بالميكروفون، ورحبت بضيوفها بكلمة صادقة. وقد قامت أميرة مشكورة بترجمة خطاب الشيخة جواهر لي. وذكّرت الشيخة الشابات الحاضرات بمسؤوليتهن في أن يسهمن في تنمية مجتمعن، وأن عليهن، حين يكنّ في بلدان غربية، أن يحترمن مشاعر أصحاب الأرض وثقافاتهم، وألا يفزعنهم بلبس النقاب الأسود، الذي هو في الحقيقة ليس فرضًا من فرائض الإسلام. وقالت: «علينا أن نتحرى البساطة حيثما كنّا، لكن علينا أن نراعي كل مناسبة ومحيط وما يليق به من هندام». وفي الواقع، لقد أخبرتني معظم السيدات اللواتي قابلتهن في الشارقة بأنهن لا يرتدين العباءات في أوروبا، على الرغم من أنه من الممكن رؤية كثير من النساء العربيات في فصل الصيف يرتدينها، وهن يتجولن في حديقة (هايد بارك)، أو يتسوقن من محل (هارودز). ولاحظت أيضًا أنه صارت للعباءة البراقة شعبية بين صغيرات السنّ من الفتيات المسلمات في لندن هذه الأيام. وقد يبدو هذا الهندام عاديًّا أو مقبولًا في لندن، لكنه غير مناسب أو مقبول في أوساط أوروبية أخرى. وأثارت الشيخة جواهر نقطة مهمة أخرى، حين أكدت على أهمية التواصل مع الآخر بغض النظر عن ديانته، وأوصت بوجه خاص على «مدّ يد الصداقة والحفاوة لحديثي العهد بالإسلام، حتى يتمكنوا من أن يقفوا على معنى عيش الإسلام».

لقد كان هذا الدفء وهذه العناية اللذان لقيتهما من إخوتي في الإسلام، هما ما فتحا قلبي منذ البداية لهذا الدين. وكنت أريد أن أجسد هذه القيم في حياتي كذلك. وكأنما كانت الشيخة جواهر تريد أن تريني أن ما

قالته ليس مجرد كلمات عابرة، فدعتني إلى أن أرافقها لتناول العشاء من المقصف [1] الذي أُعِدّ في غرفة خُصصت لذلك. وبينا كنّا نتناول وجبتنا، أخبرتني الشيخة بطبيعة عملها، واكتشفتا أن لدينا معارف مشتركين. فأخبرتني مثلًا بأن عِمران خان كان يزور الشارقة بانتظام لجمع التبرعات لبناء مستشفاه في باكستان، وكان يلتقي العائلة الحاكمة باستمرار قبل أن يتزوج. وأذكر تلك الرحلات بوضوح. وقد عبّرت لي عن متمنّياتها له بالتوفيق في مسيرته السياسية. وحين تحدثت عن زوجها، أثنت عليه كثيرًا، وقالت إنه يمد يد المساعدة لكل من يقصده. وأن بابه مفتوح دائمًا للناس، وهو يستمع إليهم باهتمام بالغ. ومن جهتي، أخبرتها بمدى تأثري بالحب والعناية والطيبة التي أحاطني بها كل من التقيتهم في الشارقة.

وقد نشرت لاحقًا على حسابي في موقع تويتر تغريدات عن الشارقة، وعن السيدات الرائعات اللواتي قابلتهن أينما ذهبت. وفي طريقي لمغادرة الإمارة، تلقيت رسالة إلكترونية من ألمانية اعتنقت الإسلام سبق لها أن عملت في قناة إم تي ڤي في ميونخ. أخبرتني بأنها بعد ما شاهدت حاكم الشارقة في مقابلة متلفزة، إلى جانب شعار: «ابتسم أنت في الشارقة»، أعجبت كثيرًا بما رأت، لدرجة أنها قررت أن تنتقل إلى العيش في الإمارات العربية المتحدة، وأنها كانت سعيدة جدًّا هناك، وأضافت: «لقد أثرت فِيَّ تغريداتك عن الشارقة لدرجة البكاء».



سافرت في اليوم التالي، إلى قطر لحضور مؤتمر الدوحة الثامن لحوار الأديان، الذي أثار تساؤلات مهمة عن كيفية توفيق المسلمين في الغرب بين تعاليم الإسلام وبين الثقافة الغربية، في انسجام تام مع أوامر الله ورسوله. وقد كان ذلك المؤتمر وليمة فكرية بالنسبة إليّ، حيث قضيت الأيام

اللاحقة للمؤتمر في قراءة كتب حصلت عليها في المؤتمر عن الشريعة وقضايا المرأة. وكنت بين الحين والآخر أذهب مع ابنة عمتي في جولات على المحال التجارية. وقد اقترح عليّ زميل سابق لي، كان يتابع صفحتي على الفيسبوك، أن يمدني بتذاكر الشخصيات المهمة لحضور حفل افتتاح مهرجان الدوحة (تريبيكا السينمائي) في الليلة التي تسبق سفري إلى لندن. وحضرت ذلك الحفل بصحبة واحدة من أعضاء لجنة التحكيم، وهي من جمهورية التشيك كانت قد اعتنقت الإسلام كذلك، وكنت قد قابلتها في المؤتمر، إضافة إلى بعض الأصدقاء من جمعية قطر الخيرية. وأقيم الحفل في منطقة كاتارا، وهي القرية الثقافية بالدوحة. إنه مكان رائع فيه كثير من الردهات والمطاعم والمقاهي التي صُمّمت وفق طراز إسلامي تقليدي، إضافة إلى مدرج للعروض، ومسرح مفتوح يسع ألفي شخص يقع بجوار الخليج مباشرة. وشهد الحفل حضور نجوم عالميين من العالم العربي وهوليود وبوليود. ووقفتْ أمام عدسات الكاميرا على البساط الأحمر وجوه، مثل يسرا وعادل إمام، إلى جانب فريدا بينتو، بطلة فيلم (سلامدوج مليونير)، وسلمى حايك، وجوليان شنابل، وبن كنجسلي. وكان بوسع الجمهور أن يتابع كل تفاصيل ما يدور على البساط الأحمر، عبر شاشات تلفزة عملاقة أُعدت لهذا الغرض. لقد كانت ليلة رائعة حقًّا، كما أن موقع المهرجان كان جميلًا جدًّا.

جلست وأصدقائي على مقاعد وثيرة بالمسرح المفتوح إلى جانب البحر لمتابعة فيلم افتتاح المهرجان، (خارجون عن القانون)، من إخراج رشيد بوشارب، الفرنسي من أصول جزائرية. وكانت السماء خالية من النجوم، غير أن الحضور كان يعج بنجوم من طينة أخرى. فكرت في أنه سيكون من الرائع أن يدفع هذا المهرجان، الذي أطلق سنة 2009م، بصناعة السينما في المنطقة. واستمتعت بمجريات المهرجان بصفتي مشاهدة فقط، وليس

بصفتي مشاركة في صنعه، وأحسست كأني رجعت إلى تلك الأيام التي كنت فيها أغطي مثل هذه المهرجانات، وأزاحم باقي الصحفيين من أجل الظفر بتعليق أو كلمة من أحد النجوم. وعلى الرغم من أن كل ما كنت أراه أمامي كان لطيفًا، وعلى الرغم من أني أحسست كأن ذلك المحيط كان قريبًا ومألوفًا لي، فإني كنت سعيدة لكوني خرجت من دائرة المنافسة التي كانت تميز ذلك العالم، وأن قلبي قد وجد له موطنًا آخر.



إن هذا إحساسي تجاه هذه المناسبات حاليًا. ففي مناسبات نادرة جداً، أستمتع بحضور حفلات موسيقيين كنت أعرفهم من أيام إم تي ڤي مثل كريسي هايند، وتابعت بإعجاب عزف بوب جيلدوف مؤخراً في مهرجان (هاي الأدبي). إن حفلاتهم تذكّرني بما كنت أشعر به عندما كنت أصغر سنًّا، وتمنحني المتعة ساعتين من الزمن، فقط لا غير. وحين صادفت بوب في حيّي بعد أيام من حضور عرضه، أراني الأستديو الخاص به في تشيلسي، وقد وجدته مكانًا لطيفًا، وتحدثنا قليلًا. وقال لي يومها، وهو يضحك: «ما زالت بعض المواقع على الإنترنت إلى اليوم تدّعي أني مسلم. وأدين لك بالشكر على ذلك!» وأخبرته كيف أني قمت بالاحتجاج على تلك الجماعة الصوفية وقتها، وأني قاطعتهم منذ ذلك الوقت، وتابع قائلًا: «ولمواجهة الادّعاءات الكاذبة عن إسلامي، صار كثير من المواقع الإلكترونية الأخرى تدّعي أني يهودي. لماذا لا يستوعب الناس أني لست هذا ولا ذاك؟»، وأضاف: «أنا ملحد؛ فأنا لا أنكر الله؛ لأن الله غير موجود أصلاً».

قلت له عندها: «حسنًا، يبدو أننا ما زلنا متفقين على ألا نتفق على هذه النقطة». وأثنيت على أخر أشرطة تسجيله [(1)] الذي كان يضم أغاني تمس روح من يستمع إليها. وكثيرًا ما رأيت في بوب أنسانًا مؤمنًا بشكل أو

بآخر، وكم تمنيت لو أمكنني أن أكون سببًا ليؤمن يومًا ما بالله. وخلال مهرجان هاي، تحدث عن إفريقيا والموسيقا، وقال إن أرواحنا غير قادرة على التعبير عن نفسها بوضوح، وأن الموسيقا هي التي تؤدي وظيفة تشبه صوتًا لتلك الأرواح. ثم قال إن لديها القدرة على التعبير عن أعمق أحاسيسنا، وتوصلها للمستمع بوضوح تعجز عنه الكلمات، قبل أن يضيف: «والمستمع يلتقط تلك المعاني». وقد رسم صورة حية لما أراد أن يقوله حين واصل: «إذا ذهبت إلى كاتدرائية كانتربيري الرائعة الجمال ليلة الجمعة، واستمعت لجوقة الصبيان، وهم يتمرنون على الترانيم التي سينشدونها في قداس صبيحة يوم الأحد، فلا تملك إلا أن تبكي».

سيكون من دواعي سروري أن أستمع لهذه الموسيقا الروحية الملهمة التي تلامس الأرواح بكاتدرائية كانتربيري التي تحدث عنها بوب. وأذكر أن الشيخ أبوبكر قد أوصى مرة بسماعها. غير أنه كان دائمًا ما يذكِّرنا بأن الجمال ما هو إلا انعكاس لما هو أسمى من الجمال في حد ذاته؛ ذلك أننا نتعرف من خلال الجمال إلى خالق الجمال.

مضت شهور قليلة، وحلّ شهر رمضان الكريم مجددًا، وصادف أن فدوى وسامية، صديقتي اللتين كانتا تدعوانني لتناول وجبة الإفطار، كانتا مسافرتين خارج لندن. لذا، توقعت أن يكون شهر رمضان هذه المرة قاسيًا، وأن أعاني فيه الوحدة والأسى، ولا سيما أن أيامه ستكون الأطول بالنسبة إليّ، حيث وافق رمضان ذلك العام شهر أغسطس، وكانت أيامه في البداية تمتد من الثالثة فجرًا إلى الثامنة والنصف مساءً. وحتى أستشعر روح هذا الشهر الفضيل إلى جانب إخوتي من المسلمين، قررت أن أذهب أول مرة لأداء صلاة التراويح. واكتشفت مسجدًا مغربيًّا بُني على الطراز التقليدي للعمارة المغربية، على الرغم من أنه كان عصريًّا كذلك، شمال حي نوتينغ

هيل. وكان المكان المخصص للسيدات يقع في طابق علوي يطل على الباحة الرئيسة للمسجد، وما إن وصلت إلى ذلك الطابق حتى رحّبت بي بعض السيدات بحرارة. حين بدأ الإمام بتلاوة القرآن الكريم، تملكّت تلاوته قلبي، وأحسست بأنها نقلتني إلى عالم آخر. لقد كان صوتًا ملائكيًّا صرفًا، وقد كانت قراءته كأنها موسيقا آتية من الجنة. وحرصت على المداومة على صلاة التراويح في هذا المسجد بعد ذلك تقريبًا كل ليلة، وصحبت حتى صديقاتي اللواتي أُسِرْن بتلاوة هذا الإمام. وعندما تسنّى لي مقابلته مرة بعد ذلك خلال مناسبة إفطار، اقترحت عليه أن يسجل تلاوته على أسطوانات مضغوطة.

واستمتعت كثيرًا بالصلاة في المسجد، والتحقت أيضًا بدورة اسمها (رحلة في القرآن الكريم)، امتدت طوال عطلتي نهاية أسبوع متتاليتين. ولأن النهار كان في البداية يطول ثماني عشرة ساعة كاملة، فقد كان الصيام كل تلك المدة تحديًا حقيقيًّا. لكن حين يعقد المرء نيته على الصيام، فإن الله عزّ وجلّ يهبه التوفيق بإذنه. وأخبرني أحد زملائي في تلك الدورة بتطبيقٍ قام بتنزيله على الآي باد الخاص بي. وكان ذلك التطبيق يسمح لي بالاستماع إلى أي سورة أختارها من القرآن الكريم بالعربية، في حين أقرأ الترجمة باللغة الإنجليزية. وواظبت على هذا المنوال كل ليلة قبل أن أنام، وعقب صلاة الفجر. إنّ نِعَم الله حقًّا لا تُحصى ولا يمكن توقعها، ولله الحمد.

من الرائع رؤية بروز ثقافة إسلامية بريطانية، خاصة في لندن، على الرغم من تزايد أعداد الشباب المسلمين الذين ليس لهم من دينهم سوى الاسم، ولا يلقون بالًا لتعاليم الإسلام. وفي المقابل، هناك تزايد لافت في عدد أعضاء البرلمان المسلمين، وعدد المبادرات ذات الطابع الإسلامي،

والتظاهرات التواصلية بين المسلمين وحفلات توزيع الجوائز، والأسواق التي تُنظَّم في مناسبات الأعياد وموائد الإفطار على نهر التايمز (وقد قدمت فقراتها مرتين)، إضافة إلى تزايد عدد العلامات التجارية للباس الإسلامي، وافتتاح رواق الفن الإسلامي العصري في قلب تشيلسي (وهو ما كان سابقًا نادي الرُّوم الذي كانت تملكه رضا الساعي). كل هذه إشارات تشهد على بروز مشهد إسلامي دينامي في بريطانيا. وقد دُعيت في فبراير من سنة 2012م لإلقاء كلمة في مجلس اللوردات. وبعد انتهاء تلك الجلسة، ظل بعض الحاضرين في القاعة إلى أن أدينا صلاة العصر جماعةً. ولم يكن ذلك أمرًا لطيفًا ونهاية دينية لجلسة مليئة بالدروس والإلهام فحسب، بل رأيت فيها خطوة كبيرة أخرى على دربي، تمثلت في الصلاة مع إخوتي المسلمين تحت قبة البرلمان البريطاني.

ومع ذلك، يسوؤني أن المنطقة التي أسكن فيها لا تزال خالية من مسجد محترم. وهناك مكان صغير المساحة، لدرجة أن السيدات لا يمكنهن الذهاب إليه؛ وحتى الرجال الذين يقصدونه يضيق بهم إلى أن تمتد صفوفهم إلى الشارع وقت صلاة الجمعة. وهناك مسجد ثانٍ، أبعد من الأول، المكان المخصص فيه للسيدات ضيق جدًّا، ولا يليق بالصلاة فيه. إن ذلك يظهر حجم المجهود الذي يجب أن يُبذل في هذا المضمار. ولحسن الحظ، بل بفضل الله تعالى، حضرت اجتماع لجنة تخطط لإنشاء مركز ثقافي جديد في حي كنسنجتون وتشلسي [1]. وما دمت عضوة في تلك اللجنة، سأحاول أن أحرص على أن يكون للسيدات مكان جميل للصلاة وفي المسجد الملائم. وأتمنى أن يجذب هذا المركز مسلمين من كافة الأعراق، إضافة إلى أشخاص من ديانات أخرى. وآمل أيضًا في أن يصير هذا المركز بيتًا روحيًّا بالنسبة إلى من يُسمُّون بالمسلمين الجدد. ويمكن أن تُلقى

خطبة الجمعة فيه باللغة الإنجليزية إضافة إلى العربية، ولا تكون فقط إما بالعربية أو بلغة الأوردو، حتى يستطيع جميعهم فهم محتواها. وسيكون إمامنا هو الشيخ هيثم تميم، الذي تعرفت إليه من خلال (مؤسسة أُترج). لقد عاش في بريطانيا أكثر من عشر سنوات، ويدرك تمامًا ما نواجهه من تحديات في حياتنا اليومية.

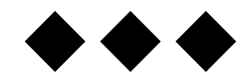
أما أئمة المساجد الذين يُستقدمون من دول الشرق الأوسط أو باكستان، فيفتقرون إلى تلك الخبرة. وهناك كثير من المساجد في بريطانيا التي لا يُسمح للنساء بالصلاة فيها، وهذا مثال للتمييز الذي يجد تفسيره في الإطار الثقافي أو الأيديولوجي لبعض المجتمعات، في حين أنه بعيد كل البعد عما أتى به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وأعتقد أنه من المهم إيجاد مؤسسات تُعِيننا نحن المسلمين الأوروبيين على تطبيق مبادئنا وشعائرنا الدينية داخل إطار المجتمع الغربي. وتُعَدّ قوانين الأسرة والزواج من أهم المجالات التي يجب العمل على تحسينها، ولا سيما أنه لا يوجد إلى إجراءات رسمية لتسجيل النكاح الإسلامي؛ ما يجعل النساء في هذا البلد عرضة لسوء المعاملة من طرف أزواجهن، ويحرمهن من المطالبة بحقوقهن في ظل غياب أي إطار قانوني يكفلها لهن إن لم ينجح الزواج، على نحو ما وقع معي. ونظرًا إلى تعاظم أعداد المسلمين في الغرب، أصبح من المهم إنشاء مراكز استشارية رسمية تضم في أطقمها عاملين مؤهلين وعلى دراية بالنفسية المسلمة والغربية، إضافة إلى الشريعة والقوانين الغربية للأسرة.

إننا أيضًا في حاجة ماسة إلى أندية إسلامية تيسر التواصل بين المسلمين، مثل (نادي الرّوم). إن من شأن الأعداد المتزايدة من المسلمين في الغرب أن يفيدوا من هذه المؤسسات والأندية، ولا سيما أنهم يعانون التمييز داخل

المجتمع الغربي الذي يعيشون فيه، وكذلك من مختلف الجاليات المسلمة التي تعيش في الغرب. وفي أغلب الأحيان، يجد الوافد الجديد على الإسلام نفسه وحيدًا وسط كمٍّ هائل من الايديولوجيات والمدارس الدينية، في الوقت الذي تظل فيه المساعدة التي تقدمها المساجد محدودة جدًّا. إن هذه العوامل تجعل من معتنقي الإسلام في حيرة من تحديد هوية خاصة بهم، ولا تساعدهم على الثبات في ممارستهم للدين، إضافة إلى احتمال وقوعهم فريسة سهلة للتأويلات المضللة لتعاليم الدين. وأشعر شخصيًّا بأني كنت جد محظوظة لأني التقيت كبار المعلمين خلال رحلتي في الإسلام، وتعلمت على أيديهم، وقد ساعدني ذلك كثيرًا على أن أجد طريقي وأجوبة لأسئلتي، وأبدّد كل ما كنت أحمله من حيرة وارتباك. ثم إن ذلك شجعني أكثر وقوّاني على طريقي الإيمانية. وقد ألهمني الشيخ هيثم تميم، وهو أحد أولئك المعلمين، خلال دورة تدريبية نظمتها (مؤسسة أترج)، أن أواظب على صلاة الفجر في وقتها، وأن أؤدي صلاة التهجد مرة في الأسبوع، حيث كنّا نصلي جماعة عند الساعة الرابعة صباحًا، وكنت بعد تلك الصلاة أُفاجأ بالحيوية والنشاط اللذين يدبان فيّ بعدها، واللذين كانا يرافقاني طوال اليوم. إضافة إلى ذلك، نصحنا بأن نطهر أموالنا. ومن ذلك أن نجتنب الربا ما استطعنا؛ لأن الأمر بتحريمه ورد في القرآن الكريم صراحة. ولما أردت العمل بنصيحته، وطلبت من البنك (المصرف) الذي أتعامل معه أن يحول حسابي الذي يستفيد من الفائدة البنكية إلى حساب عادي، شجعتني الموظفة، وكانت معتادة على التعامل مع زبائن مسلمين، على ذلك، وقالت لي: «مع تقدمنا في السن، نجنح إلى اتخاذ قرارات تتلاءم أكثر مع معتقداتنا». لقد أبدت لي بذلك تفهمها، وقدمت لي المشورة عن الخيارات المتاحة لي. وقد اتصل بي عدد من المؤسسات المتخصصة في المالية الإسلامية كي أسهم في الترويج لخدماتها، وسيتعيّن عليّ أن أدرس تلك الإمكانات أكثر؛

ذلك أن روح المالية الإسلامية، التي تحرم الربا والمضاربات المالية، هي في الحقيقة النجاعة في إدارة الموارد على المستويين الاجتماعي والبيئي في مجالات قطاع الأعمال كلها. إنها مقاربة شمولية من شأنها أن تسهم في أفكار مفيدة فيما يخص التعامل مع الأزمة المالية العالمية. وفي رأيي، فإن هذه التعاليم التي نصّ عليها الإسلام، وممارسة هذا الدين، وإخوتي في الدين من أكبر النعم التي حظيت بها في حياتي.

أشعر الآن فقط، وبعد مشوار طويل وعصيب قادني أخيرًا إلى الاندماج التام في متطلبات ديني، أن حياتي الخاصة والمهنية، وهويتي الإسلامية والغربية منسجمتان تمامًا بعضهما مع بعض. إني اليوم أحمل هذين العالمين معًا في داخلي، وآمل في أن أعيش وأعبّر عنهما معًا، وأن أمد جسورًا بينهما.



إن الإسلام دين لكل زمان ومكان، كما نصّ على ذلك القرآن الكريم. وهذا يعني أنه من الممكن تفسيره والعيش وفق تعاليمه بطرق مختلفة. ومن البدَهي أني بصفتي أوروبية لا يمكنني أن أعيش بحسب ما يمليه كل محيط إسلامي حول العالم. ذلك أن ثقافة البوسنيين والأتراك مختلفة عن الأفغان والباكستانيين، وأن عاداتهم ليست نفسها عادات السوريين أو المغاربة. ثم إن أوروبا تحتضن كثيرًا من الطرق المختلفة لتطبيق الإسلام، وهي طرق تتنوع بحسب التفسيرات الثقافية والفقهية للدين. ومع ذلك، فإن ما يوحد المسلمين في دينهم هي أركان الإسلام الخمسة، وهي: الفرائض والمبادئ الأساسية للإيمان المتمثلة في الإيمان بالله في وحدانيته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وهي مبادئ العقيدة، إضافة إلى مكارم الأخلاق، مثل برّ الوالدين، وطلب العلم،

والصدق، والأمانة في التعاملات المالية، والتأدب في التعامل مع الجنس الآخر.

وتجدر الإشارة إلى أن كثيرًا من الآراء والتفسيرات الفقهية هي محط أخذ وردّ بين مختلف المدارس، دون أن تنفي أي منها الأخرى. كما أن هناك تيارات وإيديولوجيات متعددة في الإسلام، منها ما هو حر في، ومنها ما هو اجتهادي، ثم ما يرمي إلى التركيز على المبادئ الباطنية للدين ومقاصد الشريعة. وهكذا، يصبح من الصعوبة بمكان بالنسبة إليّ بصفتي مسلمة أوروبية أن أتبين أي تلك الآراء أتبع، وكيف أقوم بالامتثال لديني على أكمل وجه أينما كنت. إن ذلك يقتضي كثيرًا من البحث والسؤال والتحليل، إضافة إلى قوة الإرادة والالتزام الجدي. إن ما أصبو إليه هو أن أجد طريقة أستطيع من خلالها التوفيق بين تعاليم ديني ومبادئه الأخلاقية ومع فهمي الأوروبي للحياة، حتى أتبنى ما يبدو لي الصواب والحسن كما جاء في الذكر الحكيم: (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ) (سورة الزمر: الآية 18). وفي الوقت نفسه، أحاول أن أتعامل باحترام وليونة مع الثقافة التي أجد نفسي فيها. وفي حقيقة الأمر، فإن ذلك مسؤولية تقع على عاتق كل مسلم، بصفة شخصية، أن يختار الإسلام عن وعي وإدراك، سواء ولد مسلمًا، أو اعتنق هذا الدين خلال حياته، وسواء كان في الشرق أو في الغرب؛ لأن الدين والإيمان لا يورثان. وعلى كل إنسان أن يسأل ليعرف كيف يمكنه أن يعيش تعاليم الإسلام الكونية في الإطار الزماني والمكاني لحياته الخاصة، وأن يسعى إلى تزكية نفسه، ثم يبني قيمًا مشتركة مع غيره، ويعمل معهم من أجل المصلحة العامة.

إن القيم الغربية، مثل الديمقراطية، وعلوّ كلمة القانون، وحقوق

الإنسان، وحرية الممارسة الدينية، والتعليم، والرعاية الصحية، والحفاظ على البيئة قيم إسلامية أيضًا. ومن الإنصاف القول إن الغرب يوفر لهذه القيم حماية أكثر من تلك التي تحظى بها في البلدان ذات الأغلبية المسلمة. وقد أشار العالم محمد أسد في القرن الماضي بمرارة، قائلًا: «إن مبادئ الإسلام حاضرة بقوة في الغرب ولكن المسلمين فيه قليلون، وفي الشرق هناك الكثير من المسلمين لكن مبادئ الإسلام محدودة التطبيق.». وآمل أن تتغير الأمور إلى الأفضل في الشرق والغرب، إن شاء الله تعالى.

ويجب ألا ننسى، نحن أتباع أبرز الديانات في العالم، أن ما يوحّدنا أكثر بكثير مما يفرقنا. ومن ذلك بلداننا الأصلية، وتاريخنا الديني، ومسؤوليتنا السياسية، وقيمنا الأخلاقية. وأهم من ذلك كله، هو الميثاق الذي يربطنا بالله عزّ وجلّ. إن من واجبنا أن نركز على هذه النقاط التي تجمعنا، في احترام تامٍّ لاختلافات كلٍّ منّا عن الآخر، وهو بالتحديد ما يدعونا الذكر الحكيم إلى فعله:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ) (سورة آل عمران: الآية 64).

ويمكن إجمال «كلمة سواء» في القاعدة الذهبية التي تنصّ على معاملة المرء الآخرين بمثل ما يحب أن يُعامل به هو. إنها حكمة تؤكد عليها الديانات والفلسفات كلها. كما أنها في صلب الميثاق العالمي للتراحم الذي أطلقته عالمة مقارنة الأديان البريطانية، كارين أرمسترونج، سنة 2009م؛ وهي مبادرة تهم الأديان كلها، وتدعو إلى تطبيق القيم الأخلاقية المشتركة بينها لتعزيز التفاهم بين معتنقي مختلف الأديان في العالم، وتصبو إلى أن تلهم الشعوب لتتبنى قيمًا، مثل الرأفة والتراحم، إضافة إلى معاملة الناس

بمثل ما يحب المرء أن يُعَامَل هو. إننا في حاجة إلى أن نتحلى ونستثمر في هذه القيم الأساسية المشتركة، ونعمل معًا على نحوٍ بنّاءٍ، في ظل المعروف وبعيدًا عن المنكر، حتى نطبق هذه الأخلاق في كل المجالات، الاقتصادية منها والسياسية والعلمية والفنية والبيئية، ولمواجهة العنف وإحلال السلام والحب والعدل. إن المستقبل ملك للمجتمع الذي يتمتع بالدينامية والتعدد في كل مكوناته، وحيث يجد المواطنون من الديانات والثقافات كلها بأنهم في بلدهم، ويحترمون ويتعلمون كيف يحبون بعضهم بعضاً [(1)]. ثم إن حبّ الجار، أي الآخر أمر نصّ عليه الإنجيل صراحة، بغض النظر عن العرق ولون البشرة.

أما في القرآن الكريم، فقد جاء قوله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (سورة المائدة: الآية 48).

ويدعونا الرومي إلى التفكر، قائلًا:

في يوم البعث سيسألنا الله عزّ وجلّ،

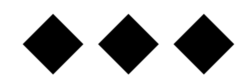
«في تلك المهلة التي أعطيتكم،

ما الذي أعطيتموني؟

وما العمل الذي بلغتم نهاية حياتكم؟»

أما الدكتور سيد حسين نصر، فقال:إن الله تعالى لا يتوقع منّا أن نقوم بما لا نقدر على القيام به، لكنه يتوقع منّا أن نقوم ما نطيق القيام به.»

لقد كان من حسن حظي أنه تيسَّر لي سماع هذا الفيلسوف والعالم الإسلامي يتحدث عن التصوف خلال تجمع لأتباع طريقته نُظّم في كندا سنة 2011. وقد قضيت أيامًا رائعة في الاستماع إلى محاضرات مهمة عن علم الباطن والحب في التراث الإسلامي والحياة الروحية، ألقاها عدد من المحاضرين الأجلاء. وقد شاركت أناسًا يشاركونني وجهات نظري في الصلاة والذكر والتفكر في أحضان طبيعة غنّاء. لقد أحيت تلك التجربة روحي، وأعادت توجيه بوصلتي نحو الحياة الروحية. وأهم ما في الأمر أنها أعانتني على العودة إلى المواظبة على الذكر، وهو الأمر الذي لم أتمكن من العودة إليه على نحوٍ كامل بعد تجربة زواجي المريرة. لكني اليوم سعيدة؛ لأني أستطيع أن أقول إني وجدت السعادة والسلام في الذكر، وأني، بتوفيق من الله عزّ وجلّ، يمكنني أن أستأنف السير الحثيث على الطريق إليه جلّ وعلا.



(وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (سورة يونسن: الآية 25).

لقد استغرقت في بحثي عن الصراط المستقيم وقتًا طويلًا، وسلكت فيه سبلًا شتى. إن ذلك الطريق إنما هو الإسلام لله تعالى والإيمان به والإحسان في عبادته عزّ وجلّ، أي أن «تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [1]. وهو يعني التحلي بأفضل سلوك ممكن، وحبّ وفعل ما يحبه الله تعالى. قال عزّ من قائل في الآية 31 من سورة آل عِمران، وهو يوجه السؤال إلى معشر المؤمنين على لسان رسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (سورة آل عمران: الآية 31).

إن بيت القصيد هنا هو اتباع الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، ليس فقط في حركاته وسكناته، بل في أحواله وأخلاقه، وهو الذي وُصِف بالخُلق العظيم. وقد صرح صلى الله عليه وسلم بنفسه قائلًا: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [(2)]، وكان عليه الصلاة والسلام أخلاقًا من الحلم والحكمة والتقبل والرحمة والتحمل والرأفة تمشي على الأرض. وكان عليه السلام يجتنب الصدام، ويسعى في السلم والعدل والتصالح [(3)].

إن هذه التعاليم الأخلاقية والروحية، هي دافعي ومصدر إلهامي الدائمين على الطريق إلى الحق سبحانه وتعالى. لكن صلاتي لله طوال سبعة عشر عامًا مراتٍ عدة في اليوم، سائلة إياه أن يهديني الصراط المستقيم، لا تعني أني قد بلغت مُرادي؛ فرحلتي مستمرة والتحديات التي ألاقيها خلالها لا نهاية لها. كما أني ما زلت أحيانًا أمرّ بأوقات أكون فيها غير راضية عن تقصيري. عندها أسال الله المغفرة، وأتعهد بأن أحاول أن أكون أفضل بجد أكبر. وحين أتوقف اليوم وأفكر أحيانًا أجد أن اعتناقي الإسلام في سن الثلاثين كان إنجازًا حقيقيًّا، وأن الإقدام على تلك الخطوة غيّرت حياتي. إن ما بدا وكأنه مغامرة في أحضان ثقافة غريبة بدافع الحب، تحوّل إلى التزام فكري بنظام قيم الإسلام وفلسفته، ليصير فيما بعد تحوّلًا جذريًّا طال كل كياني وقلبي وجسدي وروحي. لقد كان تغيري الداخلي محفوفًا بتحديات خارجية لم أكن أتوقعها، أو أحسب لها حسابًا. وما أن زرعت بذرة الإيمان حتى أنبتت نبتة صغيرة تلاعبت بها الرياح يمنة ويسرة، وصبرت للزخات والأمطار والثلوج على أمل أن تحظى بشعاع شمس حتى تتفتح أزهارها. وكلما سقيتها بالمواظبة على الذكر والتفكر في الله، قوّاني إيماني في مواجهة الصعوبات التي واجهتها. وكلما حثثت السير على طريق الله، حفّتني نعمه، وتقوّى إيماني مثل شجرة ثابتة لا حيلة للريح في

تحريكها، وهي الشجرة التي أثمرت، فجنيت منها رضًا وهداية وطمأنينة. إن كل من يبحث عن دين يمكنه ممارسته في حياته اليومية وعن أجوبة لأسئلته الأساسية، مثل: من أين أتينا؟ وما الغاية من هذه الحياة؟ وما هو مآلنا؟ فسيجد في الإسلام طريقًا رائعة، على الرغم من أن الديانات كلها أوجدها البارئ كي تجيب عن هذه الأسئلة كذلك. لقد أثر الإسلام فِي أعماقي، وصرت أسيرة له. إن الصلاة وذكر الله يصلاني بمصدر قوتي، ويزجّان بي في حضرة البارئ عزّ وجلّ. إنهما طريقي إلى الجنة، حيث الحق والجمال والرحمة والسلام والحب. وفي نهاية المطاف، فإن علاقتنا بالله جلّ وعلا هي مدار الأمر، وأن نطهر نيّاتنا وقلوبنا، قبل أن يأتي (يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (سورة الشعراء: الآيات 88-89).

إن حلاوة مذاق الحليب والعسل صورة عن القلب الطاهر؛

فمن ذلك القلب تنبعث حلاوة كل شيء حلو

الرومي

المثنوي، الكتاب الثالث، 2265





كريستيانا باكر في جبال الهملايا في باكستان عام 1994.



مام الحرم الشريف عند أداء فريضة الحج   مسجد باد

شاهي، مدينة لاهور، 1992..



في الطريق إلى غار حراء.



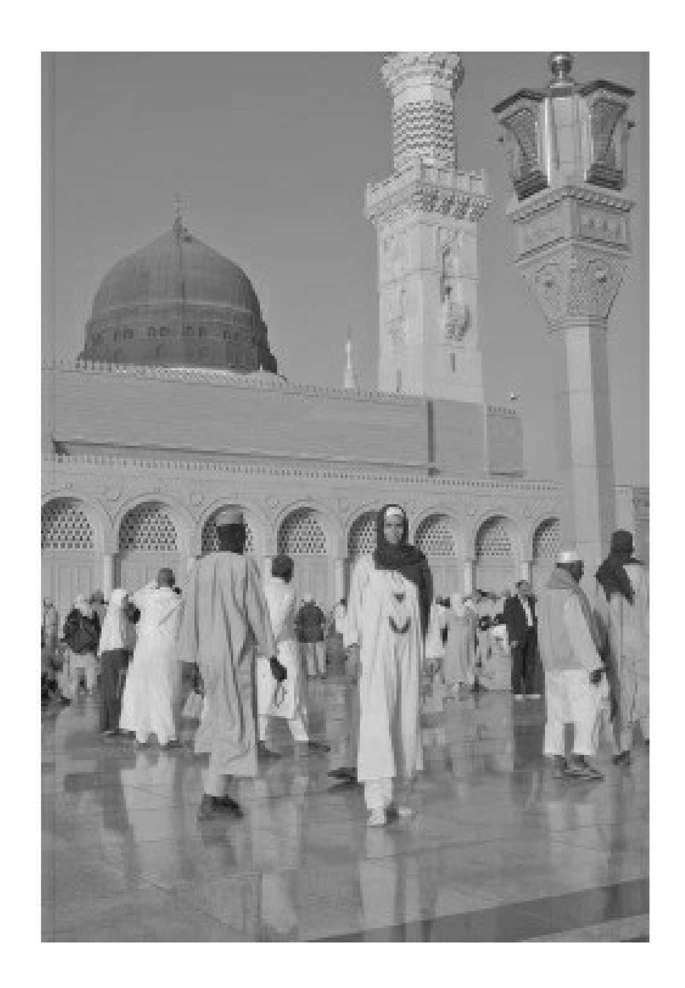
تكية بلاجاى (الدراويش) في مدينة موستار في البوسنة.



عمران وموبي.



د. أمينة مع السيد إمام والسيد عزيز في عرفات.



في المدينة المنورة

---

[1] البوفيه.

[1] ألبوماته..

[1] http://www.kensingtonmcc.org

[1]تختم كارين أرمسترونج السيرة الثانية التي كتبتها حول الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، تحت عنوان: «محمد: نبي لزماننا» بنداء توجهه للمسلمين والغربيين بأن «لا يتكفوا بتحمل بعضهم البعص بل أن يقدروا بعضهم البعض.»وتضيف: «يمكن لمحمد أن يكون نقطة بداية هذا التقدير... هذا الرجل الذي كان يتمتع بعبقرية راسخة وأسس ديانة وثقافة ليس على أساس السيف، بل اسمها الإسلام، أي السلام والمصالحة.»

(الصفحة 214).

[(1)] صحيح البخاري.

[(2)] رواه أحمد.

[(3)](روح التسامح في الإسلام)، لرضا شاه كاظمي.